باسكال مرسييه

قطار الليل إلى لشبونة

8.6.2019

رواية

مسكيلياني

ترجمة: سحر ستالة

باسكال مرسييه

قطار الليل إلى لشبونة

ترجمة: سحر ستالة

مسكيلياني

قطار الليل إلى لشبونة

عنوان الكتاب الأصليّ
Nachtzug nach Lissabon
Pascal Mercier

الكاتب: باسكال مرسييه
عنوان الكتاب: قطار الليل إلى لشبونة
ترجمة: سحر ستّالة
مراجعة: محمّد الخالدي
تحرير: شوقي العنيزي ورضا الحسني

خط الغلاف: الفنّان سمير بن قويعة
تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان

ر.د.م.ك: 978-9938-833-64-5
الطبعة العربية الأولى: 2019

© Carl Hanser Verlag München 2004

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

مسكيلياني للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

«حيواتنا هي الأنهار التي تصبُّ في بحر الموت.»

جورج مانريك

«لقد خُلقنا جميعًا من قِطَع غير متجانسة ومن نسيج في غاية التشوّه والاختلاف. لكُلّ قطعة منه ولكلّ حلقة هويّتَها الخاصّة. إنّنا مختلفون عن ذواتنا أكثر من اختلافنا عن الآخرين.»

ميشال دي مونتان

محاولات (الجزء الثاني)

كُلّ فرد في حدّ ذاته متعدّد وغزيرٌ، كلّ فردٍ ذواتٌ مضاعفة. لهذا فإن المرء الذي يستنكر الهواء الخارجي ليس هو نفسه الذي يتلذّذ به أو يتألم بسببه. إنّ الناس خليطُ أجناسٍ متباينة في مستعمرة الوجود الواسعة، يفكّرون ويشعرون بشكلٍ مختلف.

فرناندو بيسوا

كتاب اللاطمأنينة

القسم الأوّل

الرحيل

(1)

عاديًّا، بدأ اليوم مثل كلّ الأيّام السّابقة. ومع ذلك، فلا شيء بعدَهُ سيظلّ على حاله في حياة ريموند غريغوريوس.

في الثّامنة إلاّ الرُّبع، وصَل غريغوريوس من رصيف الاتّحاد إلى جسر كرشنفلد الّذي يربط بين وسط المدينة والمعهد، مثلما دأب على ذلك طوال السّنة الدراسية، في الثامنة إلاّ الربع تمامًا.

لقد حدث مرّة أن تأخّر بسبب إغلاق الجسر، وفي نفس ذلك اليوم، بينما كان يُقدّم درس اللّغة الإغريقيّة، ارتكبَ خطأً لم يرتكبهُ مُطلقًا من قبلُ ولن يُكرّرهُ أبدًا في المستقبل.

شغَل هذا الخطأ جميع من في المدرسة أيّامًا وأيّامًا. وكلّما اتّسع النقاش حول الموضوع، زاد عدد المُعتقدين بأنّهم أخطؤوا السّمع. وفي النهاية شمل هذا الاعتقاد التلاميذ الذين حضروا الدّرس أنفُسَهُم. فلا أحد منهم يستطيع أن يتخيّل، هكذا وبكلّ بساطةٍ، أنّ موندوس كما كانوَا يسمّونه يمكن أن يرتكب خطأً في اللّغة الإغريقيّة أو اللاّتينيّة أو العبريّة.

نظر غريغوريوس إلى متحف بيرن التاريخيّ الماثل أمامه بأبراجه الحادّة، ثمّ رفع بصره إلى «الغورتن»، وخفضه بعد ذلك إلى نهر الآر بمياهه الخضراء المتجمّدة، فيما كانت الرّيح تعصف بشدّة وهي تطرُد من فوقه الغيوم المنخفضة وتتلاعب بمطريّته. وفي تلك اللّحظة لمح امرأةً في

منتصف الجسر. كانت مُتَّكئةً على الحاجز، تقرأ ما بدا له رسالةً، تحت المطر المنهمر بغزارة، وهي متشبّثةٌ بالورقة بكلتا يديْها. عندما اقترب منها غريغوريوس طوتْ الورقةَ فجأةً ودعكَتْها في شكلِ كرةٍ، وبحركةٍ عنيفةٍ رمَتْها في الفضاء. عندها اضطرّ غريغوريوس، لا إراديًّا، إلى أن يسارع في مشيته، حتّى أصبح على بعد خطواتٍ منها. لمح وجهها الشاحب، المبلّل بالمطر وقد علاه غضبٌ شديد. لم يكن من ذلك الغضب السّهل تصريفه في شكل صرخاتٍ عاليةٍ ما يلبث أن يتبدّد بعدها، بل كان غضبًا داخليًّا، غضبًا مكبوتًا ما يزال يحترق منذ فترةٍ طويلةٍ دون لهب.

في هذه الأثناء ظلّت المرأة متّكئةً على الحاجز، يداها ممدودتان وقدماها تحاولان الانزلاق من الحذاء... *ستقفز... إنّها ستقفز!*

وسرعان ما أسلم غريغوريوس مطريّته للرّيح فوق الحاجز وألقى دون أن يشعر محفظتَه المحتشدة بكرّاسات التلاميذ على الأرض، وأطلق صوته بسلسلةٍ من الشتائم لم تكن تنتمي يومًا إلى قاموسه المألوف.

فُتحت المحفظة وانزلقت منها كُرّاسات التلاميذ فوق الإسفلت المبلّل، فاستدارت المرأة وبدأت تتأمّل، للحظاتٍ ودون أيِّ حراك، الدفاتر التي أخذت تسودّ في الماء. ثمّ تناولت قلمًا جافًّا من جيب معطفها وتقدّمت خطوتين صوب غريغوريوس، وكتبتْ على جبينه سلسلةً من الأرقام، وقالت وهي تجهد للتنفّس بفرنسيّةٍ غريبةِ اللّكنة:

«المعذرة... فلستُ أحمل أيَّ ورقةٍ ولا يجب أن أنسى رقم هذا الهاتف»

أخذت تنظر إلى يديْها وكأنّها تراهما للمرّة الأولى... ثمّ أضافت:

«طبعًا، كان يمكن أيضًا أنْ...»

وجالت ببصرها من جبين غريغوريوس إلى يدها التي سجّلت على ظهرها الرقم في تلك اللّحظة.

«لا... لا أريد أن أتذكّر. أريد أن أنسى كلّ شيء.. لكن، كان يجب أن ألتقط الرّسالة عندما رأيتُها تسقط».

كانت الأمطار تضرب نظّارة غريغوريوس السَّميكة وتحجب عنه الرُّؤية وهو يتحسَّس مُرتبكًا كُرّاسات تلاميذه المبلَّلة.

خُيِّل إليه للحظةٍ أنّ القلم الجافَّ انزلق من جديدٍ على جبينه، لكنّه سرعان ما تبيَّن أنّه لم يكن سوى إصبع تلك المرأة وهي تحاول مسح الأرقام بمنديل.

«هذا غير لائق... أنا أعرف» قالت ذلك وهي تساعد غريغوريوس في جمع الكرّاسات. لمس يدها ولامس ركبتها، وعندما همَّا معًا بالتقاط آخرِ كرّاسٍ اصطدَم رأسُه برأسها.

«شكرًا جزيلًا» قال غريغوريوس، وقد استدارا وجهًا لوجه، ثمّ أشار إلى رأسها قائلًا «هل تشعرين بألم»؟

فحرّكتْ رأسها في ذهولٍ تامٍّ نافيةً ذلك وقد غضَّت طرفها، والمطر مايزال منسابًا على شعرها، مُبلّلًا وجهها.

«هل يمكنني أن أسير معك بضع خطوات؟»

«آه.. نعم بكلّ تأكيد» تمتم غريغوريوس..

سارا معًا في صمتٍ حتَّى بلغا آخرَ الجسر، ثمّ اتّجها نحو المعهد. إحساسُ غريغوريوس العميقُ بالزمن أنبأه بأنّ الساعة الآن تجاوزت الثامنة صباحًا وأنّ الحصّة الأولى قد بدأتْ. إلى أين تمضي به هذه الـ«بضع خطوات؟»

كانت المرأة قد تعوَّدت على مشية غريغوريوس، وها هي تهرول إلى جانبه وكأنّ ذلك سيدوم اليوم بأكمله. رفعت ياقة معطفها إلى أعلى، بشكلٍ جَعَل غريغوريوس لا يرى إلاّ جبينها.

«يجب أن أدخل من هنا، إلى المعهد» قال غريغوريوس وقد توقّف فجأةً، ثمّ أضاف: «أنا أستاذ»

«هل بإمكاني مرافقتك؟» سألَتْهُ المرأةُ بلُطف.

تردّد غريغوريوس ومسح بظاهر كُمِّه نظّارته المبلَّلة، ثمّ قال أخيرًا:

«على كلّ حال، سنحتمي هنا من المطر» وصعدا الدرج معًا، ومعطفاهما يَقْطُران.

فتح لها باب الردهة التي بدت خاليةً وهادئةً مع بداية الدّروس.

«انتظري هنا» قال غريغوريوس وتوجَّه إلى الحمّام للبحث عن منشفة.

وقف أمام المرآة، جفَّف نظّارته، ومسح وجهه، غير أنّ الأرقام ظلّتْ ظاهرةً على جبينه. فبلَّل طرف المنشفة بالماء السَّاخن وهمَّ بالفَرْكِ لكنّه توقّف فجأةً... *كانت تلك هي اللَّحظة التي حسَمتْ كلّ شيء..* هذا ما سيقوله في نفسه لاحقًا وهو يفكّر فيما حدث.

في الواقع، لقد فهم فجأةً أنّ آثار لقائه بتلك المرأة الغامضة لا تريد أن تَمّحي.

تخيّل نفسه في قاعة الدَّرس، أمام تلاميذه، وعلى جبينه يتربّع رقمُ هاتفٍ غريب. وهو من هو! موندوس، الرّجل الأكثر أمانةً وتقديرًا في هذه البناية، بل في تاريخ المدرسة بأسرها دون شكّ. إنّه موظَّف هنا منذ

ما يزيد عن ثلاثين سنة. ويُعَدُّ دعامةً من دعامات هذه المؤسسة، وعلى الرغم من أنّه يبدو مُملاًّ بعض الشيء، فإنّه كان يحظى باحترام الجميع. بل ويهابه كلّ أستاذ في الجامعة المقابلة للمعهد لاطّلاعه المذهل على جميع اللّغات القديمة، حتّى إنّ تلاميذه كانوا إذا أرادوا ممازحته يعمدون إلى مهاتفته في منتصف اللّيل ليطلبوا منه توضيحًا افتراضيًّا حول مقطعٍ مُهمَلٍ وسط نصّ غابرٍ قديم، ليس من أجل الفهم بل من أجل الظفر بتلك الإجابة الفوريّة المصحوبة بتحليلٍ نقديٍّ لآراء أخرى ممكنة.

كلّ ذلك كان يَعْرِضُه غريغوريوس دفعةً واحدة وبهدوء لا يَشي بأدنى شعور بالغضب أمام إزعاجهم له.

هذا هو موندوس[1] باسمه الغريب والقديم، موندوس باسمه العتيق الذي فرض على الجميع ضرورة اختصاره، ولم يكن بالإمكان فعل ذلك بأيِّ شكلٍ آخر. لأنّه ببساطة اختصارٌ يسلّط الضّوء على طبيعة هذا الرّجل، ولا وجودَ لكلمةٍ أخرى كفيلة بالتعبير عنه. فلا شيء يحمله في داخله، وهو العالم بفقهِ اللّغة، أقلّ من عالم بأكمله، بل من عوالم عديدة بأسرها.

كان يحفظ عن ظهر قلب النّسخة العبريّة لكلّ مقطعٍ من الكتاب المقدّس باللّغة اللاّتينية أو الإغريقية، وهو ما أثار أكثر من مرّةٍ دهشةَ كثيرٍ من أولئك الّذين يعتلون منبر العهد القديم.

وقد اعتاد المدير أن يقول كلّما أراد أن يقدّمه أمام صفٍّ جديد: *«إذا أردتم رؤيَةَ عالِمٍ حقيقيٍّ، فها هو أمامكم»*

---

(1) يجب أن نلفت الانتباه هنا إلى أنّ الكاتب يركّز على دلالة كلمة موندوس Mundus التي تعني: العالَم، ومنها ينتقل إلى عبارة العالِم le Savant. (المترجمة).

وهذا العالِـمُ، ردّد غريغوريوس بينه وبين نفسه في هذه الأثناء، هذا الرّجل الجافّ الذي كان يبدو للبعض مخلوقًا من مفرداتٍ ميّتة، هذا الرّجل الذي كان يلقبّه بعضُ زملائه الغيورين من شَعْبِيَّته *بالبَرديّة*[1]... هذا العالِـمُ سيدخل الآن قاعةَ الدرس برقم هاتفٍ كتبته على جبينه امرأةٌ يائسة ممزّقة على نحو ظاهرٍ بين الغضب والحبّ... امرأة ترتدي معطفًا جلديًّا أحمر، ولَكِنّتُها الجنوبيّة ناعمةٌ بشكلٍ خرافـيٍّ، كهمسٍ لا نهاية لرقّته، همس يجعلك مجرّدُ الاستماع إليه متورِّطا في حُبّه.

عندما جلب لها غريغوريوس المنشفة وضعت المرأةُ مُشْطًا بين أسنانها وفركَتْ بالمنشفة شعرَها الأسود الملفوف في ياقة قميصها كما لو أنّه لُفَّ في وشاح.

دخل الحارسُ القاعةَ، وعندما لمح غريغوريوس ألقى نظرةً ذاهلة على الساعة المعلَّقة فوق باب المخرج ثمّ على ساعته اليدويّة، وكالعادة أومأ إليه غريغوريوس برأسه. مرّت أمامهم تلميذةٌ مسرعة والتفتَتْ مرّتيْن وهي تجري ثمّ واصلَتْ طريقَها.

«إنّني أقدّم دروسي هناك. فوق» قال غريغوريوس، للمرأة مُشيرًا عبر النافذة إلى جهةٍ أخرى من المبنى.

مرّت بضع ثوان أحسّ خلالَها بدقّاتِ قلبه تتسارع، ثمّ أضاف:

«هل تأتين معي؟»

لاحقًا لن يُصدِّق غريغوريوس أنّه قال ذلك فعلًا. لكن كان يجب أن تسير الأمور على هذا النحو. لينتبه فجأةً إلى نفسه وهو يمشي جنبًا إلى جنب مع تلك المرأة باتّجاه الفصل.

---

(1) البرديّة: نسبة إلى ورق البردي القديم. (المترجمة).

كان يسمع صرير نعلها المطّاطي على مُشمّع الأرضية واصطكاك حذائها كلّما وضعتْ قدَمها على الأرض.

سبق له أن سألها: «ماهي لغتك الأمّ»؟

وأجابت «*البرتغاليّة*» «*Português*».

كانت طريقةُ نُطْقِها لحرف «*o*» مدهشةً، فهي تلفظه تمامًا مثل «*ou*». أمّا نبرتُها الشفّافة، المختنقة بـ «*ê*» والناعمة بـ «*ch*» فقد ذابتْ كلُّها في لحنٍ ظلَّ يضِجّ في نفسه طويلًا وبقي ممتلئًا به كامل النهار.

«انتظري»، قال ذلك، ثمّ سحب من جيب سترته دفترًا تناول منه ورقةً وقدّمها إليها: «هذه من أجل الرقم».

كان مُمسكًا بمقبض الباب عندما طلب منها أن تُعيد على مسامعه الكلمة التي قالتها منذ قليل. ففعَلَتْ. وكانت تلك المرّة الأولى التي يلمح فيها ابتسامتها.

توقّف الجميع عن الثرثرة عندما دخل غريغوريوس ومرافقته إلى القاعة. وعمَّ المكانَ صمتٌ فضوليٌّ مَشُوبٌ بدهشةٍ عارمة، وقد تفطَّن غرغوريوس فيما بعد إلى أنّه كان مُستمتعًا بذلك الصّمتِ المتفاجئ وبتلك الرّيبة الصّامتة التي ينطق بها كلُّ وجه. تلذَّذ أيضًا بقدرته على استشعار كلّ ذلك بشكلٍ لم يعتقد يومًا أنّه سيصل إليه.

«ما الّذي يحدث إذن؟»

ولكنّ السّؤالَ ذاتَهُ كان يفيض من النظرات المحدِّقة في الثنائي الغريب الواقف عند الباب، النظرات المتفرّسة في موندوس بصلعته المبلّلة ومعطفه الأسود وهو واقفٌ إلى جانبِ امرأةٍ غريبةٍ بتسريحةٍ سريعة ووَجْهٍ شاحب.

أشار إليها غريغوريوس بأن تجلس على كُرسيٍّ في ركنٍ آخرَ القاعة. ثمّ تقدّم، وألقى التحيّة كعادته وجلس بعد ذلك إلى مكتبه.

لم تكن لديه أدنى فكرة عن التفسير الّذي يمكن أن يقدِّمه لكلّ ما يحدث، فقام ببساطة وشرع في ترجمة النصّ الذي كان بصدد الاشتغال عليه مع تلاميذه. جاءت الترجمات مرتبكة. وها هو يلتقط مرّةً أخرى أكثر من نظرةٍ فضوليّةٍ إلى جانب النظرات الأخرى الحائرة. فبعد أن كان، وهو من هو، موندوس، يستشعر الخطأ نائمًا، إذ به يجد نفسه الآن في حالةِ سهوٍ عن سلسلةٍ من الأخطاء والتخمينات والحماقات.

وأخيرًا نجح في التظاهر بتجاهل المرأة. ورغم ذلك، ظلّ يسترق النظر إليها في كُلّ لحظة. ينظر إلى خصلات شعرها المبلَّلة وهي تُزيحها عن وجهها، إلى يديْها البيضاوَيْن المضمومتيْن، وإلى نظرتها الغائبة التائهة والهاربة عبر النافذة. ظلّ يتأمّلها حتّى اللّحظة التي تناولت فيها قلَمَها الجاف وكتبَتْ رقم الهاتف على الورقة التي قدّمها لها منذ قليل. ثمّ استندت مُجدّدًا إلى الكرسيّ وبدتْ كأنّها تجهل تمامًا أين كانت...

كان وضعًا حرجًا بدا فيه غريغوريوس متوتّرًا وهو ينظر إلى ساعته. عشر دقائق تفصلنا عن فترة الاستراحة. في الأثناء وقفت المرأة وسارت بهدوء نحو المخرج، ثمّ التفتَتْ إلى غريغوريوس من شقِّ الباب الموارب ووضعت سبَّابتها على شفتيها علامةً على التزام الصّمت. أومأ لها مبتسمًا، فكرّرت الحركة ثمّ أغلقت الباب، ولم يسمع بعدها إلاّ صوت طقطقة الترباس.

منذ تلك اللحظة لم يعد يسمع غريغوريوس شيئًا ممّا كان يقوله التلاميذ. شعر بنفسه وحيدًا ومحُاطًا بصمتٍ رهيب. وقف عند النافذة

وظلّ يحرسُ بنظره الخيالَ الأنثوي الأحمر حتّى اختفى في الزقاق. أحسّ أنّ بإمكانه تقديم مجهود أكبر كي لا يتعرّض إلى اللّوم، وظلَّ يسترجع في ذاكرته صورةَ المرأة وهي تضع سبَّابتها على شفتيْها. ماذا كان يعني كلّ ذلك؟ *«لا أريد أن أُزعجك» «سيظلّ هذا سرًّا بيننا»* ولكن أيضًا: *«دعني أرحل الآن... لا يمكن لكلّ هذا أن يستمر.»*

كان لا يزال أمام النافذة عندما رنَّ جرس الاستراحة. ومن ورائه كان التلاميذ يخرجون في هدوء دون أن يُحدثوا جَلَبَتهُم المعتادة.

لاحقًا غادر هو أيضًا المبنى من الباب الخلفيّ واحتمى بالجهة الأخرى من الطريق، حيث توجد المكتبة الوطنية، فهناك لن يخطر ببال أحد أن يبحث عنه.

عاد في الوقت المحدّد والمعتاد لمتابعة الجزء الثاني من الحصّة، بعد أن مسح الأرقام من جبينه ونقلها على دفتره إثْرَ دقيقةٍ من التردّد. جفّف شعره الأبيض ولكنّ البقع المبلّلة على سترته وبنطاله كانت تشي بحدوث شيء مّا غير عادي.

أخرج من محفظته كومة الكرّاسات المبلّلة، وقال باختصار:

«إنّه مجرّد حادث. تعثَّرتُ فانزلقت الكرَّاسات وتبلَّلت. لكنّ التصحيحات تبدو قابلة للقراءة وإلاَّ فإنّكم مضطرُّون للعمل وفق تخميناتكم الخاصّة.»

لقد عاد الأستاذ الذي يعرفونه. فعمّ أرجاء القاعة الشعور بالارتياح. كان من حين إلى آخر يستشعر نظراتٍ فضوليّةً وبقايا خجلٍ في أصوات بعضهم، وما عدا ذلك فلا شيء تغيّر. كتب على السبّورة الأخطاء الأكثر شيوعًا، ثُمّ ترك التلاميذ يعملون في صمت.

ولكن، هل يمكن أن نُسمّي ما سيحدث له خلال الدقائق الخمس عشرة القادمة بـ «القرار الحاسم؟» ذلك ما سيظلّ غريغوريوس يفكّر فيه لاحقًا دون أن يظفر بإجابةٍ مقنعة. ومع ذلك، فإن لم يكن «قرارًا حاسمًا؟» فما عساه يكون إذن؟

بدأ كلُّ شيء عندما نظر فجأةً إلى تلاميذه المنكبّين على كرّاساتهم. نظر إليهم وكأنّه يراهم للمرّة الأولى:

لوسيان فون قرافنريد الذي عمد إلى تغيير أحد الأحجار خلسةً أثناء مباراةٍ في الشطرنج واجه خلالها غريغوريوس اثني عشر تلميذًا. فبعد أن أتمّ اللّعب على رُقَعِ الشطرنج الأخرى توقّف أمامه مجدّدًا وكشفَ غشّه على الفور. نظر إلى الفتى الّذي اتَّقد وجهُه خجلًا وقال في هدوء: «لم تكن في حاجة إلى ذلك» ثمّ أنهى المباراة بالتعادل.

سارة ونتر التي وجدها ذات يومٍ أمام منزله في الساعة الثانية صباحًا لأنّها لم تكن تعرف إلى أين تذهب بحملها. فأعدّ لها الشاي واكتفى بالاستماع إليها ونُصْحها بإخلاص. وذلك ما أكّدته الفتاةُ بعد أسبوعٍ من هذا اللقاء:

«أنا سعيدة للغاية لأنّني تبعت نصيحتك، فما يزال الوقت مبكّرًا لإنجاب طفل»

بياتريس لاشر صاحبة الخطّ المتناسق الواضح، بياتريس التي بدأت تشيخ بشكلٍ رهيبٍ حاملةً عِبْء نتائجها الممتازة دائمًا.

رينيه زينغ الذي مازال يرزح تحت وطأة علاماته السيّئة.

وبالطبع ناتالي روبان الغيورة على حظوتها لدى الأستاذ، والشبيهة بآنسة راقية من العصور الغابرة، آنسة منيعة ومحبوبة يَهابُها الجميع بسبب

لسانها الحاد. في الأسبوع الماضي وبعد جرس الاستراحة تمطَّتْ كمن يشعر بالارتياح ثمّ أخرجت قطعةَ حلوى ونزعتْ عنها الغلاف، وعند مرورها أمام غريغوريوس عمدَتْ إلى تقريب قطعة الحلوى القرمزية من فمها، وبعد أن لامستْ شفتيْها التفتَتْ إلى غريغوريوس وناولته إيّاها قائلة: «هل ترغب فيها؟» ثمّ ضحكتْ ضحكتها النادرة الشفّافة وتعمَّدت ملامسةَ يدِه مُستمتعةً بذُهوله.

استعرض غريغوريوس في ذهنه كلّ هؤلاء وهو ينظر إليهم. في البداية شعر بأنّه كان يقيِّمهم انطلاقًا من إحساسه تجاههم، ولكنّه ما لبث أن تساءل حين وصل إلى منتصف الصفوف: *«أماتزال الحياةُ طويلةً أمامهم؟» «إلى أيّ حدّ ما يزال مستقبلهم واعدًا؟» وتساءل عن كلّ ما يمكن أن يحدث لهم وكلّ ما يمكن أن يعيشوه بعد ذلك.*

«البرتغاليّة».. ظلَّ رنينُ هذه الكلمة يتردّد في روحه وظلّ وجهُ تلك المرأة المُطلّ من خلف المنديل ماثلًا في مخيّلته أبْيَضَ كالمرمر.

ألقى نظرةً أخيرةً على تلاميذه، ثمّ نهض ببطء وسار نحو الباب. التقط معطفه من المشجب وغادر القاعة دون أن يكلّف نفسه عناء الالتفات...

ها هو يترك محفظته وكُتبَهُ بعد رفقةِ حياةٍ بأسرها. تركهما هناك على المكتب، ولكنّه سرعان ما توقّف في أعلى السلّم حين تذكّر أنّه كان يُجلِّد كتبه كلّ سنتيْن في نفس المحلّ الذي كان الجميع يسخر فيه من الصفحات المهترئة والمفتّتة التي تكاد تكون هشّةً كالنشّاف.

طالما أنّ المحفظة ستبقى فوق المكتب فسيعتقد التلاميذ أنّه سيعود. ولكن ليس هذا هو السبب الذي دفَعه إلى تَرْكِ الكتب ومُقاومةِ الرغبة

في الرجوع لأخذها. فإذا كان ينبغي أن يذهب الآن فعَلَيْه أن يترك كُتُبَه أيضًا. هذا ما أحسّ به بصفاءٍ لا مثيل له. وعلى الرغم من ذلك، وإلى حدود هذه اللحظة، وهو مُتَّجِهٌ نحو المخرج، فإنّه لم يكن يملك أدنى فكرةٍ عمّا يمكن أن تعنيه كلمة «الرحيل».

في الردهة، أمام المخرج، وقع نظرُه على بركةٍ صغيرةٍ تكوَّنت عندما كانت المرأة تنتظره حتّى يعود من الحمّام ومعطفُها يتقاطر. ولم يكن ذلك سوى أثر تركته زائرةٌ من عالم بعيد..

أخذ غريغوريوس يتأمّل البركة بنفس الخشوع الذي ينتابه أمام اكتشافٍ أثريّ. ولكنّه سرعان ما طرد الصورة من مخيّلته حين سمع وقع أقدام الحارس، وغادر المبنى مُسرعًا. ودون أن يلتفت، التجأ إلى إحدى الزوايا حيث يمكنه أن يُلقي نظرةً إلى الوراء دون أن يراه أحد، وفجأةً اكتشف كم هو متعلّق بهذا المكان وكم سيشتاق إليه. ثمّ أخذ يفكّر: مرّ اثنان وأربعون عامًا على دخوله المعهد وهو في الخامسة عشرة من عمره ممزّقًا بين الأمل والقلق. بعد أربع سنواتٍ تحصّل على شهادة البكالوريا، ثمّ عاد بعد أربع سنواتٍ أخرى ليعوِّض أستاذ اللّغة الإغريقية الذي ذهب ضحيّةَ حادثٍ، وهو نفس الأستاذ الذي فتح له أبواب العالم القديم. وأصبح الطالبُ أستاذًا مُعوِّضًا.. معوِّضًا على الدوام.

حين ناقش رسالة الدكتوراه بتحريض من زوجته فلورانس كان عمره ثلاثًا وثلاثين سنة آنذاك. وفي الواقع لم يكن يطمح إلى نيلها، بل كان يكتفي بالضحك كلّما طُرح عليه الموضوع... أمّا ما كان يهمّه حقًّا فهو الإلمام بالنصوص القديمة ودراسة تفاصيلها النحويّة والأسلوبيّة الدقيقة ومعرفة تاريخ كلّ عبارة، كما كان يهمّه أن يكون رجلًا طيّبًا، لا

بدافع التواضع -لأنّه لم يكن بحالٍ من الأحوال متواضعًا حيال ذاته- ولا بدافع الغرابة أو أي صفة أخرى قد تتعلق بالغرور، بل كان ذلك، وهو ما فكّر فيه لاحقًا، سخطًا صامتًا ضدّ عالَمٍ مغرور، تحدّيًا صلبًا أراد من خلاله أن ينتقم من مجتمع المتفاخرين الّذين عانى والده منهم طوال حياته لأنّه لم يستطع تغيير وضعه كحارس متحف.

وإذا كان غيره من الّذين لا يضاهونه علمًا يتحصّلون على شهادات تدريس وينالون بمقتضاها مراكزَ هامّة، فإنّهم كانوا في نظره ينتمون إلى عالم آخر، مجرّد سطحيّين بشكلٍ لا يُطاق، وكان يحتقرهم لصفاتهم تلك.

في المعهد لم تكن لدى أحدٍ نيّةٌ فصله عن العمل أو استبداله بمدرّس يفوقه شهادات. فالمدير وهو أيضًا متخصّص في اللغات القديمة يعلم جيّدًا إلى أيّ حدٍّ كان غريغوريوس كُفؤًا، بل أكثر كفاءةً منه شخصيًّا. وكان يعلم أيضًا أنّه لو حدث وتخلّوا عنه فإنّ التلاميذ سيثورون عليه.

عندما أجرى الامتحان في النهاية ، بدا له بسيطًا حدّ الاستهزاء به وقد أنهاه بعد نصف الوقت المقرر. وكان دائمًا يُلقي ببعض اللّوم على فلورانس لأنّها دفعته للتخلّي عن تحدّيه.

سار غريغوريوس ببُطءٍ نحو جسر كرشنفلد، وعندما تراءى له الجسر من بعيدٍ انتابه شعورٌ غريبٌ أقرب إلى الحيرة منه إلى الإحساس بالتحرّر: ها هو في السابعة والخمسين من عمره، ولأوّلِ مرّةٍ سيذهب لاستعادة حياته...

(2)

في المكان نفسِه، حيثُ وقفت المرأةُ ذاتَ يومٍ لتقرأ الرسالة تحت المطر الغزير، توقّف غريغوريوس ونظر أسفل الجِسر، فأدرك من أيّ ارتفاع كانت ستسقط. هل كانت تنوي القفز حقًّا؟ أم أنَّ خوفه كان سابقًا لأوانه حين تذَّكر في تلك اللّحظة أنّ شقيق زوجته فلورانس قد ألقى بنفسه هو الآخر من فوق جسر؟

لم يكن يعرف شيئًا عن تلك المرأة ولا حتّى اسْمَها. كلّ ما كان يعرفه فعلًا هو أنّ لغتها الأمّ هي البرتغاليّة. وعلى الرغم من أنّ مجرّد الطمع في رؤية الرسالة من أعلى الجسر، لا يعدو أن يكون غباءً محضًا، فقد ظلَّ يجول بنظره في الفراغ حتَّى أُجهد واغرورقتْ عيناه بالدموع. وتلك النقطة السوداء، أليست مطريّته؟ أخذ يفتِّش عن دفتره حيث دوَّن الرَّقم الذي كتبته المرأة المجهولة على جبينه. ثمّ مشى إلى آخر الجسر وهو لا يعرف إلى أين يمضي. لقد كان في هذه اللّحظة يفرّ من حياته الراهنة. ولكن ألا يمكن لرجلٍ بهذا الإصرار على الرحيل أن يتراجع عن قراره ويعود إلى منزله بكلّ بساطة؟

لمح فجأةً فندقَ «الواجهة الجميلة»، أعرق فنادق المدينة وأكثرها فخامة. كان غريغوريوس قد مرّ أمامه آلاف المرّات دون أن يفكّر في الدخول إليه، ولكنّه كان في كلّ مرّةٍ يشعر بوجودِه، فوجودُه وحده كفيلٌ، حسب ما جال بخاطره في تلك اللّحظة، بأن يكتسب أهميّةً خاصّةً

عنده، لذلك كان سيغتاظ كثيرًا لو عَلِم أنّ المبنى هُدم أو أنّه لن يظلّ فندقًا كما يشاهده الآن تمامًا. أمّا أن يحتاج يومًا ما إلى زيارة هذا المكان، فذلك ما لم يخطر بباله مُطلقًا.

تقدّم نحو المدخل بخُطى متردّدة. وفجأةً توقّفتْ سيّارة بنتلي ونزل منها السائق ثمّ اتّجه نحو الفندق، فتبعه غريغوريوس وهو يشعر بأنَّ ما يسعى إليه مبتَدع وممنوع.

كانت الردهةُ ذات القبّة الزجاجية الملوَّنة خاليةً تمامًا، وكان السُجّاد يمتصّ أيَّ ضجيجٍ، فغمر غريغوريوس الإحساس بالسعادة، لا سيّما بعد أن توقّف صوتُ المطر، وعاد معطفه جافًّا كما كان.

توجّه إلى غرفة الطعام وهو يجرّ حذاءه البشع الثقيل، فوجد الموائد مُجهّزةً لفطور الصّباح. كانت شاغرةً كلّها ما عدا اثنتين فقط، وكانت نغمات موزارت العذبة تتصاعد بهدوء وتبعث فيه الشعور بالابتعاد عن كلّ ما هو صاخبٌ وقبيحٌ وخانق. نزع غريغوريوس معطفه وجلس إلى مائدةٍ قرب النَّافذة. *«لا، لم أكن يومًا من روّاد هذا النُزل»* هكذا أجاب النّادل الذي كان يرتدي سترةً بُنّيةً فاتحة بعد أن تملّكه الإحساس بأنّه يكاد يلتهمه بعينيه: كنزة صوفيّة بياقة طويلة تحت سترة بالية، دوائر جلدية على الكوعين، بنطال من القطيفة المضلّعة مُحدَّب عند الركبتين، هالة شعر خفيفة تحيط بصلعة شاسعة، ولحية رمادية بخصلات بيضاء لطالما جعلته يبدو بهيئةٍ مهملة. وما إن ابتعد النادل حاملًا معه الطَّلبيّة، حتّى تحقّق غريغوريوس بحركاتٍ عصبيّةٍ من كونه يحمل مالًا كافيًا. ثمّ وضع مِنْكَبَيْه على المفرش المنشّى وغرق بنظره صوب الجسر.

من العبث أن يتمنّى ظهورها مرّةً أخرى هناك. لقد عادت حتمًا عبر الجسر، وغابت في إحدى شوارع المدينة العتيقة. كان يراها للمرّة الثانية جالسةً في آخر القاعة تُلقي نظرةً غائمةً عبر النّافذة، يراها عاقدةً يديْها البيضاوين. ومن جديدٍ أطلّ الوجه المرمريّ من وراء المنديل، مُتعبًا ومعطوبًا.

البرتغاليّة. تناهت إليه الكلمة مُجدَّدًا، وبعد فترةٍ من التردُّد أخرج الدَّفتر الصغير من جيبه ونظر إلى رقم الهاتف. قدم النادل حاملًا فطورَ الصَّباح في آنيةٍ فضيّةٍ . لكنّ غريغوريوس لم يكن موجودًا، ولا هو انتبه أصلًا إلى قهوته التي بدأت تبرد. وفجأةً توقّف وذهب نحو الهاتف. وما لبث أن استدار عائدًا إلى المائدة. دفع ثمن الطَّعام الذي لم يلمسه وغادر الفندق.

قبل عدّة سنواتٍ، زار المكتبة الإسبانية، على الجانب الآخر فوق الهيرشنغرابن. فقد كان فيما مضى يقتني، من وقت إلى آخر، كتابًا لفلورانس تحتاج إليه في أطروحتها حول جان دو لا كروا. كان يتصفَّح هذه الكتب في الباص أحيانًا، لكنّه لم يكن يفتحها في المنزل مُطلَقًا. فاللغة الإسبانية مملكة فلورانس وحدها. إنّها شبيهة باللاّتينيّة ومختلفة عنها في الآن ذاته. وذلك ما كان يعكّر مزاجه، ويثير حنقه بشدّة، فكيف يمكن للاّتينية أن تكون حاضرةً بكثافةٍ إلى جانب كلمات تُلفظ بأفواه اليوم، في الشارع، أو في السوق أو داخل المقهى؟ كيف يمكن أن تُستخدم لطلب كوكا كولا، وللمساومة أو للقسَم الزائف؟ كان يجد مجرّد التفكير في ذلك أمرًا لا يُطاق، وحين تجُول بباله الفكرة يرفضها فورًا وبشدّة. طبعًا، لقد كان الرومان أيضًا يُساومون ويُقسمون، ولكنّ الأمر مع الرومان

كان مختلفًا تمامًا. إنّه يعشق الجُمل اللاّتينيّة لأنّها تحمل معها صفاءَ عالمٍ ماضٍ بأكمله. يعشقها لأنّها لا تجبر أحدًا على قول أيّ شيء. ويعشقها لأنّها متعالية عن كلّ هذرٍ، جميلة وصافية في ثباتها..

« لغات ميتة». لَكمْ كان صارمًا في احتقاره لأولئك الذين يطلقون عليها هذا الوصف! إنّهم لا يفهمون شيئًا منها، وفي الواقع لا يفهمون شيئًا على الإطلاق. ولذلك حين كانت فلورانس تتكلّم الإسبانية في الهاتف، كان يغلق الباب، وكان هذا السلوك يجرحها، لكنّه لم يكن يستطيع أن يُقدّم لها أيَّ تفسير.

كانت تنبعث من المكتبة رائحةٌ عجيبةٌ من الجلد القديم والغبار. وكان صاحبها، وهو كهلٌ له معرفة أسطوريَّةٌ باللغات، مشغولًا في الغرفة الخلفية. أمّا القاعة الأمامية فلم يكن بها أحد غير فتاة شابَّة، يبدو أنّها طالبة. كانت تجلس إلى طاولةٍ في الزاوية، وهي تقرأ كتابًا صغيرَ الحجم يميل غلافه الرماديّ إلى الاصفرار. كم كان غريغوريوس يفضّل لو كان وحيدًا فإحساسُه بأنّه هنا فقط لأنّ وقعَ كلمةٍ برتغالية ما زال يتردّد في رأسه، وبأنّه ما كان ليعرف وجهته لولاه، إحساسٌ لا يمكن تحمّله إلاّ في غيابِ أيِّ رقيب. حاذى الرفوف بلا تمييز، وكان من وقتٍ إلى آخر يضع نظّارته بشكلٍ منحرفٍ ليتمكّن من قراءةِ عنوانٍ على الجزء العلوي. ولكنّه ما يكاد يقرؤه حتّى ينساه، مثلما كان يحدث له في غالب الأحيان، حين يكون وحيدًا مع أفكاره، وذهنه منعزلًا عن العالم الخارجي.

عندما فُتح الباب، التفتَ بسرعةٍ، فإذا به قبالة ساعي البريد، ونتيجةً لخيبة الأمل التي سبّبها له ذلك، اكتشف فجأةً أنّه - رغم إرادته وبعيدًا عن كلّ منطق- كان ينتظر المرأة البرتغاليّة.

ها هي الطالبة تقف الآن وتُغلق الكتاب مجدّدًا، ولكنّها عوض أن تضعه إلى جانب الكتب الأخرى على الطاولة ،توقّفتْ فجأةً وتفحّصتْ الغلاف الرماديّ بنظرها، ثمّ تفحّصته بيدها، وبعد مرور بضع ثوان وضعته على الطاولة بهدوءٍ وحذرٍ شديديْن وكأنّ مجرّد اصطدامه بها يمكن أن يحوّله إلى غبار. ظلّت للحظةٍ واقفةً إلى جانب الطاولة وبدا الأمر وكأنّها ستغيّر رأيها وتشتري الكتاب، غير أنّها خبّأت يديْها في جيب معطفها وخرجتْ ورأسُها مُطرِقٌ إلى الأرض.

أخذ غريغريوس الكتاب وقرأ: أماديو إيناسيو دي ألمايدا برادو[1] «*Um ourives das palavras*» لشبونة 1975.

أطلّ صاحبُ المكتبة أخيرًا، فألقى نظرةً على الكتاب وقرأ العنوان بصوتٍ عالٍ، ولكنّه تناهى إلى أذن غريغوريوس سيلًا من الأصوات النّاعقة... كلمات غير مفهومة تكاد لا تُسمع وكأنّها مجرّدُ ذريعةٍ لترديد حرف ch الذي كان يُهسهس في آخرها.

«هل تتكلّم البرتغاليّة؟»

حرّك غريغوريوس رأسَهُ نافيًا.

-هذا يعني: «*صائغ الكلمات*». أليس عنوانًا جميلًا؟

-إنّه هادئ وأنيقٌ مثل الفضّة الداكنة. أيمكنك إعادته بالبرتغاليّة رجاءً؟

أعاد الكُتُبِيُّ قراءة العنوان. وبغضّ النظر عن معاني الكلمات في ذاتها، فقد بدا جليًّا للعيان أنّه يتلذّذ بإيقاعها المخملي. فتح غريغويوس

---

(1) «Um ourives das palavras»: بالبرتغاليّة، وكذلك وردت في النصّ الأصلي. وترجمتها العربيّة: «صائغ الكلمات» (المترجمة).

الكتاب وتصفّحه حتّى وصل إلى بداية النصّ. ومن ثَمَّ أعاده إلى الرّجل الذي ألقى عليه نظرةً طافحة بالحيرة والسرور، ثُمّ بدأ يقرأ، فيما غريغوريوس يُصغي ساهمًا بعينين مُغمضتين. وبعد بضعِ جُملٍ توقّف الرّجل عن القراءة وقال:

«هل ينبغي أن أترجم؟»

أومأ غريغوريوس مُوافقًا. وسرعان ما سمع جُملًا أثارت فيه إحساسًا بالذهول، فقد كانت تتدفّق كما لو أنّها كُتبت من أجله تحديدًا. ليس من أجله هو فقط، بل من أجله هو في هذا الصباح بالذات حين انقلب كلّ شيء رأسًا على عقب.

«من بين آلاف التجارب التي نخوض غمارها، هناك تجربةٌ واحدةٌ لا غير يمكن أن تُسعفنا في نقلها الكلمات. وهذه التجربة اليتيمة لا تُقال إلاّ مصادفةً وبكلّ بساطةٍ مهما أوليناها من عنايةٍ وحرص. ومن بين كلّ التجارب الخرساء المستعصية على القول، تكمن تلك التي تهب لحياتنا، خلسةً، شكلَها ولونَها ولحنَها معًا. ولو عدنا بعد ذلك في هيئةِ رجُلِ آثارٍ روحانيٍّ إلى هذه الكنوز لاكتشفنا إلى أيّ حدٍّ هي محيّرةٌ حقًّا. فما نحاول رصده يرفض أن يكون ثابتًا، والكلمات تنزلق بمحاذاة التجربة المعاشة، وفي النهاية لا يبقى على الورق غير التناقضات. لطالما ظننتُ ذلك نقصًا عليّ سدُّه، أمّا اليوم فأعتقد أنّ الأمر خلاف ذلك تمامًا. إنّ التعرّف إلى الفوضى هو أسهلُ طريقٍ إلى فهم تجارب تبدو لنا مألوفة، ولكنّها في غاية الغموض. أعرف أنّ ذلك قد يبدو غريبًا، بل وعجيبًا أيضًا. أعرف ذلك، ولكنّني منذ أن أدركته تولّد لديّ ولأوّل مرّةٍ إحساسٌ بأنّني كنت فعلًا يقظًا وعلى قيد الحياة.»

«هذه هي المقدمة» قال صاحبُ المكتبة، وعاد يتصفّح الكتاب. يبدو أنّه سيشرع الآن في تقليب كتاب حياتِه مقطعًا مقطعًا عساه يظفر بكلّ التجارب المختبئة، وعساه يكون روحانيّ آثارِه الخاصّ. بعض المقاطع يمتدّ على صفحات بأكملها، وبعضها يتقلّص إلى أقصى حدود الاختزال، فهنا مثلا يوجد مقطعٌ من جملة واحدة. وترجم:

«إذا كان صحيحا أنّنا لا نعيش إلاّ بجُزءٍ صغيرٍ ممّا يعتمل في دواخلنا، فما هو مصير بقيّة الأجزاء إذن؟»

«أريد شراء هذا الكتاب» قال غريغوريوس.

أعاد الكُتُبِيُّ إغلاق المجلّد، ومرّر يده على الغلاف بالطريقة الرقيقة ذاتها التي قامت بها الطالبة منذ حين.

«عثرتُ عليه في لشبونة خلال السنة الماضية في صندوقٍ لبائع كتبٍ قديمة. أتذكّر الآن أنّي اقتنيتُه لأنّ المقدّمة راقت لي، ولا أدري كيف نسيتُه بعد ذلك».

ثمّ نظر إلى غريغوريوس الذي كان يبحث بارتباكٍ عن محفظة نقوده وقال: «إنّني أهَبُه لك».

- «ولكن هذا.. » قال غريغوريوس بصوتٍ مبحوحٍ ثمّ تنحنح.

- «على أيّ حالٍ هو بالفعل لم يكلّفني شيئًا» قال الكُتبيُّ وهو يناوله الكتاب. ثمّ أضاف: «والآن أتذكّرك أنت أيضًا. سان جان دو لاكروا. أليس كذلك؟»

فردّ عليه غريغريوس: «لقد كانت زوجتي.»

- «إذن أنت الأستاذ المتخصّص في اللّغات القديمة من كرشنفلد.

لقد حدّثتني عنك زوجتك كثيرًا، كما حدّثني عنك آخرون غيرها فيما بعد. ولطالما قيل عنك: «إنك كنتَ مُعجَمًا متنقّلًا.»

وأردف ضاحكًا: «مُعجمًا محبوبًا جدًّا.»

وضع غريغوريوس الكتاب في جيب معطفه ومدَّ يده إلى الكُتُبيّ: «شكرًا جزيلًا.»

رافقه الرّجل إلى الباب: «أرجو ألّا أكون.. »

«إطلاقًا» ردَّ غريغوريوس ومسَّ ذراعه.

توقَّف في ساحة بوبينبرغ وجال فيها ببصره. لقد قضّى حياته هنا. هنا، كان يعرف كلّ شيء، وهنا كان في بيته. كان هذا مُهمًّا بالنّسبة إلى رجلٍ حسيرِ النظر مثله. وكانت المدينة التي يسكنها شبيهةً في نظره بقوقعة، بمغارة مريحة، بل بحصنٍ آمن. وكلّ ما يكمن خارج هذا الحصن ليس إلاّ علامةً على الخطر. ولا أحد غير رجلٍ مثله بنظّاراتٍ سميكة يستطيع فهم ذلك. فلورانس نفسُها لم تكن تفهمه، وربّما لهذا السبب تحديدًا لم تكتشف أنّه لم يكن يحبّ السفر جوًّا. فما معنى أن تصعد إلى الطائرة وبعد مرور بضع ساعات تصل إلى مكانٍ آخر مختلفٍ تمامًا دون أن يكون لك الوقت الكافي طوال الرحلة لالتقاط بعض الصور الفريدة؟ كم كان ذلك يبدو له مفزعًا وقبيحًا!

«هذا ليس جيّدًا». ذلك ما قاله لفلورانس في إحدى المرّات. فردّت عليه مُستفهمةً بنبرةٍ حادّة: «ما معنى: هذا ليس جيّدًا؟». لكنّه لم يكن يستطيع أن يفسّر لها ذلك. وهكذا غالبًا ما كانت تستقلّ الطائرة بمفردها أو برفقةِ آخرين. وفي أغلب الوقت كانت وجهتُها أمريكا الجنوبيّة.

توقّف غريغوريوس أمام الواجهة الأماميّة لسينما بوبينبرغ. في الفترة المسائيّة كان يُعرض فيلمٌ بالأبيض والأسود عن رواية لجورج سيمينون: «*الرّجل الذي يشاهد القطارات تمرّ*». أعجبه العنوان فبقي يحدّق في الصور المقتطفة من الفيلم. في نهاية السبعينيات، حين كان الجميع يتسابقون لشراء تلفازٍ ملوّن، كان هو يسعى أيّامًا وأيّامًا للحصول على جهاز بالأبيض والأسود، ولكن دون جدوى. وفي النهاية وجد واحدًا في مصبٍّ للنفايات فحمله معه إلى المنزل. وبعد زواجه ظلّ يدافع عنه بشراسةٍ حتّى تمكّن من الاحتفاظ بهذا الشيء في مكتبه. حين يكون بمفرده، كان يدير ظهره للجهاز الملوّن في غرفة الجلوس ويشغّل الجهاز القديم الذي كان يومض بينما تختلّ فيه الصور.

«موندوس أنت لا تُطاق». هذا ما قالته له فلورانس ذات يوم عندما وجدته جالسًا أمام الجهاز القبيح والرّديء. وبذلك أسندت إليه الكنية التي ابتدعها الآخرون، وصار يُعامل بوصفه متطفّلًا من مدينة برن. وكانت تلك بداية النهاية. وسرعان ما تنفّس الصعداء عندما اختفى التلفاز الملوّن من المنزل بعد الطلاق. ولكنّه ما لبث أن رضخ بعد ذلك بسنواتٍ قليلة فقط، واشترى جهازًا ملوّنًا جديدًا حين تعطّل جهازه القديم نهائيًا.

كانت الصّور المعروضة في الواجهة الأمامية لقاعة السينما كبيرةً ومتباينة بشكلٍ حيويّ. وكان يبرز في إحداها الوجه المرمري الشاحب لجان مورو وهي تزيح عن جبينها خصلاتِ شَعْرٍ مبلّلة. غير أنّ غريغوريوس ترك المشهد مُكْرَهًا ودخل إلى أوّل مقهى اعترض طريقه ليشاهد عن قربٍ الكتاب الذي حاول فيه الأرستقراطيّ البرتغاليّ أن

يستنطق في كلماتِ ذاتَهُ الغامضة وتجاربه الخرساء. وحينئذٍ فحسب، اكتشف، وهو يقلّب برفقٍ وبُطءٍ الصفحةَ تلو الأخرى كهاوٍ للكتب العتيقة، صورةَ الكاتب. كانت صورةً قديمةً تبدو نازعةً إلى الاصفرار منذ الفترة التي طُبع فيها الكتاب، مثلما نزعت المساحات السوداء فيها إلى البُنيّ الداكن، أمّا الوجه فكان يضيء على خلفيةٍ خشنة مُظلمة وشبحية. مسح غريغوريوس نظّارته وضبطها مُجدَّدًا على أنفه وفي غضون لحظاتٍ، أصبح أسيرًا لهذا الوجه كُلّيًا.

كان يبدو في بداية الثلاثين من العمر. يشعّ ذكاءً وإحساسًا بالذات وجرأةً أبهرت غريغوريوس تمامًا. وجهٌ مضيء بجبينٍ سامق يعلوه شَعْرٌ بُنيٌّ كثيفٌ وخفيفُ اللّمعان، كان وهو مسدلٌ إلى الخلف أشبهَ بخوذةٍ تدلّت منها خصلاتٌ بتموّجاتٍ مرنة على جانب أذنيه. وأنف روماني دقيق كان يضفي على الوجه صفاءً كبيرًا، يدعمه حاجبان كثيفان شُكِّلا مثل عارضتين صلبتين رُسمتا بفرشاةٍ كبيرة، تنقطعان فجأةً عند الصدغين. لهذا وجب التركيز على الوسط، حيث يقع موطنُ الأفكار. شفاه ممتلئة ومقوّسة بشكلٍ لا يجعل إسنادها إلى أيّ امرأةٍ بالأمر المفاجئ. كانت مثبتةً بين شاربٍ رقيق ولحيةٍ قصيرة خلّفت بسبب الظلّ الذي تسلّطه على الرّقبة انطباعًا لدى غريغوريوس بأنّه لابدّ من استشعار شيء من الغلظة والقسوة. لكنّ العينين السّوداوين حسَمَتا كلّ شيء في النهاية. فقد كانت تحدُّهما الظّلال، ليس بسبب التّعب أو المرض أو الإرهاق كما قد يبدو، ولكنّ ذلك كان علامةً على القسوة والحزن معًا. وفي هذه النظرة الكئيبة كانت الرقّة مشوبةً بالجرأة والصّلابة. «لابدّ أنّ الرّجلَ شاعرٌ حالم»، هكذا خمّن غريغوريوس، ولكن في مقدوره أيضًا

التصميم على رفعِ سلاحٍ أو مِشْرط. ومن الأفضل عدم اعتراض طريقه حين تتقّد عيناه. فَلِعَيْنيه القدرةُ على إبعادِ جيشٍ من الجبابرة الأشدّاء المتوحّشين. أمّا الملابس فلم يكن يظهر منها غير ياقةِ قميصٍ أبيض مع عقدة ربطة العنق، وكانت تعلو القميصَ سترةٌ تمنّى غريغويوس لو أنّه رأى معطفًا في مكانها.

كانت الساعة تشير إلى الواحدة تقريبًا عندما أفاق غريغوريوس من هواجسه التي أغرقته فيها الصورة. وكانت القهوة قد بردت أمامه من جديد. تمنّى سماعَ صوت البرتغاليّ ورؤية حركاته. 1975: كان هذا الشخص في بداية الثلاثين كما يبدو، وبذلك ينبغي أن يكون اليوم قد تجاوز الستّين. *البرتغاليّة*. استدعى غريغوريوس إلى ذاكرته صوت البرتغاليّة المجهولة الاسم ونقَلَه إلى ذهنه بنبرةٍ أكثر حدّة دون أن يصل بهذه النبرة إلى صوتِ الكُتبي. لابد أن يكون للرنّة وضوحٌ كئيبٌ يناسب تمامًا نظرة أماديو دي برادو. حاول أن يوَقِّع جُمَلَ الكتاب بهذا الصَّوت لكنَّه لم يُفلح في ذلك لأنّه لم يكن يعرف كيف يلفظ الكلمات.

في الخارج مرَّ لوسيان فون غرافنريد من أمام المقهى. لم يهتزّ غريغوريوس للأمر، بل تفاجأ وما لبث أن عاوده الشعور بالارتياح. تتبَّع الصبي بنظّارته وتذكَّر الكُتب التي تركها فوق المكتب. لابدّ أن ينتظر الآن بدايةَ حصّةِ الساعة الثانية. وحينها فحسب يمكنه الذهاب إلى المكتبة لاقتناء دروسٍ في تعلّم البرتغاليّة.

(3)

ما كاد غريغوريوس يُشغِّل أوّلَ قرصٍ ويستمع إلى أولى الجُمل البرتغاليّة حتّى رنَّ جرسُ الهاتف. لا بدّ أنّه المعهد. كان الجرسُ لا يكفّ عن الرنين، فيما بقي غريغوريوس واقفًا إلى جانبِ الجهاز يتدرّب على الجُمل التي يمكن أن يقولها: «*منذ الصباح وأنا أشعر بأنّني أريدُ فعلَ شيءٍ آخر في حياتي. لم أعد أرغب في أن أكون موندوس الخاصَّ بِكُمْ. ليست لديَّ أيُّ فكرةٍ عن الأشياء الجديدة التي يمكن أن أعثر عليها، ورغم ذلك لا أستطيع أن أمنحكم أيَّ مُهلةٍ من الوقتِ حتّى ولو كانت ثانية. إنّ الزمان يجرفني بسرعةٍ إلى النهاية، وربّما لم يبق لي في زوّادة العمر شيء.*»

كان غريغوريوس يتكلّم بصوتٍ عالٍ ويلفظ الجُملَ بشكلٍ صحيح. هو يعرف ذلك تمامًا. فقد سبق وتلفّظ في حياته ببعض الجُمل المهمّة، بالدقّة ذاتها التي قال بها جملته الأخيرة، غير أنّه انتبه وهو يلفظها بصوتٍ عالٍ إلى أنّ لها نبرةً عاطفيّةً جوفاء، وكان من المستحيل البوح بها في سمّاعة الهاتف.

توقّف جرسُ الهاتفِ قليلًا. ولكنّه سرعان ما عاود الرَّنين ودون انقطاعٍ هذه المرّة. لقد كانوا قلقين عليه ولن يكفّوا عن البحث عنه. قد يكون حصل له شيء ما. وسيقرعون جرسَ بابه عاجلًا أم آجلًا. مازال الّليل يُخيّم مُبكّرًا في هذا الوقت من شهر فيفري. ولم يكن بإمكانه أن

يشعل الضوء. إنّه هاربٌ في قلب المدينة التي كانت محور حياته. هارب ومجبر على الاختباء في المنزل ذاته، المنزل الذي كان يعيش فيه منذ خمس عشْرَة سنة. ولم يكن ذلك غريبًا فحسب، بل كان مُثيرًا للسخرية، شبيهًا بمسرحيّةٍ هزليّة. ومع ذلك فقد كان الأمر جدّيًا، بل أكثر جدّيّةً من معظم الأشياء التي عاشها وقام بها حتّى الآن. ولكن كان من المستحيل أن يشرح هذا الشعور لأولئك الذين كانوا يبحثون عنه. تخيّل غريغوريوس نفسه وهو يفتح لهم الباب ويرجوهم للدخول. فهذا مستحيل.. قطعًا، مستحيل.

استمع إلى قرص الدروس ثلاث مرّاتٍ متتالية وشيئًا فشيئًا بدأ يُكوِّن فكرةً حول الفَرْق بين المكتوب والمنطوق وكلّ ما هو مُبْهَمٌ في البرتغاليّة المحكيّة. وبدأت ذاكرتُه المرنة والمتعوّدة على توليف الكلمات تعمل بنشاط.

كان الهاتف يرنّ على فتراتٍ بدتْ له متقاربة. جهازٌ عتيقٌ ورثه فيما مضى من المستأجرة السّابقة ولو لم يكن يفتقر إلى قابس كهربائي لتمكّن من فصله الآن. ولكنّه كان حريصا على إبقاء كلّ شيء على حاله. لذلك لم يجد حلاً سوى الذهاب لجلب غطاءٍ يكتم به صوتَ الجرس.

كانت الأصوات التي توجِّهه طوال درس اللّغة تطلب منه أن يردّد جُمَلًا قصيرةً وكلماتٍ بعينها. وكان يشعر وهو يقولها بثقلٍ وارتباكٍ في شفتيْه ولسانه، وكأنّ شفتيْه البطيئتيْن قُدّتا عَمْدًا لتُناسبا اللّغات القديمة دون سواها، ففي ذلك العالم الأبديّ لم تكن فكرةُ الاستعجال مطروحةً أصلًا. أمّا البرتغاليون فيبدون مستعجلين على الدوام تمامًا كما هو الحال بالنّسبة إلى الفرنسيين، ولذلك تحديدًا كان يشعر تجاههم بالنقص.

فلورانس نفسُها كانت تحبّ هذا الأسلوبَ الجنونيّ. وحين أدرك غريغوريوس كيف تمكّنت منه بهذه السهولة، انعقد لسانه.

لكن كلّ شيء تغيّر فجأةً: كان غريغوريوس يرغب في تقليد الإيقاع الصوتيّ المحتدم للرجل المتكلّم في القرص، ولنبرة المرأة الصافية والمرتعشة التي تذكّره بالبيكولو[1]. كان يعيد الجملَ نفسَها باستمرار ليقلّص المسافة بين نُطقه الثقيل البطيء والنموذج المتألّق. وبعد وقتٍ قصير، أدرك غريغوريوس أنّه تحرَّر من كلّ شيء، تحرَّر من حدودٍ فرضَها بنفسِه على نفسه، من بُطءٍ وثقلٍ ظَلَّا يُلازمان اسمه مثلما لازمَا في الماضي خطواتِ أبيه البطيئة، عندما كان ينتقل هائمًا بين قاعات المتحف. تحرّر من صورته، تلك الصورة التي تُبرزه رجُلًا حسيرَ النظر منكبًّا على كُتبٍ مُغبَّرة، لا قارئًا. صورة لم يتعمَّد رسمها ولكنّها كبرت خِفْيةً ببطء. صورة موندوس التي لم تكن تحمل توقيعه الخاصّ فحسب وإنّما توقيع آخرين كثيرين، كانوا يجدون لذّةً وارتياحًا في الاكتفاء بهذا الوجه الصامت والأثَريّ. خُيِّل إلى غريغوريوس أنّه كان يخرج من هذه الصورة وكأنّه يخرج من لوحةٍ زيتيّةٍ قديمة عُلِّقت على حائط أحد المتاحف في جناحٍ جانبيٍّ مَنْسيّ. أخذ يذرع شقّته المظلمة بإضاءتها الشفقيّة ذهابًا وإيابًا: طلب قهوةً باللّغة البرتغاليّة، استفسر عن شارع في لشبونة، أجاب عن أسئلة حول مهنته، استفسر عن اسم أحدهم وعن مهنته، وأجرى محادثةً عن حالة الطقس.

وفجأةً تخيّل نفسه يتحدّث إلى البرتغاليّة التي التقاها هذا الصباح. طلب منها أن توضّح له سبب غضبها الشديد من كاتب الرسالة. *هل*

(1) آلة موسيقية. (المترجمة).

كنتِ تنوين *القفز*؟ سألها غريغويوس بالبرتغاليّة. وبتأثّرٍ شديدٍ أبقى المعجم الجديد وكُتُبَ النحو أمام عينيه، وبحث عن عباراتٍ وتراكيبَ لفظيَّة استيقظ حنينُه إليها. *البرتغاليّة*.. كم تبدو هذه الكلمةُ مختلفةً الآن ! لو أنّها ماتزال إلى اليوم تمتلك سحر جوْهرةٍ قادمة من بلادٍ بعيدة ومنيعة، لكانت الآن واحدةً من آلاف الأحجار الكريمة في قصرٍ اقتحم بابه أخيرًا!

قُرِع الجرس مرّةً أخرى. مشى غريغوريوس على أطراف أصابعه حتّى وصل إلى مُشغِّل الإسطوانات وأطفأه. تناهت إليه أصواتُ شبّانٍ يتداولون على صعود الدرج وينزلون. ثمّ عاد الجرسُ الحادّ وقُرِع مرتّين مُتتاليتين في الصمت الشفقي. وأخيرًا ابتعدت الخطوات عن مطلع الدرج.

كان المطبخُ الغرفةَ الوحيدة التي تُطلّ على الخلفيَّة، وكان مستأثرًا بمصراعٍ دوَّار، أنزله غريغوريوس وأشعل الضوء. ثمّ أحضر كتاب الأرستقراطي البرتغالي وكتيِّبات دروس اللّغة، وجلس إلى الطاولة، وشرع يترجم النصّ الأوّل الذي يلي المقدّمة. كانت اللّغة التي كُتِب بها شبيهةً باللاّتينيّة ومختلفةً عنها في الوقت نفسه. وهذا ما أزعجه. بدا النصُّ صعبًا ويتطلّب وقتًا طويلًا في ترجمته. بحث غريغوريوس عن الكلمات ودرس بالتفصيل جداول الأفعال بدقّةٍ، وبجَلَدِ عدَّاء، إلى أن تمكّن من فكّ رموز التراكيب اللفظيّة الغامضة. وبعد الانتهاء من كتابة بضعِ جملٍ، انتابه حماسٌ شديدٌ وسارع إلى جلب ورقٍ لينقل عليه الترجمة. وحوالي الساعة السابعة، شعر أخيرًا بالرضى:

أعماق غامضة

هل يُوجد لُغزٌ خلف الظاهر من أفعال البشر؟ أم أنّ الناسَ غيرُ ما تُظهره أفعالُهم في وضح النهار؟

لطالما بدا السؤالُ بالنّسبة إليّ في غاية الغرابة، لكنّ الإجابة ظلّت تتغيّر في داخلي مع الضوء المنعكس على المدينة وعلى نهر تاجة. فلو كان هذا الضوءُ السحريُّ ليوم مُشرقٍ من أيّام شهر أوت، هو الذي يُلقي بظلالٍ قاتمة، ظلالٍ حادّة الحواف، لبدت لي فكرةُ وجودِ عمقٍ إنسانيٍّ خفيٍّ فكرةً غريبةً، وَهْمًا فريدًا ومُؤثّرا بعض الشيء أيضًا، شبيهًا بالسراب الذي يتكوَّن عندما أُطيل النَّظر إلى الأمواج وهي تتلألأ في الضوء. وفي المقابل، لو كان النهر والمدينة متوَّجيْن بقبّةٍ ضوئيّةٍ خالية من الظلّ ومن اللّون الرماديّ المملّ، في يومٍ حزينٍ من أيام جانفي، لما توصّلتُ إلى اقتناعٍ يُمكن أن يضاهي هذا الاقتناع: كلُّ نشاطٍ بشريٍّ ليس إلاّ تعبيرًا في غاية النقص، بل ومرتبكًا على نحو مضحكٍ، عن حياةٍ باطنيَّةٍ مختبئة داخل عُمقٍ مجهول، حياة باطنيَّة تحاول أن تطفو على السطح دون أن تبلغه ولو من بعيد.

وتُضاف، حسب رأيي، إلى هذا التقلُّب الغريب والمحيّر تجربةٌ أخرى، منذ عشتها وهي لا تنفكُّ تُغرق حياتي في حيرةٍ مُثيرة، أحتار في هذه المسألة، فلا شيء يمكن أن يفوقها أهميّةً بالنّسبة إلينا نحن البشر، أحتار بحقٍّ عندما يتعلّق الأمر بي أنا شخصيًّا. فحين أكون جالسًا على رصيف مقهاي المفضَّل، متدفّئًا تحت أشعّة الشمس ومُصغيًا إلى ضحكات السيّدات الرّنانة وهنّ يعبُرن من حولي، يبدو لي عالمي الباطنيّ مليئًا حتّى أبعد زاوية منه وحميًا جدًّا، يكاد

يفنى في هذه الأحاسيس اللّذيذة. ومع ذلك، يكفي أن تعبر سمائي بعضُ الغيمات وهي تنزلق أمام الشّمس لتضفي على العالم كلّه مسحةً من الحزن والإحباط، حتّى أتأكّد في الحال من وجود أعماقٍ وعوالم سفليَّة في داخلي حيث يمكن للأشياء التي ماتزال مجهولةً في الباطن، أن تظهر وتحملني معها. لذا أسدّد ثمن القهوة بسرعةٍ وأبحث لنفسي في عجالةٍ عن متعةٍ أخرى على أمل أن تعود الشمس قريبًا وتساعد هذه السطحيَّة المُسلّية على استعادة ألَقِها.

فتح غريغوريوس الكتاب على صورة أماديو دي برادو وقرَّبها من مصباحه المكتبي. قرأ الترجمة جُملةً جُملةً وهو غارقٌ في هذه النظرة المفعمة بالجرأة والكآبة معًا. في الماضي، غمرَهُ إحساسٌ مُشابِهٌ لما ينتابه الآن، وإن كان ذلك قد حدث له مرّةً واحدة فقط: فقد قرأ وهو طالب كتاب *تأمّلات*[1] للإمبراطور الرومانّي ماركوس أوريليوس. كان على الطاولة تمثالٌ من الجبس للإمبراطور وفيما هو يشتغل على النصّ، انتابه شعورٌ بأنّه كان تحت حماية هذا الحضور الصامت. لذلك حين غمره ذاك الإحساس مُجدَّدًا، بدا له الفرقُ شاسعًا بين الأمس واليوم، وأخذ هذا الشعور يزداد عمقًا كلّما تقدّم اللّيل، دون أن يفلح في التعبير عنه بكلمات. ولم يكد يبلغ الساعة الثانية صباحًا، إلاّ وهو واثقٌ من شيءٍ واحدٍ فقط: البرتغاليُّ بحدَّة إدراكه، كان يمنحه شفافيَّةً وأحاسيسَ دقيقةً كهذه، بل إنّ الإمبراطور الحكيم نفسَه، الإمبراطور الذي استوعبَ أفكارَهُ فيما مضى وكأنّها موجّهةٌ إليه شخصيًّا، لم يؤثّر فيه بهذا الشكل. وفي هذه الأثناء كان غريغوريوس في الواقع قد قام بترجمةٍ مقطعٍ آخر.

(1) ماركوس أوريليوس: كتاب التأمّلات. ترجمةُ عادل مصطفى إلى العربيّة، ونُشر عن دار رؤية للنشر والتوزيع، سنة 2010. (المترجمة)

كلماتٌ من صمتٍ ذَهَبيّ

عندما أقرأ الجريدة أو أنصت إلى الراديو أو أرهف السَّمع لما يقوله الناس في المقهى، غالبًا ما ينتابني الإحساس بالتُخمة، بل وبالغثيان أحيانًا. فنحن نكتب الأشياء نفسَها دومًا ونردّد الكلماتِ نفسَها. نستعمل الصيغ ذاتَها دومًا، العبارات ذاتَها، والاستعارات ذاتَها، والأسوأ من هذا كُلّه، هو أنني حين أُصغي إلى نفسي، أجدُني مثلَ كلّ الناس أردّدُ الأشياءَ الأبديَّة ذاتها. إنّها مُستهْلَكَةٌ وذاوية بشكلٍ رهيب. هذه الكلمات التي أتلفَتْها ملايينُ الاستعمالات، هل بقيت لها مجرّد دلالة؟ طبعًا، الناس ما يزالون يتبادلون الكلماتِ نفسَها وهم يتصرَّفون نتيجةً لذلك، يضحكون ويبكون، يذهبون يمنةً ويسرةً، النادل يحمل قهوةً أو شايًا.. ولكن ليس هذا ما يحيّرني. فما يحيّرني فعلًا هو: هل مازالت هذه الكلمات تعبّر إلى الآن عن الأفكار؟ أم أنّها ببساطة، تشكيلاتٌ رنَّانةٌ وناجعة تُثير الناس من هنا وهناك، لأن آثار الثرثرة الراسخة فيها ما تزال جَليَّةً على نحوٍ صارخ؟

يحدث أن أذهب إلى الشاطئ وأظَلّ رافعًا رأسي في مهبّ الريح مُتمنيًا لو أنّها كانت باردةً جدًّا، لو أنّها أشدّ برودةً من تلك التي تعوَّدنا عليها في هذه البلاد: هل باستطاعتها وهي تهبُّ، أن تجرِّد أعماقي من كلّ الكلمات المتعَبة، وكلّ العادات اللّغويّة التافهة، لأعود بعد ذلك وقد طُهِّر ذهني من سُمّ الخطابات المتشابهة؟ ولكن في أوّل فرصةٍ تُتاح لي للتحدّث، لن يتغيّر أيّ شيء. التطهير الذي أَنشُدُه ليس بداهةً جاهزة. عليَّ فعل شيء مّا، ويجب أن أفعله بالكلمات. ولكن ما هو يا ترى؟ ليس الأمر كما لو أنني أريد هجر

لغتي وأندمج في لغة أخرى غيرها. كلاّ. إنّه ليس هروبًا لغويًّا. وإلى الآن أقول لنفسي: إنّنا لا يمكن أن نعيد ابتكار اللّغة. ولكن ما الذي أريده بالضبط؟

ربّما كان الأمر كالتالي: أنا أرغب في إعادة توليف الكلمات البرتغاليّة من جديد. ولن تكون الجُمل التي ستنشأ من هذه التركيبة الجديدة سخيفةً، شاذّةً، ولا متكلِّفةً ولا مقصودة. ستكون جُمَلًا برتغاليّةً مثاليّةً، جُملًا تتيح لنا أن نشعر بأنّها مباشرة وبلا شائبة، فهي خُلاصةُ هذه اللّغة الشفّافة والماسِيَّة. على الكلمات أن تكون نقيّةً كالمرمر الصَّقيل، عليها أن تكون صافيةً مثل نوتات سوناتا لباخ، تُحيل كلّ الأشياء الغريبة عنها إلى صمتٍ تامّ.

أحيانًا عندما أشعر في داخلي ببقايا انسجامٍ مع هذه الرذالة اللّغويّة، أفكّر في أنّ الأمر أشبه بالصمت اللّذيذ الّذي يخيّم على صالونٍ سعيد، أو الصمت الذي يُغرق عاشقَيْن معًا. ولكن عندما يتملّكني الغضبُ الشديد تجاه هذه العادات اللّغويّة اللزجة، فإنّ أبسط ما أحتاج إليه هو أن يسود هذا الكونَ المظلَم، صمتٌ مبينٌ باردٌ، أكون فيه أنا الوحيد الذي يتكلَّم البرتغاليّة، وأطوف حول مداري في صمت. النادل، الحلّاق، المحصِّل في عربة الترام، سيصيبهم الذهول لو أنّهم أرهفوا السمع إلى هذه الكلمات المؤلَّفة من جديد. سيدهشهم بهاء العبارات. ولن يكون هذا البهاء شيئًا آخر غير روعة صُوَرِها. ستكون حسب تصوّري عبارات ملزِمة، ولنا أيضًا أن نسمّيها عباراتٍ صارمة، عبارات خالدة وثابتة، وذلك ما يجعلها أقرب إلى كلام السماء. وستكون في الوقت ذاته، بلا مبالغةٍ

ولا تفخيم، صائبةً ومعتدلة إلى درجة تجعلنا لا يمكن أن نحذف منها كلمةً أو فاصلةً واحدة، وبذلك ستضاهي هذه الجُمل قصيدةً نسَجَها صائغُ كلمات.

كان غريغوريوس يشعر بالجوع حتّى صارت معدته تؤلمه فأرغم نفسه على أكل شيءٍ ما. ثمّ جلس بعد ذلك في الصّالون المظلم مع كوبٍ من الشاي. والآن؟ ها هو الجرس يُقرع مرّتيْن متتاليتيْن في هذه اللّحظة أيضًا. وقبل منتصف اللّيل بقليلٍ سمع باختصارٍ آخرَ رنينٍ مكتومٍ للهاتف. غدًا سيعلنون عن اختفائه وستقف الشرطة أمام بابه في أيٍّ لحظة. كانت ماتزال لديه فرصة للعودة إلى الوراء. في الثامنة إلاّ الرُبع، سيعبر جسر كرشنفلد ويدخل المعهد، سيجعلهم ينسون حدث غيابه الغامض باختراع أيِّ قصّةٍ تجعل منه أمرًا سخيفًا لا أكثر، وكان هذا يناسبه تمامًا. لن يعلموا شيئًا عن المسافة الهائلة التي قطعها داخل نفسه في أقلّ من ثمانٍ وأربعين ساعة.

ولكنّ الأمر كان هكذا فعلًا: لقد قطع هذه المسافة حقًّا، ولم يكن يريد أن يجبره الآخرون على التخلّي عن سفَرِه الصامت. ذهب لجلب خريطة أوروبا، وتساءل كيف بإمكانه الذهاب إلى لشبونة عبر القطار. حسب استعلامات السكّة الحديديّة، فإنّ القطارات لن تستأنف عملها إلاّ بدايةً من السّاعة السادسة. فبدأ يحزم حقائبه.

كانت السّاعة تشير إلى الرابعة تقريبًا عندما تخيَّل نفسَهُ جالسًا على كرسيّه، مُستعدًّا لخوض هذه الرّحلة. في الخارج، كان الثلج يتساقط، وفجأةً أحسّ بالجُبن. أليس الأمر كلُّه مجرّدَ فكرةٍ جنونيّةٍ لسكّير؟ برتغاليّة مجهولة الاسم، غامضة الأحاسيس، دفاتر مصفرَّة لأرستقراطيّ بُرتغاليّ،

درس لغة للمبتدئين، فكرة الزمن الذي يمضي بسرعة... قطعًا لم يكن يهرب إلى لشبونة من أجل هذا كلّه.

حوالي الساعة الخامسة اتّصل غريغوريوس بطبيبه قسطنطين دوكسيادس، طبيب العيون، لقد كان من عادتهما الحديثُ ساعاتٍ طويلة عبر الهاتف ليتقاسما عذاب الأرق المشترك، وكأنّ هناك انسجامًا مُضمرًا بين المصابين بالأرق. فأحيانًا كان يشارك الإغريقي مباراةً سريعة وعشوائيّة في الشطرنج، على إثرها يكون باستطاعة غريغوريوس أن ينعم بقليلٍ من النوم قبل موعد ذهابه إلى المعهد.

«ليس لهذا أيّ معنى ، أليس كذلك؟» قال غريغريوس في نهاية حكايته المتردّدة.

لاذ الإغريقي بالصّمت. وكان غريغوريوس يُدرك تمامًا سرّ صمته: دوكيسيادس سيُغمض عينيه الآن ويُمسك بأرنبة أنفه بين الإبهام والسبابة.

«طبعًا يوجد معنى لكلّ ما حصل، قال الإغريقي حينئذٍ. طبعًا.»

«هل ستساعدني لو حدث وضَيَّعْتُ طريقي؟»

«ماعليك إلاّ أن تتصل بي في أيِّ وقتٍ تشاء. ولا تنس نظّارتك البديلة».

كان هذا الصوت يبعث فيه مُجدَّدًا إحساسًا مقتضبًا بالأمان. أمان طبي، لكنّه يتجاوز في الوقت نفسِه المجالَ المهني. إنّها ثقةُ رجلٍ يُمْهِلُ أفكاره وقتًا لتصدر قطعيّةً موثوقةً. كان غريغوريوس يزور هذا الطبيب منذ عشرين سنة. وهو الوحيد الذي نجح في تخليصه من خوفه المرضي من العمى. كان أحيانًا يشبِّهه بوالده، والده الذي أصبح بعد وفاة زوجته

المبكّرة، مُقيمًا في كلّ مكان، أينما حلَّ ومهما حصل، في حماية مُتحف مُغبَّر. وقد أدرك غريغوريوس منذ البداية أن هذا الشعور بالأمان زائل. كان يحبّ والده، وفي بعض الأحيان كان هذا الشعور أقوى وأعمق حتّى من مجرَّد عاطفة. لكنّه تألّم لمعرفة أن والده لم يكن شخصًا يمكن الاعتماد عليه أو التشبّث به، خلافًا للإغريقي الذي كان بالإمكان الاعتماد عليه كما لو أن باستطاعتك البناء فوق صخر. شعر لاحقًا بالذنب تجاهه لأنّه سبق أن اشتكى منه. ولم يكن الأمان الذي كان يتحسّر على غيابه شيئًا ملموسًا حتّى يُلام على فقدانه كما يلام على خطأ ما. على المرء أن يكون محظوظًا مع ذاته ليصبح رجلًا واثقًا، أمّا والدُه فلم يكن يملك حظًّا لا مع نفسه ولا مع الآخرين.

جلس غريغوريوس إلى طاولة المطبخ، وشرع في كتابة مُسوّدَات رسائل إلى المدير. وكانت هذه الرسائل إمّا جافّةً أو عاطفيّةً تفيض بالاعتذارات وتستجدي التفهّم.

وعند الساعة السادسة اتّصل مُجدَّدًا باستعلامات السكك الحديدية. ستدوم الرحلة ستًّا وأربعين ساعة في القطار انطلاقًا من جنيف، ومرورًا بباريس وإيرون في بلاد الباسك، ومن هناك سيكون الوصول إلى لشبونة عبر قطار اللّيل حوالي الساعة الحادية عشرة صباحًا. اقتطع غريغوريوس تذكرته. سيغادر القطار إلى جنيف في الساعة السابعة والنصف. والآن ها هو ينجح في كتابة الرسالة.

«سيدي المدير، زميلي العزيز كاجي

«مؤكَّدٌ أنك علمتَ بأنني غادرتُ الحصّة بالأمس دون تقديم أيِّ تفسيرٍ ولم أعد قطُّ. ربّما قيل لك أيضًا إنّ أحدًا لم يعثر عليّ. اطمئن،

أنا بخير، لم يحصل لي أيُّ مكروه. ولكن خلال يوم أمس عشتُ تجربةً غيّرتْ أشياء كثيرة. هي تجربة شخصية جدًّا وغامضة للغاية أيضًا، أكثر غموضًا من أن أتمكّن من شرحها على الورق. لا أملك إلاّ أن أطلب منك ببساطةٍ أن تغفر تصرّفي المفاجئ والغامض. أعتقد أنك تعرفني بما فيه الكفاية لتتأكّد من أنّ تصرّفي هذا لم يكن نتيجةً للطّيش أو اللامسؤوليّة أو اللاّمبالاة. أنا ذاهب في رحلةٍ طويلة. متى سأعود؟ وفي أيّ حالةٍ ذهنيّة؟ السؤال هنا يبقى مفتوحًا. كما أنّني لا أتوقّع أن تظلّ وظيفتي شاغرة. أطول فترة من حياتي كانت مرتبطة بهذا المعهد وأنا متأكّد من أنّي سأحنُّ إليه. ولكن الآن، شيءٌ ما يحملني بعيدًا عنه وقد يكون هذا التغيير نهائيًّا. نحن الاثنين معجبان بماركوس أوريليوس وستذكر هذا المقطع من كتابه «تأمّلات»: «الْعني نفسَكِ يا روحي، الْعَني نفسك، فأنت تتصرّفين بعنفٍ تجاهها. وغدا لن يكون لك الوقت الكافي لتفخري بها. فكلّ واحدٍ منّا لا يملك إلاّ حياةً واحدة، واحدة فقط، وحياتُكِ قد انتهت الآن تقريبًا دون أن تحظي باحترام نفسك. بل تصرّفت كما لو أنّك كنت تضعين سعادتك في نفوس الآخرين. ولكن عندما لا ننتبه إلى مشاعرنا الخاّصة فنحن بالضرورة أشقياء»

أنا أشكرك على ثقتكَ التي طالما منحتني إيّاها وعلى تعاوننا. وكلّي ثقةٌ بأنك ستجد الكلمات المناسبة لتقولها للتلاميذ. كلمات ستجعلهم يعلمون أيضًا أنّني أحببتُ العمل معهم. بالأمس قبل أن أذهب، تأمّلتُهم وقلت في نفسي: ما يزال هناك متّسعٌ كبيرٌ من الوقت أمامهم.

على أمل أن تتفهَّمني ومع أطيب تمنياتي لك بالنجاح، سأظلّ بالنّسبة إليك ريموند غريغوريوس.

هامش: لقد تركت كتبي فوق المكتب. هل يمكن أن تحتفظ بها وتسهر على حمايتها من أيّ ضرر؟»

أرسل غريغوريوس الرسالةَ من المحطّة. بعد ذلك أحسّ بيديْه ترتعشان أمام الموزّع الآلي. فمسح نظّارته وتأكّد من كونه يحمل جواز سفره ودفتر العناوين. ثمّ جلس في مكانٍ قرب النافذة. وعندما غادر القطار المحطّة في اتّجاه جنيف، كانت ندفاتٌ كبيرة من الثلج تتساقط ببُطء.

(4)

ترك غريغوريوس نظَرَهُ مُعلَّقًا على آخر منازل بيرن أطولَ فترةٍ مُمكنة. وأخيرًا وعندما غابت نهائيًّا عن ناظريه، أخذ دفتره وشرع في كتابة أسماء التلاميذ الذين تلقّوا العلم على يديه طوال هذه السنوات. بدأ بالعام الماضي وغاص عائدًا القهقرى إلى الوراء. كان يبحث لكلّ اسمٍ عن وجهٍ، عن صفةٍ مميزة، وعن مشهدٍ ناطق. وقد تمكّن من تذكّر كلّ ذلك دون جهد، خاصّة فيما يتعلّق بالسنوات الثلاث الأخيرة. وشيئًا فشيئًا بدأ ينتابه الإحساس بأنّه ربّما نسي شخصًا ما. في أواسط التسعينيات، لم تكن الأقسام تحوي أكثر من بعض الوجوه والأسماء جَعَلها تعاقُبها عبر الزمن تختلط عليه. ولم يصمد في الذاكرة إلاّ فتيانٌ وفتيات، كان له معهم موقفٌ مميّز.

أعاد غلق الدفتر وغرق في خواطره مُجدّدًا. يحدث أن يلتقي من وقتٍ إلى آخر بتلميذٍ أو تلميذة ممّن درَّسهم في سنواتٍ سابقة. لم يعودوا صبيانًا وفتيات الآن، بل صاروا رجالًا ونساء، وأصبح لكلّ واحدٍ منهم شريكٌ وعملٌ وأطفال. كان يُصيبه الذعر عندما يشاهد التغييرات الحاصلة على وجوههم. ولعلّ أبرز ما كان يثير ذعره في هذه التغييرات: مرارة مبكّرة، نظرة مرتبكة، وعارضُ مرضٍ خطير. غير أنّ ما كان يجعله يرتجف في غالب الأحيان، هو أنّ هذه الوجوه المتغيّرة ليست سوى شاهدٍ على المرور القهريّ للزمن. لذلك كان يُلقي نظرةً على يديه وقد ظهرت فيهما

أولى بقع الشيخوخة، وأحيانًا كان يذهب للبحث عن صُوَرٍ له عندما كان طالبًا، مُحاولًا استحضارَ مراحلِ هذه الرحلة الطويلة إلى اليوم. وفي لحظاتٍ مشابهة يكون عاطفيًّا على غير العادة، ويحدث أن يَحُلَّ فجأةً في عيادة دوكسيادس دون سابقِ إنذار ليتمكّن من التخلّص من خوفه المَرَضي من العمى. لكن أكثر شيء كان يزعزع استقراره، هو التقاؤه ببعض تلاميذه الّذين قضّوا في غضون ذلك سنواتٍ عديدة في المهجر، على برٍّ آخر، في مناخٍ آخر، وصاروا يتكلّمون لغةً أخرى.

«وأنت؟ أما تزال في كرشنفلد؟»

كانوا يطرحون عليه دومًا هذا السؤال، وتعابيرُ وجوههم تفضح رغبتهم في مواصلة الطريق. وخلال اللّيلة التي تلي أحد هذه اللقاءات، كان عليه عادةً أن يُدافع عن نفسه أمام هذا السؤال أوّلًا، وأن يدافع لاحقًا ضدّ إحساسه بوجوب الدفاع عن نفسه أمام هذا السؤال.

كان كلّ ذلك يجول في خاطره، وهو ما يزال هنا، في القطار، وقد انقضت أربع وعشرون ساعةً دون أن يُغمَض له جفن، في طريقه إلى مستقبلٍ مُحيّر أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

التوقّف في لوزان، كانت تلك رغبته. وعلى الرصيف المقابل، قطارٌ آخر يسير باتّجاه بيرن. تخيّل غريغوريوس نفسه نازلًا في محطّة بيرن. نظر إلى ساعته. لو أنّه استقلَّ سيّارةَ أجرةٍ نحو كرشنفلد لوصل في تمام الحصّة الرابعة. الرسالة. غدا يجب عليه أن يستوقف ساعي البريد في الطريق أو يرجو كاجي أن يعيد إليه الرسالة دون أن يفتحها. هذا تصرّفٌ غير لائق ولكنّه ليس مستحيلًا. ثمّ وقع نظره مرّةً أخرى على الدفتر الموضوع على الرف. ودون أن يفتحه، تراءت له قائمة بأسماء التلاميذ، وفجأةً فهم كلّ

شيء: فما بدأ بوصفه مجرّدَ محاولةٍ للتشبث بأيّ شيء مألوف بعد اختفاء آخر المنازل ببيرن، تحوَّل شيئًا فشيئًا خلال الساعة الموالية إلى وداع. لكي تستطيع أن تقول وداعًا لشيء ما، قال في نفسه عندما تحرَّك القطار، ما عليك إلاّ أن تُقاومه بأن تخلق مسافةً داخليّةً بينك وبينه. يجب تحويل الحضور الضمني والمنتشر الذي أحاطك به إلى ضوءٍ يكشف حقيقته بالنّسبة إليك. وهذا يدلّ على أنّه حضورٌ يجب أن يُجسَّم باتّخاذه حدودًا مرئيّة، بأن يصير مثلًا، ظاهرًا أكثر من قائمةٍ طويلةٍ لتلاميذ حدّدوا حياته أكثر من أي شيء آخر. خُيِّل لغريغوريوس أنّه ترك قطعةً منه خلف القطار الذي كان يغادر المحطّة للتو. تقريبًا كان كما لو أنّه ينحرف في عرضِ بحرٍ بارد، فوق مكعَّبٍ ثلجيٍّ انفصل بفعل هزّةٍ أرضيّةٍ خفيفة.

عندما زادت سرعةُ القطار نام غريغوريوس ولم يستيقظ إلاّ عندما شعر بأنّ العربة توقّفت في محطّة جنيف. كان يشعر بالإثارة وهو يتّجه لركوب القطار السريع، وكأنّه ذاهبٌ في رحلةٍ لعدّة أسابيع عبر سِكّة الحديد العابرة لسيبيريا. ولم يكد يجلس في مكانه حتّى اجتاحت العربةَ مجموعةٌ من السيّاح الفرنسيّين، وغمرتها الهستيريا والثرثرة المتقنّعة بالرُقيّ. وعندما انحنى عليه أحدهم، وكان معطفُه مفتوحًا، ليضع حقيبته في الشبكة، انتزع له نظّارته. وعندها، قام غريغوريوس بما لم يجرؤ على القيام به من قبل: حمل أمتعته وانتقل إلى الدرجة الأولى.

المناسبات القليلة التي سافر فيها في الدرجة الأولى تعود إلى عشرين سنةً خلَتْ. كانت فلورانس هي من أصرَّت على ذلك ولم يُبد أيَّ اعتراضٍ وجلس على أريكة باهظة الثمن وقد انتابه شعورٌ بأنّه شخصٌ محتال.

«هل أبدو لكِ مملاًّ؟» سألها بعد إحدى رحلاتها. «كيف؟ ولكن

موندوس، لا يمكن أن تطرح عليّ سؤالًا كهذا.» قالت ومرَّرت يديها في شعرها، وهي الحركة التي اعتادت على القيام بها كلّما عجزتْ عن الإجابة. أمّا الآن، وهو يلامس الوسائد الأنيقة، فقد شعر في اللّحظة التي كان القطار يغادر فيها المحطة، بأنّه ينتقم من فلورانس، على الرغم من كونه انتقامًا متأخّرًا وصبيانيًّا لم يكن يدرك معناه جيّدًا. ولكنّه كان سعيدًا لأن أحدًا لم يكن يجلس إلى جانبه. وهو شعورٌ مُبهم يمكننا أن نقرأه على وجهه بيُسر.

انتابه الذعر من قيمة المبلغ التكميليّ المُطالَب بدفعه للمراقب، وعندما غادر الرّجل أحصى نقوده مرّتين. وأعاد قراءة الرقم السري لبطاقته البنكية وسجَّله في دفتره. وبعدها بقليل، مزّق الصفحة ورماها. توقّف الثلج في جنيف، وها هو الآن يشاهد الشمس من جديد، ولأوّل مرّةٍ منذ عدّة أسابيع. كانت أشعّتها تلفح وجهه عبر زجاج النافذة.. فغمره شعورٌ بالهدوء التام. لقد كان يملك دومًا الكثير من المال في حسابه الجاري. وهو يعرف ذلك جيّدًا، حتّى إنّ موظّفة البنك لم تكفّ عن سؤاله وهي تلحظ دخله يتراكم في كلّ مرّةٍ دون أن يسحب منه شيئًا: «ولكن ماذا ستفعل بكلّ هذه الأموال؟ يجب أن تستثمرها». قالت ذلك ووظّفتها له بفوائدها. وهكذا وعلى مرّ السنوات، أصبح رجلًا ثريًّا يبدو أنّه يجهل مقدار ثروته.

كان غريغوريوس يفكّر في كتابَيْ اللّغة اللاّتينيّة اللّذيْن تركهما على المكتب بالأمس، في مثل هذه الساعة. اسم *أنيلي ويس* كان مكتوبًا على الصفحة الأولى بالحبر بخطٍّ صبياني. في ذلك الوقت، لم يكن لديه المال الكافي لشراء كتبٍ جديدة فجاب المدينة حتّى عثر على نُسَخٍ مستعملة

عند بائع كتبٍ قديمة. وعندما عرض على والده هذا الاكتشاف العظيم، أصاب هذا الأخير امتعاضٌ شديدٌ جعل جوزة حنجرته تتحرّك بشدّة، وهو ما يحدث دومًا عندما يكون قلبه مثقلًا بالحزن. في البداية أزعج غريغوريوس الاسم المجهول المدوَّن على الكتب. ولكن بعد ذلك تمثَّلت له مالكتُهم الأولى في صورة فتاةٍ صغيرة بجواربَ بيضاء تصل إلى ركبتيها وشعرٍ متموِّج. وقريبًا لن يتعيَّن عليه استبدال الكتب المستعملة بكتب جديدة بأيّ ثمن. ومع ذلك فقد كان يجد لذّةً عند شراء الكتب القديمة في طبعات فاخرة وباهظة الثمن بالمال الذي بدأ يجنيه عندما شرع في العمل أستاذًا معوِّضًا. لقد مرّت أكثر من ثلاثين سنة منذ ذلك الحين وما يزال هذا كلّه يبدو له وهمًا. وقبل فترةٍ وجيزة توقّف أمام رفوفه المليئة بالكتب وقال في نفسه: من كان يعتقد أنّ باستطاعتي أن أهدي إلى نفسي مكتبةً كهذه!»

كانت صور الذكرى تتحوّل في داخله شيئًا فشيئًا إلى مشاهد من الحلم، وكان الدفترُ الصغير الذي سبق لوالدته، عاملةِ النظافة، أن دوَّنتْ عليه راتبَها، يظهر ثانيةً ودون توقّفٍ مثل أطياف الضوء المتلألئة على سطوح المستنقعات. ولم ينتشله من هذا الكابوس إلاّ صوتُ وقوعِ كأسٍ من على الرفّ.

ساعة واحدة ويصل إلى باريس. أخذ غريغوريوس مكانه في مطعم القطار وغرق بنظره في الخارج، في يوم مُشرقٍ يسبق فصل الربيع، وفجأةً، أدرك أنّه كان مسافرًا فعلًا، وأن ذلك لم يكن فقط ممكنًا أو شيئًا سبق أن تخيّله طوال الليالي التي جافاه فيها النوم أو شيئًا ما قد يتحقّق، بل هو بالفعل حدثٌ واقعيٌّ وحقيقيّ. وكلّما منحَ مساحةً لهذا

الإحساس تقلّصت العلاقة بين الممكن والواقع. كاجي، المعهد، وكلّ تلاميذه الذين كانوا مُدرَجين في دفتره، ألم يكونوا حقيقيّين فعلًا؟ لقد كانوا حقيقيّين، ولكن بوصفهم إمكانيات تحققت بالصدفة فحسب، في حين أن ما يعيشه في هذه اللّحظة -سرعة القطار وهزيمه المدوّي، طقطقة الكؤوس التي تُقرع على الطاولة المجاورة، رائحة الزيوت النتنة المنبعثة من المطبخ، دخان السيجارة التي كان الطباخ يمجُّ منها نفَسًا من حينٍ إلى آخر- كلّ هذا الذي يعيشه هو واقعٌ لا يرقى إليه الشكّ وليس مجرّد احتمال. إنّه حقيقةٌ خالصة تتّسم بالقوّة وبالحتميّة القاهرة التي تميّز ما كان حقيقيًّا تمامًا.

جلس غريغوريوس إلى طاولة الطعام وأمامه طبقه الفارغ وفنجان القهوة الساخن، وهو يشعر بأنّه لم يكن طوال حياته أكثر يقظةً من اليوم. لم يكن يبدو له الأمر مجرَّد محاولةٍ لطرد النوم ببطء ليصحو شيئًا فشيئًا ويكون في تمام وعيه، بل كان ذلك مختلفًا. كان نوعًا جديدًا من الصحو، شكلًا جديدًا من أشكال الوجود في هذا العالم، لم يعرفه بتاتًا قبل الآن.

عندما لاحت محطة ليون من بعيدٍ عاد إلى مكانه. ثمّ شعر بعد ذلك، وهو يضع قدمه على الرصيف بأنّه كان للمرّة الأولى يغادر القطار في كامل وعيه.

(5)

باغتته الذكرى بعُنف. لم ينس البتّة أنّ هذه المحطة كانت محطّتهما الأولى، أوّل وصولٍ مشتركٍ لهما إلى مدينة أجنبيّة. طبعًا لم يكن قد نسي ذلك، ولكنّه لم يحسب حسابًا لوجوده في هذه اللحظة الزمنية. لم يتغير أيّ شيء، الروافد الحديدية الخضراء ذاتها والأنابيب الحمراء، الأقواس نصف الدائرية والسقف الشفّاف.

«هيّا بنا إلى باريس» قالت فلورانس فجأةً خلال أوّل غداء لهما في مطبخه وقد عقدت ذراعيها حول ساقيها المثنيّتين..

«تريدين أن تقولي.. »

«أجل. الآن. الآن. في الحال.»

لقد كانت تلميذته. فتاة جميلة بتسريحة مهملة في الغالب، فتنت الكثيرين بمزاجها المثير والمتقلّب وغدت من ثلاثيّة إلى أخرى ماهرةً في اللغتيْن اللاّتينيّة والإغريقية. وعندما دخل قسم اللغة العبرية الاختياري لأوّل مرّة خلال هذه السنة، وجدها جالسةً في الصفّ الأوّل. ومع ذلك لم يخطر بباله ولو في الحلم أنّه قد يكون لكلّ هذا علاقة به شخصيًّا.

وجاء امتحان البكالوريا، وانقضت بعده سنة قبل أن يلتقيا في مشرب الجامعة وظلاّ هناك لوقتٍ طويلٍ حتّى طُردا منه. «أنت حتمًا أعمى!» قالت له في أحد الأيّام وهي تنزع نظّارته. «أنت لم تلاحظ شيئًا إذن. مع أنّ الجميع يعرف ذلك. الجميع».

فعلًا. لقد كانت على حقّ. خمّن غريغوريوس بينما كان يركب سيّارة أجرةٍ باتّجاه محطّة مونبارناس. لم يكن الرّجلَ الذي بإمكانه أن يلاحظ أشياء كهذه. ولم يستطع أن يصدّق، وهو رجلٌ بمظهرٍ غير لائقٍ حتّى في نظر نفسه، أنّ أحدًا يمكن أن يحمل له، هو بالذات، شعورًا قويًّا. ومع ذلك فقد كانت فلورانس على حقّ.

«لستُ *الشخصَ* الذي كنت ترغبين فيه حقًّا». قال لها بعد نهاية خمس سنواتٍ من زواجهما. كانت تلك هي الاتهامات الوحيدة التي وجّهها إليها طوال تلك الفترة من الزمن، تلك الفترة التي احترقا فيها كالنّار تمامًا، وبدا أن كلّ شيء قد استحال إلى رمادٍ، غير أنّها أطرقت بنظرها إلى الأسفل، على الرغم من حاجته الماسّة إلى الاعتراض على كلامه، ولكن لا شيء من ذلك قد حصل.

الكوبول. لم يكن غريغوريوس يتوقّع أن يسير بمحاذاة شارع مونبرناس وأن يرى المطعم الذي طبع فراقهما إلى الأبد، دون أن يكونا قد نطقا بكلمةٍ واحدةٍ حول هذا الموضوع. طلب من السائق أن يتوقّف وأخذ ينظر في صمتٍ إلى مظلّة الباب الحمراء التي كُتبت عليها كلمات بأحرف صفراء ورُسمت فوقها ثلاث نجمات على اليسار وثلاث على اليمين. كانت فلورانس قد تلقّت وهي ما تزال طالبة دكتوراه دعوةً إلى باريس للمشاركة في مؤتمر للمُستَرْوِمين [1]. وكانت تعتبر ذلك شرفًا لها. في الهاتف جاءه صوتها مبتهجًا وهستيريًّا تقريبًا. أو هكذا خُيِّل إليه، حتّى إنّه كان قد تردّد في الذهاب لجلبها كما هو متّفقٌ عليه في نهاية الأسبوع. ولكنّه مع ذلك ذهب أخيرًا، ووجدها في هذا المطعم المشهور رفقة

(1) مختصون في اللغة الرومانية

أصدقائها الجدد. كانت رائحة الطعام الشهيّ والخمرة الفاخرة المنبعثة منه، قد أثبتت له أن لا مكان له هنا.

«لحظة أخرى من فضلك» قال مخاطبًا السائق. ثمّ عبَر الشارع. لم يتغيّر أيّ شيء. ولمح في الحال الطاولة المتّشحة بطريقةٍ مناسبةٍ ودون تكلّفٍ، الطاولة التي واجه عليها أولئك المتشدِّقين في الأدب. وكان الحديث يدور حول هوراس وصافو. تذكّر ذلك بينما كان في هذه اللحظة يقطع الطريق أمام النُّدل المستعجلين والغاضبين. لم يكن أحد يقوى على مجاراته عندما قرأ أشعارهم بيتًا تلو الآخر بلكنته البيرنية[1]. لقد أحال إلى غبارِ الخلاصات الروحانية لأساتذة السوربون الأنيقين واحدًا تلو الآخر حتّى ساد الصمت المائدة.

وعند عودتهما تناولت فلورانس وجبة العشاء بمفردها في مطعم القطار في حين كان زلزال الغضب الشديد قد هدأ لديه، تاركًا مكانه للحزن بسبب موقفه الأرعن أمامها.

ضاع غريغوريوس في هذه الأحداث البعيدة حتّى نسي الوقت، وكان على سائق سيارة الأجرة أن يستعرض كلّ جسارته ليصل به إلى محطة مونبارناس في الموعد المحدَّد. وأخيرًا صعد إلى القطار وهو يلهث واتّخذ مكانًا في إحدى العربات، وعندما تحرَّك القطار باتّجاه إرون، استعاد الإحساس الذي سبق أن انتابه في جنيف: كان القطار، وليس هو، من قرّر مواصلة الرحلة الواضحة جدًّا والواقعية جدًّا، القطار الذي كان من ساعةٍ إلى ساعةٍ ومن محطّةٍ إلى أخرى يحمله خارج حياته التي لم تتغيَّر إلى الآن. ولكنّه طوال السّاعات الثلاث القادمة لن يتوقّف إلاّ في بوردو، ولن يكون باستطاعة غريغوريوس العودة إلى الوراء بتاتًا.

(1) نسبة إلى بيرن

نظر إلى ساعته، ها هو اليوم الأوّل في المعهد ينقضي من دونه. وفي هذه اللّحظات ينتظره تلاميذ صفّ اللغة العبرية الستّة. فيما مضى وفي تمام الساعة السادسة، بعد درس التدارك مباشرة، اعتاد أن يرافق تلاميذه إلى المقهى وكان يحدّثهم عن الموثوقية التاريخية للعهد القديم واعتباطية نصوص الكتاب المُقدَّس، حتّى إنّ روث غوتش ودافيد ليهمان اللّذين كانا يرغبان في دراسة الثيولوجيا ويعملان بجدٍّ لتحقيق تلك الرغبة، قد وجَدَا بذلك سببًا لعدم المجيء. فقبل شهر من الآن، سبق أن حدّثهما في نفس الموضوع وانتابهما شعور بأنّه كان ينتزع منهما شيئًا مّا، وهكذا جاءت إجابتهما مراوغة. طبعًا كان بالإمكان دراسة هذه النصوص من منظور الفيلولوجيا ولكنّها كانت مع ذلك نصوصًا مُقدَّسة.

أوصى المدير وهو يحدّق إلى الأرض، بأن يعهد بقسم اللّغة العبريّة إلى طالبة في الثيولوجيا، وهي واحدةٌ من تلاميذه القدامى. فتاةٌ بشعر نحاسيّ اللون، سبق لها وأن جلست في نفس المكان الذي جلست فيه فلورانس من قبل. ولكنّ أمل غريغوريوس خاب هذه المرّة في أنّ الأمر قد لا يكون صدفةً.

خلال بضع لحظات، شعر غريغوريوس بذهنه خاليًا تمامًا. ثمّ تراءى له وجه البرتغاليّة ثانيةً، تمامًا كما ظهر فيما مضى من تحت المنشفة أبيض وشفّافًا تقريبًا. وها هو يجد نفسه مرّةً أخرى أمام المرآة في حمام المعهد، ويشعر بأنّ رقم الهاتف المكتوب على جبينه لا يريد أن يُمحى. ومرّة أخرى ينهض من مكتبه، ويتناول معطفه المبلّل من المشجب ويغادر الفصل.

البرتغاليّة. انتفض غريغوريوس، فتح عينيه ونظر نحو الخارج إلى

المشهد الطبيعي الفرنسي المنبسط بينما كانت الشمس تنحرف عنه إلى الأفق. وفجأةً أصبحت الكلمة لا تهزُّه، الكلمة التي كانت فيما مضى تشبه لحنًا متلاشيًا في حلمٍ بعيدٍ. حاول استحضار نبرة الصوت السّاحرة ولكنّه لم يتمكّن إلاّ من التقاط صدى سريع الشحوب. وهذا المجهود الذي لا طائل من ورائه، عَمَّق لديه الإحساس بأنّ هذه الكلمة الثمينة التي بُنيت عليها هذه الرّحلة المجنونة بكاملها كانت تفلت منه. ولم يعد يُجدي نفعًا أن يتذكّر كيف كانت الراوية تلفظ الكلمة على إسطوانة درس اللغة.

ذهب إلى الحمام وترك وجهه تحت الماء الذي كان بطعم الكلور لوقتٍ طويلٍ. وعندما عاد إلى مكانه تناول من حقيبته كتاب الأرستقراطي البرتغالي وبدأ في ترجمة المقطع الموالي. في البداية كان الأمر أشبه بالهروب إلى الأمام، بنزعة لا إراديَّة في الإيمان بهذه الرحلة رغم الفزع الذي كان يعتريه. ولكن بعد الجملة الأولى أسَرَهُ النصّ مُجدّدًا أكثر من مساء ذلك اليوم الذي قضّاه في منزله، في المطبخ تحديدًا.

نبل صامت:

من الخطأ الاعتقاد بأنّ اللّحظات الحاسمة التي يتغيّر فيها مسار حياةٍ ما إلى الأبد، يجب أن تكون مأسويّةً بشكلٍ صارخٍ وقاسٍ، على خلفيّة اضطراباتٍ داخليّةٍ شديدةٍ. فليس ذلك سوى أسطورة رجعيّة، أسطورة الكيتش التي أطلقها صحفيّون مهووسون وسينمائيّون أدمنوا الومضات وكُتّابٌ سكنت عقولهم الجرائد الرخيصة. وفي الحقيقة مأساة تجربتنا في الحياة، تتمثّل في كونها هشّة بشكلٍ لا يصدّق في الغالب. إنّها أشبه بصوت انفجارٍ أو طلقٍ ناريٍّ

أو ثوران بركانيّ. ففي اللّحظة التي تُعاش فيها التجربة، غالبًا ما تمرّ مرور الكرام. وعندما يظهر تأثيرها الثوريّ فإنّها تعمل على إغراق الحياة في ضوءٍ جديدٍ وتهبها لحنًا جديدًا في صمتٍ تامٍّ. وفي هذا الهدوء المدهش يكمن نبلها الخاصّ.

كان غريغوريوس، من وقتٍ إلى آخر، يرفع عينيه عن النصّ وينظر إلى الخارج باتّجاه الغرب. في ضوء الغسق الآفل، بدا له أنّ باستطاعته الآن رؤية البحر. ترك المعجم جانبًا وأغمض عينيه.

«كم أرغب في رؤية البحر مرّة أخرى».كانت هذه رغبة والدته الأخيرة قبل ستّة أشهر من وفاتها، عندما شعرت بأنّها سائرة نحو النهاية. ولكنّها استطردت قائلة: «لكن ليس من البساطة أن نمتلك القدرة على تحقيق ذلك.»

«هل هناك بنكٌ يستطيع أن يمنحني قرضًا»، قال والد غريغوريوس، ثمّ أضاف: «وأيضًا من أجل رغبةٍ كهذه؟»

كان غريغوريوس حاقدًا عليه بسبب استكانته التي لا حدّ لها. لاحقًا، عندما أصبح تلميذًا بكرشنفلد قام بتصرُّفٍ غريبٍ تفاجأ به هو شخصيًّا حتّى إنّه لم يستطع بعد ذلك التحرّر من الإحساس بأنّ الأمر قد لا يكون وقع حقيقة.

حدث ذلك في نهاية شهر مارس، في أوّل يوم من أيّام الرّبيع. كان النّاس يحملون معاطفهم على أذرعهم، وعبر نوافذ الملاحق المفتوحة، تدخل دفقات من الهواء الدّافئ. كان الملحق قد أنشئ قبل بضع سنواتٍ، لأنّ المبنى الرئيسي بالمعهد يفتقر إلى أماكن شاغرة. وجرت العادة أن يُسكنوا فيه تلاميذ الأقسام النهائيّة. وهكذا أصبح العبور إلى الملحق

بمثابة الخطوة الأولى نحو البكالوريا. وفي نفس الوقت كان الشعور بالتحرّر قد تساوى مع الشعور بالخوف. «*سنة أخرى وسنكون قد انتهينا أخيرًا من.. سنة أخرى بعد وسيكون علينا إذن..*» هذه المشاعر المتقلِّبة كانت تظهر في طريقة عبورهم إلى الملحق وهم يتباطؤون، لا مبالين ووجِلين في الوقت نفسه. اليوم أيضًا، بعد أربعين سنةً في قطار إرون، بإمكان غريغوريوس أن يدرك ما كان يعني أن تُقيمَ في الملحق في ذلك الوقت.

بدأت حصّة ما بعد الظهر باللّغة الإغريقية. وكان المدير الذي سبق كاجي هو من يلقي الدرس. كان يملك أجمل خطٍّ إغريقي يمكن تخيُّله. يرسم الأحرف ولا سيّما الانحناءات، بدقّة عالية. على سبيل المثال كانت الأوميغا والتيتا أو الإيتا التي يمدّها نحو الأسفل فنًّا خالصًا. وكان يحبّ اللغة الإغريقية *ولكنّه يحبّها بطريقة سيئة*. هكذا كان يفكّر غريغوريوس وهو جالسٌ في آخر القاعة. طريقته في حبّ اللّغة الإغريقية تفضح غروره. ليس لأنّ المدير يحتفي بالكلمات، ففي هذه الحالة سيثير ذلك إعجاب غريغوريوس حتمًا، ولكن لأنّ هذا الرّجل حين يكتب التراكيبَ اللفظيّة النّادرة والأكثر صعوبةً بكلّ براعةٍ، لم يكن يحتفي بالكلمات وإنّما كان يحتفي بنفسه، وهو الرّجل العليم بها. وهكذا كانت الكلمات بالنّسبة إليه بمثابة زينةٍ أو حليةٍ، وتستحيل إلى أكسيسوارات مماثلة لربطة العنق المزركشة التي كان يرتديها من أوّل السنة إلى آخرها. كانت الكلمات تسيل من يده كما لو أنّها من نفس المعدن الذي صُنع منه خاتمه، تلك الجوهرة المزهوَّة المجرّدة من أيّ نفع. وهكذا لا تعود الكلماتُ الإغريقيّةُ كلماتٍ إغريقيّةً بحقّ. لكأنّ غبار الذهب المتساقط من الخاتم يفسد

روحها الإغريقية، روحها التي لا تمنح أسرارها إلاّ لمن كان يحبّها لذاتها. كان الشِّعر بالنّسبة إلى المدير شبيهًا بأثاثٍ نادرٍ، بخمرة لذيذةٍ أو ببذلةٍ سهرةٍ أنيقةٍ. وكان لدى غريغوريوس شعورٌ بأنّ ثقته في نفسه تسرق منه أشعار أسخيليوس وسوفوكليس. كان يبدو أنّه لا يعرف شيئًا عن المسرح الإغريقي. أو بالأحرى، كان يعرف كلّ شيء عنه بحكم رحلاته المتتالية إلى اليونان، دون أن يستوعب شيئًا من هذه الرحلات بعدَ عودته منها بجلدٍ أسمر. ورغم اقتناع غريغوريوس بذلك، لم يكن باستطاعته قول ما قصده بهذه الطريقة.

نظَر عبر نافذة الملحق المفتوحة وتذكّر عِبارة والدته، عِبارة جعلته يغلي من الغضب تجاه غرور المدير، رغم أنّه كان عاجزًا عن تفسير منطق هذه العلاقة. كان يشعر بقلبه ينبض حتّى حنجرته. وبنظرة خاطفةٍ إلى السّبورة تَأكّد أنّ المدير يلزمه وقتٌ أطوَل قبل أن ينتهي من نسخ الجملة التي بدأها ويشرحها بعد ذلك للتلاميذ. جذب كرسيّه في هدوء بينما كان الآخرون يواصلون الكتابة محنيّي الظهور، ترك الدفتر مفتوحًا على المكتب، وبالبطء الشديد الذي يسبق هجمةً مفاجئةً، سار خطوتيْن باتّجاه النافذة المفتوحة، جلَس على الإطار وأرجح ساقيه من فوقه، ليجد نفسه خارج القسم.

كان آخر شيء رآه في الدّاخل هو وجه إيفا الحائر والضاحك في آن، تلك الفتاة بشعرها الأحمر وبقع النمش المتناثرة على وجهها، ونظرتها الفضيّة، النظرة التي لم تكن لتقع على غريغوريوس اليائس إلاّ للسخرية منه، وهو الفتى صاحب العدسات الكبيرة ذات الإطار القبيح الذي استرجع ثمنه من صندوق المرض. استدارت نحو جليستها بالمقعد وهمست لها بشيء مّا. «مدهش»! هذا ما همست به دون شك.

كانت تقول ذلك في كلّ مناسبة. أجل فقد كان يُكنَّى بـ«المدهش» أيضًا. «مدهش»! هتفت عندما علمت بكنيته الجديدة.

سار غريغوريوس بخطى سريعة حتّى ساحة الدببة. فقد كان اليوم مخصَّصًا للسوق الأسبوعيّة، وكانت مناضد البضائع مرصوصةً جنبًا إلى جنبٍ، وهو ما اضطرّه للسير ببطء. وعندما أرغمه تدافع الحشد على التوقّف أمام بائعة غلال وخضر، وقع نظره على صندوق النقود المفتوح. صندوق معدنيّ بسيط بقسمٍ مخصّصٍ للقطع وآخر للأوراق النقديّة وهي مكوّمةٌ في حزمة سميكة. وفيما كانت المرأة تنحني منهمكةً في عرض بضائعها ومؤخّرتها الكبيرة بارزةٌ من تنّورتها الخشنة ذات النقوش التربيعيَّة، انزلق غريغوريوس ببطء حتّى وصل إلى الصندوق وهو يراقب النّاس بنظرة خاطفة من جميع الجهات. خطا خطوتيْن ليجد نفسه خلف المنضدة، وبحركةٍ سريعةٍ، أخذ حزمة الأوراق النّقدية وغاص في الحشد. وعندما صعد الشارع المؤدّي إلى المحطّة، وهو يتنفّس بصعوبةٍ، أرغم نفسه على السّير بهدوءٍ منتظرًا أن ينادَى عليه من الخلف في أيّ لحظة، أو أن يُقبض عليه بقوّة. ولكن لم يحدث أيّ شيء من هذا القبيل.

كانت عائلته تقطن في لانغاس، في عمارة للإيجار فضيّة اللّون قبل أن يتّسخ طلاؤها. وقف غريغوريوس عند المدخل حيث كانت تنبعث رائحة الملفوف من الصّباح حتّى المساء. وتخيّل نفسه وهو يدخل غرفة والدته المريضة ويفاجئها بأنّها سترى البحر قريبًا. لم يدرك أنّ المسألة بأكملها كانت مستحيلةً، بل وعبثيَّة أيضًا، إلاّ عندما وصل إلى السلّم أمام باب المنزل. كيف سيشرح لوالدته طريقة حصوله المفاجئ على كلّ هذا المال؟ وهو الذي لم يعتد الكذب؟

حين عاد إلى ساحة الدببة اشترى ظرفًا ووضع فيه حزمة الأوراق النقدية، وعندما وقف بجانب منضدة العرض، كان وجه المرأة التي ترتدي تنورة بنقوش تربيعية قد انتفخ من شدّة البكاء. اشترى غلالًا، وفي الوقت الذي كانت منشغلة أثناءه في الجانب الآخر أمام الميزان، دسَّ الظرف تحت الخُضر. وقبل نهاية فترة الاستراحة بقليل، عاد مجدّدًا إلى المدرسة. دخل الملحق عبرالنافذة المفتوحة وجلس في مكانه.

«مدهش»! قالت إيفا عندما رأته، وأصبحت تنظر إليه باحترام أكثر من ذي قبل. ولكنّ ذلك لم يكن بالأهميّة التي كان يتخيّلها. فأهمّ شيء بالنّسبة إليه هو فرصة اكتشافه لنفسه، الفرصة التي وُهبت له خلال هذه الساعة الأخيرة، ولم تُثِر فيه أيّ شعور بالخوف، بل ذهولًا كبيرًا ظلّ يدوّي في نفسه أسابيع وأسابيع.

غادر القطارُ محطّة بوردو باتّجاه بياريتز. في الخارج خيَّم اللّيل تقريبًا وكان غريغوريوس يشاهد انعكاس صورته على زجاج النافذة. ماذا سيكون مصيره لو أنّ ذلك الشخص الذي حاول سرقة النقود من الصندوق في ذلك الوقت، قد تغلَّب على هذا الشخص الذي بدأ يحبّ الكلمات القديمة الصامتة إلى درجة منْحِها السيادة على كلّ ما تبقّى؟ ما هو القاسم المشترك بين ثورة الأمس وثورة اليوم؟ هل بينهما شيء مشترك حقًّا؟

تناول غريغوريوس كتاب برادو وبحَث حتّى وجد الجملة المقتضبة التي كان قد ترجمها له الكُتبيُّ الإسباني من هرشنقراين:

«إذا كان صحيحًا أنّنا لا نعيش إلاّ بجزءٍ صغيرٍ ممّا يعتمل في دواخلنا فما هو مصير بقية الأجزاء إذن»؟

في بياريتز دخل رجل وامرأة إلى المقصورة وتوقّفا بجانب مقعد غريغوريوس. كانا يتحدّثان عن الأماكن التي حجزاها. «*ثمانية وعشرون*»[1]. احتاج غريغوريوس إلى بعض الوقت قبل أن يطابق الأصوات التي كانت تتكرّر مع الكلمات البرتغاليّة ويثبت ما كان يشكّ فيه: ثمانية وعشرون. ركّز على كلمات المسافِرين ومن وقت إلى آخر، وخلال نصف الساعة الموالية، نجح في أن يستدِلّ على كلمة منها، ولكن نادرًا ما كان يحصل ذلك. في صباح اليوم التالي سيصل إلى مدينة أغلب ما يقوله سكّانها سيمرّ على مقربةٍ منه مثل همسٍ مُبهم. تذكّر ساحة بوبينبرغ، ساحة الدببة، رصيف الاتحاد، جسر كرشنفلد. وفي غضون ذلك خيّم ليلٌ حالكٌ في الخارج. تحسَّس غريغوريوس جيوب سترته ليتأكّد من وجود نقوده وبطاقته البنكية ونظّارته البديلة. لقد كان يشعر بالخوف.

وصل القطار إلى محطّة هنداي، المدينة الحدودية الفرنسية. ونزل كلّ المسافرين الذين كانوا في العربة. وعندما لاحظ البرتغاليّان ذلك، شعُرَا بالفزع وأخرجَا أمتعتهما من الشبكة.

«*لم نصل بعد إلى محطّة إرون*[2]». قال غريغوريوس محاولاً أن يهدِّئ من روعهما. كانت هذه جملة حفظها من درس اللّغة. وحده اسم المكان كان مختلفًا. تردَّد البرتغاليان أمام نطقه الأخرق والبُطْء الذي كان يرصف به الكلمات. لكنّهما نظرَا إلى الخارج ولمحَا لوحة الإعلان في المحطّة..

(1) بالبرتغاليّة في النصّ الأصلي.
(2) بالبرتغاليّة في النص الأصلي.

«شكرًا[1]» قالت المرأة. «*على الرّحب والسّعة*»[2]ردّ غريغوريوس. ثمّ عاد البرتغاليان إلى الجلوس مُجدّدًا وانطلق القطار.

مؤكّد أنّ غريغوريوس لن ينسى هذا المشهد على الإطلاق. كانت هذه في الواقع أولى كلماته باللّغة البرتغاليّة. ولقد فعلت فعلها. كم من الكلمات يمكن أن تثير شيئًا مّا في داخلنا، تُحرّك شخصًا أو توقفه، تضحكه أو تبكيه؟ في السّابق، عندما كان طفلًا صغيرًا، بدا له هذا الأمر غامضًا وأُعجب به بشكلٍ غير محدود. كيف للكلمات أن يكون لها هذا التأثير الكبير؟ أليس هذا شبيهًا بالسّحر؟

أمّا في تلك اللّحظة فقد أصبح سرّها الخفيّ يبدو أكبر من أيّ وقت مضى لأنّها كلمات لم يكن يحمل أيّ فكرةٍ عنها حتّى صباح الأمس. وعندما وضع قدمه على رصيف إرون بعد بضع دقائق، كان قد تخلّص من كلّ شعورٍ بالخوف وسار بخطى ثابتة نحو عربة النوم.

(1) بالبرتغاليّة في النص الأصلي.
(2) بالبرتغاليّة في النص الأصلي.

(6)

كانت الساعة تشير إلى العاشرة عندما تحرَّك القطار الذي سيعبر شبه الجزيرة الإيبيرية حتّى صباح اليوم التالي، تاركًا وراءه مصابيح المحطة الكئيبة وهو ينزلق في الظلمة شيئًا فشيئًا. كانت المقصورتان المجاورتان لغريغوريوس شاغرتين. وعلى مسافة مقصورتيْن أخريَيْن، في اتّجاه عربة الأكل، كان هناك رجلٌ نحيف، طويل القامة رماديّ الشعر، يتكّئ على الباب: *«ليلة سعيدة»* قال مخاطبًا غريغوريوس عندما التقت نظراتهما. *«ليلة سعيدة»* ردَّ عليه هذا الأخير.

عندما سمع الغريب نبرة غريغوريوس المرتبكة اعتلت وجهه ابتسامة عابرة. كانت تقاطيع وجهه رقيقةً وملامحه دقيقةً مُتقنةَ الرسم. وكان مظهره مميّزًا ومنيعًا في الوقت نفسه. بذلته القاتمة والأنيقة على نحو مُدهش ذكَّرت غريغوريوس بدار الأوبرا. وحدها ربطة العنق المرتخية لم تكن لائقة على الطقم. بعد ذلك، عَقَد الرّجل ذراعيْه وأسند رأسَه إلى الباب وأغمض عينيْه. كان وجهه يبدو في غاية البياض ويظهر عليه تعبٌ يبدو أنّ له أسبابًا أخرى غير تأخّر الوقت. وفي غضون دقائق معدودات، عندما بلغ القطار سرعته القصوى، فتح الرّجل عينيه. وحيًّا غريغوريوس قبل أن يختفي في مقصورته.

كان غريغوريوس سيبذل كلّ شيء في سبيل أن ينعم بقليل من النوم. لكنّ الصوت الرتيب الذي كانت تصدره حركة العجلات،

أخذ يتسلّل إلى مخدعه ويحرمه من ذلك. فجلس وأسند جبينه إلى زجاج النافذة. محطات صغيرة منسيَّة تتوارى واحدةً تلو أخرى، كراتُ ضوء مشعشعةٌ ولبنيّةٌ، أسماء مواضع مبهمة وسريعة كالسّهام، عربات تسوِّقٍ مصفوفة على الأرصفة، رأسٌ مغطّى بطاقيّة يُطلّ من بيت صغير لحارس ممرّ، كلبٌ سائب، حقيبة ظهرٍ مُسندة إلى دعامة تبرز من فوقها خصلة شعر أشقر.. كانت الثقة التي منحه إيّاها نجاحه في نطق أولى الكلمات باللغة البرتغاليّة قد بدأت تضعف. وكان يُخيَّل إليه أنّه يسمع صوت دوكسيادس وهو يقول له: *«ماعليك إلاّ أن تتّصل بي صباحًا أو مساءً»*. وتذكّر أوّل لقاء لهما، قبل عشرين سنة، عندما كانت نبرة الإغريقي حادّة جدًّا.

«أعمى؟ كلاّ. أنت ببساطة أشرت إلى الرقم الخطأ. سنفحص شبكية العين بانتظام، بالإضافة إلى أنّ الليزر أصبح متوفّرًا الآن. ليس هناك أيّ داع للقلق». وحين كان متجّهًا نحو الباب توقّف الإغريقي ونظرَ مليًّا إلى غريغوريوس: «هل هناك أمرٌ آخر يشغل بالك»؟ فهزَّ غريغوريوس برأسه نافيًا.

بعد مرور عدّة أشهر أخبره بأنّه يتوقّع طلاقه من فلورانس. فهزّ الإغريقي رأسه، دون أن يبدو عليه أنّه تفاجأ بالأمر وقال: « أحيانًا نشعر بالخوف من شيء مّا، لأنّنا نخاف من شيء آخر».

قبل منتصف اللّيل بقليل تحوَّل غريغوريوس إلى عربة الطعام. كانت العربة شاغرةً إلاّ من الرّجل ذي الشعر الرّماديّ الذي كان يشارك النادل مباراة في الشطرنج. حاول هذا الأخير أن يُفهم غريغوريوس بأنّ المطعم مغلق حاليًّا. ولكن مع ذلك ذهب ليجلب له ماءً معدنيًّا ودعاه

للجلوس إلى مائدتهما. وسرعان مَا لاَحظ غريغوريوس أنّ الرّجل الذي رآه منذ قليل وهو يضبط نظّارته الذهبيّة على أنفه، كان بصدد الوقوع في فخٍّ نَصَبه له النادل. قبل أن يحرّك الحجر، نظَر الرّجل إلى غريغوريوس فأشار إليه بإيماءة من رأسه ألاّ يفعل. فسحَب الرّجل يده. ورفع النادل الذي كانت يداه الخشنتان وملامحه الفظّة لا توحيان بأنّه لاعب شطرنج ماهر، عينيه متفاجئًا. عندها أدَار المسافر صاحب النظارات الذهبيّة رقعة الشطرنج باتّجاه غريغوريوس وأشار إليه بمتابعة المباراة. كانت معركة طويلة ضارية وكانت الساعة تقارب الثانية، حين استسلم النادل.

وعندما التقيا أمام باب مقصورته سأل الرّجل غريغوريوس من أيّ البلاد هو، ثمّ واصلاَ الحديث بالفرنسية. وأخبر الرّجل غريغوريوس بأنّه كان يستقلّ هذا القطار كلّ أسبوعين وتمكّن لمرّة واحدة فقط من هزيمة هذا النادل في حين كان في أغلب الأحيان يتغلّب على الجميع، ثمّ قدَّم نفسه: جوزيه أنطونيو دي سلفيرا، تاجر خزف في بياريتز وبما أنّه يخاف ركوب الطائرة فقد كان يستقلّ القطار.

«من يعرف الأسباب الحقيقية وراء خوفه»؟ أردف قائلًا بعد صمت وقد ظهر على وجهه إرهاق، سبق لغريغريوس وأن لاحظه من قبل.

بعد ذلك عندما حدَّثه كيف خلف والده واستعاد تجارته الصغيرة وطوَّرها، تحدَّث عن نفسه كما لو كان يعني شخصًا آخر، لم يسبق له وأن اتّخذ إلاّ قرارات واضحة ولكن سيئة في مُجملها. وتحدَّث بنفس النبرة عن طلاقه وعن طفليه اللذيْن لم يكن يستطيع رؤيتهما تقريبًا. كان في صوته شيء من الحزن والخيبة. وتأثّر غريغوريوس وهو يلاحظ أنّ صوته كان خاليًا من كلّ شفقة على الذّات.

«المشكلة، قال سلفيرا عندما توقّف القطار في محطّة بلد الوليد، أنّنا لا نملك رؤيةً مشتركةً لحياتنا معًا. لا في المستقبل ولا في الماضي. عندما تكون الأمور على ما يرام فذلك ببساطة ضربة حظّ لا غير». في الأثناء سُمع صوت مطرقة غير مرئيّة تدقّ الفرامل بشدّة للتأكّد من سلامتها. ثمّ سأله قائلًا: «وماهو السبب الذي دفعك إلى أن تكون الآن في هذا القطار؟»

جلَسَا على سرير سلفيرا، وعندما روى غريغوريوس قصّته حذف مشهد البرتغاليّة التي التقاها على جسر كرشنفلد. فمثل هذه الأشياء لا يستطيع البوح بها إلاّ لدوكسيادس وليس لغريب التقاه مصادفةً في قطار. كان سعيدًا لأنّ سلفيرا لم يطلب منه الذهاب لجلب كتاب دي برادو. فلم يكن يرغب في أن يقرأه أحد غيره ويتحدّث عنه.

وعندما انتهى من سرد حكايته ساد الصمت المكان. كان سلفيرا يفكّر في الحديث الذي دار بينهما منذ قليل، فيما ظلّ غريغوريوس ينظر إليه بالطريقة نفسها التي كان البرتغالي يدير بها خاتمه وبالنظرات القصيرة المفعمة بالخجل التي كان يرمقه بها.

«ببساطة وقفت وغادرت المعهد؟ هكذا ببساطة؟» هزَّ غريغوريوس برأسه موافقًا. وفجأةً ندم على البوح، فقد انتابه إحساسٌ غريزيّ بالخطر في تلك اللّحظة. «سأحاول النوم الآن»قال ذلك فجأةً. وعندها أخرج سلفيرا دفترًا. هل كان يريد أن يعيد عليه أقوال ماركوس أوريليوس حول حركات روحه؟ وعندما غادر غريغوريوس المقصورة كان سلفيرا قد انحنى على دفتره متتبّعًا الكلمات برأس القلم.

رأى غريغوريوس في نومه أشجار الأرز الحمراء. كانت هذه

الكلمات، *أشجار الأرز الحمراء*، تعبر نومه المضطرب مثل أطياف الضوء المتلألئة على سطوح المستنقعات. كان هذا اسم الناشر الذي أصدر فيما مضى دفاتر دي برادو. وإلى حدّ الآن لم يُعر الأمر أهميّةً خاصّةً. لكنّ سؤال سلفييرا له عن الطريقة التي سيتّبعها للعثور على الكاتب، ذكّره بأن عليه أن يبحث أوّلًا عن دار النشر هذه. ربّما كان الكتاب قد نُشر من قِبل الكاتب نفسه، تساءل غريغوريوس وهو يستعدّ للنوم. إذن فقد كان لأشجار الأرز الحمراء معنى لا يعرفه إلاّ أماديو دي برادو. بعد ذلك رأى نفسه في الحلم وهو يسير تائهًا في شوارع المدينة المتعبة، مردِّدًا الاسم العجيب لدار النشر ومتأبّطًا دليل الهاتف، ضائعًا في مدينة بلا وجهٍ، لم يكن يعرف عنها شيئًا، سوى أنّها كانت تمتدّ على سلسلة من الهضاب.

عندما أفاق حوالي الساعة السادسة تراءى له أمام نافذة مقصورته اسمُ سالامنكا. فانفتح حاجز الذكرى الذي ظلّ مسدودًا لأربعين سنةً دون سابق إنذار، وسمح لاسم مدينة أخرى بالعبور: *أصفهان*. فجأةً خطر ببَالِهِ اسم تلك المدينة الفارسيّة التي رغب في السفر إليها بعد الثانوية. الاسم الذي كان يحمل في حدّ ذاته الكثير من الغرابة والغموض، أثّر في غريغوريوس في تلك اللحظة مثل الرمز الذي يشير إلى حياة أخرى ممكنة لم يجرؤ على عيشِها في الماضي. وعندما غادر القطار محطة سالامنكا استعاد بعد مرور هذا الوقت، الأحاسيس التي كانت فيها الحياة الأخرى أكثر انفتاحًا من هذه الحياة الموصدة.

لقد بدأ كلّ شيء عندما طلب منهم أستاذ اللغة العبرية قراءة سِفر أيوب في ظرف سنة. وكان غريغوريوس كمن تملّكته النشوة، عندما بدأ يفهم معاني الجمل، وعندما فُتح أمامه طريق قاده إلى قلب الشرق. بالنّسبة

إلى كارل ماي كان الشرق ما يزال ألمانيًا للغاية ولا دخل في ذلك للّغة. أمّا الآن في هذا الكتاب الذي يقرؤه من النهاية إلى البداية، فقد صارت للشرق نبرة الشرق. أليفاز التيماني، صوفر النعماني، وبلداد الشوحي، أصحاب أيوب الثلاثة، أسماؤهم وحدها، بغرابتها المنعشة، كانت تبدو وكأنّها قادمة من وراء المحيطات. أيّ عالم ساحر شبيه بالحلم!

ومن ثمّ، انتابته خلال وقت قصير رغبة في أن يصبح مستشرقًا، متخصّصًا في *الشرق*، *Moregendland* بلد الصباح. كان يحبّ هذه الكلمة الألمانية التي تحمله خارج لانغاس في ضوء أكثر سطوعًا.. لذلك سعى، قبل امتحان البكالوريا بقليل، إلى إيجاد وظيفة في أصفهان، حيث كان رجل أعمال سويسري يبحث عن مُدرّس لأبنائه هناك. وقد أعطاه والده الثلاثة عشر فرنكا وثلاثين سنتًا ثمن كتب النحو الفارسي، مُكرَهًا، بدافع القلق عليه، وخوفًا من الفراغ الذي سيخلّفه ابنه عندما يرحل. وعمد غريغوريوس إلى كتابة قواعد الشرق الجديدة على اللوحة الحائطية في غرفته.

لكن بعد ذلك، طارده حلمٌ غريب، خُيِّل إليه أنّه استمرّ الليلةَ كلّها. كانت رؤى بسيطة جدًّا أو جزءًا من العذاب قوامه هذه البساطة التي كانت تزداد قوّتها مع كلّ عودة إلى الحلم. لأنّ كلّ شيء في الحقيقة كان يتقلّص إلى صورة واحدة: نسمة بلاد فارس القويّة وهي تنفخ على نظاراته رملًا شرقيًّا حارقًا، رمل الصحراء الأبيض الحارّ الذي كان مثبتًا في قشرة متوهّجة، ويسرق منه نظره، ليذوّب بعد ذلك العدسات ويلتهم عينيه.

بعد أسبوعين أو ثلاثة، كان الحلم يتكرّر خلالها دون توقّف ويستبدّ به حتّى وضح النهار، حمَل معه كتاب النحو الفارسي وأعاد النقود إلى

والده. ثمّ خبّأ الثلاثة عشر فرنكًا وثلاثين سنتًا التي سمحوا له بالاحتفاظ بها في علبة صغيرة وشعر كما لو أنّه كان يمتلك العملة الفارسية.

ماذا كان سيحدث لو أنّه تغلَّب على خوفه من رمل الشرق الحارق ومضى؟ مازال غريغوريوس يتذكَّر كيف مدَّ يده سابقًا إلى صندوق البائعة بدم بارد. رباطة الجأش هذه، هل كانت ستكفي ليتغلَّب على كلّ شيء يمكن أن يعترض طريقه في أصفهان؟ *البردِّية*. لماذا أصبحت الأشياء التي اعتبرها مزحة بريئة لعشرات السنوات، تؤلمه الآن فجأةً إلى هذا الحدّ؟

عندما دخل غريغوريوس إلى غرفة الطعام كان طبق سلفييرا فارغًا. وحتّى البرتغاليان اللّذان تبادل معهما كلماته الأولى باللغة البرتغاليّة، كانا بدورهما يتناولان فنجانًا ثانيًا من القهوة.

لقد أمضى ساعة بأكملها جالسًا على سريره، مفكّرًا في ساعي البريد الذي سيدخل ردهة المعهد كعادته في حدود الساعة التاسعة ويُودع البريد عند البوّاب. واليوم ستكون رسالته ضمنه. لن يصدّق كاجي عينيه. كان موندوس يفرُّ من حياته. أي شخص آخر غيره قد يفعل ذلك، ولكن ليس هو. سيُذاع الخبر من أعلى السُلَّم إلى أسفله. وسيكون الموضوع الوحيد للنقاش بين التلاميذ المجتمعين على الدرج أمام المدخل.

استعرض غريغوريوس في ذهنه كلّ زملائه في المعهد، وتخيّل ما كانوا سيفكّرون فيه ويشعرون به ويقولونه. وفجأةً توصّل إلى اكتشافٍ سَرى فيه مثل شحنة كهربائيّة. لم تكن لديه ثقةٌ في أيّ واحد منهم. في البداية بدا كلّ شيء بسيطًا: بوري مثلًا، رائدٌ في الجيش ونصرانيٌّ ملتزمٌ ومخلصٌ، كان يجد ذلك مبهمًا وغير طبيعيٍّ حقًّا ومذمومًا، فأيّ

مصير سيكون للتعليم منذ الآن فصاعدًا؟ أنيتا موهليتلر التي لم يمرَّ على طلاقها وقتٌ طويل، كانت تحني رأسها بتفكّرٍ وكأنّ بإمكانها أن تفهم هروبه حتّى وإن لم يكن الأمر يعنيها. أمّا كالبرماتان، زير النساء والثائر السريّ في ساس فيي، فقد يقول في قاعة الأساتذة : «ولِمَ لا»؟ وأمّا فيرونيك لودوايان أستاذة الفرنسية التي كان مزاجها الممتعض يبدي تناقضًا صارخًا مع اسمها اللامع، ستكون ردّة فعلها تجاه الخبر كنظرة منفّذ لعمليات عظيمة. كان كلّ شيء يبدو واضحًا للغاية في البداية. ولكن بعد ذلك تذكّر غريغوريوس أنّه قبل بضعة أشهر رأى ربّ العائلة، بوري المتزمّت برفقة شقراء صغيرة تُثير بتنّورتها القصيرة الشكوك حول علاقتهما التي كانت تبدو أكثر من معرفةٍ سطحيّة. إلى أيّ حدٍّ باستطاعة أنيتا موهليتلر أن تكون جبانةً عندما كان التلاميذ يتخطّون الحدود؟ كم كان كالبرماتان ضعيفًا عندما كان الأمر يتعلّق بمواجهة كاجي. وكم كان باستطاعة بعض التلاميذ أن يتملَّقوا فيرونيكا لودوايان من أجل تحقيق رغباتهم ودفعها للعدول عن مبادئها الصارمة.

كيف بإمكاننا تصوُّر الفكرة التي كان الجميع يحملها عن شخصه وعن سلوكه الغريب؟ هل يمكن أن نفترض تفهُّمًا خفيًّا أو حتّى غيرةً مكتومة؟ ظلّ غريغوريوس جالسًا على سريره ينظر إلى المشهد الذي ظهر أمامه: حقول الزيتون بألوانها الخضراء الفضيّة واللاّمعة. الألفة التي جمعته مع زملائه خلال كلّ تلك السنوات، لم تكن إذن إلاّ جهلًا راسخًا تحوّل إلى عادةٍ خادعة. في الحقيقة هل كان مُهمًّا حقًّا أن يعرف ما كانوا يفكّرون فيه؟ هل كان يجهل ذلك بسبب الأرق الذي أرهق ذهنه؟ أم أنّه كان يعي وجود مسافة ظلّت مختفية دومًا خلف العادات الاجتماعية؟

كانت ملامح سلفيرا عصيّةً على الفهم هذا الصباح، ملامح شبيهة بوجهٍ تسرّبت إليه في ظلمة المقصورة اللّيلية مشاعر منبعثة من الداخل ومنفتحة في الوقت نفسه على النظرات الخارجية المتّجهة إليها وهي تسعى جاهدةً لفهمها. بدا من النظرة الأولى نادمًا، لأنّه باح بأسراره إلى رجل غريب كلّيًا وفي فضاء هذه المقصورة الحميم، الفضاء الذي تنبعث منه رائحة الغطاء الصّوفي والمطهِّر. غريغوريوس لم يشاركه الطاولة إلاّ بعد تردّد. مع ذلك سرعان ما أدرك أن ملامحه المشدودة والمتقنة لم تكن توحي بأيّ عبوسٍ أو بشاشةٍ، بل بصفاءٍ عميقٍ يكشف أنّ لقاءه به قد أيقظ في الرّجل مشاعر غامضة ومركّبةً وغيرَ متوقّعةٍ، وهو يسعى الآن إلى فكّ رموزها.

أشار إلى الهاتف قرب فنجانه ثمّ قال: «لقد حجزت لك غرفة في الفندق الذي أُنزل فيه شركائي التجار. هذا هو العنوان.»

ناولَ غريغوريوس بطاقة زيارة دوَّن في قفاها مجموعة ملاحظات. عليه أن يذهب لجلب بضع أوراق قبل الوصول، قال ذلك وتظاهر بالوقوف. ولكنّه استند بعد ذلك إلى الكرسي. الطريقة التي كان ينظر بها إلى غريغوريوس في تلك اللحظة، كانت تدلّ على أنّ فكرةً ما تحرِّكه، وتساءل: «ألم يندم عندما نذَر حياته لدراسة اللغات القديمة»؟ مؤكّد أنّ ذلك كان دليلًا على حياةٍ صامتةٍ ومنعزلة.

«هل تعتقدين أنني رجلٌ مُملّ؟» تذكّر غريغوريوس كم كان هذا السؤال يعذّبه خلال رحلة الأمس. السؤال الذي سبق أن طرحه على فلورانس. واعتلت وجهه مسحة حُزنٍ لأنّ سلفيرا توسَّل إليه لكيلا

يسيء به الظن. لقد كان يحاول فقط أن يتصوّر كيف يمكن لشخص آخر أن يحيا حياةً مختلفةً تمامًا عن حياته.

كانت تلك هي الحياة التي أرادها، قال غريغوريوس . وبينما كانت الكلمات تتشكّل في داخله شعر بأنّ هناك تحدّيًا في صوته الحازم فانتابه الإحساس بالذعر. قبل يومين من الآن، وعندما كان يسير فوق جسر كرشنفلد ورأى تلك البرتغاليّة وهي تقرأ الرسالة، لم يكن يحتاج إلى هذا التحدّي. كان عليه أن يقول الشيء نفسه تمامًا، لكن لن يكون للكلمات النَفَسُ الثوريُّ ذاتُه، ستخرج منه مثل تنفُّسٍ هادئٍ وغيرِ محسوب.

«ولماذا أنت في هذا القطار؟» كان غريغوريوس يخشى الإجابة عن هذا السؤال وللحظة مّا، بدا له البرتغالي الأنيق شبيهًا بمُحقّق.

«كم يلزم من الوقت لتعلُّم اللغة الإغريقية؟» سأله الآن سلفيرا. تنفّس غريغوريوس واندفع في إجابة طويلةٍ جدًّا. هل بإمكانه أن يكتب له كلمات بالعبرية هنا فوق المنشفة؟ تساءل سلفيرا.

فكتب غريغوريوس: يقول الربّ: *«فليكن النُّور فكان النُّور»* ثمّ ترجم ما كَتبه.

رنَّ هاتف سلفيرا. يجب عليه أن يذهب الآن. قال البرتغالي عندما انتهى الحوار. ووضع المنشفة في جيب سترته «ماهي الكلمة التي تعني نُورًا»؟ تساءل وهو مايزال واقفًا، ثمّ كرّر الكلمة بينه وبين نفسه وهو متّجهٌ نحو الباب.

النهر الطويل بالخارج، يبدو أنّه نهر تاجة. انتفض غريغوريوس، فهذا يعني أنّهم سيصلون قريبًا، وعاد إلى مقصورته التي كان المراقب

قد غيَّرها في الأثناء إلى مقصورة عادية بمقعد من القطيفة، وجلس بقرب النافذة. لم يكن يريد للرحلة أن تنتهي. ماذا سيفعل في لشبونة؟ لقد حُجزت له غرفة في الفندق، سيعطي إكرامية للخادم، سيغلق الباب ويركن للراحة. ثمّ ماذا بعد؟

وبعد تردّدٍ تناول كتاب دي برادو وتصفّحه.

حنينٌ غامضٌ:

تردّدت حوالي 1922 يومًا على المعهد الذي أرسلني إليه والدي، وهو أكثر المعاهد صرامة في كامل البلاد كما كان يُقال: «أنت لستَ في حاجة إلى أن تصبح عالمًا» قال وهو يحاول أن يرسم على وجهه تلك الابتسامة التي طالما أخفق في أدائها. في اليوم الثالث أدركت أنه يجب عليّ أن أحصي الأيام كي لا تسحقني».

بينما كان غريغوريوس يبحث عن كلمة «سحق» في المعجم، وصَل القطار إلى لشبونة، إلى محطّة سانتا أبولونيا تحديدًا.

هذه الجمل القليلة قد أَسَرَتْهُ. كانت الجُمَل الأولى التي تكشف قليلًا عن العالم الخارجي للبرتغالي. تلميذٌ في معهد صارم يَعُدُّ الأيّام، وابن لأبٍ يُخفق في الابتسام في غالب الأحيان. هل يكون هذا مصدر الغيظ المضمر الذي كان يظهر في جمل أخرى؟ ما كان باستطاعة غريغوريوس أن يتساءل لماذا، لكنّه كان يريد أن يعرف أكثر ما يمكن عن هذا الغيظ. وها هو يتأمّل مجدّدًا الملامح الأولى لهذه الصورة، صورة رجل كان يعيش هنا، في هذه المدينة. رجل يرغب في الاقتراب منه أكثر ما يمكن. وكأنّ المدينة كانت تتهيّأ لاستقباله من خلال هذه الجُمَل. لكأنّها لم تعد مدينة غريبة بالكامل.

تناول حقيبة سفره ونزل على الرصيف. فوجد سلفيرا في انتظاره. اصطحبه إلى سيّارة أجرة وأعطى السائق عنوان الفندق. «بطاقتي لديك»، قال لغريغوريوس وودّعه بطريقة مقتضبة.

(7)

استيقظ غريغوريوس في ساعةٍ متأخّرةٍ من الظهيرة وكان الغسق يغشى المدينة الغائمة. لقد اضطجع منذ وصوله بكامل ملابسه تحت غطاء السرير، مستغرقًا في نوم عميق، يعذِّبُه الشعور بأنّه ليس من حقّه أن ينام لأنّ آلاف المهامّ في انتظاره، مهام مجهولة ورغم ذلك لا تقلّ إلحاحًا عن أيّ شيء آخر، بل على العكس، فغموضُها الشبحيُّ يجعل إنجازها أمرًا مستعجلًا لمنع حدوث أيّ سوء، شيء مّا يستحيل تسميته. عندما غسل وجهه في الحمّام شعر بالسعادة لأنّ الخوف ذهب مع الضيق منذ أن أدرك التقصير الذي دفعه للشعور بالذنب.

خلال الساعة الموالية، ظلّ جالسًا أمام النافذة وحاول دون جدوى أن يرتِّب أفكاره. ومن وقت إلى آخر كان يرمق بنظرةٍ خفيَّةٍ حقيبة السفر المركونة التي لم يفتحها بعد. في المساء، نزل إلى الاستقبال واستعلم من المطار عن إمكانية وجود رحلة إلى زيوريخ أو جنيف. لكن ذلك لم يكن متوفّرًا. وعندما ركب المصعد استغرب لشعوره المفاجئ بالارتياح. ظلّ جالسًا على سريره في العتمة وحاول معرفة كُنه هذا الارتياح المفاجئ. اتّصل برقم دوكسيادس وترك الهاتف يرنّ مرتيْن قبل أن يقطع الخطّ. ثمّ فتح كتاب دي برادو وواصل القراءة حيث توقّف وهو في المحطة.

«كنت أسمع رنين الجرس وهو يعلن عن بدء الدروس، الجرس الذي كان يدقّ ستّ مرّاتٍ في اليوم كما لو أنّه يدعو الرهبان إلى

الصلاة. لقد كزت على أسناني 11532 مرّة عند عودتي من الدرس، في عتمة المبنى، عوض أن أستسلم لمخيّلتي التي كانت تدفعني إلى اجتياز البوّابة وترسلني إلى المرفأ، إلى متراس الباخرة، حيث سألعق بعد ذلك الملح العالق فوق شفتي.

وها أنا أعود الآن، وبعد ثلاثين سنة، إلى هذا المكان باستمرار دون أيّ سبب منطقيّ. فلماذا يا ترى؟ أنا جالس على الدرجات الهشّة المسكونة بالطّحالب، أمام المدخل، وأجهل تمامًا لماذا يدقّ قلبي في حلقي. لماذا أمتلئ رغبةً عندما أرى التلاميذ بسيقانهم السّمراء وشعورهم البرّاقة يدخلون ويخرجون كما لو أنّهم في منازلهم؟ مؤخّرًا، وفي يوم قائظٍ، عندما كانت النوافذ مشرّعة، سمعت مختلف الأساتذة وأنصتُّ إلى التلاميذ المضطربين وهم يتلعثمون في الردّ على أسئلة كنت أنا نفسي أرتعش أمامها. أن أكون جالسًا مرّة أخرى هنا: «كلاّ.. مؤكّد أنّ هذا لم يكن هو ما تمنّيته». في الظلمة الباردة للأروقة الطويلة، التقيت بالبوّاب. رجلٌ رأسه كرأس طائر، ممدود إلى الأمام، تقدّم نحوي بنظرة حذرة: «عمّ تبحث هنا»؟ سألني بينما كنت مارًّا من أمامه. كان له صوتٌ رَبوِيٌّ حادٌّ كأنّه قادمٌ من محكمةٍ في العالم الآخر. توقّفت دون أن ألتفت ورائي: «كنت تلميذًا هنا». قلت ذلك واحتقرت نفسي وأنا أسمع صوتي الأجشّ. خلال بضع ثوان، ساد المكانَ صمتٌ مخيفٌ، ثمّ أخذ الرّجل يتعقّبني بخطى متثاقلة. كنت أشعر أنّني مُسِكت بالجرم المشهود. ولكن أيّ جرم؟ في آخر يوم من امتحان ختم الدروس، كنّا جميعًا واقفين خلف مقاعدنا وقبّعاتُنا المدرسيّة على رؤوسنا، كأنّنا في وضع الاستعداد.

بخطى متَّزنة، تنقَّل السيّد كورتس من واحدٍ إلى آخر وأنبأنا بالعدد العام، ثمّ أمدَّنا بالشهادة وهو ينظر إلينا مباشرةً. كئيبًا وشاحبًا، تناول شريكي الطَمُوح بالمقعد قبّعته التي ضمَّها بين يديه وكأنّها كتاب مقدَّس. آخر تلميذ في الفصل، الفتى ذو البشرة السمراء ومعشوق الفتيات، ترك شهادته تقع على الأرض مثل قاذورة وهو يضحك هازئًا. ثمّ خرجنا في ظهيرة يوم قائظ من شهر جويلية. ماذا كان في وسعنا أن نفعل بكلّ هذا الزمن الذي يمتدّ الآن أمامنا مفتوحًا وبلاَ شكلٍ، خفيفًا مثل ريشة في كامل حرّيتها وثقيلًا مثل الرصاص في شكّه؟

لم أعش مُطلقًا، قبل هذا اليوم ولا بعده، شيئًا جعلني أفهم بدرجة أشدّ وضوحًا وتأثيرًا، كم كان الناس مختلفين أكثر من الحادثة القادمة: آخر تلميذ في الفصل كان أوّل من نزع الطاقية وأخذ يحوم بها حول نفسه، ثمّ قذفها فوق شبكة الساحة، لتسقط في البركة المجاورة، حيث تشبَّعت بالماء ببطء واختفت أخيرًا وسط النيلوفر. ثلاثة، أربعة آخرون نسجوا على منواله وبقيَت إحدى هذه القبعات معَّلقة في الشبكة. عدَّل رفيقي بالمقعد طاقيته، قلقًا وغاضبًا، لم يكن بالإمكان تحديد الشعور الذي كان يسيطر عليه. ماذا سيفعل غدًا صباحًا عندما لن يجد أيّ سبب لارتداء الطاقية؟ ولكنّ أكثر شيء أثار دهشتي هو ما كان يحصل في ركن الساحة الظَّليل: شبهَ مختبئٍ خلف الشُّجيرات المهجورة، كان تلميذٌ يحاول أن يدُسَّ طاقيته في محفظته. الواضح بلا أدنى شكٍّ من حركاته المتردّدة، أنّه ببساطة لم يكن يريد أن يغرزها. حاول بكلّ الطرق أن يضعها بعناية وفي

النهاية هيّأ لها مكانًا بعد أن سحب بعض الكتب التي تأبطها وهو مشوَّش ومرتبكٌ.

وعندما التفَت ونظر من كلّ الجهات، كان يأمل أن لا أحد رأى فعله الشائن، وفي عينيه أثرٌ أخيرٌ لأملٍ طفوليّ محقَته التجربة، تكفي التفاتةٌ واحدةٌ ليصبح غير مرئي.

اليوم أيضًا مازلت أذكر كيف كنت أدير بين يدي طاقيتي المبلَّلة بالعرق من جميع الجهات.كنت جالسًا على الطحلب الساخن لدرج المدخل، مفكّرًا في أمنية والدي الملحَّة في أن أصبح طبيبًا، شخصًا يمكن أن يخلِّص أُناسًا مثله من آلامهم. كنت أحبّه لأجل ثقته فـيّ وألعنُه بسبب العبء السّاحق الذي تُحمِّلني إيّاه أمنيته المفضّلة. في الأثناء، كانت تلميذات مدرسة البنات قد وصلن. «هل أنت سعيد لأنّ الأمر قد انتهى أم أنّ هذا يجعلك حزينًا؟» سألتني ماريا يوحنا وهي تجلس إلى جانبي وتتفحصّني بنظراتها.

أخيرًا يبدو لي الآن آنني أعرف ما الذي كان يجبرني على أن أعود باستمرار إلى طريق المدرسة: أودُّ العودة إلى تلك الدقائق التي قضّيناها في الساحة، الدقائق التي ضاع خلالها الماضي من بين أيدينا دون أن يكون المستقبل قد بدَأ. كان الزمن يتوقّف ويحبس أنفاسه بشكلٍ لم يحدث من قبل. هل أرغب في العودة إلى سيقان ماريا يوحنا السمراء وعطر فستانها الفاتح؟ أم أنّ الأمر متعلّق بالأمنية الشبيهة بحلمٍ محزنٍ - أن أكون إلى الآن في هذه النقطة من حياتي وأن أكون قادرًا على اتّخاذ وجهة مختلفة تمامًا عن تلك التي جعلت منّي ما أنا عليه اليوم؟

هناك شيء غريب في هذه الأمنية له نزعة التناقض والتفرُّد المنطقي، لأنّ من يصوغها وهو ما يزال غيبيًّا بالتأكيد، ليس هو الشخص الذي يقف في مفترق الطرق. بل هو الرّجل الذي رسمه المستقبل العابر وأصبح ماضيًا يتمنّى الرجوع إلى الوراء ليلغي المحتوم. وهل كان يسعى لإلغائه لو أنّه لم يؤلمه؟ أن أكون جالسًا مرّة أخرى على الطحلب الساخن والطاقية بين يدي، تلك هي الأمنية الحمقاء، أمنيتي في القيام برحلة عودة إلى الزمن الذي خلّفته ورائي وأصطحبني بالرغم من ذلك في هذه الرحلة، أنا الرّجل الذي رسمته الأحداث الماضية. هل كانت لفتَى الأمس القدرة على تحدِّي أمنية والده؟ هل كان يمكنه ألاّ يدخل أبدًا مدرج الطب مثلما أودّ الآن أحيانًا؟ في ذلك الوقت لم تكن هناك تجربة بإمكانها أن تهديني المفهوم الذي من خلاله سأتمكّن من اختيار منعطف آخر في مفترق الطرق. إذن، بِمَ سينفعني قلب الزمن ومحو التجارب تجربة بعد أخرى والتحوّل إلى هذا الشخص الذي كان يرزح تحت رائحة فستان ماريا يوحنا ويرغب في رؤية ساقيها السمراوين؟ كان على الفتى صاحب الطاقية أن يتميّز كثيرًا حتّى أتمكّن من اتّخاذ وجهة أخرى، الوجهة التي أحلم بها اليوم. ولكن بما أنّني شخص آخر، فلن أصبح ذاك الذي تمنّى في هذه اللحظة، أن يعود إلى مفترق الطرق القديم. هل بإمكاني أن أكون هذا الشخص ولو تمنّيًا؟ أشعر أن هذا سيسرُّني. ولكن هذا الشعور بالرضى لا يمكن أن يكون إلاّ من أجلي، أنا الذي لست أنا إلاّ بسبب تحقيق أمنيات لم تكن لي. لأنّني لو كنت فعلًا أنا، فلن أُسَرّ برؤية أمنية أن أكون شخصًا آخر

تتحقق، وبما أنني الآن شخص آخر، فلن يكون بإمكاني التعبير عن هذه الرغبة.

ومع ذلك فأنا متأكّد من أنّ الوقت لن يطول حتّى أستيقظ مجدّدًا تحدوني رغبة في الذهاب إلى المدرسة، والاستلام لحنينٍ بلا جوهر، ليس باستطاعتنا حتّى تخيُّله. هل يمكن أن يوجد شيء أشدّ جنونًا من هذا: «أن تحرِّكك رغبة ليس لها هدف معقول؟»

كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل تقريبًا عندما أدرك غريغوريوس أخيرًا أنّه فهم هذا النصّ الصعب. لقد كان برادو طبيبًا إذن. وأصبح كذلك، لأنّها أمنية والده الذي كان يُخفق في الابتسام في أغلب الأحيان. أمنية لم تكن قد وُلدت من تعسّف استبدادي أو من كبرياء أبويٍّ ولكن من فشله في هزيمة الأوجاع المزمنة. فتح غريغوريوس دليل الهاتف. كان اسم *برادو* مُدرَجًا فيه أربعَ عَشْرة مرّة ولكن اسم *أماديو* لم يكن ضمنها. لا وجود لإيناشيو ولا لألماييدا. لماذا حسم أمره وبدا متأكّدا من أن برادو كان يعيش في لشبونة؟ الآن هو يبحث في الدليل المحترف عن دار النشر *«أشجار الأرز الحمراء»* ولكن لا أثر لهذا الاسم. هل ينبغي عليه أن يفتش في كامل البلاد؟ هل كان لهذا أيّ معنى؟

غاص غريغوريوس في المدينة اللَّيْليّة. السير في المدينة بعد منتصف الليل: كان يفعل ذلك منذ أن فقد في سن الخامسة والعشرين، ودون جهدٍ، ملكَة النوم. لقد تاه مرّات ومرّات في شوارع بيرن الخالية وكان يتوقّف من وقتٍ إلى آخر ليصغي مثل أعمى لوقع الخطوات القليلة إذْ تقترب أو تبتعد. كان يحبّ أن يتسمَّر أمام واجهات المكتبات المظلمة ويشعر بأنّ هذه الكتب تخصُّه وحده لأنّ الآخرين غارقون في النوم.

بخطى بطيئة غادر الشارع المُحاذي للفندق، وسار في شارع الحرية الواسع باتّجاه المدينة السفلى حيث تنتظم الطرقات مثل رقعة شطرنج. كان الجوّ باردًا وقد شكّل الضباب الخفيف هالة لبَنيَّةً حول مصابيح من الطراز القديم، ضوؤها ذهبيٌّ. وأخيرًا عثَر على مشرب فتناول شطيرة وشرب قهوة.

كان برادو يعود دومًا للجلوس على درج مدرسته ويتخيّل كيف كانت حياته مختلفة تمامًا. تذكّر غريغوريوس سؤال سلفيرا الذي طرحه عليه سابقًا وإجابته المتبجّحة: لقد كانت له الحياة التي أراد. شعر بأنّ صورة الطبيب الحائر فوق المدرج المسكون بالطّحالب وسؤال التاجر الحائر في القطار، كانا يحرّكان فيه ثقةً لم تكن لتتحرّك بتاتًا في شوارع بيرن الآمنة والمألوفة.

الرّجل الوحيد الذي ظلّ برفقته في المشرب دفع الحساب وغادر. في سرعة مفاجئة بدت له مبهمة، سدّد غريغوريوس الحساب هو أيضًا وتبعه. كان رجلًا مسنًّا يعرج ويتوقّف من حين إلى آخر ليرتاح. تبعه غريغوريوس بمسافة كبيرة في البايرو ألتو وفي المدينة العليا حتّى اختفى وراء باب منزل ضيّق وبائس. كان النور مُضاءً في الطابق الأوّل، أزيحت الستارة، ولاح الرّجل من وراء النافذة وقد وضع سيجارة في فمه. محتميًا بظلمة مدخل البناية، تفحّص غريغوريوس البيت المضاء خلف الرّجل: أريكة بوسائد بالية، مقعدان لا يتلاءمان مع الأريكة، خزانة زجاجية، شخوص خزفية ملوّنة، صليب معلّق على الحائط ولا وجود لكتاب واحد. أيّ رجل هذا؟

عندما أغلق الرّجل النافذة وسحب الستارة غادر غريغوريوس

المدخل. لم يكن يعرف إلى أين يتّجه، فسار في الطريق الموالية. لم يسبق له وأن تبع على الإطلاق شخصًا بهذه الطريقة، كان يتساءل كيف يمكن أن يعيش هذه الحياة الغريبة عوضًا عن حياته هو. هل كان ذلك ضربًا من الفضول جديدًا كليًّا، بدأ يظهر عنده وينسجم تمامًا مع الإحساس الجديد بالصفاء الذي اكتشفه في القطار وظلّ يرافقه عندما نزل في محطة ليون، في باريس، بالأمس، أم أنّه لم يعد يعرف متى كان ذلك؟

كان من وقت إلى آخر يتوقّف وينظر أمامه. النصوص القديمة، نصوصه القديمة التي كانت مليئة هي أيضًا بشخصيّات لها حياتها الخاصّة، وقراءة النّصوص وفهمها كانت دومًا دليلًا على قراءة الحياة وفهمها أيضًا. لماذا إذن غدا كلّ شيء جديدًا إلى هذا الحدّ، الآن، عندما أصبح الأمر مُتعلّقًا بالنبيل البرتغالي وبالرّجل الأعرج لهذه الليلة؟ على الرصيف المبلّل في الطريق المنحدرة، كان يضع بتردّد قدمًا بعد الأخرى، ولم يتنفّس الصعداء إلاّ عندما وجد نفسه في شارع الحرية.

أصابته الضَّربة بغتة لأنّه لم يكن قد انتبه لمرور المتزلّج إلى جانبه. كان عملاقًا، وهو يتجاوز غريغوريوس، لطمه على صدغه وانتزع نظارته. مذهولًا وأعمى فجأة، تقدّم غريغوريوس بضع خطوات متعثرًا. وشعر وهو مذعور بأنّه كان يمشي فوق نظارته التي تحطّمت تحت قدميه محدثة صريرًا. غمرته موجة من الهلع. «*لا تنس نظارتك البديلة*» أتاه صوت دوكسيادس في الهاتف. مرّت دقائق قبل أن تهدأ أنفاسه. ثمّ جثا في الطريق وبحث بأطراف أصابعه عن رقائق الزجاج وشظايا الإطار. فجمّع كلّ ما استطاع أن يجده في شكلِ ركامٍ صغير وعقده في منديله. ثمّ اتّجه نحو الفندق ببطءٍ متلمّسًا طريقه على طول الجدران. وثب بوّاب اللّيل

مذعورًا وعندما اقترب غريغوريوس من مرآة بهو الاستقبال، لاحظ أنّ الدم كان يسيل من صدغه. في المصعد، ضغط على جرحه بمنديل أعطاه إيّاه البواب ثمّ عبر الممرّ راكضًا. فتح الباب بيديه المرتعشتيْن وارتمى على حقيبته. بكى فرحًا عندما وقعت يده على العلبة المعدنية الباردة أين كان يضع زوج النظارات البديلة. ضبطها على أنفه ومسح الدم وألصق على الخدش الضمادة اللَّزجة التي أعطاه إيّاها البوّاب أيضًا. كانت السّاعة تشير إلى الثانية والنصف. في المطار، لا أحد يردّ على الهاتف. ونام في حدود الساعة الرابعة.

(8)

لو لم تكن لشبونة قد غاصت في هذا الضوء المبهج صباح اليوم التالي، لتغيَّرت الأمور كليًّا، خمَّن غريغوريوس لاحقًا. ربّما كان سيذهب إلى المطار ويستقلُّ أوّل طائرة ليعود إلى بيرن. لكنّ هذا الضوء لم يكن يمنحه أيّ فرصةٍ للعودة إلى الوراء. كان ألقُه يردُّ كلّ حدثٍ سابق إلى بعيدٍ وهميٍّ تقريبًا. وتحت وطأة هذه القوّة الضوئيّة، كانت إرادته تفقد ظلال الماضي ولم يكن باستطاعته إلاّ الهروب إلى المستقبل، أيًّا كان ما يُخفيه.

كانت بيرن، بندفاتها الثلجية، تتوارى بعيدًا. وبَدا من الصَّعب على غريغوريوس أن يصدِّق أن ثلاثة أيّام فقط قد مرّت على لقائه بتلك البرتغاليّة الغامضة، فوق جسر كرشنفلد.

بعد أن تناول فطور الصباح، اتّصل برقم جوزيه أنطونيو دي سلفيرا. ردَّت عليه السكرتيرة فسألها غريغوريوس ما إذا كان باستطاعتها أن ترشده إلى طبيب عيونٍ يتكلّم الألمانية أو الفرنسية أو الإنكليزية. وبعد مرور نصف ساعة، عاودت السكرتيرة الاتّصال به وأبلغته تحيّات دي سلفيرا ودلَّته على طبيبة عيون كانت أختُ رئيسها وصديقه الجديد تزورها باستمرار. امرأة سبق أن عملت لفترةٍ طويلة في المصحّات الجامعيّة في كلّ من كويمبرا وميونيخ. كانت العيادة تقع وراء القصر، في حي ألفاما، أقدم حيٍّ في المدينة. في يوم مشرقٍ، سار غريغوريوس

ببطء وهو يسعى جاهدًا إلى تجنّب كلّ الذين بإمكانهم أن يدفعوه. أحيانًا كان يتوقّف ليفرك عينيه من وراء نظّارته السميكة: هذه هي لشبونة إذن. المدينة الّتي رحل إليها لأنّه أدرك حياته فجأةً، وهو يتفحَّص تلاميذه، أدركها وهي تقترب من النهاية، ولأنّه وجد صُدفةً كتاب الطبيب البرتغالي الذي كانت كلماته تبدو وكأنّها كُتبت من أجله هو فقط.

الشقّة التي دخل إليها بعد ساعةٍ، لم تكن تشبه عيادة طبيب. فقد كانت ألواح الجدران القاتمة واللّوحات الفنية الأصليّة والسجّادات السميكة تبعث فيك إحساسًا بأنّك موجود في منزل عائلة نبيلة، حيث يتّخذ كلُّ شيء شكله المحدَّد ويأخذ مجراه في صمت. لم يتفاجأ غريغوريوس بخُلوِّ قاعة الانتظار. فشخصٌ يعيش بين جدران كهذه ليس في حاجة لأن يحقّق ربحًا ماديًا مع مرضى. السيّدة إيسا ستأتي في غضون دقائق. هذا ما أخبرته به موظّفة الاستقبال. لاشيء فيها يوحي بأنّها مساعدة طبية. فقط شاشة مضاءة محمَّلة بأسماء وأرقام كانت تكشف أن للأمر علاقة بالتجارة أيضًا.

تذكَّر غريغوريوس عيادة دوكسيادس المتواضعة والبائسة نوعا مّا، ومساعدته بحركاتها الوقحة. فجأةً شعر بأنّه خان صديقه. وعندما فُتح أحد الأبواب الكبيرة ودخلت الطبيبة، غمره شعور بالسّعادة لأنّه لن يُضطّر إلى الجلوس وقتًا طويلًا بمفرده يعذّبه هذا الإحساس السخيف.

الدكتورة ماريانا كونسيسياو إيسا كانت قبل كلّ شيء امرأة ذات عينين واسعتيْن وداكنتيْن تبعثان فيه شعورًا بالثقة. بألمانية غير فصيحة وغير متقنة أحيانًا، استقبلت غريغوريوس على أنّه صديق لسلفيرا، وقد كانت على علمٍ مُسبقٍ بزيارته. كيف جاءته فكرة الاعتذار الغريبة عن

الشعور الذي انتابه أمام نظّارته المحطَّمة؟ تساءلت ماريانا. شخص آخر حسير النظر مثله، لابدّ أن يَعلم أنّ عليه امتلاك نظّارات بديلة. هذا أمر بديهي.

هدأ غريغوريوس فجأةً. شعر بأنّه يغوص عميقًا في كرسيّه أمام مكتب السيّدة إيسا وتمنّى ألاّ يقوم من مكانه أبدًا. كان يبدو أنّها تخصِّص له وقتًا غير محدودٍ. ولم يمرّ بغريغوريوس مثل هذا الشعور مع أيّ طبيبٍ من قبل، ولا حتّى مع دوكسيادس نفسه. كان هذا ضربًا من الخيال. لكأنّه في حُلم.

اعتقد أنّها ستأخذ مقاس نظّارته وستجري الفحوصات الروتينية لترسله بعد ذلك إلى نَظّاراتيّ. ولكن بدلًا من ذلك، جعلته بدايةً يُحدِّثها عن الأسباب التي أدَّت إلى ضعف بصره مرحلةً بعد مرحلة وهمًّا بعد همّ. وأخيرًا وعندما ناولها نظّارته، رمقته بنظرة متفحِّصة وقالت: «أنت رجل لا ينام جيّدًا».

ثمّ طلبت منه الانتقال إلى الجانب الآخر من الغرفة حيث توجد الأجهزة الخاصّة بالفحص، وقد كانت مختلفة عن تلك التي يملكها دوكسيادس. دام الفحص أكثر من ساعة. كانت السيّدة إيسا تفحص بدقّة قعر العين، تمامًا مثلما يألَفُ أحدهم مشهدًا جديدًا. ومع ذلك، فإنّ أكثر شيء أثار دهشته هو إعادتها لاختبار درجة الإبصار ثلاث مرّاتٍ متتالية. في غضون ذلك كانت هناك فترات استراحة تسمح له خلالها بأن يتحرّك جيئةً وذهابًا، جارَّةً إيّاه إلى حديثٍ حول مهنته.

«الرؤية الجيِّدة مرهونة بأمور عديدة»، قالت وقد علَت وجهَها ابتسامة عندما لاحظت حيرته.

في النهاية لوحظت انكسارات بصريَّة تخطّت المعدّل العادي وبنسبٍ متفاوتة في كلتَا العينين.

«لنحاول، هكذا بكلّ ببساطة» قالت وهي تمسك بذراعه. كان غريغوريوس متردِّدًا بين الرفض والقبول لكنّه وثق فيها أخيرًا.

ناولته الطبيبة بطاقة زيارة نظَّاراتي بعد أن اتّصلّت به. وهو يستمع إليها تتكلّم البرتغاليّة عاوده السّحر ذاته الذي استسلم له عندما لفَظت المرأة الغامضة كلمة *البرتغاليّة* فوق جسر كرشنفلد. فجأةً أصبح لكلّ هذا معنى، أن يكون الآن هنا في هذه المدينة. معنى لا يمكن أن نسمّيه حقًّا، بل على العكس تمامًا، هذا المعنى خاصّ جدًّا إلى درجةٍ تدفعنا إلى الترفّق ونحن نحاول أن ندركه في كلمات.

«يومان. قالت الطبيبة بعد أن أغلقت سمّاعة الهاتف.. يقول سيزار إنّه رغم كلّ المحاولات الذاتيّة لا يمكن الإسراع في هذا الأمر».

في هذه اللحظة أخرج غريغوريوس من جيب سترته الكتاب الصغير الذي يتضمّن مذكَّرات أماديو دي برادو وأطلَعها على اسم الناشر الغريب. ثمّ حدَّثها عن بحثه الذي لا طائل من ورائه في دليل الهاتف. «أجل»، قالت ذلك وهي شاردة الذهن، «لكأنّما نُشر على الحساب الخاصّ».

«وهذا الاسم: «أشجار الأرز الحمراء» لن أتفاجأ لو كان هذا الاسم استعارة».

غريغوريوس أيضًا فكّر في هذا الأمر: قد يكون استعارة أو رمزًا يُشير إلى لغزٍ مّا، جارحًا كان أو جميلًا، لغزٍ كامنٍ بين الأوراق الملوَّنة والذابلة لحياة مّا.

دخلت ماريانا إيسا إلى غرفة أخرى ثمّ عادت وهي تحمل دفتر عناوينٍ. فتَحته ومرَّرت إصبَعها على طول الصفحة.

«هذا هو.. جوليو سيمواس، صديق زوجي المتوفّى. بائع كتب قديمة بدا لنا دومًا عالِمًا بالكتب أكثر من أيّ إنسان آخر.. لقد كان محيّرًا فعلًا».

كتَبتْ عنوانه على ورقة ناوَلتها لغريغوريوس وأرشَدته إلى المكان. «أبلِغه تحيّاتي وعُد سريعًا لأرى كيف تبدو بنظّارتك الجديدة. أريد أن أعرف إلى أيّ حدٍّ كان عملي متقنًا.»

عندما التفتَ غريغوريوس وهو على قرص الدرج، كانت هي ما تزال واقفة عند الباب الموارب مُسندةً يدها إلى الإطار. لقد اتصّل بها سلفييرا ، هي أيضًا كانت على علمٍ بفرار غريغوريوس. كم كان يودّ لو أنّه حدّثها بهذا الأمر. ونزل الدرج بخطى متردّدةٍ تمامًا كخطى شخصٍ مُكرَهٍ على مغادرة مكان مّا.

كانت السّماء ملبَّدةً بغيمٍ رقيق يحجب أشعّة الشّمس السّاطعة. محلّ النظّاراتيّ كان قريبًا من المركب الذي يعبر نهر تاجة. أشرق وجه سيزار سانترام الفظّ عندما أخبره غريغوريوس عن اسم الشخص الذي أرسلَه. نظر إلى وصفة الطبيبة وقلَّب بين يديه النظّارات التي ناوله إيّاها غريغوريوس ثمّ أخبره بفرنسيّةٍ رديئةٍ أنّ بإمكانه أن يصنع هذه العدسات من مادّةٍ أكثرَ خفّة ويثبّتها في إطار رفيع جدًّا.

كانت هذه هي المرّة الثانية على التوالي التي تُفنَّدُ فيها آراء قسطنطين دوكسيادس. وخُيِّل لغريغوريوس أنّ حياته الماضية تُنتزع من بين يديه. حياته التي كانت أبعدَ من أن يتذكّرها الآن. لقد كانت حياةً بنظّارات

ثقيلةٍ على الأنف. بحركاتٍ متردّدةٍ، جرّب النظّارات الواحدة تلو الأخرى وأخيرًا اقتنع برأي مساعِدة سانترام التي لم تكن تتحدّث إلاّ البرتغاليّة وتتكلّم مثل شلاّلٍ، حين نصَحَتْه بإطارٍ رفيعٍ مائلٍ إلى الحمرة بدَا له مواكبًا للعصر وراقيًا، يليق بوجهه الكبير وملامحه الحادّة.

في اتّجاهه صوب البايرو ألتو في الجانب الآخر من المدينة، حيث توجد مكتبة جوليو سيمواس، كان يحدِّث نفسه أنّ باستطاعته دومًا استعمال نظّاراته القديمة كأخرى بديلة، وأنّه ليس مُلزَمًا بارتداء النظّارات الجديدة. وعندما وصل أخيرًا أمام المحلّ استعادَ توازُنَه الدّاخلي.

كان السيّد سيمواس رجلًا مفتولَ العضلات، أنفُه حادٌّ وعيناه داكنتان تتّقدان ذكاءً. لقد اتّصلت به ماريانا إيسا وأبلغته بقدوم غريغوريوس الذي خُيّل إليه أنّ نصف سكّان لشبونة كانوا منشغلين بالإبلاغ عن خبر قدومه عبر الهاتف وبإرساله من مكانٍ إلى آخرَ. كان الأمر شبيهًا بحلقة مواعيد. ولم يتذكّر أنّه عاش شيئًا مماثلًا لهذا فيما مضى.

أشجار الأرز الحمراء.. لم تحمل أيّ دار نشرٍ مثل هذا الاسم خلال السنوات الثلاثين التي عملتُ فيها بتجارة الكتب. قال سيمواس.. هو متأكّدٌ من ذلك.

صائغ الكلمات.. كلاّ.. لم يسبق له وأن سمع بهذا العنوان من قبل. قلَّب الصفحات، قرأ جملة هنا أو هناك، وخُيِّل لغريغوريوس أنّه كان يتمنّى لو يتذكّر شيئًا مّا. في النهاية نظرَ مرّة أخرى إلى تاريخ الإصدار: 1975. كان في هذه السنة بالذات يتابع تكوينًا في بورتو ولم يكن ليعلم شيئًا عن كتاب صادر على الحساب الخاصّ. خاصّةً إذا طُبع في لشبونة.

إذا كان هناك أحدٌ على علم بهذا الأمر، قال وهو يحشو غليونه، فهو

العجوز كونتينهو الذي كان يدير المكتبة قبلي. قريبًا سيبلغ التسعين من العمر وهو مجنون، لكنّ ذاكرتَه رهيبةٌ عندما يتعلّق الأمر بالكتب. إنّه معجزة حقيقيّة. لا أستطيع الاتّصال به لأنّه لم يعد يسمع شيئًا تقريبًا ولكنّني سأكتب له كلمةً من أجلك.

توجَّه سيمواس إلى الركن حيث يقع مكتبُه، وكتب بعض الأسطر فوق ورقة دفترٍ وضَعها في ظَرْفٍ ناوَله غريغوريوس قائلًا: «الأمر سيتطلّب منك أن تتحلَّى معهُ بالصّبر. لقد لازَمه سوء الحظّ فترة طويلة، وهو عجوزٌ مثقلٌ بالحزن، لكن بإمكانه أن يكون لطيفًا إذا توخّى أحدُهم الأسلوبَ المناسبَ في الحديث إليه. لكنّ المشكلة تتمثّل في أنّنا نجهل هذا الأسلوب تحديدًا.

بقي غريغوريوس في المحلّ وقتًا طويلًا، ليتعرّف إلى المدينة من خلال الكتب التي كان يجدها هناك. وهكذا كان دأبه.

أوّل رحلةٍ له إلى الخارج، عندما كان طالبًا، قادتهُ إلى لندن، على متن العبَّارة التي كانت تعيده إلى كالي، وقد أدرك أنّه خلال هذه الأيّام الثلاثة، باستثناء نزل الشّباب والمتحف البريطاني والمكتبات العديدة، لم يكتشف حقًّا أيّ شيء آخر في المدينة. « ولكن بإمكاننا شراء هذه الكتب من أيّ مكانٍ آخر» هكذا كان يُردّد الآخرون وهم يهزُّون رؤوسهم تحسّرًا على الأشياء التي فوَّت على نفسه مشاهدتها. فيردّ غريغوريوس: «نعم ولكن في الواقع لن تكون في أيّ مكان آخر».

والآن، وهو واقفٌ أمام الرفوف التي تصل إلى السقف، الرفوف المحمَّلة بالعديد من الكتب البرتغاليّة التي لم يكن يستطيع قراءتها في الحقيقة، انطبع لديه إحساس بأنّه كان في تواصل مع المدينة. عندما غادر

الفندق صباحًا، شعر بأنّه أراد أن يعطي معنى لإقامته فيها: عليه أن يعثر على أماديو دي برادو في أسرَع وقتٍ ممكن.

لكن بعد ذلك، كانت ماريانا إيسا قد تراءت له بعينيها الداكنتيْن وشعرها الأحمر وسترتها المخمليَّة السوداء. وفي تلك اللحظة بالذّات، كانت توجد، كلّ الكتب وعليها أسماء أصحابها القدامى التي تذكِّره بخطّ أنيلي ويس في كتبها اللاّتينيّة.

الزلزال الكبير. باستثناء أنّه وقع عام 1775 وأنّه دمّر لشبونة، لم يكن يعرف شيئًا آخر عن هذا الزلزال الكبير الذي زعزع عقيدة كثيرٍ من الناس. سحَب الكتابَ من الرفِّ. الكتابُ المجاوِرُ الذي اتّخذ بذلك وضعًا منحرفًا كان يحمل عنوان *الموت الأَسود* وكان يتحدّث عن وباء الطاعون الذي اجتاح أوروبا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. تأبّط غريغوريوس الكتابين ثمّ تحوّل إلى الجانب الآخر من القاعة حيث يُوجد جناح الآداب. لويس فاز دي كاموس، فرنشيسكو دي صا دي ميراندا، فرناو موندي بينتو، كاميلو كاستيلو برانكو. عالم بأكمله كان يجهله قبل الآن. وحتّى قبل أن يلتقي بفلورانس.

جريمة *الأب أمارو* لجوزيه ماريا إيسا دي كيروس. تناول الكتابَ وضمَّه إلى الكتابين الأوّلين بحركاتٍ متردّدةٍ كما لو أنّه ممنوع. ثمّ وجَد أمامه فجأةً، *كتاب اللاّطمأنينة* لفرناندو بيسوا. في الواقع كان هذا لا يُصدَّق، ولكنّه سافر إلى لشبونة دون أن يخطر بباله أنّها كانت مدينة مساعد المحاسبات، برناردو سواريس، الرّجل الذي كان يعمل في دوس دورادورس وهو من أوحى إلى بيسوا بتأمُّلاتٍ أكثرَ تفرُّدًا من كلّ التأمّلات التي عرفَها العالم من قبله ومن بعده.

«هل كان ذلك لا يصدّق إلى هذا الحدّ»؟ «*الحقول تبدو أكثر خضرة في الوصف منها في الواقع*»، جملة بيسوا هذه كانت قد أثارت الحريق الأكثر حدّةً بينه وبين فلورانس طوال هذه السنوات.

سبَق وأن تناولت الغداء مع زملائها في قاعة الجلوس وكانت ضحكاتهم وطقطقات الكؤوس تصل إلى مسامع غريغوريوس الذي اضطرّ مُكرهًا للذهاب إلى هناك لجلب كتاب. عندما دخل الغرفة كان أحدُهم يقرأ هذه الجملة. «أليست جملة رائعة؟»، هتفَ أحدُ زملاء فلورانس وهو يهزّ شعره الكثّ الشبيه بشعر فنّان ويضع يده على ذراع فلورانس. «هذه الجملة لن يفهمها إلاّ قلّة». قال غريغوريوس. فجأةً عمَّ الغرفةَ صمتٌ مُروِّع، قَطَعه صوتُ فلورانس الحاد: «وهل أنت من بين هؤلاء المُصْطَفين؟»ببطءٍ متعمَّد، تنَاول غريغوريوس الكتابَ من الرفّ وخرَج دون أن يقول كلمةً واحدةً. ومرّت دقائق قبل أن يسمع مُجدّدًا ضجيجًا وراء الباب.

بعد ذلك، كانت مجرّد رؤيته لـ*كتاب اللاّطمأنينة* في مكانٍ مّا، تدفعه لمواصلة الطريق بسرعةٍ. لم يتحدَّثا قطّ بخصوص هذه الحادثة وقد ظلّ ذلك جزءًا من الأشياء الكثيرة التي بقيت عالقةً في ذاكرته عندما افترقَا.

في هذه اللّحظة، تنَاول غريغوريوس الكتابَ من فوق الرف. «هل تدرك أيّ انطباع يخلّفه لديّ هذا الكتاب المدهش»؟ تساءل السيّد سيمواس وهو يُدخل السعر في الصندوق. «تمامًا كما لو أنّ مارسال بروست هو مَنْ كتب *محاولات* لميشال دي مونتين»

كان غريغوريوس يشعر بالتّعب حدَّ السقوط أرضًا، عندما وَجَد نفسه أعلى شارع غاريت، أمامَ نصب كاموس، حاملًا حقيبة كتبه

الثقيلة. ولكن لم تكن لديه رغبة في الرجوع إلى الفندق. كان يشعر بأنّه وصَل أخيرًا إلى هذه المدينة وكان يريدُ أن يُعمِّق هذا الشعور في داخله حتّى يتأكّد من أنه لن يتَّصل هذا المساء بالمطار لِيَحْجز مكانًا في رحلة عودة إلى بيرن. شرب قهوة وركب بعد ذلك التّرام في اتّجاه مقبرة الملذّات التي كان يقطن بجوارها فيكتور كونتينهو، العجوز المجنون الذي قد يعرف شيئًا عن أماديو دي برادو.

(9)

في ترام لشبونة القديم، عَبَرَ غريغوريوس بيرن من جديد، المدينة التي شهدت طفولته. هذه العربة التي كانت تقلّه عبر البايرو ألتو، العربة المتداعية، المهتزّة والهادرة يبدو أنّها لا تختلف في شيء عن عربات الترام القديمة التي كان يجوب عبرها شوارع بيرن وأزقّتها عندما لا يكون في حاجة إلى دفع ثمن التذكرة. المقاعد ذاتها، تلك المغطّاة بشرائح خشبيّةٍ لامعة، حبل الجرس ذاته المعلّق إلى جانب المقابض المتدلّية من السّقف، الذراع المعدنيّة ذاتها التي كان السّائق يحرّكها للتحكّم في سرعة القطار، الذراع التي ظَلَّ غريغوريوس يجهل آليَّة تشغيلها إلى الآن. في إحدى المرّات، وهو ما يزال تلميذًا في الإعدادية، وقع التخلّي عن عربات الترام القديمة واستعمال عرباتٍ أخرى بدلًا منها، عربات جديدة تقطع رحلاتها بهدوءٍ وسهولةٍ أكبرَ. التلاميذ الآخرون كانوا يتنافسون على ركوب هذه العربات الجديدة. أمّا غريغوريوس الذي لم يكن يجرؤ على البوح بكلّ هذا، إذ كان يزعجه أنّ العالم تغيَّر، فقد استجمع كلّ شجاعته وتوجّه إلى مستودع الترام واستفسر من رجلٍ يرتدي بزّة العمل عن مصير العربات القديمة: «لقد بيعت في يوغسلافيا». قال الرّجل. ومن المؤكّد أنّه قد شاهَد الذُّعرَ يرتسمُ على وجه غريغوريوس لأنّه سارع إلى مكتبه وعاد بنموذجٍ مصغَّرٍ لتلك العربات القديمة، ما يزال غريغوريوس يحتفظ به إلى الآن ويحافظ عليه مثل أيّ اكتشافٍ لاَ بديلَ عنه، اكتشاف يعود إلى

عصور ما قبل التاريخ. لقد كان هذا النموذج يتراءى له عندما توقّف قطار لشبونة مُحدِثًا قلقلةً وصريرًا في المنعطف الأخير.

حتّى الآن، لم يخطر ببال غريغوريوس أنّ البرتغالي ذا البصيرة الثاقبة يمكن أن يكون قد مات. لم تراوده هذه الفكرة إلاّ عندما وجد نفسه أمام المقبرة. بخطى بطيئةٍ وقَلِقة جابَ ممّرات مدينة الأموات التي تحدّها الأضرحة الصغيرة من كلّ جانبٍ.

قد يكون مرّ من الوقت نصف ساعة عندما توقّف أمام ضريحٍ شاهقٍ من الرخام الأبيض تلوَّث بفعل العوامل الجوّية. شاهدتانِ منحوتتانِ من الصّخر بزوايَا مزخرفةٍ: «*هنا يرقد ألكسندر هوراسيو دي ألماييدا برادو الذي ولد في 28 ماي سنة 1890 وتوفّـي في 9 جوان سنة 1954* هذا ما كان يُقرأ على الشاهدة العُليا. وعلى الشاهدة السّفلَى، الأكثر وضوحًا والأقلّ اتّساخًا قرَأ غريغوريوس ما يلي: «*هنا ترقد فطيما إميليا كليمنسيا فالهاردو دي برادو التي وُلدت في الأوّل من جانفي سنة 1926 وتوفّيت في 03 فيفري سنة 1961* . وفي الأسفل، بحروف أقلّ صدَأً كُتب: *هنا يرقد أماديو إيناشيو دي ألماييدا برادو الذي ولد في 20 ديسمبر سنة 1920 وتوفـي في 20 جوان سنة 1973* .

أخَذ غريغوريوس يُطيل النظر إلى هذا الرقم الأخير، الكتاب الذي يحمله في جيبه صدر سنة 1975. لو أنّ أماديو دي برادو هذا، كان هو نفسه الطبيب الذي سبَق وأن تردَّد على معهد السيّد كورتس الصارم، وعاد لاحقًا للجلوس مرّات عديدة على طحلب العتبة الدافئ لأنّه كان يتساءل كيف سيكون الأمر لو أنّه أصبح شخصًا آخر، فلا يمكن أن يكون هو من قام بطبع دفاتره. شخص آخر على الأرجح كان قد قام

بذلك وعلى حسابه الخاصّ. ربّما صديقه أو شقيقه أو شقيقته. آه لو أنّ هذا الشخص كان موجودًا بعد تسع وعشرين سنة! هذا هو الشخص الذي يجب أن يعثر عليه.

مع ذلك كان يمكن للاسم الذي وُجد مكتوبًا على شاهدة القبر أن يكون مجرَّد صدفة. وكان غريغوريوس يرغب في أن يكون هذا الأمر صدفةً عرضيّةً حقًّا. كان يريده بكلّ ما أوتي من قوّة، وهو يعرف إلى أيّ حدٍّ سيشعر بالخيبة وسيفقد شجاعته لو لم يتمكّن أبدًا من لقاء الرّجل الحزين الذي صمّم على إعادة تشكيل اللغة البرتغاليّة لأنّها كانت في بنيتها القديمة مُستهلَكة إلى حدٍّ بعيد.

على الرغم من ذلك تناوَل دفتره ونقل الأسماء مرفقةً بتاريخ الميلاد والوفاة. أماديو دي برادو الذي يرقد هنا، بلغ الثالثة والخمسين من عمره. وكان في الرابعة والثلاثين عندما تُوفّـي والده. هل هو نفس الأب الذي كانت تخذله الابتسامة في معظم الوقت؟ والدته تُوفّيت وهو في الأربعين من العمر. فطيما قالهاردو ربّما كانت زوجة أماديو دي برادو. امرأة لم تتجاوز سنّ الخامسة والثلاثين وتوفّيت وهو في سن الواحدة والأربعين.

مرّة أخرى جالَ غريغوريوس بنظره فوق الضريح، وإذا به يَلْمحُ عبارةً نُقشت على القاعدة التي تغطّي نصفَها شجرة لبلاب: *«إذا كانت الدكتاتورية حدثًا فالثورة واجب»*. هل يمكن أن يكون موت دي برادو هذا سياسيًّا؟ ثورة القرنفل التي حدثت في البرتغال وسقط على إثرها النظام الدكتاتوري، كانت قد وقعت في ربيع 1947 وبالتالي فإن دي برادو هذا لم يشهدها. لكن على ما يبدو فإن الكتابة المنقوشة كانت

تشير إلى أنّه مات وهو يقاوم في صفوف المعارضة. أخرج غريغوريوس الكتاب وتأمّل صورة دي برادو. ربّما يكون هذا صحيحًا، إنّه يتناسب تمامًا مع هذا الوجه وأيضًا مع هذا الغيظ الكامن وراء كتاباته. شاعرٌ ومتعصِّبٌ للّغة، سبق أن رفع السّلاح وقاتل ضدّ سالازار.

وهو يغادر المقبرة، حاوَل أن يستفسر من الرّجل صاحب البزّة النظامية كيف بإمكانه أن يتعرَّف إلى هويةِ قبر مّا. لكنّ كلماته القليلة باللغة البرتغاليّة لم تكن تفي بالغرض، فتناول الورقة التي دوّن عليها سيمواس عنوان الرّجل، الأمين السّابق للمكتبة، وواصل طريقه.

كان فيكتور كونتينهو يسكن منزلًا يبدو على وشك الانهيار في أيّ لحظة، منزلًا منعزلًا وتحجبه عدّة منازل أخرى. وكان الجانب السفلي منه قد غطَّته أشجار اللبلاب كليًّا. لم يكن لِلْباب جرسٌ، لذلك ظلَّ غريغوريوس للحظةٍ مرتبكًا في ساحة المنزل. وما إن همَّ بالمغادرة حتّى سمع صوتًا يجأر من إحدى النوافذ الأمامية:

«ماذا تريد؟»

الرأس الذي أطلَّ من إطار النافذة كانت تكلِّله خصلات شعر تنتهي إلى لحية بيضاء ويضع على أنفه نظّارات بإطار سميك وقاتم: *«أريد أن أسأل عن كتاب»*، صاح غريغوريوس بكلّ ما أوتي من قوّةٍ، ملوِّحًا بدفاتر دي برادو.

«ماذا؟» سأله الرّجل، فكرَّر غريغوريوس طَلَبهُ.

اختفى الشخص وطنَّت فتّاحة الباب. دخل غريغوريوس إلى رواقٍ تصلُ فيه الرفوف المثقلة بالكتب إلى السقف، وحجرُ أرضيّته مغطّى بسجّادٍ شرقيٍّ قديمٍ. وكانت تفوح من هذا المكان رائحة الطعام الفاسد

والغبار وتبغ الغليون. على السلّم الذي كان يُحدث صريرًا، وقَف الرّجل ذو الشعر الأبيض ممسكًا بالغليون في فمه، ومرتديًا قميصًا بمربّعاتٍ كبيرة وألوان باهتة ومبهمة، ينسدل على بنطالٍ قديم من القطيفة، وكان ينتعل خفّيْن بأحزمة.

«من هو؟» قال بصوتٍ مبحوحٍ محاولًا الصراخ على نحو مبالغ فيه. وتحت حاجبين كثيفين، عينان بُنيّتان مائلتَان إلى اللّون العنبري كانتا تشيَان بالغضب. تمامًا وكأنّه شخص تسبَّبنا في إزعاجه.

ناوَله غريغوريوس الظرف الذي يحمل رسالة سيمواس وأخبرَه باللهجة البرتغاليّة بأنّه سويسري، ثمّ أضاف بالفرنسيّة: ومتخصِّص في اللغات القديمة وفي البحث عن مؤلِّف هذا الكتاب. وبما أن كونتينهو لم يحرِّك ساكنًا اضطرَّ غريغوريوس لإعادة طلبه بصوتٍ أعلى.

«لستُ أصمّ !» قاطَعه الرّجل العجوز بلهجة فرنسيّة وقد علَت وجهَه الأسمر المليء بالتجاعيد، سخرية ماكرة ثمّ أضافَ: «للتظاهر بالصمم دورٌ عمليٌّ أمام اللَّغو الذي نسمعه».

كانت لفرنسيّته نبرة جريئة، لكنّ الكلمات، وإن كان يتباطَأ في نطقها، جاءت مرتَّبةً بشكلٍ دقيقٍ. ألقى نظرةً على رسالة سيمواس ثمّ أشار إلى المطبخ في آخر الرواق وسبقه في الدخول إليه. على طاولة المطبخ، كان يوجد إلى جانب علبةِ سردينٍ مفتوحةٍ حديثًا وكأس خمر نصف مليء، كتابٌ مفتوح. جلس غريغوريوس على كرسيّ في الطرف الآخر من المائدة. عندها، قام العجوز بمفاجَأته بحركةٍ غريبة: انتزع نظارته وضبطها على أنفه هو. غمز بعينيه ثمّ نظَر هنا وهناك وهو يقلّب نظاراته الخاصّة بين يديه.

«نشترك في شيء مّا إذن» قال أخيرًا وهو يعيد النظارات إلى غريغوريوس.

إنّه تناغم الذين يسيرون نحو العالم بعدساتٍ سميكةٍ. فجأةً اختفت كلّ تعابير السخط والعداوة من وجه كونتينهو وأمسك بكتابِ دي برادو.

ودون أن ينبس بكلمةٍ واحدة، أخذ يتأمّل صورة الطبيب لمدّة دقائق. وكان بين الحين والحين ينهض كالمُسَرْنَم، ويسكب لغريغوريوس كأس شراب. اندسَّ قِطٌّ في الغرفة وأخذ يتمسَّح بساقيه، لكنّه لم يُعره أيّ اهتمام. نزَع نظّارته وضغط على أنفه بين السّبابة والإبهام، حركة ذكَّرت غريغوريوس بدوكسيادس. في الغرفة المجاورة كانت تُسمَعُ تكتكةُ ساعةٍ حائطيّة. وفي هذه الأثناء، كان كونتينهو يُفرغ غليونه بطَرْقِهِ على الطاولة. ثمّ تناول واحدًا آخر من على الرفِّ وقام بحَشوه. مرّة أخرى أيضًا، مرّت الدقائق قبل أن يبدأ الكلام بصوتٍ منخفض وعلى إيقاع ذكرى بعيدة.

«سيكون من الخطأ لو قلت لك إنّي كنت أعرفه. وليس بالإمكان مجرّد الحديث عن لقاء بيننا. ولكنّني لَمَحْتُه مرّتيْن واقفًا أمام عيادته مرتديًا ميدعةً بيضاء رافعًا حاجبيه في انتظار المريض التّالي. كنت قد زرته رفقة شقيقتي التي كان يعالجها من اليرقان وضغط الدم. لقد كانت مفتونةً به وأعتقد أنّها واقعة في غرامه قليلًا. هذا ليس أمرًا غريبًا فهو رجلٌ رائع وكان يبهر الجميع بإشراقته. كان ابن القاضي برادو الشّهير الذي انتحر، البعض يقول إنّه لم يعد قادرًا على تحمّل آلام ظهره المحني. والبعض الآخر كان يعتقد أنّه لم يكن باستطاعته أن يغفر لنفسه احتفاظه بمنصبه

كقاضٍ تحت حكم الدكتاتورية.

كان أماديو دي برادو طبيبًا محبوبًا ، بل ومبجَّلًا. إلى اليوم الذي أنقذ فيه حياة روي لويس موندز، رجل الشرطة السرّيّة الذي كان يُكنّى بـ «الجزّار». حدَث ذلك في أواسط السّتينيّات بعد ميلادي الخمسين بقليل. ثمّ بدأ يتجنّبه النّاس، ما جعل قلبه ينفطر حُزنًا. ومنذ ذلك الحين وهو يعمل لصالح المقاومة دون أن يعلم أحدٌ بذلك. كما لو أنّه كان يريد أن يكفِّر عن عمليّة إنقاذه لذاك الرّجل. لم نعلم بهذا إلاّ بعد وفاته بوقتٍ قصير. وحسب اعتقادي فقد كان موته مفاجئًا جدًّا، بسبب نزيف في المخّ، قبل سنةٍ واحدة من اندلاع الثورة. كان يعيش مع أدريانا، شقيقته التي تعبده.

على الأرجح هي من قامت بطبع هذا الكتاب. وأعتقد أنّني أعرف أين طبَعته. لكنّ المطبعة لم تعد موجودةً منذ وقتٍ طويل. منذ سنواتٍ ظهَر في مكتبتي، لكنّني ركنته جانبًا دون أن أقرأه. لقد شعرت بالنفور تجاه هذا الكتاب وأجهل السّبب حقًّا. ربّما لأنّني لم أكن أحبّ أدريانا رغم أنّني لم أكن أعرفها إلاّ قليلًا. ولكنّها كانت تساعده في العيادة، وفي المرّتيْن اللّتيْن زُرته فيهما أزعجني كثيرًا أسلوبها الفظّ في التعامل مع المرضى. لم يكن ذلك من الإنصاف في شيء ولكن هكذا كنت دومًا».

أخَذَ كونتينهو يتصفَّح الكتاب.

«يبدو أنّ الجمل جميلة وكذلك العنوان. لم أكن أعرف أنّه كان يكتب. أين وجدته؟ وماذا تريد من مؤلِّفه؟»

الحكاية التي قصَّها غريغوريوس إذن، كانت مختلفةً عن الرواية التي خصَّ بها جوزيه أنطونيو دي سلفيرا في قطار اللّيل. لأنّه يتحدّث الآن

عن المرأة الغامضة التي التقاها فوق جسر كرشنفلد وعن رقم الهاتف المدوَّن على جبينه.

«هل مازلتَ محتفظًا بالرقم؟» قال الرّجل العجوز الذي راقت له الحكاية إلى درجة أنّه فتح قارورة خمرٍ أخرى.

بعد هنيهة همَّ غريغوريوس بإخراج دفتره ولكنّه سرعان ما شعر بأنّ هذا التصرّف مبالَغٌ فيه. فبعد حادثة النظّارات، يمكن الجزم بأنّ الرّجل العجوز سيتّصل بهذا الرّقم. لقد سبَق لسيمواس وأن صرَّح بأنّه مجنون. وهذا لا يعني أنّ كونتينهو فقَدَ عقله. لم يكن هناك أيّ شكٍّ في ذلك. الشيء الذي كان يبدو أنّه فقده في حياته المنعزلة مع قطّة، كان الشعور بالمسافة وبالقرب.

«كلاّ» ردَّ غريغوريوس أخيرًا، لم يكن يملك الرّقم. «للأسف !» قال العجوز الذي لم يكن يصدّق كلمة واحدة.

«لا وجود لأدريانا ألمايدا دي برادو في دليل الهاتف» قال غريغوريوس بعد صمتٍ مرتبكٍ.

«هذا لا يعني أيّ شيء» همهم كونتينهو بعبوس .أدريانا لو كانت حيّةً إلى الآن لكان عمرها حوالي الرّابعة والثمانين سنة، والكبار في السِّنّ يعمدون إلى فصل هواتفهم. لقد فعل ذلك هو أيضًا قبْلَ وقتٍ قصير من الآن. ولو كانت ميّتةً فسيكون اسمها أيضًا مكتوبًا على القبر. أمّا الآن، وبعد مرور أربعين سنة فقد نسي المكان الذي أقام فيه الدكتور وعمل به.

في مكان مّا من البايرو آلتو، لن يكون من الصّعب العثور عليه لأنّه كان منزلًا تُزيِّن واجهتَه الكثير من المربّعات الزرقاء. ويمكن رؤية المنزل الأزرق الوحيد عن بعد ومن كلّ الجهات. على أيّ حالٍ، فقد كان فيما

مضى يُعرف عند الجميع *بالعيادة الزرقاء*.

عندما همّ غريغوريوس بمغادرة الرّجل العجوز، بعد مرور ساعة، كانت المسافة بينهما قد تقلّصت من جديد. لكنّ جفاءً وتواطؤًا مفاجئيْن كانا يتناوبان في سلوك كونتينهو بشكلٍ غير منتظم دون أن يتبيّن السّبب وراء هذه التغيّرات المفاجئة.

عبر غريغوريوس وهو في حالةِ ذهولٍ المنزل الذي لم يكن سوى مكتبة حتّى آخر زاوية منه. كان الرّجل العجوز مولعًا بالقراءة ويملك عددًا غير محدودٍ من الطَبعات الأصليّة. وكان يعرف كلّ أسماء العائلات البرتغاليّة. وعلِم غريغوريوس أنّ آل دي برادو من سلالةٍ عريقة جدًّا تعود إلى يوحنّا نونيز دي برادو حفيد ألفونسو الثالث، مَلِك البرتغال. أمّا إيسا فإنّها من سلالة بيدرو الأوّل وإيناس دي كاسترو. وكان هذان الاسمان هما الأكثر عراقةً في تاريخ البرتغال.

«اسمي أنا، وبكلّ فخر، هو أيضًا أكثر عراقةً وينتسبُ إلى العائلة المالكة». قال كونتينهو بنبرةٍ ساخرة تفضَح كبرياءَه.

كان يحسد غريغوريوس على معرفته العميقة باللّغات القديمة، وقد توقّف حين كان متّجهًا نحو الباب، أمام أحد الرفوف وتناول نسخةً إغريقيّة - برتغاليّة من العهد الجديد قائلًا: «لا أعرف أبدًا ما يدفعني لأهديك هذه النسخة، ولكن هذا ما يحصل الآن».

عندما عبر غريغوريوس السّاحة كان يعرف أنّه لن ينسى أبدًا هذه الجملة ولا حتّى يدَ هذا الرّجل العجوز التي وضعها فوق ظهره، اليد التي كانت تدفعه خارجًا برفق.

تقدّم الترام محدثًا طقطقةً بينما كان المساء يسدل ستاره. وفي اللّيل،

لن يتمكّن من العثور على المنزل الأزرق، قال غريغوريوس في نفسه. بدا له النهار أبديًّا، وفي تلك اللّحظة أسند رأسه إلى نافذة العربة الضبابيّة وهو يشعر بالإرهاق. هل كان صحيحًا أنّه لم يمض على وجوده في هذه المدينة سوى يومين؟ وأنّ أربعة أيّام فقط، أي أقلّ من مائة ساعة قد مرّت منذ أن ترك كتبه باللغة اللاّتينيّة فوق مكتبه؟

وصَل إلى روسيو، السّاحة الأكثر شهرة في لشبونة، وأخذ يتسكّع هناك وحقيبة مكتبة سيمواس الثقيلة فوق ظهره حتّى بلغ الفندق.

(10)

لماذا تحدَّث إليه كاجي بلغة تبدو في نبرتها شبيهةً بالبرتغاليّة ومع ذلك لم تكن تشبهها في شيء؟ ولماذا هاجم ماركوس أوريليوس دون أن يقول كلمةً واحدة عنه؟

كان غريغوريوس جالسًا على حافّة سريره يفرك عينيْه ليطردَ عنهما النّوم. بعد ذلك تراءى له الحارس وهو يسكبُ الماء في ردهة المعهد لينظّف المكان الذي سبق أن وقف فيه رفقة البرتغاليّة، عندما كانت تجفّف شعرَها. قَبْلَ ذلك أم بعدَه، لا سبيل إلى معرفة الأمر، رافقها غريغوريوس إلى مكتب كاجي ليقدّمها إليه. ولهذا لم يكن في حاجةٍ إلى فتح أيّ باب. لقد وجدَا نفسيْهما ببساطةٍ أمام مكتب المدير الكبير، شبيهين إلى حدٍّ مّا بمترشّحيْن إلى عملٍ نَسيَا مطلبهما. فجأةً ورغم أنّ كاجي لم يعد موجودًا هناك، كانت الطاولة والجدران من خلفها قد اختفت، وفسحت المجال لرؤية اللألب.

لاحَظ غريغوريوس أنّ باب الثلاجة الصّغيرة كان مواربًا. في لحظة مّا أيقظه الجوع من النوم فأكَل حبّات الفول السوداني والشوكولا. قبل ذلك، كان صندوق بريده المترع بالرسائل في شقّته ببيرن قد تسبّب له في ألم كبير. تراءت له كلّ الفواتير والدعايات وهي تشتعل، وفجأةً اشتعلت مكتبته قبل أن تتحوّل إلى مكتبة كونتينهو التي لم تعد تحوي إلاّ صفًّا لا نهاية له من الأناجيل المحترقة.

في وجبة الإفطار تناوَل من كلّ طبقٍ مرّتيْن، ثمّ ظلّ قابعًا هناك أمام استياء النادلة التي كانت تجهِّز غرفة الطعام من أجل الغداء. لم تكن لديه فكرة عمّا سيحدث فيما بعد. سمع حديث زوجين ألمانيين وهما يضبطان برنامجهما الصّباحي لهذا اليوم. أخذ هو أيضًا يحاول ذلك، لكن دون جدوى. لم تكن لشبونة تثير فضولَه كسائح، لشبونة المدينة التي فرَّ إليها خارج حياته. كلّ ما كان بإمكانه تخيُّله هو ركوب العبَّارة على نهر تاجة ليتمكَّن مرَّة أخرى من رؤية المدينة من هذه الزاوية، ولكن في الواقع لم يكن هذا ما يريده على الإطلاق. «ماذا كان يريد إذن؟»

في غرفته جمع كتبه المتكوّمة: «مجلَّدان حول الزلزال والموت الأسود، رواية إيسا كيروس، *كتاب اللاّطمأنينة* والعهد الجديد ودروس اللّغة». بعد ذلك حزم حقيبته ليجرِّب حملَها ثمّ وضعها أمام الباب.

كلاّ، الأمر لم يكن متعلِّقًا بهذا أيضًا، ولا بالنظّارات التي كان عليه أن يذهب لجلبها غدًا. أن يصل الآن إلى زيوريخ ويذهب إلى بيرن عبر القطار: «لم يكن هذا ممكنًا ! لم يكن هذا ممكنًا».

وماذا أيضًا إذن؟ هل كان هذا هو تأثير فكرة الوقت الذي يمضي والموت؟: ألاّ يعرف المرء فجأةً ماذا نريد منه بالضّبط؟ ألاّ يعود بمقدوره معرفة ما يريده بالضّبط؟ أن يفقد هذه الحميميَّة الفطريَّة كليًّا وبكامل إرادته؟ وهل يكون عائقًا أمام نفسه وغريبًا عنها في آن معًا؟

لماذا لا يذهب بنفسه للبحث عن المنزل الأزرق فلربّما كانت أدريانا دي برادو ما تزال تسكن هناك لمدّة إحدى وثلاثين سنة بعد موت شقيقها؟ لماذا وجد حاجزًا أمامه فجأةً؟

قام غريغوريوس بما كان يقوم به دومًا كلّما أصابه التردّد: فتَح كتابًا.

والدته، ابنة قروي من ضاحية بيرن، كانت نادرًا ما تمسك كتابًا بين يديها. وكحدٍّ أقصى، تناولت في إحدى المّرات روايةً محليّةً للودوفيغ قانقوفر، قرأتها على امتداد أسابيع. أمّا الأب فقد اكتشف القراءة كوسيلة للتغلّب على الملل في قاعات المتحف الفارغة. وعندما شعر بمتعتها، أخذ يقرأ كلّ ما يقع تحت يده. «الآن، تلوذ أنت أيضًا بالكتب» هذا ما قالته الأم لابنها عندما اكتشفَ القراءة هو الآخر. حزَّ في نفس غريغوريوس أن تنظر والدته إلى الأمر من هذه الزاوية وألاّ تفهم ما كان يرمي إليه حينما تحدّث عن سحر الجمل الرائعة وطاقتها النورانيَّة.

هناك من يقرؤون ومن لا يقرؤون. ومن السهل معرفة ما إذا كان الشخص قارئًا أم لا. أضِفْ إلى ذلك، لا توجد فروق كبيرة بين الناس. الجميع يتعجّب عندما كان يجزم بهذا الأمر وأكثر من واحد كان يهزُّ رأسه أمام غرائب كثيرة كهذه. ولكن دون جدوى. غريغوريوس كان يعرف ذلك. إنّه *يعرف ذلك*.

صرَف الخادمة. وأرهق نفسه خلال السّاعات القادمة في فهم المقطع الذي لفَت عنوانه انتباهه عندما تصفَّح كتاب دي برادو.

باطنُ ظاهرِ الباطن

قبل فترة من الزمن، في صباح يومٍ مشرق من شهر جوان، عندما كان نور الشمس الساطعة ينتشر بهدوء في الطرقات، توقَّفْتُ في شارع غاريت، أمام واجهةٍ زجاجيةٍ كنت أرى من خلالها، عوضًا عن البضائع المعروضة، انعكاسَ صورتي.

كان يزعجني أن أشكّل عائقًا أمام نفسي، لا سيّما أنّ كلّ هذا المشهد كان كما لو أنّه يرمز لعلاقتي الطبيعيّة مع ذاتي. وفي ظل الهوَّة التي

خلّفتها بيدي، كنت على وشك أن أفتح أمام عيني طريقًا إلى الباطن، عندما ظهر خلف ظلّي، خيالُ رجلٍ طويل القامة وهو ما جعلني أشعرُ بأنه ظلٌّ يهدّد بعاصفة ستغيّر العالم. توقّف الغريبُ، أخرَج من جيب قميصهِ عُلبة سجائر سحَب منها سيجارةً وضعها بين شفتيْه. وكان وهو يَمجُّها، يجولُ بنظره في المكان وفي النهاية حدَّق فيّ. ما الّذي يعرفُه بعضُنا عن بعض، نحن البشر؟ قلتُ في نفسي. ولكيْلا أضطرّ إلى مواجهة انعكاس نظرته، تصرَّفتُ كما لو أنني كنت أستطيع أن أميّز دون جهد محتوى العرض. كان الغريب ينظر إلى رَجُلٍ نحيلٍ، بشعرٍ رماديّ اللّون ووجه صغير حادٍّ وعدساتٍ مستديرةٍ يحملها إطارٌ ذهبيّ، تخفي خلفها عينين داكنتين. رمقتُ ظلّي بنظرة متفحّصة، وكعادتي دومًا، كنتُ أجعلُ كتفيَّ البارزتين أشدّ استقامةً من أيّ شيء آخر، ورأسي مرفوعًا شامخًا إلى الحدِّ الذي كانت قامتي تسمحُ به، منحرفًا إلى الخلف. وكان ذلك دون أدنى شكّ، ما يقوله حتّى أولئك الذين كانوا يحبّونني كثيرًا: كنت أبدو ناقدًا متعاليًا لتصرّفات البشر، أحتقرُ كلّ ما هو إنسانيّ فظّ، وجاهزًا للسخرية من أيّ شيء ومن أيّ أحد. كان هذا هو الانطباع الذي يجب على الرّجل المدخّن أن يشعر به نحوي.

كم كان مخطئًا! في الواقع أعتقد أحيانًا أنني أتصرّف وأمشي هكذا، مستقيمًا إلى حدٍّ مبالغ فيه، في محاولة للاعتراض على جسد والدي المنحني بشكلٍ دائم، على الألم الذي يشعرُ به مَنْ هَزَمَهُ مرضُ التهاب الفقرات التصلّبي، على إبقاء نَظري مُطرقًا إلى الأرض مثل خادمٍ لا يجرؤ على الاقتراب من سيّده مرفوع الرأس وهو يحدّق إلى

الأمام. ثمّ لعلّ الأمر كان كما لو أنّه باستطاعتي وأنا أتمدّد، أن أقوّم ظهرَ والدي وأعيد له كبرياءه في قبره، أو بفضل التأثير السّحري والرجعيّ لقانون مّا، أن أعمل على أن تكون حياته أقلّ انحناءً ووضاعةً بفعل الألم مقارنةً بما كانت عليه في الواقع. لكأنّني كنت أستطيع بجهدي الحالي أن أُجرِّد الماضي المؤلم من طابعه الحقيقي وأعوِّضه بآخر أفضلَ وأكثر تحرّرًا.

ولم يكن هذا هو الوهم الوحيد الذي كان على رؤيتي أن تثيره لدى الغريب الواقف خلفي. فبعد ليلةٍ سرمديّة، هجرني خلالها النوم وبقيت دون سلوى، كنت سأكون آخر من ينظر إلى الآخرين بازدراء. البارحة كنت مُضطرًّا إلى مُصارحة مريضٍ في حضرة زوجته بأنّه لم يعد أمامه متّسع من الوقت ليعيش. عليك أن تصارحَه بذلك. هكذا كنتُ أحاولُ إقناع نفسي قبل أن أطلبهما معًا في قاعة الفحص. يجب عليهما أن يتحضَّرا لهذا الأمر، وذلك من أجلهما ومن أجل أبنائهما الخمسة. وعلى أيّة حال، جانب من الشرف الإنساني يكمن في القدرة على مواجهة القدَر وجهًا لوجه مهما بلغت قسوته. كان ذلك في بداية السهرة، هبّت ريح خفيفة ودافئة عبر نافذة الشرفة المشرّعة حاملةً معها صخَب نهارٍ صيفيٍّ مُنقَضٍ وماحيةً كلّ روائحه. ماذا لو كان باستطاعتنا أن ننساق وراء موجة المَرح العذبة هذه دون تحفُّظٍ، ناسين أنفسنا. فقط لو أنّ المطر وريحًا قاسيةً كانا الآن يضربان النوافذ! هذا ما تمنَّيته عندما كان الرّجل والمرأة يجلسان أمامي على حافّة كرسيّيهما، متردِّدَين، يتملّكهما توقٌ وقلقٌ، ومتلهِّفَيْن لسماع الحُكم الذي سيعلن براءتهما وينهي فزعهما

من موت قادم، كي يتسنّى لهما النزول والاختلاط بالمتسكّعين من المارّة. أمواج متلاطمة من الوقت في انتظارهما. نزعتُ نظّارتي وضغطتُ على أنفي بين السبّابة والإبهام قبل أن أبدأ الكلام. مؤكّدٌ أنهما أوّلاً هذه الحركة على أنها نذير حقيقةٍ مرعبةٍ لأنني عندما رفعت عينيَّ كان أحدُهما قد أمسك بيد الآخر، هذه الأيدي التي كانت بالنّسبة إليّ -وهذه الفكرة خنقتني حتّى أصبحت فترة انتظاري المزعجة أطول- قد فقدت منذ عشرات السنين عادة أن تتماسّا بهذا الشكل. أطرقتُ رأسي وبدأتُ الحديث إلى هذه الأيدي، إذ كان من الصّعب مواجهة نظراتهما الشاحبة التي كان ينبعث منها فزعٌ غيرُ مُسمّى.

كانت الأيدي متشابكة وقد كوّنت حلقةً من أصابعٍ بيضاء ممتقعة سَرقت النوم من عينيّ، حاولتُ جاهدًا أن أطردها من مخيّلتي عندما خرجتُ في هذه النزهة التي قادتني أمام الواجهة المتلألئة. (كنت أحاولُ أيضًا طردَ شيء آخر في هذه الشوارع المضيئة، إنّها ذكرى الغضب الذي أثارته كلماتي وأنا أعلن عن ذلك الخبر القاسي، الخبر الذي تحوّل فجأةً إلى غضبٍ ضدّ أدريانا التي كانت تعتني بي أفضل من أمّ، لأنها نسيت مرّة أن تجلبَ معها خبزي المفضل. آه لو أنّ هذا الضوء الصباحيّ المتلألئ كذهبٍ أبيض قادر على أن يمحو هذا الظلم الغريب عن شخصي!)

الرّجل صاحب السيجارة الذي كان يستند في تلك اللّحظة إلى عمود الإنارة، كان يجول بنظره بيني وبين الشارع المزدحم. ما يظهر له منّي لا يمكن أن يكشف له عن أيّ جانب من هشاشتي

المثقلة بعدم الثقة في نفسي، هشاشتي غير المنسجمة مع مظهري المتغطرس بل والوقح أيضًا. تحوَّلتُ في نظرته، كَرَّرتها في نفسي وتأمَّلتُ ظلّي بعد أن انتزعته منه. الشخص الذي كُنته، الشخص الذي كنتُ أوحي بأنني هو، لم أكنه قطّ، ولا ثانيةً واحدة من حياتي. لا في المدرسة ولا في الجامعة ولا حتّى في عيادتي. هل إنّ الآخرين أيضًا لا يتعرَّفون على أنفسهم انطلاقًا من مظهرهم الخارجي؟ هل أنّ انعكاس صُوَرهم كان يبدو لهم هُوَّة مرعبةً بين نظرة الآخرين إليهم والأسلوب الذي يتّبعونَه هُم أنفسهم في حياتهم؟ المعرفة من خلال الباطن والمعرفة من خلال الظاهر، هل هما مختلفتان إلى درجةٍ تجعلهما لا يخصّان الشخص نفسه؟

ابتعادنا عن الآخرين إلى حيث يحملنا هذا الوعي، يكبر أكثر عندما ندرك أنّ مظهرنا الخارجي لا يبدو لهم مثلما يبدو لنا شخصيًّا. نحن لا ننظر إلى البشر على أنّهم منازل أو أشجار أو نجوم. نحن ننظر إليهم في انتظار أن نتمكّن بشكلٍ من الأشكال من أن نلتقيهم وبالتّالي ندمجهم في عالمنا الدّاخلي. الخيالُ يُقوّم صورهم حتّى تلائم أمانينا وآمالنا الشخصيّة، ولكن أيضًا حتّى نتمكّن من تصديق مخاوفنا وأحكامنا المسبقة. حتّى إنّنا لن نصل إلى الحدود الخارجية للآخر بأسلوب واثقٍ وعفوي. على الطريق، أصبحت النظرة شاردةً وقلقة جرّاء كلّ الأماني والأوهام التي تجعل منّا الشخص المتميّز والمرِن الذي نحن عليه. حتّى ظاهر الباطن هو أيضًا جزءٌ من عالمنا الدّاخلي دون أن نتحدّث عن الأفكار التي نُكوّنها عن العالم الدّاخلي لشخصٍ غريب، أفكار لشدّة التباسها وتقلُّبها كانت

تعبّر عنّا نحن أكثر من الآخر. كيف يرى الرّجل صاحب السّيجارة هذا الآخر الذي يقف مستقيًا، بوجهه النّحيل وشفتيه الممتلئتين ونظّارته الذهبيّة الموضوعة على أنفٍ حادٍّ ومستقيم، أنفٍ يبدو لي شخصيًّا طويلًا جدًّا ومستبدًّا جدًّا ؟ كيف لهذا الظلّ أن يتأقلم مع متعته أو استيائه وبنية روحه ككلّ؟ ماذا في هيْئتي جَعله يُطيل النظر ويجعله أكثر حدّةً وما الذي سيتجاهله كأنّه كتلة تافهة؟ حتمًا سيكون كلّ ما توهّمه الرّجل المدخّن حول انعكاس صورتي رسمًا ساحرًا، والصّورة التي يتخيّلها عالم أفكاره عن عالم أفكاري ستكوّن صورةً ساحرةً فوق أخرى، وهو ما يجعل كلاًّ منّا غريبًا عن الآخر غربةً مضاعفةً ! العالم الخارجي الخادع لم يكن وحده ما يقف بيننا ولكن أيضًا الصّورة الوهميّة التي تولد في كلّ عالم داخلي.

هل ثمّة سوء في هذه الغرابة، في هذا البعيد؟ هل على رسّام أن يجسّدنا وذراعَانا متباعدتَان يائستَان في محاولتنا الفاشلة في الوصول إلى الآخرين؟ أم أنّ على لوْحَته أن تُظهرنا في موقفٍ يعبّر عن ارتياحِنا أمام هذا الحاجز المضاعف الذي كان جدارًا في نفس الوقت؟ هل علينا أن نُقرَّ بالجميل لهذا الإحساس بالأمان الذي يُمكّننا من أن نظلَّ غريبينْ؟ ولهذه الحرية التي تجعله ممكنًا؟ ماذا سيحصل لو كنّا وقفنا وجهًا لوجه دون الانكسار المزدوج الذي يمثّله الجسد القابل للتأويل؟ لو لم يكن هناك شيء يفصل بيننا ويزوّرنا هل كان أحدُنا ارتمى في الآخر، إن جاز التعبير؟»

كان غريغوريوس، وهو يقرأ وصف دي برادو لنفسه، يطيل النظر إلى صورته في أوّل الكتاب. عَمد في خياله إلى جعل شعره رماديًّا وألْبس

وجهه نظّارات بعدسات دائرية الشكل وإطارٍ ذهبيّ. كان الآخرون قد لمسوا فيه عجرفةً، وحتّى احتقارًا للجنس البشري. ومع ذلك، فقد كان حسب شهادة كونتينهو طبيبًا محبوبًا ومبجَّلًا إلى أن جاء اليوم الذي أنقذ فيه رجل الشرطة السريّة. بعد ذلك أصبح منبوذًا من طرف أولئك الذين كانوا يحبّونه. وهو ما جعل قلبه ينفطر حُزنًا وحاول إصلاح الخطأ بالانخراط في المقاومة.

كيف يمكن لطبيبٍ أن يكون في حاجةٍ إلى التكفير عن فعلٍ هو، في حقيقة الأمر، واجبٌ على كلّ طبيبٍ ولا يجب أن يكون ذنبًا؟

ربّما يوجد في رواية كونتينهو شيء مّا غير دقيق، تساءل غريغوريوس. مؤكّدٌ أنّ الأشياء كانت أكثرَ تعقيدًا وأكثرَ ارتباكًا. أخذ غريغوريوس يتصفَّح الكتاب وتذكّر قول برادو: *ما الّذي يعرفه بعضُنا عن بعض، نحن البشر؟* قد يكون برادو كتَب شيئًا مّا حول هذا المنعطف المؤلم من حياته؟ وبما أنّه لم يجد شيئًا مهمًّا، فقد غادَر الفندق عند الغسق وسارَ في طريقه نحو شارع غاريتا حيث سبق لبرادو وأن شاهد انعكاس صورته في الواجهة الزجاجية وحيث يوجد محلّ جوليو سيمواس.

كانت أشعّة الشمس قد اختفت كليًّا، ولم يعد بالإمكان تحويل الواجهة الزجاجية إلى مرآة. بَيْد أنّ غريغوريوس وجَد في نهاية المطاف مغازةً لبيع الملابس مضاءةً بشدّةٍ، فيها مرآةٌ ضخمة استطاع أن يرى فيها صورته من خلال الواجهة الزجاجية. حاولَ أن يقلِّد برادو: أن يتحوَّلَ داخلَ نظرةٍ غريبة، أن يعيد استنساخها في داخله، ثمّ يتأمَّل عبر هذه النظرة انعكاس صورته، أن يتعامل مع نفسه كغريب، كشخص تعرَّف إليه حديثًا.

هكذا كان يراه زملاؤه وتلامذته إذن. هذا ما كان يبدو عليه موندوس. وفلورانس أيضًا كانت قد رأته على هذه الهيئة. في البداية كتلميذةٍ عاشقة تجلس في المقعد الأوّل ولاحقًا كزوجةِ رجلٍ مزعجٍ ومملٍّ بشكلٍ متزايدٍ، كان في غالب الأحيان يستغلّ عِلْمه في تدمير سحر عالَمها بكلّ ما فيه من بساطة وأناقة، العالم اللاّتينيّ المشرق.

كانوا جميعًا يروْنه على هذه الصورة ومع ذلك، وكما كان يقول دي برادو، فقد كان في كلّ مرّة يبدو لهم شخصًا مختلفًا تمامًا، لأنّ كلّ ما نشاهده في العالم الخارجي هو جزءٌ لا يتجزّأ من عالمنا الباطني. البرتغالي كان واثقًا مِنْ أنّه لم يكن في لحظة واحدة من حياته كما كان يبدو للآخرين، لم يتعرّف إلى ذاته من مظهره الخارجي رغم أنّه مألوف بالنّسبة إليه. وقد انتابه فزع عميق أمام الطابع الغريب لهذا الظاهر.

فجأةً انتفض غريغوريوس لأنّ شابًّا مستعجلًا مرّ بجانبه ودفعه بشدّة. الخوف الشديد الذي انتابه جرّاء الإصابة، تزامَن مع اطمئنانه لكوْنه لم يكن يملك ثقةً تضاهي ثقة الطبيب. كيف استطاع دي برادو أن يصل إلى الاقتناع بأنّه خلاف ما كان يراه عليه الآخرون؟ كيف وصَل إلى هذا الاقتناع؟ كان يتحدّث عن ذلك كما لو أنّه يصف نورًا داخليًّا، نورًا يكشف في الوقت نفسه عن العلاقة الحميمة مع الذات. وأكبر من ذلك، إحساسه بأنّه لم يعد هو نفسه في عيون الآخرين. أغمضَ غريغوريوس عينيه وتخيَّل نفسه مُجدَّدًا جالسًا في مطعم القطار الذي كان يسير في اتّجاه باريس. هل كانت الصحوة الجديدة التي غمرته عندما أدرك أنّ رحلته هي الحقيقة بعينها، تشبه الصحوة الاستثنائيّة التي كان البرتغالي يُبديها تجاه نفسه، ودفع ثمنها وَحْدَه؟ أم أنّ الأمر كان يتعلّق بميزتين مختلفتين تمامًا؟

يُقال عن غريغوريوس إنّه اجتاز العالم كما لو كان منكبًّا على كتابٍ وغارقًا في قراءته دون كللٍ. في تلك اللّحظة نهض وحاول أن يستشعر ماهيَّة أن تُقوِّم ظهر الأب المنحني بشكلٍ مؤلم بالوقوف مستقيمًا ومرفوع الرأس.

فيما مضى درَّسه في المرحلة الإعدادية أستاذٌ يُعاني من مرض التهاب الفقرات التّصلّبي. هؤلاء المرضى كانوا يُسقطون رؤوسهم إلى الخلف كي لا يضطّروا إلى النظر نحو الأسفل بشكلٍ دائم. هم أيضًا يبدون على الهيئة التي وصفها دي برادو عندما التقى بالحارس في زيارته إلى مدرسته: كان له جسم طائر. نُكت قاسية كانت تذاع عن الظهر المحدودب كان الأستاذ يردّ عليها بانتقامٍ أشدّ مكرًا وصرامةً. كيف بالإمكان تقبّل وجود أبٍ مجبرٍ على أن يقضي عمره في هذا الوضع المهين، ساعةً بعد ساعةً ويومًا بعد يومٍ، في المحكمة وعلى مائدة الطعام مع أبنائه؟

كان ألكسندر هوراسيو دي ألماييدا برادو قاضيًا، قاضيًا مشهورًا حسب قول كونتينهو، وقد كان مخلِصًا للقانون تحت حكم سالازار، تحت حكم رجلٍ خالف القانون. قاضٍ لم يكن يستطيع أن يغفر لنفسه ذلك وكان يَنشُد الموت. «*إذا كانت الدكتاتورية حدثًا، فإنّ الثورة واجب*» . هذا ما كان منقوشًا على قاعدة ضريح دي برادو. هل كان هذا متعلّقًا بالابن الذي انخرط في المقاومة؟ أم بالأب الذي عرف حقيقة هذه الجملة بعد فوات الأوان؟

عندما ذهب في اتّجاه السّاحة الكبرى، شعر غريغوريوس بأنّه في حاجة إلى إجابات عن هذه الأسئلة وكان يتوقُ إلى ذلك أكثر من رغبته في معرفة حلّ الألغاز التّاريخية العديدة التي اعترضته طيلة حياته

في النصوص القديمة. لماذا؟ القاضي كان ميّتًا منذ نصف قرن والثورة وقعت منذ ثلاثين سنة وموت الابن حَدَث هو أيضًا في هذه الفترة من الماضي البعيد. لماذا إذن؟ أيّ معنى لكلّ هذا؟ كيف لكلمة واحدة قالها البرتغالي ولرقم هاتف كُتب على جبينه أن تكون لهما القدرة على انتزاعه من حياته الهادئة جدًّا وإقحامه، بعيدًا عن بيرن، في حياة برتغاليٍّ لم يعد ينتمي إلى هذا العالم؟

في مكتبة روسيو وقعت عيناه على كتاب يُلَخِّص سيرة أنطونيو دي أوليفيرا سالازار، الدكتاتور الذي لعب دورًا حاسمًا وربّما قاتلًا أيضًا في حياة آل برادو. كان الغلاف يُظهر صورة رجلٍ متَّشح بالسّواد، وجهًا مهيبًا دون أن يكون قاسيًا، نظرة حادّة بل ومتعصِّبة أيضًا، غير أنّها كانت تكشف عن ذكائه الحادّ. تصفَّح غريغوريوس الكتاب وفكّر في أنّ سالازار أراد السّلطة ولكنّه لم يستَوْلِ عليها بوحشيّةٍ عمياء وعنفٍ أصمّ، ولا حتّى استمتع بها مثلما نستمتع بالأكلات الباذخة خلال وليمة شهوانية. كي ينالها ويحافظ عليها بشكلٍ دائمٍ، تخلّى في حياته عن كلّ ما يمكنه أن يشوّش يقظته العالية الناتجة عن انضباط تامٍّ وعادات صارمة. لقد كان الثمن باهظًا، كنّا نستطيع قراءة ذلك على ملامح وجهه الحادّة وابتسامته المكبوتة. ضرورات هذه الحياة ودوافعها المكبوتة وسط عظمة السّلطة، قد انطلقت في شكل تعليمات قاسية تليق بمنفّذ عمليّاتٍ عظيمة، شوّهها خطاب المصلحة الوطنيّة حتّى أصبح من الصّعب التعرّف عليها.

بقيَ غريغوريوس مستيقظًا في العتمة مفكّرًا في المسافة الكبيرة التي ظلّت تفصله عن مسار العالم، دون أن يكون مهتمًّا بالأحداث السياسيّة فيما

وراء الحدود. في شهر أفريل سنة 1974، عندما انهارَ النظام الدكتاتوري في البرتغال، سافر بعض الزملاء من جيله إلى هناك وانزعجوا منه عندما صرَّح بأنّ السياحة السياسيّة لم تكن تَعنيه في شيء. لا يمكن الجزم إذن، بوصفه كائنًا منزليًّا أعمى، بأنّه لم يكن على علمٍ بشيء ممّا يدور حوله. ولكن بالنّسبة إليه كان الأمر شبيهًا نوعًا مّا بقراءة ثوسيديديس، كتاب لثوسيديديس منشور في الصحيفة ويتابعه الجميع في أخبار التلفزة. هل كان لهذا علاقة بسويسرا وبطابعها المنيع أم بشخصه هو فقط؟ أم أنّ له علاقة بالسّحر الذي تمارسه عليه الكلمات، الكلمات التي تغدو الأشياء بعيدًا عنها، أكثر قسوةً ودمويةً وظُلمة، أيًّا كانت هذه الكلمات؟ أو ربّما كانت لذلك علاقةٌ بقِصَر بصره أيضًا؟

عندما كان والده الذي لم يتجاوز رتبة ضابط صفٍّ يتحدّث عن الفترة التي عسكرت فيها سَرِيَّته على ضفاف نهر الراين، كما كان يقول هو، ابنه، كان يشعر دومًا بأنّه يستمع إلى مغامرة خياليّة سخيفة نوعًا مّا، تكمن أهميّتها الوحيدة في أنّها ستُخلِّف لاحقًا ذكرى مثيرة تنبثق من بساطة الحياة. حدَث وأن شعُر الأب بذلك، وفي أحد الأيّام انفجر غاضبًا: «كنّا نشعر بالخوف، بخوفٍ شديدٍ لأنّ الوضع كان يمكن ببساطة أن يأخذ منحى آخر وبالتالي لم تكن لتولد أبدًا.» رغم كلّ شيء فقد كانت كلماتٍ غاضبة، خجل الابن من سماعها ولم ينسها مطلقًا.

هل كان هذا هو السبب الذي جعله يرغب الآن في معرفة ما كان يعنيه أن تكون أماديو دي برادو؟ ما الّذي يعنيه الاقتراب من العالم من خلال فهم برادو له؟

أشعل الضوء وأعاد قراءة الجمل التي سبق أن قرأها على عَجَل.

لا شيء

أنيوريسم: كلّ لحظة من حياتنا يمكن أن تكون الأخيرة. دون أدنى شعور مسبق وبوعي تامّ، سأعبر جدارًا لا مرئيًا لا يوجد خلفه شيء ولا حتّى الظلمة. خطوتي القادمة يمكن أن تكون خطوة عبر هذا الجدار. أليس من غير المنطقي أن يشعرني هذا بالخوف، في حين أنني لن أشعر مطلقًا بهذه النهاية المفاجئة وأنا أعرف مسبقًا بأنّ الأمر سيكون كذلك؟

اتّصل غريغوريوس بدوكسيادس وسأله عن كلمة «أنيوريسم». أعرف أنّ هذا المصطلح يعني اتّساعًا ولكن اتّساع ماذا؟ «إنّه اتّساع مَرَضي للوعاء الدموي سببه تغيُّرٌ في جدار الأوعية ويمكن أن يكون فطريًّا أو مكتسبًا.» قال الإغريقي، ثمّ أضاف: «أجل، وهو يصيب المخّ في الغالب. أحيانًا لم يكن الناس يلْحظون أيّ عارضٍ من عوارض هذا المرض وقد يمرّ الأمر بسلام لفترة طويلة من الزمن، لعشرات السنين مثلًا، ثمّ ينفجر الوعاء الدموي فجأةً وتكون النهاية». لماذا كان يريد أن يطَّلع على كلّ هذا في ساعة متأخّرة كهذه؟ وهل كان يشعر بتوعُّك؟ وعلى أيّ حال أين كان في ذلك الوقت؟

شعر غريغوريوس بأنّه ارتكب خطأ باتّصاله بذلك الإغريقي. لم يكن يجد الكلمات المناسبة لتوصيف صداقتهما الطويلة. تحدَّث بتردّد عن الترام القديم وعن كُتُبيٍّ غريب الأطوار وعن مقبرة كان يرقد فيها البرتغالي. لم يكن لهذا أيّ معنى ومع ذلك كان الإغريقيّ يستمع إليه. ثمّ توقّف بُرهةً.

– غريغوريوس؟ قال أخيرًا دوكسيادس.

-نعم؟

-كيف نقول «شطرنج» باللغة البرتغاليّة؟

كان غريغوريوس يرغب في تقبيله لأنّه طرح عليه هذا السؤال.

Xadrez أجابه وقد زال جفاف فمه نهائيًّا.

-وكيف حال عينيك؟

في هذه اللّحظة جفَّ حلقه للمرّة الثانية وردَّ بتساؤل أثار استغراب دوكسيادس.

-هل تشعر بأنّ الناس تراك كما أنت؟

انفجر الإغريقي ضاحكًا: «بالطبع لا !»

أن يكون شخص مّا، وتحديدًا دوكسيادس، قادرًا على الضحك من الشيء الذي كان يُروِّع أماديو دي برادو بشدّة، فإنّ ذلك جعل غريغوريوس يشعر بالإحباط. تناول كتاب دي برادو بين يديه وسادت فترة من الصّمت قطعها دوكسيادس قائلًا: «هل كلّ شيء بالفعل على ما يرام؟».

-أجل، قال غريغوريوس، كلّ شيء على ما يرام. ثمّ أنهيَا المحادثة كالمعتاد.

ظلّ غريغوريوس نائمًا في العتمة وهو متضايق ومنزعج. كان يحاول أن يجد تفسيرًا لما حدث بينه وبين الإغريقي. في النهاية، لقد كان الرّجلَ الذي منحته الكلمات شجاعة القيام بهذه الرحلة رغم الثلج الذي بدأ يتساقط على مدينة بيرن. كان دوكسيادس قد اشتغل سائق سيارة أجرة في سالونيك ليسدّد مستحقات دراسته. «إنّهم رفقاء شديدو الفظاظة،

سائقو سيارات الأجرة هؤلاء» كان هذا رأيه. ومن وقت إلى آخر كان هو أيضًا يتصرَّف بشيء من الفظاظة عندما يُقسم مثلًا أو يمُجّ سيجارته بعنف. كان شعرُ لحيته الداكنة والوبر المنتشر فوق ساعده يُحدثان فيه في مثل هذه الأوقات تأثيرًا شرسًا لا يُقهر. لذلك كان يعتبر أنّ الهروب من نظرة الآخرين له أمرًا بديهيًّا. هل كان بإمكان كلّ هذا ألاّ يؤثّر فيه؟ هل كان ذلك ضربًا من اللامبالاة؟ أم أنّه انعتاق داخليّ يُحسد عليه؟

أخيرًا كانت الشمس ساطعةً عندما خلَد غريغوريوس للنّوم.

(11)

«هذا لا يمكن أن يكون. هذا مستحيل». نزع غريغوريوس نظّاراته الجديدة، تلك الخفيفة مثل ريشة. فرك عينيه ثمّ وضعها من جديد. *بلى هذا ممكن*. فقد صارت الرؤية من خلالها أفضل من ذي قبل، وفقًا للجزء العلوي من النظارات الذي كان يرى العالم من خلاله عندما يرفع عينيه. كانت الأشياء تبدو وكأنّها تقفز تمامًا في اتّجاهه، لكأنّها تحثُّ الخطى لتسترعي انتباهه. وبما أنّه لم يعد يشعر فوق أنفه بالثقل المعتاد الذي جعل نظّارته القديمة شبيهةً بجدارٍ واقٍ، فقد كانت تبدو له في صفائها مزعجة بل ومُنذرة بالخطر. الانطباعات الجديدة أيضًا كانت تصيبه قليلًا بالدوار. نزع نظّارته من جديد فعلت وجه سيزار سانترام ابتسامة عابرة. وقال: «والآن أنت لا تعرف أيّها أفضل، النظّارات القديمة أم الجديدة».

أومَأ غريغوريوس برأسه موافقًا ووقف أمام المرآة. كان الإطار الرقيق الأحمر والعدسات التي لم تعد تلتصق بعينيه مثل حواجز عسكرية، يجعلان منه رجلًا آخر، رجلًا جميلَ المظهر ويرغب في أن يكون على الدوام أنيقًا وجذّابًا. حسنًا، كان الأمر مبالغًا فيه ولكنْ لِيكن. مُساعِدة سانترام التي دفعته ثرثرتها لاختيار هذا الإطار، قامت من أقصى المحلّ بحركة إعجاب لمحها سانترام وقال وقد وافقها الرأي: *«معها حقّ»*. عندها شعُر غريغوريوس بغضبٍ عارم، وبحركةٍ عصبيّة أعاد ارتداء النظّارات القديمة ووضع الأخرى في العلبة ثمّ سدّد ثمنها سريعًا وغادر المحلّ.

كان أمامه نصف ساعة من المشي حتّى يصل إلى عيادة ماريانا إيسا في حي ألفاما. في البداية، كلّما وجَد مقعدًا جلس عليه واستبدل نظّارته. بفضل العدسات الجديدة صار العالم أكبر والفضاءُ ثلاثيَّ الأبعاد. وأخذت الأشياء من خلالها تتمدّد وتتّسع دون عقبات. لم يعد نهر تاجة مساحة مُبهمةً بنيَّة اللّون، بل صار نهرًا، وقصر القدّيس جورج صارَ يظهر في السّماء في ثلاثة اتّجاهات مثل قلعةٍ حقيقيّة. ومع ذلك كان العالم شاقًّا هكذا. طبعًا، مع هذا الإطار الخفيف فوق أنفه، أصبح الأمر أكثر سهولة، والخطوات المتثاقلة التي اعتاد عليها لم تعد تتلاءم مع هذه الخفَّة الجديدة التي تعلو وجهه. لكنّ العالم غدا أكثر قربًا وأكثر اختناقًا وكأنّه يطالبك بالمزيد دون أن يعلن بوضوحٍ عن قائمة رغباته الملحّة. عندما كانت هذه الرغبات الملحَّة تستعصي عليه، كان ينسحب خلف عدساته القديمة، فهي تصُدُّ كلّ شيء وتجعله يشكّ في وجود عالم خارجي خلف الكلمات والنصوص، وهو شكٌّ محبَّب إلى قلبه، لولاه لكان عاجزًا عن تصوُّر الحياة. ولكنّه أيضًا لم يَعُدْ قادرًا على نسيان هذه النظرة الجديدة، وحالما دخل منتزهًا صغيرًا، أخرج كتاب دي برادو وحاول أن يعرف ما تمنحه إيّاه القراءة.

«مُخرِجُ حياتنا الحقيقي هو الحظّ. مُخرجٌ مليءٌ بالقسوة والرّحمة والفتنة الآسرة». لم يكن غريغوريوس يصدّق عينيه. لم يسبق لهُ أن فهم جمل دي برادو بهذه السّهولة. أغمض عينيه واستسلم للوهم اللّذيذ الذي أتاحته له العدسات الجديدة، بنفس الطريقة التي جعلت بها جملَ البرتغالي تبدو سهلة. لكأنّها أداة خياليّة سحريّة تجعل دلالات الكلمات أكثر وضوحًا فيما وراء حدودها الخارجيّة. أخذ نظّارته وضبطها جيّدًا، لقد بدأ يحبّها.

«أريد أن أعرف إلى أيّ مدى كان عملي مُتْقَنًا» هذا ما قالته المرأة ذات العينين الواسعتين والسترة المخمليَّة السّوداء. وقد فاجأه قولها لأنّ الكلمات كانت تبدو وكأنّها صادرة عن تلميذة دقيقة ولا تثق في نفسها كفاية. وهو ما لم يكن يتلاءم مع السّلام المبهج الذي كان يحسّ به قربها. لو أنّ المتزلّج الذي اصطدم به مساء أوّل يوم له في لشبونة، قد أمسك مرفقه قليلًا، قليلًا جدًّا، بمعنى آخر، بما يكفي فقط لتفادي صدْم غريغوريوس، لما كان الآن في طريقه إلى هذه المرأة، ممزَّقًا بين المجال البصري السَّابق والضبابي بشكلٍ غير ملحوظ، وهذا الضوء السّاطع الجديد الذي يمنح العالَم حقيقةً وهميَّة.

شرب قهوة في إحدى الحانات. كان الوقت ظهيرة وكانت القاعة تغصُّ برجال أنيقين خرجوا للتوِّ من مبنى المكاتب المجاور. نظر غريغوريوس إلى وجهه الجديد في إحدى المرايا ثمّ إلى جسمه كاملًا، تمامًا كما كانت طبيبة العيون تتفحّصه منذ حين. البنطال من القطيفة المسحوب من الركبتين، الكنزة الصوفية القبيحة بياقتها الطويلة والسترة القديمة، كانت كلّها مُفزعةً مقارنةً بكلّ السّترات الأخرى المتناسقة والقمصان وربطات العنق بألوانها المتناغمة، ولم تكن أيضًا تتلاءم مُطلَقًا مع نظارته الجديدة. شعُرَ غريغوريوس بالاستياء لأنّ هذا التناقض أزعجه، وشيئًا فشيئًا أصبح الأمر يزيد في غضبه. تذكّر الطريقة التي كان النادل يتفحَّصه بها في فندق الإطلالة الجميلة، صباح هروبه من بيرن. ولكنّ ذلك لم يسبّب له أيّ إزعاج، بل على العكس، فقد انتابه حينها إحساسٌ بالثقة في مظهره البائس مقابل الأناقة الجوفاء للمحيطين به. أين اختفت هذه الثقة الآن؟ أعاد ارتداء نظاراته القديمة، دفع الحساب وغادر الحانة.

هل انتبه إلى وجود هذه المنازل الأرستقراطية المحاذية لعيادة ماريانا أو المواجهة لها، خلال زيارته الأولى؟ وضع غريغوريوس نظاراته الجديدة وجَال ببصره في المكان: أطبّاء، محامون، شركة نبيذ، وسفارة إفريقيّة. كان يتصبَّب عرقًا تحت كنزته الصوفية الكبيرة، وفي نفس الوقت كان يشعر بلفحات الهواء البارد على وجهه بعد أن كنست الغيوم من السّماء. خلف أيّ نافذة توجد غرفة الفحص؟ ثمّ تذكّر قولها «رؤية جيّدة تتوقّف على العديد من الأشياء». كانت السّاعة تشير إلى الثانية إلاّ الربع. هل بإمكانه أن يصعد إليها الآن ببساطة؟

واصل طريقه على بعد بضع شوارع، وتوقّف أمام محلٍّ لبيع الملابس الرجالية: «*على أيّ حال بإمكانك أن تقتني شيئًا جديدًا لترتديه*». فقد كانت فلورانس التلميذة، فتاة المعهد الأولى، تجد شيئًا من الجاذبيّة في لامبالاة غريغوريوس بمظهره الخارجي. ولكن ما إن أصبحت زوجته حتّى صار هذا الوضع يثير أعصابها: «في نهاية الأمر أنت لا تعيش وحدك، ولهذا السّبب اللغة الإغريقية وحدها لا تكفي.»

لم يسبق له أن زار محلاًّ لبيع الملابس سوى مرّتين أو ثَلاث خلال السنوات التسع عشرة التي عاد فيها للعيش بمفرده. كان يعجبه أن لا أحد يلومه على ذلك. تسع عشرة سنة من التّحدي. هل كان ذلك كافيًا؟ وبعد تردّد دخل المحلّ.

كلَّفت البائعتان نفسيهما عناءً لا مثيل له للاعتناء به، وهو الزبون الوحيد. وفي النهاية بعد أن نفدَ صبرهما، قامتَا بدعوة صاحب المحلّ. لم يكن غريغوريوس يكفّ عن النظر في المرآة: بدايةً، وهو يجرِّب أطقمة كانت تجعله يبدو موظفًا في البنك أو عاشقًا للأوبرا، محبًّا للحياة، أستاذًا

جامعيًّا، مُحاسبًا. ثمّ جرّب جميع أنواع السترات، ابتداءً من السترات المزدوجة التفصيل إلى البذلات الرياضية، مستحضرًا جولة على حصان في حديقة قصر مّا. وأخيرًا ارتدى ملابس من الجلد. لم يكن يفهم جملةً واحدة من بين الجمل البرتغاليّة التي كانت تنهمر عليه. نظر مضطربًا إلى بعض المنازل البعيدة التي تظهر في الواجهة البلَّورية. هل كانت الكنزة الخفيفة ذات اللّون البنفسجي، بياقتها الطويلة التي أقنع نفسه بشرائها، تتناسب مع نظّاراته الحمراء الجديدة؟

فجأةً شعر غريغوريوس بتوتّر شديد. بخطى سريعة وغاضبة توجّه نحو الحمَّام في الجانب الآخر من الطريق وأعاد من جديدٍ ارتداء أسماله البالية. وبمروره من أمام مدخل بناية كان يتراكم خلفه جبل من النفايات، ألقى فوقها كيس الملابس الجديدة. ثمّ اتّجه ببطء نحو منزل ماريانا إيسا.

ما إن دخل المنزل، حتّى سمع الباب يُفتح في الطابق العلوي ولمحها تنزل بمعطفها الفضفاض، حينها تمنّى لو أنّه احتفظ بالطقم الجديد.

«آه هذا أنت؟» قالت ذلك وسألته عن شعوره بعد أن جرَّب النظّارات الجديدة. بينما كان يتحدّث تقدّمت نحوه وأمسكت بنظّاراته لتتحقّق من كونها مضبوطة جيّدًا. استنشق عطرها، ولامست خصلة من شعرها وجهه، وخلال لحظة قصيرة جدًّا امتزجت حركة ماريانا بحركة فلورانس عندما انتزعت نظّارته فيما مضى للمرّة الأولى. حدَّثها عن الحقيقة الوهمية التي أصبحت عليها الأشياء فجأةً. فتبسَّمت ثمّ نظرت إلى ساعتها.

«يجب أن أستقلّ العبَّارة، عليّ أن أقوم بزيارة أحدهم.» مؤكّد

أنّ شيئًا مّا في وجه غريغوريوس أشعرها بالارتباك، لأنّها توقّفت فجأةً واستدارت نحوه قائلةً: «هل سبق أن عبرتَ نهر تاجة؟ هل تودُّ مرافقتي؟»

لاحقًا، لم يتذكّر غريغوريوس مُطلقًا ما حصل طوال رحلتهما بالسيارة في اتّجاه العبّارة. لم يكن يتذكّر إلاّ أنّهما، بحركةٍ وحيدة سلسة، ركَنا السّيارة في مكانٍ شاغر في موقف السيّارات الذي بدا لهما للوهلة الأولى صغيرًا جدًّا، ثمّ وجدا نفسيهما فوق سطح المركب، وأخذت ماريانا إيسا تتحدّث عن قريبها الذي كانت ترغب في زيارته، إنّه عمّها.

يوحنا إيسا كان يعيش على الضفّة الأخرى، في دار للعجزة بمدينة كاسيلهاس. لا يتحدّث إلاّ نادرًا، ويتسلّى طوال النهار بلعب مباريات مهمّة من الشطرنج، سبق أن عمل مُحاسبًا في شركة كبيرة، رجل متواضع، متحفّظ، رصين، لا يكاد يُرى تقريبًا. لم يكن يخطر ببال أحد أنّه قد انضمّ إلى صفوف المقاومة حقًّا. فقد كان ذلك تمويهًا متقنًا من قِبَله. كان عمره سبعًا وأربعين سنة عندما اقتحم أزلامُ سالازار منزله لاعتقاله. وبوصفه شيوعيًّا، فقد وُجِّهت إليه تهمة الخيانة وحُكم عليه بالسجن المؤبّد. وبعد مرور عدَّة سنواتٍ، كانت ماريانا، ابنة شقيقه المحبّبة إلى قلبه، قد ذهبت لاصطحابه عند خروجه من السجن.

«حدث ذلك خلال صيف 1974، بعد بضعة أسابيع من اندلاع الثورة. كان عمري وقتها إحدى وعشرين سنة وكنت أتابع دراستي في كويمبرا» قالت وقد أشاحت برأسها. سمع غريغوريوس نشيجها ثمّ أصبح صوتها أجشّ كي لا تنكسر أمامه.

«لم أستطع مُطْلَقًا أن أُشفى من ألم رؤيته على تلك الحالة. لم يكن

يبلغ من العمر إلاّ تسعة وأربعين عامًا ولكنّ التعذيب جعَل منه عجوزًا مريضًا. قبل الآن، كان صوته قويًّا وجهوريًّا وها هو اليوم يبدو أجشّ وخافتًا. يداه اللّتان كانتا تعزفان شوبرت، خاصّة شوبرت، أصبحتَا الآن مشوَّهتين ومرتعشتين على الدوام». التقطت أنفاسها واستقامت في جلستها ثمّ أضافت: «وحدها نظرته الثاقبة والجريئة للغاية لم تكن لتنكسر. كان يجب أن تمرّ سنوات قبل أن يتمكّن من أن يروي لي ما فعلوه به في السجن: لقد كانوا يشيرون إلى عينيه بقطع حديدية ملتهبة ويقرّبونها أكثر فأكثر كي يجبروه على الكلام، وكان ينتظر في أيّ لحظة أن يغرق في الظلمة الحارقة. لكنّ نظرته لم تتجنّب قطع الحديد الملتهبة، بل اخترقت صلابتها وتأجُّجَها لتتجاوزها إلى وجوه جلاَّديه. صلابته هذه هي التي دفعتهم إلى وقف التعذيب. «منذ ذلك الحين لم أعد أشعر بالخوف من أيّ شيء، من أيّ شيء على الإطلاق». هذا ما قاله، وأنا متأكّدة من أنّهم لم يتمكَّنوا من انتزاع أيّ اعتراف منه مهما كان صغيرًا.

نزلا من العبَّارة.

«هناك»، قالت، وقد استعاد صوتها قوّته المعتادة، «هناك يقع مأوى العجزة»

أشارت إلى عبّارَة يمكن من خلالها رؤية المدينة من زاوية أخرى. ثمّ توقّفت للحظة، متردّدة. كان تردّدها يفضح شعورهما بحميميّة وُلدت بينهما بسرعةٍ مفاجئة ولم تكن لتتطوّر. وربّما يكون أيضًا تعبيرًا عن شكٍّ جبان: هل كان من الضّروريّ أن تكشف له كلّ شيء عن يوحنّا وعن نفسها؟

في النهاية، عندما غادرت نحو مأوى العجزة تبعها غريغوريوس

بنظره طويلًا وتخيّلها في الواحدة والعشرين من عمرها، وهي تنتظر أمام باب السجن.

عاد إلى لشبونة وعبَر مرّةً أخرى نهر تاجة. يوحنّا إيسا كان في صفوف المقاومة، أماديو دي برادو عمل أيضًا لصالح المقاومة *resisténcia*. كانت طبيبة العيون قد استعملت الكلمة البرتغاليّة طبعًا، كما لو أنّه لهذا السبب المقدَّس لم تكن توجد كلمة أخرى غيرها. وقد اتّخذت الكلمة وهي تخرج من بين شفتيها بإصرارٍ هشٍّ، لحنًا ساحرًا وبالتّالي ازدانت بألق خرافيّ وبهالة روحانية. محاسب وطبيب بفارق خمس سنواتٍ بينهما، كلاهما ضحَّى بكلّ شيء، عَمِلا بسريّةٍ تامَّة، وكانا معًا سيِّدَيْن على الصّمت وعازفَيْن للشّفاه المطبقة. هل كان كلٌّ منهما يعرف الآخر؟

عندما وجد نفسه على اليابسة، اقتنى غريغوريوس مخطَّطًا للمدينة مع خارطةٍ دقيقة للبايرو آلتو. وأثناء تناوله وجبة الطعام، وضع خطَّ سَيْرٍ يستطيع من خلاله أن يبحث عن المنزل الأزرق الذي قد تكون أدريانا ما تزال تسكنه، وقد أصبحت الآن عجوزًا ولا تملك هاتفًا. عندما غادر المطعم، كان المساء قد أسدل ستاره. استقلَّ الترام إلى حيّ ألفاما وبعد برهةٍ عثَر على السّقيفة حيث النفايات الكثيرة. الكيس الذي كان يحوي ملابسه الجديدة ما يزال هناك. أخذه وأوقف سيّارة أجرة قادته إلى الفندق.

(12)

كان النّهار رماديًّا غائمًا عندما غادر غريغوريوس الفندق في ساعة مبكّرة من صباح اليوم التّالي. لقد نام بسرعةٍ ليلة البارحة، على غير عادته، وغرق في بحرٍ من الأحلام: مشاهد فوضويَّة من مراكب وملابس وسجون، رغم غموضها، لم تكن كلّها بشعة، ولم تشبه الكابوس في شيء، لأن المشاهد المشوَّشة كانت مصحوبةً بصوتٍ خافتٍ يملك حضورًا مهيبًا لامرأةٍ ظلّ يفتّش عن اسمها بعجلةٍ محمومةٍ كما لو أنّ حياته متوقّفة عليه. ما إن استيقظ حتّى طرقت ذاكرتَه مُجدّدًا الكلمةُ التي ظلّ يطاردها في حلمه: *كونسيسياو*. الجزء الجميل والحيوي من اسم الطبيبة الكامل، كما كان مكتوبًا على اللوحة النحاسية المعلّقة على مدخل العيادة: ماريانا كونسيسياو إيسا. عندما ردَّد الاسم بصوتٍ خافتٍ، قفز مشهد آخر من الحلم وأطلَّ من النسيان : امرأة بهُويّة غير ثابتة، سبق أن انتزعت نظّارته وهي تضغط على أنفه بشدّة، إلى درجة أنّه ما زال يشعر بتأثيرها.

كانت السّاعة في تلك اللّحظة تشير إلى الواحدة صباحًا ولم يعد هنالك مجال لأن يفكّر في العودة إلى النوم. فتصفَّح مُجدّدًا كتاب دي برادو وتوقَّف أمام المقطع الذي كان يحمل عنوان:

وجوه هاربة في اللّيل

اللّقاءات بين الناس تبدو لي في الغالب شبيهةً بتقاطع قطاراتٍ تندفع مسرعةً، لا شعوريًا، في أشدّ اللّيالي حلكة. نلقي بنظراتٍ عابرة

ومحمومة على الآخرين الجالسين داخلها، خلف نافذة ضبابيّة، في ضوء خافتٍ، الآخرين الذين يختفون فورًا من أمام أنظارنا بمجرّد أن يتسنّى لنا الوقت لرؤيتهم. هل كانا فعلًا رجلًا وامرأةً مُسرعيْن كشبحيْن في إطار نافذة مُضاءةٍ برزت من العدم، كأنّها مجزّأة دون أيّ معنى ولا هدف في الظلمة القاحلة؟ هل كان كلّ منهما يعرف الآخر؟ هل تحدَّثا؟ ضحكًا؟ بكيا؟ سنقول الشيء نفسه عندما نلتقي بمارّة غرباء تحت المطر والرّيح.

قد يكون هذا التّشبيه بليغًا، ولكن مع ذلك هناك من النّاس من نظلّ جالسين قبالتهم لوقت طويل نأكُل ونعمل معًا، ننام جنبًا إلى جنب، نسكن تحت سقف واحد... فأين منطق الهروب في كلّ هذا إذن؟

ورغم ذلك، ألا يُعتبر كلّ شيء يزيّن لنا الاستقرار والألفة والحميمية وَهْمًا وُجد فقط ليسلّينا، وهمًا نسعى من خلاله إلى إخفاء هذا الهروب المتذبذب المحزن وإقصائه، لأنّنا نهجر مواجهته في كلّ لحظة؟ في كلّ مرّة نلتقي فيها بشخص آخر، مع كلّ نظرة متبادلة، ألا يكون ذلك شبيهًا بهذا اللّقاء الشّبحيّ الخاطف بين مسافرين أصابهم الذهول جرّاء السّرعة اللاّإنسانية التي تجعل كلّ شيء يرتعش ويُحدث صريرًا؟ ألا تقع نظراتنا باستمرار على الآخر كما هو الحال في لقاءاتنا اللّيلية الخاطفة مع ذواتنا لنستسلم لفرضيّاتنا الوحيدة وأفكارنا المجزّأة وسِماتنا المتخيّلة؟ ألا يكون صحيحًا أنّ الناس ليسوا هم من يتلاقون، بل هي الظلال التي تعكسها خيالاتهم فقط؟

كان غريغوريوس يتساءل: ماذا يعني أن تكون امرأةٌ شقيقة رجل

تسكنُه وحدةٌ عميقة تبعث على الدوار؟ رجل سبق أن قاده تفكيره إلى نتيجة قاسية جدًّا دون أن تكون لكلماته نبرة اليأس أو حتّى مجرّد عاطفة؟ ماذا كان يعني هذا، أن تكون هذه المرأة مساعدته؟ أن تناوله الحقنة أو تساعده في تضميد جرح؟ فكرته عن البشر كما كان يعبِّر عنها في كتاباته، هؤلاء الذين يعيشون كغرباء، كلّ واحد منهم بعيدٌ عن الآخر، كيف كان تأثيرها في أجواء المنزل الأزرق؟ هل احتفظ بكلّ هذا في نفسه؟ أم أنّ المنزل كان المكان، المكان الوحيد الذي سمح فيه لأفكاره بأن تطبَّق في الحياة اليومية أيضًا؟ على سبيل المثال في طريقة انتقاله من غرفة إلى أخرى أو قراءته لكتاب أو اختياره للموسيقى التي يوَدُّ سماعها؟ أيُّ الأصوات بدت له ملائمة لأفكاره الوحيدة التي تذكّره في نورها وقسوتها بتصنيع الزجاج؟ هل بحث فيها عن برهان أم أنّه كان في حاجة إلى ألحان وإيقاعات شبيهة بمرهم قادر على تسكين الألم دون أن ينوِّم المرء أو يجرّده من إدراكه لما حوله؟

عاد غريغوريوس إلى النوم عند الصباح وذهنه يضجّ بهذه التساؤلات. فرأى نفسه مجدّدًا واقفًا أمام بابٍ ضيِّق وأزرق على نحو خيالي، تتنازعه الرغبة في قرع الجرس وعدم قدرته على تخيّل ما يمكن أن تقوله المرأة التي ستفتح له الباب. بعد أن استيقظ من النوم، نزل لتناول فطور الصباح وهو يرتدي طقمه الجديد وقد ضبط نظّاراته الجديدة فوق أنفه. أبدت النادلة دهشتها للتغيّر المفاجئ الذي حصل في مظهر غريغوريوس وعلت وجهها ابتسامة عابرة. وفي صبيحة هذا الأحد الرمادي الغائم، قرّر الذهاب للبحث عن المنزل الأزرق الذي وصفه العجوز كونتينهو.

لم يكد يعبر بضعة شوارع في المدينة العليا، حتّى لمح الرّجل الذي تبعه في أوّل ليلة له في لشبونة، واقفًا عند النافذة ويدخّن سيجارة. في تلك اللحظة وفي وضح النهار، بدا له المنزل أكثر ضيقًا وبؤسًا من المرّة الأولى التي رآه فيها. كانت الغرفة من الداخل معتمة، لكن غريغوريوس لمح قماش الأريكة والخزانة الزجاجية بتماثيلها الخزفيّة، والصليب المعلّق. توقّف وسعى إلى إثارة انتباه الرّجل ثمّ سأله قائلًا: *المنزل الأزرق؟* وضع الرّجل يده تحت أذنه في حركة تدلّ على أنّه لم يسمع ما قاله غريغوريوس، وهو ما اضطرّه إلى تكرار السؤال. وكانت الإجابة سَيْلًا من الكلمات المبهمة، مصحوبة بحركات باليد التي تمسك السيجارة. في الوقت الذي كان الرّجل يتكلّم فيه، مرّت بجانب غريغوريوس امرأة طاعنة في السّنّ، قد احدودب ظهرها.

العيادة الزرقاء؟ قال غريغوريوس في تلك اللّحظة.

« أجل »: صاحت المرأة بصوتها الناعق وردّدت مرّةً أخرى، أجل! كانت تُحرّك ذراعيها الهزيلتين مثل مغزلين ويديها المتجعّدتين بحماس. وبعد برهة استطاع غريغوريوس أن يدرك أنّها كانت تشير إليه بالدخول. فدخل المنزل متردّدًا ورائحة العفن والزيت المحروق تفوح من المكان. شعر بأنّ عليه عبور جدارٍ سميكٍ من الروائح المقززة حتّى يصل إلى باب الشقّة الذي كان الرّجل ينتظره خلفه. قاد الرّجل غريغوريوس إلى غرفة الجلوس وهو يعرج، ثمّ طلب منه بغمغمةٍ مبهمة وإشاراتٍ غامضة أن يجلس على الأريكة المزركشة.

خلال نصف السّاعة القادمة،جاهد غريغوريوس نفسه كيْ يهتدي لفهم الكلمات والحركات المبهمة والغامضة لهذين العجوزين وهما يحاولان أن يشرحا له الوضعَ قبل أربعين سنة، عندما كان أماديو دي

برادو يعالج كلّ سكّان الحي. كان في صوتيهما شيءٌ من الإجلال، الإجلال الذي تكنّه عادةً لشخص أسمى منك مقامًا. ولكن في نفس الوقت، كان هنالك شعورٌ آخر يغمر المكان لم يستطع غريغوريوس أن يميِّزه إلاّ تدريجيًّا. كان شبيهًا بخوفٍ غامض، لكأنَّه وُلد من عتابٍ قديم جدًّا نفضِّل إنكاره، لكن دون أن تكون لنا القدرة على محوه تمامًا من الذاكرة: «ثمّ تجنبه الجميع وهو ما كسر قلبه» قال كونتينهو.

في تلك اللّحظة كان الرّجل يشمِّر عن ساقه ليكشف لغريغوريوس عن ندبة: *«هو من فعل ذلك»* قال وهو يمرّر فوق الندبة أطراف أصابعه الصّفراء بفعل النيكوتين. أمّا المرأة فقد فركت صدغيها بأصابعها المتجعِّدة وقامت بحركةٍ كمن يطيّر شيئًا في الفضاء: آه أجل، لقد شفاها من الصّداع. ثمّ كشفت هي الأخرى عن ندبةٍ صغيرة في إحدى أصابعها بدتْ على الأرجح أثرًا لبثرةٍ قديمة.

لاحقًا عندما كان غريغوريوس يتساءل أحيانًا عن السرّ الذي جعله يحسم أمره ويدفعه في النهاية إلى قرع جرس الباب الأزرق، كانت تتراءى له من جديد ودون توقّف، حركات العجوزين فوق الجسدين اللذين كان الطبيب الجليل والمنبوذ لاحقًا والمبجَّل من جديد في النهاية، قد ترك عليهما بصماته، وكأنّ يديه أعادتا إليهما الحياة.

أخذ غريغوريوس يستذكر الشوارع المؤدّية إلى عيادة دي برادو القديمة ثمّ غادرَ العجوزين اللّذين ظلّت نظراتهما تتبعانه من النافذة. وبدا له أنّ الحسد كان يتطاير من تلك النظرات، غيرة غريبة، فقط لأنّه كان يستطيع القيام بشيء مستحيل بالنّسبة إليهما، وهو اكتشاف أماديو دي برادو بشقّ طريق في ماضيه.

هل كان بإمكان أفضل الطرق التي نسلكها للوثوق في أنفسنا أن تمرّ عبر معرفةِ شخص آخر وفهمِه؟ رجل انقضت حياته بشكلٍ مختلف وتسير وَفْقَ منطقٍ مخالفٍ لمنطقك أنت؟ كيف للفضول الذي كان يلهمك حياةً أخرى أن يتوافق مع وعيك بأنّك كنتَ تُهدر وقتك؟

توقّف غريغوريوس عند حانةٍ صغيرة وشرب قهوة. كانت هذه هي المرّة الثّانية التي يرتاد فيها هذا المكان. لقد عثر قبل ساعةٍ من تلك اللّحظة على حي لوز سوريانو. ووجد نفسه بعد بضع خطوات أمام عيادة دي برادو. كان منزلاً مكوَّنًا من ثلاثة طوابق ويبدو أزرق كُلّيًا، ليس بسبب مربَّعات الخزف التي كانت تغلّفه فحسب، بل لأنّ النوافذ كانت تعلوها أقواسٌ مدهونة بلوْنٍ لازورديٍّ لامع. كان الطلاء قديمًا واللّون يتقشّر في المواضع الرَّطبة، وكانت هناك رغوةٌ سوداء محتشدة في الحواجز المشبّكة. وتحت النوافذ، كان الطلاء يتقشَّر أيضًا. وحده لون الباب الرئيسي الأزرق ظَلّ نقيًّا إلى درجةٍ تجعل المرء يرغب في الصراخ: هذا هو اللَّوْن بعينه!

لم تكن توجد أيُّ إشارةٍ لأسماء أصحاب المنزل على الألواح المعلَّقة بجانب الجرس. نظر غريغوريوس إلى الباب وإلى مَقرعِه النحاسي وقد تسارعت دقّات قلبه، ثمّ قال في نفسه: «*الكأنّ مستقبلي كُلَّه كان ينتظرني خلف هذا الباب*». وبعد ذلك دخل الحانة الواقعة على بعد بضعةِ منازل وهو يُقاوم الإحساس المرعب بأنّه كان بصدد الهروب من ذاته. نظر إلى ساعته: قبل ستّة أيام وفي مثل هذا الوقت، انتزع معطفه المبلَّل من مشجب الفصل وفرَّ من حياته الآمنة جدًّا والعاديَّة جدًّا دون أن يلتفت وراءه.

تحسّس، وهو يضع يده في جيب المعطف، مفتاحَ منزله ببيرن، وفجأةً شعر برغبة جامحة، أشدَّ عنفًا من وطأة الجوع، بأن يقرأ نصًّا باللّغة الإغريقيّة أو العبريّة، بأن يشاهد هذه الأحرف الغريبة والجميلة، الأحرف التي لم تخسر شيئًا من ألقها الخرافيّ منذ أربعين سنة، كي يكون على ثقةٍ من أن هذه الأيام الستة المزعجة لم تكن لتحرمه من قدرته على فهم كلّ ما كانت تحمله من معانٍ.

كان قد ترك كتاب العهد الجديد الذي أعطاه إياه كونتينهو في الفندق، ولكنّه بعيدٌ جدًّا الآن، وعليه أن يقرأ هنا، في هذه اللحظة، غير بعيد عن المنزل الأزرق الذي يُنذر بالتهامه حتى قبل أن يُفتح الباب. دفع ثمن القهوة على عجلٍ وانطلق في البحث عن مكتبة ليقتني هذا النوع من النصوص. ولكنه يوم الأحد، ولم يعثر إلاّ على مكتبة دينيّة مغلقة، بواجهة زجاجية تحوي كُتبًا تحمل عناوين إغريقيّة وعبريَّة. وضع جبينه على الواجهة المغشّاة بالبخار، تغمره الرغبة في الذهاب إلى المطار وركوب أول طائرة إلى زيوريخ. ثمّ شعر بالارتياح لأنه نجح في تحمُّل هذه الرغبة المزعجة مثل مَدٍّ وزجر، مثل موجةٍ من الحمّى الحارقة. وأخيرًا عاد بخطى بطيئة إلى الحانة القريبة من المنزل الأزرق. وفي تلك اللَّحظة أخرج غريغوريوس من جيب سترته الجديدة كتاب دي برادو ونظر إلى وجه البرتغالي الجريء والمقدام. طبيب زاول فيما مضى مهنته بحزم، مناضل في صفوف المقاومة جازف بحياته ليكفِّر عن ذنبٍ وهميّ. صائغ كلمات كان مولعًا بانتزاع عبارات الحياة الإنسانية الصامتة من صمتها.

وفجأةً استبدَّ بغريغوريوس الخوف لأنّ شخصًا آخر مختلفًا تمامًا استطاع خلال تلك الفترة أن يسكن المنزل الأزرق. فترك، في عجَلةٍ،

بعض النقود على النّضد، واتّجه مُسرعًا نحو المنزل الأزرق. أمام الباب الأزرق، تنفّس مرّتيْن بعُمق، ثم ترك الهواء يتسرَّب من رئتيْه ببطء، وبعد ذلك قرع الجرس.

رنين صدئ كأنّه قادمٌ من ماضٍ بعيد، أيقظ صدًى صاخبًا عَبَرَ المنزل بشكل مبالغٍ فيه. ومع ذلك لم يسمع أيَّ حركة. لا وجود لضَوْءٍ ولا حتّى لوقعِ خطى. فقرع الجرس للمرّة الثانية. لا شيء. حينها تذكّر منزله في بيرن. كان سعيدًا لأنّ كلّ ذلك قد انتهى. أعاد كتاب دي برادو إلى جيب معطفه وهمَّ بمغادرة المكان، وإذْ به يسمع وقع خطى في الداخل. لقد كان شخصٌ مّا ينزل الدرج. لمح نورًا خلف إحدى النوافذ وسمع وقع خطى تقترب.

«من»؟ ردَّ صوتٌ أنثويٌّ كئيب وأجش.

لم يكن غريغوريوس يعرف ما يجب أن يقول بالضبط. فظَلّ ينتظر في صمتٍ. مرّت ثوان. ثم سمع حركة المفتاح في القفل، وأخيرًا فُتح الباب.

القسم الثاني

اللّقاء

(13)

قُبالتَهُ مباشرةً امرأةٌ فارعة الطول، متّشحة بالسَّواد، تبدو في جمالها الوقور والبسيط شبيهةً بإحدى شخصيّات التراجيديا الإغريقية. وجهٌ شاحبٌ نحيل، يُحيط به منديلٌ مشبّكٌ تمسكه تحت ذقنها. يدٌ نحيلة، ناتئة العظم تبرز منها عروقٌ داكنة تفضح تقدُّمها في السنّ أكثر من تجاعيد وجهها. عينان غائرتان تلمعان مثل ماستيْن سوداويْن، تحدّقان في غريغوريوس بنظرة مريرة توحي بالحرمان والثّبات والإخلاص، نظرة شبيهة بإحدى وصايا موسى لكلّ أولئك الّذين مرّت حيواتهم أمام أعينهم دون أن يتمكّنوا من فعل شيء. فكّر غريغوريوس في التوهّج الممكن لعينيها لو حاول أيّ شخص أن يتحدّى رغبتها الخرساء والعنيدة وهي تجلسُ أمامه مثل شمعة شامخة برأسها المرفوع إلى الحدّ الذي تسمح به قامتها. كانت ملامحها باردة، ولم تكن لدى غريغوريوس أيّ فكرة حول الطريقة التي عليه أن يعتمدها ليقدِّم نفسه لها. كان يجهل كيف يقول: «صباح الخير» باللّغة البرتغاليّة.

«صباح الخير»، قالها أخيرًا باللّغة الفرنسيّة وبصوتٍ أجشّ، بينما كانت المرأة تواصل التحديق إليه في صمت. عندها أخرج غريغوريوس كتاب دي برادو من جيبه وفتحه على صورة الكاتب ثمّ وجّهها صوب المرأة. «أعرف أن هذا الرّجل طبيب، عاش ومارس مهنته هنا»، وتابع قوله باللّغة الفرنسية. «أنا... أرغب في زيارة المكان الذي عاش فيه

والتحدّث إلى شخص عرفه عن قرب. يفيض كتابه بالحِكَم وبالجمل البليغة والرائعة حقًّا. وأنا أرغب في معرفة كيف عاشَ هذا الرّجل الذي خطَّ جملًا كهذه، وما تعنيه رِفْقَةُ شخصٍ مثله».

أضفى تغيّر ملامح المرأة الجادّة وبشرتها البيضاء، ألقًا خافتًا عليها. يجب أن تكون لنا حكمة غريغوريوس الفريدة التي تملّكته في تلك اللّحظة لندرك أنّ الملامح القاسية أخذت ترتخي قليلًا وأنّ تلك النظرة بدأت تفقد شيئًا من حدَّتها التي كانت تلغي حضورك. لكنّها ظلَّت خرساء، وكان الزمن يتمدّد.

«اعذريني لم أكن أرغب في...» قال غريغوريوس ثمّ تراجع خطوتيْن إلى الوراء وتحسَّس جيب معطفه وقد خُيِّل إليه فجأةً أنّه كان أشدّ ضيقًا من أن يحتوي الكتاب من جديد، ثمّ استدار وهمَّ بالخروج.

«انتظر» قالت المرأة. أصبح صوتها في تلك اللحظة أقلَّ غضبًا وأكثر دفئًا من ذي قبل، وهي خلف الباب. وكانت النّبرة ذاتها تتردّد في الكلمة الفرنسيّة، تمامًا كما في صوت البرتغاليّة المجهولة الاسم، فوق جسر كرشنفلد. رغم ذلك فقد كانت لهجتها آمرةً ولم يكن بالإمكان مقاومتها، وتذكّر غريغوريوس ما قاله كونتينهو بخصوص أسلوب أدريانا الفظّ في التّعامل مع المرضى. استدار مجدّدًا نحوها وما يزال الكتاب يُثقل يده.

«تفضّل بالدخول»، قالت المرأة وقد فسحت له المجال، مشيرةً بيدها إلى السُلَّم. أغلقت الباب بمفتاح كبيرٍ بدا وكأنّه يعود إلى عصرٍ آخر، ثمّ تبعته. عندما وصلت إلى الطابق العلوي، سحبت يدها النحيلة والبيضاء من على درابزين الدَرج وعبرت أمامه إلى الصالون. سمع لهاثها ولفحته رائحة قويّة يبدو أنّها انبعثت من قارورة دواء أو عطر.

لم يسبق لغريغوريوس أن شاهد في حياته ولا في شريط سينمائيّ، غرفة جلوس مثل هذه. غرفة تمتدّ على كامل المنزل وتبدو بلا نهاية. كانت الأرضيّة الخشبيّة المثاليّة والبرّاقة متكوّنة من زخارف ورسومات دائريّة تتداخل فيها العديد من التشكيلات الخشبيَّة والزخارف الملوّنة، وكلّما وقع نظره على آخر قطعة جليز، وجد واحدةً أخرى وراءها. ثمّ لفتت انتباهه أشجار قديمة تكشف في ذلك الوقت من أواخر فيفري، عن عدّة أغصان سوداء ومتشابكة تعانق الغيم الرمادي. وفي ركن من أركان الغرفة، طاولة مستديرة بمقاعد من الطراز الفرنسيّ الفاخر، أريكة وثلاثة كَراس مغلّفة بمخمل أخضر زيتوني بانعكاسات فضيّة وأرجلٍ مجوَّفة من الخشب الأحمر. وفي ركنٍ آخر، تنتصب ساعة حائطيّة سوداء لامعة بنوَّاسٍ ذهبيّ ثابتٍ وعقارب توقّفت في تمام السّادسة وثلاثٍ وعشرين دقيقة. وعلى مقربةٍ من النّافذة، يحتلُّ المكانَ بيانو فاخر يكسوه حتّى لوحة المفاتيح، غطاءٌ ثقيل من الحرير المقصَّب، مطرّز بخيوط برّاقة من الذّهب والفضّة.

لكنّ الشيء الذي أثار دهشة غريغوريوس حقًّا، هو أنّ ما تبقّى من أثاثٍ كان متمثّلًا في عددٍ من المكتبات الفخمة مغروزة في الجدران الشّاحبة، ومكلَّلة بمصابيح عصريَّة، يعلوها سقف مقبَّب يستعيد لون الجدران الشّاحب ويمزجه بأشكال هندسيّة حمراء داكنة. لكأنّها مكتبة دير، قال غريغوريوس في نفسه. لكأنّها لتلميذٍ قديم مُولع بالثقافة الكلاسيكية منحدر من عائلة ثريّة. لم يجرؤ على محاذاة الجدران، لكنّ نظره وقع سريعًا على كتب الكلاسيكيّات الإغريقية في طبعاتٍ فاخرة، زرقاء داكنة كُتبت بأحرف من ذهب. وهناك بعيدًا، وراء سيسرون،

أبصر هوراس وكتابات آباء الكنيسة *والأعمال الكاملة* للقدّيس إينياس. لم يكن قد مرَّ على وجوده في المنزل سوى عشر دقائق ومع ذلك تمنّى ألاّ يغادره أبدًا. إنّها دون شكّ مكتبة أماديو دي برادو. أهي حقًّا مكتبتُه؟

«كان أماديو يحبّ هذه الغرفة، يحبّ الكتب». ولطالما كان يردّد: «لا وقت لديّ أدريانا». «ليس لديّ سوى قليل من الوقت أخصّصه للقراءة. ربّما كان عليّ أن أكون راهبًا». لكنّه مع ذلك كان يرغب في أن تظلّ العيادة مفتوحةً على الدّوام، من الصّباح إلى المساء. «إنّ شخصًا يتألّم أو يشعر بالخوف لا يمكنه أن ينتظر». هذا ما اعتاد على قوله عندما كنتُ ألحظ علامات الإرهاق باديةً عليه فأحاول الحدّ من حماسه. في اللّيل عندما يُجافيه النّوم، كان يقرأ ويكتب، وربّما لم يكن يستطيع النّوم لأنّ شعورًا مّا بضرورة القراءة والكتابة والتأمّل كان يسيطر عليه. لا أعرفُ. لقد كان هذا الأرقُ لعنةً ! وأنا واثقةٌ من ذلك: لولا هذا الألم، لولا هذا القلق المستمر وبحثه الدّائم والمضني عن الكلمات، لظلّ دماغه سليمًا لفترة طويلة. أو ربّما كان سيعيش إلى الآن وكان سيحتفل بعيد ميلاده الرّابع والثمانين هذه السّنة، في العشرين من ديسمبر.

دون أن تسأله عمّن يكون أو تعرِّفه بنفسها، أفضت إليه بكلّ شيء حول معاناة شقيقها وتفانيه وشغفه وموته. حدّثته عن كلّ الأشياء التي شغلت أهمّ فترة من حياتها. ولم تكن نبرةُ صوتها وإيماءاتُها تُفسحان مجالًا للشكّ في ذلك. لقد كان حديثها عنه مفاجئًا إلى حدٍّ بعيد، كما لو أنّها تملك الحقّ في أن تفرض على غريغوريوس أن يصبح، في ضوء تحوُّل مقدَّس وأبديّ، فردًا في عالم خيالاتها وشاهدًا عليمًا على كلّ ذكرياتها. فهذا الرّجل يحمل الكتاب وعليه اسم دار النشر الغامض «أشجار الأرزّ

الحمراء» وهذا كافٍ لتفتح أمام غريبٍ مثله عالَمَ هواجسها المقدّس. كم مرّ من السّنوات وهي تنتظر لقاء شخص كهذا؟ شخص تستطيع أن تحدّثه عن شقيقها المتوفّى. لقد قضت أدريانا، حسب سنة الوفاة المحفورة على شاهدة قبر أخيها (1973) إحدى وثلاثين سنة في المنزل، وحيدةً مع ذكرياتها والفراغ الذي خلّفه شقيقُها بموته.

ظلّت طوال المحادثة تمسك بالمنديل أسفل الذقن وكأنّها تخفي شيئًا مّا. لكنّ يدَها في تلك اللّحظة ارتخت قليلًا، فكاد يسقط المنديل المشبّك كاشفًا عن وشاح من المخمل الأسود يلفُّ رقبتها. مؤكّدٌ أنّ غريغوريوس لن ينسى مشهد المنديل وهو ينحَلُّ كاشفًا عن وشاح عريض يُغطّي تجاعيد الرقبة البيضاء. كلّ هذا تجمَّد في صورة ثابتة، وفيَّة للواقع في أدقّ تفاصيلها. وحين عرف لاحقًا السرّ الذي كان يُخفيه الوشاح، صار أيّ وشاح يذكّره بأدريانا وبحركة اليد الّتي تقوم بها للتأكّد من أنّ الرباط ما يزال في مكانه. ورغمَ أنّها بدت لهُ حركةَ لا إرادية وغيرَ مقصودة، فقد كانت مُحمّلة بالدّلالات، خاصّة وأنّ أدريانا كانت تتفنّنُ في القيام بها أكثر من أيّ حركة أخرى.

انزلق المنديل إلى الخلف قليلًا فأصبح باستطاعة غريغوريوس أن يرى شعرها الرّمادي حيث تحفظ بعض الخصلات الّسوداء ذكرى ماضٍ بعيدٍ. رفعت أدريانا يديها إلى المنديل المنزلق وسحبته مجدّدًا إلى الأمام وقد بدت عليها علامات الإحراج. لكنّها توقّفت فجأةً، ثمّ خلعته من على رأسها بحركةٍ ملؤها التحدّي. والتقت نظرته بنظرتها التي كان يبدو أنّها تقول له: «أجل، أنا امرأة عجوز». ثمّ أطرقت برأسها، وانسدلت خصلة من شعرها على عينيها، وانثنت بجذعها إلى الأمام، تاركةً يديها

المتباعدتيْن وقد ارتسمت عليهما عروق بنفسجيّة بارزة، تداعبان بلطفٍ المنديلَ الموضوع على ركبتيْها.

أشار غريغوريوس إلى كتاب دي برادو الموضوع على الطاولة: «هل هذا كلّ ما كتب دي برادو؟».

صنعت هذه الكلمات القليلة معجزةً. فقد اختفت فورًا كلّ علامات الإرهاق والشحوب التي ظهرت على وجهها. استقامت في جلستها، وأرجعت رأسها إلى الخلف، ثمّ خلَّلت شعرها بيديها وحدَّقت فيه. كانت هذه هي المرّة الأولى التي ترتسم فيها ابتسامة ماكرة ومتواطئة على ملامحها، جعلتها تبدو أصغر بعشرين سنة.

«*تعال يا سيدي!*» قالت مخاطبةً غريغوريوس وقد اختفت من صوتها كلُّ نبرةِ غطرسة. لم تكن الكلمات تحمل معنى الأمر ولا حتّى دعوة إلى فعل شيء مّا، وإنّما كانت إشارة إلى أنّها ستُطلع غريغوريوس على شيء مّا خَفيٍّ وسرِّيّ. ووفقًا لهذه الحميميّة الموعودة ولهذا التواطؤ، يبدو أنّ أدريانا قد نسيت أنّ ضيفها لا يتكلّم البرتغاليّة.

قادته عبر قرص الدرج نحو السلّم الثاني المؤدّي إلى العِليّة، وصعدت الدرج ببطء وهي تلهث. ثمّ توقّفت أمام أحد الأبواب. كان بالإمكان تفسيرُ هذا الوقوف على أنّه لحظة استراحة بسيطة لا غير، ولكن لاحقًا، عندما رتَّب غريغوريوس مشاهد الذكرى في مخيّلته، أصبح على يقين من أنّ أدريانا كانت متردّدةً وكأنّها تشكّ في رغبتها الفعليّة في إطلاع الغريب على قدّيس القدّيسين هذا. وأخيرًا أدارت مقبض الباب برفق، تمامًا مثلما يدخل أحدُهم غرفة مريض. وبحَذرٍ شديد، تركت الباب مواربًا لتدفعه بعد ذلك وتفتحه على مصراعيه، وهو ما جعلها تبدو أصغر سنًّا. لكأنّها

عادت ثلاثين سنة إلى الوراء، لكأنّها كانت تدخل هذه الغرفة على أمل أن تجد أماديو فيها وهو يكتب أو يفكّر أو ربّما وهو يغطّ في النّوم.

أدرك غريغوريوس أنّ هذه المرأة كانت تائهةً في أعماقها القصيَّة، شبه المظلمة، تائهة فوق حافّة ضيّقة تفصل حياتها الحاليّة الظاهرة عن حياة أخرى. ما كان غائرًا في الزّمن، كان بالنّسبة إليها أكبر بكثير من الحقيقة: صدمة حقيقية، أو مجرّد لفحة هواء، كانت كافية لدفعها وجعلها تختفي في حياتها الماضية التي تقاسَمتْها مع شقيقها.

في الغرفة الكبيرة التي كانا يدخلانها في تلك اللّحظة، توقّف الزّمن فعلًا. غرفة مؤثثة ببساطة توحي بالتقشُّف. يوجد في أحد أطرافها، قبالة الجدار، مكتبٌ وكرسيّ. وفي الطرف الآخر سريرٌ وُضعت أمامه سجّادة تشبه سجّادة الصّلاة. أمّا الوَسط فقد شغلهُ كرسيٌّ للقراءة، ينتصب حذوه مصباح وإلى جانبه جبال من الكتب تكوَّمت بشكلٍ فوضوي على الأرضيّة الخشبيَّة المكشوفة ولا شيء عدا ذلك. هنا، محراب الذكرى. هنا، الهيكل الذي أقيم لإحياء ذكرى أماديو إيناسيو دي ألماييدا برادو، الطبيب والمناضل في صفوف المقاومة وصائغ الكلمات. كان يسود المكانَ صمتُ الكاتدرائيّات البارد والأنيق، والضوضاء الخفيفة الواهنة لغرفةٍ تجمَّد فيها الزمن.

بقي غريغوريوس واقفًا قرب الباب. لم تكن غرفةً يمكن لغريبٍ أن يتجوَّل فيها هكذا ببساطة، وحتّى وإن كانت أدريانا تتنقّل في تلك اللّحظة بين محتوياتها النّادرة، فقد كان هذا أكثر من مجرّد حركة اعتياديّة. ليس لأنّها كانت تسير على أطراف أصابعها أو بتكلّفٍ، وإنّما كان في خطواتها البطيئة شيء مّا غير ماديّ، وتقريبًا كانت خارج المكان والزمان،

كما هو حالُ حركات الذراعين واليدين، وهي تسير باتّجاه الأثاث لامسةً إيّاهُ برفق يكادُ يجعلها لا تلمسهُ فعليًّا.

فعلت هذا أوّلًا مع كرسيّ المكتب الذي كانت حوافّه الدائريّة وظهره المنحني مطابقينْ لكراسي الصالون. وقد تُرك في شكل منحنٍ أمام المكتب، كأنّ شخصًا مّا وقف على عجل ودفعه. انتظر غريغوريوس دون أن يشعر أن تعيد أدريانا ظهر الكرسيّ إلى وضعه الطبيعيّ، وعندما مرَّرت يدها برفق فوق كلّ حوافّه دون أن تلمسها، عندها فقط فَهِم كلّ شيء: لقد تركَ أماديو الكرسيّ في هذه الوضعيّة قبل ثلاثين سنةً وشهرين. وضعيّة لم يكن باستطاعة أيّ أحد أن يغيّرها بأيّ ثمن: مهما حاول، وبإصرار جبّار، أن ينتزع من الماضي حتميَّته أو أن يقلب قوانين الطبيعة.

كان الأمر نفسُه يجري على الأشياء الموضوعة على المكتب، فهناك لوحة مائلة قليلًا تساعده على القراءة والكتابة بشكلٍ أفضل، كتاب ضخم مفتوح في الوسط موضوع على الطاولة في توازنٍ جريء وأمامه حزمةٌ من الأوراق أولاها خالية إلاّ من بضع كلماتٍ لم يكن غريغوريوس يرى غيرها وهو يطيل التّحديق إليها، فيما كانت أدريانا في تلك اللّحظة تمرّر ظاهر يدها برفقٍ على الخشب، وتلمس الفنجان الخزفيّ المائل إلى الزّرقة والموضوع على طبقٍ أحمر نحاسيٍّ وإلى جانبه علبة مُلئت بقطعٍ من السّكر النباتي، ومرمدة مكتّظة بأعقاب السّجائر. هل كانت هذه الأشياء قديمة إلى هذا الحدّ؟ بقايا قهوة في فنجان مهجورٍ هنا، لمدّة ثلاثين سنة؟ رماد سجائر مُطفأة منذ ما يزيد على ربع قرن؟ والقلم منزوع الغطاء، ألا يفترض أن يكون الحبر الذي يملؤه قد تحلَّل إلى غبارٍ رقيقٍ أو جفَّ

وتحوّل إلى كتلة سوداء؟ ولمبة المصباح المكتبي المزركشة بصور باذخة تحت مصباح زمرّديّ، أما تزال تصلح للإنارة؟

أمرٌ آخر ظلّ يحيّر غريغوريوس، ولكنّه احتاج إلى وقتٍ طويل ليدرك معناه: كانت كلّ هذه الأشياء نقيّةً وخالية من الغبار. أغمض عينيه، وفي تلك اللّحظة استحالت أدريانا شبحًا تحيط به هالات مسموعة تنتشر عبر الغرفة. هل كان هذا الشبح يمسح الغبار عن الأثاث هنا بانتظام ولمدّة أحدَ عشر ألف يوم حتّى تحوّل بدوره إلى شبح رماديّ؟

عندما فتح عينيه مجدّدًا، كانت أدريانا تقف أمام حزمة هائلة من الكتب تبدو على وشك الانهيار في أيّ لحظة وهي تحدّق في كتاب ضخم يعلو الحزمة ويحمل على غلافه صورة الدماغ البشري.

«*الدماغ، دومًا الدماغ!*» قالت ذلك بصوتٍ منخفض وبنبرةٍ لا تخلو من العتاب.

«*لم لم يقل شيئًا؟*».

ثُمّ اجتاحت صوتها في تلك اللّحظة نبرةٌ من الغضب. غضب لا مبالٍ تشرّبه الزمنُ واستنفده الصمتُ الذي كان شقيقها المريض يقابلها به منذ عشرات السّنين. لم يُطلعها على أيّ شيء بخصوص مرضه. قال غريغوريوس في نفسه، لم يخبرها بشيء عن قلقه وعن وعيه بأنّ النهاية قد تقع في أيّ لحظة. لم تعلم بهذا إلاّ حين قرأت دفاتره. وكانت في أشدّ لحظات حُزنها، قد شعرت بغضب عميق لأنّه رفض أن تشاركه حميميّة العلم بمرضه.

وفجأةً، رفعت عينيها وحدّقت إلى غريغوريوس كما لو أنّها نَسيت وجوده وبدأت تستعيد ذاكرتها شيئًا فشيئًا.

«آه نعم تعال» قالت ذلك بالفرنسيّة، وبخطى حازمة أكثر من ذي قبل، عادت إلى المكتب وفتحت دُرجين يحتوي كلاهما على حزمة من الأوراق جُمعت بين غلافين من الكارتون معقودين بشريط أحمر.

«لقد بدأ يكتب كلّ هذا بعد وفاة فطيما بوقت قصير». كانت الكتابة «صراعًا ضدّ الشّلل الداخلي». هذا ما كان يقوله. وبعد عدّة أسابيع أضاف «لماذا لم أبدأ الكتابة مبكّرًا؟ نحن لا نكون متبصّرين حقًّا إلاّ حين نكتب، ولا نملك أيّ فكرة حول ماهيّتنا دون أن نتحدّث عن الشخص الذي لم نَكُنه». لم يكن أحد يملك الحقّ في قراءة ما كان يكتبه. ولا حتّى أنا. فهو ينزع المفتاح ويحمله معه دومًا. لقد كان... ربّما كان حذرًا جدًّا.

أعادت غلق الدُّرْجيْن. «والآن أريد أن أبقى وحدي» قالت ذلك فجأةً وبأسلوب عدائيّ تقريبًا، ثمّ لاذت بالصّمت وهما ينزلان الدرج. وعندما فتحت باب المنزل ظلّت هناك صامتةً، عابسةً وحادّة. لم تكن امرأة يمكن مصافحتها.

«إلى اللّقاء وشكرًا لك» قال غريغوريوس وتردّد في مغادرة المكان.

«ما اسمك؟»

طُرح السّؤال بصوتٍ أعلى ممّا ينبغي وبنبرةٍ شبيهةٍ بنباحٍ أجشّ ذكَّره بكونتينهو. ثمّ ردَّدت الاسم بلكنة برتغالية: غريغوريوش.

«أين تسكن؟»

سمّى لها الفندق. ودون أن تقول كلمة وداعٍ واحدة، أغلقت الباب وأدارت المفتاح في القفل.

(14)

كانت الغيوم تنعكس على نهر تاجة وهي تعبر المساحات المشمسة والمتلألئة وتنزلق فوقها، ثمّ تمتصّ الأشعّة لتجعلها تنبعث مرّةً أخرى من الظلّ الأسود، في مكان آخر وبلمعان خاطف. نزع غريغوريوس نظّارته وغطّى وجهه بيديه. كان التعاقب المحموم للنّور الباهر والظلّ المخيف وهو يعبر العدسات الجديدة بحدّة غير معتادة، يؤلم العيون المكشوفة. قبل ذلك، وفي الفندق، بعد أن استيقظ من قيلولة خفيفة ومضطربة، حاوَل أن يضع نظّارته القديمة من جديد، ولكنّ ثِقلها أصبح لا يُطاق، كما لو أنّ عليه اجتياز العالم وهو يدفع بوجهه عبئًا ثقيلًا.

لبث وقتًا طويلًا جالسًا على حافّة السّرير مُضطربًا ومغتربًا نوعًا مّا عن ذاته وهو يحاول قراءة أحداث الصّباح المزعجة وترتيبها. ظلّ مهووسًا بصورة أدريانا الخرساء ووجهها الشاحب شحوبَ المرمر، وهيمن عليه في الحلم لونٌ أسْود له خاصيّة محيّرة، وهي تغلغلهُ في الأشياء، في كلّ الأشياء مهما كانت ألوانها الأخرى، ومهما اشتدَّت قوّة لمعانها. حلم بالمنديل المخمليّ الذي يلفّ رقبة أدريانا ويصل إلى ذقنها، كما لو كان يخنقها بينما لم تكفّ عن شدّه باستمرار إلى فوق. بعد ذلك أمسكت برأسها بكلتا يديها، وكأنّها تريد حماية دماغها أكثر من جمجمتها. رُزَمٌ من الكتب أخذت في الانهيار واحدةً تلو الأخرى. وخلال برهة من الزّمن، حين كان الانتظار المتأجّج يمتزج بالقلق وبشعورٍ فضوليّ بالذنب، جلس

غريغوريوس إلى مكتب دي برادو الذي تناثر فوقه عدد من الحفريّات تتوسّطها ورقة كُتبتْ إلى المنتصف، كانت خطوطها تتلاشى بسرعةِ البرق وتستحيلُ قراءتها أكثر صعوبةً كلّما وقع نظره عليها.

بعد ذلك، وفيما كان يستحضر مشاهد الحلم في ذاكرته، كان ينتابه أحيانًا شعور بأنّ زيارته للمنزل الأزرق لم تحدث في الواقع، وكأنّ كلّ هذا لم يكن إلاّ حلمًا من أحلام اليقظة، تداخلت فيه صور الصّحو والحلم بشكلٍ مُخادع. أمسك رأسه بين يديه، وعندما تأكّد مجدّدًا من حقيقة زيارته، واستعاد أمامه صورة أدريانا هادئةً وواضحةً وعاريةً من مخلّفات الحلم، عبَرت ذاكرتَه الفترةُ القصيرة التي قضّاها في منزلها، حركةً حركة وكلمةً كلمة. كان الإحساس بالبرد ينتابه أحيانًا لمجرّد التفكير في نظرة أدريانا الصّارمة والمريرة، أدريانا التي مَثّلَ رفضها للصّلح حاجزًا أمام الأحداث البعيدة. لقد وُلد في داخله شعورٌ محيّر عندما رآها تحوم في غرفة أماديو وقد استدارت بالكامل نحو الحاضر الماضي وقاربت الجنون. ثمّ رغب مجدّدًا في أن يعيد وضع المنديل على رأسها عساه يمنح الذهن المعذَّب قليلًا من الرّاحة.

يمُرّ الطريق إلى أماديو عبر هذه المرأة الصّلبة والهشّة في آنٍ واحد، أو بالأحرى عبر أروقة ذكراها المثقلة بالعذابات. هل يريد أن يحمل كلّ هذا على عاتقه؟ هل يقوى على هذه المهمّة؟ وهو الذي كان يلقّبه زملاؤه الحاقدون بـ «البرديّة» لأنّه عاش مع النّصوص القديمة أكثر ممّا عاش في العالم؟.

لقد كان من الضروري العثور على أشخاصٍ آخرين على علاقة ببرادو. ليس أشخاصًا لَمحُوه من بعيدٍ فحسب، مثل كونتينهو، أو تلقّوا

العلاج على يديه كما هو حال الرّجل الأعرج والمرأة العجوز اللّذين التقى بهما هذا الصباح، بل أشخاص عرفوه حقًّا صديقًا أو رفيقَ كفاحٍ في المقاومة. سيكون من الصّعب أن يعرف من أدريانا شيئًا عن ذلك. قال بينه وبين نفسه. ستعتبر شقيقها الميّت شيئًا من ممتلكاتها الخاصة. بدا ذلك واضحًا في اللّحظة التي تحدّثت فيها إلى أماديو، لحْظةَ ألقتْ نظرَها على كتاب الطبّ. وكلّ شخص يُحاول تفنيد الصورة الوحيدة والحقيقيّة لأماديو دي برادو، أي تلك التي ظلّت ترسمها له دون غيرها، ستنكره أو ستحاول إبعاده عنه بكلّ الوسائل.

كان غريغوريوس يبحث عن رقم هاتف ماريانا إيسا، وبعد دقائق قليلة من التردّد، اتّصل بها. هل ستمانع في زيارته لعمّها يوحنّا في دار العَجَزة؟ هو يعرف الآن أنّ برادو سبق أن انخرط بدوره في المقاومة وربّما يكون يوحنّا قد عرفه. سادت لحظة من الصّمت وهَمّ غريغوريوس بالاعتذار عن طلبه الوقح لكنّها قالت بتفكُّر: «لا أمانع طبعًا، على العكس تمامًا، قد يُشعره ظهور وجه جديد بالسّعادة ولكن أنا أتساءل فقط كيف سيستقبله؟. قد يتصرَّف بفظاظة، كان حديثه البارحة مقتضبًا على غير العادة. وفي كلّ الأحوال لا ينبغي أن تبدو وكأنّك تقتحم خلوته».

ثمّ صمتت.

«أعتقد أن باستطاعتي مساعدتك. فكّرتُ أمس في إهدائه إسطوانة سوناتات شوبرت بتوزيع جديد. في الواقع هو لا يريد الاستماع إلاّ لعزف ماريا جاوو بيرس على البيانو ولست أدري حقًّا ما إذا كان ذلك من أجل اللّحن أم من أجل المرأة في حدّ ذاتها، أو ربّما هو شكلٌ

فِطْريٌّ من أشكال الوطنيّة. ولكن رغم ذلك فأنا واثقة مِنْ أنّ هذه الإسطوانة ستعجبه، لكنّني نسيت أن أجلبها معي. يمكنك أن تمرّ لأخذها وإعطائها له فيما بعد. سيكون ذلك بمثابة رسالة منّي إذا جاز التعبير. ربّما تحظى بفرصة أخرى».

شرب الشاي في منزلها، شاي «أسام» السّاخن بلون الذهب الأحمر والمحلّى بالسكّر النباتيّ. وفي الأثناء ظلّ يحدّثها عن أدريانا، وهو يتمنّى لو أنّها عقَّبت على حديثه، لكنّ ماريا إيسا بقيَت تستمع إليه في صمت تامّ. وحين انتقل إلى الحديث عن فنجان القهوة المستعمل والمرمدة المليئة بأعقاب السجائر، صارت عيناها تضيقان مثل شخص رأى نفسه فجأةً في المضمار.

«كن حذرًا، قالت له وهي تتهيّأ للخروج، أقصد مع أدريانا طبعًا وحدّثني كيف جرت الأمور مع يوحنّا».

والآن، ها هو على متن العبّارة، وسوناتات شوبرت في جيبه. إنّه في طريقه إلى كاسيلهاس لزيارة رجلٍ سبق أن مرَّ عبر جحيم التّعذيب دون أن يفقد نظرته الحادّة. ومن جديد، غطّى غريغوريوس وجهه بيديه: لو أنّ شخصًا زاره في شقّته ببيرن قبل أسبوع من الآن، حين كان بصدد إصلاح دفاتر اللّغة اللاّتينيّة، وأنبأه بأنّه سيكون في لشبونة بعد ثمانية أيّام على متن عبّارة، وهو يرتدي طقمًا حديثًا ويضع نظارات جديدة، لزيارة ضحيّة من ضحايا التّعذيب تحت حكم سلازار بغية الاستفسار عن حياة طبيبٍ وشاعرٍ برتغالي مات منذ أكثر من ثلاثين سنة، لاعتبر هذا الزائر مجنونًا. هل هذا هو حقًّا موندوس فأر المكتبات الحسير، الفأر الذي انتابه الخوف ببساطة، فقط لأنّ بعض ندفاتٍ من الثلج قد سقطت على بيرن؟

رسَت العبَّارة، فنزل غريغوريوس وسار ببطء نحو دار العَجَزة.

كيف سيتفاهمان؟ هل يتكلّم يوحنّا إيسا لغة أخرى غير البرتغاليّة؟ حدث ذلك بعد ظهر يوم الأحد، والدار تعجّ بالنّاس الذين أتوا لزيارة آبائهم. كان من السّهل التعرّف إليهم في الطريق بباقات الورد التي يحملونها. وكان المقيمون العُجّز على الشرفات الضيّقة يلفّون أجسادهم بالأغطية وهم جالسون تحت أشعّة الشمس المحتجبة باستمرار وراء الغيوم.

استفسر غريغوريوس في الاستقبال عن رقم الغرفة. وقبل أن يطرق الباب، تنفّس ببطء وللمرّة الثانية في اليوم نفسِه، يسمع دقّات قلبه المتسارعة أمام باب، دون أن يعلم ما ينتظره خلفه.

طرق الباب فلم يجبه أحد. أعاد الكرَّة دون أن يحدث شيء. وعندما أصبح يتهيّأ للذهاب فعلًا، فُتح الباب أخيرًا، محدثًا صريرًا خفيفًا. كان يعتقد أنّه سيجد رجلًا بمظهرٍ غير لائق، رجلًا لا يرتدي ملابس في الغالب وإنّما يجلس بثوب الحمّام قبالة رقعة الشطرنج. ولكنّ الرّجل الذي ظهر له من شقّ الباب دون أن يُحدث ضجيجًا، هو شخص آخر مختلفٌ تمامًا، شخص يرتدي سترة صوفيّة فوق قميص أبيض كالثلج، تعلوه ربطة عنق حمراء وبنطال مثنيّ الحاشية مكويّ على أكمل وجه وينتعل حذاءً أسود برّاقًا. يداه مخبّأتان في جيوب سترته، أصلع الرأس، وقد جُمع ما تبقّى من شعره القصير فوق أذنيه البارزتين على جانب واحد، تمامًا كما هو الحال عند شخص غير مبالٍ بأيّ شيء يطرأ من حوله. وبدَت النظرة المنيعة المنبعثة من عينيه الرماديتيْن بأهدابها المتجعدة، وكأنّها تقطع مع كلّ شيء تلمَسُه. كان يوحنّا إيسا عجوزًا تظهر عليه علامات المرض كما قالت ابنة شقيقه، ولكنّه لم يكن رجلًا محطّمًا، لذلك من الأفضل عدم الدخول في منافسة معه.

«سيّد إيسا؟» قال غريغوريوس بالبرتغاليّة، *«لقد أتيت من طرف ماريانا ابنة أخيك، حمّلتني هذه الإسطوانة إليك، إنّها سوناتات شوبرت»*. كانت هذه هي الكلمات التي بحث عنها في المعجم وهو على سطح المركب وظلّ يردّدها مرّاتٍ ومرّات.

كان إيسا واقفًا أمام فتحة الباب الموارب دون حراك، وهو يحدّق في غريغوريوس الّذي لم يقْوَ على احتمال تلك النظرة، فغضَّ طرفه سريعًا. عندها فتح إيسا الباب على مصراعيه وأشار إليه بالدخول. دخل غريغوريوس غرفةً مرتَّبة بدقّة كبيرة، ولا يوجد فيها إلاّ الحدّ الأدنى من الضروريّات. وخلال لحظة خاطفة، تذكّر الغرف الفاخرة التي تعيش فيها ماريانا، وتساءل لماذا لم توفّر لعمّها ظروف سكن أفضل من هذه. لكنّه سرعان ما طرد هذه الفكرة بمجرّد أن نطق إيسا بأولى كلماته.

«من أنت؟». صدَرت الكلمات عن صوتٍ خافت وأجشّ. ومع ذلك فقد كانت لها نبرة متسلِّطة، تسلُّط رجل عرف كلّ شيء ولا يمكن أن تنطلي عليه الأكاذيب.

حدّثه غريغوريوس عن أصله وعن مهنته، وهو يمسك بالإسطوانة في يده، وشرح له بالإنكليزية كيف تعرَّف إلى ماريانا.

«لمَ أنت هنا؟ مؤكّد أنّ ذلك لم يكن من أجل الإسطوانة».

وضع غريغوريوس الإسطوانة على الطاولة واستعاد أنفاسه. ثمّ أخرج كتاب دي برادو من جيبه وأطلعه على صورة الكاتب.

«ربّما التقيتَ به. هذا ما تعتقده ابنة أخيك». وبعد نظرةٍ خاطفة ألقاها على الصورة، أغمض إيسا عينيه وترنَّح قليلًا ثمّ سار نحو الأريكة وجلس دون أن يفتح عينيه.

«أماديو!» قال في الصّمت الذي ساد المكان. ثمّ ردّد مرّةً أخرى: «أماديو، *الكاهن بلا ربّ!*».

كان غريغوريوس ينتظر كلمةً كاذبةً، حركة زائفة، لكنّه لم ينبس بكلمة واحدة. اقترب من رقعة الشطرنج ونظر إلى المباراة التي كانت في بدايتها. وقال: «هيستنغس، سنة 1922، أليخين يهزم بوغولجيبوف». فتح إيسا عينيه ورمق غريغوريوس بنظرة ملؤها الدهشة.

«في أحد الأيّام سُئلَ تارتاكوفر من كان أعظم لاعب شطرنج في نظره؟» فردَّ قائلًا: «إذا كان الشطرنج معركةً فهو لاسكار، وإذا كان عِلمًا فهو كابابلانكا، ولو كان فنًّا فهو أليخين».

«أجل» قال غريغوريوس. «التضحية بمبارتين تكشف عن خيال فنّان».

«ألمس هنا شيئًا من الغيرة».

«بل هي كذلك. الفكرة لم تكن لِتَخطر ببالي».

لاحَت شبه ابتسامة على وجه إيسا القرويّ الأسمر.

«قد يريحك الأمر. أمّا أنا فَلاَ».

التقت نظرتها ثمّ سرعان ما تحوَّلت. فخمَّن غريغوريوس في أنّ إيسا يودّ القيام بشيء مّا ليستأنف المحادثة، أو أنّ المقابلة قد انتهت.

قال إيسا: «هناك، في الركن يوجد شاي، وأنا أرغب في شرب فنجان».

في البداية شعر غريغوريوس بالارتباك، لأنّها المرّة الأولى التي يُطالَب فيها بإنجاز الدور الطبيعي والمعتاد للمُضيف. لكن بعد ذلك

لاحظ أنّ إيسا كان يقبض يديه في جيوب سترته، وعندها فهم كلّ شيء: إيسا لم يكن يريد لغريغوريوس أن يرى يديه المشوَّهتين والمرتعشتين وآثار التعذيب عليهما. فقام بتحضير الشاي لهما معًا. كانت الفناجين ساخنةً فانتظرَا حتّى تبرد، فيما كانت ضحكات الزائرين تتناهى إليهما من الغرفة المجاورة، ثمّ ساد الصّمت.

ذكَّرت الطريقة التي أخرج بها إيسا يده من جيبه ومدَّها نحو الفنجان دون أن يقول كلمة واحدة، غريغوريوس بظهوره الصّامت عند الباب. وفي الوقت نفسِه ترك عينيه مغمضتيْن وكأنّ ذلك هو الوسيلة الوحيدة لإخفاء يديه عن الآخر أيضًا. لمح آثار السجائر المُطفأة منتشرةً على يده، وانتبه إلى أنّ ظفريْن من أصابعه قد قُلعا تمامًا، وإلى أنّ اليد ترتعش وكأنّها مصابة بالرعاش. رمقه إيسا بنظرة متفحِّصة: هل كان يقدر على مواجهة هذا المشهد؟ ولكنّ غريغوريوس كبَح الفزع الذي اجتاحه فجأةً وحمل الفنجان بهدوء إلى شفتيه.

«يجب أن يكون فنجاني نصف ممتلئ». قال إيسا بصوتٍ خافتٍ ومختنقٍ. مؤكّد أنّ غريغوريوس لن ينسى هذه الكلمات. لقد شعر بالسخط في عينيه، كان سخطًا يؤذن بالبكاء. ثمّ قام بشيء سَيَسِم إلى الأبد علاقته بهذا الرّجل المعذَّب: تناول فنجان إيسا وابتلع منه نصف كميّة الشاي السّاخن.

غمره الإحساس بالالتهاب في لسانه وحنجرته. ولكن لم يكن لهذا أيّ أهمية. فقد وضع الفنجان المملوء إلى النّصف على الطاولة بهدوء، وأدار مقبضه نحو إبهام إيسا. رمقه الرّجل بنظرةٍ طويلة ظلّت هي أيضًا راسخةً في ذاكرته. كانت نظرة تمتزج فيها الريبة بالاعتراف بالجميل. ولعلّه اعتراف بالجميل على سبيل التجربة لا غير، لأنّ إيسا قد يئس منذ

زمن طويل من انتظار أن يقوم الآخرون بعملٍ يستحقّ العرفان. حمَل الفنجان بيدٍ مرتعشة إلى شفتيه، وانتظر برهة من الزّمن ثمّ ارتشف منه جرعات سريعة ووضعه بعد ذلك على الصّحن مُحدِثًا طقطقةً متناغمة. أخرج علبة سجائر من جيبه، سحب منها سيجارة وضعها بين شفتيه وقرَّب منها الشعلة المتراقصة. ظلّ يمُجُّ منها أنفاسًا طويلةً حتّى خفَّت رجفة يده. وكان يقبض يده الممسكة بالسيجارة في محاولة لإخفاء الأظفار المقلوعة. أما اليد الأخرى فقد اختفت مُجدّدًا في جيب سترته. ثمّ بدأ الحديث وهو ينظر عبر النافذة.

«لقد التقيت به أوّل مرّة في خريف 1952 في بريطانيا، داخل قطار لندن المتوجّه إلى برايتون عندما أرسلتني الشركة التي أعمل بها في ذلك الوقت لأتابع دروسًا في اللّغة، إذ كانوا يريدونني أن أتعلّم لأتمكّن من تمثيلهم في الخارج. حدَث ذلك يوم الأحد الذي أعقب أوّل أسبوع لي هناك، وكنت ذاهبًا إلى برايتون لأنّني اشتقتُ إلى البحر، أنا الذي ترعرع في أسيوسوند على ضفاف المحيط، في الشمال. فُتح باب المقصورة، ودخل هذا الرّجل، بشعره اللاّمع مثل خَوْذة على رأسه، وهاتين العينين الرّائعتيْن، الجريئتيْن، العذبتيْن والحزينتيْن. كان يقوم برحلة طويلة مع فطيما، خطيبته. ولم يكن للمال أيّ دور في حياته، لا وقتها ولا بعدَ ذلكَ. علمت أنّه كان طبيبًا وأنّه مفتون بالدماغ. ماديّ عنيد، رغم أنّه رغب يومًا في أن يصبح كاهنًا. رجل له موقف غريب تجاه أشياء عديدة، ولكنّه ليس غامضًا بقدر ما هو متناقض.

«كنت أبلغ سبعًا وعشرين سنة، وكان يكبرني بخمس سنواتٍ. يفوقني في كلّ المجالات بفارق مائة ذراع. وعلى كلّ حال هذا ما

أحسستُ به طوال هذه الرحلة. هو ابن لعائلة نبيلة من لشبونة وأنا ابن قروي من الشمال. قضينا اليوم معًا، وقمنا بجولة على الشاطئ، ثمّ تناولنا الطعام سويًّا. وفي وقتٍ مّا، أتينا على الحديث عن الديكتاتورية فأخبرته بأنّ *علينا أن نقاوم*». مازلت أتذكّر هذه الكلمات إلى اليوم. أتذكّرها لأنّها كانت تبدو لي خرقاء أمام رجل يملك وجه شاعر بتقاطيعه الناعمة ويستعمل أحيانًا مصطلحات لم أسمع بها من قبل.

غضّ بصره، ثمّ نظر عبر النافذة، وهز رأسه بإيجاب. لقد أثرتُ موضوعًا لم تكن لديه بعد أيّ فكرة عنه. ما كان عليّ أن أتكلّم في مثل هذه المواضيع مع رجل مسافر عبر العالم رفقة خطيبته، غيّرت الموضوع لكنّه كان متحفِّظًا واعتزل محادثتنا أنا وفطيما.

«معك حقّ»، قال وهو يغادر «طبعًا معك حقّ»، وفهمت أنّه كان يتحدّث عن المقاومة.

عندما تذكّرته خلال عودتي إلى لندن شعرت بأنّه هو أو قطعةٌ منه ودَّت لو تعود معي إلى البرتغال عوض مواصلة الرحلة. وقد طلب مني عنواني الشخصي وهذا أكثر من دليل على التهذيب، أمام لقاءٍ حدَث مصادفة. وبالفعل، سرعان ما قطعا رحلتهما وعادا إلى لشبونة. لكن لم يكن لهذا أيّ علاقة بي. فقد أجهضت شقيقته الكبرى وشارفت على الهلاك. وكان يريد أن يرى ما الذي حصل بالضبط، هو الّذي لم يكن يثق في الأطبّاء. طبيب يَحْذَرُ الأطباء، هكذا كان... هكذا كان أماديو».

تذكّر غريغوريوس نظرة أدريانا المريرة والعدائيّة. لقد بدأ يفهم كلّ شيء. وأراد أن يسأله: وماذا عن الأخت الصغرى؟ لكن عليه أن يؤجّل ذلك الآن.

واصل إيسا حديثه: «مرّت ثلاث عشرة سنة قبل أن ألتقي به مرّةً أخرى. حدَث ذلك خلال شتاء 1965، السّنة التي اغتال فيها البوليس دلغادو. حصَل على عنواني الجديد من الشركة التي كنت أعمل بها. وفي إحدى الأمسيات، وجدتُه واقفًا أمام بابي، بوجهٍ شاحب وذقن مهملة. أمّا شعره الذي كان فيما مضى لامعًا مثل الذهب الأسود فقد أصبح باهتًا تمامًا، وصارت نظرتهُ طافحةً بالألم. حدّثني عن عملّية إنقاذه لضابط سام في الشرطة السريّة كان يكنّى بـ «جزّار لشبونة» ومنذ تلك اللّحظة أصبح مرضاه القدامى يتحاشونه، وأصبح يشعر بأنّه منبوذ.

«أريد أن أعمل لصالح المقاومة».

- لتُصلحَ ما فات؟

غضَّ بصره وهو يشعر بالحرج.

- أنت لم ترتكب أيّ خطأ، قلتُ له، أنتَ طبيب !.

- أريدُ أن أفعل شيئًا، هل تفهم؟ أريدُ أن أتحرّك. قل لي ما يجب عليّ فعله. أنت تعرف كلّ شيء...

- كيف تعرف ذلك؟.

- أعرف ذلك. أعرف ذلك منذ لقائنا في برايتون.

كان ذلك يمثّل خطرًا علينا أكثر من أيّ شيء آخر. لأنّه لم يكن يملك مُواصفات مناضل في المُقاومة... -كيف أشرح ذلك؟- لم يكن يملك القوّة الحقيقيّة الدّاخليّة، الإصرار الحقيقيّ. يجب أن تتحلّى بالصّبر وبالقدرة على الانتظار، يجب أن يكون لك رأس كرأسي، جمجمة قروي، وليس روح حالم بأعصاب دقيقة. وإلاّ فإنّك ستُجابه مخاطرَ كثيرة

وترتكب أخطاء وتُعرِّض كلّ شيء للخطر. صحيحٌ أنّه كان يتحلّى برباطة جأش كبيرة، لكنّه كان على استعداد للتهوّر وكان ينقصه الجلَد والإصرار والقدرة على عدم المقاومة حتّى وإن بدت الظروف ملائمةً لذلك. كان يقرأ أفكاري، لقد كان يقرأ أفكار الآخرين حتّى قبل أن تتشكَّل في أذهانهم. ولم يكن من السّهل عليه تقبّل هذا. أعتقد أنّها المرّة الأولى في حياته التي يقول له فيها أحدهم: أنت غير قادر على القيام بهذا العمل، تنقصك مَلَكَة مّا. لكنّه كان يعلم أنّني كنت على حقّ، ولأنّه يعرف نفسه جيّدًا، قَبِل أن تكون المهام المسندة إليه في بداية الأمر صغيرةً وتافهة.

«لم أكفَّ عن تذكيره بأنّ عليه قبل كلّ شيء أن يقاوم كلّ رغبة فيه: كأن يُعلِم مرضاه بعمله معنا. فهو يريد أن ينضمَّ إلينا حتّى يكفِّر عن خيانته لضحايا موندز. ولن يكون لمخطَّطه أيّ معنى في الواقع إلاّ إذا علم الناس به. آه لو كان باستطاعته أن يحمِلهم على مراجعة حكمهم المتجبِّر! لو أنّهم يعودون لتبجيله وحبّه مثلما كانوا يفعلون في السّابق! كانت هذه الرغبة تلحّ عليه، كنت أعرف ذلك، وكانت أكبر عائق أمامه وأمامنا. يغضب عندما أعمد إلى تغيير هذا الموضوع. ويشعر كما لو أنّني أستهين بذكائه، أنا الذي كنت مجرّد محاسب وأصْغُرهُ بخمس سنوات. لكنّه كان يعلم أنّني على حقّ بشأن هذه النقطة أيضًا. «أكره أن يسبر شخص أعماقي مثلما تفعل أنت» هكذا قال لي ساخرًا ذات يوم.

«لقد هزم رغبته، رغبته الغامضة في غفران شيء لم يكن بالتأكيد تقصيرًا في حقّ أيّ أحد. وهو لم يرتكب خطأً في الحقيقة، أو على الأقلّ ذنبًا يمكن أن تكون له عواقب. وفي الظلّ، كان موندز يحمي هذا الرّجل

الذي سبق أن أنقذ حياته. كنّا في عيادته نرسل الرّسائل وظروفًا تحوي المال نتبادلها يدًا بيد. ولم نكن نخضع مطلقًا للتفتيش كما هو الحال في كلّ مكان. كان أماديو يخشى كثيرًا من هذا الأمر. هكذا كان الكاهن بلا ربّ، كان يريد أن نأخذه على محمل الجدّ، أن نكون بمنأى عن أيّ شيء يمكن أن يجرح كبرياءه الشبيه بكبرياء مُضطهَد. وخلال وقت قصير أصبح هذا ينذر بخطر جديد: كان يريد أن يستفزّ موندز بعملٍ وقحٍ حدّ التهوّر، حتّى لا يكون في وسع الآخر أن يوفّر له الحماية لوقتٍ طويل. حدّثته في هذا الأمر، وكانت صداقتنا على وشك الانهيار هذه المرّة، لم يعترف بأنّني على حقّ، لكنّه تمالَك نفسه وأعاد التفكير في الأمر.

«بعد فترة قصيرة نفّذ عمليّتين دقيقتين، لا أحَد يمكنه القيام بهما غير رجل يعرف شبكة السّكّة الحديديّة عن ظهر قلب، وكان هذا حال أماديو. كان مولعًا بالقطارات وبالسّكك الحديديّة وبتفريعاتها، ومُلمًّا بكلّ أنواع القاطرات ويعرف خاصّة كلّ محطّات القطار في البرتغال حتّى تلك الموجودة في أصغر القرى. يعرف ما إذا كانت بها آلة تحويل أم لا، لأنّ أحد هواجسه هو أن يكون بمقدور أحدهم أن يتحكّم في سرعة القطار بتشغيل الرّافعة. هذه العمليّة الميكانيكيّة البسيطة كانت تثير فيه دهشةً فاقت كلّ الحدود، وفي النهاية كان عِلمه في هذا المجال وحسّه الوطني الحديدي الأحمق هما اللّذان أنقذا حياة رفاقنا، الرفاق الذين لم يتقبّلوا فكرة أن أضمّه إلينا، لأنّهم كانوا يعتبرونه متحذلقًا ومتعاليًا، قادرًا على أن يعرّضنا للخطر. لكنّهم سرعان ما غيّروا رأيهم فيه.

«مؤكّد أنّ موندز كان مدينًا له بحياته. ففي السجن، لم يكن يُسمح لي باستقبال الزائرين وخاصّة الرفاق الذين كان يُشتبه في انتمائهم إلى

المقاومة. حتّى ماريانا لم يكن يُسمح لي برؤيتها. باستثناء واحد فقط: أماديو، فقد سُمح له بزيارتي مرّتين في الشهر. وكان له الحقّ في اختيار أيّام الزيارة ومُدّتها، وكان هذا يُعدُّ خرقًا صريحًا لكلّ القوانين.

وقد واظب على زيارتي وكان يظلّ برفقتي أطول فترة ممكنة. كان الحرّاس يخشون نظرته المتّقدة وهم يذكّرونه بنهاية الوقت. وكان يجلب لي معه أدوية ضدّ الألم وأخرى مهدّئة يسمحون له بإدخالها لينتزعوها منّي بعد ذلك. لم أخبره بشيء عن هذا الأمر، لأنّني لو فعلت لحاول هدَّ الجدران. وعندما شاهد ما فعلوه بي تدفّقت الدموع فوق وجنتيه. لم تكن بالطبع دموعًا نابعةً من شفقته عليّ فحسب، بل كانت أكثر من ذلك، كانت دموع الإحساس بالقهر. وكان على وشك أن يستعمل كلّ وسائل العنف ضدّ الحرّاس وقد احمرَّ وجهه المتعرِّق من الغضب».

كان غريغوريوس ينظر إلى إيسا ويتخيَّل كيف استطاع بتلك النظرة الرمادية الحادّة، أن يواجه قطع الحديد المتوهِّجة التي كادت تسلبه البصر بوهجها المحتدم. كان يشعر بالقوّة الخارقة لهذا الرّجل الذي لم يكن يستطيع أحد هزيمته إلاّ بتصفيته جسديًّا، الرّجل الذي كان قادرًا حتّى وهو غائبٌ على انتزاع النّوم من عيني خصمه.

«جلب لي أماديو الكتاب المقدّس، العهد الجديد باللّغتين البرتغاليّة والإغريقية، بالإضافة إلى كتاب قواعد اللّغة الإغريقيَّة الذي أرفقه به. وكان ذلك هو كلّ ما سُمح له بإدخاله من الكتب.

«أنت لا تصدّق أيّ كلمة من كلّ هذا». قلتُ له ذلك عندما أتى الحرّاس لإرجاعي إلى زنزانتي.

تبسّم وقال: «إنّه نصّ جميل، لغته رائعة، ولكن احذر الاستعارات».

«أدهشني الكتاب المقدّس. لم يسبق لي وأن قرأته من قبل. وفي الواقع لم أكن أعرف إلاّ العبارات الدارجة التي يحفظها الجميع. أذهلني هذا المزج بين المنطقي والغريب. وكنّا غالبًا ما نتحدّث في هذا الموضوع: *«ديانة تقوم على مشهد إعدام. كم أجد هذا منفّرًا!» «تخيّل لو تحوّل ذلك إلى مشنقة أو مقصلة، تخيّل كيف ستبدو رمزيّة ديانتنا»*. لم يسبق لي أن نظرت إلى الأمر من تلك الزاوية وهو ما أشعرني بالخوف أيضًا لأنّه كان لهذه الجملة بالذات وقع خاصّ بين هذه الجدران.

«كان هكذا: كاهنا بلا ربّ: يتأمّل الأشياء حتّى النهاية. *ولطالما* كان يتأمّلها حتّى النهاية، مهما كانت فظاعة النتائج. وأحيانًا يبدو عنيفًا، فقد كانت له طريقته في تعذيب نفسه. ربّما لهذا السّبب لم يظفر بأصدقاء آخرين باستثنائي أنا وجورج. وإلى جانب افتقاره إلى القدرة على تحمّل الطعنات، كان تعيسًا إلى درجة أنّه خسر ميلودي. لقد أحبّ شقيقته الصّغرى التي لم أرها إلاّ مرّةً واحدة فقط. فتاة هشّة ومرحة، تكاد قدَماها لا تلامسان الأرض. أستطيع أن أتصوّر أنّها لم تكن تتّفق مع الطّبع السّوداوي لشقيقها الذي كان فوق ذلك بركانًا مهتاجًا قبل ثورانه».

أغمض يوحنّا إيسا عينيه وفضَح وجهه شعوره بالإرهاق، فقد انتهى للتوّ من رحلة عبر الزمن، ودون شكّ، لم يُطنب في الحديث إلى هذا الحدّ منذ سنواتٍ. كان غريغوريوس يتمنّى لو يطرح عليه مائة سؤال آخر: حول شقيقة أماديو الصّغرى صاحبة الاسم الغريب، حول جورج وفطيما، ويسأله هل بدأ فعلًا في تعلّم الإغريقية. لقد استمع إليه دون أن يأخذ نفَسًا، ناسيًا حنجرته الملتهبة التي كانت في هذه الأثناء تلتهب من جديد، وشعر بثقل في لسانه. ناوَله إيسا، في منتصف الحكاية، سيجارة

فشعر غريغوريوس بأنّه لن يستطيع رفضها دون أن يترك الخيط اللاّمرئي الذي نُسج بينهما ينقطع. لم يكن من اللاّئق أن يشرب الشاي من فنجان إيسا ثمّ يرفض سجائره. وببساطة، كان ذلك مستحيلًا. وهكذا وضع بين شفتيه أوّل سيجارة في حياته. ونظر بتوتّر إلى الشعلة المرتعشة في يد إيسا وهي تتّجه نحوه، ثمّ دخّن السيجارة بتردّد وحَذر حتّى لا ينتابه السّعال، عندها فقط، شعر إلى أيّ حدّ كان الدخان الحارق سُمًّا في فمه الملتهب. فلعَن حماقته، وفي الوقت نفسِه أدرك والدهشةُ تغمره أنّه لم يرغب في أن يكون لهب الدخان مختلفًا عمّا شعر به.

وفجأةً تناهى إليه صوتُ جرس حادّ جعله يقفز من مكانه.

«إنّه جرس العشاء» قال إيسا.

نظر غريغوريوس إلى ساعته فوجدها تشير إلى الخامسة والنصف، قال إيسا: «ما يزال الوقت مبكّرًا، تمامًا كما في السجن، الوقت ليس مُلكًا للمُقيمين وإنّما لجُموع الموظّفين».

استأذنه غريغوريوس في زيارته مرّةً أخرى. فنظر إيسا نحو رقعة الشطرنج في صمت، ثمّ أومأ برأسه إيجابًا. وكأنّه يحاول الاحتماء بالصّمت. وحين انتبه إلى أنّ غريغوريوس يرغب في مصافحته، دفن يديه في جيوبه بشدّةٍ وحدَّق إلى الأرض.

عاد غريغوريوس إلى لشبونة دون أن يلاحظ شيئًا مُهمًّا. مرّ عبر شارع أوغسطين، وعبَر ميدان بايكسا باتّجاه الروسيو. كان يشعر بأنّ أطول يوم في حياته ينقضي في تلك اللّحظات. ثمّ تذكّر في وقتٍ لاحق، وهو على سريره في غرفة الفندق، كيف أسند جبينه هذا الصّباح إلى الواجهة الضبابيّة للمكتبة الدّينية منتظرًا أن تهدأ في داخله رغبته الجامحة

في الذهاب إلى المطار. وكيف تعرَّف بعد ذلك إلى أدريانا، وشرب الشاي ذا اللون الأحمر الذهبي في ضيافة ماريانا إيسا ودخَّن وفمُه ملتهبٌ سيجارة عند عمّها، هي السيجارة الأولى في حياته. أحقًّا حصَل كلّ هذا في يوم واحد؟.

فتح الكتاب على صورة أماديو دي برادو. كلّ ما عرفه اليوم بشأنه جعَل ملامحه تتغيّر. وشيئًا فشيئًا بدأ هذا الكاهن بلا ربّ يعود إلى الحياة.

(15)

«*هو ذاك، سيكون كلّ شيء على ما يرام*». هذا ليس مُريحًا تمامًا... «ولكن...» قالت أوغستينا وهي تشعر بالحرج، أوغستينا الصّحفيّة المتربِّصة في «الأخبار اليومية»، الصّحيفة الشهيرة والثريّة بمواضيعها عن تراث البرتغال.

«أجل، قال غريغوريوس، سيكون الأمر على ما يرام». وجلس في المقصورة المظلمة حيثُ يوجد مُشغّل الأفلام.

لم تكن أوغوستينها التي تعرّف إليها عن طريق محرّر نافد الصّبر باعتبارها طالبةً في التاريخ واللّغة الفرنسيّة، ترغب في مغادرة مكان عملها. كان يشعر أنّ مكانها الطبيعيّ هناك، في الأعلى، حيث ترنّ الهواتف دون توقّف، ولا تنغلق شاشات الأخبار أبدًا. لقد كانت حركيّة بطريقة تجعلها أكثر من موظّفة عاديّة.

«عمّ تبحث بالضبط؟» سألته في تلك اللّحظة. «أقصد.. هذا ليس من شأني ولكن...».

«أبحث عن ملابسات وفاة أحد القضاة. قال غريغوريوس. انتحار قاضٍ شهير في التاسع من جوان سنة 1954، ربّما وضع حدًّا لحياته لأنّه كان يعاني من مرض تصلّب الفقرات ولم يعد باستطاعته تحمّل آلام الظهر. ولكن قد يكون ذلك أيضًا بسبب شعور بالذنب، لأنّه واصل

العمل بالقضاء خلال حكم الديكتاتورية ولم يعارض هذا الحكم الظالم. كان يبلغ من العمر أربعة وستّين عامًا عندما قام بذلك، ما يرجّحُ أنّهُ لم يعد أمامه مجال للانتظار حتّى سن التقاعد. لا بدّ من أنّ شيئًا ما قد حصل وجعل انتظاره مستحيلًا. شيئًا له علاقة بمظهره وبآلامه المبرِّحة أو ربّما بالمحكمة. هذا ما أودّ معرفته.

لماذا تريد معرفته.. عفوًا؟

أخرج غريغوريوس كتاب دي برادو وفتحه على مقطعٍ مُحدّد وقدّمه لها لتقرأه.

لماذا يا أبي؟

«لا تتصوّر أنّك مهمٌّ إلى هذا الحدّ». هذا ما اعتدتَ قوله عندما كان أحد مّا يتذمّر. كنتَ جالسًا على كرسيّك الذي لم يكن يُسمح لأحد غيرك بالجلوس عليه، مُمسكًا بالعكاز بين ساقيك النحيلتين، واضعًا يديك اللّتين شوّههما النقرس على عجرته الفضيّة، ورأسك -مثلما هو الحال دومًا- مرفوعٌ إلى أعلى (يا إلهي! آه لو كان باستطاعتي رؤيتك يومًا واحدًا فقط منتصبًا أمامي، مرفوع الرأس كما يليق بكبريائك! يومًا واحدًا فقط!. لكنّ رؤيتي المتكرّرة آلاف المرّات لظهرك المحدودب أطفأت كلّ ذكرى. والأسوأ من ذلك، أنّ مخيّلتي القويّة نفسها قد شُلَّت من جرّاء ذلك). كلّ الآلام التي كان عليك تحمُّلها طوال حياتك، كانت منذ ذلك الوقت تضفي قوّةً على عنادك الذي لا يتغيّر أبدًا. ولا أحد يجرؤ على مخالفتك. لم يكن الأمر ظاهريًّا فحسب، بل كنتَ تعيش في داخلك أيضًا صراعًا يناقض نفسه. طبعًا ونحن أطفال، كنّا نضحك ونسخر منك في غيابك،

بتقليد طريقتك في الحديث. حتّى ماما وهي توبّخنا بسبب هذا الفعل، كانت تفضحها ابتسامة ترتسم على شفتيها وكنّا نتهادى على إثرها في السّخرية بحماس. لكنّ ذلك لم يكن إلاّ تحرّرًا ظاهريًّا. كما لو أنّه «الكفرُ» العاجز لشخص يخشى الله.

كلماتك تفرض إرادتها. وظلّت تفرضها حتّى أتى ذاك الصباح الذي توجَّهتُ فيه إلى المدرسة وقد تملّكني القلق، وكانت الرّيح والأمطار تضربان وجهي. لماذا لم يكن هذا القلق الذي أشعر به أمام قاعات الدرس المظلمة وهذا الروتين الخالي من الفرح شيئًا ذا أهمية في نظري؟. لماذا لم يكن مُهمًّا أن تعاملني ماريا يوحنّا كما لو أنّني غير موجود، في حين لم يكن باستطاعتي التفكير في شيء آخر تقريبًا؟ لماذا كانت آلامك، وحكمتك التي تولَّدت عنها مقياسًا لكلّ شيء؟ كنتَ تضيف قائلًا: «من منظور الأبديّة، لم يعد لهذا أيُّ أهمّيةٍ تُذكر».

غادرتُ طافحًا بالغضب والغيرة تجاه صديق ماريا يوحنّا الجديد، وعدت بخطى راسخة إلى المنزل. وبعد الغداء، جلست على كرسيّ قبالتك وقلتُ بحزم: «أريد أن أنتقل إلى مدرسة أخرى». قلتُ ذلك بثقةٍ شديدةٍ شعرتُ بأنّها نابعة من الداخل. «هذا لا يُحتمل، أنت تتصوّر أنّك مهمّ جدًّا». قلتَ لي ذلك وأنت تفرك عجرة العكاز الفضيّة «ومن سيكون مُهمًّا في نظري إن لم أكن أنا؟»، سألتك، «ولا وجود لفكرة الخلود هذه».

وساد الغرفة صمتٌ ينذر بالانفجار. لم يسبق أن عشنا موقفًا مشابهًا لهذا. كان حدثًا لا يُصدّق، وأن يصدر عن ابنك المفضّل فهذا يجعله أكثر سوءًا. كان الجميع ينتظر حصول انفجار سينكسر خلاله

صوتك كالعادة. لكن لم يحدث أيّ شيء.

وضعتَ يديك على عجزة العكاز. وارتسم على وجه ماما تعبير لم أرَ مثله من قبل، كان يساعدني على فهم الموقف -هذا ما فكّرت فيه لاحقًا- لماذا اختارتك زوجًا لها؟. وقفتَ دون أن تنبس بكلمة. لم يكن يُسمع إلاّ صوتُ أنينٍ خافت سبّبته آلام المبرّحة. لم تشاركنا العشاء، وهذا أيضًا لم يحدث منذ أن وُجدت هذه العائلة. وفي الغد، عندما جلستَ إلى الطاولة لتناول فطور الصباح، نظرتَ إليّ بهدوء وبشيء من الحزن قائلًا: «هل اخترتَ مدرسةً بعينها؟». سبق أن طلَبَتْ منّي ماريا يوحنّا في فترة الاستراحة ما إذا كنت أرغب في تناول برتقالة، فأجبتها: «لقد سُوّي الأمر».

كيف نميّز بين ضرورة أن نولي أهمّيّة لشعور مّا، وبين التعامل معه كنزوة أشدّ خفّة من الريح؟ لماذا لم تتحدّث معي قبل أن تفعل ذلك يا أبي؟ لكي أعرف على الأقلّ لماذا كنت تفعله؟

«حسنًا أنا أفهم». قالت أوغستينا ثمّ بحثَتْ بين الأوراق عن إعلان الوفاة الخاصّ بالقاضي دي برادو.

«لقد كانت الرقابة شديدة سنة 1954، قالت أوغستينا. أعرف كلّ شيء عن هذا الموضوع. الرقابة على الصِّحافة هي موضوع رسالتي في ختم الإجازة. وما كانت الصحيفة تنشره ليس صحيحًا بالضرورة، فما بالك حين يتعلّق الأمر بخبر انتحار يحرّكهُ دافع سياسي؟».

عثرا أوّلاً على إعلان الوفاة الذي صدر في 11 جوان. وقد وجدت أوغستينا هذا الإعلان مُقارنةً بالعادات البرتغاليّة في تلك الفترة، مقتضبًا إلى درجة أنّه كان شبيهًا بصرخة كبيرة صامتة. Faleceu يعرف

غريغوريوس هذه الكلمة. لقد لمحها فيما مضى في المقبرة. Amor/ Recordaçao، هي عبارات مختصرة وتقليديّة. في الأسفل، كُتبت أسماء الأسلاف الأكثر قرابة: ماريا بندال رايس دي برادو، أماديو، أدريانا، ريتا. ثمّ كُتب العنوان واسم الكنيسة التي سيقع فيها إحياء القدّاس. ولا شيء آخر. ريتا، قال غريغوريوس في نفسه، هل تكون هي نفسها ميلودي التي حدّثه عنها يوحنّا إيسا؟

في تلك اللّحظة، كانا يبحثان عن مقالٍ في هذا الشأن. لم يكن يوجد في الأسبوع الذي يلي التاسع من جوان أيّ شيء بخصوص هذا التّاريخ. «لا لا، لنواصل البحث». قالت أوغستينا عندما لاحظت أنّ غريغوريوس يريد الانسحاب. نُشر الإعلان في العشرين من جوان بشكلٍ يكاد يكون مخفيًّا بين الصّفحات المحلّيّة.

«أعلنت وزارة العدل اليوم أنّ ألكسندر هوراسيو دي ألماييدا برادو، القاضي السّامي الذي خدم المحكمة العليا عدّة سنواتٍ، قد تُوفّي الأسبوع الماضي إثر صراع مع مرضٍ عُضال».

وقد ورد الإعلان مصحوبًا بصورةٍ كبيرةٍ للقاضي، إلى حدٍّ يبعث على الدّهشة، لأنّ حجمها لم يكن متناسقًا مع المعلومة المقتضبة. وجه حادّ بنظّارة موصولةٍ بسلسلة، لحية مدبّبة وشاربان، جبهة عالية تذكّر بجبهة الابن، شعرٌ رماديّ ما يزال محافظًا على كثافته، وياقة بيضاء سميكة ومزدوجة، ربطة عنق سوداء، ويد شديدة البياض كان يرتكز بذقنه عليها، وكلّ ما تبقّى تائهٌ في الخلفيَّة المظلمة. صورة التُقِطَت بمهارة: لا أثر للألم المبرّح للظهر المحدودب، ولا أثر أيضًا للنقرس على يديه. الرأس واليدان خارجان من الظلمات في سكون شبحيّ وبياضهما

لا يُقاوم. لا مجال للاعتراض أو النقض، كانت صورةً يمكنها أن تسحر منزلًا بأكمله، تصيبه بلعنتها وتسمّمه بنفوذها الخانق. قاضٍ لم يكن بإمكانه أن يكون شيئًا آخر غير قاض. رجل يملك قسوة حديديّة ومنطقًا صخريًّا تجاه نفسه أيضًا. رجل لن يتوانى عن محاكمة نفسه لو اقتضى الأمر. رجل تخذله الابتسامات على الدوام. رجل شبيهٌ إلى حدّ مّا بأنطونيو دي أوليفيرا سالازار. لم يكن يشبهه في قسوته ولا في تعصّبه ولا في طموحه وإرادته القويّة فحسب، ولكنّه كان يملك دون شكّ، صرامته وحتّى لا مبالاته بذاته أيضًا. هل كان هذا هو السّبب الذي سبق أن دفعه إلى خدمة هذا الرّجل المتّشح بالسّواد، صاحب الوجه المتعب تحت القبّعة، كلّ هذا الوقت؟ وفي النهاية، هل كان عاجزًا عن مسامحة نفسه لتأييده القسوة، القسوة التي ما تزال آثارها ظاهرة على يدي يوحنّا إيسا المرتعشتين، هاتين اليدين اللّتين كانتا تعزفان شوبرت ببراعةٍ فيما مضى؟

«تُوفّي إثر صراع طويل مع مَرضٍ عُضال».

شعر غريغوريوس بنفسه يشتاط غضبًا.

«لاشيء. قالت أوغستينا، هذا لا يعدُّ شيئًا مُقارنةً بكلّ ما صادفته في أماكن أخرى من تزوير وكذب صامت». استفسر وهو يتهيّأ لمغادرة المكان، عن الشارع المذكور في الإعلان ولاحظ استعدادها لمرافقته عن طيب خاطر، وشعر بالسّعادة عندما دعته المتربّصة إلى غرفة التحرير.

«أن تكون مهتمًّا إلى هذا الحدّ بتاريخ... أن تبحث جاهدًا لامتلاكه... هو...». قالت بعد أن تصافحا.

«تعتقدين أنّ هذا الأمر غريب؟ أجل إنّه غريب حقًّا. غريب جدًّا، حتّى بالنّسبة إليّ».

(16)

لم يكن قصرًا. بل كان منزلًا لعائلةٍ ثريّة يمكن لأفرادها أن يتوزّعوا فيه كيفما شاؤوا. ليس مهمًّا زيادة غرفة أو نقصانها، الأهمّ من ذلك أن يوجد حمّامان أو ثلاثة. هنا، عاش القاضي محدودب الظهر. في هذا المنزل تحديدًا، سار متوكّئًا على عكّازه ذي العجرة الرّماديّة، مستبسلًا في مقاومة آلامه الدّائمة، يُحرِّكه اقتناعٌ راسخٌ بأنّ المرء لا ينبغي أن يظنّ نفسَهُ مُهمًّا إلى حدٍّ بعيد. هل رتّب مكتبه في القلعة الرّباعية الأضلاع، القلعة التي كانت نوافذها المقوَّسة متباينة بعمودين صغيرين؟ كانت هناك شرفات كثيرة معلَّقة على الواجهة المتكلَّفة إلى حدٍّ يجعل معرفة عددها كلّها عصيًّا على المتأمّل، بالإضافة إلى شبكة حديديّة منقوشة بدقّة. كان غريغوريوس يتصوّر أن كلّ واحد من الأفراد الخمسة يستأثر بشرفتين. وتذكّر الغرف الضيّقة والصّاخبة التي عاش فيها حارس المتحف وعاملة النظافة مع ابنهما الحسير، تذكّر الطاولة الخشبيّة البسيطة التي يجلس إليها في غرفته وهو يقاوم الموسيقى القذرة المنبعثة من راديو الجيران باستعمال عبارات إغريقية قديمة ومعقَّدة. لم تكن الشرفة الصغيرة تتّسع لشمسيّة واحدة، وكانت حارقة في الصيف، تطارده فيها باستمرار غيماتٌ كثيفة من الروائح المنبعثة من المطبخ، لهذا هجرها غريغوريوس. أمّا منزل القاضي فقد كان جنّةً واسعة من الظلّ والصّمت. وكانت أشجار الصنوبر العالية والساحرة تتشابك

في كلّ مكان لتُكوِّن سقوفًا مظلّلة، تبدو أحيانًا شبيهة بالمعابد البوذية.

أشجار أرز. انتفض غريغوريوس. أشجار أرز. أشجار أرز حمراء. هل كانت فعلًا أشجار أرز تلك التي كانت بالنّسبة إلى أدريانا *مُسربلة* باللّون الأحمر؟ وما أهميّة هذه الأشجار حتّى تلفت انتباه أدريانا وهي تبحث عن اسم الناشر الافتراضيّ؟

استوقف غريغوريوس بعض المارّة وسألهم ما إذا كانت هذه الأشجار أشجار أرز فعلًا. ولكنّهم كانوا يعبِّرون عن استغرابهم بهزّ الأكتاف والحواجب أمام سؤال هذا الغريب السّخيف. أجل، قالت أخيرًا امرأة شابّة. لقد كانت أشجار أرز، سامقة وجميلة بشكلٍ خاصّ. عندها انتقل بخياله إلى داخل المنزل ونظر إلى الخارج نحو أوراق الأشجار بلونها الأخضر الداكن جدًّا. ما الذي حصل لها إذن؟ ما الذي غيَّر اللون الأخضر إلى الأحمر؟ هل هو الدم؟

خلف نوافذ القلعة، لاح خيال امرأة ترتدي ملابس خفيفة، شعرها مرفوع إلى أعلى، خفيفة، ومحلِّقة تقريبًا. كانت تغدو وتروح، مشغولةً دون أن تكون على عجلةٍ من أمرها. ثمّ ظهرت وهي تحمل سيجارة مشتعلة، -لا ندري إلى أين؟- ودخانها يتصاعد إلى أعلى السّقف. تلافت المرأة شعاعَ شمسٍ يدخل الغرفة عبر أشجار الأرز وكأنّه كان يعميها، ثمّ اختفَتْ فجأةً.

«فتاةٌ تكاد قدماها لا تلامسان الأرض». هكذا وصَفَ يوحنّا إيسا ميلودي، شقيقة برادو الصّغرى، واسمها الحقيقيّ: ريتا. هل يمكن أن يكون فارق العمر بينهما كبيرًا إلى هذا الحدّ حتّى تبقى ريتا قادرة على التحرّك بليونةٍ ورشاقةٍ كهذا الخيال الّذي يظهر في القلعة؟

تابع غريغوريوس طريقه، واتّجه مسرعًا إلى الشارع الموالي. طلب بالإضافة إلى قهوته المعتادة علبة سجائر من النوع نفسِه الذي دخّنه عند إيسا بالأمس. سحب بضعة أنفاس من سيجارته وتراءى له تلاميذ كرشنفلد أمام المخبزة، على بُعد بضعة شوارع، يدخّنون ويشربون القهوة في أكواب كارتونية. متى نَهى كاجي عن التدخين في قاعة الأساتذة؟ والآن بينما يحاول ابتلاع الدخان، فاجأته رغبة حارقة في السّعال قطعت أنفاسه. وضع نظّارته الجديدة على النَّضد، سعَل وفرَك عينيه ليمسح دموعه. المرأة القابعة خلف النَّضد، تُدخّن السّجائر الواحدة تلو الأخرى. قالت له ساخرة: «من الأفضل ألاّ تعيد الكرَّة». وشعر غريغوريوس بالفخر لأنّه فهم قولها حتّى ولو كان المعنى غير واضح. لم يكن يعرف ما سيفعله بالسيجارة، وفي النهاية أطفأها في كأس الماء الموضوع إلى جانب الفنجان. حملت المرأة الكأس وهي تهزّ رأسها تعبيرًا عن الشفقة. لقد كان مبتدِئًا لا غير، ولا جدوى من فعل أيّ شيء.

اتّجه بخطوات بطيئة نحو مدخل المنزل الذي كانت تملؤه أشجار الأرز، واستعدّ من جديد لقرع جرسِ بابٍ آخر. لكنّ الباب فُتح فجأةً وخرجت المرأة التي سبق أن لمحها من قبل مصطحبةً كلب رعاة هائج. كانت ترتدي سروالًا من الجينز وحذاءً رياضيًّا. خطت خطوتها الأولى على أطراف أصابعها وكأنّ الكلب هو الذي يجرّها. *«فتاة تكاد قدماها لا تلامسان الأرض»*. فتاة ما تزال شابّة على الرغم من خيوط الشيب التي تسلّلت إلى شعرها الأشقر الرّماديّ.

«صباح الخير». قالت وهي ترفع حاجبيها بحيرة ورمقته بنظرتها الواثقة.

«أنا..»، بدأ غريغوريوس حديثه باللّهجة الفرنسية، وقد خانته الثقة في النفس، وشعر بالطعم الكريه الذي خلّفته السيجارة في فمه. «منذ زمن بعيد، عاش هنا قاضٍ شهير، وأنا أرغب...».

«لقد كان والدي». قالت المرأة ونفخت على خصلة انفصلت عن شعرها المرفوع وانسدلت على وجهها. كان صوتها العذب يتلاءم مع لون عينيها الرماديّتين والكلمات الفرنسيّة الخالصة. ريتا: اسمٌ جميل، لكن ميلودي اسم رائع في بساطته.

«لمَ أنت مهتمّ به إلى هذا الحدّ؟».

«لأنّه كان والد هذا الرّجل». وأطلعها على كتاب دي برادو.

كان الكلب يسحب الحبل.

«بانْ». صاحت ميلودي، «بانْ!».

جلس الكلب. تركت حلقة القيد تنزلق حتّى مرفقها، وفتحت الكتاب وقرأت: *«أشجار الأرز الحمـ..»*. ومن مقطع إلى آخر كان صوتها يخفت شيئًا فشيئًا لينطفئ تمامًا في النهاية. قلبت الصفحات ونظرت إلى صورة شقيقها. صار وجهها الأبيض والمنمَّش متجهّمًا، وأصبحت تجد صعوبة في ابتلاع ريقها. أخذت تتأمّل الصّورة وهي جامدة مثل تمثال وراء الزمان والمكان. وفي بعض اللّحظات كانت تمرّر طرف لسانها على شفاهها الجافّة، وتواصل تصفّح الكتاب. قرأت جملة، ثمّ اثنتين وعادت إلى تأمّل الصورة، ثمّ إلى الصفحة التي كُتب عليها العنوان.

«1975، في هذه السّنة، مرّ عامان على وفاته. لم أكن أعرف شيئًا عن هذا الكتاب. من أين حصلت عليه؟».

وبينما شرَع غريغوريوس في الحديث، كانت هي تُلامس الغلاف الرّماديّ برفق. ذكّرته حركتها بالطالبة التي لمحها في المكتبة الإسبانية ببيرن. وعندما بدا لهُ أنّها لم تعد تستمع إليه توقّف عن الكلام.

«أدريانا، إذن، أدريانا. ولا مجال للشكّ. إنّه لها». في البداية لم تكن في حديثها إلاّ نبرة اندهاش مشوب بالمرارة، أمّا في تلك اللّحظة، فلم يعد الاسم المنغّم لائقًا بها. كانت تنظر إلى البعيد، فيما وراء القصر، متجاوزةً كآبة البايكسا، باتّجاه منطقة البايرو آلتو، وكأنّها ترغب، عبر نظرتها الطافحة بالغضب، في الوصول إلى شقيقتها في المنزل الأزرق.

كانا يقفان وجهًا لوجه صامتين. وكان غريغوريوس يشعر بأنّه شخص دخيلٌ ومتطفِّل.

«تعال، سنشرب قهوة». قالت ذلك وكأنّها تجاوزت حقدها بسرعة. «أريد أن أرى الكتاب. بانْ، أنت غير محظوظ». وعلى إثر هذه الكلمات أدخلت الكلب إلى المنزل وهي تسحبه بذراعيها القويّتين.

كان منزلًا مُفعمًا بالحياة. تتناثر فيه اللُّعب على درج السلّم. وتفوح منه رائحة القهوة والسجائر والعطر. جرائد برتغاليّة ومجلاّت فرنسيّة مبعثرة على الطاولة، علب إسطوانات مفتوحة وقِطٌّ يلحس الزبدة فوق مائدة فطور الصّباح. انحسر الدّم الذي صعد إلى وجهها منذ قليل، وظلّت بضع بقع حمراء فقط شاهدةً على انفعالها. تناولت نظّارتها من على الجريدة وشرعت في قراءة ما خَطَّه شقيقها، بضع جمل هنا وأخرى هناك. وبين الحين والحين كانت تعضُّ على شفتيها. وفي لحظة مّا، ودون أن ترفع عينيها عن الكتاب، تحسّسَتْ سيجارةً التقطتها من العلبة. وصارت تتنفّس بصعوبة.

«مؤكّد أنّ حكاية ماريا يوحنّا والانتقال إلى مدرسة أخرى، حدثت قبل ولادتي. فقد كان يكبرني بستّ عشرة سنة. ولكن أبي.. إنّه كما وصفه تمامًا، هكذا تمامًا. كان عمرُه ستًّا وأربعين سنة عندما وُلدت. كنتُ غلطةً. أنجبتني أمّي سهوًا على ضفاف الأمازون، خلال إحدى الرحلات النادرة التي أقنعت بها والدي. لا أستطيع إطلاقًا أن أتخيّل أبي على ضفاف الأمازون. عندما بلغتُ الرّابعة عشرة من عمري كنّا وقتها نحتفل بعيد ميلاده الستّين. أشعر أنّني لم أعرفه إلاّ رجلًا عجوزًا، محدودبَ الظهر وحادّ الطبع».

سكتت ميلودي، أشعلت سيجارة أخرى وحدَّقت أمامها. تمنّى غريغوريوس أن تتحدّث عن وفاة القاضي. لكنّ وجهها أشرق فجأةً واتّخذت أفكارُها منحًى آخر.

«ماريا يوحنّا. لقد عرفها منذ كانت طفلة. ولم أكن على علم بهذا الأمر. من الواضح أنّه كان مغرمًا بها في ذلك الوقت ولم يكفَّ مُطلقًا عن حبّها. إنّها حبّ حياته العذريّ. ولن أندهش من كونه لم يقَبِّلها قطّ. لا أحد كان يضاهيها ولا أيّ امرأة. تزوّجت وأنجبت طفلين. لكن لم يكن لهذا أيّ تأثير. فقد ظلّ يزورها عندما تُغرقه هموم حقيقيّة. بمعنى آخر، وحدَها كانت تعرف من يكون حقًّا. وكان يعرف كيف تُخلَق الأشياء الحميمة بتبادل الأسرار. إنّه أستاذٌ في هذا الفنّ. فنّانٌ مبدع. كلّنا يعرف ذلك: وإذا كان هناك أحد مطّلع على كلّ هذه الأسرار فهي ماريا يوحنّا. كان ذلك يؤلم فطيما، وكانت أدريانا تكرهها.

- أما تزال على قيد الحياة؟ سألها غريغوريوس.

- كانت مؤخّرًا تسكن في كامبو دي أوريك، بالقرب من المقبرة».
قالت ميلودي.

«هي، ابنة فلاحين، لذلك ظلّت ملتزمةً بإبقاء مسافة بينها وبيننا، نحن النبلاء، ورغم أن أماديو فرد منّا، فقد كانت تتصرّف كما لو أنّها تجهل الأمر تمامًا. أو كما لو أنّه تفصيلٌ طارئٌ، خارجيّ، لم يكن ليؤثّر فيه».

- ماذا كان اسم عائلتها؟ لكن ميلودي لم تكن تعرفه.

- «بالنّسبة إلينا كانت ببساطة: ماريا يوحنّا».

غادرا غرفة القلعة وانتقلا إلى الجزء السّفلي من المنزل حيث يوجد منسج.

«لقد صنعتُ آلاف الأشياء -قالت ضاحكة عندما شاهدت نظرة غريغوريوس الفضوليّة- لقد كنتُ دومًا الفتاة المتقلّبة، ذات التصرّفات الغريبة، وكان والدي يائسًا منّي أيضًا».

فجأةً، تحوَّلت نبرة صوتها الصّافية إلى الحزن، مثلما تمرّ سحابة عابرة أمام الشمس، ولكن هذا لم يدم طويلًا، وأشارت إلى الصّور المعلَّقة على الحائط حيث تظهر في وضعيّات مختلفة تمامًا.

«نادلة في خمَّارة، هُنا أنا بصدد الفرار من المدرسة، عاملة ضخّ في محطّة بنزين، وهنا، يجب أن ترى هذه: إنّها فرقتي الموسيقيّة.

كانت فرقة موسيقيّة تجوب الشوارع برفقة ثماني فتيات يعزفن كلهنّ على الكمان ويلبسن قبّعات الفرسان مائلة على رؤوسهنّ.

«هل تعرَّفت إليّ؟ أنا التي تميلُ قبّعتي إلى اليسار، الأخريات كنّ

يميّلنها إلى اليمين وهذا يعني أنّني القائدة». كنّا نحصد المال، نحصد أموالًا حقيقيّة وكثيرة. ونعزف في الأعراس والحفلات.

التفتت فجأةً، ثمّ سارت باتّجاه النافذة ونظرت إلى الخارج. لم يكن أبي يحبّ فوضاي. قبل وفاته، عندما كنت في جولة مع البنات صاحبات القبّعات، *وفتيات البالونات* كما كانوا يسمّوننا وقتها، لمحتُ فجأةً، على حافّة الرّصيف السيّارة الإداريّة التابعة لوالدي، يقودها السّائق الذي كان يأتي كلّ صباح عند السّادسة إلاّ عشر دقائق لإيصاله إلى المحكمة. وكان دومًا أوّل من يصل إلى هناك. كان أبي كعادته يجلس في الخلف، وينظر نحونا في تلك اللّحظة فاغرورقت عيناي بالدموع، وأنا أعزف، وارتكبت خطأً تلو آخر. فُتح باب السيارة ونزل والدي بصعوبةٍ مقطَّب الوجه من الألم. كان يوقف السّيارات بعكازه -كانت سلطته كقاض لاتزال قائمة حتّى ذلك الحين- وسار نحونا، توقّف للحظة خلف المتفرِّجين، ثمّ شقَّ طريقًا باتّجاه علبة الكمان المفتوحة من أجل جمع النقود، ودون أن ينظر إليّ، قام برمي حفنة من النقود. كانت الدموع تسيل على خدّي وكان لا بدّ للفتيات أن يكملن ما تبقّى من المعزوفة من دوني. وفي الجانب الآخر، غادرت السيّارة بينما أشار إليّ أبي بأصابعه المحدّبة بفعل النقرس، فبادلته الإشارة ذاتها. وجلست على درجات مدخل إحدى البنايات وبكيت حتّى ذابت عيناي. لا أدري ما إذا كان ذلك بسبب الفرح لأنّه أتى أخيرًا أم بسبب الحزن لأنّه تأخّر في المجيء».

جال غريغوريوس بنظره على الصّور. لقد كانت فتاة صغيرة ومرحة، تجلس في حضن الجميع، وعندما تبكي يمرّ ذلك بسرعةٍ مثل زخّة مطر في يوم مُشمس. كانت تهرب من المدرسة ولكنّها تنجح في

النهاية لأنّها كانت تسحر الأساتذة بوقاحتها المثيرة. وبالاندفاع نفسِه، أخبرَتْهُ بعد ذلك أنّها تعلَّمت اللّغة الفرنسيّة بين عشيّة وضحاها إذا جاز التعبير. وأطلقت على نفسها اسم ممثلة فرنسيّة تدعى «إيلودي»، ومنه اشتق الآخرون اسم «ميلودي». اسمٌ اشتُقَّ عمدًا ليناسبها، لأنّ حضورها كاللّحن، جميلٌ وعابر. كان الجميع مغرمًا بها دون أن يستطيع أحدٌ امتلاكها.

«كنتُ أحبّ أماديو، أو بالأحرى لِنقلْ: كنتُ أرغب في حُبّه عن طيب خاطر. لأنّ ذلك كان صعبًا. كيف باستطاعتنا أن نحبّ صرحًا؟ وقد كان هو صرحًا بالفعل مذ كنت صغيرة. حاز احترام الجميع، حتّى والدي، وخاصّة أدريانا التي خطفته منّي بسبب غيرتها عليه. لقد كان لطيفًا معي، كما هو الحال دومًا مع الأخت الصغرى. ولكنّني أحببتُ أن يعاملني بجديّة أكثر. كان عليّ انتظار أن أبلغ الخامسة والعشرين وأن أكون على أعتاب حفل زفافي، لأتلقّى منه هذه الرسالة من أنجلترا».

فتحَتْ درج المكتب وتناوَلت منه ظرفًا مُترَعًا بالرسائل. كانت أوراق الرسائل المصفرّة مغطاّةً إلى الحافّة بأحرف مخطوطة بحبر أسود داكن. قرأتها ميلودي للحظة في صمت ثمّ شرعت في ترجمة ما كتبه لها أماديو من أكسفورد، بعد بضعة أشهر من وفاة زوجته.

«عزيزتي ميلودي، لم يكن هذا السفر سوى خطأ. ظننتُه سيساعدني على استرجاع الأشياء التي سبق لي أن رأيتها رفقة فطيما. لكنّني لم أجْنِ من كلّ هذا سوى الألم والعودة المبكّرة عكسَ ما هو متوقّع. لقد اشتقت إليك، ولهذا أرسل إليكِ ما كتبته اللّيلة الماضية. وأرجو

أن أكون بذلك قد اقتربت منكِ أكثرَ عبر أفكاري.

أكسفورد: مجرّد حديث.

لماذا يبدو لي هذا الصمتُ اللّيليُّ المخيِّم على الأبنية الرهبانية، كئيبًا باهتًا ومُقفرًا، منزوع الرّوح بالكامل وفاقدًا للجمال؟ أيّ فرق بين هذا المكان وبين شارع أوغوستا الذي يظلّ يضجّ بالحياة إلى حدود الثالثة أو الرابعة فجرًا، في حين تقفر الشوارع في الخارج تمامًا؟ كيف يمكن لهذا أن يحدث في هذا المكان، حيث تُطوِّق الحجارة النقيّة بإشعاعها السّماوي، المبانيَ ذات الأسماء المقدّسة والخلايا العلميّة ومكتبات النخبة والقاعات المردومة بغبارٍ مخمليّ وهي تغرقُ في الصّمت، القاعات التي كانت تقال داخلها جملٌ متقنة الصّياغة، والّتي كانت منبرًا للنقاشات الثريّة والأفكار المتعارضة؟ كيف يمكن لكلّ هذا أن يحصل؟

«هيّا بنا» ! قال لي الإيرلندي ذو الشعر الأحمر عندما توقّفتُ أمام مُلْصَقٍ يعلن عن مؤتمر بعنوان: الكذب على الكاذبين. «دَعْنَا نستمع إلى هذا: فقد يكون مسلّيا». كنت أفكّر في الأب بارتولومو الذي سبق أن دافع عن أوغسطين: «أن تقابل الكذبة بالكذبة هو تمامًا كأن تقابل السّرقة بالسرقة وانتهاك الحرمات بتدنيس أخرى والخيانة بالخيانة». كان يقول هذا، في مواجهة كلّ ما كان يحصل في إسبانيا وألمانيا ! لقد تجادلنا، أكثر من مرّة، دون أن يفقد طيبته. لم يفقد هذه الطيبة مُطلقًا، ولا مرّة واحدة. وعندما جلستُ في قاعة المؤتمرات إلى جانب الإيرلندي، غمرني فجأةً شوقٌ إليه وشعرت بالحنين إلى الوطن.

لقد كان ذلك مدهشًا. عرضت المُحَاضِرَة، وهي عانسٌ ذات أنفٍ

حادّ، بصوتٍ ناعق، ثيولوجيا الكذب، الثيولوجيا التي لا يمكن أن تكون أكثر إرباكًا ولا بُعدًا عن الواقع. امرأة مُلزمةٌ بالعيش في شبكة من أكاذيب ديكتاتورية، حيث يمكن للكذب، أن يكون مسألة حياة أو موت. هل باستطاعة الرّب أن يخلق صخرةً ويكون عاجزًا عن رفعها؟ إذا كانت الإجابة لا ، فهو إذن غير قدير. وإذا كانت الإجابة نعم فهو غير قدير أيضًا، لأنّ تلك الصخرة التي عجز عن رفعها ما تزال موجودة هنا. كان هذا هو المنهج المدرسيّ الذي تقَيَّأتْهُ هذه المرأة في القاعة، امرأة من رَقّ[1]، بشعرها الشبيه بعشّ أنيق لعصافير رماديَّة.

ولكن في الواقع لم يكن هذا ما أثار دهشتنا. فما كان يصعب تصديقه حقًّا، هو المحادثة، كما درجنا على تسميتها. فقد كان الناس ضائعين ومسجونين في الإطار الرّصاصيّ الرّماديّ لعبارات التهذيب البريطانية الجاهزة، يتكلّمون ببراعة دون أن يتَّفقوا. كانوا يقولون باستمرار إنّهم على اتّفاق وإنّهم منفتحون على الآخر. ولكن الأمر لم يكن كذلك. لم يكن أحد من المتدخّلين يُظهر أيّ دليل على أنّهم غيّروا أفكارهم أمام الحجج المقدّمة. وفجأةً، أدركتُ، والخوف يكاد يأسرني ويغمر كلّ كياني، أنّ الأمور كانت تسير دومًا على هذا النحو: عندما نقول شيئًا مّا لأحدهم: كيف يمكن أن ننتظر أن يُحدث كلامنا أيّ تأثير؟ إنّ سيل الأفكار والصّور والأحاسيس الذي يجري داخلنا في كلّ لحظة، يملك قوّةً خاصّةً، وسيكون من غرائب الدنيا ألاّ يحمل هذا السيل الجارف ما يقوله لنا الآخر، من

(1) الجلد القديم الّذي يُستعمل للكتابة.

غرائب الدنيا ألاّ نُودِعَه النسيان إلاّ إذا توافق مع ما نقوله نحن، ويكون ذلك عن طريق الصّدفة وحدها، الصدفة المحض. هل يختلف الأمر معي؟ قلت في نفسي. هل سبق وأنصتُّ إلى شخصٍ آخر؟ وهل تركته يَسكنني بكلماَته وأفكاره إلى درجةٍ تجعله قادرًا على تغييري؟

«كيف وجدت المحاضرة؟» سألني الإيرلندي بينما كنّا نتمشّى في البروود ستريت. لم أخبره بكلّ شيء. قلت له إنّني وجدت الأسلوب الذي اتّبعه كلّ شخص في الحديث إلى نفسه فحسب أسلوبًا مُخيفًا.. «حسنًا حسنًا». وبعد وقت قصير أضاف: «إنّه مجرّد حديث، أنت تعلم، إنّه مجرّد حديث. الناس يعشقون الحديث بالأساس. هذا كلّ شيء. الحديث». ماذا؟ سألته. صاح وغرق في ضحك خانق تحوّل إلى خوار. «ماذا!». ومن ثمّ ضرب كرة القدم التي لم تفارقه للحظة على الإسفلت. لكَمْ كنتُ أرغب في أن أكون أنا الإيرلندي بعينه، إيرلنديًّا يجرؤ على على حضور مؤتمر ليليّ في جامعة *All Souls* حاملًا معه كرةً حمراء قانية. سأبذل أيّ شيء في سبيل أن أكون أنا هُوَ!

أعتقد أنّني أعرف الآن لماذا كان الصّمت اللّيلي في هذا المكان الشهير صمتًا قبيحًا. انطفأت الأحاديثُ المنذورة سلفًا للنسيان، وهذا لا يعني شيئًا بعد، فهي تنطفئ في البايكسا أيضًا، ولكن لا أحد هناك يرغب في أن يكون الأمر أكثر من مجَرَّد حديث. النّاس يتكلّمون ويستمتعون بأحاديثهم تمامًا مثلما يعشقون لحس المثلّجات حتّى يستريح اللّسان من عبء الكلام. في حين ما انفكّوا يتصرّفون هنا كما لو أنّ الأمر له منحى آخر. كما لو أنّ ما كانوا يقولونه مهمّ

إلى حدّ لا يصدَّق. ومع ذلك، فهم أيضًا في حاجة إلى النّوم مكتفين بعظمتهم، ولا يبقى غير الصّمت المتعفّن لأنّ جُثَث مُغالاتهم تنتشر في كلّ مكان، وتفوح منها رائحة نتنة دون أن يتفوّهوا بكلمة واحدة».

«كان يمقت أولئك المتكبّرين، المتعجرفين، *والمتنفخين* كما كان يسمّيهم». قالت ميلودي وهي تعيد الرّسالة داخل الظرف. «كان يكرههم أينما وجدوا: في السّياسة، بين الأطبّاء، بين الصّحفيين. وكان قاسيًا في أحكامه. أحببتُ مواقفه لأنّه كان نزيهًا. دون أيّ اعتبار لذاته أيضًا. لكنّني لم أكن أحبّه عندما يتحوَّل إلى منفِّذ عمليّات كبيرة، إلى مخرِّب. عندها كنتُ أتجنّبه، كنتُ أتجنّب شقيقي الجبّار».

قريبًا من رأس ميلودي، عُلِّقت على الجدار صورة لهما وهما يرقصان معًا، هي وأماديو. كانت حركاته رشيقة نوعًا مّا، قال غريغوريوس في نفسه، ومع ذلك بإمكاننا أن نلاحظ أنّه كان يبدو غريبًا عنها. وبالتفكير في الأمر لاحقًا، وجَد غريغوريوس أنّ الكلمة المناسبة لتوصيف كلّ ذلك هي أنّ الرقص لم يكن *يناسب* أماديو.

«آه الإيرلنديّ صاحب الكرة الحمراء في الجامعة المقدّسة!» قالت ميلودي لتكسر الصّمت الذي ساد فجأةً. «لقد أثَّر فيّ كثيرًا هذا المقطع من الرّسالة في ذلك الوقت. لقد كان يبدو لي أنّه يعبِّر عن حنين لم يكن أماديو ليتحدّث عنه أبدًا: أن يكون لمرّة واحدة فتًى قادرًا على اللّعب بالكُرة.. كان يعرف القراءة في سنّ الرابعة، ومنذ ذلك الحين قرأ كلّ شيء وفي كلّ المجالات، كان يشعر في المدرسة الابتدائيّة الأساسيّة بملل قاتل، وفي المعهد تجاوز صفَّين. وفي العشرين من عمره عرف كلّ شيء،

وكان يتساءل أحيانًا ما الذي يجب أن يعرفه أيضًا: ومع كلّ ذلك، نسي أن يلهو بالكرة».

نبح الكلب، فدخل الأطفال إلى المنزل راكضين. يبدو أنّهم أحفاد ميلودي. مدّت يدها إلى غريغوريوس مصافحةً إيّاه وهي تعلم أنّه يودّ أن يعرف المزيد عن *أشجار الأرز الحمراء* وعن موت القاضي. كانت نظرته تشي بذلك، ولكنّها لم تكن على استعداد لقول المزيد في هذا الموضوع حتّى ولو ظلّ الأطفال في الخارج.

جلَس غريغوريوس على مقعدٍ بالقرب من القلعة، وظلّ يفكّر في الرّسالة التي أرسلها أماديو من أكسفورد إلى شقيقته الصغرى. ثمّ قرّر البحث عن الأب بارتولومو، الأستاذ الطيّب.

كان برادو سريع التأثّر بالأنماط المختلفة للصّمت. وتلك حساسيّة يستأثر بها الّذين يعانون من الأرق. وقد وصف ملابس محاضِرة تلك اللّيلة بأنّها من رَقٍّ. عندها فحسب تفطّن غريغوريوس إلى هذه الملاحظة، وانتفض، وقد شعر في داخله، وللمرّة الأولى، بأنّه ابتعد عن الكاهن بلا ربّ، القادر على إطلاق الأحكام وكأنّه ينفّذ عمليّات كبيرة: *موندوس، البردَّية، الرَّق والبردَّية!*

نزل غريغوريوس الهضبة باتّجاه الفندق. اشترى من إحدى المغازات لعبة شطرنج وظلّ خلال ما تبقّى من النهار وحتّى وقت متأخّر من اللّيل يحاول أن يهزم أليخين دون أن يلجأ، على عكس بوغولجيبوف، إلى التّضحية بجولتين. انتابه في الأثناء الشوق إلى دوكسيادس فوضَع نظّاراته القديمة.

(17)

هذه ليست أقوالًا مبتكرةً يا غريغوريوس. ما يقوله النّاس ليس أقوالًا مبتكرة. إنّهم يتكلّمون ويتكلّمون لا غير. كلمات دوكسيادس هذه كانت على قدر من الأهميّة. فما يقوله النّاس هو في الغالب مفكّكٌ ومتناقضٌ إلى حدٍّ بعيد. وهم ينسون بسرعةٍ كبيرة ما قالوه آنفًا، هكذا فكّر غريغوريوس متذمّرًا. كان الإغريقيّ يجد هذا مؤثّرًا. ولو أنّنا جرَّبنا مثله العمل كسائق سيارة أجرة في اليونان، وخاصّة في سالونيك لعرَفنا، -ونادرًا ما ننتبه إلى مثل هذه الأشياء- أنّنا عاجزون عن تحديد طباع النّاس من خلال ما يقولونه. ففي الغالب هم يتحدّثون لغاية الحديث، وليس فقط داخل سيّارة أجرة. والرغبة في تصديق ادّعاءاتهم لا يمكن أن تصدر إلاّ عن ذهنِ عالمِ لُغة، أي عن متخصّصٍ في اللّغات القديمة، تواجهه كامل اليوم كلمات ثابتة، ونصوص بعينها، وُجدت من أجلها آلاف الشُّروحات.

تساءل غريغوريوس: «إذا كنّا لا نستطيع أن نأخذ النّاس على محمل الجدّ فما الذي يجب أن نفعله بأحاديثهم؟». عندها انفجر الإغريقيّ ضاحكًا: «أن نتّخذهم حُجَّةً من أجل أن نتحدّث بأنفسنا! وهكذا نواصل الحديث إلى ما لا نهاية له...» وذلك تقريبًا ما قاله الإيرلنديّ الذي تحدّث عنه دي برادو في رسالته إلى شقيقته الصغرى. لم يقله بخصوص حرفاء في سيّارة أجرة إغريقيّة، بل كان يقصد أساتذة جامعة

All Souls في أكسفورد. قال ذلك لرجل، كانت الكلمات المستهلَكة تثير اشمئزازه إلى درجةٍ جعلته يتمنّى تشكيل اللّغة البرتغاليّة من جديد.

في الخارج، لم يكفَّ المطر عن الهطول منذ يومين. كان مطرًا أشبه بستارة سحريَّة تحمي غريغوريوس من العالم الخارجي. وكان غريغوريوس في الوقت نفسه غائبًا عن بيرن وحاضرًا فيها، مُقيمًا في لشبونة وغيرَ مقيم. ظلّ يلعب الشطرنج طوال اليوم ناسيًا مواقع الأحجار وكيفيّة الهجوم، وهو ما لم يحدث معه من قبل. أحيانًا، كان يتفاجأ بحجر في يده، لا يعرف من أين أتاه. وكان على النادل في البهو، أن يسأله باستمرار خلال الغداء عن الأصناف التي يشتهيها. وفي إحدى المرّات طلب التَّحلية قبل الحساء.

في اليوم الموالي اتَّصل هاتفيًّا بجارته في بيرن ورجاها أن تُفرغ صندوق الرسائل، ثمّ أرشدها إلى مكان المفتاح، تحت الحصير. هل كان عليها أن تتعهّد بريده؟ أجل، قال غريغوريوس، لكنّه ما لبث أن عاود الاتّصال بها وطلَب منها صرف النظر عن الأمر. وحين كان يتصفّح دفتره، وقع نظره على رقم الهاتف الذي كتبته المرأة البرتغاليّة على جبينه. *البرتغاليّة*. رفع سمّاعة الهاتف واتّصل بالرقم وعندما سمع الرنين أغلق الخطّ.

كانت الكُوينة الإغريقيّة، اللّغة التي كُتب بها «العهد الجديد» تُشعره بالملل لبساطتها. وحدها الصفحة البرتغاليّة في نسخة كونتينهو كان لها سحر خاصّ. اتّصل بعدد من المكتبات واستفسر عن مؤلّفات أسخيليوس وهوراس، وأيضًا عن إمكانية وجود هيرودكس وتاسيتس. لقد كان من الصّعب فهمه، وعندما وجد أخيرًا ضالّته لم يذهب لاقتناء الكتب لأنّ الجوّ كان ماطرًا.

بحث في دليل الوظائف عن دورات في اللّغة تساعده على تعلّم البرتغاليّة. اتّصل بماريانا إيسا لكي يحدِّثها عن زيارته ليوحنّا، لكنّها كانت مشغولة وشاردة الذهن. سيلفيرا في بياريتز، والزّمن متوقّف والعالم أيضًا، هكذا كان الحال لأنّ إرادته توقّفت بدورها، وذلك ما لم يحدث معه من قبل.

أحيانًا، كان يبقى قرب النافذة، تائهَ النظرات، مستعرضًا في ذهنه ما قاله كلٌّ من كونتينهو وأدريانا ويوحنّا إيسا وميلودي عن برادو. لكأنَّ الأمر كان شبيهًا بحوافِّ مشهدٍ طبيعيّ تبرز من وراء الضّباب الذي يلفُّها، ولكنّها مع ذلك تبقى واضحةً كرسم مائيّ. تصفَّح كتاب دي برادو مرّةً واحدة خلال هذه الأيّام وتوقّف عند هذا المقطع:

ظلال الروح:

بين ما يقوله الآخرون عنّا وما نقوله نحن عن أنفسنا، أيّهما أقرب إلى الحقيقة؟ هل من البديهيّ أن تكون حكاياتنا هي الأقرب؟ هل نحن في حدّ ذاتنا سلطة؟ لا، لا، ليس هذا ما يشغلني حقًّا. السّؤال الحقيقيّ هو: هل يوجد في حكايات كهذه - حكايات تتعلّق بكلّ ما هو ظاهر- فرقٌ بين الصحيح والخطأ؟ ولكن متى نذهب في رحلة لفهم دواخل الآخر؟ وهل هذه الرحلة مؤقّتة؟ هل الرّوح وعاء للأحداث الحقيقيّة؟ أم أنّ ما نتصوّره أحداثًا حقيقيّة ليست إلاّ الضلال الوهميَّة لحكاياتنا؟».

في صباح يوم الخميس، وتحت سماء صافية زرقاء، قام غريغوريوس بزيارةٍ إلى مقرّ الصحيفة ورجا أوغستينا، الصّحفيّة المتربِّصة، أن تزوّده بمعلومات عن وجود معهد مختصّ في تدريس اللّغات القديمة، كان

يدرّس به آباء الكنيسة في بداية الثلاثينيّات. أخذت أوغستينا تبحث بحماس متّقد، وعندما عثرت على ضالّته، حدّدت له المكان على خارطة المدينة. عثرت أيضًا على أمانة الكنيسة فاتّصلت بها وسألت من أجل غريغوريوس، عن شخص يحمل اسم الأب بارتولومو، لا شكّ أنّه درّس في المعهد في حدود سنة 1935، وهذا الشخص لا يمكن أن يكون إلاّ الأب بارتولومو لورانسو دي غيساو، فاق التّسعين من العمر ولم يعد يستقبل أحدًا إلاّ نادرًا. ما سبب هذه الزيارة؟ هل هو أماديو إيناسيو دي ألمايدا برادو؟ ظلاّ يحاولان الاتّصال بالأب بارتولومو حتّى رنَّ الهاتف بعد بضع دقائق: الأب جاهز للحديث مع هذا الشخص المهتمّ بأمر دي برادو بعد كلّ هذا الوقت وسيستقبله في نهاية الظهيرة.

ذهب غريغوريوس إلى المعهد القديم حيث سبق لِدِي برادو وأن تجادل وهو تلميذ مع الأب بارتولومو حول تحريم أوغسطين المتعنّت للكذب دون أن يفقد الأب شيئًا من طيبته. يقع المعهد شرقًا، خارج المدينة تقريبًا، تحيطه أشجار قديمة وسامقة. يوحي بجدرانه الصّفراء الباهتة، بأنّه فندق كبير وعريق من القرن التّاسع عشر. لا شيء ينقصه غير الشرفات، ولم يكن البرجُ الصّغير الذي أُضيف إليه ليحوي الجرس يتلاءم مع كامل المبنى. كان المعهد متداعيًا كليًّا ودهان الجدران مقشّر والنوافذ إمّا سوداء معميّة أو مهشّمة. سقط بعض القرميد الّذي يغلّف السقف، وعلا الصدأ المزراب وكُسرت إحدى زواياه.

جلَس غريغوريوس على درجات المدخل التي كانت تغطّيها الطحالب فيما مضى، حين كان برادو يزور المكان في نوبات حنينه. حدَث ذلك على الأرجح في نهاية الستّينيّات. لقد جلس برادو هنا في

ذلك الوقت وتساءل عمّا كان سيحدث لو أنّه، قبل ثلاثين سنة من الآن، في مفترق الطرق هذا، اتّخذ وجهةً أخرى مختلفة تمامًا. لو أنّه قاوم رغبة والده المثيرة والملحَّة في نفس الوقت ولم يدخل مدرج كليّة الطب.

أخرج غريغوريوس الكتاب وتصفَّحه:

«...تلك الأمنية الشبيهة بحلم مؤثّر -أن أظلّ في هذه النقطة من حياتي وأن تكون لي القدرة على اتّخاذ وجهة مختلفة تمامًا عن تلك التي جعلت منّي ما أنا عليه اليوم... أن أجلس مرّةً أخرى على الطحلب الساخن، ممسكًا بالطاقية بين يدي- إنّها الأمنية الحمقاء في القيام برحلة عودة إلى الزمن الماضي ولا أصطحب غير نفسي في هذه الرحلة، أنا الرّجل الذي رسمته الأحداث الماضية».

هناك، في الجهة الأخرى، يوجد السّور المحيط بالمدرسة وقد أصبح اليوم متّسخًا، السّور ذاته الذي سبق لآخر تلميذ في الصفّ أن ألقى تحته طاقيته في بركة النيلوفر بعد نهاية امتحان ختم الدروس، وكان هذا يعود إلى سبع وستين سنةً خَلَتْ. البحيرة جفَّت منذ زمن طويل ولم يبق منها إلاّ منخفض مغطًّى ببِساطٍ من اللّبلاب.

المبنى الموجود خلف الأشجار هو على الأرجح مدرسة البنات التي كانت تأتي منها ماريا يوحنّا صاحبة الساقين السمراوين والفستان الفاتح والمعطّر برائحة الصّابون، ماريا الحبّ العذري الأكبر في حياة أماديو، والمرأة الوحيدة التي كانت حسب ميلودي، تعرف من كان أماديو حقًّا. امرأة على قدر لا نظير له من الأهميّة عنده حتّى وإن لم يُقبِّلْها قطّ، وهي المرأة التي كانت تكرهها أدريانا.

أغمض غريغوريوس عينيه ورحل بذاكرته إلى كرشنفلد، إلى آخر

الزّقاق الذي توقّف عنده فيما مضى ليلقي نظرةً أخيرة على معهده دون أن يراه أحد، بعد أن غادره في وسط الدرس. ومن جديد، ها هو الشعور نفسُه الذي اجتاحه قبل عشرة أيّام بقوّة غير منتظرة يعاودهُ ويجعله يدرك مدى حبّه لهذا المبنى، وسرّ وجوده هنا تحديدًا، ومقدار الشوق الذي سينتابه إلى هذا المكان. كان شعورًا مشابهًا للقديم ومختلفًا عنه في آن واحد. لأنّ الوضع في حدّ ذاته تغيّر الآن. وكان يؤلمه الإحساس بأنّ الوضع لم يعد كما كان في السّابق، ولا الشعور في حدّ ذاته ظلّ كما كان. وقف وجال بنظره على الواجهة المتقشّرة التي اصفرَّ لونها، فترك الألم فجأةً مكانه لشعور غامِضٍ بالفضول. دفع الباب الموارب، فأحدثت مُفَصَّلاتُه الصدئة صريرًا كما يحدث في فيلم رعب.

غمرته رائحة شيء متعفِّن. وبعد بضع خطوات، كاد ينزلق لأنّ الأرضيّة ذات الأحجار المتفاوتة والعتيقة، مغطّاة بطبقة من الغبار الرطب والطُّحلب المتعفِّن. صعد الدرجات العريضة ببطء ويده على الدرابزين. كان مِصراعا الباب المفضي إلى الطابق الأرضي، ملتصقين بخيوط العنكبوت إلى درجة جعلتهما يُحدثان صوت تمزُّقٍ خفيٍّ عندما دفعهما. وفي الرِّواق جعله سرب خفاشيش مذعورة ينتفض، ثمّ ساد المكانَ صمتٌ تعوّدت عليه الجدران منذ سنواتٍ طويلة.

من السّهل التعرُّف إلى باب الإدارة فقد كانت تزيِّنه منحوتات دقيقة. وكان هذا الباب متصلّبًا هو الآخر، ولم يُفتح إلاّ بعد دفعه عدّة مرّات. دخل إحدى الغرف، فلم يثر انتباهه للوهلة الأولى إلاّ شيء واحد فقط: مكتب ضخم بأرجل مخروطيّة الشكل. وما تبقّى في الغرفة رفوف فارغة ومغبَّرة، طاولة شاي بسيطة موضوعة على حجر الأرضية

العالي الذي بدأ يُصيبه التَّلف، وأرائك إسبارطيَّة تبدو غير حقيقيّة مقارنة بهذه القطعة من الأثاث. مسح غريغوريوس الكرسيّ وجلس إلى المكتب، مكتب المدير السّابق، السيّد كورتس، صاحب الخطوة المتَّزنة والمزاج السيّئ.

أزاح غريغوريوس دوَّامةً من الغبار أخذت جُزَيْئات صغيرة منه تتراقص في المخروط الضوئي. وكان الزمن الصّامت يُشعره بأنّه دخيل، فنسي أن يتنفّس لوقتٍ طويل. ثمّ دفعه الفضول لفتح الأدراج الواحد تلو الآخر: قطعة من خيط، نجارة خشب، بقايا قلم رصاص حادّ متعفِّنة، طابع بريد مشوَّه تمامًا يعود إلى سنة 1969، ورائحة كريهة منبعثة من الدرج. بعد ذلك، وجد في الدرج الأسفل نُسخةً سميكةً وثقيلة من العهد القديم، مغلَّفة بقماش رماديّ بالٍ قديم، ومنتفخة بفعل الرّطوبة، كُتب على الغلاف عبارة *«العهد القديم»* بحروفٍ من ذهب اتّخذت ظلالًا سوداء.

أصيب غريغوريوس بالذهول. فمن خلال المعلومات التي عثرت عليها أوغستينا لم يكن هذا المعهد مدرسة دينيّة. كان الماركيز دي بومبال قد طرد اليسوعيين من البرتغال في منتصف القرن الثامن عشر. وقد حدث نفيٌ مماثل لهذا أيضًا في بداية القرن العشرين، وفي نهاية الأربعينيات تقريبًا. أسّست تنظيمات مثل المرْيَميين الكليّة الخاصّة بهم، ولكنّ ذلك حدث بعد الفترة التي تردّد فيها أماديو دي برادو على مدرسته. أمّا في ذلك الوقت فلم تكن توجد إلاّ معاهد عموميّة توظّف أحيانًا بعض الأساتذة من آباء الكنيسة. إذن ما سبب وجود هذا الكتاب المقدَّس هنا؟ وفي مكتب المدير تحديدًا؟ هل كان خطأً بسيطًا أم مجرَّد صدفة؟ هل هو

رفضٌ غيرمرئيّ ومكتوم ضدّ هؤلاء الذين أغلقوا المدرسة في السّابق؟ أم أنّه نسيان مدمِّر موجَّه ضدّ الدكتاتورية وظلَّ مجهولًا من قِبَلِ أزلامها؟

شرع غريغوريوس في القراءة مقلِّبًا الصفحات في حذر. كان الورق السَّميك والمشوَّه بفعل الرطوبة هشًّا بين أصابعه، وشعاع الشمس يتراقص. أقفل أزرار معطفه ورفع ياقته وأدخل يديه في أكمامه. وبعد مرورِ وقتٍ قصير، سحب سيجارة من العلبة التي اشتراها يوم الاثنين، ووضعها بين شفتيه دون أن يتمكّن من منع نفسه من السّعال بين الفينة والأخرى. في الخارج، أمام الباب الموارب، ركض شيء مّا خلسةً. مرجّحٌ أن يكون فأرًا.

قرأ سِفر أيّوب، وقرأ بقلب خافق، أليفاز التيماني، بلداد الشوحي وصوفر النعماني. *أصفهان!* ما اسم العائلة التي كان سيعمل عندها مُدرّسًا؟ عثر في تلك الأيّام على كتاب صور حول أصفهان في مكتبة فرانك: مساجدها، ساحاتها، جبالها المغطّاة بفعل العواصف الرّمليّة. لم يكن يستطيع اقتناءه ولذلك ظلّ يتردَّد كلّ يوم على فرانك، فقط ليتأمَّل الكتاب. بعد أن أرغمه حلم الرّمال الحارقة التي كانت تعميه على سحب ترشُّحه، بقي شهورًا لا يزور فيها فرانك وعندما عاد إليه أخيرًا كان كتاب الصور قد اختفى.

تداخلت الحروف العبريَّة أمام عيني غريغوريوس، فمرَّر يده على وجهه المبلَّل، مسحَ نظّارته وواصل القراءة. شيء مّا من أصفهان، مدينة العمى، لم يفارقه طيلة حياته: لقد سبق أن قرأ الكتاب المقدّس منذ البداية مثلما يقرأ كتابَ شعرٍ أو روايةً أو يصغي إلى إيقاع الكلمات تحيط بها هالة من اللاّزورد وذَهَبِ المساجد. «أشعر أنّك لم تأخذ هذا النّص على محمل

الجدّ» قالت روث غوتشي، ووافقها داوود ليهمان على ذلك بإيماءةٍ من رأسه. هل كان هذا قد حصل فعلًا الشهر الماضي؟

«هل يمكن أن يوجد شيء، هو في جلاله، أكثر خطورة من جلال الشِّعر ذاته؟» سؤال سبق أن طرحه على هذين التلميذين. حدَّقت روث في الأرض، إذ كانت تحبّه كثيرًا، على عكس فلورانس التي لم يخطر ببالها مطلقًا وهي تجلس في الصفّ الأوّل، أن تعمد إلى انتزاع نظارته. كانت تشعر بميل تجاهه، أمّا الآن فقد أصبحت ممزَّقة بين هذه العاطفة والشعور بالخيبة وربّما الخوف، لأنّه كان يُدنِّس كلام الربّ بقراءته مثل قصيدة طويلة وبالاستماع إليه مثل سلسلة من السوناتات الشرقية.

غربت الشمس عن المكان الذي يعمل فيه السيّد كورتيس، وسرَت رعدة في جسد غريغوريوس. هجْرُ الغرفة بهذا الشكل المحزن جعل كلّ شيء يغوص في الماضي. ظلّ لساعاتٍ في غياب تامّ عن العالم. ولم تبقَ غير الأحرف العبريّة وهي تُطلّ مثل تعرُّجاتِ حلمٍ مهجور. قام وخرج بخطى مستقيمة في الرّواق ثمّ صعد السلّم باتّجاه قاعات الدّرس.

كانت القاعات مليئةً بالغبار وطافحة بالصّمت. وإذا كان هناك شيء يفرِّق بينها فهو علامات انهيارها. كان سقف إحداها مرصَّعًا ببقع ماء كبيرة، وفي الأخرى كانت المغسلة منحرفة لأنّ بُرغيًّا صدئًا انكسر، وفي القاعة الثّالثة وجد عاكس ضوء زجاجي ملقى على الأرض ومحطَّمًا إلى شظايا، واللّمبة معلَّقة في السّقف بخيط كهربائيّ.

قام غريغوريوس بكبْس الزرّ الكهربائيّ، لكنّ الضوء لم يشتعل، لا في هذه الغرفة ولا في الغرف المجاورة. في أحد الأركان، توجد كرة قدم مفرغة من الهواء وشظايا حادّة لنافذة مهشَّمة تتلألأ في شمس الظهيرة.

«ومع كلّ هذا نسي أن يلهو بالكرة». هذا ما قالته فيما مضى ميلودي عن شقيقها، ذاك الذي تجاوز صفّين في هذا المكان بالذات، لأنّه بدأ يكتشف المكتبات بمفرده وهو في الرّابعة من عمره.

جلس غريغوريوس في الموضع نفسه الذي سبق أن جلس عليه في الملحق عندما كان تلميذًا في معهد بيرن. من هذا المكان، يمكن رؤية مدرسة البنات، لكنّ نصف المبنى كان محجوبًا بجذعِ شجرةِ صنوبر عملاقة. وكان على أماديو دي برادو أن يختار مكانًا آخر يستطيع من خلاله أن يشاهد الواجهة بأكملها، ويتمكّن من رؤية ماريا يوحنّا وهي جالسة إلى مكتبها أو حيثما وُجدت. وقف غريغوريوس في المكان الذي يسمح برؤية المبنى جيّدًا، وسعى جاهدًا إلى النظر في ذلك الاتّجاه. أجل لقد كان باستطاعته رؤيتها وهي مرتدية فستانها الشفّاف الذي تضوع منه رائحة الصّابون. سبق أن تبادلا بضع نظراتٍ وكم تمنّى لو أنّه يمسك يدها ويوجِّهها وهي تحرِّر ورقة الإنشاء. هل استعان في الماضي بمنظار الأوبرا قصد مراقبتها؟ ففي منزلٍ أرستقراطيٍّ لقاضٍ في محكمة عليا، يجب أن يتوفّر مثل هذا المنظار. على الأرجح لم يسبق لألكسندر هوراسيو أن استعمله في حياته، حتّى إنّه لم يدخل شرفة أوبرا قَطُّ. ولكن هل يكون لزوجته ماريا سيداد رايس دي برادو؟ وهل كان ذلك خلال السّنوات الستّ التي عاشتها بعد وفاة زوجها؟ هل حرّرتها وفاته؟ أم أنّها أوقفت الزمن وحوَّلت مشاعرها إلى حجارة من حمم نفسية، تمامًا مثل أدريانا؟

كانت القاعات تفتح على أروقة طويلة شبيهة بثكنة، جابها غريغوريوس الواحدة تلو الأخرى. وفي إحدى المرّات، تعثَّر بفأرٍ ميّت. توقّف وهو يرتجف ومسح يديه مع أنّهما لم تلمسا شيئًا. وعندما وصل

مجدّدًا إلى الطابق الأرضي، فتح بابًا عاليًا وخاليًا من الزُّخرف. هذا هو المكان الذي كان التلاميذ يتناولون فيه الطعام. هنالك فتحة لتمرير الصّحون وخلفها لم تبق في الغرفة المبلَّطة للمطبخ القديم إلاّ أنابيب صدئة بارزة من السّقف، وطاولات حجرة الطعام الطويلة المتروكة هنا. هل توجد قاعة حفلات؟

وجَدها في الجانب الآخر من المبنى: مقاعد مثبّتة في الأرض، نافذة بزجاج ملوَّن تنقصها قطعتان، أمامها منبرٌ وُضعت فوقه لمبة صغيرة، مقعد بعيد خُصِّص دون شكّ لإدارة المدرسة. صمتٌ كَنَسيٌّ، بل صمتٌ مهيب بكلّ بساطة، صمت لن نضع له نهاية بأيّ كلمة كانت، صمت يصنع من الكلمات منحوتات شامخة وشاهدة بقسوتها على ما كان عليه هذا المكان.

رجع غريغوريوس إلى مكتب المدير. وتناول العهد القديم بيدٍ مرتعشة، ثمّ وضعه تحت ذراعه واتّجه نحو المخرج. وفجأةً استدار وعاد أدراجه. جفَّف بكنزته الصوفيّة الدّرج المبلَّل ووضع فيه الكتاب من جديد. ثمّ ذهب لزيارة الأب بارتولومو لورانسو دي غوسماو الذي كان يسكن في الجانب الآخر من المدينة، في مأوى للعَجَزة في بيليم.

(18)

«القدِّيس أوغسطين والكذب. كان هذا واحدًا من بين آلاف المواضيع التي تجادلنا حولها» قال الأب بارتولومو، «تجادلنا كثيرًا دون أن يتحوَّل نقاشنا إلى خلاف. لأنّه كما ترى، كان شخصًا عاطفيًّا، متمرِّدًا، وفوق ذلك كان خطيبًا موهوبًا متّقدَ الذّكاء، عبَرَ المعهد عاصفًا مثل زوبعة لمدّة ستِّ سنواتٍ. لقد خُلق ليصبح أسطورة».

في تلك اللَّحظة، كان الأب يمسك بكتاب دي برادو ويمسح بظهر يده على صورة الكاتب. فتراءت لغريغوريوس أدريانا وهي تلامس برفق مكتب أماديو.

قال الأب: «يبدو هنا أكبرَ سنًّا. لكنّه هو، لقد كان هكذا، هكذا تمامًا».

وضع الكتاب على الغطاء الذي لفَّ به ساقيه وتابع حديثه:

«كنت أستاذًا تجاوز العشرين بسنواتٍ قليلة عندما درَّستُه فيما مضى. وكان الصُّمود أمام تلميذ مثله بمثابة تحدٍّ بالنّسبة إليّ. لقد كان يقسم المُدرِّسين إلى قسمين: قسم يريد إرساله إلى الجحيم وقسم يحبُّه. أجل إنّها العبارة المناسبة: هناك من بيننا من أُغرم به، لتمرُّده، لكرمه اللاَّمحدود واستبساله المتواصل، لجرأته التي تدفعه لاحتقار العالم، لجسارته وحماسه المتطرِّف. كان متهوّرًا إلى حدٍّ كبير، مغامرًا من السّهل تخيُّله على إحدى بواخرنا التّاريخيّة، مغنيًا وواعظًا وعازمًا

بثبات، والسَّيفُ في يده، على حماية سكّان القارّات البعيدة ضدّ أيّ عدوان مهين. كانَ مستعدًّا لتحدِّي العالم بأسره، حتّى الشيطان نفسه، بل حتّى الله. كلاّ، هذا لم يكن جنون عظمة كما كان يقول منافسوه، بل إنّها الحياة وهي تزهر في داخله، وثوَرانٌ شبه بركانيّ يفيضُ بطاقاتٍ متأهِّبة ووابلٍ من شعلاتِ أفكارٍ دافقة. كان هذا الفتى طافحًا بالكبرياء دون شكّ. لكنّ هذه الكبرياءَ جَموحٌ، وكبيرةٌ إلى درجة استسلام البعض له والتّحديق فيه باندهاش وكأنّه معجزة من معجزات الطبيعة لها قوانينها الخاصّة. مَنْ يحبُّون أماديو، كانوا يشبِّهونه بماسةٍ خامٍ، بحجرٍ كريمٍ غيرِ مصقول. أمّا أولئك الذين يُضمرون له العداء، فقد كانوا يستاؤون من ازدرائه الجارح أحيانًا ومن هذا العُجب الأخرس والظاهر في آن معًا، الخاصّ بمن هم أشدُّ سرعةً ووضوحًا وإشراقًا من غيرهم. كانوا يَعُون ذلك، ويعتبرونه نبيلًا غرًّا، حبَاه القدر لا بالمال فحسب وإنّما بالمواهب والجمال والفتنة أيضًا، بالإضافة إلى كآبته التي لا تقاوَم، تلك الكآبة التي كانت تجعل له حظوة عند النّساء. ليس من العدل أن يكون مصيرُ أحد مّا أفضل من مصير الآخرين إلى حدٍّ بعيد، كان هذا قدرًا جائرًا يجعله عرضةً للحسد وللحقد. ومع ذلك، حتّى أولئك الذين يضمرون له هذه المشاعر كانوا في قرارة أنفسهم معجبين به أشدّ الإعجاب. إذ لا أحد باستطاعته أن يغضَّ بصره أمام هذه الحقيقة: لقد كان فتى قادرًا على لمس السماء!».

حملت الذكرى الأب بعيدًا عن غرفته. وهي غرفة واسعة بالتأكيد ومليئة بالكتب. ولا مجال للمقارنة بينها وبين إقامة يوحنّا إيسا المتواضعة،

هناك في كاسيلهاس. ولكنَّها تبقى غرفة في مأوى للعجزة يسهُل تمييزها بالآلات الطبيّة وبالجرس أعلى السرير. تعاطَفَ غريغوريوس سريعًا مع هذا الرّجل النحيل الفارع الطول، بشعره الأبيض كالثلج وعينيه الغائرتين اللتين تتّقدان ذكاءً. لقد درّس برادو فيما مضى، ويجب أن يكون قد تجاوز التّسعين من العمر الآن. ولكن لم يكن يبدو عليه أيّ عارض من أعراض الشيخوخة، لا توجد أيّ علامة تدلّ على أنّه فقد شيئًا من حكمته التي سبق أن وظّفها لمواجهة تحدِّيات أماديو الطائشة، قبل سبعين سنة. كانت يداه رقيقتيْن بأصابع طويلة ورشيقة خُلقت لقلب صفحات الكتب القديمة القيِّمة. وبهذه الأصابع، كان في تلك اللحظات يتصفَّح كتاب دي برادو دون أن يقرأه، وكأنّ ملامسة الورق طقسٌ يساعده على استعادة الماضي البعيد.

«أيّ كتب لم يقرأها بعد، عندما اجتاز عتبة المعهد وهو في العاشرة من عمره، مرتديًا سترته الصّغيرة التي صُمِّمت خصّيصًا لتناسبه! أكثر من واحد منّا فوجئ وهو يحاول سرًّا التأكُّد من أنّه سيكون في مستوى التّلميذ الجديد. وبعد انتهاء الدّروس كان يجلس في المكتبة مع ذاكرته الخارقة وعينيه الدّاكنتين بنظرتها الثّاقبة والشّاردة المنغمسة في الكتب بعيدًا عمّا يحيط به، النظرة التي لا يتمكّن حتّى الانفجار الأكثر قوّة من تشتيت انتباهها. وكانت عيناه تلتهمان كلّ تلك الكتب الضَّخمة، سطرًا بعد سطرٍ وصفحةً بعد أخرى.

عندما يقرأ أماديو كتابًا، لا يتبقّى من هذا الأخير أيّ حرف. فهو لا يلتهم المعنى فحسب وإنّما حبر الطباعة أيضًا» هذا ما كان يقوله عنه أحد الأساتذة.

هكذا يجري الأمر: لكأنَّ النّصوص كانت تختفي كليًّا في داخله، وما يتبقّى منها على الرفوف، ليس إلاّ مغلَّفات فارغة. كان المشهد الذي يرسمه ذهنُه خلف هذا الجبين العالي بشكلٍ فاضح، يتَّسع بسرعةٍ تقطع الأنفاس. ومن أسبوعٍ إلى آخر تتشكَّل فيه أفكار جديدة مدهشة، وتداعيات خياليّة، وإيحاءات لغويّة كانت تصيبنا بالذهول. يحدث أن يختبئ في المكتبة ويواصل القراءة طوال اللّيل مُستعينًا بمصباح يدويّ. في بادئ الأمر، انتابت والدته نوبة فزع عندما تأخّر في العودة إلى المنزل. لكنّها شيئًا فشيئًا اعتادت، وبشيء من الكبرياء، على أن تترك ولدها ينتهك كلَّ القواعد.

كان جُلُّ الأساتذة يخشون مُواجهة نظرة أماديو الثاقبة، على الرّغم من أنّها لا تعبِّر عن رفضٍ أو تحدٍّ أو عداوة. ولكنّه لم يكن يمنح لمن كان يستطرد في الشّرح إلاّ فرصةً واحدة، فرصةً واحدة فقط، ليقدِّم شرحه على أكمل وجه. ولو حدث وارتكب هذا الشخص خطأً أو أظهر شكًّا في مسألة مّا، فإنّ أماديو لا يحقّق في الأمر ولا يعامله بازدراء، حتّى إنّنا لا نقرأ الإحباط في نظرته تلك. كلاّ، لقد كان ينسحب ببساطة. أماديو لم يكن يرغب في إهانة أحد، بل يغادر القاعة بكلّ تهذيبٍ ولطف. غير أنّ هذه الرّغبة اللاّفتة في عدم جرح مشاعر الآخرين على وجه التّحديد كانت مدمِّرة. لقد جرَّبت ذلك أنا أيضًا، وآخرون أثبتوه: ترصَّدنا نظرته حتّى ونحن بصدد تحضير الدَّرس. وكانت تلك النظرة بالنّسبة إلى بعضنا متفحِّصة تعود بك إلى مقاعد الدراسة، نظرة لا ينجح أحدُنا في مواجهتها إلاّ بروحِ رياضيٍّ وجَد نفسه أمام منافسٍ قويّ. ولم أعرف أحدًا لم يمرّ بهذه التجربة: أماديو إيناسيو دي ألمابيدا برادو، الفتى المندفع، الابن الفطن

للقاضي الشهير، حين يكون حاضرًا في قاعة المراجعة ونحن نحضِّر موضوعًا مّا بإمكان أيّ أستاذ أن يرتكب خطأً لشدّة صعوبة هذا الفتى.

مع ذلك لم يكن متشدِّدًا فحسب، فهو لم يُخلق في قالب واحد، بل كانت في داخله انشقاقات وانكسارات وخيبات، وأحيانًا يخيَّل إلينا أنّنا نضيع فيه. عندما يلاحظ ما يثيره بأسلوبه المبالغ فيه والمحتدم، يتفاجأ ويصيبه الذهول ويعمل كلّ ما في وسعه لإصلاح ما أفسده. وأحيانًا يُطالعنا أماديو الآخر، الرّقيق، الطيّب والخدوم، أماديو الذي يستطيع أن يقضّي اللّيالي واللّيالي برفقة زملائه يساعدهم في التّحضير للامتحان، مُبديًا في الوقت ذاته تواضعًا وصبرًا يضاهي صبرَ ملاك يجعل كلّ الذين اغتابوه من قبل يشعرون بالخزي.

نوبات الكآبة التي تتملَّكه، كانت تنتمي لأماديو آخر. عندما تنتابه، يُخيّل إلينا أنّ روحًا مختلفة تمامًا تسكنه مؤقتًّا. كان يتحوَّل إلى شخص مفرط الحساسيَّة، ينتفض لأيّ ضجيج كما لو أنّه تحت وقع السّياط. وفي لحظات مماثلة، كان يعكس صعوبة الحياة في أعلى تجلِّياتها. والويل لمن حاول مواساته أو التّهدئة من روعه، عندها يثور عليه بشكلٍ مرعب.

كان هذا الولد المبارك يمتلكُ الكثيرَ من المواهب. شيءٌ واحد فقط ظلّ بعيدًا عن متناوله: أن يحتفل، أن يسترخي، أن يستسلم غير مبالٍ بشيء. كان يقطع الطّريق أمام نفسه بحكمته اللاَّمحدودة واحتياجه الجَموح إلى مراقبة الذّات والتحكّم فيها. لا للكحول. لا للسجّائر. كلّ هذه الأشياء لم تأتِ إلاّ لاحقًا. ولكن لا بأس بكميّات من الشّاي. كان يُحبُّ بريق الذهب الأحمر لشاي أسام. وقد جلَب من منزله إبريق شاي فضيّ أعطاه في النهاية للطبّاخ.

- وكانت هناك بكلّ تأكيد، تلك الفتاة الشابّة، ماريا يوحنّا، قال غريغوريوس.

- أجل، وكان أماديو يحبّها. كان يحبّها على طريقته الفريدة والعفيفة التي تدفع الجميع للابتسام دون القدرة على إخفاء غيرتهم. كانوا يغارون من شعور لا يوجد إلاّ في الحكايات. كان يحبّها ويُجلّها. أجل هذا صحيح: *كان يُجِلّها*، ولو أنّنا في العادة لا نستعمل هذه الكلمة عندما نتحدَّث عن الأطفال. ولكن أماديو كان مختلفًا على كثير من الأصعدة. أحبّها على الرغم من أنّها لم تكن فتاة جميلة بالأساس، لم تكن أميرة، على العكس تمامًا، ولا تلميذةً مجتهدةً أيضًا. هذا كلُّ ما أعرفه. لم يكن أحد يفهم تمامًا ما يجري، ولا حتّى بنات المدرسة المقابلة اللّواتي كنّ سيبذلن كلّ شيء لجلب انتباه الأمير النّبيل. ربّما لأنّها ببساطة لم تكن مفتونة به ولا خاضعة له ككلّ الأخريات. ربّما هذا ما كان يحتاج إليه: أن يعامله أحدهم ندًّا للندّ، بكلمات ونظرات وحركات تحرِّره من ذاته بعفويّتها وتحفُّظها.

«عندما كانت ماريا يوحنّا تأتي إلى هنا وتجلس بجانبه على الدَّرج، يغمره الهدوء الشديد فجأةً. ولا يعود يستشعر حكمته وسرعته ولا عبءَ حضوره الذّهني المستمرّ ولا العذاب الذي يستبدُّ به عندما ينزَع دومًا إلى استباق ذاته وتجاوزها. وهو جالسٌ إلى جانبها، كان يصل به الأمر إلى عدم سماع رنين الجرس الذي يعلن عن بداية الدروس، وبالنّظر إليها، ينتابنا شعور بأنّه لم يكن يرغب في أن يفارقها أبدًا. ومن ثمَّ كانت ماريا يوحنّا تضع يدها على كتفه لتعيده من نعيم استسلامه التامّ. لطالما

كانت هي التي تعمَدُ إلى لمسه، ولم أر قطّ يد أماديو تمتدُّ نحوها. وعندما تتهيّأ للعودة إلى مدرستها، كانت تربط شعرها الأسود اللاَّمع في شكل ذيل حصان بحزامٍ مطَّاطي، على مرأى من أماديو الذي يتأمّلها وكأنّه مفتون بها، رغم أنّها المرّة المئة التي تفعل فيها هذا. على ما يبدو، فقد أحبَّ هذه الحركة كثيرًا. وفي أحد الأيّام، اختفى الحزام المطَّاطي ليحُلَّ محلَّه مِشبك شعر فضِّي، وكنّا نفهم من ملامح وجه أماديو أنّه هو من أهداها إيّاه.

مثلهُ مثل ميلودي كان الأب يجهل لقب عائلة الفتاة.

«الآن وأنت تطلب منّي ذلك، أشعر بأنّنا لم نكن *نملك الرّغبة* في معرفة هذا اللَّقب، وكأنّ معرفته وحدها كفيلةٌ بإحراجنا. قال الأب بارتولومو. هذا شبيه نوعًا مّا بعدم سؤالنا عن لقب القدِّيسين أو لقب ديانا أو إلكترا».

آنذاك، دخلت ممرِّضة بملابس راهبة.

«ليس الآن». خاطبها الأب عندما كانت تهمُّ بأخذ مقياس ضغط الدم لتقيس ضغطه.

قال ذلك بسطوة ناعمة. وفجأةً فهم غريغوريوس لماذا كان برادو الشاب محظوظًا بوجود هذا الرّجل في حياته: لقد كان يملك السّطوة التي احتاج إليها فيما مضى للتأكّد من حدود إمكانياته وربّما للتحرُّر من صرامة الأب القاضي وسطوته.

«لكنّنا سنقبل عن طيب خاطر فنجانًا من الشاي». قال الأب وهو يمحو بابتسامةٍ الغضبَ البادي على الممرّضة. «شاي أسام، وليكن قويًّا حتّى يلمع الذَّهب الأحمر كما يجب».

أغمض الأب عينيه ولاذ بالصمت. لم يكن يرغب في مغادرة هذا الزمن البعيد الذي أهدى فيه أماديو دي برادو مشبكَ شعرٍ لماريا يوحنّا. على أيّ حال، كان يتمنّى لو أنّه ظلَّ بقرب تلميذه المفضَّل يتجادَل معه حول أوغسطين وآلاف الأشياء الأخرى، بقرب الفتى الذي كان قادرًا على لمسِ السّماء، الفتى الذي رغب يومًا في وضعِ يده على كتفه تمامًا كما كانت تفعل ماريا يوحنّا.

«ماريا وجورج»، تابَع الأب وعيناه مُغمضتان، كانَا مثل قدِّيسَيه النَّصيرين. جورج أوكلِّي، صيدليُّ المستقبل، وجدَ فيه أماديو نِعم الصّديق، ولن أُفاجأ لو علمتُ أنّه ظلَّ صديقه الحقيقيّ، بغضِّ النّظر عن ماريا. جورج كان نقيضَها تمامًا في جوانب عديدة. وأحيانًا اعتقدتُ أنّ أماديو كان في حاجة إليهما معًا كي يكون كاملًا. كان جورج بجمجمته الريفيَّة، وشعره الأشعث الذي لا يسرِّحه إطلاقًا، وحركاته المزعجة والخرقاء، يبدو قبيحًا. وفي الأيّام المفتوحة، كنتُ ألاحظ أن النُّبلاء من آباء التلاميذ الآخرين يلتفتون إليه مذهولين عندما يلتقيهم وهو في ثيابه الرثّة. لم يكن أنيقًا على الإطلاق بقمصانه المجعَّدة، وسترته المشوَّهة وربطة عنقه السّوداء التي لا يغيِّرها البتّة، بل كان يرتديها بالمقلوب احتجاجًا منه على قواعد اللِّياقة.

«ذات يوم، التقيت أنا وأحد زملائي بأماديو وجورج في رواق المدرسة. وبعدها قال لي زميلي: لو كان لي أن أشرح في قاموسٍ مفهوم الأناقة ونقيضَها التامّ، سأصوِّر ببساطة هذيْن الصَّبيّيْن. أيّ تعليق آخر سيكون عديم الجدوى».

«بالقرب من جورج، كان أماديو يشعر بالرّاحة ويتعافى من إيقاع

حياته السَّريع، إذ يتحوّل برفقته إلى شخص بطيء جدًّا في وقتٍ وجيز. لقد كان تأنّي جورج ينتقل إليه، وهما يلعبان الشطرنج مثلًا. في البداية كان استغراقُ جورج في التفكير وقتًا طويلًا قبل تنفيذ أيّ هجوم يُصيبه بالجنون، وهو الرّجل الذي لم تكن فلسفته ولا غموضه الزئبقيّ يحتملان إمكانية فوز شخص يقضّي وقتًا لا نهائيًا في التفكير. ولكن بعد ذلك، اكتسبَ شيئًا فشيئًا هدوء جورج، اكتسبَ سُكونَ رجُلٍ يبدو دومًا أنّه يعرف تمامًا من كان وأين يجب أن يكون. قد يبدو الأمر غريبًا، ولكنّني أعتقد أنّ أماديو كان في حاجة إلى هذه الهزائم المنتظمة أمام جورج، وهو ما يفسّر إحساسَه بالحزن عندما يفوز في مباراة بصفة استثنائيّة، وعلى الأرجح فقد كان ذلك بالنّسبة إليه شبيهًا بانهيار الجدار الصخريّ الذي اعتاد التشبّث به.

«كان جورج يعرف بالتحديد الفترة التي قَدِم فيها أسلافه الإيرلنديّون إلى البرتغال. وهو فخور بنَسَبِه الإيرلنديّ ويتحدّث الإنجليزية بطلاقة حتّى وإن كانت شفاهه لم تُخلق لتناسب كلمات هذه اللّغة. وفي الواقع من السّهل تخيّله مُزارعًا في مزرعة إيرلندية أو مروِّجًا لإعلان عن الحياة في الرّيف، فيبدو لنا فجأةً شبيهًا بصموئيل بيكيت الشابّ.

كان جورج في تلك الفترة مُلحِدًا متعصِّبًا. لا أدري كيف علمنا بهذا الأمر، ولكنّه لم يكن يخفى على أحد. وعندما يُسأل عن ذلك كان يقرأ دون مُبالاةٍ شعار العائلة: *turris fortis mihi deus* *الربّ هو حصني المنيع*. كان يقرأ للفوضويّين الرّوس والأندلسيّين والكاتالونيّين. وتراوده فكرة اجتياز الحدود ومحاربة فرانكو. لقد انضمَّ لاحقًا إلى المقاومة، وهو أمرٌ متوقّع إلى درجة يكون فيها عكسهُ مبعثًا للاستغراب. كان طوال حياته «رومنسيًّا بلا أوهام»،

إذا أمكن وجود شخص هكذا، ولا بدّ من وجوده. وكان هذا الرّومنسي يسعى إلى تحقيق حُلمين: الأوّل أن يُصبح صَيدلانيًّا والثاني أن يعزف على بيانو شتانواي. حقَّق حلمهُ الأوّل ومايزال إلى اليوم مرتديًا ميدعته البيضاء وواقفًا خلف النّضد في صيدليّته في شارع دوس ساباتيروس. أمّا الثاني، فقد كان مثار سخرية الجميع حتّى نفسه، لأنّ يديه الخشنتين بأصابعهما العريضة ذات الأظفار المحدَّبة وإن كانت تتلاءم أكثر مع كونترباس المدرسة فإنّه ما إن يجلس أمام هذا الكونترباس حتّى تعتريه نوبةُ يأسٍ عميقة تؤدّي به إلى كسر القوس الّذي يُفتَرَضُ أن يعزف به».

شرب الأب فنجان الشاي وخلُصَ غريغوريوس وهو مُحبط إلى أنّ عمليَّة الشرب أصبحت شيئًا فشيئًا شبيهة باللَّعق: فجأةً، أصبح الأب رجلًا عجوزًا غير قادر على التحكّم في شفتيه. مزاجه أيضًا تغيّر وعلَت صوته نبرة حزينة وكئيبة عندما تحدَّث عن الفراغ الذي خلَّفه أماديو بعد أن أنهى تعليمه.

«بطبيعة الحال عندما يحُلُّ فصل الخريف، وتنخفض درجات الحرارة، ويغشى الضوءَ ظِلٌّ ذهبي، كنّا ندرك أنّنا لن نلتقيه مجدّدًا في أروقة المعهد. ولكن لم يكن أحدٌ يبوح بذلك. عندما ودَّعنا، صافحنا جميعًا، لم ينس أحدًا. شكر الجميع بكلمات دافئة وراقية. وتذكّرت أنّه بدا لي للحظة شبيهًا برئيس».

تردَّد الأب قليلًا ومع ذلك تابع حديثه قائلًا: «كان ينبغي على تلك الكلمات أن تكون أقلَّ إتقانًا، أكثر تردُّدًا وارتباكًا وحيرةً، أشبَهَ بحَجَرٍ خامّ لا برُخامٍ مصقول».

«وكان ينبغي على أماديو أن يودِّعه بطريقة مختلفة عن الآخرين، بكلمات خاصَّة، كأن يحيطه بين ذراعيه»، قال غريغوريوس في نفسه. كان الأب يشعر بألم كبير لأنّ أماديو عامله مثل جميع الأساتذة. والآن بعد مرور ستّين سنة، ما يزال هذا الأمر يؤلمه.

«في الأيّام الأولى من السنة الدراسيَّة الجديدة كنت أسير في الأروقة وأنا في حالة ذهول. كنتُ مذهولًا لغيابه. وكان عليّ أن أردِّد دون توقّف: «لم يعد بإمكانك توقُّع ظهور جُمَّة شعره، لا ينبغي أن تتوقّع ظهور خياله الشامخ مُجدَّدًا في زاوية الممرّ. لن ترَاه مرّةً أخرى وهو يشرح موضوعًا مّا لأحدهم، وهو يحرِّك يديه بطريقته الفريدة وكأنّهما تنطقان. أنا واثق أنّ الآخرين كانوا يفكّرون في الأمر نفسِه على الرّغم من أنّهم لا ينبسون بكلمة حول هذا الموضوع. حدث يومًا أن سمعت أحدهم يقول: «كلُّ شيء اختلف منذ ذلك الوقت»، وممّا لا شكّ فيه أنّه كان يتحدَّث عن غياب أماديو. لأنّنا لم نعد نسمع صوته النّاعم والجهوريّ يتردَّد صداه في أرجاء الأروقة. المشكلة لم تكن في عدم رؤيتنا له أو في انقطاعنا عنه فحسب، بل في كوننا صرنا نرى غيابه، ونواجهه مثل شيء محسوس. وهذا النقص كان شبيهًا بالفراغ المرسوم على صورة فوتوغرافية قصصنا منها ظلاً بدقَّة عالية: الشخص الناقص يبدو إذن أكثر أهمّيّة ويطغى على كلّ ما تبقّى من الصّورة. هكذا تمامًا كنّا نشتاق إلى أماديو: إلى غيابه الصّارخ.

«مرَّت سنوات قبل أن ألتقيه مُجدَّدًا. كان يتابع دراسته هناك، في كويمبرا. وكنت من وقت إلى آخر أستقي أخباره من صديق لي يعمل مساعد أستاذٍ في الطبّ خلال دروس التّشريح. وقد شارَف أماديو

على أن يصبح أسطورة هناك أيضًا. أساتذة متخصِّصون، مغمورون بالجوائز، رائدون في مجال تخصُّصهم، كانوا يشعرون بأنّه يُحيلهم على مقاعد الاختبار، ليس لأنّه يفوقهم علمًا، كلاًّ، لم يكن الأمر هكذا وإنّما لأنّ جوعه الدّائم للشُّروحات لم يجد ما يُسكته. ومؤكّد أنّ مشاهد دراميّة قد حدثت في المدرج عندما كان يشير بتفكيره العنيد والديكارتي إلى أنّ التّوضيحات المقدَّمة لم تكن في الواقع تساوي شيئًا.

«بلغَني أنّه في أحد الأيّام، جعل من أستاذ مغرور موضع سخرية عندما قارن شرحه *«بسلطة النّوم»* التي كان نوعٌ من الأدوية، حسب أحد أطبّاء موليير، يستمدُّ منها خاصّيته المنوِّمة. وقد يتحوَّل إلى شخص قاس إذا حاول أحدهم ادِّعاء العلم أمامه، عندها ينصب له العداء. «هذا شكلٌ من أشكال الغباء» هذا ما اعتاد قوله، «يجب أن ننسى التفاهة الكونيّة لعملنا كلّه حتّى ننجح في أن نُصاب بالغرور، وهذا شكلٌ واضح من أشكال الغباء».

عندما يكون في هذا المزاج السَّيِّئ، من الأفضل عدم الوقوف في وجهه. وهو ما لوحظ أيضًا في كويمبرا. كما لوحظ شيء آخر: لقد كان يملك حسًّا سادسًا أمام التّدابير الانتقامية المتوقَّعة من الآخرين. جورج أيضًا كان يملك حسًّا مماثلًا، نجح أماديو في تمثُّلِه ومن ثمَّ رعاه في داخله. عندما كان يشكّ في أنّ أحدهم يسعى لإحراجه أمام الملأ، يعمد إلى البحث، كما في لعبة الشطرنج، عن الضربة الأكثر حكمة، تلك التي يمكن أن يقوم بها في هذا الاتّجاه. وكان يستعدّ لذلك بكلّ دقّة. على الأرجح أنّه تصرَّف هكذا أيضًا في كليّة الطبّ بكويمبرا، عندما طلب منه أحد أساتذته في المدرج الجامعي، الخروج إلى السبّورة، مستمتعًا

سلَفًا بسؤاله عن مسائل عويصة، فوضع قطعة الطباشير التي ناولها إيّاه الأستاذ بابتسامة ماكرة وبنيَّة الانتقام، جانبًا، ثمّ أخرج قطعة طباشير أخرى من جيبه قائلًا بلهجة ازدراء تليق بهذه المناسبات، بعد أن يملأ السبّورة برسوم هندسيّة، ومعادلات فيزيولوجية أو صيغ بيوكيميائيّة: «آه نعم، هذا...».

«هل يجب عليّ حقًّا أن أعرف كلّ هذا؟» تساءل يومًا عندما حدث وأخطأ في حساباته. لم تكن سخرية الآخرين مُعلنةً ولكن كان بالإمكان سماعها. وبكلّ بساطة، لم يكن لأحد أيّ تأثير فيه».

بقيَت الغرفة معتمة خلال نصف السّاعة الأخيرة، ثمّ قام الأب وأشعل الضوء.

«أنا من واراه التّراب. نزولًا عند رغبة أدريانا، شقيقته. لقد سقط في شارع أوغوستا الذي يكِنُّ له محبّة خاصّة، على ما يبدو، في السّاعة السّادسة صباحًا بعد أن طارده أَرَقُهُ العُضال في أنحاء المدينة. وجَدَتْهُ امرأة حين خرجت من منزلها برفقة كلبها، فاتَّصلت بسيارة الإسعاف. ولكنّه كان قد فارق الحياة. الدّم النّازف من الشريان المنفجر أطفأ نور عقله الساطع إلى الأبد.

كنت متردِّدًا، فأنا أجهل كيف سيكون موقفه من طلب أدريانا. *«الدفن شأن الآخرين، لا علاقة للميّت بكلّ هذا»*. هذا ما دأب على ترديده في السّابق. إنّها إحدى العبارات الرّهيبة التي كان البعض يهابه بسببها. هل هي صالحة إلى الآن يا ترى؟.

«أدريانا التي في وسعها أن تتحوَّل إلى تنِّين دون شكٍّ، تنِّين يحمي أماديو، كانت ذاهلةً مثل فتاة صغيرة أمام الأشياء التي يُحتِّمها الموت

علينا. وهكذا قرَّرْتُ أن أوافق على طلبها. وصار لزامًا عليَّ إيجاد الكلمات المناسبة التي يمكن أن تُقال أمام روحه الصَّامتة. بعد عشرات السّنين، بعد أن كفَّ عن مراقبتي وأنا أُعِدُّ سلفًا ما عليَّ قوله، ها هو يعود مرّةً أخرى إلى هنا، بعد أن انطفأ حماسُه الحيويّ. لكنّ وجهه الصّامت على الدّوام بدا لي متوسّلًا عكس وجهه القديم الذي طالما تحدَّاني بحيويَّته المتّقدة.

«لم تكن الكلمات التي قلتها على قبره، لِتُقال في حضرة الميِّت فحسب، فقد كنت أعرف أن أوكلِّي سيكون هناك. وفي حضوره، لم يكن باستطاعتي على الإطلاق نُطق عبارات تتحدّث عن الخالق وعن كلّ الأشياء التي اعتاد أن يطلق عليها عبارة: *«وعود الربّ الفارغة»*. وجدت مخرجًا بحديثي عن كلّ ما عشته مع أماديو، عن مآثره الخالدة عند كلّ من عرفوه، حتّى أعدائه.

كان الحشد في المقبرة غفيرًا جدًّا إلى درجة لا تُصدَّق. أشخاص عالجهم فيما مضى، أشخاص بسطاء عالجهم مجانًا. لم أسمح لنفسي بنطق أيّ كلمة دينية عدا كلمة: *«آمين»*. نطقتُها لأنّ أماديو أحبَّ هذه الكلمة ولأنّ جورج كان يعرف ذلك. هذه الكلمة المقدَّسة تاهت في صمت المقابر. لم يتحرَّك أحد من مكانه وبدأ المطر يتساقط. كان الناس يبكون، يحضن بعضُهم بعضًا ولم يفكِّر أحد في المغادرة. فُتحت أقفال السّماء وتبلَّل النّاس حتّى العظم. لكنّهم مع ذلك، آثروا البقاء، هكذا ببساطة. كنت أقول في نفسي: هم يريدون أن يوقفوا الزمن بأقدامهم الثقيلة. يريدون أن يحدُّوا من سرعته حتّى لا يحمل طبيبهم المحبوب بعيدًا عنهم، تمامًا كما فعل مع كلّ من سبقوه. بعد نصف ساعة من الجمود ظهرت أخيرًا بوادر

حركة عجّلت بذهاب المسنّين الذين كانوا عاجزين عن الوقوف وقتًا طويلًا. استغرق الأمر ساعة أخرى قبل أن تصبح المقبرة خالية تمامًا.

«عندما هممتُ أنا أيضًا بالمغادرة، حدَث شيء غريب زارني في الحلم مرارًا بعد ذلك، شيء كان شبيهًا بمشهد سوريالي للويس بونويل: شخصان، رجل وامرأة شابّة ذات جمال مكبوت، سارا نحو القبر وقد قدما من طريقين مختلفين تمامًا. الرّجل كان أوكلّي، أما المرأة فلم أكن أعرفها. شعرتُ لوهلة أن كلّ واحد منهما يعرف الآخر. لم يكن بإمكاني الجزم بذلك، لكن هذا ما شعرت به. شعرت أنّ علاقتهما حميمة، وأنّ هذه العلاقة الحميمة مرتبطة بتعاسة مّا أو بمأساة كان أماديو طرفًا فيها. كان عليهما أن يسيرا في طريق متفاوتة الطول وكان يبدو أنّهما عدّلا في خطواتهما حتّى يصلا في الوقت نفسِه إلى القبر. طوال الطريق، لم تلتقِ نظراتهما إلاّ مرّة واحدة فقط، لكنّهما ظلاّ يحدّقان إلى الأرض. وفي لحظة تجنُّب أحدهما للآخر خلقا مسافةً متقاربة بينهما، ما كان لها أن توجد لو التقت نظراتهما. لم يتبادلا النظرات حتّى وهُما يقفان جنبًا إلى جنب أمام القبر، وقد بدت أنفاسهما في غاية الانسجام. لكأنّ الميت في تلك اللحظة، كان ينتمي لهما فحسب. شعُرت أنّه عليّ أن أغادر ولم أعرف إلى اليوم أيَّ سرٍّ كان يجمع بين هذين الغريبين وأيّ علاقة لأماديو بكلّ هذا».

رنَّ الجرس. وعلى الأرجح فقد كان ذلك إشارة لبدء العشاء. عبَرَتْ مسحةُ غضبٍ وجهَ الأب. وبحركةٍ عصبيَّة نزع الغطاء عن ساقيه ثمّ اتَّجه نحو الباب وأقفله بالمفتاح. وبعودته إلى كرسيِّه، مدَّ يده نحو الزرّ الكهربائيّ وأطفأ الضوء. مرَّت عربةٌ تحمل أوانيَ، كان يصلهما

صوت قعقعتها وهي تتباعد في الممرّ. انتظر الأب بارتلومو حتّى تختفي الضوضاء ويهدأ المكان قبل أن يواصل حديثه.

«قد أكون أيضًا على علم مسبق بشيء مّا، ولعلّي تنبّأت بحدوثه. فقبل سنة من وفاته تفاجأت بأماديو واقفًا عند بابي، في منتصف اللّيل، وقد سُلبَت منه ثقته المعهودة بنفسه. وكنت أرى عجلة محمومة تسِم ملامحه ونَفَسه وحركاته. أعددت كوبًا من الشاي، وعبرَت وجهه ابتسامة سريعة عندما عدت حاملًا السكّر النّباتي الذي كان مولعًا به وهو تلميذ. ثمّ سرعان ما تجهّم وجهه من جديد.

«كان من الواضح أنّه لا يجب أن أستعجله ولا أن أطرح عليه أسئلة. فلُذت بالصّمت وآثرت الانتظار. كان يصارع نفسه بما أنّه الوحيد القادر على ذلك: كما لو أنّ النصر والهزيمة قد حسما أمر الحياة والموت في هذا الصّراع. ربّما كان الأمر هكذا فعلًا. سبق أن سمعت شائعات مفادها أنّه انضمَّ إلى المقاومة. وبينما هو يتنفّس بصعوبةٍ، ويطيل النظر إلى الفراغ، كنت أنا أتأمّل أثر الزّمن فيه: أولى بقع الشيخوخة التي بدأت تظهر على يديه الرقيقتين، بشرته المتجعّدة تحت العيون التي أرهقها السهر، خصلات شعر رمادية. وفجأةً أدركت، وقد بدا عليّ الفزع، أنَّ مظهره كان مهملًا، ليس كمتشرِّد متّسخ، وإنّما كان الإهمال أكثر تفرُّدًا ونعومةً: لحية مهملة، شعر ناتئ داخل الأنف والأذنين، أظفار مقلّمة بشكلٍ سيّئ، ياقة قميص مائلة إلى الصفرة، حذاء غير ملمَّع، وكأنّه قضى أيّامًا خارج المنزل، ورقّة غير منتظمة في أجفانه وكأنّها تلخِّص إرهاق عمر بأكمله.

«حياةٌ واحدة مقابلَ حيواتٍ عديدة. ليس بالإمكان النّظر إلى الأمور بهذه الطريقة أليس كذلك؟». كان في صوت أماديو شيءٌ من

القهر وخلف كلماته إحساس بالنقمة أكثر من الخوف من ارتكاب خطأ أو ذنبٍ لا يُغتفر.

«أنت تعلم موقفي من كلّ هذا». قلت له. لم أغيّر رأيي منذ ذلك الوقت.

- وإن كانت فعلًا حيوات عديدة؟

- هل أنت من سيكون عليه القيام بذلك؟

- على العكس، يجب عليّ أن أمنعه.

- هل يعلم الكثيرَ عن هذا الأمر؟

- هي. إنّها أصبحت تمثّل خطرًا. إنّها لن تقاوِم. بل ستتكلَّم. هكذا كان يعتقد الآخرون.

- وجورج أيضًا؟ قلت ذلك بشكلٍ عفوي ولكنّ الضربة أصابت الهدف.

«لا أريد الخوض في هذا الموضوع».

مرَّت دقائق ساد فيها الصّمت وبرَدَ الشاي. كان أماديو ممزَّقًا. هل كان يُحبُّها؟ أم لأنّها إنسانة لا غير؟

«ما اسمها؟». *«الأسماء هي الظّلال اللاَّمرئيَّة التي يُلبسها بعضُنا لبعض»*. هل تذكر ذلك؟.

«كانت هذه كلماته التي ردَّدها في عدد من المقالات أبهرنا بها جميعًا فيما مضى».

«خلال فترةٍ قصيرة، حرَّرته الذكرى من سطوتها وعلَت وجهه ابتسامة.

إستفانيا إسبينوسا. اسم يشبه قصيدة. أليس كذلك؟

كيف ستتصرَّف؟

سأعبر الحدود وأتسلَّق الجبال، ولا تسألني إلى أين.

«ثمّ اختفى عبر باب الحديقة، وكانت تلك هي المرَّة الأخيرة التي أراه فيها وهو ما يزال على قيد الحياة.

«بعد حادثة المقبرة أعدت التفكير في هذه المحادثة اللَّيليَّة دون انقطاع. هل كانت تلك المرأة هي نفسها إستفانيا إسبينوسا؟ هل كانت قادمة من إسبانيا حيث علمت بموت أماديو؟ وهي تسير باتّجاه أوكلِّي، هل كانت في الحقيقة تتَّجه نحو الرّجل الذي رغب يوما في تدميرها؟ هل كانا يقفان دون أن يتماسًّا ولا أن ينظر أحدهما إلى الآخر أمام قبر الرّجل الذي سبق أن ضحَّى بصداقةِ عمرٍ كامل لينقذ المرأة صاحبة الاسم الشعري؟».

أشعل الأب بارتولومو الضوء ووقف غريغوريوس.

«انتظر»، قال الأب. «الآن وقد حدَّثتك بكلّ هذه الأشياء يجب أن تقرأ هذا أيضًا». وذهب إلى المكتبة لجلب علبة كرتونية عتيقة بشرائط تغيَّرَ لونها.

«أنت متخصِّص في اللغات القديمة، بإمكانك قراءة هذا. إنّها نسخة من خطاب أماديو الذي ألقاه خلال حفل التخرّج. لقد كتبها خصِّيصا من أجلي وباللّغة اللاّتينيّة. إنّها رائعة، بل مدهشة! لقد رأيتَ المنبر المنتصب في قاعة الاحتفالات، هناك ألقى كلمته تلك. في ذلك المكان تحديدًا.

«كنّا ننتظر حدوث مفاجأة وليس شيئًا من ذلك القبيل. فمنذ الجملة الأولى، ساد صمتٌ يقطع الأنفاس. تلك الكلمات الصّادرة عن ثائر يبلغ من العمر سبع عشرة سنة، الفتى الذي يبدو أنّه عاش عمرًا بأكمله، كانت شبيهة بضربات سوط. وكنتُ أتساءل عمّا سيحدث عندما ستدوّي الكلمة الأخيرة. كنتُ أشعر بالخوف. أشعرُ بالخوف من أجله، وهو الذي كان يدرك ما يفعله ويجهله في الوقت نفسه. أشعر بالخوف من أجل هذا المغامر صاحب البشرة الرّقيقة التي لم تكن هشاشتها تعادل قوَّة ما يتلفَّظ به من كلمات. ولكنّني أشعر بالخوف من أجلنا نحن أيضًا، نحن الذين قد نفشل في أن نكون في مستوى هذه القضيّة. كان الأساتذة جميعهم هناك، جالسين بكلّ صرامة واستقامة. بعضهم أغمض عينيه، وبدوا وكأنّهم منهمكون في تشييد جدار واقٍ يحميهم من هذا القصف المتواتر من التجديف، حصن منيع في مواجهة انتهاك الذّات الإلهية لم يتوقّع أحد حدوثه بين هذه الجدران.

هل سيواصلون الحديث إليه؟ هل سيقاومون رغبتهم في الدّفاع عن أنفسهم باحتقارهم له فيعود ذاك الطّفل العنيد الّذي لا يؤثّر فيه شيء؟

ستلاحظ أنّ الجملة الأخيرة، كانت تُضمر تهديدًا مرعبًا إذ كان يُشتبه في وجود بركان خلفها قادر على قذف حِمم، ولو لم تصل الأمور إلى هذا الحدّ، لهلَكَ في هيجانه وغضبه. لم يقل أماديو هذه الجملة بصوتٍ مرتفعٍ رافعًا قبضة يده. بل نطقها بصوتٍ خافت، ناعم تقريبًا. لستُ أدري إلى اليوم ما إذا كان ذلك استراتيجيّة ليزيد في قوّته، أم أنّه بعد كلّ الحزم الذي قذف به، في الصمت، هذه الجمل الجريئة والوقحة، فقَد شجاعته فجأةً وأراد أن يعتذر مسبقًا برقّة صوته، دون استعداد مسبق،

ولكن ربّما كانت تلك الرغبة تُحرِّكه من الدّاخل. لقد كان واضحًا أمام العالم الخارجي ولكن ليس بالقدر الكافي لفكِّ رموز ذاته.

انطفأت الكلمة الأخيرة ولم يتحرَّك أحدٌ من مكانه. جمع أماديو أوراقه ببطء ونظره مثبتٌ على المنبر الذي أصبح خاليًا. ولم يعد لوقوفه هناك أيّ معنى، أيّ معنى على الإطلاق. ولكن ليس في وسع أحد أن يغادر ببساطة منبرًا كذاك، بعد خطاب مشابه دون أن ينحاز الحُضور إلى أحد الطَّرفين. كان يمكن لما حصل أن يكون هزيمةً من أبشع الهزائم، لكنّ ذلك مرّ كما لو لم يحدث شيء.

كانت بي رغبة جامحة في الوقوف والتصفيق من أجل هذا الخطاب الممتاز والجريء حقًّا. ولكن بعد ذلك أدركتُ أنّه لا يجب علينا أن نصفِّق لخطاب تجديفي، خاصّة وإن كان شاذًّا. لا أحدَ يجرؤ على القيام بذلك، لاسيَّما إذا كان أبًا، رجلًا نذر حياته للرَّب. بقيتُ جالسًا ومرَّت الثواني متَسارعةً، ولم يعد السّياق يسمح بترك المزيد منها يمضي وإلاّ فستحدث كارثة لكلينا. نحن وهو معًا. رفع أماديو رأسه، استقام في وقفته، وجّه نظرته نحو الزّجاج الملوَّن، وتركها معلَّقة هناك. لم يكن تصرّفًا متعمَّدًا، ولا حركةً مسرحيَّة، أنا واثق من ذلك. كان الأمر عفويًّا للغاية ويفسِّر خطابه كما ستلاحظ، فقد صار هو وخطابه شيئًا واحدًا.

ربّما كان ذلك كافيًا لكسر الزجاج. ولكن حصل شيء في القاعة جعل الجميع يعتبره دليلًا على السّخرية من وجود الله: في الخارج أخذ أحد الكلاب ينبح. في البداية كان نباحًا موجزًا وجافًّا ومزعِجًا خلفنا بسبب صمتنا التّافه والخالي من الدّعابة. ثمّ سرعان ما تحوَّل إلى نباح صريح وإلى عُواءٍ مُوجَّه نحو هذا العالَمِ البائس.

انفجر جورج أوكلّي ضاحكًا. وبعد مرور ثانية من الرّعب فعل الآخرون الشيء ذاته. أعتقد أن أماديو ظلّ للحظة مشدوهًا. المزاح كان آخر ردّة فعل يمكن أن يلجأ إليها. ولكنّ جورج هو من بدأ، ولهذا ينبغي أن يكون كلّ شيء على ما يرام. الابتسامة التي عبرت وجهه كانت قسريَّة نوعًا مّا، لكنّها استمرَّت. وفي الوقت الذي كانت فيه الكلاب تُكوِّن جوقة من النّباح والعواء، غادر هو المنبر.

عندها فحسب، أفاق السيّد كورتيس المدير من جموده، وقف وسار نحو أماديو وصافَحه. هل بالإمكان التنبّؤ بشعور السّعادة الذي يسري في جسد أحدهما لمعرفة أنّ هذه المصافحة ستكون الأخيرة من خلال قبضة يد؟ قال السيّد كورتيس بضع كلمات لأماديو ضاعت في عواء الكلاب، ردَّ عليها هذا الأخير، وبينما كان يتكلّم استعاد ثقته بنفسه وهو ما ظهر جليًّا في حركاته عندما وضع المخطوط المُشين في جيب سترته: في الواقع، الحركات التي كان يقوم بها لم تكن لإخفاء شيء مشين بل لحفظ شيء ثمين في مكان آمن. في النّهاية أحنى رأسه وحدَّق في عيني المدير مباشرةً ثمّ استدار متَّجهًا نحو الباب حيث كان جورج ينتظره. أحاطه أوكلّي بذراعه واصطحبه إلى الخارج.

في وقتٍ لاحق، التقيت بهما مرّةً أخرى في الحديقة العامّة. كان جورج يتكلَّم ويحرّك يديه في كلّ الاتّجاهات وأماديو ينصت إليه في هدوء. ذكَّراني معًا بمدرِّب يسترجع مع تلميذه المباراة التي حدثت منذ قليل. ثمّ لحقت بهما ماريا يوحنّا. فعَمد جورج إلى وضع يديه على كتفي صديقه ودفعه ضاحكًا نحو الفتاة.

لم يُثَر الأساتذة موضوع الخطاب فيما بينهم قَطُّ. لن أقول إنّنا

تجاهلناه، ولكنّنا لم نكن نجد الكلمات أو النَّبرة المناسبة لنتبادل الآراء في هذا الشّأن. وربّما كان أغلبنا يشعر بالسّعادة للحرارة التي كانت تغمر المدينة خلال تلك الأيّام. وهكذا لم نكن مجبرين على قول «مستحيل!» أو «ربّما يوجد بكلّ تأكيد سرّ مّا داخلها». «كان بإمكاننا بدلًا من ذلك أن نتعجَّب قائلين: «ياله من سعير!».

(19)

كيف تملّكه الإحساسُ -وهو يعبر لشبونة النّائمة في التّراموِاي المئوي- بأنّه ذاهبٌ إلى أصفهان بعد تأخير دام ثمانيةً وثلاثين عامًا ؟ تساءل غريغوريوس. بعد زيارة الأب بارتولومو، توقّف في منتصف الطريق، وفي النهاية ذهب إلى المكتبة قصد البحث عن مسرحيّات إسخيليوس وقصائد هوراس. وفي طريق عودته إلى الفندق، حدث شيء مّا عكّر مزاجه وأصبحت خطواتُه أكثر بُطئًا وتردُّدًا. جلس دقائق في مواجهة البخار المنبعث من محلٍّ لشواءِ الدَّجاج، وتحمَّل بشجاعةٍ رائحةَ الشحم المحترق المنفِّرة. بدا له من الضروري أن يتوقّف في هذه اللّحظة تحديدًا وأن يلتقط الشيء الذي كان يريد أن يطفو على السَّطح. هل حاول من قبل أن يستعيد آثاره بمثل هذا التركيز؟

كان صاحيًا جدًّا في مواجهة العالم الخارجي، ولكن لم يكن له القدر الكافـي من هذا الصّحْو ليفكّ رموز عالمه الدّاخلي. عندما تحدّث الأب بارتولومو بهذه الطريقة عن برادو، بدا الأمر بديهيًّا جدًّا، كما لو أنّ كلّ رجل بالغ كان مُطّلعًا على الصّحْو الظاهر والباطن دون أن يكون في حاجة إلى معلومات إضافيّة.

البرتغاليّة! تذكّر غريغوريوس البرتغاليّة التي التقاها فوق جسر كرشنفلد، تذكّر يديها الممدودتيْن على الحاجز وقدميْها المنزلقين خارج حذائها. «إستفانيا إسبينوسا. اسم يشبه قصيدة»! هذا ما قاله برادو.

«سأعبر الحدود، وأتسلّق الجبال ولا تسألني إلى أين؟». وفجأةً، ودون أن يفهم كيف حصل ذلك، أدرك غريغوريوس الشّعور الذي غمره دون وعيٍ منه: لم يكن يرغب في قراءة خطاب دي برادو في غرفته بالفندق، بل في المعهد المهجور، هناك حيث سبق لبرادو أن قام بإلقائه، في المكان الذي يوجد فيه كتاب العهد القديم، في الدرج فوق كنزته الصوفيّة. في ذلك المكان المليء بالفئران والخفافيش.

لماذا بدت له هذه الأمنية المضحكة والبريئة في الوقت نفسِه، قادرةً على تحديد شيء مّا على قَدْرٍ من الأهميّة كما لو أنّ مجرَّد ركوب الترامواي مرّةً أخرى عوض الذهاب إلى الفندق له نتائج كبيرة؟ قبل أن تغلق المحلاّت أبوابها بوقتٍ قصير، دخل دُكّانًا لبيع الخردوات واشترى مصباح جيب، أقوى مصباح وجده في المحلّ. وفي تلك اللّحظة، صعد مجدّدًا إلى إحدى عربات الترام القديمة وهي تهتزّ في اتّجاه المترو الذي سيقلّه إلى هناك، إلى المعهد.

كان المبنى غارقًا بالكامل في ظُلمةِ الحديقة العامَّة ويبدو مهجورًا منذ زمنٍ طويل. بعودته إلى هناك ظلّ متذكّرًا المخروط الضّوئي الذي كانت تتسلّل منه أشعّة الشمس عند الظهيرة، وتغمر مكتب السيّد كورتيس. ما يراه ماثلًا أمامه الآن هو مبنى، كان يقبع هناك في صمتٍ مثل باخرة غرقت في عمق البحر، باخرة مفقودة بالنّسبة إلى الناس وبعيدة عن براثن الزّمن.

جلس على صخرةٍ وفكَّر في ذلك التلميذ الذي اقتحم فيما مضى معهد بيرن ليلًا بعد أن كسر قفل الباب، ومن مكتب المدير، اتّصل هاتفيًّا بجميع أنحاء العالم بكلفة تُقدَّر بآلاف الفرنكات. هكذا بُغية الانتقام.

كان اسمه هانس غمور وكان يحمل اسمه مثل قيد. سدّد غريغوريوس الفاتورة وأقنع كاجي بعدم تقديم شكوى. وعندما انفرد بغمور في المدينة، حاول أن يعرف منه أيّ شيء دفعه للانتقام ؟ لكن دون جدوى: «قصد الانتقام». هذا ما قاله غمور ببساطة. وقد بدا أمام قرص المرطّبات المحلَّى بالتفاح، مُرهَقًا، يُعذّبه شعور بالكره أكبر منه. وعندما افترقا، تبعه غريغوريوس بنظراته طويلًا. لقد كان بطريقة أو بأخرى معجبًا به أو ربّما كان يحسده على ذلك. هذا ما أسرّ به لاحقًا لفلورانس.

تصوّري: ها هو جالس في مكتب كاجي في العتمة ويتّصل هاتفيًّا بسيدناي وبيليم، بسانتياغو وحتّى ببيكين، ويتّجهُ فقط إلى السّفارات التي يتحدّث موظّفوها الألمانية. ليس لديه ما يقول، لا شيء على الإطلاق. هو يرغب ببساطة في سماع رنين الهاتف واستشعار الثواني الباهضة الثمن بصورة مشينة، وهي تمضي. أليس هذا عملًا جبَّارًا؟

- وهل أنت من يقول هذا الكلام، أنت الذي كنت تسدِّد فواتيرك حتّى قبل أن تصدر؟ هل كنت تفعل ذلك حتّى لا تظلَّ مدينًا لأحد؟

- تمامًا، ردَّ قائلًا، تمامًا.

وبكلّ ثقةٍ في النّفس، أعادت فلورانس ارتداء نظّارتها المواكبة للموضة بشكلٍ مبالغ فيه، وهو ما تفعله في كلّ مرّة يتطرَّق فيها إلى مثل هذه المواضيع.

أشعل غريغوريوس مصباح الجيب وتبع شعاع الضّوء في اتّجاه المدخل. بدا له صريرُ الباب في العتمة أكثرَ إزعاجًا منه خلال النّهار. كان يبعث فيه شعورًا بأنّ هذا المكان محظور. صوت الخفافيش المذعورة

ملأ أرجاء المنزل. انتظر غريغوريوس أن تهدأ الجلبة قبل أن يعبر الباب الصفَّاق المؤدّي إلى الطابق الأرضيّ. ثمّ أخذ يمرِّر شعاع الضوء مثل مكنسةٍ على بلاط الأروقة خوفًا من أن يدوس على فأر ميّت. كان الجوّ قارسًا بين الجدران الباردة. فدخل بدايةً مكتبَ المدير ليأخذ كنزته.

تأمَّل كتاب العهد القديم الذي كانت فيما مضى على ملك الأب بارتولومو. في سنة 1970 عندما أُغلق المعهد وأصبح مدرسة شيوعيّة، اجتمع الأب بارتولومو مع المدير الذي خلف السيّد كورتيس، مرتعدين وشاعرين بالعجز. «كنّا في حاجة إلى فعل أيّ شيء، ولو كان رمزيًّا» قال الأب بارتولومو. ولذلك وضع كتابه المقدّس في درج المكتب. فنظر إليه المدير وقال في سخرية: «ممتاز! سيبتليهم الربُّ».

في قاعة الاحتفالات، جلس غريغوريوس على المقعد المخصّص للإدارة، حيث استمع السيّد كورتيس إلى خطاب دي برادو وقد تجمَّدت ملامحه. تناول علبة الأب بارتولومو الكرتونيَّة من حقيبته المكتبيَّة، فكَّ الشرائط، وأخرج حزمة الأوراق التي أعاد أماديو ترتيبها فيما مضى بعد خطابه على المنبر، في الصَّمت المرعب والمخيف الذي يحيط به. الأحرف ذاتها كُتبت بحبر شديد السّواد، تلك الأحرف التي سبق أن رآها في رسالة برادو إلى ميلودي من أكسفورد. صوَّب غريغوريوس شعاع مصباح الجيب على الورقة ذات البريق الأصفر وشرع يقرأ:

إجلال ونفور أمام كلام الربّ:

«لا أريد أن أعيش في عالمٍ خالٍ من الكاتدرائيَّات. أحتاج إلى جمالها وعظمتها، أحتاج إليها لمجابهة الوجه المألوف من العالم. أريد أن أتأمَّل الزجاجيَّات المضيئة وأستسلم لسحر هذه الألوان

السَّماوية. أحتاج إلى ألقها، أحتاج إليه لمجابهة لون الألبسة الموحَّد، القذر والمُملِّ. أريد أن أستسلم لبرد الكنائس القاسي وهو يُلفُّني. أحتاج إلى صمتها المهيب. أحتاج إليه لمجابهة خوار العسكريّين الفارغ وثرثرة المريدين الحاذقة. أريد أن أصغي إلى صوت الأرغن الهامس، إلى هذا الغَمْر من الأصوات السَّماوية. أحتاج إليه لمجابهة سخف الموسيقى العسكريّة الصَّارخ. أحبّ النّاس المصلّين. أحتاج إلى رؤيتهم. أحتاج إليها لمجابهة سُمّ السطحيّة الخبيث وعدم إعمال العقل. أريد قراءة الخطاب البليغ من الكتاب المقدّس. أحتاج إلى الطاقة الشعريّة الكامنة فيه، أحتاج إليها لمجابهة الاستهتار باللّغة ودكتاتوريّة الشعارات. عالم خالٍ من كلّ هذا، هو عالم أرفض العيش فيه.

ولكن يوجد عالم آخر أرفض العيش فيه أيضًا: العالم الذي يُشَيْطَن فيه الجسد والفكر المستقلّ، العالم الذي تُدان فيه أجمل الأشياء التي يمكن أن نعيشها وكأنّها ذنوبٌ لا تغتفر. العالم الذي نُطالَب فيه بمنح حبّنا للطّغاة والاستغلاليّين والقتَلة، سواءٌ أولئك الذين يتردّد وقع أحذيتهم المتوحّشة بصداه الصّاخب في الشّوارع أو الذين تتسلّل ظلالهم الجبانة عبر المدينة، صامتة مثل القطط، لتغرز الخنجر اللاّمع في ظهر ضحاياها حتّى يصل إلى القلب. أن تغفر لمخلوقات كهذه وأن تُجِلّها فوق ذلك، فهذا يندرج ضمن أكثر الأشياء عبثيَّةً، تلك الّتي يُمكن أن تُلزم بشرًا بها من أعلى المنبر. وحتّى إن كان بإمكان شخص مّا الامتثال لذلك حقًّا: فهذا سيكون ضربًا من الرّياء لا مثيل له ونُكرانًا صارمًا للذّات لا ثمن له غير الخسران المبين. هذه

الوصيَّة... الوصيّة الجنونية والشّاذة بأن نحبّ أعداءنا خُلقت لتكسر البشر، لتسلبهم كلّ شجاعة وكلّ ثقة في النّفس وتُحوِّلهم إلى دمى طَيِّعة بين أيدي جلَّاديهم حتّى لا يجدوا بعد ذلك القوّة للوقوف ضدّهم ومواجهتهم بالسّلاح إن لزم الأمر.

أنا أجِلّ كلام الرَّب، لأنّني أحبّ طاقته الشعريّة. وأنا أكره كلام الربّ لأنّني أمقت قسوته. ياله من حُبٍّ صعب، إذ ينبغي على هذا الشعور أن يفصل باستمرار بين الطاقة النورانيّة الكامنة في الكلمات، والخضوع الذي يفرضه إلهٌ متجبِّر عبر عنف الكلمات. وياله من كره صعب هو أيضًا، إذ كيف بالإمكان أن نسمح لأنفسنا بكره كلماتٍ تنبع من لحن الحياة في هذه البقعة من الأرض؟ كلمات بفضلها تعَّلمنا مذ كنّا أطفالًا، معنى الإجلال! كلمات كانت بالنّسبة إلينا مثل المنارات كلّما اعترانا الشكّ في أنّ حياتنا هذه لا يمكن أن تكون هي الحياة بأكملها! كلمات لولاها لما كنّا ما نحن عليه اليوم. ولكن لا يجب أن ننسى أنّها كلمات أمَرت إبراهيم بذبح فلذة كبده كما تُذبح الشّاة. ماذا سنفعل بكلّ الغضب العارم الذي يجتاحنا ونحن نقرأ مثل هذه الكلمات؟ ماهو موقفنا من إله كهذا؟ إله يلوم أيّوب لأنّه خاصَمه في حين أنّ أيّوب لا حول له ولا قوّة. من خلقَه على هذه الشاكلة إذن؟ ولماذا لا يُعدُّ ظلمًا حين يُلقي الله بعبد في الشّقاء دونما سببٍ، في حين لا يكون من العدل أن يفعل ذلك بشرٌ عاديّ؟

شعريَّة الخطاب الإلهي هذه مهيبة إلى درجةٍ يستحيل معها كلّ شيء إلى الصّمت ويصبح بذلك كلُّ تناقض نباحًا مثيرًا للشفقة. لكن في

المقابل لا ينبغي علينا ببساطة أن نضع الكتاب المقدَّس جانبًا، بل يجب أن نتخلَّص منه عندما نضيق ذرعًا بأوامره وبهذا الاستعباد الذي يفرضه علينا. الإله الذي يتحدّث فيه هو أبعد ما يكون عن الحياة، إلهٌ مسلوب الفرحة، يسعى إلى الحدّ من اتّساع الحياة الانسانيّة ورحابتها -تلك الدائرة الكبيرة التي يمكن لهذه الحياة أن تكون عليها لو تركنا لها حرّية فعل ذلك- ويحيلها إلى نقطة صغيرة عاجزة عن التوسُّع. منكسرين بأحزاننا، ونائين تحت وطأة الذنوب، متيّبسين بفعل الخضوع وإهانة الاعتراف، موسومين بصليبٍ من الرّماد على جباهنا، يتوجَّب علينا أن نسير نحو القبر يحدونا أملٌ متناقض لألف مرّة في حياة أجمل تحت ظلّ عرشه. إذ كيف لحياة أن تكون أفضل إلى جانب شخص سلَبنا في السّابق كلّ أسباب الفرح والحرّيات؟

ومع ذلك فإنّ لهذه الكلمات التي تنبع منه وإليه جمالًا مذهلًا. كم أحببتها عندما كنتُ أخدم القُدّاس! كم انتشيتُ بها على ضوء شموع المذبح! كم هو واضح، واضح مثل الشمس، أن تكون هذه الكلمات مقياسًا لكلّ شيء! وكم يبدو لي أمرًا غريبًا أن تحظى كلمات أخرى غيرها بالأهمّية عند النّاس أيضًا، في حين أن كلّ واحدة منها لا يمكن أن تعبّر إلاّ عن متعة ذميمة وفقدان للجوهر! ما أزال إلى اليوم أتوقَّف عندما أصغي إلى التّرتيل الغريغوري، وخلال لحظات طويلة من الغفلة، ينتابني شعور بالحزن لأنّ النَّشوة القديمة فسَحت المجال نهائيًّا للتمرُّد. تمرُّد انفجر في داخلي مثل دَفقٍ ناريّ عندما سمعتُ لأوّل مرّة هاتين الكلمتين: التّضحية بالفكر.

كيف سنكون سعداء دون فضول، دون أسئلة، أو شكّ، أو حجج؟ دون متعة التفكير؟ هاتان الكلمتان الشّبيهتان بضربةِ سيفٍ تقطع رؤوسنا، لا تعنيان أكثر من ضرورة أن نعيش بمشاعرنا، بأفعالنا مقابل التّضحية بفكرنا. إنّها دعوة للتفرقة، أمر بالتّضحية بما هو حقًّا جوهرُ السّعادة: وحدتنا الدّاخلية وتناغم حياتنا. العبد مكبَّل في سجن الأشغال الشّاقة ولكنّ ذلك لن يأسر حرّيّة تفكيره. غير أنّ الربّ يطالبنا بأن نعمّق عبوديّتنا بأيدينا، حتّى أعماق ذواتنا، بل إنّنا نفعل ذلك طوعًا وعن طيب خاطر. هل يمكن أن توجد سخرية أكبر من هذه؟

الربّ هو شخص، في مطلق وجوده، يراقبنا ليلًا نهارًا ويمسك الدفاتر الخاصّة بكلّ ساعة، بكلّ دقيقة، وبكلّ ثانية من أعمالنا وأفكارنا، لا يسمح لنا بالرّاحة أبدًا. من المستحيل أن يمنحنا لحظةً نختلي فيها بأنفسنا. ما هو الإنسان دون أسرار؟ دون أفكار ولا رغبات لا يعرفها أحد غيره؟ الجلاّدون، جلاّدو محاكم التفتيش أو جلاّدو اليوم يدركون هذا الأمر جيّدًا: اقطعْ عنه كلّ طريق للعودة إلى الذات، لا تُطفئ الضّوء مطلقًا، لا تتركه يختلي بنفسه أبدًا، امنع عنه النّوم والصّمت: سيتكلّم.

حين يسرق منّا التّعذيب أرواحنا فذلك يعني أنّه يهدم خلوتنا مع أنفسنا، هذه الخلوة التي نحتاج إليها كالهواء لنتنفّس. الربّ إلهنا، ألم يفكّر في أنّه بفضوله الجنونيّ وجشعه المثير للاشمئزاز في الاطّلاع على كلّ شيء، يسرق منّا روحنا، الرّوح التي من المفترض أن تكون خالدة؟

من يريد حقًّا أن يكون خالدًا؟ من يريد أن يعيش الكينونةَ كُلَّها؟ كم سيكون مملاًّ وتافهًا أن نعلم بأنّ ما يحصل اليوم، هذا الشهر، في هذه السّنة ليست له أيُّ أهمّيةٍ تُذكر. سيتوالى عددٌ لا نهائيّ من الأيّام والأشهر والسّنوات، عددٌ لا نهائيّ بالمعنى الحرفـيّ للكلمة. لو كان الأمر هكذا فعلًا، فهل سيكون لأيّ شيء أهمّية بعد؟ لن نعود في حاجة إلى أن نجاري الزمن، لن يعود بإمكاننا أن نترك أيّ شيء يفرّ من بين أيدينا، لن يتوجَّب علينا الاستعجال، سيكون من غير المهمّ أن نقوم بشيء مّا اليوم أو غدًا. لا أهمّية لذلك على الإطلاق. آلاف الفرص الضائعة لن تمثّل شيئًا أمام الخلود، والحسرات لن يكون لها أيّ معنى، إذ سيكون لنا دومًا الوقت الكافـي لتدارك ما فاتنا. لن يكون في وسعنا حتّى أن نعيش يومًا فيومًا، لأنّ هذه السّعادة تقتات على الوعي بالزمن الذي يمضي، فالكسول هو مجازف بحياته أمام الموت، متقاطع مع الأمر بالاستعجال. عندما يتوفّر الوقت لفعل كلّ شيء في كلّ زمان ومكان، فأين سنجد مكانًا بعدُ لمتعة هدر الوقت؟

لا يكون الشعور هو نفسه عندما ينتابنا للمرّة الثانية. فهو يغيّر لونه عندما نعي عودته. مشاعرنا ترهقنا وتتجاوزنا عندما تعود في أغلب الأحيان وتدوم فترةً طويلة جدًّا. الرّوح الخالدة ينبغي أن يتملّكها إحساسٌ كبير بالتّخمة، ويأسٌ صارخ أمام الثقة في أنّ هذا لن ينتهي، لن ينتهي أبدًا. المشاعر تريد أن تكبر ونحن معها. إنّها لم تتغيّر قطّ لأنّها ترفض ما كانت عليه قبل الآن، ولأنّها تتدفّق نحو مستقبلٍ تبتعد فيه مجدّدًا عن ذاتها. لو أنّ هذا السّيل الجارف يمتدّ إلى

ما لا نهاية له، فينبغي أن تولد فينا آلافُ المشاعر التي لا يمكن لنا أن نتخيَّلها، نحن الذين اعتدنا زمنًا محدود المدى، حتّى إنّنا لا نعرف ما الذي وُعدنا به عندما نسمع الحديث عن حياة أبديّة. ما فائدة أن نعرف من نكون أمام الخلود دون أن نجد عزاءنا في التحرُّر ذات يوم من ضرورة أن نكون نحن؟ إنّنا نجهل الأمر، وفي ذلك نعمة ربّانية، لأنّنا مع هذا نحن ندرك شيئًا واحدًا فقط: ستكون جحيمًا، جنّة الخلود هذه.

إنّ الموت هو الذي يعطي للّحظةِ جمالَها ورهبتَها. إنّ الزمن زمنٌ حيٌّ بفضل الموت فقط. لماذا لا يدرك الربّ ذلك، هذا الربّ العليم؟ لماذا يتوعَّدنا بحياةٍ أبديّة لن يكون لها أيّ معنى آخر غير مللٍ لا يُحتمل؟

لا أريد أن أعيش في عالمٍ خالٍ من الكاتدرائيّات. أنا في حاجة إلى ألق زجاجيّاتها الملوّنة، إلى هدوئها البارد وصمتها المهيب، في حاجة إلى الألحان المتدفّقة من الأرغن وإلى دعاء المصّلين المقدّس، في حاجة إلى قدسيَّة الكلمات، إلى جلال هذا الشعر العظيم. أنا في حاجة إلى كلّ هذا ومع ذلك أحتاج إلى الحرّية، إلى الثورة ضدّ كلّ شكلٍ من أشكال القسوة، إذ لا قيمة لواحدةٍ دون أخرى، أحتاج إلى الانعتاق من كلّ إكراهٍ على الاختيار».

قرأ غريغوريوس الخطاب ثلاث مرّات وفي كلّ مرّة كانت دهشته تزيد. عنف لفظيّ لاتينيّ وأناقة أسلوبيّة تضاهي بلاغة سيسرون، مشاعر قويّة وجيّاشة تذكّرنا بأوغسطين. فتى في السّابعة عشرة من عمره، بَراعتُه شبيهة بالعزف على آلة موسيقية، لكأنّه الطفل المعجزة.

أمّا فيما يتعلق بالجملة الأخيرة، فقد كان الأب بارتولومو على حقّ:

إنّ هذا الوعيد مؤثّرٌ جدًّا. ولكن لمن كان يتوجَّه به في الواقع؟ هذا الفتى سيختار الوقوف في وجه القسوة دومًا، لهذا سيضحّي بالكاتدرائيّات إن لزم الأمر. هذا الكاهن بلا ربّ، سيبني كاتدرائيّاته الخاصّة به، سيشيِّدها فقط من كلمات ذهبيّة ليواجه بها ابتذال العالم. وسيصبح عِداؤُه للقسوة أشدَّ عُنفًا.

ألم يكن هذا الوعيد دون جدوى؟ عندما كان أماديو يقف هنا أمام الجميع، هل توقَّع دون وعيٍ منه ما كان سيفعله بعد خمس وثلاثين سنة: معارضة أهداف المقاومة وقرارات جورج وإنقاذ إستيفانيا إسبينوسا؟

كان غريغوريوس يتمنّى لو أنّه يسمع صوته ويستشعر الحِمَمَ الحارقة التي تسيل عليها كلماته. أخذ دفاتر دي برادو وركَّز ضوء المصباح على الصّورة. كان أماديو طفلًا مرتِّلًا، طفلًا تجسّدت أولى اهتماماته في الشّغف بشموع المذبح وآيات الكتاب المقدّس وقد بدت له في تجلِّيها مقدَّسةً هي أيضًا. ولكن بعد ذلك، تداخلت معها كلمات نابعة من كتب أخرى سبق أن تناسلت في داخله حتّى أصبح رجلًا يقدِّر الكلمات الغريبة بوزنها ذهبًا ويصوغ كلماته الخاصّة.

أقفل غريغوريوس أزرار معطفه وخبّأ يديه في أكمامه ثمّ تمدَّد على المقعد. لقد كان مرهقًا، مرهقًا بسبب الجهد الذي بذله في الإصغاء وحمّى الرغبة في الفهم. ولكنّه مرهق أيضًا بسبب هذه الشفافية الموجَّهة إلى الدّاخل، الشفافيَّة التي كانت تتناغم مع هذه الحمّى وتبدو له أحيانًا أنّها الحمّى ذاتُها. شعر لأوَّل مرّة بالحنين إلى مسكنه ببيرن، فقد اعتاد هناك على القراءة وهو على سريره ينتظر النّوم. كان يفكّر في جسر كرشنفلد قبل أن تقتحمه تلك المرأة البرتغاليّة وتمْسَخه. يفكّر في كتب اللّغة

اللاّتينيّة التي تركها على المكتب في قاعة الدّرس. لقد مرَّت عشرة أيّام على ذلك. من يا ترى شرح *«المفعول المطلق»* وفسّر بنية «الإلياذة»؟ في قسم اللّغة العبريّة سبق أن علّق الجميع في نهاية الحصَّة على الكلمات التي اختارها لوثر لتوصيف الإله على أنّه إله غيور. سبق أن شرح للتلاميذ المسافة الهائلة التي توجد بين النصّ باللّغة الألمانيّة والنصّ العبريّ، إنّها مسافة تقطع الأنفاس. من يا ترى سيتابع هذا الجدل من بعده؟

كان غريغوريوس يرتعش، وقد غادر آخر مترو منذ وقتٍ طويل. لا وجود لهاتفٍ أو لسيَّارةٍ أجرة، وتلزمه ساعات طويلة ليعود إلى الفندق سيرًا على الأقدام. أمام باب القاعة، يُسمع حفيف الخفافيش الخافت وفي بعض الأحيان كان أحد الفئران يصرخ، ثمّ ساد صمتٌ مميت.

كان ظمآن، لذلك شعر بالسّعادة لوجود قطعة حلوى في جيب معطفه. عندما وضعها في فمه، تراءت له يد ناتالي روبان التي سبق أن ناولته قطعة الحلوى الحمراء القانية. وخلال لحظةٍ قصيرة، بدت كأنّها ترغب في وضعها بيدها في فمه. هل حدث ذلك فعلًا أم أنّه كان يتوهّم؟

انسلَّت ضاحكةً عندما سألها عن إمكانيّة العثور على ماريا يوحنّا التي كان يبدو أن لا أحد يعرف اسم عائلتها. كانا يقفان منذ أيّام أمام دكّان لبيع الدّجاج المشويّ قرب مقبرة برازرس، حيث التقت ميلودي بماريا للمرّة الأخيرة. كان الوقت شتاءً والثلج يتساقط.

انطلق قطار جنيف من محطّة بيرن. كيف حصل وصعد في هذا القطار، وفي الدّرجة الأولى أيضًا؟ سأله المراقب. بحث غريغوريوس عن التذكرة في جميع جيوبه وهو يرتعش. وعندما أفاق واستقام في جلسته وقد تصلَّبت أعضاؤه، كان الفجر يلوح في الخارج.

(20)

استقلَّ أوّل مترو وظلَّ للحظةٍ المسافرَ الوحيد في العربة. انتابه شعورٌ بأنّ القاطرات كانت حلقةً أخرى في عالم المعهد الصّامت والخياليّ الذي بدأ يعتاد عليه شيئًا فشيئًا. ثمّ قدم عدد من المسافرين البرتغاليِّين، برتغاليُّون عاديّون ولا علاقة لهم بأماديو دي برادو. كان غريغوريوس ممنونًا لوجوههم الصّارمة والعابسة الشبيهة بوجوه الناس الذين كانوا يستقلُّون قطار لانغاس في الصّباح الباكر. هل هو قادرٌ على العيش في هذا المكان؟ يعيش ويعمل، أيًّا كان هذا العمل؟

رمقه بوَّابُ الفندق بنظرةٍ قلقة متسائلًا: هل هو بخير؟ هل أصابه مكروه؟ ثمّ ناوله ظرفًا من الورق المقوّى مختومًا بالشمع الأحمر، جلبته امرأة متقدّمة في السنّ أمس عند الظهيرة، وانتظرته حتّى وقتٍ متأخّر من اللّيل.

أدريانا! وحدها من خطرت ببال غريغوريوس في تلك اللّحظة. من بين كلّ الذين تعرَّف إليهم هنا، وحدها يمكن أن تختم رسالة. ومع ذلك فإنّ وصف البوَّاب لم يكن ينطبق عليها، ولم تكن لتأتي بمفردها أيضًا، كلاّ، امرأة مثلها لا تقوم بذلك. قد تكون الخادمة، تلك التي كان عملها يتمثَّل إجمالًا في مسح الغبار في غرفة أماديو، هناك في العليّة، حتّى لا يبقى شيء يذكِّر بتسارع الزمن. كلّ شيء على ما يرام، أكّد غريغوريوس مرّةً أخرى، ثمّ صعد إلى غرفته.

«أرغب في رؤيتك». أدريانا سوليداد دي ألمايبدا برادو. هذا كلّ ما كُتب على الورقة الفاخرة، بالحبر الأسود نفسِه الذي رآه فيما مضى عند أماديو، بحروفٍ بدت خرقاء ومتناسقة في آنٍ واحد. لكأنّ المُوقِّعة اضطرَّت إلى تكبُّد عناءٍ كبير في سبيل البحث عن كلّ حرفٍ لتلصقه بعد ذلك على الورقة ببهاء. هل نسيت أنّه لا يتقن البرتغاليّة وأنّهما سبق أن تحادثا بالفرنسية؟

سرعان ما شعر غريغوريوس بالفزع من هذه الكلمات المقتضبة الشبيهة بأمرٍ يدعوه إلى المثول في البيت الأزرق. ثمّ تراءى له مجدَّدًا الوجه الشّاحب والعينان السّوداوان بنظرتهما المريرة. رأى المرأة تسير على حافّة الهاوية في غرفة شقيقها التي لا يجب على الموت أن يَحُلَّ بها. وفي تلك اللّحظة لم تعد الكلمات تُرجّع صدى صوتٍ آمر، بل كانت أقرب إلى دعوةٍ للمساعدة، صادرة عن حلقٍ أجشّ محاطٍ بوشاحٍ مخمليٍّ غريب.

نظر إلى الأسد الأسْود الذي خُتمت به الرّسالة، في أعلى الوسط تمامًا. من الواضح أنّه شعار آل برادو. كان الأسد يتلاءم مع صرامة الأب ووفاته الغامضة ويعكس خيال أدريانا الأسود والطبع الصّارم والجريء لأماديو أيضًا. أمّا ميلودي، الفتاة المتقلِّبة بقدميها الخفيفتين، تلك التي وُلدتْ في لحظةِ طيشٍ خارقة على ضفّة الأمازون، فإنّ الأسد لم يكن يشبهها في شيء. وماذا عن الأم؟ ماذا عن ماريا بييداد رايس؟ لماذا لم يكن أحدٌ يتكلَّم عنها؟

أخذ غريغوريوس حمَّامًا ونام حتّى الظُّهر. كان سعيدًا لأنّه تمكَّن من التفكير في نفسه أوّلًا وترك أدريانا تنتظر. هل كان قادرًا على أن يتصرَّف هكذا في بيرن؟

لاحقًا، وهو في طريقه إلى المنزل الأزرق، مرّ أمام مكتبة جوليو سيمواس وسأله أين يمكنه العثور على كتاب قواعد اللُّغة الفارسيَّة وما هي أفضل مدارس اللّغة لو قرّر يومًا تعلّم اللّغة البرتغاليّة؟

قال سيمواس ضاحكًا: «البرتغاليّة والفارسية دفعةً واحدة!».

لم يدم غضب غريغوريوس طويلًا. فلم يكن باستطاعة الرّجل أن يعرف وهو في هذه النقطة من حياته أنْ لا فرق بين البرتغاليّة والفارسية. وأنّهما كانتا إلى حدّ مّا لغة واحدة. سأله سيمواس مرّةً أخرى أين وصل في بحثه عن دي برادو وما إذا كان كونتينهو قد تمكّن من مساعدته. وعندما قرع غريغوريوس جرس المنزل الأزرق كانت السّاعة تقريبًا تُشير إلى الرّابعة.

المرأة التي فتحت له الباب تبدو في الخمسين من عمرها.

«أنا كلوتيلد، الخادمة»، قالت.

مرَّرت في شعرها الرّماديّ يدًا موسومة بعمرٍ كاملٍ من الأعمال المنزلية وتفحَّصت جديلتها.

«السّيدة تنتظرك في قاعة الجلوس» قالت وهي تسبقه إلى الدَّاخل.

كما هو الحال في زيارته الأولى للمنزل، وقع غريغوريوس أسير فخامة الصَّالون وأناقته. وقع نظره على السّاعة الحائطيّة التي توقَّفت عقاربها في تمام السَّاعة السَّادسة وثلاثٍ وعشرين دقيقة. كانت أدريانا جالسةً. واليوم أيضًا كان المكان يعبق برائحةٍ حادّة لعلّها رائحةُ دواءٍ أو عطر.

«لقد تأخَّرتَ في المجيء»، قالت.

لقد هيّأت الرّسالة غريغوريوس إلى هذا اللّقاء الصّارم الخالي من كلمةِ ترحيب. في الوقت الذي كان يتّخذ مكانه على الطّاولة، شعر بالذهول لقدرته على استيعاب تصرُّفات هذه العجوز القاسية. كم كان من السّهل عليه أن يرى في هذا التصرُّف تعبيرًا عن الألم والوحدة!

«أنا هنا الآن». ردَّ غريغوريوس.

- «أجل»، قالت. ثمّ بعد وقتٍ طويل، ردَّدت مرّةً أخرى: «أجل».

بهدوء ودون أن ينتبه إليها أحد، اقتربت الخادمة من الطاولة. فقالت أدريانا:

-*كلوتيلد ضعي الجهاز.*

عندها فحسب، لمح غريغوريوس الجهاز. كان عبارةً عن آلةِ تسجيلٍ عتيقة، وحش بإسطوانات أكبر من الصّحون. سحبت كلوتيلد الشريط عَبْر فتحةٍ إلى جانب زرِّ التحكُّم في الصّوت وثبَّتته في الإسطوانة الفارغة ثمّ ضغطت على الزرّ فبدأت الإسطوانات في الدَّوران.

ثمّ خرجت.

خلال وقتٍ قصير، لم يكن يُسمع إلاَّ صوت طقطقة واحتكاك. ثمّ صوت امرأة تقول: «*لماذا لا تقول شيئًا؟*».

لم يفهم غريغوريوس شيئًا بعد، لأنّ ما كان يصدر عن الجهاز في تلك اللّحظة، كان بالنّسبة إلى أذنيه خليطًا فوضويًا من الأصوات يطغى عليها أزيزٌ حادّ، على الأرجح أنّه نشأ نتيجة استعمال أخرق لمكبِّر الصّوت.

«أماديو!»، قالت أدريانا عندما انفصل صوتُ رجلٍ عن الضوضاء. بحَّةُ صوتها المعتادة أصبحت أكثر حدّةً عندما لفظت الاسم. رفعت يدها

إلى رقبتها وأطبقتها على الوشاح المخمليّ الأسود، لكأنّها كانت تريد أن تضغط عليه بشدّة أكبر ليلتصق بجلدها. وضع غريغوريوس أذنه على مكبِّر الصّوت، فوجد الصّوت مختلفًا عمّا تخيّله. إذ سبق أن حدّثه الأب بارتولومو عن صوتٍ جهوريٍّ، وها هو الآن يستمع إلى صوتٍ مُنغَّم لكنْ له نبرة حادّة. يبدو أنّ بإمكان هذا الرّجل أن يتكلّم بصفاءٍ قاطع، ولعلّ ذلك حدث فقط لأنّ الكلمات الوحيدة التي فهمها غريغوريوس كانت: «*لا أريد؟*» *não quero*.

«فطيما». همست أدريانا عندما انفصل صوتٌ آخر عن الضّوضاء. الطريقة المترفِّعة التي نطقت بها الاسم كانت تقول كلّ شيء. فطيما كانت مزعجة. ليس فقط في هذه المحادثة وإنّما في كلّ محادثة. لم تكن تستحقُّ أماديو، لقد استولت على شقيقها المحبوب بطريقةٍ غير مشروعة. وكان من الأفضل لو أنّها لم تدخل حياته.

كانت فطيما تملك صوتًا ناعمًا وقورًا ومن الواضح أنّه لم يكن من السّهل عليها أن تفرض نفسها. هل في هذه الرقّة دعوةٌ إلى الإنصات إليها بانتباه وصبر استثنائيَّيْن؟ أم أنّ الضّوضاء الخلفيَّة هي التي تبعث فينا هذا الإحساس؟ لم يكن أحدٌ يقاطعها، وفي النّهاية كان الآخرون يتجاهلون ما كانت تقوله.

«كانوا جميعًا يكنُّون لها احترامًا كبيرًا، احترامًا لعينًا...»، قالت أدريانا، وفطيما ما تزال تتحدّث. «لكأنّ لثغتها كانت قدَرًا رهيبًا يغفر كلّ شيء، بما في ذلك رجعيّتها الدينيّة، وببساطةٍ كلّ شيء».

لم يسمع غريغوريوس اللّثغة التي تحدّثت عنها أدريانا، لقد ضاعت في ضوضاء التشويش.

الصّوت الموالي هو صوت ميلودي. كانت تتكلّم بسرعةٍ جنونيّة، وكأنّها تنفخ عمدًا في مكبّر الصّوت وتقطع حديثها بضحكةٍ مجلجلة. في الأثناء ظلّت أدريانا تنظر عبر النافذة وهي تشعر بالاشمئزاز. وعندما سمعت صوتها هي، مدَّت يدها نحو الزرّ وأوقفت الجهاز.

أخذت أدريانا تتأمَّل الجهاز الذي كان يعيد الماضي إلى الحاضر لبضع دقائق. إنّها النظرةُ نفسُها التي شاهدها بها يوم الأحد، حين رمقت كتب أماديو وتحدّثت إلى شقيقها الميّت. سبق أن استمعت لهذا التسجيل مئات المرّات أو ربّما آلافًا. فهي تحفظ كلّ كلمة، كلّ طقطقة، وكلّ صرير وأزيز. لكأنّها ما تزال جالسة مع الآخرين هناك في منزل العائلة الذي أصبحت تسكنه ميلودي. لماذا إذن تتكلّم في زمنٍ آخر غير الحاضر أو باستعمال صيغة من صيغ الماضي تشير إلى أن كلّ شيء حدث وانقضى؟

«لم نصدّق أعيننا عندما جلبت ماما الجهاز إلى المنزل. لقد كانت غير قادرة على استعمال أيّ جهاز. عاجزة عن ذلك تمامًا. إنّها تخاف من الأجهزة. لذلك يذهب في اعتقادها دومًا أنّها ستكسر كلّ شيء. وها هي تجلب بالفعل آلة تسجيل، إحدى أوّل الأشياء التي كان باستطاعتنا اقتناؤها.

«كلاّ، كلاّ، قال أماديو عندما تحدّثنا في الأمر لاحقًا. لم تكن تطمح إطلاقًا لتخليد أصواتنا. الحقيقة شيء آخر مختلف تمامًا: هي تريد أن نوليها الاحترام من جديد».

«لقد كان على حقّ. الآن وقد توفّي أبي وانتقلت العيادة إلى هنا، من الطبيعيّ أن تبدو لها حياتها شاغرة. ريتا دائمة التجوال ونادرًا ما تزورها. مؤكّد أن فطيما تزورها كلّ أسبوع لكنّ هذا لم يكن يهوّن

على ماما إلاّ قليلًا».

«إنّها تفضّل رؤيتك». قالت فطيما لأماديو عند عودتها. لكنّ أماديو لا يرغب في ذلك مطلقًا. لم يكن يبوح بهذا، لكنّني كنت أعرف أنّه جبانٌ عندما يتعلّق الأمر بماما: إنّها نقطة ضعفه الوحيدة التي لولاها لما انسحب من مواجهةِ أيِّ ظرفٍ صعب، ولا أيّ ظرفٍ مهما يكن».

رفعت أدريانا يدها إلى رقبتها وبدت وكأنّها تتهيّأ لكشف السرّ خلف الوشاح المخمليّ. حبَس غريغوريوس أنفاسه لكنّ اللّحظة مرَّت بسلام، وعادت أدريانا تحدّق إلى ماضيها الحاضر.

هل باستطاعته الاستماع مرّةً أخرى إلى ما كان يقوله أماديو على الشريط؟ سألها غريغوريوس.

«لا أستغرب هذا». وبدأت أدريانا تُعيد كلّ كلمة من حديث أماديو عن ظهر قلب. كان أكثر من تكرار بسيط لكلام أماديو، أكثر من محاكاة قد ينجح في أدائها ممثّل بارع في لحظة إلهام. كان التشابه كبيرًا جدًّا، مُذهلًا. أدريانا كانت أماديو!

فهم غريغوريوس مُجدّدًا معنى *كلمة não quero*. وتمكّن أيضًا من فهم عبارة أخرى: «الاستماع إلى صوتي من الخارج» *ouvir a minha voz de fora*.

بعد أن انتهى الشريط شرعت أدريانا في الترجمة. أن يكون كلّ ذلك ممكنًا، فهذا لا يثير استغرابه، قال برادو. كان يعرف المبدأ من وجهة نظر الطبّ. *ولكن لا أحبّ أن يحدث الأمر ذاتُه مع الكلمات*. لم يكن يحبّ أن يسمع صوته من الخارج. ولا كان يريد أن يعرِّض نفسه لهذا الأمر. كان يجد نفسه سمجًا بما فيه الكفاية. ومن ثمّ تترسّخُ أيّ كلمة ينطقها وتصبح

ذات أهمية كبيرة: نحن في العادة نتكلّم مع الوعي التحرريّ بأنّ أغلب ما نقوله سوف يُنسى. وهو يجد مجرّد التفكير في أنّ كلّ شيء مسجّلٌ أمرًا مرعبًا، كلّ كلمة طائشة، كلّ سوء تصرّف. كلّ هذا يذكّره بثرثرة الربّ.

«قال كلّ ذلك همسًا»، قالت أدريانا. «ماما لا تحبّ أن نتكلّم على هذا النّحو وهذا يُشعر فطيما بالإحباط».

الآلة تَحُول دون حريّة النّسيان. هذا ما كان يقوله برادو أيضًا. «ولكن أنا لا ألومكِ ماما، فهذا ممتع أيضًا. لا يجب أن تأخذي ولدك الشّديد الذكاء على محمل الجدّ دومًا».

«اللّعنة ! انفجرت أدريانا غاضبةً، لماذا تعتقد دومًا أنّه يجب عليك أن تخفِّف عنها وتسحب كلّ ما كنت تقوله للتوّ، في حين سبق لها أن عذّبتك كثيرًا بأساليبها النّاعمة؟ لماذا لا تستطيع ببساطة أن تتمسَّك برأيك هنا مثلما تتمسّك به *دومًا في مكان آخر؟* ».

ومع ذلك هل بإمكانه أن يستمع مرّةً أخرى إلى الشريط؟ رجاها غريغوريوس. أثَّر فيها طَلَبُه. وعندما لفَّت الشريط في الاتّجاه المعاكس، كان وجهُها شبيهًا بوجهِ طفلةٍ مندهشة وسعيدة برؤية الكبار وهم يجدون أيضًا أهمِّيةً في ما تفعله.

استمع غريغوريوس إلى كلمات دي برادو مرَّاتٍ ومرَّات. وضع الكتاب المرفق بصورة برادو على الطاولة، واستمع إلى الصّوت وهو يُحدّق في الوجه حتّى تملَّكه تمامًا. ثمّ رفع عينيه إلى أدريانا وانتابه شعور بالفزع. من المؤكّد أنّها لم تكفَّ عن النظر إليه وانبسطت أساريرها واختفى منها كلُّ أثرٍ للصَّرامة والمرارة ولم يبقَ إلاّ التّعبير عن ترحيبها بغريغوريوس في عالم حبّها لأماديو وإعجابها به. «كن على حذرٍ، أقصد

مع أدريانا». هذا ما نصَحَتْه به ماريانا إيسا في السّابق.

«تعال»، قالت أدريانا، أرغب في أن أُطلعك على المكان الذي نعمل فيه».

كانت خطوتها وهي تسبقه إلى الطابق الأرضي أكثر ثقةً وسرعة من السّابق. لقد كانت ذاهبة لزيارة شقيقها في عيادته، فهُم يحتاجون إليها هناك لأمرٍ مستعجل، *«من يتألّم أو يشعر بالخوف لا يمكنه أن ينتظر»* هذا ما اعتاد أماديو على قوله. بيدٍ واثقة وضعت المفتاح في القُفل وفتحت جميع الأبواب وأشعلت الضوء في أرجاء المكان.

هنا عالج برادو آخر مرضاه قبل إحدى وثلاثين سنة. لقد فرش على طاولة الفحص غطاءً جديدًا من الورق. وعلى الطاولة الصّغيرة المخصَّصة للأدوات، وُضعت حُقنٌ لم نعد نستعملها اليوم. في وسط المكتب، ملفّ المرضى مفتوح على إحدى الجذاذات الموضوعة بشكلٍ مائل تُحاذيه سمّاعة الطبيب. وفي سلّة المهملات سدّادات قطنية ملطَّخة بدماء قديمة، ميدعتان بيضاوان معلّقتان على الباب، ولا أثر لذرَّة غبار.

تناولت أدريانا إحدى الميدعتين من المشجب وارتدتها: «ميدعته معلّقةٌ دومًا على اليسار، فقد كان أعسر». قالت وهي تُغلق أزرار ميدعتها.

بدأ غريغوريوس يخشى عليها من الضياع في الماضي الحاضر إذ كانت تتحرَّك في تلك اللّحظة مثل مُسَرْنَمٍ. ولكنّنا لم نصل بعدُ إلى هذه الدّرجة. فتحت خزانة الأدوية وتفقَّدت محتوياتها وقد انبسطت أساريرُ وجهها الذي بدأ يتَّقد حماسًا للعمل.

«المورفين نفد تقريبًا، يجب أن أتّصل بجورج»، قالت هامسةً.

أغلقت باب الخزانة، مرَّرت يدها على الورق الذي يُغطِّي طاولة الفحص، وأعادت بطرف قدمها الميزان إلى مكانه ثمّ تفقَّدت المغسلة وظلّت بعد ذلك واقفةً أمام المكتب حيث وُضع الملفّ. ودون أن تلمس الجذاذة الموضوعة بشكلٍ مائل، أو تنظر إليها، بدأت تتكلّم عن المريضة:

«لماذا ذهبَتْ لزيارة تلك السفّاحة، تلك المجهِضة؟ حسنًا هي تجهل كم كان هذا مرعبًا بالنّسبة إليّ. ولكن الكلّ يعلم أنّها في مثل هذا الظرف تعتبر في أيدٍ أمينة مع أماديو. فليذهب القانون إلى الجحيم إذا كانت حالةُ امرأةٍ حرجة تتطلَّب ذلك. إتِلفينا ما تزال طفلة. بالتأكيد، هذا مستحيل. الأسبوع المقبل، قال أماديو، سنقرّر ما إذا كانت ستتابع علاجها بالمستشفى».

«كانت شقيقته الكبرى قد أجهضت وشارفت على الهلاك». وكان صوت يوحنّا إيسا وهو يلفظ هذه الكلمات مايزال يتردّد صداه في أذني غريغوريوس. وقد أصبح الأمرُ مزعجًا. هنا، في الأسفل، بدأت أدريانا تغوص عميقًا في الماضي أكثر من ذي قبل، وهي فوق، في غرفة أماديو. هناك يوجد ماضٍ لم تكن تستطيع مرافقته إلاّ ظاهريًّا. وبطباعتها الكتاب فقد شيّدت لاحقًا نصبًا تذكاريًّا لذلك الماضي. ولكنّها عجزت عن الوصول إلى شقيقها عندما جلس فيما مضى إلى مكتبه وهو يدخّن ويشرب القهوة، ممسكًا بالقلم القديم بين يديه، وكان غريغوريوس متأكّدًا من أنّها كانت تحترق من الغيرة أمام عزلة هذه الأفكار. أمّا هنا، في غرف العيادة فقد كان الأمر مختلفًا. إذ كانت تسمع كلّ ما يقوله وتتكلّم معه بخصوص مرضاه، وتقدِّم له يد المساعدة. هنا كان لها وحدها. خلال عدّة سنواتٍ كان هذا المكان يمثّل محوَر وجودها وحاضرها الأكثر

حياةً. لذلك أصبح وجه أدريانا في تلك اللّحظة أكثر شبابًا وجمالًا، على الرّغم من آثار السّنين الماضية عليه، أصبح يُعبِّر عن رغبة في البقاء في هذا الحاضر إلى الأبد واستحالة مغادرة أبديَّةِ هذه السّنوات السّعيدة.

حان وقت صحوها الآن. كانت أصابع أدريانا تتفحَّص بحركاتٍ مرتبكة أزرار ميدعتها. وبدأ بريق عينيها ينطفئ وبشرة وجهها المسترخية تترهَّل وهجرَ المكانَ نعيمُ السّنوات الماضية.

لم يكن غريغوريوس يرغب في أن تصحو وتعود إلى عزلة حياتها الباردة حيث ينبغي على كلوتيلد أن تشغِّل آلة التّسجيل من أجلها. ليس الآن، سيكون هذا قاسيًا جدًّا. عندها غامر بسؤالها: «رُوِي لوِيسْ موندز، هل عالجه أماديو هنا؟».

لكأنَّه تناول حقنةً من فوق الرفّ وحقنها بمخدّرٍ تغلغل في عروقها الدّاكنة بسرعةٍ جنونيَّة. سرَت في جسدها موجةٌ من العاطفة وارتعش الجسد النحيل للحظةٍ كأنّما اعترته الحمّى وأصبحت تتنفّس بصعوبة. شعر غريغوريوس بالخوف ولعن فظاظته، غير أنّ الاختلاجات سرعان ما هدأت، وتصلَّب جسد أدريانا واستعادت نظرتُها المتذبذبةُ حِدّتَها وسارت نحو طاولة الفحص. كان غريغوريوس ينتظر أن تسأله من أين سمع بموندز لكنّ أدريانا عادت إلى الماضي منذ وقتٍ طويل.

بسَطت يدها على الورق الذي يُغلّف طاولة الفحص. «كان هنا، هنا تمامًا، أراه مستلقيًا، لكأنّ بضع دقائق فقط قد انقضت منذ ذلك اليوم».

وبدأت تتحدّث. فقدت الغرف طابعها المُتْحَفيّ وعادت إليها الحياة بفضل القوّة والعاطفة المنبعثتيْن من كلمات أدريانا، واجتاحت حرارة ذلك اليوم البعيد العيادةَ من جديد، ففي ذلك اليوم قام أماديو إيناسيو

دي ألمابيدا برادو، عاشق الكاتدرائيّات والعدوّ اللّدود لكلّ شكلٍ من أشكال القسوة، بفعلٍ سيلتصق به إلى الأبد، فِعْلٍ لم يتمكّن حتّى بذكائه الحادّ من تجاوزه ولا وضع حدٍّ له. وظلّ جاثمًا مثل ظلٍّ لاصقٍ على السّنوات الأخيرة من حياته المتوهِّجة.

حدث ذلك في يوم حارٍّ ورطب من شهر أوت سنة 1965، قبل عيد ميلاد برادو الخامس والأربعين بقليل. في شهر فيفري تمّ اغتيال أمبرتو دالغادو، مرشَّح المعارضة اليساريّة المعتدلة في الانتخابات الرئاسيّة لسنة 1958 عندما كان يحاول العودة من منفاه في الجزائر عبر الحدود الإسبانية. وأُلقيت مسؤولية الاغتيال على عاتق الشرطة الإسبانيّة والبرتغاليّة. ولكنّ الجميع كان على اقتناع بأنّ الشرطة السريّة هي من كانت وراء ذلك. فهي التي تراقب كلّ شيءٍ منذ أن أصبحت شيخوخة أونطونيو دي سالازار شأنًا عامًّا. ووقع في لشبونة تداول منشورات طُبعت بطريقةٍ غير مشروعة كانت تتّهم المشتبه به رُوِي لويس موندز، ضابط الشرطة السريّة.

«سبق أن وجدنا نحن أيضًا إحدى هذه المنشورات في صندوق الرّسائل. قالت أدريانا. وقتها تأمّل أماديو صورة موندز طويلًا كما لو أنّه يريد إبادته بنظرة. ثمّ قام بتمزيق الورقة إلى قطع صغيرة وألقاها في الحمّام».

كان الوقتُ بداية الظهيرة، وعلى المدينة تجثم حرارة صامتة وثقيلة. استلقى برادو ليأخذ قيلولةً تدوم نصف ساعة كما هي عادته كلّ يوم. إنّها الفترة الوحيدة من دورة النهار واللّيل التي كان ينعم فيها بالنّوم دون جهد. خلال تلك الدقائق، كان ينام نومًا عميقًا خاليًا من الأحلام، في

صَمم عن كلّ ضجيج، وعندما يوقظه أحدهم، يظلّ للحظةٍ مضطربًا وذاهلًا. وكانت أدريانا تسهر على هذه اللّحظة كما لو أنّها في محراب.

لم يكد أماديو ينام حتّى سمعت أدريانا صراخًا حادًّا في الطريق مزّقَ صمت الظهيرة، فسارعت إلى النافذة. أمام باب المنزل المجاور، كان هناك رجلٌ ممدَّدٌ على الرّصيف. والنّاس الذين يحيطون به ويحجبون الرؤيا أمام أدريانا يتبادلون الصّراخ والإشارات بطريقةٍ وحشية. بدا لأدريانا أنّ امرأةً كانت تضرب بطرف قدمها الجسد الملقى على الأرض. نجح رجلان قويّان في تفرقة الحشد ورفعا الرّجل وحملاه حتّى مدخل عيادة برادو. عندها فقط، عرفت أدريانا من يكون وتوقّف قلبها: لقد كان موندز، رجل المناشير السياسيّة الذي كُتب تحت صورته: جزّار لشبونة.

«في تلك اللحظة تنبَّأتُ بما سيحصل بالضبط. عرفتُه بكامل تفاصيله، لكأنّ المستقبل قد انقضى، لكأنّه هيمن على خوفي مثل حدث ماضٍ لم يكن له إلاّ أن يتمدّد في الزمن. كنت أعرف أن السّاعات القادمة ستمثّل شرخًا عميقًا في حياة أماديو وأنّها ستشكّل أكبر محنة سيكون عليه تجاوزها: حتّى هذا كان يلوح أمام عينيّ بوضوح مرعب».

كان الرّجلان اللّذان يحملان موندز يقرعان جرس الباب مثل مجنونَين. وبدا لأدريانا أنّ هذا القرع الحادّ أخذ يتكرّر باستمرار ويزيد إلى حدٍّ لا يُطاق في وحشية الديكتاتوريّة التي تمكّنوا إلى حدِّ ذلك الوقت من كبتها، دون أن يخفوا إحساسهم بالذنب، هذه الدكتاتوريّة التي كانت مع ذلك تسلك طريقًا في الصّمت الأنيق والأثير لمنزلها: خلال ثانيتين أو ثلاث، فكَّرَتْ في عدم الإتيان بأيّ شيءٍ ولا حتّى الحركة. ولكنّها كانت

تعلم مسبقًا أنّ أماديو لن يغفر لها هذا الأمر، ففتحت الباب وذهبت لتوقظه.

«لم يقل كلمة واحدة، فقد كان يعرف أنّني لن أوقظه لو لم يكن الأمر متعلّقًا بمسألةِ حياةٍ أو موت. قلت ببساطة: «في الأسفل». نزل الدرج راكضًا مترنّحًا بقدمين حافيتين، وأسرع نحو المغسلة فغمر وجهه بالماء البارد ثمّ اتّجه صوب الطاولة حيث كان موندز ممدَّدًا.

بقي للحظةٍ متجمّدًا في مكانه، لثانيتين أو ثلاث، مُكتفيًا بالنظر دون أن يجرؤ على تصديق ما يحدث، شاحب الوجه، منهارًا، تعلو جبينه حبّات عرق دقيقة. استدار نحوي وكأنّه كان ينشد الموافقة في نظرتي. أومأتُ برأسي موافقة. بعد لحظةٍ، خبّأ وجهه بيديه وفجأةً سرَت رعدة في جسده كلّه. فمزّق قميص موندز بكلتا يديه حتّى تناثرت أزراره. ووضع أذنه على صدره الغزير الشعر، ثمّ استعمل السّماعة التي ناولته إيّاها.

«ديجيتالين!».

«لم يقل إلاّ هذه الكلمة. وحمَّل صوته المهموم كلّ الكره الذي كان يكتمه، الكره الشبيه بخنجرٍ لامع. وبينما كنت أحضِّر الحقنة كان هو يدلِّك قلب موندز وسمعت صريرًا خفيًّا عندما تحطَّمت الأضلع.

عندما ناولته الحقنة التقت نظراتنا في رمشة عين. لكم أحببته في تلك اللّحظة ! بقوّة إرادته الخياليّة، كان يقاوم رغبته في ترك هذا الرّجل يموت ممدّدًا هنا، الرّجل الذي كانت يداه ملطَّختين بجرائم التعذيب والقتل، واختصر في جسده الضخم والمتعرِّق كلّ قسوة الحكم الاستبداديّ في البلاد. كم سيكون هذا سهلًا! سهلًا بشكلٍ لا يصدّق! بضع ثوانٍ من الهمود ستكون كافية! لا نفعل شيئًا ببساطة. لا شيء !

«في الحقيقة بعد أن طهّر موقع الإصابة في صدر موندز تردّد وأغمض عينيه. لم يسبق لي أبدًا أن رأيتُ كائنًا بشريًّا يهزم نفسه بهذه الطريقة. ثمّ فتح عينيه وغرز الإبرة في قلب موندز مباشرةً. كان ذلك شبيهًا بضربةٍ قاضية، وكنت أرتعش. كانت يده تعكس الثقة المذهلة التي يحقن بها كلّ إبرة، لكأنّ الأجساد البشريّة في لحظاتٍ مشابهة قد خُلقت في نظره من زجاج. دون أدنى رعشة، بانتظام استثنائي، كان في تلك اللّحظة يحقن المخدّر في عضلة قلب موندز كي يعيد إليه الحياة. وعندما سحب الحقنة أخيرًا اختفت من ملامحه كلّ مظاهر العنف. بعد ذلك وضع شريطًا لاصقًا في موضع الحَقن وأنصت إلى دقّات القلب بالسّمّاعة. ثمّ نظر إليّ وأومأ برأسه قائلًا: «سيّارة الإسعاف».

«أتوا وحملوا موندز على نقّالة. على عتبة الباب استعاد وعيه، فتح عينيه فالتقت نظرته بنظرة أماديو. ذُهِلْت أمام كلّ تلك الحِرفية التي كان شقيقي يرمقه بها. قد يكون ذلك بسبب الإرهاق أيضًا. على كلّ حال، استند إلى الباب كشخص انتهى للتوّ من اجتياز أزمةٍ صعبة ولم يعد يرغب إلاّ في الاستمتاع بالهدوء.

«لكن حصل العكس. أماديو لم يكن يعرف شيئًا عن النّاس الذين تجمّعوا من قبلُ حول الرّجل الملقى على الأرض. وقد نسيتُهم أنا نفسي. كانت الصدمة غير متوقّعة أيضًا، إذ سمعنا فجأةً أصواتًا هستيريّة تصرخ: *خائن! خائن!* مؤكّد أنّهم رأوا موندز وهو حيّ فوق نقّالة المرّضين. إنّهم يصرخون بغضبٍ في وجه الرّجل الذي انتزعه من موتٍ يستحقّه، كانوا يعتبرونه خائنًا أنقذه من عقابٍ عادل.

«ومثلما حدث في لحظة تعرُّفه إلى موندز، خبّأ أماديو وجهه بين يديه.

ولكنّه فعل ذلك ببطء. وإذا قام بهذه الحركة في السّابق ورأسه إلى أعلى فقد كان في تلك اللّحظة يخبّئه خلف يديه. لا شيء سيُعبِّر، أفضل من هذا الانحناء، عن التعب والحزن اللّذيْن كان يرى عبرهما ما يمكث في انتظاره.

«ولكن لا الإرهاق ولا الحزن باستطاعتهما أن يشوِّشا ذهنه. إذ تناول من المشجب بحركةٍ واثقة الميدعة البيضاء التي لم يجد الوقت ليلبسها وقام بارتدائها. لم أدرك الثقة العمياء الكامنة في هذه الحركة إلاّ لاحقًا. لقد كان يعلم دونما تفكير أنّ عليه أن يواجه النّاس بوصفه طبيبًا، وهُم سيرون ذلك بشكلٍ أفضل لو ارتدى اللّباس المناسب.

«عندما لاح على العتبة، خمدت الأصواتُ وظَلّ للحظةٍ واقفًا هناك، مُحدِّقًا إلى الأرض ويداه في جيوب ميدعته. كان الجميع ينتظر أن يقول شيئًا ما ليدافع به عن نفسه. رفع أماديو رأسه ونظر إلى الجموع. شعرتُ بأنّ قدميه العاريتين لم تكونا تقفان على الأرض هكذا ببساطة وإنّما كانتا متجذِّرتين فيها.

أنا طبيب. قال، وردَّدها مرّةً أخرى متوسَّلًا إليهم: أنا طبيب.

تعرَّفتُ إلى ثلاثة مرضى أو أربعةٍ من الجيران وهم ينظرون إلى الأرض بارتباك.

وقاتل! صاح أحدُهم.

وسفّاح! صاح آخر.

رأيت كتفَيْ أماديو ترتفعان وتنخفضان. كان يتنفّس بصعوبة.

«لكنّه بشر، *إنسان*»! قال بصوتٍ عالٍ وواضحٍ. ودون شكٍّ كنت

الوحيدة التي سمعته. فأنا أعرف طبقات صوته من الرّعشة الخفيفة حين ردَّد: *«إنسان»*.

بعد ذلك مباشرةً قام أحدهم برشقه بحبّة طماطم على الميدعة البيضاء. أعتقد أنّها المرّة الأولى والوحيدة التي يهاجم فيها شخصٌ مّا أماديو جسديًّا. لا أستطيع الحديث عن تأثير هذا الاعتداء، عمّا سيحصل له فيما بعد، وإلى أيّ حدّ أصابته هذه الحادثة برجّةٍ عميقة. ولكن أفترض أنّ هذا لا يقارن بما سيأتي، إذ انفصلت امرأة عن الحشد، تسمَّرت أمامه وبصقت على وجهه.

لو لم تبصق عليه إلاّ مرّة واحدة، لاعتبر ذلك ردّة فعل مختصرة ونهائيّة، انتفاضةً من تلك الانتفاضات الغاضبة التي لا يمكن كبْتُها. لكنّ المرأة بصقت مرّاتٍ ومرّاتٍ. كانت كما لو أنّها تبصق روحها خارج جسدها وتُغرق أماديو.

«تحمَّل هذه الهجمة الجديدة وعيناه مغمضتان. من المؤكّد أنّه تعرَّف مثلي تمامًا إلى هذه المرأة. لقد كانت زوجة مريض سبق أن رافقه في مرضه بالسرطان لعدّة سنواتٍ، وكان يزوره في منزله باستمرار دون أن يتقاضى قرشًا واحدًا. *أيّ جحودٍ هذا!* قلت في نفسي بدايةً. ولكن سرعان ما لمحتُ في عيني المرأة الألم واليأس المنبثقين من خلف الغضب، وعندها فهمت كلّ شيء: لقد كانت تبصق على وجهه لأنّها مدينة له بكلّ ما فعله من أجلها. لقد كان فيما مضى بطلًا، ملاكًا حارسًا، رسولًا إلهيًّا، ساندها في ظلمة المرض حيث كان يمكن أن تضيع لو تُركت وحيدةً. وهو نفسه، هو تحديدًا، من قطع الطريق أمام العدالة التي تقتضي موت موندز. هذه الفكرة أجَّجت ثورةً عنيفة في نفس هذه المرأة القبيحة والحمقاء نوعًا

مّا، ثورة لم يكن بإمكانها الخلاص منها إلاّ بهيجان كلّما طال اتّخذ عظمةً أسطوريةً، ومعنًى كان يتجاوز أماديو إلى حدٍّ بعيد.

«تفرَّق الحشد عندما شعر النّاس بأنّ أحدَهم قد تجاوز الحدّ، ومضوا وهم يُحدّقون إلى الأرض. استدار أماديو وسار نحوي، فمسحت وجهه بمنديل، ثمّ وضع رأسه في المغسلة وفتح الحنفية إلى أقصاها ففاض الماء وتدفَّق في كافّة الاتّجاهات. وجهه الذي تركه دون أن يجفّفه كان شاحبًا. مازلت أعتقد أنّه كان سيبذل كلّ شيء في تلك اللّحظة من أجل أن ينعم بالبكاء. كان يقف هنا، في انتظار أن تهلَّ الدّموع. لكنّها كانت ترفض المجيء. منذ وفاة فطيما قبل أربع سنواتٍ، لم يبك قَطُّ. سار بضع خطوات نحوي، وكأنّما عليه أن يتعلَّم المشي من جديد. ثمّ توقَّف قبالتي وعيناه مغرورقتان بدموع ترفض أن تسيل. أمسكني من كتفيّ بكلتا يديه وأسند جبينه إلى جبيني. وبقينا هكذا لدقيقتين أو ثلاث تقريبًا، دقائق كانت تُعَدُّ من بين أجمل اللّحظات في حياتي».

صمتت أدريانا. فقد كانت تعيش تلك الدقائق من جديد. كان وجهها يرتعش ولكنّ البكاء استعصى عليها هي أيضًا. اتّجهت نحو المغسلة، أسالت الماء في تجويف يديها وغمرت به وجهها. وبرفقٍ، مرَّرت المنشفة تحت عينيها وفوق وجنتيها وعلى فمها. لكأنّ الحكاية كانت تفرض على الرّاوية البقاء في وضعيّة ثابتة، فعادت إلى نفس المكان قبل أن تستأنف حكايتها ووضعت يدها مجدّدًا على طاولة الفحص:

«استحمَّ أماديو مرّاتٍ ومرّات ثمّ جلس إلى مكتبه وتناول ورقة وقلمًا.

«لم يحدث شيء. لم يتمكّن من كتابةِ كلمةٍ واحدة».

«كان هذا أسوأ شيء على الإطلاق، أن تكتشف أنّ الحادثة أخرسته وأنّه يوشك جرَّاءها على الاختناق.

عندما سألَتْهُ ما إذا كان يرغب في تناول شيء مّا، أومأ في ذهولٍ بالرفض. ثمّ ذهب إلى الحمَّام وغسل أثر الطماطم فوق ميدعته. وعندما حان موعد الطعام جلس إلى الطاولة وهو ما يزال، ولأوّل مرّة، يرتدي ميدعته البيضاء، ولم يكفّ عن تمرير يده على الموضع المبلّل. انتاب أدريانا الإحساس بأنّ هذه الحركاتِ الناعمة نابعةٌ من عمقٍ كبير. لكأنّها كانت تنبع من أماديو بشكلٍ عفويّ ودونما قصد. وكان يُخيفها أن يفقد عقله أمام عينيها ويبقى هكذا إلى الأبد، هذا الرّجل بنظرته الذّاهلة، الرّجل الذي كان يحاول باستمرار أن يخلِّص ذهنه من نفاياتٍ قذفها عليه أناسٌ بذل في سبيلهم كلَّ علمه وحيويّته آناء اللّيل وأطراف النهار.

فجأةً أسرع نحو الحمّام وفمه مليء بالطعام وتقيّأ في سلسة من التشنّجات الخانقة. ثمّ قال بصوتٍ واهن: «سأذهب لأرتاح قليلًا».

«وددتُ لو أضمَّه بين ذراعيّ»، قالت أدريانا. لكنّ ذلك كان مستحيلًا. لكأنّه كان يحترق وكلّ من يقترب منه أكثر من اللاّزم سيحترق بدوره.

في اليومين الموالين، تصرّف كما لو أنّ شيئًا لم يحدث. كان متوتّرًا أكثر من العادة لا غير. وقد اكتسبت حفاوته بالمرضى شيئًا مّا خفيفًا ووهميًّا. كان من وقت إلى آخر يتوقّف عن العمل ونظرُه ذاهلٌ ومبهم كمصابٍ بالصّرع في لحظةِ غيابٍ عن الوعي. وعندما كان يذهب لفتح باب قاعة الانتظار، يبدو في حركاته شيء من التردّد، وكأنّه كان يخشى لقاءَ واحدٍ من أولئك الذين اتّهموه بالخيانة.

في اليوم الثالث، أُصيب بوعكةٍ صحيّة. وجدَتْهُ أدريانا عند الفجر وهو يرتعش أمام طاولة المطبخ. بدا وكأنّه قد شاخ ولا يرغب في رؤية أحد. ترك لها بامتنان أن تتكفّل بتسويةِ كلّ شيء وغرق في خمولٍ عميق وشبحيّ. لم يعد يحلق ذقنه ولا يهتمّ بمظهره. الزّائر الوحيد الذي كان يستقبله هو جورج، الصّيدلانيّ. ولكنّه لم يكن يُحدِّثه بشيء تقريبًا. وكان جورج يعرفه جيّدًا ليتنبّأ بما يخالجه. شرحت له أدريانا سبب هذه الحالة وأذعن جورج بإيماءةٍ من رأسه في صمت.

«بعد مرور أسبوع وصلت رسالةٌ من موندز، وضعها أماديو على الطاولة دون أن يفتحها وتركها هناك لمدّة يومين. في فجر اليوم الثّالث وضعها في ظرف دون أن يفتحها أيضًا، وأرسلها على عنوان المرسِل. أراد أن يحملها بنفسه إلى مكتب البريد، لكنّني اعترضت على ذلك قائلةً إنّ المكتب لا يفتح إلاّ عند السّاعة التّاسعة. ومع ذلك فقد ذهب في الشوارع الخالية، وهو يمسك بيده الظرف. تبعته بنظري وانتظرته أمام النافذة حتّى عاد بعد مرور ساعات. كان يسير باستقامةٍ أكثر من ذهابه في الصّباح. في المطبخ، أراد أن يعرف ما إذا كان سيتحمّل شرب فنجانٍ من القهوة. لكنّه نجح في ذلك. ثمّ حلق ذقنه، ارتدى ملابسه، وجلس إلى مكتبه.

لاذت أدريانا بالصّمت وشحب وجهُها. كانت تنظر وبصرها ذاهل إلى طاولة الفحص التي سبق أن وقف أماديو حذوها عندما غرس إبرة الإنقاذ في قلب موندز بحركةٍ شبيهة بضربةٍ قاضية. انتهت الحكاية، وتوقّفت عند ذلك الحدّ بالنّسبة إلى أدريانا أيضًا.

شعر غريغوريوس بدوره بأنّ الوقت كان يُسرق من أمامه واعتقد

أنّه تنبّأ بالضّيق الذي كانت أدريانا تعيشه منذ أكثر من ثلاثين سنة: الضيق الذي تُسبّبه ضرورة العيش في زمنٍ مُنْتِهٍ وزائل.

رفعت أدريانا يدها عن طاولة الفحص. وبدت كأنّها تفقد صلتها بالماضي الذي كان حاضرَها الوحيد. في البداية لم تعرف ماذا تفعل بيدها، ومن ثمّ وضعتها في جيب ميدعتها البيضاء. هذه الحركة أضْفت على الميدعة سمةً خاصّة تراءت لغريغوريوس على هيئة غشاءٍ سحريّ التجأت إليه أدريانا لتغيب عن حاضرها الصّامت والملّ وتُبعث في الماضي البعيد الوهَّاج. في الوقت الحاضر بعد أن انطفأ هذا الماضي، كانت الميدعة غريبةً عنها مثل ثوبٍ في مستودع أكسيسوارات تابع لمسْرحٍ مجهول.

لم يحتمل غريغوريوس هذا الغياب عن الحياة طويلًا. كان يرغب في الهروب، في الخروج إلى المدينة، في الدخول إلى مقهى يضجُّ بالأصوات والضحكات والموسيقى، في إحدى هذه الأماكن التي كان يتحاشاها عادة. ثمّ قال:

«جَلس أماديو إلى المكتب، وماذا كتب؟».

عادَ توهُّج الحياة القديمة ليعلو وجه أدريانا. ولكن بالإضافة إلى الفرحة التي غمرتها لقدرتها على العودة إلى الحديث عنه، علَتْها مسحةٌ مبهمة اكتشفها غريغوريوس شيئًا فشيئًا: لقد كانت مسحةً من الغضب، ليس غضبًا سريعًا يندلع لسببٍ تافه ويخمد مجدّدًا بسرعة. ولكنّه غضبٌ عميق ومخادع شبيهٌ بنارٍ خامدة.

«تمنّيتُ لو أنّه لم يكتب ما كتبه أو أنّه لم يفكّر فيه منذ البداية. فما خطَّه بقلمه كان شبيهًا بسمٍّ خبيثٍ تخبَّط في عروقه منذ ذلك الوقت. لقد غيَّره،

بل حطَّمه. لم يكن يريد أن يُطلعني عليه. ولكن بعد ذلك تغيَّر كثيرًا. أخذتُ الأوراق من درج مكتبه وقرأتها عندما كان نائمًا. إنّها المرّة الأولى والأخيرة التي أقوم فيها بفعلٍ مُشابه. وسرعان ما صار سُمٌّ آخر يجري في عروقي أنا أيضًا. سمّ الاحترام المجروح والثقة المحطَّمة. وبعد ذلك تغيّرت علاقتنا.

ماذا لو لم يكن صادقًا مع نفسه إلى هذا الحدّ القاسي، مهووسًا إلى هذا الحدّ بمقاومة الأوهام التي نختلقها؟ «يمكننا الاعتقاد بأنّ الإنسان قادرٌ على أن يسمع حقيقة نفسه». هذا ما اعتاد على قوله. كان ذلك مثل الجَهر بالعقيدة، وكان يربطه عَهدٌ بجورج، عقيدة قضت أخيرًا على هذه الصّداقة المقدّسة، الصّداقة الرّجيمة المقدَّسة. لم أعرف بالضّبط كيف حصل ذلك؟ ولكن كانت له علاقة بالمَثل الأعلى المتعصِّب لمعرفة الذّات وكان راهبًا الإخلاص يلوِّحان به أمامها وهما تلميذان بالمعهد مثل راية الصّليب.

سارت أدريانا نحو الجدار المحاذي للباب ووضعت عليه جبينها ويداها مضمومتان وراء ظهرها كما لو أنّ أحدًا قيّدها. لقد كانت تتشاجر في صمتٍ مع أماديو ومع جورج ومع نفسها. كانت صامدة أمام حدثٍ حتميٍّ: مأساة إنقاذ موندز التي أهدتها هذه الدّقائق الحميمة والثمينة مع شقيقها سرعان ما فسحت المجال لعمليّةٍ قلَبت كلّ شيء: مالت أدريانا بكامل جسدها على الجدار. مؤكّدٌ أنّ الضّغط على جبينها قد آلمها. ضربت الجدار بقبضتها مرّاتٍ ومرّات. عجوزٌ ترغب في أن تدير عجلة الزمن في الاتّجاه المعاكس. كان ذلك طرقًا يائسًا وخافتًا، ثورانَ غضبٍ مكتوم، وُجومًا نهائيًّا على زمن سعيد.

ضَعُفت ضرباتُ قبضتها وتباطأت أكثر فأكثر. ونضبت عاطفتُها

شيئًا فشيئًا. اتّكأت أدريانا مرّةً أخرى على الجدار وقد نال منها الإرهاق ثمّ تراجعت إلى وسط الغرفة وجلست على كرسيّ. كان جبينها مرصّعًا بحبّات الرّمل المتساقطة من حجارة الحائط. ومن وقتٍ إلى آخر كانت تنفصل حبّةٌ عن جبينها وتتدحرج على وجهها. عادت وحدّقت في الجدار، فتبع غريغوريوس تلك النظرة القابعة هناك، حيث يوجد أثر لمستطيلٍ كبيرٍ وواضح، أثر للوحة مؤكّدٌ أنّها كانت معلّقةً سابقًا في ذلك المكان.

منذ زمنٍ طويل، لم أفهم لماذا عمَد إلى نزع الخريطة، قالت أدريانا: إنّها خارطة دماغ، كانت معلّقةً هنا، على الدّوام، لمدّة أحدَ عشر عامًا، منذ أن أقمنا العيادة. كانت مليئة بالكلمات اللاّتينيّة ولم أجرؤ على سؤاله لِمَ لمْ تعد في مكانها. فهو يستشيط غضبًا عندما يُسأل على وجه الخطأ. لم أكن أعرف شيئًا عن الأنيوريسم، لقد أخفى الأمر عنّي. بقنبلةٍ موقوتة في الدماغ، لم يتحمَّل رؤية خارطة كهذه.

تفاجأ غريغوريوس بما حصل. اتّجه نحو المغسلة وتناول المنشفة وعاد نحو أدريانا ليمسح جبينها. في البداية تصلَّبت في مكانها في وضعٍ جسمانيٍّ رافض، لكن سرعان ما تركت رأسها يقع على المنشفة وهي مرهقة وممتنَّة.

«هل ستصطحب معك ما كتبه؟ سألَتْه عندما عادت إلى وعيها. لم أعد أريد أن أراه هنا في المنزل».

بينما كانت تصعد للبحث عن الأوراق التي كانت تُحمِّلها مسؤوليات عديدة، وقف غريغوريوس قرب النافذة مراقبًا الشارع، المكان الذي كان موندز مُلقى فيه، متخيّلًا نفسه في الخارج، أمام الباب، والحشد

الصّاخب يقف قبالته. حشد تنفصل منه امرأة وتبصق عليه، ليس مرّةً واحدة فقط، وإنّما مرّات عديدة، امرأة تتّهمه بالخيانة، وهو الذي لم يكن مقصِّرًا في شيء.

وضعت أدريانا الأوراق في ظرفٍ: «فكَّرتُ كثيرًا في حرقها». قالت، وسلّمتها له.

ثمّ قادته نحو الباب، في صمتٍ، وهي ما تزال ترتدي ميدعتها البيضاء. وفجأةً، وما إن تجاوز عتبة الباب حتّى سمع الصّوت القلق للطّفلة الصغيرة القادمة من الماضي: -أرجع لِيَ الأوراق، من فضْلِك، إنّها منه على أيّ حال».

أثناء سيره على امتداد الطريق، تخيَّلها غريغوريوس وهي تنزع ميدعتها البيضاء وتعلِّقها إلى جانب ميدعة أماديو ثمّ تُطفئ الضوء وتُغلق الباب بالمفتاح. وهناك في الأعلى، ستكون كلوتيلد في انتظارها.

(21)

بأنفاس متقطّعة، قرأ غريغوريوس ما كتبه برادو. في البداية تصفَّحه فقط لكي يفهم في أقربِ وقتٍ ممكن، لماذا شعرت أدريانا بأنّ أفكار دي برادو كانت لعنةً جثمت على السنوات القادمة. بعد ذلك دقَّق في كلّ كلمة وفي النهاية أعاد كتابته حتّى يتمكَّن بشكلٍ أفضل، من إدراك ما كان يعنيه هذا النصّ بالنّسبة إلى برادو:

«هل فعلتُ ذلك من أجله هو؟ هل كنت أرغب في بقائه على قيد الحياة لمصلحته؟ هل أستطيع القول بإخلاص إنّها كانت مشيئتي أنا؟ لقد كنت أتصرّف هكذا مع مرضاي أيضًا، حتّى مع أولئك الذين لا أحبهم. على الأقل، وهذا ما أتمناه، لم أكن أرغب في ضرورة التفكير في إخفاء ما أقوم به، لأسباب أخرى، غير تلك التي أعتقد أنّني أعرفها. ولكن لماذا كان الأمر مختلفًا معه بالذات؟

يبدو أنّ لِيَدي ذاكرتها الخاصة وأنا أشعر بأنّ هذه الذاكرة جديرة بالثقة أكثر من أيّ مصدرٍ آخر لاستكشاف الذات. وذاكرة اليد هذه، اليد التي غرزت الإبرة في قلب موندز، تقول لي: «لقد كانت يدَ قاتلٍ خائنٍ، وقد أعادت إلى الحياة، بحركةٍ متناقضة، الخائن الذي كان قد مات».

هنا أيضًا يتأكّد لي كلّ ما علّمتني إيّاه التجربة في مقابل طبيعة تفكيري الأصلية: أنّ الجسد أقلّ فسادًا من الفكر. الفكر هو مسرح

من الأوهام خلاَّبٌ، ننتشئه حسب رغبتنا، فهو منسوجٌ من كلمات جميلة ومُطَمئنِة توهمنا بعلاقة حميمةٍ مع ذواتنا، بمعرفةٍ قريبة وحميمة تمنعنا من أن نتفاجأ بأنفسنا. ثمّ كم سيكون مملاً، رغم ذلك، أن نحيا في يقينٍ ذاتيٍّ ممكنٍ إلى هذا الحدّ!».

هل قمت بذلك في الواقع من أجلي أنا، حتّى أكون في نظري طبيبًا جيّدًا ورجلًا شجاعًا قادرًا على صرع إحساس الكراهية فيه؟ حتّى يتمكَّن من الاحتفاء بالانتصار على نفسه والانتشاء بفرحة هذا الانتصار؟ بفخرٍ معنويّ والأسوأ من ذلك، بفخر عاديّ جدًّا؟ التجربة التي قمت بها خلال هذه الثواني القليلة، لم يكن بالإمكان الاستمتاع بها بغرورٍ طافحٍ، أنا واثق من ذلك. بل على العكس، كنت أشعر بأنّني أتصرّف ضدّ نفسي دون السماحِ لها بالإحساس بمشاعرَ يمتزجُ فيها الرضا بالسرور الخبيث. ولكن قد يكون هذا اختبارًا. ولعلّ هناك غرورًا لا نستشعره؟ ذاك الذي يختفي وراء مشاعر مضادة؟

أنا طبيب- كان هذا ردّي على الحشد السَّاخط. كان بإمكاني أن أقول أيضًا: لقد أدّيت قَسَمَ أبقراط[1]، إنّه قَسَمٌ مقدَّس، ولن أخلَّ به أبدًا، أبدًا، وتحت أيّ ظرفٍ كان. أنا أشعر بذلك: أقول هذا عن طيب خاطر.أنا أحبّ ترديد هذه الكلمات. إنّها كلمات تُحمِّسني وتشعرني بالانتشاء. هل إنّ الأمر هكذا لأنّها كلمات تشبه لفظ أُمنية كهنوتية؟ هل كان من الورع أن أعيد له، لهذا الجزار، الحياة التي فقدها؟ هل هو تصرُّفُ رجلٍ يندم سرًّا على عدم قدرته على الشعور

(1) قسم أبقراط هو نص عادة ما يقسم به الأطبّاء قبل مزاولتهم لمهنة الطبّ قديما.

بنفسه مسكونًا بالمبادئ والطقوس؟ الرّجل الذي ما يزال يتحسّر على التوهّج المقدَّس لشموع الهيكل؟ إذن لن يكون هذا عملاً «مستنيرًا»؟ هل كان هناك دون علمي، داخل روحي، صراعٌ قصيرُ المدى لكنّه عنيفٌ وشرس، بين تلميذ الكهنة القديم وقاتل الخونة الذي لم يتّخذ إلى الآن أيّ قرار؟ غرْزُ الحقنة المليئة بالسم المنقذ في القلب: هل هو عملٌ كان فيه الكاهن والقاتل متّفقيْن؟ تصرُّفٌ كانا ينالان منه ما يشتهيانه؟

لو كنت مكان إيناس سالوماو التي بصقت على وجهي، ما الذي كان باستطاعتي قوله؟

لم تكن جريمةَ قتلٍ تلك التي طلبنا منك القيام بها، إنّها ليست جريمة قتل. لا في نظر القانون ولا الأخلاق. لو كنتَ تركته يموت فلن يلاحقك أيّ قاضٍ ولن يجْرُؤ آخر على اقتيادك أمام ألواح موسى حيث كتب: لا تقتل. كلاّ، ما كنّا ننتظره منك، كان شيئًا بسيطًا جدًّا، عاديًّا وواضحًا: ألاّ تُبقي على قيد الحياة، وبكلّ ما أوتيت من قوَّة، رجلًا جلب لنا الشقاء والألم والموت، في حين أن الطبيعة الرحيمة كانت ترغب أخيرًا في أن تخلِّصنا منه، ألاّ تمكّنه من ممارسة سلطته الدموية مجدّدًا.

كيف سيكون بإمكاني الدفاع عن نفسي يا ترى؟

لكلّ شخصٍ الحق في أن نساعده في البقاء على قيد الحياة مهما كان صنيعه. إنَّ له الحق في ذلك بصفته بشرًا، له الحق في ذلك بصفته إنسانًا. ليس من حقّنا الحكم بالحياة وبالموت.

وماذا لو كان هذا يعني موت أناسٍ آخرين؟ ألن نُطلق الرصاص

على من نراه يقتل شخصًا آخر؟ ألن تمنع القاتل موندز من ارتكابِ جريمةٍ بقتله بنفسك إن اقتضى الأمر لو رأيته وهو بصدد القيام بها؟ أليس هذا أفضل مما كان باستطاعتك فعله، أيْ لا شيء؟».

كيف سيكون وضعي الآن لو أنني تركته يموت؟ لو أن الآخرين عوض أن يبصقوا على وجهي احتفوا بي من أجل صلابتي القاتلة؟ آه لو أنّ شعورًا بالارتياح سرى في الشوارع ووصل إليّ بدلاً من إحباطٍ مسمومٍ بالكراهيّة؟ أنا على يقين من أنّ هذا الأمر سيظلّ يُلاحقني حتّى في أحلامي. ولكن لماذا؟ ألأنني لا أستطيع العيش دون شيء مّا قهريٍّ ومطلق؟ أم ببساطة لأن تَركه يموت بدم باردٍ سيكشف عن تجرُّدي من ذاتي على الرغم من أنّ ما أنا عليه قد تشكّل بمحض الصدفة.

تخَيَلتُ نفسي ذاهبًا إلى منزل إيناس أطرق بابها وأقول: «لم يكن بإمكاني التصرُّف بشكلٍ مغاير. أنا هكذا. كان يمكن لهذا أن يحصل بطريقةٍ أخرى، ولكن في الواقع لم يحدث ذلك. وأنا ما أنا عليه، ولن أتغيّر». أمّا هي فيمكن أن ترد عليّ قائلة: «المسألة ليست متعلّقة بما يمكن أن تشعر به، هذا لا أهمّيّة له على الإطلاق: تخَيل فقط لو أن موندز استعاد عافيته، يلبس بذلته ويعطي أوامره القاتلة. تخيّل هذا، تخيّله جيّدًا. والآن احكم على نفسك».

بِمَ سأرد عليها؟ بِمَ؟ بِمَ؟»

«أريد أن أفعل شيئًا، هذا ما قاله برادو فيما مضى ليوحنّا إيسا. هل تفهم: يجب فعل شيء ما. قل لي ما الذي بإمكاني فعله؟».

ما الذي كان ينوي إصلاحه بالضبط؟

«أنت لم ترتكب أي خطأ»، قال له إيسا، «أنت طبيب». وذلك تحديدًا ما ردّ به على الحشد الذي كال له الاتهامات. كلمات من المؤكّد أنّه ردَّدها بينه وبين نفسه مئات المرّات. ولكنّ ذلك لم يساعد في التخفيف عنه. لقد كانت عبارةً بسيطة جدًّا، ناعمة جدًّا. كان برادو شديد الحذر أمام كلّ ما هو ناعم وسطحي، ناقدًا وعدوًّا للجُمل الجامدة كهذه الجملة: *أنا طبيب*. كان يذهب إلى الشاطئ ويتمنّى هبوبَ رياحٍ باردة بطريقة تجعلها قادرة على كنس كلّ العاداة اللغويّة المتكلّسة. وكان ذلكَ أيضًا بالنّسبة إليه عادةً تحُول دون التفكير وتنتج أوهامًا لا تتجاوز تموضعها في هذه الكلمات نفسها.

لقد رأى في موندز الملقى على الأرض رجلًا خاصًّا، متفرّدًا، رجلًا حياتُه في خطر. لم ير أمامه غير هذا الرّجل المتفرِّد. ولم يكن باستطاعته اعتبار هذه الحياة مثل شيء يجب تقييمه حسب ما يعتقده الآخرون، وهو ما يضاعف الحساب، وهذا بالضبط ما كانت تؤاخذه عليه المرأة في حواره مع نفسه: لم يفكّر في النتائج التي ستحطِّم حيوات آخرين، لم يكن جاهزًا للتضحية بفرد في سبيل عدد أكبر من الأفراد.

عندما انضمَّ إلى المقاومة، خمّن غريغوريوس، كان ذلك أيضًا ليتعلّم أسلوب التفكير ذاك. لكنّه فشل. «حياة واحدة في مقابل حيوات عديدة. لا يجب أن ننظر إلى الأمور على هذا النحو. أليس كذلك؟». هذا ما سبق أن قاله لاحقًا للأب بارتولومو. لقد ذهب لزيارة معلّمه المخلص ليثبت أن إحساسه في محلّه. ولكن على أيّ حال لم يكن بإمكانه أن يتصرّف بشكلٍ مغاير. ولهذا السّبب ساعد إستيفانيا إسبينوسا على اجتياز الحدود، بعيدًا عن أيدي أولئك الذي كانوا يعتقدون أنّه من الواجب التضحية بها لتفادي الأسوأ.

حِدَّة قسوته الداخلية التي جعلت منه ما هو عليه، لم تسمح له بتصرّفٍ مغاير. ولكن ما يزال يخامره شكّ لأنّ شبهة الغرور لم يكن بالإمكان إجلاؤها، شبهة كانت تثقل على رجل يمقت الغرور كما الطاعون.

أدريانا لَعَنتْ هذا الشك فيما مضى. لقد كانت ترغب في امتلاك شقيقها وشعرت أنّ من المستحيل امتلاكَ شخصٍ لم يكن يفهم نفسه.

(22)

«أنا لا أصدِّق!»، قالت ناتالي روبان في الهاتف. «ببساطة، أنا لا أصدّق هذا! أين أنت؟»

أخبرها غريغوريوس بأنّه في لشبونة ويحتاج إلى كتب باللّغة الألمانيّة.

«كُتب! قالت ضاحكةً. هذا غير ممكن!»

ثمّ أحصاها: أكبر معجم ألمانيّ-برتغاليّ يمكن أن يوجد، كتاب عن قواعد اللّغة البرتغاليّة مفصَّل وصعب مثل كتاب لغة لاتينيّة، دون تزويق بحجّة تسهيل تعلُّمها وآخر عن تاريخ البرتغال.

«وشيء آخر أيضًا قد لا يكون موجودًا: كتاب عن تاريخ المقاومة البرتغاليّة تحت حكم سالازار».

«لَكأنّها مغامرة»، قالت ناتالي.

«إنّها كذلك تقريبًا»، قال غريغوريوس

«*سأفعل ما بوسعي*»، قالتها بالبرتغاليّة.

في البداية، لم يفهم غريغوريوس ما قالته. ثمّ انتفض من مكانه. فمن المستحيل أن تتحدّث إحدى تلميذاته اللّغةَ البرتغاليّة. إنّه يمحو المسافة بين بيرن ولشبونة ويؤذي السحر، كلّ سحر رحلته المجنون. فلعَن اتصالها الهاتفيّ.

«أما تزال هنا؟ إذا أصابك ما قلتُ بالذهول فاعلم أنّ والدتي برتغاليّة الأصل.»

«وهو بالإضافة إلى ذلك في حاجةٍ إلى كتابٍ عن قواعد اللُّغة الفارسيَّة المعاصرة»، قال غريغوريوس، وأعطاها عنوان الكتاب الذي بلغ ثمنه ثلاثين فرنكًا قبل أربعين سنة. «إن لم تعثري عليه اقتني غيره»، قال ذلك بنبرةِ فتى صغيرٍ وعنيدٍ يرفض أن تُنتزع منه أحلامه.

ثمّ طلب عنوان ناتالي وأعطاها عنوان الفندق وأخبرها بأنّه سيرسل إليها المال عبر البريد في اليوم نفسه. وإذا بقيت عنده رغبة أخرى فإنّها ستكون حاجتَه إلى مزيدٍ من الكتب.

«هذا يعني أنّك تفتح حسابًا عندي! هذا يسعدني».

الطريقة التي تحدّثت بها سحرت غريغوريوس. فقط لو أنّها لم تتحدّث البرتغاليَّة!

وعندما خيّم الصمتُ على الخطّ قالت: «لقد تسبَّبتَ في حدوث فوضى عارمة هنا.»

لم يرغب غريغوريوس في سماع المزيد، شعُر بحاجة إلى جدارٍ من الجهل يفصل بيرن عن لشبونة. ما الذي حصل إذن؟

«لن يعود أبدًا»، قال لوسيان فون غرافنريد وسط الصمت المذهل الذي خلقه غريغوريوس عندما غادر قاعة الدرس وأغلق الباب خلفه.

فقال الآخرون: «أنت مجنون! موندوس لا يهرب بهذه الطريقة، بهذه البساطة، ليس موندوس من يفعل ذلك، هذا مستحيل!»

«أنتم لا تجيدون قراءة الوجوه»، ردَّ غرافنريد قائلاً.

لم يتخيَّل غريغوريوس أنّه قادر على كلّ هذا.

– ذهبنا إلى منزلك ودقّقنا الجرس. كدتُ أقسم أنّك في الداخل.

وصلت رسالته إلى كاجي يوم الأربعاء. وخلال كامل يوم الثلاثاء اتَّصل بالشرطة ليعرف ما إذا تلقّوا إعلانات عن حوادث. دروس اللغة اللاتينيّة والإغريقية عُلِّقت. وبقي التلاميذ في الخارج مرتبكين، جالسين على العتبات. لقد انقلب العالم رأسًا على عقب.

تردَّدت ناتالي، ثمّ قالت : «المرأة ... أعني ... وجدنا هذا الأمر مثيرًا... المعذرة»، أضافت حين لاذ غريغوريوس بالصمت.

–وماذا عن يوم الأربعاء؟

«خلال فترة الاستراحة المطوَّلة وجدنا إعلانًا معلَّقا على لوحة العرض يفيد بأنّك لن تُدرِّس حتّى إشعار آخر وأنّ كاجي سيتولّى بنفسه تقديم الدروس بدلاً منك. وجاء وفدٌ لزيارة كاجي وطلب منه تفسيرًا لما حدث. كان جالسًا في مكتبه ورسالتك أمامه. بدا مختلفًا تمامًا عن المعتاد، أكثر تواضعًا، وأكثر لطفًا، وفقدَ كلّ ما فيه من صرامة المدير. «لا أعرف ما إذا كان من حقّي القيام بهذا»، قال، ثمّ قرأ على الرغم من ذلك، قولة ماركوس أوريليوس التي استشهدت بها أنت في السابق. «هل اعتقد أنّك مريض؟»، تساءلنا. لكنَّه ظلَّ صامتًا أمام حيرتنا تلك وهو ينظر عبر النافذة: «لا أملك القدرة على معرفة ذلك»، قال أخيرًا. «ولكن في الواقع أنا لا أعتقد أنّ هذا الأمر صحيح، يبدو أنّه شعر فجأةً بشيء مّا، شيء مّا مختلف، شيء مّا سرّيٍّ وثوريّ. من المؤكّد أنّ نوعًا من الانفجار حدث بداخله في صمتٍ وغَيَّر كلّ شيء». حدَّثناه عن... عن تلك المرأة. فتابع كاجي حديثه قائلا: «أجل! أجل!». وشعرت بأنّه يُبدي شيئًا من

الغيرة. «كاجي إنسانٌ لطيف، لن أصدّق هذا»، قال لوسيان بعد ذلك، «هذا صحيح لكنّ حِصَصه مملَّة إلى حدٍّ كبير. نحن... نحن نرغب كثيرًا في عودتك».

شعر غريغوريوس بحرقة في عينيه فنزع نظّارته. ثمّ سرعان ما استعاد هدوءه وقال: «أنا... أنا لا أستطيع الآن قول أيّ شيءٍ عن هذا الموضوع».

- ولكن أنت... ألست مريضًا؟ أقصد ...

- لا... لستُ مريضًا. «بي شيء من الجنون لكنّني لست مريضًا.»

ضحكَتْ بطريقةٍ لم يعهدها غريغوريوس من قبل. لم يعد هناك أثرٌ للآنسة المهذَّبة التي كانت عليها. بدت ضحكةً مُعدِية، وضحك هو أيضًا متفاجئا بما في ضحكتها من عبثٍ غريبٍ ومجهول. ضحكًا في انسجامِ لحظةً وكلاهما يشعر بحميميَّة تجاه الآخر، ولم يكفَّا عن الضحك. منذ وقتٍ طويلٍ لم يعد سبب الضحك أمرًا مهمًّا. وحده الضحك في حدّ ذاته مهمّ. بدا ذلك شبيهًا برحلة في قطار نريد ألاّ تنتهي هزَّاته على السكك الحديديّة، هزَّاته الشبيهة بضجيج مليء بالأمان وبالمستقبل.

وعندما هدأ أخيرًا بادرت ناتالي بالقول: اليوم هو السبت، والمكتبات تفتح إلى حدود الساعة الرابعة فقط. سأذهب إليها في الحال.

- ناتالي؟ أودّ أن تظلّ هذه المحادثة سرًّا بيني وبينكِ، كأنّها لم تكن.

-*ضحكت: أيّة محادثة؟ وداعًا Alté logo.*

نظر غريغوريوس إلى غلافِ قطعة الحلوى التي أعادها إلى جيب معطفه ليلة وجوده في المعهد، الغلاف الذي تحسَّسه من جديد بين

أصابعه هذا الصباح. نزع الهاتف من الوصلة ثمّ أعاده بشكلٍ عموديّ. مكَّنته الاستعلامات من ثلاثة أرقام للقب روبان، لكنّ الرقم الثاني هو المناسب. وما إن اتصل بهذا الرقم حتّى شعر بنفسه وكأنّه يهوي من جرفٍ عالٍ في الفراغ. ليس بالإمكان القول إنّه تسرَّع أو تصرَّف وفق دافعٍ أعمى. أمسك سمّاعة الهاتف مرّاتٍ عديدة وفي النهاية أغلقها واتّجه نحو النافذة. إنّه يوم الاثنين، الفاتح من شهر مارس، يومٌ بدا فيه ضوء الصباح مختلفًا، لقد مثّل أخيرًا الضَّوءَ الذي سبق أن تخيّله والقطارُ يغادر محطَّة بيرن خلال عاصفةٍ ثلجيّة.

لا شيء يحرِّضه على الاتصال بهذه الفتاة الشابّة. والعثور على غلاف قطعة حلوى في جيب المعطف ليس مبرّرًا للاتصال المفاجئ بتلميذةٍ لم يسبق له أن تحدّث إليها بشكلٍ شخصيّ، لاسيّما أنّه هاربٌ، ومجرّد اتّصال هاتفيّ سيعني كارثةً صغيرة. هل هذا هو ما قرَّر القيامَ به حقًّا: ألاّ يحرِّضه أيُّ شيء على فعل ذلك وأن يثبِّطه كلّ شيء؟

وها قد ضحكا الآن معًا مدّةَ دقائق. وجاء ضحكهما شبيهًا باتّصالٍ خفيف، اتِّصالٍ محلّقٍ وهشّ، تماسٍّ جسديٍّ كان يتراءى له في السابق حركةً ثقيلة بل حتّى سخيفة. قرأ في الماضي مقالاً بإحدى الصحف عن رجل شرطة أفلت لصًّا خلال عمليّة نقله. «لقد ضحكنا معًا، لذا لم أستطع حبسه. ببساطة، أصبح الأمر مستحيلاً»، قال رجل الشرطة معتذرًا.

اتصل غريغوريوس بماريانا إيسا وميلودي دون أن يظفر بردٍّ. فسار في طريقه نحو البايكسا، باتجاه شارع دوس سباتيريوس، حيث يقف جورج خلف النّضد في صيدليّته طوال الوقت، وفق ما ذكره الأب

بارتولومو. إنّها المرّة الأولى التي استطاع فيها أن يترك معطفه مفتوحًا منذ وصوله. شعر بدفء الهواء على وجهه وأدرك مدى سعادته لأنّه لم يتمكّن من الاتصال بالمرأتين. ولم تكن له أيّ فكرة عمّا يمكن أن يقوله لهما.

في الفندق، سأله موظّف الاستقبال عن المدّة التي ينوي قضاءها. فأجابه: *«ليست لديّ أيّ فكرة»*. ثمّ دفع حساب إقامته الحاليّة. رافقته المرأة التي في الاستقبال بنظرها إلى الخارج، وانتبه إلى ذلك في المرآة المعلّقة على العمود. وها هو الآن يسير بخطى بطيئة نحو ساحة روسيو، متخيّلاً ناتالي روبان وهي ذاهبة إلى مكتبة ستوفاشر. هل تعلم أنّ عليها محاولةَ البحث عن كتاب النحو الفارسيّ عند هوبت في فالكنبلاتز؟

على واجهة أحد الأكشاك عُرضت خريطةٌ للشبونة يُرْمز فيها إلى كلّ الكنائس برسمٍ لهيكلها. اشترى غريغوريوس الخريطة. كان برادو- وفق الأب بارتولومو- مطّلعًا على كلّ الكنائس ويعرف كلّ شيء عنها. وقد زار بعضها في السابق رفقة الأب. «يجب هَدْمُها!»، هذا ما قاله عندما مرَّا يومًا بالقرب من أشخاصٍ جاثين على كرسيّ الاعتراف. «أيّ مهانة هذه!»

كان باب صيدليّة أوكلّي وإطار الواجهة الزجاجيَّة مطليَّيْن باللّونيْن الأخضر الداكن والذهبيّ. وفوق الباب صولجان هرمس، وفي الواجهة وُضع ميزان من الطراز القديم. عندما دخل غريغوريوس رنَّت أجراس عديدة وكوَّنت مجتمعة لحنًا ناعمًا وطنَّانًا. شعر بالسعادة لأنّه تمكّن من الاختباء بين حرفاء عديدين. وها هو الآن يشاهد ما لم يتوقّع وجوده أبدًا: صيدلانيّ يدخّن خلف النضد، وتفوح من المحلّ رائحة الدخان والأدوية. في تلك اللحظة أخذ أوكلّي يشعل سيجارةً جديدة بالطرف

المشتعل من سابقتها. ثمّ ارتشف بسرعة قهوةً من الفنجان الموضوع على الطاولة. يبدو أن لا أحد يستغرب ما يحصل. كان يشرح بصوته الشبيه بضجيج السلاسل شيئا مّا للحرفاء أو يحكي نكتة. وشعر غريغوريوس أنّه يخاطب الحرفاء دون تكلُّف.

جورج هنا إذن، الملحد العنيد، الرومنسيّ بلا أوهام، الرجل الذي احتاج إليه أماديو في تحقيق اكتماله، الرجل الذي كان تفوُّقه في الشطرنج أمرًا مُهمًّا بالنسبة إليه، رغم أنّه المنتصر دومًا، الرجل الذي بادر إلى الانفجار ضحكًا عندما بدَّد نباحُ كلبِ الصمتَ المفزعَ الذي عقب خطاب برادو التجديفيّ، الرجل الذي في وسعه أن يركل آلة الكنترباس حتّى كسْرِ قوسها لشعوره باليأس لأنّ الموهبة تنقصه. وأخيرًا، هو الرجل الذي عارضه برادو في السابق حين أدرك أنّه حكم على إستيفانيا إسبينوسا بالموت. وإن صدقت فرضيَّة الأب بارتولومو فهي المرأة نفسها التي سارت قبل سنوات إلى جانبه في المقبرة دون أن تلتقي نظراتهما.

غادر غريغوريوس الصيدليَّة وجلس في المقهى المقابل. هو يعرف أنّ كتاب دي برادو يتضمَّن مقطعًا يبدأ بالحديث عن اتصالٍ هاتفيٍّ من جورج. الآن في ضوضاء الشارع، بدأ يتصفَّح معجمه وشرع في الترجمة وهو محاط بأناسٍ يتحادثون أو يتدفَّؤون تحت أشعّة الشمس الربيعيّة وعيونهم مغمضة. والحقّ أنّه شعر بشيء مّا كبيرٍ وعجيبٍ يحدث معه. فهو يواجه الكلمة التي كُتبت وسط موسيقى الشوارع وبخار القهوة. «لكنّ بإمكانك أن تقرأ الصحيفة بشكلٍ جيّدٍ أحيانًا وأنت في المقهى»، هذا هو ردُّ فلورانس حين شرح لها أنّ النصوص بحاجة إلى جدران واقية من ضجيج العالم وأنّ أفضل الجدران على الإطلاق تلك الكبيرة

والصَّلبة لحفظ الأرشيفات الأرضيّة. «آه نعم، الصَّحيفة، لكنَّني أحدّثكِ عن النصوص»، وهذا ردّه عليها. الآن، وفي لحظة واحدة، لم يعد يشتاق إلى الجدران، وقد اختلطت الكلماتُ التي هو بصدد قراءتها بكلمات برتغاليّة يضجُّ بها المكان من حوله. كان يمكنه أن يتخيّل جلوسَ برادو وأوكلِّي في الماضي إلى الطاولة المجاورة ومقاطعةِ النادل لهما دون أن يؤثّر ذلك في مجرى حديثهما.

ظلال الموت المحيّرة

«استيقظتُ فزِعًا يملؤني شعورٌ بالخوف من الموت. وما أزال إلى الآن في حالة ذعر شديدة»، قال لي جورج في اتصالٍ هاتفيّ. كانت السَّاعة تشير إلى الثالثة فجرًا. وقد خلا صوتُه من نبرة عهدتُها في حديثه مع زبائنه في الصيدليّة، أو وهو يدعوني إلى شرب كأسٍ أو يقول ونحن نلعب جولة في الشطرنج: «إنّه دورك!» كأنّ صوته لم يرتعش بل غشيه شيء مّا، وكأنّ مشاعر قويّة مختبئة خلفه تُهدّد بالانفجار حاول السيطرة عليها بجهد جهيد.

لقد رأى في منامه أنّه فوق خشبة مسرح، جالسًا أمام بيانو ستاينواي لا ينجح في العزف عليه. منذ فترة قصيرة ارتكب، وهو العقلانيّ المسعور، حماقةً نزقة. فقد اشترى بيانو ستاينواي بالمال الذي ورثه عن أخيه المتوفّى في حادث، على الرغم من أنّه لم يعزف من قبلُ مقطوعةً واحدة على بيانو. استغرب البائع لرؤيته وهو يشير ببساطة إلى إحدى آلات البيانو اللامعة حتّى دون أن يرفع غطاء لوحة المفاتيح. ومنذ ذلك الحين، انتصبت الآلة بلمعانها الأثريّ، في مسكنه الذي أصبح منعزلاً، وبدت شبيهةً بشاهدةِ قبرٍ هائلة.

«استيقظتُ فجأةً وأدركتُ أخيرًا أنّ إتقاني العزفَ على هذا البيانو لا يزال بعيدًا عن متناول حياتي».

جلس قبالتي مرتديًا مِبذله وبدا غارقًا في كرسيّه أكثر من العادة. وأخذ يفرك في حرجٍ يديه الباردتيْن على الدوام. «مؤكّد أنّك تعتقد الآن في بداهة هذا الأمر منذ البداية. وقد عرفتُ أنا أيضًا ذلك بطبيعة الحال. ولكن كما ترى، عندما استيقظتُ، أدركتُ هذا للمرّة الأولى في الحقيقة. وأنا الآن خائفٌ جدًّا».

- سألته: ممّ أنت خائف؟ وانتظرت حتّى ينظر إليّ مباشرة، هو، سيّد النظرة الثاقبة والجريئة: «ممّ أنت خائفٌ بالضبط؟».

عبرَتْ وجْهَ جورج ابتسامةٌ خفيّة: في العادة، يجبرني هو على الدقّة والصراع بذكائه التحليليّ وحسّه الخيميائيّ في الشطرنج، فيما كنت أميل إلى ترك النهايات مفتوحةً على حيرةٍ محلِّقة.

«خائف من الألم والاحتضار». من المستحيل أن يغمر مثلُ هذا الشعور صيدلانيًّا، قلت. أمّا في ما يتعلّق بتلك التجربة المهينة لتدهور الحالة الجسديّة والنفسيّة، فقد تكلّمنا كثيرًا عن الوسائل التي يجب اتّباعها إذا فقدت القدرة على التحمّل. ما كان سبب خوفه إذن؟

-إنّه البيانو. منذ تلك الليلة وهو لا ينفكّ يذكّرني بأنّ هناك أشياء لن أجد الوقت الكافي للقيام بها. أغمض عينيه، كما هي الحال دومًا عندما يروم اتقاءَ رفضٍ صامتٍ من جهتي. «ليس للأمر علاقة بأفراح صغيرة وتافهة ومُتعٍ عابرة، كمن يشرب كأسَ ماء في يوم قائظٍ ومغبرّ. وإنّما هي أشياء نتمنّى أن نفعلها ونعيشها لأنّها

الوحيدة التي ستسمح لحياتنا هذه، هذه الحياة الخاصّة جدًّا، بأن تُشَكِّل كُلاًّ كاملاً لا يتجزّأ، ولأنّ الحياة ستبقى في غيابها ناقصة، تمثالاً غير مكتملٍ أو مجرّد جزء منه.

-في لحظة الموت، لن يكون هنا ليتألّم من هذا النقصان ويبكيه، قلت.

-«نعم، بكلّ تأكيد»، ردَّ جورج بصوتٍ منفعل كما هي العادة عندما يستمع إلى حديثٍ يبدو له تافهًا. «ولكنّ الأمر يخصّ وعيًا فوريًّا وحيًّا بأنّ الحياة ستظلّ ناقصة، مجزّأة، وخالية من الانسجام المُشتَهى. وفي إدراكنا لذلك يكمن الألم، الخوف من الموت تحديدًا».

ولكن أليس الشقاء كامنًا في أنّ حياته الآن وفي هذه اللحظة التي يتحدّثان فيها ما تزال على نقصانها الداخليّ. أليس كذلك؟

هزّ جورج رأسه. فهو لا يتكلّم عن الندم لعدم قيامه بكلّ التجارب التي يجب أن تمثّل جزءًا من حياته حتّى تكتمل. وإذا كان الوعي بما في حياته من نقصان حاليّ مصيبةً في حدّ ذاته، فإنّ على كلّ شخص أن يظلّ شقيًّا بالضرورة. الوعي بمستقبلٍ واعدٍ هو بالعكس شرطٌ من شروط حياةٍ حيّة لا حياةً فانية. فعلى ذاك الذي يؤسّس لهذا الشقاء أن يكون شيئًا آخر: أن تعلم أنّنا لن نستطيع حتّى في المستقبل القيامَ بتجارب نستكمل بها حياتَنا ونُتمُّها.

قلت: «ولكن إذا لم يكفِ عدمُ اكتمال لحظة مّا لجعلها تعيسة، فلماذا لا يجري هذا على كلّ اللحظات المسكونة بالشعور بأنّ الكمال المنشود صعب المنال؟ ومع ذلك يبدو أنّ هذا الكمال المشتهى لن يُرغَب فيه إلاّ في المستقبل، باعتباره هدفًا نصْبو إلى تحقيقه وليس حالةً نصل إليها». بمعنى آخر، أضفت قائلاً: «ما الذي يدفعنا

إلى الندم على عدم بلوغ هذا الكمال وإلى أن نجعل منه بذلك سببًا للخوف؟ والحال أنّ هذا النقص المتعلّق باللحظات الهاربة لا يُعَدُّ شيئًا وإنّما هو مُحَفِّزٌ ودليلٌ على الحيويَّة؟

-حتّى نتمكَّن من استشعار ذلك الخوف الذي استيقظْتُ مغمورا به، قال جورج، يجب أن نُسلِّم بأنّ علينا اعتمادَ وجهة نظر أخرى غير تلك المتعلِّقة باللّحظات المعتادة والمفتوحة على المستقبل: لِنُسلِّم بأنّ النقصان عيبٌ، يجب اعتبار الحياة كُلاًّ لا يتجزَّأ، بدءًا من نهايتها إن جاز التعبير، تمامًا كما هو الحال عندما نفكّر في الموت.

-لكن لِمَ على هذه النظرة أن تثير فينا شعورًا بالذُّعر؟ سألته. لّما كانت حياتك تجربةً مُعاشة فإنّ نقصها الراهن لا يُعَدُّ عيبًا. لقد كنّا متّفقَيْن على ذلك. كأنّه لا يُعَدُّ عيبًا تقريبًا إلاّ باعتباره نقصًا لن تعيشه أبدًا ولن نتحقّق منه إلاّ في ما وراء القبر... لأنّك أنت الذي ما تزال على قيد الحياة، لن تستطيع استباق المستقبل واليأس من نهايةٍ لم تبدأ بعد، من عيبٍ لم تستشعره في حياتك إلاّ من خلال هذه النهاية المتوقَّعة. وهكذا يبدو لخوفك من الموت سببٌ خاصٌّ جدًّا: نقصٌ في حياتك لن تتمكّن أبدًا من خوض تجربته.

-وددت لو أصبح أيضًا رجلاً قادرًا على استنطاق هذا البيانو وجَعْله يُصدر ألحانًا، قال جورج. أو فلْنَقُل وددتُ أن أكون شخصًا يُمكنه أن يعزف عليه منوّعات غولدبورغ لباخ. إستيفانيا كانت ماهرةً في عزفها، لقد عزَفَتْها لي أنا وحدي، ومنذ ذلك الوقت وأنا أحمل في داخلي رغبةً في عزفها أنا أيضًا. مُنذ ساعةٍ، على ما أعتقد، رافقني هذا الشعور الغامض والمبهم بأنّه ما يزال أمامي متَّسعٌ من الوقت

للتعلُّم. وحده الحلم الذي رأيتُني فيه على خشبة المسرح جعلني أستيقظ بهذه القناعة: ستنتهي حياتي دون أن أعزف المنوَّعات.

-حسنًا، قلت، ولكن لِمَ الخوف؟ لِمَ لا يكون ببساطة شعورًا بالألم، بالإحباط، بالحزن؟ أو بالغضب أيضًا؟ نحن نشعر بالخوف من شيء قادم، من شيء ما يزال مجهولاً عندنا: ولكنّ ما تعرفه بخصوص البيانو الأخرس إلى الأبد أمرٌ واقعٌ، نحن نتحدّث عنه كما نتحدّث عن وضعٍ راهن. يمكن لهذا الألم أن يستمرَّ ولكنّه عاجزٌ عن النموّ إلى حدٍّ يُثير معه خوفًا منطقيًّا من هذا النموّ. قناعتك الجديدة يمكن أن ترهقك وتخنقك، ولكنّها مع ذلك ليست دافعًا للذعر.

-إنّه سوء تفاهم، ردَّ جورج، الخوف لا يأتي من هذه القناعة الجديدة بل من الدافع إليها: إنّ أهمّيته نقصان الحياة، وهو ما يزال مجهولاً وإن كان مؤكَّدًا بصفته نقصانًا ظاهرًا، تكمن في تحويل اليقين الداخليّ إلى خوف.»

ماذا يمكن أن يعني اكتمال الحياة، هذا الذي يتعرَّق جبينك لغيابه المتوقَّع؟ فيمَ يمكن أن يتمثّل إذا فكَّرنا إلى أيّ حدٍّ تبدو حياتنا مجزَّأة ومتغيِّرة ومتقلِّبة في الظاهر كما في الباطن؟ نحن لم نخلق بطبيعة الحال في شكل قالبٍ واحد، كلاَّ، على الإطلاق. هل نحن نتحدَّث فقط عن حاجتنا إلى الامتلاء بالتجارب المعاشة حَدَّ التخمة؟ أليس ما عذّب جورج هو استحالة جلوسه أمام ستاينواي لامع ونجاحه يوما مّا في عزف موسيقى باخ كما لو أنّها تنبجس من بين يديه؟ أم هي الحاجة إلى أن يعيش كثيرًا حتّى يتمكَّن من الحديث عن حياته كأنّها كُلٌّ لا يتجزَّأ؟

بَم يتعلّق الأمر تحديدا؟ هل يتعلّق بالصورة التي تعكسها الذات؟ أم بالفكرة الحاسمة التي شكَّلتها منذ وقتٍ طويل تجاربُ كان ينبغي أن نُتمّها ونعيشها ليصبح الرِضى عن هذه الحياة ممكنًا؟ أعتقد أنّي سأمتلك هذا الخوف من الموت بوصفه خوفًا أمام «غير المنجز» امتلاكًا كليًّا في يدي، لأنّني أنا من يرسم صورةً لحياتي كما يجب أن تكون. أيُّ شيءٍ أسهلُ إدراكًا من هذه الفكرة؟ ما عليَّ سوى تغيير هذه الصورة بشكلٍ يجعل حياتي مناسبةً لها. وفكرة الموت يجب أن تختفي فورًا. وإذا استمرَّت مع ذلك في تعذيبي فهذا لأنّ الصورة لا تتولَّد من استبدادٍ نزويّ ولا تتأقلم مع أيّ تغيير وإنّما هي راسخة فيّ، نابعة منّي أنا، على الرغم من أنّ الذي اخترعها هو أنا وليس شخصًا آخر. إنّها لعبةُ قوّى بين ما أشعر به وأفكّر فيه. وهكذا سيكون باستطاعتنا توصيف الخوف من الموت باعتباره خوفًا من عدم القدرة على أن نصبح الشخص الذي صَبَوْنا إليه.

إنّ ما يثير قلقنا بشكلٍ لم يفعله شيء آخر من قبل هو الوعي الصريح بالنهاية، كالذي غمر جورج في منتصف اللّيل، أو الشعور نفسه الذي اضطررتُ إلى إثارته أحيانا عند بعض مرضاي عبر كلمات توصِّف لهم التشخيص القاتل: في الغالب ودون أن نعي ذلك، نحن نعيش لندرك كمالاً مّا، وكلّ لحظة ننجح في جعلها حيّةً، هي لحظة تستمدّ قوّتها من كونها تمثّل قطعةً من هذا الكمال المجهول. عندما يحدونا يقين بأنّنا لن نبلغ هذا الكمال أبدًا، فإنّنا نصبح فجأةً غير عارفين بكيفيّة عيش الزمن الذي لم يعد بالإمكان أن نعيشه تبعًا له. إنّها علّة هذه التجربة الغريبة والمزعجة، تجربة يقوم بها بعض

مرضاي المحكوم عليهم بالموت. إنّهم باتوا يجهلون فجأةً كيف يشغلون وقتهم مع أنّه أصبح وجيزًا جدًّا.

عندما خرجتُ إلى الشارع بعد محادثتي مع جورج، كانت الشمس مشرقة وبعضُ المارّة الذين التقيتهم يبدون، إذ ينعكس عليهم الضوء، ظلالاً من قطع ورقيّة، بشرًا بلا وجوه. جلستُ على حافّة نافذة منخفضة وانتظرت أن يكشفوا لي عن وجوههم فور اقترابهم منّي. أوّل شخص اتجه نحوي امرأةٌ تمشي مشيةً مترنّحة. وجهها الذي كنت ألمحه قبل لحظات ما يزال مُغشًّى بالنعاس، ولكن بإمكاني تخيّل أنّه سيتفتّح في نور الشمس بسهولة، وأنّها ستنظر إليها مباشرة والأمل والانتظار أمام أحداث اليوم يملآنها، وسيشعّ من عينيها أمل في المستقبل. وثاني شخص يمرّ أمامي هو رجل عجوز بصحبة كلبه. توقّف ثمّ أشعل سيجارةً وأفلت الكلبَ من العقال ليتركه يلهو في الحديقة العامّة. إنّه يحبّ الكلبَ ويحبّ حياتَهُ برفقته. ملامحُه لا تدع مجالاً للشكّ في ذلك. أمّا المرأة العجوز ذات المنديل المشبّك، وقد وصلت بعد ذلك، فبَدَت متمسّكةً بحياتها مع أنّها تمشي بصعوبة بسبب ساقيها المنتفختين. أمسكت بيدِ صبيًّا يحمل حقيبة. لعلّه حفيدها تصطحبه إلى المدرسة في أوّل يوم من الدراسة قبل الوقت المحدّد حتّى لا يضيّع هذه البداية المهمّة لمستقبله الجديد. كلّهم سيموتون، وكلّهم شعروا بالخوف حين فكّروا في ذلك؛ الموت فجأة. ولكن ليس الآن. حاولت تذكّر متاهة الأسئلة والحجج التي ضعت فيها مع جورج خلال نصف ليلةٍ كاملة، وحاولت استعادةَ الضياء الذي كان ملموسًا تقريبًا قبل أن يختفي في اللّحظة الأخيرة.

تبعت بنظري المرأةَ الشابّة التي تتمطّى والرَّجلَ العجوز الذي يلهو بقيد الكلب وهو يفيض سرورًا، والجدَّةَ العرجاء وهي تربّت على شعر الطفل. ألن يصبح ذاك الشيء الذي سبَّب لهم الخوفَ جليًّا وبسيطًا وواضحًا لو أنّهم يتلقّون في هذه اللَّحظة خبر وفاتهم الوشيكة؟ عرَّضتُ وجهي الذي أرهقه السهر لشمس الصَّباح وفكَّرتُ: إنّهم يريدون ببساطة أن يتذوَّقوا خُلاصة حياتهم سواء أكانت سهلةً أم صعبةً جدّا، شديدةَ الفقر أم الغنى. إنّهم لا يريدون أن تصل إلى نهايتها حتّى لا يجدوا بعد ذلك سبيلاً إلى الندم على الحياة التي اشتاقوا إليها، تلك التي أدركوها تمام الإدراك.

رجعتُ إلى المنزل وأنا أتساءل: أيُّ علاقةٍ بين تفكير معقّد وتحليليٍّ ويقين بديهيّ؟ في أيّ منهما علينا الوثوق أكثر؟

في قاعة الانتظار، فتحتُ النَّافذة ونظرت إلى السَّماء الزرقاء الشَّاحبة فوق الأسطح والمدافئ، وإلى الغسيل الممدود على الحبال. كيف سيبدو الأمر بعد تلك المحادثة اللَّيلية مع جورج؟ هل سنجلس وجهًا لوجه أمام رقعة الشطرنج ككل مرَّة أم سيحدث العكس؟ ماذا ستفعل بنا حميمَّية الموت؟

كانت نهاية الظهيرة عندما غادر جورج صيدليَّته بعد أن أقفلها. ومنذ ساعة شعر غريغوريوس بالبرد وظلّ يحتسي القهوة فنجانًا تلو آخر. رمى بورقة نقديَّة على الطَّاولة وتبع أوكلِّي. وعندما مرَّ أمام الصَّيدليَّة، لاحظ أنّ النور ما يزال مشتعلاً داخلها، نظر عبر الواجهة الزُّجاجيَّة: لا يوجد غير صندوق النقود، وهو مغطّى بوِقاء متَّسخ.

انعطف الصَّيدلانيّ في الزقاق. فاضطرَّ غريغوريوس إلى الإسراع في مشيته. عبرَا البايكسا من خلال شارع كونسيسياو وواصلاَ طريقَهما في حيّ ألفاما، مرورًا بثلاث كنائس تشير إلى الوقت واحدةً تلو أخرى. وفي شارع سوداد سحق جورج سيجارته الثالثة بقدمه قبل أن يدلف إلى مدخل إحدى البنايات.

عبر غريغوريوس الطَّرف الآخر من الطريق. وكانت جميع النَّوافذ مطفأة. واصل السير في تردُّدٍ ودخل إلى ردهة المدخل المظلمة. مؤكّد أنّ جورج اختفى داخلها، خلف بابٍ خشبيٍّ ثقيل لا يشبه باب شقَّة بل باب دكّان لبيع المشروبات. ولكن ليس هناك أيّ إشارة إلى وجود حانة. هل هي قاعة ألعاب؟ هل يمكن توقّع هذا من جورج؟ بعد كلّ ما عرفناه عنه؟ توقَّف غريغوريوس أمام الباب ويداه في جيبَي معطفه، ثمّ طرقه. لم يجبه أحد. وعندما حرّك مقبض الباب، بدا الأمر شبيهًا بما حدث في صباح هذا اليوم عندما اتَّصل هاتفيًّا بناتالي روبان: قفزة في الفراغ.

إنّه نادٍ للشطرنج. في غرفة منخفضة ومدخَّنة، وبإضاءة غائمة، توزَّع اللاعبون وهم رجال فقط، على عدد من الطَّاولات. وفي أحد الأركان، نُضْد وُضعت فوقه بعض المشروبات. وليس في المكان موقد. ارتدى الرجال معاطف وسترات صوفيَّة، ووضع بعضُهم قبَّعات. وكانوا جميعًا في انتظار أوكلّي. وعندما لمحه غريغوريوس خلف ستار من الضَّباب رأى شريكه يمسك بقبضتيه حتَّى يجعله يختار له القطع المناسبة. في الطاولة المجاورة جلس رجل بمفرده وهو ينظر إلى ساعته وينقر بأصابعه على الطاولة.

شَعُر غريغوريوس بالخوف. فهذا الرجل يشبه الشخص الذي شاركه سابقًا، في جورا، مباراةَ شطرنج دامت عشرَ ساعات متتالية انتهت بهزيمته. حدث ذلك ضمن مسابقة في موتييه، خلال أسبوع باردٍ من شهر ديسمبر كان الجوّ فيه على شيء من الظلمة. لكأنّ الجبال كوّنت قبَّةً فوق المدينة الصَّغيرة لتغدو شبيهةً بقلعة. الرجل، أصيل جورا، وهو يتكلَّم الفرنسيَّة مثل متخلّفٍ ذهنيّ. وَلَهُ ما للبرتغاليّ الجالس على الطاولة هناك من وجه مربَّع، وقَصَّةِ شعرٍ خشن يبدو كأنّه قُطِّع بمجزٍّ عشب، وجبينٍ منحسر وأذنين منفصلتين. وحده أنف البرتغاليّ مختلف وكذلك النظرة، نظرة سوداء كلون الغراب تحت حاجبيه الكثَّين، نظرة شبيهة بسور مقبرة.

الآن، تقع هذه النظرة على غريغوريوس. *كلاَّ ليس ضدَّ هذا الرَّجل*، قال غريغوريوس في نفسه، *قطعًا ليس أمام هذا الرَّجل*. لكنّه أشار إليه بالاقتراب. فتقدَّم غريغوريوس، وهكذا أصبح بإمكانه أن يرى أوكلّي وهو يلعب على الطاولة المجاورة وأن يراقبه من غير أن يشعر الآخر بذلك. هذا هو الثمن الذي ينبغي عليه تسديده. وجاءه صوت أدريانا: *«هذه الصَّداقة الرَّجيمة المقدَّسة.»*، ثمّ جلس أخيرًا.

-«Novato?»، سأله الرّجل.

لم يفهم غريغوريوس ما قصده الرجل. هل هذه الكلمة تعني ببساطة: أنت جديد هنا ؟ أم مبتدئ؟ وقرَّر تبنّي المعنى الأوّل وأذعن للأمر.

-بيدرو، قال البرتغاليّ.

- ريموندو، ردَّ غريغوريوس.

كان الرجل أشدّ بُطْأً من الجوراسي[1] الذي شاركه اللعب في السابق. وظهر بُطْؤه منذ أوّل حركة، بُطْأً ثقيلاً ومُعوِّقًا. نظر غريغوريوس حوله. لا أحد يلعب على إيقاع فيشر، في زمن موقوت. ليست للسَّاعات أهميَّة في هذه القاعة. ما عدا رقع الشطرنج، لا شيء في مكانه هنا، ولا الأحاديث أيضًا.

بسط بيدرو ساعديه على الطَّاولة واتَّكأ بذقنه على يديه ورمق رقعة الشطرنج بنظرةٍ حذرة. لم يعرف غريغوريوس ما أزعجه أكثر: هل هي هذه النظرة المتصنِّعة والمهتاجة أم القزحيَّة التي تصعد إلى أعلى الصُّلبة العينيَّة المصفرَّة، أم هي عضعضته لشفتيه بطريقة مهووسة ذكَّرته بالجوراسي الذي كاد فعله هذا يصيبه بالجنون. سيكون صراعًا ضدّ اللَّهفة. لقد سبق أن خسر المباراة أمام الجوراسي ولعن فناجين القهوة العديدة التي شربها آنذاك.

عندئذ فقط تبادل أولى النظرات مع جورج، الرجل الذي أيقظه الخوف من الموت في اللَّيل، الرجل الذي عاش إحدى وثلاثين سنةً بعد برادو.

«انتبه! قال أوكلَّي مشيرًا بذقنه إلى بيدرو، إنّه منافس صعب.»

ضحك بيدرو باستهزاء دون أن يرفع رأسه. وفي تلك اللَّحظة، بدا مثل متخلِّف ذهنيّ. «هذا صحيح، صحيح تمامًا»، همس وفقاعات صغيرة تتكوّن عند زوايا فمه.

مادام الأمر يتعلّق بحساب بسيط لعدد الهجمات، فإنّ بيدرو لن يرتكب أخطاء. أدرك غريغوريوس ذلك في ظرف ساعة. كان عليه ألاَّ

(1) نسبة إلى إقليم جورا الفرنسي.

ينخدع بالجبين المنحسر والنظرة المهتاجة: أحصى كلّ شيء بدقّة، عشر مرّات لو تطلّب الأمر، وحتّى عشر حركات استباقيّة على الأقلّ. المسألة تتمثّل في معرفة ما سيحدث لو قام أحدهما بحركة مفاجئة، حركة لا تفتقد إلى المعنى فحسب بل ليس لها أيّ معنى على الإطلاق.

في كثير من الأحيان سبق لغريغوريوس أن جعل أمهر المنافسين يفقدون التركيز. وحده دوكسيادس، لم تنجح معه هذه الاستراتيجيّة. «حماقة!»، قال الإغريقي ببساطة دون أن يترك الغنيمة تُفلت من بين يديه.

انقضت ساعة أخرى عندما قرّر غريغوريوس خلق مشكلة عبر التضحية ببيدق، دون أن يطمح إلى أيّ انتصار. تقدّم بيدرو وعضعض شفتيه مرّات عديدة. ثمّ رفع رأسه ونظر إلى غريغوريوس. فتأسّف هذا الثاني على نظّارته القديمة التي كانت وقاءً ضدّ نظرات كهذه. غمز بيدرو بعينيه وفرك صدغيه وخلّل شعره المنتفش بأصابعه القصيرة الخشنة. ثمّ ترك البيدق في مكانه. وهمس: *novato!* وهذه المرّة أدرك غريغوريوس المعنى، فهذه الكلمة تعني *«مبتدئ»*.

لم يأخذ بيدرو البيدق لأنّه يعتبر التضحية به فخًّا. فوجد غريغوريوس نفسه في مأزق وجب عليه الخروج منه. دفع بجيشه إلى الأمام، جولة بعد أخرى، وقطع على بيدرو كلّ إمكانيّةٍ لهجوم معاكس. بدأ البرتغاليّ يستنشق رغامه محدثًا صوتًا قويًّا كلَّ دقيقتين. ولم يعرف غريغوريوس أهذا التصرّف مقصود أم عفويّ. ضحك جورج باستهزاء عندما لاحظ أنّ هذه الضوضاء المثيرة للاشمئزاز تؤذي غريغوريوس، ويبدو أنّ الآخرين يعرفون عادة بيدرو هذه. وكلّما أبطل غريغوريوس

مخطَّطا لبيدرو حتَّى قبل أن يصير مرئيًّا، ازدادت نظرةُ الآخر حدَّةً واكتسبت عيناه في تلك اللَّحظة لونًا أزرقَ لامعًا. استند غريغوريوس إلى ظهر كرسيّه وتأمَّل بهدوء المباراة التي كان يمكن أن تدوم ساعات. لن يحدث شيءٌ بعد.

أخذ يتأمَّل وجه أوكلِّي وهو يتظاهر بالنظر عبر النَّافذة التي يتأرجح أمامها ببطء فانوسٌ معلَّق بحبلٍ رخوٍ. ووفق رواية الأب بارتولومو، فإنّ الرجل لم يكن في البداية إلاّ صورةً نورانيَّةً، صورةً نورانيَّةً شاحبة وخالية من الفتنة، ولكنّه في المقابل فتًى نزيه وشجاع يُسمِّي الأشياء بأسمائها. غير أنّ زيارة برادو الليليّة للأب بارتولومو غيّرت في نهاية الحكايةكلَّ شيء: *«هي. هي أصبحت تمثّل خطرًا. إنّها لن تصمد. ستتكلَّم. هذا ما اعتقده الآخرون»*.

-وجورج أيضًا؟

-لا أريد الحديث في هذا الموضوع.

سحب أوكلِّي نفسًا من سيجارته قبل أن ينقل الفيل بشكلٍ منحرف على رقعة الشطرنج، متَّخذًا بذلك دور المنافس. وبسبب النيكوتين بدت أصابعُه صفراء وأظفارُه سوداء. أمّا أنفه اللَّحيم الكبير بفتحتيه الواسعتين فأثار النفور في نفس غريغوريوس، لكأنَّه علامة على المغالاة في قلّة الاحترام. وقد انسجم كلّ هذا مع ضحكة أوكلِّي المليئة سرورًا ماكرًا. لكنّ النظرة المرهقة والمتسامحة لتينك العينين البُنيَّتين تُلغي كلّ ما يمكن أن يبدو لك بغيضًا.

إستفانيا. انتفض غريغوريوس وشعر بالحرارة تجتاحه. لقد ذُكر هذا الاسم في نصٍّ برادو الذي قرأه في الظهيرة ولكنّه لم يدرك العلاقة...

منوّعات غولدبرغ... إستفانيا... إنّها تتقنها، لقد عزفتْها لي أنا وحدي. ومنذ ذلك الوقت أحمل بداخلي رغبةً في إتقانها أنا أيضًا. هل هي نفسها إستيفانيا هذه؟ المرأة التي كان على برادو أن ينقذها من نوايا أوكلِّي الإجراميَّة؟ المرأة التي بسببها قُطعت علاقة الصَّداقة الرجيمة المقدَّسة؟

بدأ غريغوريوس العدَّ بعصبيَّة. أجل. كان هذا ممكنًا. إنّه إذن أقسى ما يمكن أن يتخيَّله: أن يستعدّ رجلٌ للتَّضحية بالمرأة التي أيَّدته في الوهم الرَّائع والفاتن بالستاينواي وهي تعزف له موسيقى باخ، حلم يحمله بداخله منذ أيّام في المعهد.

ما الذي حدث في المقبرة بين هذين الشخصين آنذاك بعد أن غادر الأب المكانَ؟ هل عادت إستيفانيا إسبينوسا إلى إسبانيا؟ مؤكّد أنّها أصغر سنًّا من أن يقع برادو في غرامها أثناء تلك الفترة، بعد عشر سنوات من موت فطيما. لو كان الأمر كذلك، فإنّ المأساة بين برادو وأوكلِّي ليست مجرّد صراع بين مبدأين مختلفين، وإنّما هي أيضًا مأساة حبّ.

ماذا تعرف أدريانا عن هذه المأساة؟ هل سبق أن فكَّرَتْ فيها؟ أم إنّها أغلقت ذهنها دونها كما فعلت مع أشياء أخرى عديدة؟ الستاينواي الجديد والمجنون، أما يزال إلى الآن في منزل أوكلِّي؟

لعب غريغوريوس الجولات الأخيرة بذاك التركيز العابر والروتينيّ الذي أبداه خلال المباريات المتزامنة ضدّ تلاميذه. في كرشنفلد، وكذلك الآن، وهو يرى بيدرو يضحك بمكرٍ. وبعد أن رمق رقعة الشطرنج بنظرةٍ حذرة، انتابه شعور بالفزع. لقد ضاع الانتصار وبدأ البرتغاليّ يشنّ هجومًا خطيرًا.

أغمض غريغوريوس عينيه وغمره إرهاقٌ فظيع. لماذا لا يقف

ببساطة ويغادر؟ كيف حدث أن وجد نفسه في لشبونة، في غرفة منخفضة إلى حدٍّ لا يُطاق، وسط دخان خانق، ليلعب ضدّ رجل مثير للاشمئزاز لا يعيره أيّ اهتمام، رجل لم يستطيع أن يبادله كلمةً واحدة أيضًا؟

ضحّى بآخر فيل وأعلن بذلك نهاية المباراة. لقد أصبح الانتصار مستحيلاً. ولكن من المؤكّد أنّه سيكتفي بالتعادل. وعندما ذهب بيدرو إلى الحمّام نظر غريغوريوس حوله. كانت القاعة خالية. واقترب باقي الرجال مِن طاولته ثمّ عاد بيدرو وجلس مستنشقًا رغامه كالعادة. ولمّا ذهب منافس جورج جلس بيدرو بطريقة تمكِّنه من متابعة المباراة على الطّاولة المجاورة. وسمع غريغوريوس نفَسَه النّاشز. إذا أراد ألاّ يخسر فعليه تجاهُل هذا الرجل.

حدث أن انتصر أليخين في نهاية المباراة مع أنّه خسِر ثلاث قطع. لقد أعاد غريغوريوس نهاية هذه المباراة وهو ما يزال تلميذًا بالمعهد عندما شعر بالريبة. وكرَّرها بعد ذلك لمدّة أشهر ووجدها ممتازة. ومنذ ذلك الحين أصبح بإمكانه أن يعرف بنظرةٍ واحدة كيف يجب أن يتصرّف، كما هو الحال الآن.

فكَّر بيدرو لنصفِ ساعةٍ لكنّه وقع مع ذلك في الفخّ الذي تفطَّن إليه رغم أنّه بدأ اللعب للتوّ. لكن لم يعد بإمكانه الانتصار. تقدَّم وأدخل شفتيه مرَّتين متتاليتين وحدَّق في غريغوريوس بنظرته المتحجِّرة. *«مبتدئ! مبتدئ!»* قال ذلك ثمّ قام على عجلٍ وغادر المكان.

-*من أين قدمت؟* قال أحد الحاضرين.

-*من بيرن، سويسرا*، قال غريغوريوس. وأضاف: *إنّهم أناس بطيئون.*

ضحكوا وقدَّموا له كأسًا من البيرة. ودعَوه إلى العودة مرَّةً أخرى.

في الشارع، سار أوكلِّي نحوه.

-*لماذا تبعتني؟* سأله بالإنجليزيَّة.

ثمَّ انفجر ضاحكًا وهو يرى الذهول مرتسمًا على وجه غريغوريوس.

«منذ زمن طويل وحياتي متوقّفة على معرفة ما إذا كان أحدهم يتعقَّبني.»

تردَّد غريغوريوس. ما الذي سيحدث لو أنّ هذا الرجل رأى فجأةً صورة دي برادو أمامه بعد ثلاثين سنة من وداعه إيّاه أمام القبر؟ أخرج برفق الكتاب من جيب معطفه، فتحه على صورة دي برادو وأطلع أوكلِّي عليها. أخذ جورج الكتاب من يد غريغوريوس ووقف تحت الفانوس وقرَّب الصورة من عينيه. مؤكّد أن غريغوريوس لن ينسى هذا المشهد مطلقًا: إذ أخذ أوكلِّي يتأمَّل صورة صديقه الراحل تحت ضوء المصباح وهو مرتابٌ مذعورٌ ووجهه يشارف على الانهيار.

«تعالَ معي»، قال جورج بصوتٍ أجشّ، بنبرة حاسمة ومتكلّفة ليخفي بها انفعاله، ليس أكثر. «أسكنُ قريبًا من هنا.»

أصبحت خطوته وهو يسبق غريغوريوس أكثر صرامةً وأقلَّ ثقةً من ذي قبل. وبدا أوكلِّي شبيهًا برجلٍ عجوز.

كان منزله أشبه بكهف اسودَّت جدرانه المغطَّاة بصور لعازفي بيانو: روبنشتاين، ريختر، هورويتز، دينو ليباتي، موراي بيراهيا، وبورتريه ضخم لماريا جاوو بيرس، عازفة البيانو المفضَّلة عند يوحنًّا إيسا.

عبر أوكلِّي غرفة الجلوس وأشعل عددًا من المصابيح، وهو مايزال يجد بقعة ضوء مسلَّطة على صورةٍ كانت آنذاك تنبثق من العتمة. ركنٌ

واحد فقط من الغرفة مُعتمٌ، وفيه ينتصب البيانو الذي عكس لونه الأسْودُ الصَّامت ضوءَ المصابيح الخافت الشاحب. «*تمَنَّيت أن أصبح رجلاً يواصل الاقتدار على استنطاق هذا البيانو وجعله يُصدر ألحانًا... حياتي ستنتهي دون أن أتمكّن من عزف المنَوّعات*». هذا البيانو هنا منذ عشرات السنين، سراب قاتم في مقابل الأناقة البرَّاقة، صرحٌ أسْوَد شُيّد من أجل حلم مجهَضٍ لحياة مكتملة. تذكَّر غريغوريوس الأشياء المقدَّسة التي لا يجوز لمسها في غرفة دي برادو. وفوق بيانو أوكلّي أيضًا بدا أنّه لا أثر لذرَّة غبار واحدة.

«*الحياة ليست ما نعيشه، إنَّها ما نتخيَّل أنّنا نعيشه*». هذا ما قاله برادو في إحدى تأمُّلاته.

جلس أوكلّي على ما يبدو أنّه كرسيُّه المعتاد متأمّلاً صورة أماديو. وبدت نظرتُه التي تقطعها أحيانًا طرفةُ جفن كأنّها تُوقف دوران الكواكب. صمتُ البيانو الأسود يملأ الغرفة. وأخذت جلبة الدَّراجات النَّاريَّة في الخارج تثور ضدَّ الصمت. ثمّ بدأ يردِّد قولة دي برادو المقتضبة هذه: «*الناس لا يحتملون الصَّمت وإلاّ فهذا يعني أنّهم لا يحتملون أنفسهم*».

من أين حصل على هذا الكتاب؟ تساءل جورج، فحدَّثه غريغوريوس بكلّ شيء. ثمّ قرأ جورج بصوتٍ عالٍ: «*أشجار الأرز الحمراء*».

«هذه الكلمات تشبه أدريانا، تشبه أسلوبَها المأسويّ، وهو لا يحبّ هذا الأسلوب لكنّه فعل كلّ ما في وسعه حتّى لا تلاحظ أدريانا ذلك.» «إنّها شقيقتي وهي تساعدني على أن أعيش حياتي»، هذا ما يقوله دومًا.

هل كان غريغوريوس على علم بسرّ «أشجار الأرز الحمراء»؟ أعتقد أنّ ميلودي تعرف السرّ وراء هذه التسمية، قال غريغوريوس. كيف تعرَّف على ميلودي؟ ولِمَ هو مهتمٌّ بهذا الموضوع؟ تساءل أوكلِّي. نبرة صوته وهو يطرح السُّؤال لا تبدو عنيفة، لكنّ غريغوريوس اعتقد أنّه التقط بها صدى رِقّة قاطعة ينبغي أن يستأثر بها صوتُه عندما يكون في وضع استعدادٍ متيقّظًا لأيّ إنذار.

«أرغب في معرفة السرّ وراء أن تكون هو؟»

نظر إليه جورج في ذهول وتفحَّص صورة برادو ثمَّ أغمض عينيه.

«هل بإمكاننا ذلك؟ هل نستطيع معرفة الطريقة التي تتيح لك أن تكون شخصًا آخر دون أن تكونه حقًّا؟»

بإمكاننا على الأقلّ أن نكتشف كيف يتحقّق ذلك عندما نتخيَّل أنّنا الآخر، قال غريغوريوس.

ضحك جورج، مثلما اضطرّ إلى الضحك وهو يسمع نباح الكلب خلال حفل اختتام الدروس في المعهد.

«ولهذا السبب هربت؟» هذا جنون محض لكنّه يعجبني. *«الخيال هو ملاذنا الأخير»* هذا ما قاله أماديو.

عندما لفظ اسم دي برادو، تغيَّر شيء مَّا في أوكلِّي. *إنّه لم ينطق هذا الاسم منذ عشرات السنين*، قال غريغوريوس في نفسه. كانت أصابع جورج ترتعش عندما أشعل سيجارة. داهمه السعال ثمَّ فتح كتاب دي برادو في صفحات أسال عليها غريغوريوس قطرة قهوة عند الظهيرة. أخذ قفصه الصَّدري النَّحيل يهتزُّ وينخفض ونفَسُه يضيق. وتمنّى غريغوريوس أن يتركه بمفرده.

«ومازلتُ على قيد الحياة»، قال وهو يضع الكتاب جانبًا. الخوف أيضًا، ذلك الخوف السَّابق المبهم، ما يزال يخيّم على المكان. والبيانو ما يزال رابضًا هنا. لكنّه لم يعد نُصبًا تكفيريًّا اليوم، إنّه البيانو ببساطة، هو البيانو ذاته تمامًا، دون إمكانيَّة تواصل معه، رفيق أخرس. المحادثة التي يتكلَّم عنها أماديو حدثت في موفًّى سنة 1970. في تلك اللَّحظة أيضًا، كان يمكنني أن أُقسِم أنّه ليس لأحدٍ منّا أن يفقد الآخرَ. كنَّا مثل شقيقين، بل أكثر من شقيقين.

«أتذكَّر أوّلَ مرَّة التقيتُه فيها. حدث ذلك في بداية السَّنة الدراسيَّة. وصل إلى القسم بعد تأخيرٍ بيوم كامل ولم أعد أذكر السَّبب وراء ذلك. ارتدى آنذاك سترةً طويلةً جعلته يبدو ابنا لعائلة ثريّة، ولم نكن نحن قادرين على اقتناء مثل هذه الأشياء من محلٍّ للملابس الجاهزة. هو الوحيد الذي لا يحمل محفظة، كأنّه يريد أن يقول: *«أنا أحتفظ بكلّ شيء في رأسي»*. وهذا يتلاءم مع الثقة الفذَّة التي جلس بها في مكان شاغر. لم يبدُ عليه التكبّر ولا الاستياء مطلَقًا. ببساطة، بدا على يقين من عدم استعصاء أيّ شيء عليه أن يتعلّمه ولا أعتقد أنّه عرف شيئًا عن هذا اليقين، فذاك أمرٌ قد ينقص من شأنه. كلاّ، لقد كان هو هذا اليقين بعينه، وقد تجلّى ذلك في طريقة وقوفه، وفي نطق اسمه وعودته للجلوس من جديد: إنّه أكثر نضجًا من أن يقف على الركح، كلاّ ليس هذا ما يريده. الفتى لا يريد ركحًا وهو ليس في حاجة إليه. حركاته لم تعبّر إلاّ عن لباقة حالمة وأنيقة. توقّف الأب بارتولومو مندهشًا عندما شاهد ذلك، ولم يعرف للحظةٍ ما يقول.»

حين غرق أوكلّي في الصَّمت، أخبره غريغوريوس بأنّه قرأ خطاب

برادو الذي ألقاه في حفل التخرّج. وقف جورج وذهب إلى المطبخ ثمّ عاد بقارورة نبيذ أحمر. قدَّم لغريغوريوس كأسًا وشرب هو اثنتين، دون عَجَلة، كشخص محتاج إلى الشرب.

«لقد اشتغلنا على هذا الخطاب لياليَ كاملةً. ومن وقت إلى آخر يجتاحه اليأس فيأتي الغضب لنجدته: *لقد أغرق الله مصر لأنّ فرعون عنيد. لكنّ الله هو الذي خلقه على هذا النَّحو، والأسوأ من هذا أنّه خلقه على هذه الصورة ليتمكَّن بعد ذلك من إثبات قدرته. أيّ ربٍّ مغرور، أيُّ إله متبجِّح!*». أحببتُه وهو طافحٌ بالغضب ويكافح الربّ بجبينه، بجبينه الجميل العالي.

«أراد للخطاب أن يحمل عنوان: *إجلالٌ ونفور أمام كلام الربّ الفاني*. هذا مؤثّر. إنّها ميتافيزيقا مؤثّرة، قلت له. وفي النهاية صرف نظره عن الموضوع. كانت به نزعة إلى التفخيم، لم يُرِد الاعتراف بهذا الأمر، لكنّه أدركَ ذلك جيّدًا. وقد يَشُنّ حملةً ضدّ كلّ شكلٍ من أشكال الكيتش في أيّ مكان وكلّما سنحت الفرصة لذلك. وعندها بإمكانه أن يتحوَّل إلى ظالم، ظالمٍ إلى حدٍّ رهيب.

«الوحيدة التي جنَّبها لعنته هي فطيما. فقد تمتّعت بكلّ الحقوق وعامَلها باهتمام شديد طوال فترة زواجهما الذي دام ثماني سنوات. احتاج إلى شخص يوليه اهتمامه. هكذا كان. لكنّ هذا لم يجعل منها امرأة سعيدة. هي وأنا لم نتحدَّث في هذا الخصوص. فهي لا تحبّني أنا بالذات. لعلّها شعرت هي أيضًا بالغيرة من حميمَّتنا. ولكن في أحد الأيّام، التقيتها في مقهى من مقاهي المدينة وهي بصدد قراءة عروض الشغل في إحدى الصحف، وقد جعلت بعضها في دائرة. طوت صحيفتها عندما

لمحتني، لكنَّني أتيت من خلفها ورأيت كلّ شيء. «أرغب في أن يتوقَّع منّي المزيد»، قالت خلال تلك المحادثة. لكنَّ المرأة الوحيدة التي توقَّع منها القدرةَ على فعل شيء مَّا هي ماريًّا يوحنًّا، ماريًّا، يا إلهي، أجل ماريًّا!

ذهب أوكلّي ليأتي بقارورة نبيذٍ أخرى بينما بدأت كلماته تغرق في الغموض.

«ما كان اسم عائلة ماريًّا؟ سأله غريغوريوس.

«أفيلا. مثل القدِّيسة تيريزا. في المدرسة أيضًا، لقّبناها بـ«القدِّيسة». وكثيرًا ما ألقت على رؤوسنا أشياء حين تسمعنا نقول ذلك. عندما تزوَّجت لاحقًا غيَّرت لقبها إلى آخر عاديٍّ جدًّا وبلا معنى، لكنّني نسيته الآن.»

واصل أوكلّي الشّربَ وغرق في الصمت.

«اعتقدت حقًّا أنّ أحدنا لن يضيّع الآخر»، قال كاسرًا الصمت. «ظننت هذا مستحيلاً. في أحد الأيّام، قرأتُ هذه الجملة في مكان مَّا: *«الصَّداقات تأخذ وقتها ثمّ تنتهي»*. ولكنّ هذا القول لا ينطبق علينا. *لا ينطبق علينا*. هذا ما اعتقدته».

بدأ أوكلِّي يشرب بنسق أسرع ولم يعد قادرًا على التَّحكم في شفتيه. وقف بصعوبة وغادر الغرفة بخطوات تعوزها الثقة. وبعد مرور وقتٍ قصير، عاد حاملاً ورقة.

«خذ، لقد كتبنا هذا معًا، في كويمبرا، خلال وقت امتلكنا فيه العالم بأسره».

كانت الورقة عبارةً عن قائمةٍ كُتِبَ أعلاها: *بإخلاص*. وفي الأسفل

نقل برادو وأوكلِّي كلَّ الأسباب التي من شأنها أن تولِّد الإخلاص بين الأصدقاء:

«*تحمُّل المسؤوليَّة تجاه الآخر، ازدهار مشترك، ألم مشترك، فرح مشترك، التضامن بين البشر، وحدة الأفكار، الصِّراع المشترك ضدّ العالم الخارجيّ، نقاط قوّة وضعف مشتركة، الوحدة في الحاجة إلى التقارب، وحدة الأذواق، كره مشترك، أسرار مشتركة، خيالات، أحلام مشتركة، حماس مشترك، قرارات مشتركة، خيبات مشتركة وأخطاء مشتركة*».

عبَّر غريغوريوس عن أسفه لغياب الحبّ عن هذه القائمة. فتمدَّد أوكلِّي وسرعان ما صحا من جديد بعد سكره:

«لم يؤمن به. كان يتفادى حتّى الكلمة ذاتها. ويعتبره ضربًا من الكيتش. لا توجد إلاّ هذه الأشياء الثلاثة، حسب قوله: *رغبة، عاطفة، وثقة*. وكلّها زائلة. وأشدُّها هشاشة الرَّغبةُ. ثمَّ تأتي العاطفة في المرتبة الثانية. وللأسف فقد كان لا بدّ من أن تُكسر الثقة. وشعور المرء بأنّه آمن داخل شخصٍ آخرَ انكسر هو أيضًا وبشكلٍ مفاجئ. متطلَّبات الحياة، كلّ الأشياء التي يجب أن نُنهيها كثيرة وهي أقوى من قدرة مشاعرنا على مواصلة سلامتها من أجلها، كما يقول هو. أهمّ شيء إذن هو الإخلاص. إنّه ليس شعورًا، هكذا يعتقد، بل هو إرادة، قرار، انحياز إلى الرُّوح سرعان ما يُحوِّل إمكانيّة اللّقاءات وهشاشة المشاعر إلى ضرورة. «نَفحة خلود، لاشيء غير نفحة»، هذا ما كان يردّده.

«لقد أخطأ. أخطأنا نحن الاثنين.

لاحقًا، بعد عودتنا إلى لشبونة، أصبح في الغالب مشغولاً بمسألة

مدى وجود إخلاصٍ تجاه الذات أيضًا، ضرورة عدم الهروب من أمام الذات، لا في الخيال ولا في الأفعال. القدرة على تقبُّل ذواتنا حتّى وإن لم نعد نحبّ أنفسنا. كان يودّ لو يتحوَّل إلى قصيدة ثمّ يعمل على أن يتحوَّل هذا الشِّعر إلى حقيقة. وصار يردّد: «أنا لم أعد أحتمل نفسي إلاّ عندما أعمل».

صمت أوكلِّي، ارتخى جسده وتشوَّشت نظرته وأصبح نفَسُه بطيئًا مثل نَفَس شخصٍ نائم. وعندئذ لم يستطع غريغوريوس المغادرة.

وقف غريغوريوس وألقى نظرةً على الرفوف المحمَّلة بالكتب؛ رفّ كامل مليء بالأعمال التي كُتبت عن اللاسلطويَّة، كتب عن اللغة الروسيّة والأندلسيَّة والكاتالونيَّة، كتب عديدة، كتب عديدة تحمل كلمة عدالة في عنوانها. دوستويفسكي، وأكثر من دوستويفسكي أيضًا: إيسا دي كيروس. *«جريمة الأب أمارو»*، الرواية التي اقتناها غريغوريوس خلال زيارته الأولى إلى مكتبة جوليو سيمواس، سيغموند فرويد وسيرة عددٍ من عازفي البيانو، دراسات حول الشطرنج وأخيرًا وُجِدت داخل كوَّةٍ مكتبةٌ صغيرة رُصِّفت عليها كتب المعهد، بعضها مرَّ عليه سبعون سنة. تناول غريغوريوس كتب قواعد اللُّغة اللاتينيَّة والإغريقيَّة وتصفَّح أوراقها المفتَّتة والملطَّخة ببقع الحبر، القواميس ونصوص التمارين، سيسرون، زينوفون، سوفوكل، والكتاب المقدّس البالي من كثرة القراءة والمليء بالملاحظات.

انتبه أوكلِّي من غفلته. ولكن عندما بدأ في الحديث، بدا الأمر كأنّه استكمالٌ لحلم كان بصدد عيشه.

«لقد اشترى الصيدليَّة من أجلي. صيدليَّة بأكملها، في موقع هو

الأفضل على الإطلاق، هكذا ببساطة. نحن نلتقي في المقهى ونتحدَّث عن كلّ الأشياء الممكنة ولا نقول كلمةً واحدة عن الصيدليَّة. إنّه كتوم، كتوم لعين ورائع. لم أعرف شخصًا مثله أتقنَ فنَّ الغموض. تلك هي صورته المتكبّرة وإن لم يرغب في الوعي بذلك. وعند عودتنا توقّفنا فجأةً وسألني: «هل ترى هذه الصيدليَّة؟»

- أجل. ما بها؟

-إنّها لك، قال ذلك وهو يمسك مجموعة من المفاتيح ويقرِّبها من أنفي.

«لطالما رغبتَ في امتلاك صيدليّة. إنّها لك الآن.» ودفع ثمن كافّة التجهيزات أيضًا. هل تعلم؟ لم يجرحني هذا قَطُّ. كنت مسلوب الإرادة. في البداية ظللت أفرك عيني كلّ صباح. وأحيانًا أتّصل به وأقول له: تخيَّل أنا الآن في صيدليَّتي.» فيضحك ضحكته الحرّة والطَّافحة بالسرور، تلك الضحكة التي أصبحت تتراجع بشكل متزايد سنة بعد أخرى.

كانت علاقته بثروة عائلته مضطربة ومعقَّدة. ويحدث أن يرمي النقود عبر النافذة بحركة فوريَّة بخلاف والده القاضي الذي لا يرضيه هذا التصرّف. وإذا لمح شحّاذًا بدا عليه الانزعاج. والشيء نفسه يتكرَّر في كلّ مرّة: *«لماذا أعطيه بعض القطع النقدّية فقط؟ لم لا أهبه حزمة من الأوراق الماليّة؟ لماذا لا أهبه كلّ ما أملك من المال؟ ولماذا أعطي هذا المال له هو بالذات ولا أفعل الشيء نفسه مع الآخرين؟ إنّ مرورنا من أمامه هو بدلاً من مرورنا أمام شخص آخر صدفة محض. وعلى أيّ حال: كيف باستطاعتنا أن نبتاع لأنفسنا قطعةَ مثلَّجات وعلى بعد خطوات منَّا يمكث رجل عليه تحَمُّلُ هذه الإهانة؟ هذا مستحيل. أتسمع؟ هذا*

مستحيل!» في أحد الأيّام انتابه غضب شديد أمام هذا اللغز- *هذا اللغز اللعين المزعج* كما يسمِّيه- حتّى إنّه ضرب الأرض بقدميه وعاد أدراجه راكضًا وألقى بورقة نقديَّة قيّمة في طاقيَّة الشحَّاذ».

استرخى وجه أوكلِّي تحت تأثير الذكرى، كما يحصل لشخصٍ تخلَّص أخيرًا من ألمٍ حادّ، وأصبح هَرِمًا وعلاه الحزن من جديد.

«عندما افترقنا، أردت في البداية أن أبيع الصيدليَّة وأعيد إليه ثمنها. لكنّني لاحظت بعد ذلك أنّني سألغي في هذه الحالة كلّ ما بيننا: صداقتنا الطويلة والسعيدة. كنت سأفسد حميميّتنا الماضية وثقتنا القديمة. ولهذا احتفظت بالصَّيدليَّة. وبعد مرور أيَّام من اتخاذ هذا القرار حصلت حادثة عجيبة: إذ أصبحت هذه الصيدليَّة فجأةً، وأكثر من أيّ وقت مضى، صيدليّتي أنا. لم أفهم ما حصل. ومازلت إلى اليوم عاجزًا عن فهم ذلك».

ولمّا تأهَّب غريغوريوس للمغادرة، أخبر جورج بأنّ ضوء الصَّيدليَّة بقي مشتعلاً.

ضحك أوكلِّي. «لقد تركته عمدًا. أترك الضوء مشتعلاً دومًا، دومًا. إنّه إسراف محض! نكاية بالفقر الذي ترعرعت فيه. كنّا نسكن غرفةً واحدةً مُضاءة ونخلد إلى النوم في العتمة. السنتات القليلة التي تُعطى لي مصروفَ جَيْبٍ أُنفقها في شراء بطَّاريَّات لمصباح جَيْبٍ أستعمله للقراءة ليلاً. وكنت أسرق الكتب. يجب ألاّ تُشترى الكتب بالمال. هذا ما اعتقدته في تلك الفترة ومازالتُ على رأيي. كانت الكهرباء تُقطع علينا باستمرار بسبب الفواتير غير المستخلصة. *سنقطع الكهرباء!* لن أنسى هذا التهديد ما حييت. إنّها أشياء بسيطة لن نُشفى منها: كرائحة خدّك الذي يُحرقك بعد تلقِّيك صفعة، والعتمة التي تغرق المنزل فجأةً، وصوت أبي الأجشّ

الذي يطلق اللَّعنات. في البداية، كانت الشرطة تأتي أحيانًا بسبب الضوء المشتعل في الصيدلية. أمّا الآن فالكلّ يعلم بالأمر ويتركني بسلام.

(23)

اتصلت ناتالي روبان بغريغوريوس ثلاث مرّات دون أن تظفر بردّ. وعندما عاود الاتصال بها، أخبرته أنّها لم تجد مشكلةً في اقتناء القاموس وكتاب قواعد اللُّغة البرتغاليَّة! «ستحبّ *هذا الكتاب!* لَكأنّه قانون مدنيّ حقيقيّ ويتضمَّن قائمات استثناءات شاملة، الكاتب مهووس بالاستثناءات، مثلك تمامًا. المعذرة.»

أمّا في خصوص تاريخ البرتغال فقد صعب العثور عليه في نصّه الأصليّ. وجدت ناتالي روبان نُسَخًا عديدة منه فقرَّرَتْ شراء أكثرها إيجازًا وأرسلتها إليه. كتاب قواعد اللُّغة الفارسيّة الذي دلَّها عليه متوفّر هو أيضًا وبإمكان هوبت أن يحصل عليه في منتصف الأسبوع. من جهة أخرى، مثّل تاريخ المقاومة البرتغاليّة تحدِّيًا حقيقيًّا، فعندما وصلت وجدت المكتبات مقفلة، ولن تتمكّن من العودة إليها إلاّ يوم الاثنين. وأشار عليها هوبت بأن تسأل منتدى حول الدراسات الرومانسيَّة، وهي تعرف مسبقًا الشخص الذي ينبغي عليها أن تتّصل به يوم الاثنين.

شعر غريغوريوس بخوف أمام هذا الحماس الكبير الذي قد يدفعها إلى اللحاق به هنا. كانت تفضّل السفر إلى لشبونة ومساعدته في أبحاثه. وهذا ما فهمه من كلامها.

استيقظ غريغوريوس عند منتصف اللَّيل ولم يعرف أ كانت تلك الكلمات التي سمعها حقيقة أم مجرّد حلم. رائع! هذا ما ردّده كاجي

ولوسيان فون غرافنريد خلال الجولة التي جمعته ببيدرو الجوراسي، الرجل الذي دفع أحجاره على رقعة الشطرنج بجبينه وضرب برأسه على الطّاولة من شدّة الغضب حين تفطّن غريغوريوس إلى إحدى حِيَلِه. اللّعب أمام ناتالي أمرٌ غريب ومحيّر لأنّها تلعب دون أحجار وفي العتمة. «أتحدّث البرتغاليّة وبإمكاني مساعدتك!»، قالت. حاول أن يجيبها بالبرتغاليّة وشعر أنّه بصدد إجراء اختبار ولا يجد الكلمات المناسبة. فأخذ يردّد باستمرار: *Minha Senhora Minha Senhora* *سيّدتي، سيّدتي* ثمّ لم يعد يعرف ما يقول.

اتّصل بدوكسيادس. «كلاّ أنت لم توقظني من نومي، قال الإغريقي، فقد عاودني الأرق من جديد. وليس الأرق فقط.»

لم يسبق لغريغوريوس أن سمعه يتحدّث بهذه الطريقة. وشعر بالفزع. فسأله: «ماذا حصل بالضبط؟».

-«آه لا شيء»، قال الإغريقي. «أنا ببساطة مرهق. أصبحت أرتكب أخطاء مع مرضاي وأريد أن أتوقّف عن العمل».

- يتوقّف؟ هو، يتوقّف عن العمل؟ وماذا أيضًا؟

- «أن أسافر إلى لشبونة مثلاً»، قال ضاحكًا .

حدّثه غريغوريوس عن بيدرو، عن جبينه المنحسر ونظرته المتشنّجة. وفي الأثناء تذكّر دوكسيادس الجوراسيَّ، ثمّ أضاف:

«بعد ذلك لعبتَ على امتداد لحظة بشكل بائس بالقياس إلى مستواك.»

كان النهار قد طلع عندما عاد غريغوريوس إلى النوم. وعندما

استيقظ بعد مرور ساعتين، بدت سماء لشبونة صافية واستغنى المارَّة عن معاطفهم. استقلَّ المركب وعبر النهر باتجاه كاسيلهاس في زيارةٍ جديدة ليوحنَّا إيسا.

«كنت واثقا من مجيئك اليوم لزيارتي»، قال يوحنّا، وبدت هذه الكلمات التافهة وهي تخرج من بين شفتيه الرقيقتين شبيهةً بألعابٍ ناريَّة ملتهبة.

شربا الشاي ولعبا الشطرنج. وارتعشت يد إيسا وهو يسحب القطعة التي سُمع صوت ارتطامها باللوح الخشبيّ. وكلّما حرّك قطعةً انبعث الخوفُ في نفس غريغوريوس مرّةً أخرى بسبب آثار الجروح على يده.

« لا تكمن الخطورة في الألم أو في الجرح، الخطورة الحقيقيَّة تكمن في الإذلال»، قال إيسا. «والإذلال هو عندما تشعر أنّك أُصبت بالإسهال من فرط الخوف. عندما خرجتُ من السجن، كنت أحترق رغبةً في الانتقام وأشعر بغيظ محتدم. اختبأت وانتظرت أن يخرج الجلاَّدون بعد انتهاء العمل، مرتدين معاطفهم الشريفة ومناديل كالتي يستعملها موظّفون في طريقهم إلى المكتب. ظللت أتبعهم حتّى وصلوا إلى مساكنهم لأردَّ عليهم بالمثل. ولم ينقذني من ذلك إلاّ اشمئزازي من فكرة لمسهم. لكن كان يجب عليَّ القيام بذلك. طلقة واحدة من مسدَّس ستكون رحيمةً جدًّا. بدا لماريانا أنّني أنهيت مرحلة النضج النفسيّ. إطلاقًا! لطالما رفضتُ أن أنضج، كما يقال. فأنا لا أحبّ الناضجين. أعتبر هذا النضج المزعوم ضربًا من الانتهازيَّة أو سأَمًا خالصًا».

هُزم غريغوريوس. ها هو يشعر بعد جولات عديدة بأنّه لم يرغب

في الانتصار على هذا الرجل. والفنّ هو ألاّ يجعله يشعر بذلك. وعزم على القيام بمناورات جريئة بإمكان لاعبٍ كإيسا التفطُّن إليها. لاعب مثله هو فقط.

«لا تسمح لي بالانتصار عليك في المرَّة القادمة وإلاّ فإنّني سأغضب»، قال إيسا عندما رنَّ جرس الغداء.

تناولا غداء دار العُجَّز النيِّئ الذي لا طعم له. «أجل إنَّ طعمه لا يتغيَّر أبدًا»، قال إيسا. وعندما نظر إلى وجه غريغوريوس ضحك من قلبه للمرّة الأولى. اكتشف غريغوريوس بعض التَّفاصيل المتعلِّقة بشقيق يوحنَّا، والد ماريانا الذي تزوَّج امرأة ثريَّة، وتلك المتعلِّقة بطلاق طبيبة العيون.

لم تسألني عن أماديو هذه المرَّة، قال إيسا.

« أنا هنا من أجلك أنت لا من أجله هو»، ردَّ غريغوريوس.

عندما حلَّ المساء قال إيسا: «حتَّى إن لم تكن زيارتك بسببه هو فإنّ لديَّ شيئًا مّا أرغب في إطلاعك عليه. لقد سبق أن أعطاني هذه الورقة بعد سؤالٍ طرحته عليه. قرأتُ هذا النصّ مرارًا، وأنا أحفظه تقريبًا عن ظهر قلب». ثمّ ترجم الصفحتين لغريغوريوس:

بلسم الخيبة.

تبدو الخيبة شبيهةً ببليَّةٍ أو بتعصُّبٍ نزق. كيف لنا أن نكتشف ما انتظرناه وتمنَّينا حدوثه بوسيلةٍ أخرى غير الخيبة؟ وفي أيّ شيء تكمن معرفة الذَّات إن لم تكن في هذا الاكتشاف؟

ينبغي علينا ألاّ نواجه الخيبات بالتنهُّدات كما لو أنّ حياتنا يمكن أن

تكون أفضل دونها. يجب علينا أن نفتِّش عنها ونتبع أثرها ونجمعها. لماذا أشعر بخيبةِ أملٍ عندما تظهر علاماتُ الشيخوخة والزوال على الممثّلين الذين أحببتهم في شبابي؟ ماذا تُعلِّمني الخيبة عن قيم النجاح القليلة؟ إنّ أغلبنا في حاجة إلى حياة كاملة كي يعترف أمام نفسه بأنّ أبوَيْه خيَّبا ظنّه. ما الذي انتظرناه منهما في الواقع؟ الأشخاص الذين ينبغي عليهم أن يقضّوا حياتهم تحت سيطرة الألم الصَّارمة هم في الغالب أشخاص خاب أملهم بسبب سلوك الآخرين، حتّى أولئك الذين يظلّون أوفياء بقربهم ويساعدونهم في تناول أدويتهم. ما يقولونه وما يفعلونه هو شيء ضئيل جدًّا، وضئيل جدًّا أيضًا ما يشعرون به. «ماذا ينتظرون إذن»؟ تساءلتُ. ليس باستطاعتهم التعبير عن ذلك وقد أنهكهم أنّهم ربّما غذَّوا داخلهم ولسنوات انتظارًا يمكن أن يكون خائبًا وهو ما يزال مجهولاً.

ومن أراد أن يعرف حقًّا من يكون فعليه أن يغدو هو أيضًا جامع خيبات متعصِّبًا لا يعرف الكلل. ويجب أن يجعل البحثَ عن تجارب محبطة هاجسَه، الهاجسَ الحاسم لحياته، لأنه سيرى وفي وضح النَّهار أنّ تلك الخيبة ليست سُمًّا حارقًا ومدمِّرًا، بل بلسمٌ نديٌّ ومهدِّئ يفتح أعيننا على الملامح الحقيقيَّة من ذواتنا.

وينبغي ألاّ يقصر اهتمامه على خيبات الآخرين أو الظروف المحيطة بها. عندما نكتشف أنّ الخيبة هي مفتاح الذات، سيحدونا الفضول إلى أن نجرِّب مدى إمكانيّة شعورنا بالخيبة: بسبب الشجاعة التي تنقصنا والصدق الغائب، مثلاً، أو بسبب الحدود الضيّقة إلى حدٍّ فظيع، الحدود المفروضة على ما نشعر به قولاً وفعلاً. ما هو إذن هذا

الشيء الذي انتظرناه وأملناه من أنفسنا؟ أن نكون بلا حدود أو أن نتحوَّل إلى آخرين غيرنا؟

سيحدونا أملٌ ممكن في أن نصبح أكثر واقعيَّة، في أن نُضعف انتظاراتنا، ونقلِّص أنفسنا حتَّى نستحيل ذرَّةً صلبةً وثابتة، وهو ما يعني أنّها محصَّنة ضدّ ألم الخيبة. ولكن كيف ستكون هذه الحياة التي ستمتنع عن كلّ انتظارٍ ممكن ومدَّع، حياة لن تحمل غير أثر تجارب تافهة مثل قدوم الباص؟»

«لم أعرف أحدًا غيره يقدر على التيه في تأمّلاته بهذا الجنون ويستطيع كُرْهَ أن يُصاب بالخيبة إلى هذا الحدّ»، قال إيسا. «ما يكتبه هنا، يكتبه ضدّ نفسه. وغالبا ما عاش ضدّ نفسه أيضًا. لم يكن جورج ليوافق على هذا الأمر. هل تعرَّفتَ إلى جورج؟ جورج أوكلِّي، الصيدلانيّ، صاحب الصَّيدلية التي لا ينطفئ نورها لا في اللّيل ولا في النهار؟ لقد عرف أماديو قبلي أنا بزمنٍ طويلٍ، طويلٍ جدًّا!

أنا وجورج... آه حسنًا! في أحد الأيّام، لعبنا مباراةً في الشطرنج، مرَّةً واحدة فقط، وانتهت بالتعادل. ولكن إذا تعلَّق الأمر بالتخطيط لعمليَّاتٍ، وبالخصوص لحيلٍ دقيقة، ففي هذه الحالة نكوِّن فريقًا لا يُقهر، مثل توأمين يتفاهمان على نحو أعمى.

كان أماديو يغار من هذا الانسجام التامّ بيننا، ويشعر بأنّه عاجز على منافسة نباهتنا وعدم تردُّدنا. «*كَتيبَتُكُما!*» هكذا يلقِّب تحالفنا الذي يتحوَّل أحيانًا إلى حلفٍ صامت، حتّى تجاهه هو. وهكذا نشعر بأنّه يودّ كسر هذه الكتيبة دون أدنى شعورٍ بالذنب. وعندئذ يقدّم افتراضات

بعضُها صائبٌ وبعضُها الآخر يبدو مجرّد خطأ، لاسيّما إذا تعلَّق الأمر بشيء مّا... أجل بشيء مّا يمسُّه شخصيًّا».

حبس غريغويوس أنفاسه. هل سيعلم الآن المزيد عن موضوع إستفانيا إسبينوسا؟ لا يمكن أن يسأل في هذا الشأن لا إيسا ولا أوكلِّي، كان هذا الأمر مستبعدًا. هل أخطأ برادو في النهاية؟ هل سبق أن عرَّض المرأة الآمنة لخطرٍ وهميّ؟ أم إنّ لتردُّد إيسا علاقةً بذكرى أخرى؟

«لطالما كرهتُ أيّام الأحد هنا»، قال إيسا في لحظة الوداع. «حلوى بلا طعم، قشدة مخفوقة بلا طعم، هدايا بلا طعم وعبارات جاهزة بلا طعم، إنّه جحيم الجمعيّات. أمّا الآن، عند الظهيرة وبرفقتك... سيصبح بإمكاني التعوُّد عليها». ثمّ أخرج يده من جيبه ومدَّها نحو غريغوريوس. إنّها اليد التي انتُزعت منها الأظفار، وظلّ غريغوريوس يشعر بقبضتها القويَّة على امتداد المعبر.

القسم الثالث

المحاولة

(24)

في صباح يوم الاثنين، استقلَّ غريغوريوس الطَّائرة باتجاه زيوريخ. وعندما استيقظ فجرًا، استبدّ به شعورٌ غريب جعلهُ يضجّ قائلاً في سرّه: أنا بصدد تضييع نفسي! لا يمكن القول إنّه استيقظ أوّلاً ثمّ وُلد هذا الشعور بعد ذلك من إدراكٍ عقيم أو عفويٍّ لما هو فيه. الأمر معكوس. وُلد الشعور أوّلاً ثمّ حصل الإدراك. ولفرط ضبابيّة هذا الإدراك وغرابته وإبهامه واختلافه عن ذاك الّذي اجتاحهُ في طريقه إلى باريس، صار الإحساسُ بالضياع هو الوحيدَ الّذي يحاصره. وعلى الرغم من عدم وثوقه في معرفة كلّ حيثيّات هذا الشعور الغامض ومكنوناته، فقد استبدّ به على نحو لا فكاك منه.

مذعورًا، بدأ في حزم حقائبه بيدَيْن مرتعشتيْن. وأخذ يكوّمُ الكتب والملابسَ داخلها كيفما اتّفقَ. وعندما أقفل الحقيبة، تريّث ليسترجع هدوءه بالوقوف أمام نافذة الغرفة.

سيكون هذا اليومُ مشرقًا. ستجعل أشعّةُ الشمس أرضيّةَ غرفة الجلوس بمنزل أدريانا أكثرَ لمعانًا. وفي ضوء الصباح، سيبدو مكتب دي برادو مهجورًا أكثر من العادة، بينما تتلألأ على الجدار الذي يعلو المكتبَ أوراقٌ معلّقةٌ كُتبت عليها كلمات لا تكاد تُقرَأ بعد أن اصفرّ حبرُها. آهٍ لو يعلم ما يُفترضُ أن تُذكِّر به هذه الكلماتُ الطبيبَ!

غدًا أو بعد غد أو ربّما اليوم أيضًا، ستأتي كلوتيلد إلى الفندق وهي

تحمل دعوة جديدة من أدريانا. سينتظر يوحنّا إيسا زيارته يوم الأحد ليشاركه مباراة شطرنج. أمّا أوكلّي وميلودي فسيتعجّبان من عدم سماع أيّ خبر عن هذا الرجل الذي برز من العدم وطرح أسئلة حول أماديو ليعرف من هو حقًّا. كأنّ سلامه الداخليّ يتوقّف على ذلك. سيبدو إرسال نسخة من خطاب دي برادو عبر البريد أمرًا غريبًا بالنسبة إلى الأب بارتولومو. ولن تفهم ماريانا إيسا، مثلها مثل سيلفيرا وكونتينهو، سببَ اختفائه المفاجئ كما لو أنّ الأرض انشقّت وابتلعته.

«أتمنى أنّك لم تُصَب بمكروه أجبرك على المغادرة هكذا فجأة.» هذا ما قالته موظّفة الاستقبال عندما سدَّد معلوم إقامته. لم يفهم كلمة واحدة من البرتغاليّة التي تحدَّث بها سائق سيّارة الأجرة. ولمّا همّ بتسديد أجرة إيصاله إلى المطار، عثَر في جيب معطفه على الورقة التي كتب عليها بائع الكتب القديمة عنوان مدرسة اللغات. تأمَّلها لحظة ثمّ رماها في حاوية الأوراق أمام ردهة المخرج. طائرة الساعة العاشرة نصف شاغرة، هذا ما أخبروه به في شبّاك التذاكر، وجعلوه يحظى بمكان قرب النافذة.

في قاعة الانتظار، أمام مدرج الهبوط كان الناس لا يتحدَّثون إلاّ البرتغاليّة. وعندما اتّفق أن تناهت إلى سمعه كلمة: *البرتغاليّة*، وجدها كلمة تشعره بخوف بدا له مبهما. أراد أن ينام في فراشه في لانغاس ويذهب إلى رصيف الاتحاد ويسير فوق جسر كرشنفلد ويتحدّث عن *الإلياذة والمفعول المطلق*. لقد رغب في أن يجد نفسه بساحة بوبينبرغ حيث يشعر أنّه في منزله. كم يرغب في العودة إلى المنزل!

عندما لم يبق الكثير على كلوتين، أيقظه سؤال طرحته مضيّفة الطيران بالبرتغاليّة. كان سؤالاً طويلاً جدًّا لكنّه فهم معناه دون جهد

وأجاب عليه بالبرتغاليّة أيضًا. نظر إلى بحيرة زيوريخ في الأسفل وقد غطّيت أجزاء كبيرة منها بثلج أفقدته الأوساخُ بياضَه، بينما واصل المطر هطولهُ على الطائرة.

زيوريخ ليست وجهتهُ المرغوبة، بل بيرن. هذا ما فكّر فيه تحديدًا عندما غمره شعور مفاجئ بالسعادة لأنّه يصطحب معه كتاب دي برادو. وعندما حطَّت الطائرة وتخلَّص جميع الركّاب من جرائدهم وكتبهم، أخرج غريغوريوس كتاب دي برادو وشرع في القراءة:

شباب خالد

«في شبابنا، نعيش حياتنا كما لو أنّنا خالدون. ومعرفتنا بطبيعتنا الفانية تطوّفُ حولنا مثل شريط ورقيّ صغير لا يكاد يلمسُ جلدنا. متى يتغيّر هذا في الحياة؟ متى يبدأ هذا الشريط في الضغط علينا بشدّة لينتهي إلى خنقنا؟ وكيف نميّز ضغطه الناعم والصلب في آنٍ واحد، الضغط الذي يبدو أنّه لن يرتخي أبدا؟ كيف نميّزه عند الآخرين؟ وكيف نميّزه في داخلنا نحن؟».

تمنّى غريغوريوس أن تتحوّل الطائرة إلى حافلة، لسبب واحد هو أن يظلّ جالسا في مقعده عندما تصل إلى المحطّة النهائيّة فيواصل القراءة ثمّ يرجع من الطريق نفسها في الاتجاه المعاكس. وعلى الرغم من أنّ ذلك لم يحدث، فهو آخر من نزل من الركّاب، وعندما وقف أمام شبّاك التذاكر في المحطّة، بدا متردّدًا جدًّا إلى درجة أنّ الموظّفة أخذت تدقّ بسوارها على الطاولة معبّرة عن نفاد صبرها.

«بطاقة درجة ثانية»، قال أخيرًا.

عندما غادر القطار محطّة زيوريخ بسرعة فائقة، تذكّر أنّ ناتالي روبان

تبحث آنذاك في المكتبات عن كتاب يتحدَّث عن المقاومة البرتغاليّة، وأنّ بقيّة الكتب الّتي طلبها في طريقها إلى لشبونة. ولو أنّه ظلّ في لانغاس وسكن فيها فترة طويلة، لذهبت في منتصف الأسبوع إلى مكتبة هوبت القريبة من هناك، وأرسلت إليه عبر البريد كتبَ النحو الفارسيّ. ماذا يمكن أن يقول لها لو التقيا مصادفة؟ ما عساه يقول للآخرين؟ لكاجي ولبقيّة الزملاء والتلاميذ؟ سيكون الأمر أسهل مع دوكسيادس، لكن، ما هي الكلمات المناسبة، الكلمات التي ستصيب هدفها؟

عندما تراءت له كاتدرائيّة بيرن أخيرا، شعر بأنّه سيقتحم مدينة ممنوعة في غضون دقائق معدودة.

كانت شقّته باردة جدًّا. دخل المطبخ ورفع المصراع الدوَّار الذي أنزله قبل أسبوعين ليختبئ وراءه. ما يزال قرص درس اللغة على مُشغِّل الاسطوانات وما يزال المغلَّفُ على الطاولة. ذكَّرته سمّاعة الهاتف الموضوعة بشكل منحرف بمحادثته آخر ليلة مع دوكسيادس. «*لماذا تجعلني آثار الماضي حزينا، حتّى إن كانت آثار شيء مبهج؟*»، سؤالٌ طرحه أماديو دي برادو في إحدى تأمُّلاته المقتضبة.

فتح غريغوريوس حقيبته وأخرج منها كتابَي «*الزلزال الكبير*» و«*الموت الأسود*» ثمّ وضعها على الطاولة. شغَّل السخّان في جميع الغرف وأدار مفتاح آلة الغسيل، ثمّ بدأ في قراءة كتاب يتحدّث عن وباء الطاعون الذي اجتاح البرتغال في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. لم تكن البرتغاليّة التي كُتب بها صعبة، وهو ما جعلهُ يتقدّم في القراءة بشكل جيّد. وبعد هنيهة، أشعل آخر سيجارة بالعلبة التي اشتراها قبل أيّام من المقهى القريب من منزل ميلودي. إنّها المرّة الأولى التي يحلِّق فيها

دخانُ سيجارةٍ في الجوّ منذ خمس عشرة سنة قضّاها هنا، في هذه الشقّة. ومن وقت إلى آخر، يتذكّر زيارته الأولى إلى يوحنّا إيسا كلّما أنهى قراءة فصل من الكتاب. فيُخيَّل إليه أنّ الشاي السَّاخن يُلهب حنجرته الآن، الشاي الذي تجرَّعه وقتها ليسهِّل الأمر على يديْ إيسا المرتعشتين.

عندما ذهب نحو الخزانة لجلب قميص صوفيّ أكثر خشونة، تذكّر القميص الذي لفَّ فيه «العهد القديم» في المعهد المهجور. وتذكّر جلوسَه في مكتب السيّد كورتس وقراءَته سفرَ أيّوب، وشعاع الشمس المتراقص في الغرفة يبعث على الفرح. تذكّر غريغوريوس أليفاس التيماني وبلداد الشوحي وصوفر النعماني. ثمّ تراءت له لافتة إعلان الوصول إلى محطّة سالامنكا. واستعاد الإحساس بالفترة التي كتب فيها أوَّل كلمات له باللغة الفارسيّة على اللوحة الحائطيّة المعلَّقة في غرفته، على بعد أقلّ من مائة متر من هنا، في إطار تحضيراته لرحلته إلى أصفهان. تناول ورقة وأطلق العنان لذاكرة يده فبدأت بعض الخطوط والدوائر والنقاط الصغيرة في التشكّل، ثمّ انقطعت فجأة.

قُرِع جرس الباب فانتفض في مكانه. إنّها جارته فرو لوسلي. لقد انتبهت إلى عودته وهي تزيح الحصير. سلَّمته البريد ومفتاح صندوق الرسائل واطمأنّت على أنّه قضّى عطلة طيّبة، ثمّ سألته عمّا إذا كانت هناك عطل مدرسيّة مبكِّرة هذه السنة.

كانت رسالة كاجي هي الوحيدة التي تهمُّ غريغوريوس من بين البريد كلّه. وعلى غير عادته لم يستعمل سكّين قطع الورق لفَضِّها، ومزَّق الظرف على الفور.

«عزيزي غريغوريوس،

لم أرغب في ترك رسالتك بلا ردّ لأنّها تركت فيّ أثرًا بالغًا وأنا على ثقة بأنّك ستفتقّد بريدك ذات يوم، مهما يَطُل سفرك.

من بين كلّ الأشياء المهمّة التي أودُّ قولها لك، هو أنّ معهدنا يبدو في غيابك خاليا على نحو غريب. ولعلّك تدرك مدى اتساع هذا الفراغ، إذا عرفتَ ما قالته فجأة فيرونيك لودويان اليوم في قاعة الأساتذة: «لقد شعرتُ بالكراهية تجاهه في بعض الأحيان، وذلك بسبب تصرّفاته العفويّة والفظّة، ولو أنّه كان على شيء من الأناقة لاختلف الوضع حقًّا. إنّه لا يفارق تلك الأسمال الرثّة البالية. ولكن أقول، بل عليّ أن أقول، إنّني، بطريقة أو بأخرى، أشتاق إليه. إنّه لأمر غريب حقًّا!» وما تقوله زميلتنا الفرنسيّة المحترمة لا يمثّل شيئًا أمام ما نسمعه من التلاميذ. وسأسمح لنفسي بأن أضيف، من بعض الفتيات تحديدا. لقد وجدت نفسي داخل فصلك اليوم، وتراءى لي غيابك كظلّ كبير أسود، وتساءلتُ عن مصير مباراة الشطرنج؟

ماركوس أوريليوس: قطعًا هو! فأنا وزوجتي، إذا كان لي أن أسِرّ لك بهذا، يتزايد عندنا في هذه الأيام شعورٌ بأنّنا سنفقد طفلينا. إنّه ليس فقدانًا بسبب المرض أو بسبب حادث مّا، بل هو أسوأ من ذلك: إنّهما يرفضان أسلوب عيشنا بأكمله، وهما لا يُظهران أيّ تهذيب في طريقة حديثهما. هناك أوقات تبدو فيها زوجتي على وشك الانهيار، لذا فإنّ تذكيرك إيّاي بالإمبراطور الحكيم رائعٌ. ودعني أضيف شيئًا آخر، أتمنّى ألاّ يزعجك: كلّما لمحتُ الظرف الذي عليه خطّك، الظرف الذي لا يريد أن يختفي من مكتبي، شعرتُ بشيء من الغيرة. أن تقف هكذا ببساطة

وتمضي. أيّ شجاعة هذه ! «لقد وقف ببساطة وغادر الفصل». هذا ما يردِّده التلاميذ باستمرار. «هكذا ببساطة: وقف وغادر الفصل».

سيظلّ مكانك شاغرًا حتّى إشعار آخر. يجب أن تعلم هذا. لقد تكفَّلت أنا بجزء من الدروس، أمّا الباقي فأوكلناه إلى بعض الطلبة، وينطبق ذلك على قسم اللغة العبريّة أيضًا، وأمّا ما يخصّ الشؤون الماليّة فستُرسلُ إليكَ الوثائق اللازمة عن طريق المدرسة.

ماذا يمكنني أن أقول في ختام هذه الرسالة يا عزيزي غريغوريوس؟ الأفضل أن أقول ببساطة: نتمنّى جميعًا أن توصلك رحلتك حقًّا إلى حيثُ تريد سواء تعلّق الأمر بالأماكن الّتي ستزورها، أو بالسلام الروحيّ الّذي تبحث عنه داخلك».

صديقك فيرنير كاجي

هامش: كتبك محفوظة عندي في الخزانة. لن يحصل لها أيّ مكروه، أمّا في خصوص ما هو عمليّ فلي رجاءٌ آخر عندك: هل بإمكانك أن تعيرني ولو لحظة مفاتيحَك، إذا لم يكن في ذلك إزعاج لك؟

وأضاف كاجي بلسان القلم: *أو لعلّك ترغب في الاحتفاظ بها تحسُّبًا لأيِّ أمرٍ طارئ؟*

ظلَّ غريغوريوس جالسًا في مكانه وقتًا طويلاً، بينما أسدل الليل ستاره في الخارج. لم يخطر له أنّ كاجي سيكتب إليه رسالة مماثلة. مرَّ وقت طويل على لقائه به في المدينة ذات يوم، عندما لمحه برفقة طفلَيه. كانوا يضحكون، وكلّ شيء يبدو على ما يرام. لقد أثار إعجابَه ما قالته فيرونيك لودويان عن ملابسه، وبدا على شيء من الحزن وهو يلقي نظرة على بنطال بذلته الجديدة التي ارتداها من أجل الرحلة. عفويٌّ، أجل،

ولكن كيف يكون فظًّا؟ ومن هنّ التلميذات اللاتي اشتقن إليه، باستثناء ناتالي روبان وروث غوتش، ربّما؟

عاد لأنّه أراد أن يكون هنا مرّة أخرى، في المكان المألوف جدًّا عنده، حيث لا يُجبَر على الحديث بالبرتغاليّة أو الفرنسيّة أو الإنجليزيّة. لماذا تحدّث كاجي فجأة عن قراره هذا كما لو أنّه أمر صعب، وهو في الحقيقة أسهل شيء على الإطلاق؟ لماذا بدا له، وهو يسير باتجاه ساحة بوبنبيرغ، أنّ هبوط الليل هنا أهمُّ من الليلة التي سافر فيها عبر القطار؟

وصل إلى الساحة بعد مرور ساعة، وانتابه شعور بأنّه عاجز على أن يطأها. أجل، قد يبدو هذا الأمر غريبًا لكنّ التوصيف في محلّه: لم يعد قادرًا حقًّا على وطء ساحة بوبنبيرغ. تجوّل فيها ثلاث مرّات، وانتظر عند الإشارة الحمراء وجال بنظره في جميع الاتجاهات: نحو السينما ومكتب البريد والنصب التذكاريّ والمكتبة الإسبانيّة حيث عثر قبل أيّام على كتاب دي برادو، وبعيدًا عن محطّة الترامواي، لمحَ الكنيسة ومغازات لواب الكبرى. ابتعد عنها وأغمض عينيه مركّزًا اهتمامَه على ما يمارسه جسده الثقيل من تأثير على الأرصفة. سرت موجة من الدفء في جسده حتّى أخمص قدميه، وبدا الشارع كأنّه آتٍ للقائه. ولكنّه تسمَّر في مكانه: لقد عجز تمامًا عن وضع قدميه في الساحة. ليس الشارع فحسب بل الساحة بأكملها، بحميميّتها القديمة وبعشرات السنين التي أتت للقائه. لكنّ الشوارع والمباني والأضواء والضوضاء لم تتمكّن قطْعًا من الوصول إليه بالكامل. ولم تستطع تخطّي الفجوة الأخيرة الرقيقة مثل نسمة حتّى تقترب منه أكثر فأكثر وتذكّره بعالم كهذا الذي لم يكن فقط يعرفه أو يعرفه تماما، وإنّما كانَه، العالم الذي كانه دومًا قبل الآن، بطريقة لم يعِ خطورتها إلاّ في هذه اللحظة وهو في عمق فشله.

لم تشعره الفجوة العنيدة والمبهمة بالأمان. وهي لا تعني بأيّة حال من الأحوال مسافة أو سدّا يحميه من المكان إذ يُحاصره. بل كانت على عكس ذلك تثير خوف غريغوريوس، الخوف من الضياع مع كلّ الأشياء الحميمة التي رغب في تذكُّرها حتّى يستعيد نفسه، الخوف من عيش القلق ذاته في هذا المكان مرّة أخرى، القلق الذي سبق أن ألمّ به في لشبونة عند الفجر، ولكن بشكل أكثر مكرًا وأشدّ خطورة. فبعد لشبونة وُجدت بيرن ولكن بعد بيرن الضائعة لا يوجد شيءٌ آخر. وعندما اصطدم بأحد المارّة بسبب تحديقه المستمرّ في الأرض الصلبة وهي تتراجع تحت قدميه، تملَّكه الدوار. وللحظة دارَ كلّ شيء من حوله. أمسك رأسه بكلتا يديه كأنّه يرغب في تثبيته. وعندما استعاد ثقته وهدوءه رأى امرأة تتبعه بنظراتها وقرأ في عينيها أنّها ربّما تودّ مساعدته.

كانت ساعة كنيسة الروح القدس تشير إلى الثامنة إلاّ بضع دقائق، وكان الجوّ باردًا. هدأت حركة السير وتبدَّدت الغيوم وأصبح بالإمكان رؤية النجوم المتلألئة. عبر غريغوريوس الكلين شانز، السور الصغير الذي يحيط بالمدينة، وواصل طريقه إلى رصيف الاتحاد. غمره شعور بالانفعال والتأثّر وهو يقترب شيئًا فشيئا من اللحظة التي سيعبر فيها جسر كرشنفلد كما فعل دومًا منذ سنوات عديدة، في تمام الثامنة إلاّ الربع صباحًا.

كان الجسر مسدودًا بسبب إصلاحات سكك الترامواي الّتي بدأت أثناء الليل وتواصلت إلى الفجر. «وقع حادث خطير»، قال أحدهم عندما رأى غريغوريوس وهو يحدّق في لوحة الإعلانات.

دخل إلى فندق الواجهة الجميلة واتجه نحو المطعم يحدوه شعورُ من ألِفَ تصرُّفًا بدا له غريبًا قبل الآن. لم يتغيّر شيء: الموسيقى الهادئة،

سترة النادل بلونها البنّيّ الفاتح، والأواني الفضيّة. طلب طعامًا وطرقت تفكيرَه عبارةُ *«بلسم الخيبة»*. وهنا تذكّر يوحنّا إيسا عندما قال متحدّثًا عن برادو: «كثيرًا ما استمتع برادو بأنّنا، نحن البشر، نتّخذ العالمَ مسرحًا لحياتنا ورغباتنا. وقد اعتبر هذا الوهم أصلَ كلّ ديانة، بينما لا توجد ذرّة واحدة من الحقيقة في كلّ ذلك. هذا ما اعتاد قوله ببساطة. ما يزال الكون في مكانه غير مبالٍ، إنّها لامبالاة تامّة وحقيقيّة بكلّ ما يصدر عنّا».

أخرج غريغوريوس كتاب دي برادو وفتّش بين صفحاته عن عنوان يتضمَّن كلمة Cena (مشهد). وعندما حضر الطعام، عثر أخيرًا على ضالّته.

مشهد مثير للسخرية

ينتظر العالم، باعتباره مسرحًا، أن تؤدّى على ركحه المسرحيّة المهمّة والحزينة، الساخرة والتافهة الّتي غالبًا ماتكون ثمرة تصوّراتنا. كم تبدو هذه الفكرة مؤثّرة وساحرة! وكم هي حتميَّة أيضًا!

ولج غريغوريوس شارع مونبيجو بخطى بطيئة، وسار عبره على الجسر في اتّجاه المعهد. لم يرَ المبنى من هذه الزاوية طيلة سنوات عديدة. لقد بدا له غريبًا على نحو عجيب بعد أن اعتاد الدخول إليه في الماضي من الباب الخلفيّ. والآن ليس أمامه سوى الباب الرئيسيّ. وكلّ شيء غارق في الظلمة. دقَّ جرسٌ معلنا الساعة التاسعة والنصف.

في هذه اللحظة، ركن رجلٌ درّاجته واتّجه نحو المدخل، فتح الباب واختفى في الداخل. إنّه بوري الرائد، يأتي إلى هنا في المساء أحيانًا لتحضير تجربة في الفيزياء أو الكيمياء من أجل حصّة يوم الغد. واشتعل الضّوء في المخبر خلف المبنى.

تسلَّل غريغوريوس في هدوء، وهو لا يحمل أيّ فكرة عمّا يريد فعله هناك. صعد إلى الطابق الأوّل على أطراف أصابعه. كانت أبواب قاعات الدرس مقفلة وعجز عن فتح باب المدرج الكبير. شعر أنّه منبوذٌ، على الرّغم من أنّه ليس لهذا أيّ معنى. أحدث نعله خَفْقًا خافتًا على مشمَّع الأرضيّة، وبدا القمر يلمع بخجل خلف النافذة. وفي هذا الضوء الشاحب حدَّق في كلّ شيء بطريقة لم يعهدها من قبل، لا عندما كان أستاذا ولا وهو تلميذ أيضا: مقابض الأبواب، درابزين الدرج، الخزائن المخصَّصة للتلاميذ، عكست له كلّ هذه الأشياء آلاف النظرات القديمة، وبدت من ورائها مختلفة عن ذي قبل. وضع يده على المقابض وشعر بصلابتها الباردة ثمّ تقدَّم كظلّ كبير وبطيء بخطى هاربة في الأروقة.

في الطابق الأرضيّ، وفي الطرف الآخر من المبنى، أسقط بوري شيئا، ودوّى صوت ارتطام الكأس المكسورة في ردهة المدخل. فُتح أحد الأبواب ووجد غريغوريوس نفسه داخل القاعة التي شاهد فيها وهو تلميذ أولى كلماته الإغريقيّة مكتوبة على اللوح قبل ثلاث وأربعين سنة من الآن. لقد دأب على الجلوس دومًا من جهة اليسار ولم يُغيِّر عادته تلك إلى اليوم. في ذلك الوقت كانت إيفا العجيبة، وهي تسبقه بمقعدين، ترفع شعرها الأحمر على هيئة ذيل حصانٍ، وكان باستطاعته أن يتأمَّله لساعات وهو يتراقص من كتف إلى أخرى فوق الصِّدار أو الكنزة الصوفيّة. أمّا بِيت زوربريجين، شريكه في المقعد طوال تلك السنوات، فغالبًا مانام خلال الدرس، وهو أمر يثير سخرية الجميع. لكن تبيّن لاحقًا أنّه يعاني من اضطرابات أيضيَّة قضت عليه وهو ما يزال في ريعان الشباب.

عندما غادر غريغوريوس القاعة كان يعرف مسبقًا لماذا يستغرب

وجوده في هذا المكان: إنّه التلميذ القديم الذي ركض في الأروقة وداخل نفسه، ولطالما نسي موندوس الأستاذ الذي سبق أن عبر ردهة المدخل خلال عشرات السنين. هل باستطاعتنا، ونحن نعود إلى الشخص الذي كنّاه في الماضي، أن ننسى ذاك الذي أصبحنا عليه لاحقًا رغم أنّ هذا الثّاني هو الرّكح الذي تُعرض عليه مآسي الأوّل؟ وإن لم يكن هذا نسيانا، فماذا يكون إذن؟

في الأسفل، يركض بوري في الرواق وهو يطلق الشتائم. مؤكّد أنّ الباب الذي صفقه هو باب قاعة الأساتذة. وسمع غريغوريوس صرير المفتاح في قفل باب المدخل أيضا: لقد أصبح حبيسَ المكان.

بدا الأمر كما لو أنّهُ استيقظ للتوّ. لكنّه ليس صحوًا يجعله يعود إلى الأستاذ الذي كانه. إنّها ليست عودةً إلى موندوس الذي قضى حياته في هذا المبنى. هذه الحالة الواعية تخصّ الزائر السريّ الذي لم يتمكّن خلال السهرة من وضع قدميه في ساحة بوبنبيرغ.

نزل غريغوريوس إلى قاعة الأساتذة التي نسي بوري إغلاق بابها، وهو في قمّة انزعاجه. نظر إلى أريكة اعتادت فيرونيك لودوايان الجلوسَ عليها دومًا وتذكّر قولها:

«أقول، بل عليّ أن أقول إنّني، بطريقة أو بأخرى، أشتاق إليه».

وقف لحظة قرب النافذة وحدّق في الليل. تراءت له صيدليّة أوكلِّي وقد كتب على الواجهة الزجاجيّة من بابها الأخضر المذهّب: *الباب الأيرلندي*. رفع سمّاعة الهاتف واتصل بالصيدليّة. كان ينوي ترك الهاتف يرنُّ طوال الليل في الصيدليّة الخالية والمضاءة كما في وضح النهار، إلى أن يأتي جورج صباحًا ويشعل أوّل سيجارة خلف النّضد، وقد صحا من

سكره. ولكن بعد وقت قصير فاجأته إشارة إلى أن الخطّ مشغول، عندئذ أقفل غريغوريوس السمّاعة، وعندما اتصل مرّة أخرى بالاستعلامات ليطلب السفارة السويسريّة بأصفهان، أجابه صوت رجل غريب وأجشّ فوضع السمّاعة جانبا. *هانس غومور*، قال في نفسه، *هانس غومور*.

قفز من النافذة المحاذية للباب الخلفيّ وترك نفسه يسقط أرضا. شعر بدوار وتشبّث بمسند الدرّاجة ثمّ اتجه نحو الملحق واقترب من النافذة التي فرَّ عبرها سابقًا خلال حصّة اللغة الإغريقيّة. تراءت له «المدهشة» مرّة أخرى وهي تلتفت إلى شريكتها بالمقعد لتثير انتباهها إلى طريقة الفرار المذهلة تلك. كان زفيرها يحرِّك خصلات شعر رفيقتها وبقع النمش تزيد في إظهار دهشتها بينما تتسّع عيناها ذواتا النظرة الفضيّة.

فجأة، استدار غريغوريوس وغادر المكان في اتجاه جسر كرشنفلد، ناسيًا أنّه مغلق. سار باتجاه شارع مونبيجو وهو يشعر بالانزعاج. وعندما وصل إلى ساحة الدببة، كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل.

غدًا، يوم السوق الأسبوعيّة، السوق المليئة بالنساء الجالسات وراء مناضد العرض وصناديق النقود. تناهى إلى سمعه صوت أوكلِّي: *«كنت أسرق الكتب. يجب ألاّ تُشترى الكتب بالمال. هذا ما اعتقدته في تلك الفترة ومازلت عند رأيي»*. وواصل طريقه باتجاه شارع العدالة.

كانت شقّة فلورانس مطفأة رغم أنّها لا تنام مطلقًا قبل الساعة الواحدة. لم يحدث معها هذا قَطُّ. انتقل غريغوريوس إلى الجهة الأخرى من الطريق واختبأ خلف عمود وظلَّ ينتظر. فعل ذلك آخر مرّة منذ أكثر من عشر سنوات وفلورانس عائدة إلى المنزل وحدَها بخطى متعبة ومتكاسلة، أمّا الآن فهي برفقة رجل آخر: *«مع ذلك، باستطاعتك أن*

تقتني لنفسك ملابس جديدة. في النهاية أنت لا تعيش بمفردك ولهذا فإنّ اللغة الإغريقيّة وحدها لا تكفي». ألقى غريغوريوس نظرة خاطفة على بذلته الجديدة. إنّه أكثر أناقة من الرجل الآخر. وعندما اقتربت فلورانس خطوة باتجاه الشارع الذي تسكنه، وأضاءها ضوء العمود الكهربائيّ، انتابه شعور بالخوف: لقد ابيضَّ شعرها في عشر سنوات، وها هي في منتصف الأربعينات ترتدي ملابس تظهرها في الخمسين من عمرها. شعر غريغوريوس بالغضب يجتاحه: أَوَلم يسبق لها قطُّ أن سافرت إلى باريس؟ هل هذا الرجل البائس الذي يرافقها، الشبيه بموظّف ضرائب بشع، هو من دمَّر ذوقها الراقي؟ عندما وصلت فلورانس إلى شقّتها، فتحت النافذة وأطلَّت منها إلى الخارج. كم رغب في الظهور من خلف العمود والتلويح إليها بيده!

اتجه لاحقًا نحو لوحة النواقيس المنزليّة. إنّ لقبها قبل الزواج هو فلورانس دولارونج، وإذا صحّت إشارات الألواح فسيكون لقبها اليوم ماير. يا له من لقب عاديّ وبسيط! كم كانت طالبة الدكتوراه السابقة أنيقة وهي جالسة إلى الطاولة في مقهى الكوبول! وكم تبدو امرأةُ اليوم بورجوازيّة وشاحبة! وبذهابه نحو محطّة القطار واتجاهه بعد ذلك إلى لانغاس، استسلم غريغوريوس لِغضب تملّكهُ شيئًا فشيئا وأصبح مُبهَمًا عنده مع كلّ خطوة يخطوها، ولم ينجلِ إلاّ عند وصوله أمام العمارة البائسة حيث عاش في السابق.

كان باب المنزل مغلقا، لكنّ الرافدة تنقصها قطعة زجاج. وضع غريغوريوس أنفه أمام الفتحة: ما تزال رائحة الملفوف تفوح من هذا المكان. بحث عن نافذة الغرفة الصغيرة التي سبق أن كتب فيها الكلمات

الفارسيّة على اللوحة الحائطيّة. لقد اتخذت حجما أكبر وتغيّر إطارها. تذكّر أنّهُ لطالما استشاط غضبًا كلّما دعتهُ والدتهُ إلى طاولة الطعام بنبرة سلطويّة وهو يقرأ، بتأثّر شديد، كتابَ قواعد اللّغة الفارسيّة.

عثر على روايات *لودوفيغ غانغوفر* المحليّة فوق المنضدة: *الكيتش هو أشدّ السجون مكرًا. قضبانه مكسوّة بذهب المشاعر المبسّطة، والوهميّة، حتّى إنّنا لَنحسبُها أعمدة أحد القصور*... هذا ما كتبه برادو ذات يوم.

في تلك الليلة، لم ينم غريغوريوس جيّدا. وعندما استيقظ، لم يعرف أين هو بالضبط. في نومه هزّ كلّ أبواب المعهد وتسلّق كلّ الفتحات. وفي الصباح عندما سرت الحياة في المدينة، لم يعد واثقًا من أنّه كان حقًّا في كرشنفلد.

في غرفة تحرير صحيفة بيرن الكبرى، لم يلقَ ترحيبًا خاصًّا، وتأسّف غريغوريوس على حفاوة أوغستينا، الصحفيّة التي تعمل في صحيفة الأخبار اليوميّة بلشبونة. سأل عن إعلان يعود إلى أفريل 1969. وبعد أن تركوه بمفرده في الأرشيف، على كره منهم، وجد أخيرًا عند الظهر، اسمَ رجل الأعمال الذي بَحَث عن مدرِّس لأبنائه. وعثر في دليل الهاتف على ثلاثة أشخاص يحملون اسم هانس شنايدر، ولكنّ واحدًا منهم فقط حاصل على شهادة مهندس وعنوانه في ألفينو.

ذهب غريغوريوس إلى هناك ودقَّ الجرس، يحدُوه شعور بأنّهُ يسير في الطريق الخطإ. أمّا الزوجان شنايدر فاعتَبرا أنّ من المتعة المُرحّب بها شربَ فنجان من الشاي بمنزلهما الفخم مع رجل كان يمكن أن يدرّس أبناءهما ذات يوم. هما في سنّ الثمانين تقريبًا. تحدّثا عن الزمن الجميل تحت حكم الشاه، زمنِ جمع ثروتهما. وتساءلا لماذا سحب ترشّحه فجأة؟

فهو شابّ حاصل على شهادة في اللغات القديمة، وهو ما رغبا فيه تحديدا. لكنّ غريغوريوس حدَّثهما عن مرض والدته وسرعان ما غيّر مسار الحديث.

كيف هو مناخ أصفهان؟ تساءل أخيرًا. هل ثمّة حرارة شديدة أو عواصف رمليّة؟ في كلّ الأحوال، لا يُخشى من شيء هناك لاسيّما عندما تكون مساكننا شبيهة بمساكن ذلك الوقت، أجابا عن أسئلته ضاحكَيْن وذهبا للإتيان ببعض الصور. ظلّ غريغوريوس هناك إلى المساء أمام دهشة الزوجين شنايدر وافتتانهما باهتمامه بذكرياتهما، حتّى إنّهما قدَّما له هديَّةً تمثّلت في كتاب صورٍ عن أصفهان.

قبل أن يخلد إلى النوم، أخذ غريغوريوس يتأمَّل مساجد أصفهان وهو يستمع لاسطوانة دروس اللغة البرتغاليّة، ثمّ نام يغمره إحساس بأنّ لشبونة تذوي مثلها مثل بيرن. وبات يجهل معنى ألاّ يذوي مكان مّا بالنسبة إلى المرء.

عندما استيقظ حوالي الساعة الرابعة فجرا، شعر برغبة في الاتصال بدوكسيادس. ولكن ماذا في وسعه أن يقول له؟ إنّه هنا وإنّه مع ذلك لم يعد بعدُ؟ إنّه جعل قاعة الأساتذة مركزَ اتصالات لخدمة أحاسيسه المضطربة؟ وإنّه لا يصدّق حدوثَ كلّ هذا فعلا؟

لمن باستطاعته الاعتراف بكلّ هذا إن لم يكن للإغريقيّ؟ وعندها تذكّر غريغوريوس السهرة الغريبة التي حاولا خلالها رفع الكلفة بينهما.

- اسمي قسطنطين، قال له دوكسيادس فجأة خلال مباراة الشطرنج.

- ريموند، ردّ غريغويوس.

لم يحتفلا بصداقتهما الناشئة، لم يشربا على نخبها، لم يتصافحا، حتّى نظراتهما لم تلتقِ.

«هذه دناءة من قِبَلك!» قال الإغريقيّ عندما أوقعه غريغوريوس في الفخّ.

لم يخلق ذلك انطباعًا حسنًا لديه، وشعر غريغوريوس أنّ الإحساس نفسه تملَّكهما معًا.

«يجب عليك ألاّ تقلِّل من شأن دناءتي»، قال.

وتجنّبا رفع الكلفة خلال ما تبقّى من السهرة.

-طابت ليلتك غريغوريوس، قال الإغريقيّ عندما افترقا.

-ولك بالمثل دكتور، قال غريغوريوس.

وتوقّف كلّ شيء هناك.

هل إنّ ذلك يمثّل دافعًا إلى عدم إخبار الإغريقيَّ بشيء حول ما يتعثّر به من فوضى عبر بيرن؟ أم إنّ حميميّتهما الباردة تتلاءم بالأساس مع حكاية كهذه؟

اتصل غريغوريوس برقم دوكسيادس وعندما رنّ الهاتف للمرّة الثانية، أقفل الخطّ. فلا شكّ أنّ الإغريقيّ يتصرّف بفظاظة أحيانًا، ككلّ سائقي سيّارات الأجرة في سالونيك.

تناول كتاب دي برادو وشرع في القراءة، تمامًا كما حصل قبل أسبوعين من الآن وهو جالسٌ إلى طاولة المطبخ ومصراع النافذة مُوارَبٌ. شعر بأنّ الجمل التي كتبها الأرستقراطيّ البرتغاليّ في علِّيَّة المنزل الأزرق ساعدته على أن يكون في المكان المناسب: لا في بيرن ولا في لشبونة.

نحن نعيش هنا وفي هذه اللحظة بالذات ما كان في السابق وفي أماكن أخرى يمثّل الماضيَ والمنسيَّ عند الأغلبية، الماضي الذي بدت بقيّة صغيرة منه سهلة المنال في أجزاء الذكرى المرتبكة والمشوَّشة، تلك التي تضيء مصادفة وبالتناوب لتنطفئ من جديد. هكذا تعوَّدنا على تخيُّل أنفسنا بأنفسنا وهذه هي الطريقة البديهيّة للتفكير عندما نوجّه نظرنا نحو الآخرين. إنّهم هنا في الواقع وهم الآن ماثلون أمامنا وليس في مكان آخر ولا في زمن آخر. وكيف سنتخيّل علاقتهم بالماضي إذا لم يكن ذلك على شكل حلقات ذكرى باطنيّة تكمن حقيقتها الحصريَّة في مسارها الحاضر؟

ولكنّ الأمر في أعماق الوجدان مختلف جدًّا. هنا، نحن لا نقتصر على حاضرنا الخاصّ ولكنّنا ممتدّون إلى حدّ بعيد في الماضي. إنّه تأثير مشاعرنا ولاسيّما تلك العميقة جدًّا، تلك التي تحدِّد من نحن وماذا يعني أن نكون نحن. لأنّ هذه المشاعر لا تعرفُ الزمن ولن تعرفه. سيكون خطأً محضًا أن أقول: ما أزالُ الفتى الجالسَ على العتبات أمام المدرسة، الفتى الممسكَ بطاقيّته في يده، الفتى الذي حامت نظرته باتجاه مدرسة البنات من أجل رؤية ماريا يوحنّا. وهذا، بطبيعة الحال، ليس صحيحا، فقد مرّت على ذلك أكثر من ثلاثين سنة. ومع هذا فالأمر صحيحٌ أيضًا. دقّات قلبي أمام الأعمال الصعبة هي ذاتها دقّات قلبي التي تتسارع عندما يدخل السيد لانكواس، أستاذُ الرياضيات، إلى القاعة. وفي القلق الذي يثيره فيّ كلّ صاحب نفوذ، ما تزال كلمات والدي الصارمة تضجّ

داخلي وهو يقولها بظهره المحنيّ. ومازلتُ أتوقّف عن التنفّس كلّما زلزلتني نظرة مشرقة من امرأة مّا، كما هو الحال دومًا كلّما التقت نظراتنا أنا وماريا يوحنّا من نافذة مدرسة إلى أخرى. ما أزال هناك، عند ذلك المكان الغائر في الزمن، لم أغادره قطُّ، لكنّني أعيش فيه منفتحًا في الماضي، فيه أو من خلاله. إنّه حاضرٌ هذا الماضي، وليس مجرَّد ومضات خاطفة من الذكرى. آلاف تغييرات تُسرِّع الزمن بمقياس هذا الشعور الأبديّ الحاضر، آلاف تغييرات هاربة وهميّة مثل حلم ومخادعة أكثر من رؤى الأحلام ذاتها، جعلتني أعتقد أنّني رجل، وطبيب يأتيه الناس محمَّلين بآلامهم وهمومهم، يملك ثقة خرافيّة في النفس ولا يعرف الخوف. إنّ الثقة المرتبكة التي أقرؤها في نظرات أولائك الذين يبحثون عن المساعدة تدفعني إلى الوثوق فيها ماداموا أمامي. ولكن ما إن يغادروا عيادتي حتّى تنتابني رغبة الصراخ في وجوههم: ومع كلّ ذلك ما أزال فتى قلقًا على عتبات المدرسة. لا أهمّية لهذا على الإطلاق، حتّى إنّ جلوسي خلف مكتبي الضخم وأنا أرتدي ميدعتي البيضاء، وأقدّم لكم النصائح هو كذبة، فلا تنخدعوا بما نسمّيه، بسطحيّة سخيفة: الحاضر.

ونحن لسنا منتشرين في الزمان وحده بل في المكان أيضًا حيث نتمدَّد فيه بعيدا، فيما وراء المرئيّ. نحن نترك شيئًا منّا عندما نهجر مكانًا مّا، نحن نظلّ فيه حتّى إن هجرناه، وثمّة أشياء داخلنا لن نعثر عليها إلاّ إذا عدنا إليه. نحن نقترب من ذواتنا ونذهب نحوها عندما تحملنا هزّات العجلات الرتيبة إلى مكان قطعت فيه حياتنا جزءا من طريقها مهما يكن قصيرا. عندما نضع للمرّة الثانية أقدامنا

على رصيف محطّة غريبة، ونسمع الأصوات الصادرة عن مكبّرات الصوت، مستنشقين روائح لا مثيل لها، فهذا يعني أننا لم نصل إلى هذا المكان البعيد فحسب، وإنّما إلى أبعد نقطة في أعماقنا أيضًا، في ركن ربّما قصيٍّ تمامًا من ذواتنا، ركن يختفي عندما نكون في مكان آخر، غير مرئيّ في الظلّ. وإلاّ لمَ يغمرنا انفعال وعاطفة شديدان عندما ينطق المراقب بصوت عالٍ اسم المكان الذي وصلنا إليه، عندما نسمع صرير الفرامل وقد التهمنا الضوء المنبثق فجأة من ردهة المحطّة؟ ولماذا تكون اللحظة التي يصل فيها القطار إلى محطّته الأخيرة إثر هزّة نهائيّة لحظةً ساحرةً، ودراميّة بشكل صامت؟ هذا لأننا نستعيد من جديد حياة عشناها وهجرناها حين شعرنا بأوّل هزّة للقطار المتحرِّك منذ وضعنا أقدامنا على هذا الرصيف الغريب الذي لم يكن كذلك حقًّا. أيّ شيء أكثر إثارة من استعادة حياة متوقِّفة بكلّ وعودها؟

نحن نرتكب خطأً وعنفًا عبثيًّا عندما نركِّز انتباهنا على المكان والزمان الحالِّيين، مقتنعين هكذا بالحصول على الضّروريّ. أهمّ شيء بالفعل هو أن نتجوَّل واثقين وهانئين، يغمرنا المرح الملائم والحزن الكافي في أعماقنا التي تعكسنا، منتشرين في الزمان وفي المكان. لماذا نتذمّر من الناس الذين ليست لهم القدرة على السفر؟ لأنهم لمّا منعهم شيءٌ مّا من الانتشار خارجيًّا عجزوا أيضًا عن الانتشار داخليًّا، ليس بإمكانهم أن يتعاظموا، وهكذا فهم محرومون من إمكانيّة مباشرة رحلات طويلة في أعماقهم واكتشاف ما بإمكانهم أن يكونوا عليه أيضًا.

عندما طلع النهار، ذهب غريغوريوس إلى المحطَّة واستقلَّ أوّل قطار متّجه إلى موتييه، في جورا. أجل، موتييه ليست مجرّد مدينة سبق أن هُزم فيها أمام الرجل صاحب الوجه المربَّع والجبين المنحسر والشعر المنفوش، لأنّه لم يحتمل بطء الرّجل في تنفيذ حركاته. موتييه مدينة حقيقيّة، بمبنى بلديّة ومراكز تجاريَّة وقاعات شاي.

بحث غريغوريوس دون جدوى ولمدّة ساعتين عن المكان الذي جرت فيه المباراة الماضية. ليس باستطاعتنا البحث عن شيء لم نعد نعلم عنه شيئا. تعجَّبت النادلة في قاعة الشاي من أسئلته المرتبكة والمتقطّعة، ثمّ همست بشيء إلى زميلتها.

عاد من جديد إلى بيرن في بداية الظهيرة، واستقلَّ القطار السلكيّ ليذهب إلى الجامعة. كان الطلبة في عطلة. جلس في المدرج الشاغر، وتذكّر برادو وهو جالس في مدرج كويمبرا. حسب الأب بارتولومو، بإمكان برادو أن يكون قاسيا في مواجهة الغرور: قد يتحوّل إلى شخص قاسٍ إذا حاول أحدهم ادِّعاء العلم أمامَه، وقد يُكنُّ له العداء. وهو يحمل دومًا قطعة طبشوره الخاصّة في جيبه عندما يدعى إلى السبورة ليُختبَر. سبق لغريغوريوس أن جلس في هذه القاعة قبل سنوات عديدة، وعلى مرأى من الطلبة المتفاجئين، لينصت إلى إحدى المحاضرات حول يوريديس. وقد أشعره بالذهول ما لُفظ هنا من هراء متبجّح. وكم تمنّى غريغوريوس أن يصرخ في وجه الأستاذ المحاضر الشابّ قائلا: «لماذا لا تعيد قراءة النصّ؟ اقرأ: فقط وبكلّ بساطة، اقرأ!» وبما أنّ الرجل أكثَرَ من التمادي في الخلط بين مفاهيم فرنسيّة تبدو كأنّها ابتُدعت لتتلاءم مع قميصه الورديّ، فإنّ غريغوريوس غادر المحاضرة وهو يقول في نفسه «إنّه لأمرٌ مؤسف أن أغادر ولا أصرخ في وجه هذا الدَّعي».

في الخارج، توقّف بعد بضع خطوات وحبس أنفاسه. كانت ناتالي روبان تفتح باب مكتبة هوبت. مؤكّد أنّ الحقيبة التي تحملها تحوي كتابَ قواعد اللّغة الفارسيّة، قال غريغوريوس في نفسه، وهي الآن في طريقها إلى مكتب البريد، لكي ترسل إليه الكتاب هناك في لشبونة.

لعلّ هذا ليس كافيا وحده، قال غريغوريوس في نفسه لاحقا. ربّما كان عليه أن يظلّ هنا، أن يتأخّر بعض الوقت في ساحة بوبينبرغ حتّى يتمكّن من وطئها مرّة أخرى. ولكن بعد ذلك، مع حلول الغروب، في هذا اليوم الحزين، أُشعلت الأضواء في كلّ الصيدليّات وتناهى إلى سمعه صوت أوكلّي وهو يقول: *«قطع الضوء»*. وبما أنّ الكلمات كانت ترفض الحضور فقد ذهب غريغوريوس إلى البنك وحوَّل مبلغًا مهمًّا إلى حسابه الجاري. «حسنا، أخيرًا أصبحتَ في حاجة إلى مالِكَ أنت أيضا»، قالت موظّفة البنك.

أخبر جارته فرو لوسلي بأنّه مضطرّ إلى السفر فترة طويلة وأنّ باستطاعتها مواصلة استلام بريده وإرساله إليه في المكان الذي سيعلمها بوجوده فيه عبر الهاتف. تمنّت المرأة معرفة المزيد عن الموضوع لكنّها لم تجرؤ على طرح الأسئلة. «كلّ شيء على ما يرام»، قال غريغوريوس وهو يصافحها.

اتصل بالفندق في لشبونة وطلب منهم بكلّ لطف أن يحجزوا له غرفته المعهودة لفترة غير محدَّدة. أخبروه بأنّهُ اتصل في الوقت المناسب لأنّ صندوقًا وصل للتوّ من أجله، وأنّ المرأة العجوز التي سبق أن جاءت لرؤيته عادت من جديد حاملة له رسالة صغيرة. هناك من اتصل به أيضًا وسيجدُ كلّ الأرقام مسجَّلة عندهم. بالإضافة إلى أنّهم وجدوا رقعة شطرنج في الخزانة. هل هي تخصُّه؟

في المساء، ذهب غريغوريوس لتناول العشاء في مطعم «الواجهة الجميلة»، المكان الذي يثق تمامًا أنّه لن يلتقي فيه بأحد. اهتمّ به النادل كما يفعل عادة مع زبون اعتاد ارتياد المحلّ. ثمّ سار غريغوريوس على جسر كرشنفلد بعد أن فُتح من جديد حتّى وصل إلى المكان الذي قرأت فيه المرأة البرتغاليّة الرسالةَ. عندما نظر إلى الأسفل، شعر بالدوار فجأة، وفور عودته إلى منزله قرأ حتّى وقت متأخّر من الليل كتاب «وباء الطاعون في البرتغال»، وقلّب الصفحات بإحساس رجلٍ يفهم البرتغاليّة.

في صباح اليوم التالي ركب القطار باتجاه زيوريخ، ليستقلّ الطائرة التي تُقلع قبل الساعة الحادية عشر بقليل إلى لشبونة. وعندما وصل في بداية الظهيرة، كانت الشمس تلمع في سماء صافية. سارت سيّارة الأجرة والشبابيك مفتوحة. وحمل خادم الفندق حقيبته وصندوق الكتب الذي أرسلته ناتالي روبان إلى غرفته. وبعد أن تعرَّف عليه، استطرد في حديثٍ لا متناه لم يفهم غريغوريوس منه ولو كلمة واحدة.

(25)

هل ترغب في شرب شيء برفقتي؟ هذا ما كُتب في الرسالة المقتضبة الّتي جلبتها كلوتيلد يوم الثلاثاء. وقد وُقّعت هذه المرّة على نحو بسيط وخالٍ من التكلُّف: *أدريانا*.

تأمّل غريغوريوس الأوراق الثلاث التي دُوِّنت عليها أرقام الهاتف. اتصلت به ناتالي روبان مساء الاثنين وخاب أملها حين علمت أنّه غادر لشبونة، وإلاّ ما كان لها أن ترسل عبر البريد كتاب قواعد اللّغة الفارسيّة الذي رآها تحمله بالأمس.

اتصل بها وأخبرها أنّ ما حصل مجرّد سوء تفاهم. لقد قام برحلة قصيرة وهو الآن يقيم بالفندق نفسه من جديد. وحدَّثته عن خيبتها في بحثها عن كتاب *المقاومة*.

«لو كنتُ في لشبونة أراهن أنّني سأعثر على شيء مّا بهذا الخصوص»، قالت.

لكنّ غريغوريوس لم يعقِّب على حديثها.

لقد أرسل إليها مبلغًا كبيرًا جدًّا من المال، واصلت حديثها في الصمت الذي خيَّم على المحادثة، ثمّ أضافت أنّها أرسلت إليه نسخة من كتاب قواعد اللّغة الفارسيّة في هذا اليوم بالذات.

لكنّ غريغوريوس ظلّ صامتًا.

«ألا يزعجك أن أتعلّمها أنا أيضًا؟» سألته، وفجأة ظهر في صوتها قلق لا ينسجم إطلاقًا مع كونها الآنسة النبيلة والمهذبة، ولا مع تلك الضحكة التي جرَّته إليها مؤخّرًا.

لا لا، قال وهو يحاول جاهدًا تصنُّع الفرح، ولكن لماذا؟

- *وداعًا*[1]، قالت.

وداعًا، ردَّ عليها غريغوريوس، ببساطة.

مساءَ الثلاثاء دوكسيادس، والآن هذه الفتاة! لماذا تحوَّل فجأة إلى أمّيٍّ عندما أصبح الأمر متعلّقًا بالقرب والمسافة؟ ولماذا لم يحضَ بصديق يمثّل له ما مثّله جورج أوكلّي بالنسبة إلى برادو؟ صديق باستطاعته أن يشاركه الحديث في مواضيع مثل الإخلاص والحبّ والموت؟

لقد اتصلت به ماريانا إيسا دون أن تترك رسالة، وأعلمه جوزيه أنطونيو دي سلفيرا من ناحية أخرى بأنّه سيسرُّ بدعوته لتناول العشاء في منزله إذا قرَّر العودة إلى لشبونة.

فتح غريغوريوس صندوق الكتب، فوجد كتاب قواعد اللُّغة البرتغاليّة شبيهًا بكتاب اللغة اللاتينيّة إلى درجة أنّه لم يمنع نفسه من الضحك وقرأه حتّى حلول اللّيل. ثمّ فتح كتاب تاريخ البرتغال واستنتج أنّ الفترة التي عاشها دي برادو تزامنت تمامًا مع قيام الدولة الجديدة. قرأ القسم الخاص بالفاشيّة البرتغاليّة والشرطة السرّيّة التي انتمى إليها روي لويس موندز، جزّارُ لشبونة. كان معتقل تارافال أسوأ المعتقلات عند السجناء السياسيين، وهو يوجد في إحدى جزر الرأس الأخضر، في سانتياغو تحديدا. واسمه عند الناس يمثّل رمزًا للاضطهاد السياسيّ.

(1) بالبرتغاليّة في النصّ الأصلي.

ولكنّ أكثر شيء لفت انتباه غريغوريوس هو ما قرأه عن الشبيبة البرتغاليّة، وهي منظّمة شبه عسكريّة على غرار النموذجين الإيطاليّ والألمانيّ تستعيد التحيَّة الرومانيّة التي يؤدّيها الفاشيّون. وينبغي على كلّ الشباب الانخراط فيها، بداية من المدرسة الابتدائيّة حتّى الجامعة. بدأ هذا في سنة 1936 زمن الحرب الأهليّة الإسبانيّة وكان عمر أماديو آنذاك أحد عشر عاما. هل ارتدى هو أيضًا القميص الأخضر الإجباريّ؟ هل رفع يده كما يفعل الألمان؟ تأمَّل غريغوريوس صورته وقال في نفسه: «هذا غير معقول». ولكن كيف استطاع الانسحاب منها؟ هل استعان الأب بتأثيره عليه؟ هذا القاضي الذي كان السائقُ ينقله كلّ صباح في تمام الساعة السادسة إلاّ عشر دقائق، ليكون أوَّل من يصل إلى قصر العدالة، على الرغم من معتقل تارافال؟

في ساعة متأخّرة من الليل، ذهب غريغوريوس إلى الروسيو: هل باستطاعته أن يطأ هذه الساحة كما حصل من قبل مع ساحة بوبنبيرغ؟

وقبل عودته إلى الفندق مرَّ بشارع دوس سباتيروس. وفي صيدلية أوكلِّي كان الضوء مشتعلاً ورأى على النّضد جهاز الهاتف العتيق الذي جعله يرنُّ من مكتب كاجي مساء الاثنين.

(26)

في صباح يوم الجمعة، اتصل بجوليو سيمواس بائع الكتب القديمة. وسأله للمرّة الثانية عن اسم مدرسة اللغات التي سبق أن دلَّه عليها بكتابة عنوانها على ورقةٍ تخلَّص منها غريغوريوس قبل أن يستقلَّ الطائرة إلى زيوريخ. اندهشت إدارة المعهد للهفته عندما أخبرهم بأنّه لا يستطيع الانتظار حتّى يوم الاثنين ولسؤاله عمّا إذا كان يمكن أن يشرع اليوم في تلقّي الدروس.

كانت المرأة التي دخلت بعد ذلك بقليل إلى القاعة المخصَّصة لدروس التدارك متَّشحةً بالأخضر، وبدا لون ظلال العينين منسجما مع لباسها. جلست خلف المكتب في غرفة عالية التدفئة، ونزعت وشاح الفرو من فوق كتفيها وهي ترتجف. «اسمي سيسيليا، فلتتفضَّل بتقديم نفسك، ولماذا أنت راغب في تعلّم اللغة؟» قالت ذلك بصوت صافٍ وشجيّ لا ينسجم مع وجهها العبوس الواهن. ثم أضافت بنبرة بدا أنّها تعكس مللاً عميقا: «تحدَّث بالبرتغاليّة طبعا».

مرَّت ثلاث ساعات فقط عندما وجد نفسه في الخارج وهو يحاول أن يفهم ما اعتمل في داخله تلك اللحظة، ورأسه يتلوّى من شدّة الإرهاق: لقد قبل ما طرحته المرأة العابسة من تحدٍّ جريء كما لو أنّه بداية حركة مدهشة على رقعة الشطرنج. «*لماذا لا تقاوم في الحياة إطلاقًا مع أنّك تبدع في ذلك على رقعة الشطرنج؟*» هذا ما كانت فلورانس تردِّده.

فيردّ هو قائلا: *«لأنني أرى من السخف أن نقاوم في الحياة، يكفي أن نقاوم أنفسنا»*. وها هو الآن يدخل بالفعل في صراعٍ مع المرأة الخضراء. هل شعُرَت فجأة، وبذكاء مدهش تقريبا، أنّ عليها معاملته على ذلك النحو وهو في هذه السنّ؟ هذا ما اعتقد أنّه تنبّأ به، لاسيّما عندما افترّ الوجه العبوس عن ابتسامة نصر تعبّر عن فرحة لرؤيته يُحدث تقدّما. *«كلاّ! كلاّ!»*، احتجّت عندما أخرج كتاب قواعد اللّغة، *«يجب أن تتعلّم وأنت تتحدَّث»*.

تمدَّد غريغوريوس على سريره في الفندق. لقد نهته سيسيليا عن الاستعانة بكتاب قواعد اللّغة، بل عمدت إلى انتزاعه منه، وهو من هو، موندوس! كانت شفتاها تتحرّكان دون توقّفٍ، وشفتا غريغوريوس أيضًا تتحرّكان دون توقّف وهو يجهل من أين تأتي الكلمات، لكنّها كلمات لذيذة، كلمات ناعمة، هذا ما ردّدته المرأة دون كلل. وعندما بدأت تزيح منديلها الأخضر الخفيف عن فمها الذي ينفث الكلمات، ترقّب هو لحظة مناسبة يتمكّن فيها من رؤية شفتيها مرّة أخرى.

عندما أفاق كان المساء يسدل ستاره، ولّما قرع جرس باب منزل أدريانا كان الوقت ليلا. قادته كلوتيلد إلى الصالون.

«أين كنت إذن؟» سألته أدريانا حالما دخل الغرفة.

«أحمل إليك نصّ شقيقك». قال غريغوريوس وهو يناولها الظرف الذي يحوي الأوراق.

تصلّبت ملامح أدريانا وأبقت يديها مضمومتين على ساقيها.

«ماذا تنتظرين إذن؟ سألها غريغوريوس، وقد خامره إحساس بأنّه يحاول القيام بحركة جريئة على رقعة الشطرنج لا يتوقّعُ نتائجها، «ألاّ

يفكّر رجل مثله فيما يجب عليه فعله؟ بعد بَلبلَة كتلك؟ بعد لوم جعله يعيد النظر في كلّ ما دافع عنه؟ أن يمرّ ببساطة إلى أجندة برنامجه اليوميّ؟ لا يمكن أن تتصوّري هذا على نحو جدّيّ».

شعر بالذعر لعنف كلماته الأخيرة وانتظر أن تطرده خارجا.

انفرجت أسارير أدريانا وعلَت وجهَها دهشةٌ توحي بالسرور تقريبا. ومدَّت يدها نحو غريغوريوس وقد ناولها الظرف الذي ظلّت تداعبه لحظةً بظهر كفّها كما سبق أن فعلت مع الأثاث في غرفة أماديو خلال زيارة غريغوريوس الأولى.

«ظلَّ منذ ذلك الحين يزور الرجل الذي التقاه سابقًا في إنجلترا خلال رحلته صحبة فطيما. لقد حدّثني عنه عندما... عندما عاد قبل الأوان، بسببي أنا. إنّه يُدعَى يوحنّا، ولا أعرف ما لقبه. كان أماديو يزوره في أغلب الأحيان ولا يعود إلى المنزل في المساء، ممّا يدفعني إلى صرف المرضى. في الأعلى، يستلقي على الأرض ويدرس مسار السكك الحديديّة. إنّه دائم الهوس بالسكك الحديديّة ولكن ليس إلى ذلك الحدّ. وقد أثّر عليه هذا بشكل سيّء، وبدا الأمر واضحًا جدًّا: إذ غارَ خدّاه وفقَد وزنه وأهمل لحيته، وهذا سيؤدّي به إلى الموت حتمًا، أشعر بذلك».

في النهاية، اكتسب صوتُها من جديد نبرةً حزينة ورَفْضًا مُعلنًا لإدراكها أنّ الماضي ذهب دون رجعة. ولكن عندما خاطبها في البداية، ارتسم على وجه أدريانا تعبيرٌ يمكن أن نعتبره إمكانيّة أو حتّى رغبة جامحة في تهييج استبداد الذكرى والفرار إلى زنزانة الماضي. عندها فقط، جازف بالقول: «منذ زمن بعيد انقطع أماديو عن دراسة مسارات السكك الحديدية، أدريانا. منذ زمن بعيد لم يعد يزور يوحنّا. لم يعد

يمارس الطبّ منذ زمن بعيد. لقد مات أماديو، أدريانا، وأنتِ تعلمين هذا. مات بسبب تمزُّق في الأوعية الدمويّة، قبل واحد وثلاثين سنة، إنّه نصف عمر بشريّ. حدث ذلك في الصباح الباكر بشارع أوغوستا. لقد تمّ الاتصال بك وإخبارك بالأمر». وأشار غريغوريوس إلى الساعة مضيفا: «في تمام الساعة السادسة وثلاث وعشرين دقيقة. هذا ما حدث. أليس كذلك؟».

شعر غريغوريوس بالدوار واستند إلى ظهر الكرسيّ. فقدَ القوّة على تحمُّل هذيان آخر من المرأة العجوز، هذيان كالذي عاشه قبل أسبوع في غرفة الفحص. ما إن ينتهي الدوار سيغادر دون رجعة. ولكن لماذا بحقّ السماء؟ لماذا تصوّر أنّ من واجبه تحريرَ هذه المرأة من ماضيها المرعب وإعادتها إلى الحاضر، إلى حياتها الحاليّة، وقد بدا عاجزًا أمامها؟ لماذا اعتقد أنّه منذور لفضِّ الختم الذي يسدّ هذا الذهن المعذَّب؟ كيف توصَّل إلى هذه الفكرة الجنونيّة؟

ظلَّ كلّ شيء في الغرفة صامتًا. انقشع الدوار أخيرًا وفتح غريغوريوس عينيه. في الأثناء، انهارت أدريانا على الكنبة ووجهُها مخبّأ بين يديها. كانت تبكي وجسمها النحيل يختلج، ويداها ذواتا العروق الناتئة ترتعشان. جلس غريغوريوس إلى جانبها وطوّق كتفيها بذراعه. فانفجرت مرّة أخرى باكية بعنف أكبر وتشبّثت به. ثمّ خفت نحيبها شيئًا فشيئا واستعادت هدوءها بعد إنهاك.

عندما استقامت وتناولت منديلها وقف غريغوريوس وسار ببطء نحو الساعة الحائطيّة كأنّه في فيلم مصوَّر بالحركة البطيئة. فتح زجاج الساعة وعدّل العقرب على الساعة الحاليّة. لم يجرؤ على الالتفات. فقد

كان يمكن أن يهدم كلّ شيء بحركة خادعة أو نظرة في غير موضعها. أغلق الباب الزجاجيّ مُحْدثًا طقطقةً خفيفةً ثمّ فتح الصندوق وشغَّل رقّاص الساعة. كانت التَّكتكة عالية إلى درجة لم يتوقّعها. وخلال الثواني الأولى، بدا الأمر كما لو أنّ الصالون خالٍ من كلّ صوت عدا هذه التكتكة. زمنٌ جديد بدأ السّاعةَ.

اتجهت نظرة أدريانا الشبيهة بنظرة طفل حائر نحو الساعة، ظلَّت اليد الممسكة بالمنديل معلَّقة في منتصف حركتها وبدت كأنّها اقتُطعت من الزمن. ثمّ وقع شيء أحدث في غريغوريوس كمثل أثر الزلزال: تذبذبت نظرة أدريانا، تأجَّجت وانطفأت ثمّ عاد إليها فجأة ما في ذِهنٍ ملتفت بالكامل نحو الحاضر من ثقة وشفافيّة. التقت نظراتهما وحمَّل غريغوريوس نظرته كلّ الثقة التي يملكها حتّى يتمكَّن من احتواء نظرة أدريانا عندما تبدأ في التذبذب.

جاءت كلوتيلد ووقفت عند الباب وهي تحمل الشاي، وتحدّق في الساعة وتنصت إلى تكتكتها: *حَمْدًا لله!* قالت بصوت خافت ثمّ التفتت نحو أدريانا. وعندما وضعت طبق الشاي على الطاولة برز في عينيها لمعانٌ غريب.

ما هي موسيقى أماديو المفضَّلة؟ سألها غريغوريوس بعد مرور وقت قصير. في البداية ظنّ أنّ أدريانا لم تستوعب السؤال. كان على انتباهِها أن يقطع طريقًا طويلة قبل الوصول إلى الحاضر. وكانت الساعة تصدر تكتكة ويبدو أنّها تعلن مع كلّ دَقَّة تغيُّرَ كلّ شيء. فجأة وقفت أدريانا دون أن تقول كلمة واحدة وشغَّلت اسطوانة لهيكتور بيرليوز: *«ليالي الصيف»، «المسافرة الجميلة»، «الأسيرة»، «موت أوفيليا»*.

«يمكنه أن يستمع إليها لساعات طويلة. وبإمكاني القول: لمدّة أيّام أيضا». قالت ذلك ثمّ عادت إلى الجلوس على الأريكة.

أيقن غريغوريوس أنّها تريد إضافة شيء آخر وهي تضغط بشدّة على غلاف الاسطوانة إلى أن ابيضّت أطراف أصابعها. إنّها تقاوم نفسها، وتكوّنت فقاعات صغيرة في زوايا فمها فمرّرت لسانها على شفتيها ثمّ أسندت رأسها على ظهر الأريكة مثل شخص يستسلم للإرهاق وانزلق الوشاح المخمليّ إلى الأعلى كاشفًا عن ندبة صغيرة.

«كانت هذه موسيقى فطيما المفضّلة»، قالت.

وعندما انتهت الموسيقى وانبثقت من الصمت تكتكة الساعة مرّة أخرى، انتصبت أدريانا واقفة وأعادت الوشاح المخمليّ إلى مكانه. كان في صوتها هدوء حائر وثقة ساكنة لشخص تخطّى عقبة داخليّة ظنّ أنّها منيعة.

«نوبة قلبيّة!» وهي ما تزال في سنّ الخامسة والثلاثين. وجد ذلك أمرًا مُبْهمًا. شقيقي الذي يستطيع التأقلم مع أيّ وضعيّة جديدة بسرعة خارقة قد تفوق طاقة البشر، شقيقي الذي يتجلّى حضوره الذهنيّ فجأة مثل تحدٍّ مباغت، إلى حدّ لا يبدو فيه أنّه يشعر بالحياة إلاّ حين يرى نفسه في مواجهة انهيار قويّ جدًّا لحدثٍ غير متوقّع- هذا الرجل الذي لم يُتخِمه الواقع على الإطلاق، لم يُرد أن يصدّق، لم يُرد بكلّ بساطة أن يُسلِّم بأنّ الصمت الأبيض على وجه فطيما ليس مجرّد دليل على هدوء نعاس عابر. منع تشريح الجثّة لأنّه لا يحتمل فكرة المباضع، لقد رفض الدفن باستمرار وصرخ بغضب ضدّ أولائك الذين يذكّرونه بالواقع. عجز عن السيطرة على الموقف، فكان يوصي بقدّاس للموتى، ثمّ يلغيه، ومن ثمَّ

ينسى رفضه ذاك ويؤنّب الكاهن عندما لا ينفِّذ طلبه. «كان يمكن أن أعرف علَّتها»، أدريانا، قال، لقد عانت من تسارع في دقّات القلب، ولم آخذ ذلك على محمل الجدّ. لم أستهن بهذه العوارض عند أيّ مريض آخر، أمّا هي فاعتقدتُ أنّ ذلك أمرٌ مَردُّه إلى الاضطرابات العصبيّة. كثيرًا ما تشاجرت مع نساء المنزل الأخريات اللواتي كنّ يردِّدن أنّها ليست مربّية أطفال من أجل هذا، وأنّها ليست إلاّ فتاة أرستقراطيّة مدلَّلة وزوجة طبيب ثريّ لا يعرف كيف يقتل الزمن. هذا ما جعلها تشعر بالإهانة، بإهانة مرعبة حقًّا. لأنّها تتقن هذا العمل فعلا، وهي موهوبة في هذا المجال، فالأطفال يأكلون من يدها، وهو ما يجعل الأخريات يشعرن بالغيرة. لقد نجحت في نسيان حزنها لعدم إنجابها أطفالا، نجحت في ذلك بامتياز، نجحت بامتياز حقًّا، لكن في المقابل مثّل هذا سببًا في شعورها بالإهانة وعجزها عن الدفاع عن نفسها، وعذابها أيضًا. فبدأ القلب يضعف، وأضحى الأمر أحيانًا شبيهًا بتسارع نبضات القلب. وكان عليّ ألاّ أستخفَّ بحالتها، أدريانا، لماذا لم أرسلها إلى أخصائيّ، أعرف واحدًا درس معي في كويمبرا، وقد أصبح رائدًا في مجاله، لم يكن عليّ إلاّ أن أتّصل به، يا إلهي لِمَ لم أفعل ذلك؟ حتّى إنّني لم أفحصها، تصوّري، لم أفحصها!

«بعد عام من موت ماما، حضرنا من جديد قدّاسًا آخر للموتى، «كم كان هذا سيعجبها!» قال، ثمّ إنّنا يجب أن نمنح الموت شكلا، هذا ما تفرضه الديانات على كلّ حال». لا أعرف. فجأة لم يعد واثقًا حتّى من أفكاره: «*لا أعرف، لا أعرف*»[1] هذا ما ردّده باستمرار. خلال قدّاس

(1) بالبرتغاليّة في النصّ الأصلي.

ماما، عمد إلى الجلوس في ركن مظلم حتّى لا يلاحظ أحدٌ غيابه. لم تفهم ريتا شيئًا من هذا الأمر فقالت: «ومع ذلك ليست هذه إلّا مجرّد حركات، مجرّد هيكل. لقد كنتَ طفلاً مرتّلاً، وهذا مناسب جدًّا بالنسبة إلى بابا». الآن تراه فطيما ضائعًا إلى درجة أنّه شارك في القدّاس لحظة، ثمّ سرعان ما جلس بلا حراك عوض أن يصلّي. والأدهى من ذلك أنّه ارتكب أخطاء وهو يقرأ النّصّ اللاتينيّ. *هو! يرتكب أخطاء!*

لم يبك قطُّ أمام الناس، ولا حتّى أمام القبر. حدث ذلك في الثالث من فيفري، في يوم دافئ على غير العادة. لكنّه استمرّ في فرك يديه، يديه اللتين تبردان بسهولة. وعندما بدأ التابوت يغرق في الحفرة دفن يديه في جيبَيه وتبعه بنظرة غريبة عنّي، نظرة شخص ينبغي عليه أن يدفن كلّ ما يملك، قطعًا كلّ ما يملك. بدا مختلفًا وهو واقف أمام قبر والدي ووالدتي، وقف هناك مثل شخص استعدّ طويلاً لهذا الوداع وهو يعرف أنّه يمثّل خطوة إلى الأمام في حياته.

شعر الجميع بأنّه يريد البقاء بمفرده أمام القبر، وغادرنا نحن المكان. وعندما عدت، وجدته واقفًا إلى جانب والد فطيما الذي آثر البقاء هو أيضًا، إنّه صديق قديم لوالدي. تعرّف أماديو على فطيما في منزله وعاد من هناك كما لو أنه منوَّمٌ. ضمَّ أماديو بين ذراعيه ذلك الرجل الفارع الطول الذي كان يمسح عينيه بكمّ قميصه، ثمّ غادر المكان بخطوة حازمة أكثر ممّا ينبغي. بقي شقيقي مدّة ربع ساعة، وحيدًا أمام القبر المفتوح، مطأطأ الرأس، عيناه مغمضتان ويداه مكتوفتان. أستطيع أن أجزم أنه صلَّى. أتمنّى لو أنّهُ فعلها حقًّا!

«أحبّ الناس المصلّين. أحتاج إلى رؤيتهم. أحتاج إليها لمجابهة سُمّ

السطحيّة الخبيث وعدم إعمال العقل...» تخيّل غريغوريوس برادو التلميذَ وهو في قاعة الاحتفالات بالمدرسة، يتحدّث عن حبّه للكاتدرائيّات. ثمّ تناهى إلى سمعه صوت يوحنّا إيسا وهو يردّد: *الكاهن بلا ربّ!*

انتظر غريغوريوس أن تصافحه أدريانا للمرّة الأولى عند اللحظة التي سيتهيّأ فيها للمغادرة. لكنّ المرأة العجوز سارت نحوه ببطء وقد انسدلت خصلةٌ من شعرها الرماديّ على وجهها حتّى اقتربت منه مسافةً تسمح له باستنشاق خليطها الغريب من رائحة العطر والدواء. انتابته رغبة في التراجع، لكنّ الطريقة التي أغمضت بها عينيها ورفعت بها يديها إلى وجهه بدَتْ على شيء من الهيبة.

مثل عمياء، مرَّرت أصابعها الباردة والمرتعشة على ملامح وجهه، أصابعها التي لم تكن تَنشُد إلاّ اتصالاً في غاية الهشاشة. ولكن ما إن لمست النظارات حتّى توقَّفت. ارتدى برادو أيضًا فيما مضى نظارات زجاجيّة ودائريّة بإطار ذهبيّ. وكان غريغوريوس الغريبَ الذي وضع حدًّا لتوقّف الزمن، الغريب الذي ختم إلى الأبد على موت الأخ وهو أيضًا الشقيق نفسه وقد عاد حيًّا في الحكاية التي روتها. لهذا الشقيق أيضًا علاقة بالجرح المخبّإ تحت الوشاح المخمليّ وبأشجار الأرز الحمراء، وقد وثق غريغوريوس من ذلك في هذه اللحظة.

وقفت أدريانا محرجة أمامه، ذراعاها ممدودتان وعيناها محدِّقتان في الأرض فأمسكها غريغوريوس من كتفيها قائلا: «سأعود».

(27)

لم تنقض نصف ساعة على جلوسه فوق السَّرير عندما أخبره البوّاب بأنّ أحدهم جاء يطلب رؤيته. لم يصدِّق عينيه: إنّها أدريانا، وقد توكّأت على عكّاز، ووقفت وسط بهو الفندق، يلفُّها معطف أسود طويل ويغطّي رأسها منديلٌ مشبَّك. كانت توحي بمشهد مؤثّر ومثير للشفقة، مشهد امرأة غادرت منزلها للمرّة الأولى منذ سنوات عديدة، فوجدت نفسها الآن في عالم غريب عنها لا تجرؤ على المكوث فيه.

نزعت معطفها، وناولت غريغوريوس ظرفين.

«أنا ... أنا أرغب في أن تقرأ هذا»، قالت بشيء من الحدّة والارتباك، كما لو أنّ الحديث في العالم الخارجي أشدّ صعوبة من الحديث في الدّاخل أو هو مختلف جدًّا عنه. «إحدى هذه الرسائل وجدتُها ونحن نرتّب المنزل بعد وفاة ماما. كاد أماديو أن يكتشف أمرها لكنّني شككتُ في شيء مّا عندما أخذتها من درج والدي السريّ وخبّأتها. الرسالة الأخرى عثرْتُ عليها بعد وفاة أماديو، على مكتبه، مطمورةً تحت حزمة أوراق أخرى». رمَقت غريغوريوس بنظرة خجولة ثمّ غضَّت بصرها وما لبثت أن عادت ونظرت إليه من جديد. «أنا... أنا لا أريد أن أظلّ الشخص الوحيد المطَّلع على هذه الرسائل. ريتا، حسنا. ريتا لن تفهمها وهذا يعني أنّه لا يوجد أحد غيرك».

أخذ غريغوريوس يمرِّر الظرفين من يد إلى أخرى. كان يبحث عن الكلمات فلا يجدها. «كيف أتيتِ إلى هنا؟» سألها أخيرا.

في الخارج تنتظر كلوتيلد داخل سيّارة الأجرة. وعندما هوَت أدريانا على وسائد المقعد الخلفيّ، شعرت كما لو أنّ هذه الرحلة استنفدت كلّ قواها. *«وداعًا»*[1]، قالت له قبل أن تصعد إلى السيّارة. وعندما صافحته شعر أنّ عظام يدها وعروقها ترتخي تحت قبضته. لكنّه انتبه أيضًا إلى القوّة والبأس اللذين يُفترَض أن يتحلّى بهما شخصٌ يمارس حياة اجتماعيّة طبيعيّة من الصباح حتّى المساء، ويصافح كلّ يوم دزينة من الأيدي. وأذهله ذلك.

ظلَّ غريغوريوس يفكّر في التأثير المدهش لهذه القوّة الآليَّة تقريبا، وهو يتبع بنظره سيّارة الأجرة. أعاد صورة أدريانا في مخيّلته إلى المرأة الأربعينيّة التي وصفها العجوز كونتينهو، تلك التي تعامل المرضى بأسلوب فظّ. أيّ امرأة كان يمكن أن تكونها اليوم يا ترى لولا صدمة الإجهاض وقضاء حياتها بعد ذلك نيابةً عن حياة شقيقها؟

عندما وصل إلى غرفته عمد في البداية إلى فتح الظرف الأكبر الذي يحوي رسالة من أماديو إلى والده القاضي. إنّها رسالةٌ لم تُرسَلْ قطّ، تكبَّد معاناة كتابتها سنوات عديدة. بدا ذلك جليًّا من التصحيحات التي كُتبت أحيانًا بحبرٍ عتيقٍ ومن أسلوب كتابتها الذي تطوّر أيضًا.

أيها الوالد الجليل، هذا ما خطَّه أماديو في البداية ليتحوّل بعد ذلك إلى: *«أيها الوالد الجليل الموقّر»* ثمّ إلى *أبي العزيز*. وأخيرا، *أبي المحبوب سترا*.

---

(1) بالبرتغاليّة في النصّ الأصلي.

عندما اصطحبني سائقك الخاصّ إلى المحطّة هذا الصباح، ووجدتُني جالسًا على الوسائد حيث تجلس أنت كلّ صباح، أدركت أنّه ينبغي عليّ التعبير بالكلمات عن كلّ المشاعر المتناقضة التي تهدّد بتحويلي إلى شظايا حتّى لا أظلّ ضحيّتها الوحيدة وقتًا طويلاً. أعتقد أنّ التعبير عن شيء مّا هو أن نحفظ له قوّته وننزع عنه رداء الخوف. هذا ما كتبه بيسوا. في نهاية هذه الرسالة سأعرف إن كان على حقّ أم لا. غير أنّه عليّ الانتظار وقتًا طويلًا لأتأكّد من ذلك، فأنا أشعر الآن بأنّ عليّ قطع طريق طويلة ووعرة قبل أن أبلغ الصفاء الذي أنشده وأنا أكتب، وإن كنت لا أكاد أبدأ كتابتها. وشعرت بالخوف وأنا أفكّر في شيء مّا أهمله بيسوا أو نسي الإشارةَ إليه: وهو إمكانيّة أن تنسى العبارةُ موضوعَها. ما هو مصير القوّة والخوف إذن؟

أتمنّى لك سداسيّة مكلَّلة بالنجاح، هذا ما تقوله لي كلّما ذهبت إلى كويمبرا. لم يحدث إطلاقا، في لحظات الوداع تلك ولا حتّى في غيرها، أن استعنتَ بكلمات يمكن أن تعبّر بها عن أمنياتك لي بأن تكون السداسيّة الجديدة مُرضية أو حتّى ممتعة. وأنا ألامس برفق وسائد السيّارة الراقية، قلت في نفسي: «أتراهُ يعرف كلمة متعة؟ ألم يكن قطُّ شابًا؟ ومع ذلك التقى في وقت مّا بماما، في وقت مّا».

ولكن، ورغم أنّ شيئًا لم يتغيّر، فإنّ الأمر اختلف هذه المرّة يا أبي. «سنة أخرى فقط، بعد ذلك أرجو أن تعود». هذا ما قلته لي وأنا في الخارج. هذه الكلمات خنقتني وخلّتني أتعثّر. فهي جملة نبعت من الرجل المعذّب ذي الظهر المنحنيّ لا من فم القاضي. وأنا أجلس في السيّارة، رغبت في الإصغاء إلى هذه الكلمات كشهادةٍ على عاطفةٍ بسيطة

وخالصة. لكنّها لم توح بالصدق لأنّني على يقين من هذا الأمر: إنّه يرغب قبل كلّ شيء في أن يظلّ ابنه الطبيب قريبًا منه ليساعده في صراعه ضدّ الآلام. «هل يتحدّث عنّي أحيانًا؟» سألت أونوريك الممسكَ بالمقود. فظلّ وقتًا طويلًا لا يجيب متظاهرًا بأنّ حركة السير تشغله. ثمّ قال أخيرًا «أعتقد أنّه فخورٌ جدًّا بك».

حتّى فترة الخمسينيات، نادرًا ما رفع الأطفال البرتغاليّون الكلفة وهم يخاطبون آباءهم، بل لجؤوا في أغلب الأحيان إلى الأسلوب غير المباشر. لقد عرف غريغوريوس ذلك من سيسيليا التي خاطبته في البداية دون أن ترفع الكلفة، ثمّ توقّفت لحظة وطلبت منه رفع الكلفة بينهما. جاءت العبارة الأولى جافّة، وهي ليست أكثر من اختصار لكلمة «سموّكم». وبين ضميرَيْ أنت وأنتم، نبذَ برادو الشابّ عادات مألوفة أكثر من كونها شكليّة، وقرَّر بعد ذلك أن يوازن بين الطرفين. أو ربّما لم يكن هذا قرارًا وإنّما التعبيرَ الطبيعيّ واللاإراديّ عن شعوره المتقلّب.

اختتمت ورقة مطويّة في الرسالة بالسؤال الموجّه إلى السائق. لم يرقّم برادو الأوراق، وجاء الباقي دون أيّ تمهيد. هل هذا هو الترتيب الذي أراده برادو أم إنّ أدريانا حدّدت ذلك بنفسها؟

أنت قاضٍ يا أبي، أي رجلٌ يحكم بين الناس ويوجّه إليهم التُّهم ويعاقبهم. قال لي العمّ أرنستو يومًا: «لست أدري كيف وصلت الأمور إلى هذا الحدّ، لديّ شعورٌ بأنّ كلّ هذا مقدَّر له منذ ولادته» أجل تماما، قلت في نفسي لحظتها.

أعترف لك: في المنزل لم تتصرَّف كقاض. لم تُصدر أحكامًا في الغالب، كما يفعل آباء آخرون أو لنقل إنّه من النادر جدًّا أن تفعل ذلك.

ومع هذا يا أبي غالبًا مااستشعرت سكوتك، وكان حضورك الأخرس أشبه بحكم قضائيّ.

أتصوّر أنّك قاضٍ عادل، مغمور بالعطف، وهو الشعور الذي يقودك، ولست قاضيا ولدت أفكاره القاسية والعنيدة من حقد منبعُه الحرمان والفشل في الحياة، أو من إنكار تأنيب الضمير المترتّب عن أخطاء سرّية. أنت تستغلّ إلى النهاية مساحة الحِلم واللين التي يسمح لك بها القانون. وعلى الرغم من ذلك لطالما تألّمت وأنا أرى فيك الرجل الأعلى مقامًا في المحكمة. «هل القضاةُ أشخاصٌ يرسلون الآخرين إلى السجن؟» سألتك مساء يومي الدّراسيّ الأوّل، وكان من المفترض أن أجيب عن سؤال حول مهنة والدي. في الواقع تحدَّث الآخرون عن الأمر خلال فترة الاستراحة. وبدا ما يقولونهُ خاليا من كلّ ازدراءٍ واتهام: أو بالأحرى، كشف حديثهم عن فضول وميل إلى الإثارة يختلفان قليلاً عن الفضول الذي أثاره تلميذ آخر قال إنّ والده يعمل في المسلخ. ومنذ ذلك الحين سِرتُ في كلّ المنعطفات الممكنة حتّى لا أضطرّ أبدًا إلى المرور أمام المحكمة.

كان عمري اثنيْ عشر عامًا عندما تسلَّلتُ إلى قاعة المحكمة في غفلة من الحرّاس كي تتسنّى لي رؤيتك مرتديا ثوبك وجالسًا خلف منبر القضاة. في ذلك الوقت كنتَ قاضيًا عاديًّا ولا تجلس في المحكمة العليا. تملَّكني شعور بالفخر والخوف في آنٍ. تعلّقت القضيّة بسارقة عاديّة، وحُكم عليها بالسجن مع النفاذ العاجل لأنّها صاحبة سوابق، امرأة في منتصف العمر، تبدو حزينة وبشعة، ولا أحد يستطيع إصدار حكم لصالحها. ومع ذلك، تقلّص كلّ شيء في داخلي، وبدا كلّ وترٍ من

أعصابي متشنّجًا عندما اقتيدت المرأة واختفت في سراديب المحكمة التي تخيّلتها مظلمة وباردة ورطبة.

لاحظت أنّ محامي الدفاع لم يخلص في عمله، هو محامٍ موكّل من قبل المحكمة ولا شكّ أنّه أُكره على المرافعة. لم يوضّح شيئًا حول دوافع المرأة، وحتّى هي نفسها لم تقدر على شرح ذلك، ولم أكن لأصاب بالذهول لو علمت أنّها أمّيّة. لاحقًا بقيت مستيقظًا طوال الليل مدافعًا عنها، لقد كان دفاعًا موجّهًا ضدّك أنت أكثر منه كونه ضدّ النائب العامّ. تكلّمت حتّى بُحَّ صوتي، ونضب سيل الكلمات. وفي النهاية رأيتني أقف أمامك وذهني خالٍ، يشلُّني غياب الكلمات الشبيه بإغماء في تمام الصَّحو. وعندما استعدتُ وعيي أدركت أنّني دافعت عن نفسي أمام تهمة لم تلتصق بك قطُّ. لم تلمني إطلاقًا عن فعل شنيع، أنا، ولدك المعبود، لم يحدث ذلك ولو مرّة واحدة. وأعتقد في الغالب أنّ لكلّ ما قمتُ به دافعًا وحيدًا هو اتقاء تهمة ممكنة، تهمة يبدو أنّني أعرفها دون أن أعرف عنها شيئا. ألم أصبح طبيبًا من أجل هذا السبب؟ لأصنع ما هو ممكن إنسانيًا ضدّ السقم الشيطانيّ الّذي أصاب فقرات ظهرك؟ حتّى أتّقي اللوم على عدم التعاطف مع ألمك الأخرس بما يكفي؟ ضدّ الألم نفسه، الألم الذي كان بمثابة عذر ساعدك على إبعاد أدريانا وريتا عنك؟

ولكن لنعد إلى المحكمة. لم أنسَ مطلقًا الجحودَ والخوف اللذين تملّكاني عندما رأيت النائب العامّ ومحامي الدفاع بعد النطق بالحكم، وقد سار أحدهما نحو الآخر ضاحكَين. وددتُ التفكير في أنّ شيئًا كهذا مستحيل، ويبدو لي مبهما إلى اليوم. سأردّ هذا إلى ما بدا لي عندما غادرتَ القاعة وأنت تتأبّط كتبك ووجهُك الوقور يفضح شعورك بالندم. وكم

تمنّيت أن يجتاحك حقًّا هذا الشعور بالندم، بمجرّد التفكير في أنّ باب زنزانة ضخمة سيغلَق في تلك اللحظة بالذات خلف لِصّة، وأنّ مفاتيح ضخمة مجلجلة إلى حدّ لا يطاق ستدور في القفل!

لم أستطع نسيان تلك اللّصّة. بعد سنوات عديدة شاهدت لصَّة أخرى في مغازة كبرى، امرأة شابّة، جمالها آسرٌ، كانت تخبّئ بمهارة بارعة أنواعًا من حلية رخيصة لامعة في جيوب معطفها. وتبعتها في غارتها الجريئة عبر كلّ الطوابق وأنا مشوَّش الذّهن بفعل إحساس بالسعادة أثاره فيّ هذا المشهد. وشيئا فشيئا بدا لي أنّ هذه المرأة لا تفعل سوى الانتقام للّصة الأخرى، تلك التي أرسلتها أنتَ إلى السجن.

عندما لمحت رجلاً يقترب منها قصد مراقبتها أسرعت للحاق بها وهمست لها: «انتبهي!» أخرستني فطنتها: «أتى الحبّ!» «تعال أيّها الحبّ!» قالت ذلك وتشبّثت بذراعي ورأسها جاثم على كتفيّ. في الشارع، نظرت إليّ وفي عينيها يُلمَح قلقٌ يكشف عن تناقض مدهش بين رباطة الجأش وحركتها اللامبالية.

«لماذا؟»، سألتني والريح تعبث بشعرها الغزير وترسله على وجهها، وأخفت نظرتها لحظةً. ثمّ أبعدت شعرها عن جبينها.

«إنّها حكاية طويلة ولكن سأختصرها: أحبّ اللصّات، وبالخصوص حين أعرف أسماءهنّ.

زمّت شفتيها بدلال وفكّرت لحظة قبل أن تجيب:

«ديامونتينا إزميرالدا إرميلاندا».

ابتسمت وطبعت قبلة على شفتيّ ثمّ اختفت في الزقاق. بعد ذلك

جلستُ قبالتك على الطاولة، يحدوني شعور بالانتصار وهدوء المنتصر المجهول. في تلك اللحظة، سخرت كلّ لصَّات العالم من كلّ قوانين العالم.

كتبك القانونيّة! تلك الكتب المتشابهة كلّها والمجلّدة باللون الأسود، دفعتني إلى احترامها على نحو لم أتوقّعه، وهو احترام مردّه إلى ألواح موسى. هي كتب مختلفة، ومحتواها يحتلّ مكانة خاصّة ولها نبل متفرّد، كتب تترفَّع عن كلّ ما هو مألوف حتّى إنّني فوجئت باحتوائها كلماتٍ برتغاليّة، وإن كانت كلمات مزعجة، منفِّرة، شاذّة ومتكّلفة، كلمات يبدو لي أنّه ابتدعها سكّان كوكب آخر، كوكب بارد. غرابتها وبُعدها ظلاّ كبيرين بفعل الرائحة القويّة للغبار المنبعث من المكتبة، تلك الرائحة التي جعلتني أعتقد بشكل مبهم أنّه يجب أن توجد في الطبيعة مثل هذه الكتب التي لم يراجعها أحدٌ قطّ، كتب احتفظت بمحتواها المهيب لنفسها.

بعد مرور وقت طويل، عندما بدأت أفهم ما يمثّله تعسّف دكتاتورية مّا، فكّرتُ أحيانًا بكتب القانون التي لم أطَّلع عليها منذ طفولتي، فعِبتُ عليك في ذهني الطفوليّ عدمَ أخذ بعضها ورميه في وجه أزلام سالازار.

لم يحدث قطّ أن حذَّرتنا من إخراجها من المكتبة، كلاّ لستَ أنت من نطق بهذا التحذير، بل الكتب الثقيلة والجليلة ذاتها منعتني بحدّتها وتعسّفها من نقلها إلى أيّ مكان آخر. كم مرةٍ تسلَّلتُ وأنا طفل صغير إلى مكتبك، وقاومتُ، بدقّات قلب متسارعة، الرغبةَ في إمساك كتاب بين يديّ وإلقاء نظرة على النصوص المقدّسة! كنت أبلغ من العمر عشر سنوات عندما فعلت ذلك أخيرًا بأصابع مرتعشة، وبعد أن ألقيت نظرة في الرواق حتّى لا أُمسَكَ بالجرم المشهود. أردتُ العثور على حلّ للغز

مهنتك وإدراك من كنتَ في غياب العائلة، في العالم الخارجيّ. وأصابتني خيبة كبيرة عندما عرفت أنّ اللغة الجافّة والشكليّة التي تسود الصفحات لا تحتوي على شيء من الوحي، ولا شيء بمقدوره أن ينقل إليك الهزّة المأمولة والمخيفة.

في ذلك اليوم، وقبل أن تقوم من مقامك بعد محاكمة اللّصة، التقت نظراتنا. وعلى أيّة حالٍ، هذا ما خُيّل إليّ. تمنّيت أن تطرق الحديث في هذا الموضوع بنفسك، وقد لازمني هذا الأمل أسابيع. وفي النهاية اكتسى الأمل لونَ الخيبة، وبدا في تغيّره الدائم كأنّه يلامس الثورة والغضب: هل تعتقد أنّني مازلت صغيرًا جدًّا على هذا الأمر، ضعيفًا جدًّا؟ ولكن فضلاً عن ذلك، لم يتلاءم هذا مع كلّ مَا طالبتني به وانتظرته كما لو أنه شيئًا بديهيًّا. هل كان يزعجك حقًّا أن يراك ولدك بثوب القضاة؟ على الرغم من أنه لم يخطر ببالي أنّك تخجل من مهنتك. في النهاية هل خشيتَ شكوكي؟ ستراودني هذه الشكوك حتّى وإن ظللتُ على شيء من طفولتي، أنت تعلم ذلك، وتعرفني جيّدًا لهذا السبب بالذات أو هذا ما أتمنّاه على الأقلّ. هل الأمرُ إذَن جبنٌ منك؟ ضرب من الضعف لم أستطع إيجاد علاقة له بك إطلاقا؟

وماذا عنّي أنا؟ لماذا لم أُثِر مطلقًا الحديث في هذا الموضوع؟ الإجابة بسيطة وواضحة: أنت تطلب تبريرات، وهذا شيء يستعصي علينا القيام به، لأنّ صرح العائلة سينهار. ولم يكن هذا شيئًا مستحيلاً بالنسبة إلينا فحسب، بل ليس بمقدورنا حتّى أن نفكّر فيه. عوض أن أفكّر فيه وأفعله، طابقت الصورتين في مخيّلتي: الأب العاديّ، المحبَط، سيّد الصمت والرجل صاحب الثوب، بكلماته المدروسة، وصوته الجهوريّ

المقدّس الذي يفيض بلاغةً جافّة، ويتوجّه بالخطاب إلى قاعة المحكمة، قاعة تثير فيها الأصوات صدًى يجعلني أرتجف. وكلّما استسلمتُ لتمرين الخيال انتابني خوفٌ من عدم صدور أيّ تضادّ عن هذا التطابق أجد فيه عزائي، بل إنّ الصورة التي ظهرت لي اكتملت دفعة واحدة. كم كان صعبًا يا أبي أن يتبخّر كلّ شيء مثلما يحصل في خليط من البرونز. وحين لا أتحمّل فكرة حضورك بداخلي كنصبٍ صخريّ، أستعين بفكرة أنّك اضطررتَ إلى تقبيل ماما من حين إلى آخر، ولولا ذلك لمنعت تلك الفكرة عن نفسي، لأنّها تدنّس هيكل الحميميّة.

لماذا أصبحت قاضيا يا أبي، وليس محاميا؟ لماذا وضعت نفسك في صفّ أولئك الذين يسلّطون العقوبات؟ يجب أن يوجد قضاة ، هذا ما كنت ستقوله لي على الأرجح، وأنا، بطبيعة الحال أعلم أنّك عاجز أمام هذه الجملة. ولكن لماذا على والدي أن يصبح أحد هذين الأمرين تحديدًا؟

إلى حدّ الآن كانت هذه رسالة إلى الوالد الذي ما يزال على قيد الحياة، رسالة كتبها الطالب برادو في كويمبرا، وبإمكاننا الاعتقاد أنّه شرع في كتابتها مباشرة بعد عودته الأخيرة من الجامعة. على الورقة الموالية بدا حبر الكتابة مختلفًا وجرّة القلم أكثر ثقة وأكثر انسيابيّة كأنّها منقاة من روتين الملاحظات المدوّنة خلال حصص الطبّ، بينما تفضحُ تركيبة الأفعال الفترة التي عقبت موت القاضي.

قام غريغوريوس بعمليّة حسابيّة: انقضت عشر سنوات بين نهاية فترة دراسة برادو وموت الأب. هل توقّفت المحادثة الخرساء التي بدأها مع الأب لوقت طويل؟ في أعماق الشعور مرّت السنوات العشر كأنّها ثانية، لا أحد عرف ذلك مثل برادو.

هل كان على الابن أن ينتظر موت الأب ليتمكّن من إتمام الرسالة؟ بعد انتهاء دراسته عاد إلى لشبونة، حيث سبق أن عمل في مصحّة للأمراض العصبيّة. ميلودي هي من أخبرت غريغوريوس بذلك.

«كان عمري تسع سنوات عندما غمرني شعور بالسعادة لعودته من جديد. أمّا اليوم، فسأقنع نفسي بأنّ ذلك خطأ»، قالت، «لكنّه كان يشعر بالحنين إلى الوطن، يحنّ إلى لشبونة. حنينه إلى الوطن لا ينضب. ما إن سافر حتّى رغب في العودة. وتملّكه هوس بالسكك الحديديّة أشدّ من حنينه إلى الوطن. ملأته المتناقضات، شقيقي الأكبر المتألّق، سكنه المسافر، الرجل الذي يحنّ إلى البعيد. وقد فُتِن بسكّة الحديد العابرة لسيبيريا، وكان *فلاديفستوك*[1] اسماً مقدّسًا في فمه. ويحتلّه الآخر أيضًا، ذاك المغمور بالحنين إلى وطنه، *إنّه شعور شبيه بالعطش*. كان يقول: *عندما يستولي عليّ هذا الحنين إلى الوطن أجده بغيضًا أكثر من الإحساس بالعطش، ربّما عليّ معرفة كلّ خطوط السكك الحديديّة حتّى أتمكّن من العودة في أيّ لحظة، لن أصمد في سيبيريا، فكّر قليلًا: رجفة العجلات التي تحملك عدّة أيّام وليالٍ، ستحملني دومًا إلى أبعد من لشبونة، دومًا أبعد من أيّ مكان آخر.*

كان الوقت نهارًا عندما وضع غريغوريوس القاموس جانبًا وفرك عينيه الملتهبتين. أسدل الستائر وانزلق تحت الغطاء دون أن ينزع ملابسه. *أنا بصدد تضييع نفسي*، وهذا هو الشعور الذي سبق أن دفعه إلى الذهاب حتّى ساحة بوبنبورغ، الساحة التي لم يستطع الاقتراب منها بعد ذلك. متى حصل هذا حقًّا؟

(1) مدينة روسية.

وماذا لو أنني أرغب بالفعل في تضييع نفسي؟

غرق غريغوريوس في نوم خفيف فاكتسحه إعصار من الأفكار المتداعية. كانت سيسيليا المرأة الخضراء، تخاطب القاضي باستمرار قائلة: حضرتك، كانت تسرق حليةً ثمينةً لامعة، ألماسًا وأحجارًا أخرى كريمة. ولكنّها تسرق بالخصوص أسماء، أسماء وقبلات، حملتها عجلات مرتجفة عبر سيبيريا وحتّى فلاديفستوك البعيدة جدًّا عن لشبونة، أرض المحاكم والأوجاع.

عندما أزاح غريغوريوس الستائر عند الظهيرة وفتح النافذة، داعبته ريح دافئة، وبقي هناك واقفًا دقائقَ عديدة، وشعر أنّ وجهه أصبح جافًّا وملتهبًا تحت وطأة هواء الصحراء. للمرّة الثانية في حياته، طلب الطعام إلى غرفته. وعندما لمح الطبق أمامه تذكّر المرّة الماضية، في باريس، خلال تلك الرحلة المجنونة التي دعته إليها فلورانس بعد أوّل غداء لهما في المطبخ. *رغبة، عاطفة وثقة*. الرغبة أسرعها زوالا، ثمّ تأتي العاطفة في المرتبة الثانية، وفي النهاية تتكسّر الثقة أيضًا. هذا ما قاله برادو، لذا فإن الإخلاص هو الأهمّ على الإطلاق. إنّه التزام روحيّ يتجاوز المشاعر. *نفحة خلود!*

لستُ أنا من رغبتِ فيه حقًّا. هذا ما قاله لفلورانس في النهاية. ولم تعارض ذلك.

اتصل غريغوريوس بسيلفيرا الذي دعاه إلى العشاء في مساء اليوم نفسه. ثمّ حزم كتاب الصور عن أصفهان، الكتاب الذي أهداه إليه الزوجان شنايدر في ألفينو واستفسر خادم الطابق عن مكان يحصل فيه على مقصّ ودبابيس وورق لاصق. عندما اتصلت ناتالي روبان، كان

على أُهبة المغادرة. أخبرته أنّها تشعر بالإحباط لأنّ كتاب قواعد اللّغة الفارسيّة الذي أرسلته عبر البريد السريع لم يصل بعدُ.

«ببساطة، كان عليَّ أن آتيك به!» قالت، ثمّ سألته كيف قضى وقته خلال نهاية الأسبوع، وهي تشعر بشيء من الفزع والإحراج من كلماتها.

لم يتمكّن غريغوريوس من مقاومة رغبته في البوح فقال: «أنا جالسٌ في العتمة بمدرسة تملؤها الفئران أقرأ حكاية حبّ مستحيلة بين ابن وأبٍ انتحر بسبب آلامه أو بدافع الإحساس بالذنب، لا أحد يعرف».

– هل تريد أن تقول إنّ ...؟ قالت ناتالي.

– لا، لا، قال غريغوريوس، لا أريد أن أسخر منك، ولكن مستحيلٌ شرح ذلك، هو مستحيل فقط، ثمّ إنَّ ريح الصحراء هذه...

– أنت تقريبًا لم... تقريبًا لم يعد بالإمكان التعرّف عليك، أنا نفسي...

– أنت محقّة ناتالي، أنا نفسي لا أستطيع أن أصدّق ذلك أحيانًا.

أجل، سيتّصل بها حالمًا يصله كتاب قواعد اللّغة.

«هل ستتعلّم اللغة الفارسيّة أيضًا في مدرسة الفئران الخرافيّة؟» وضحكت هي أيضًا من العبارة الّتي اخترعتها للتوّ.

– طبعا، هنا، إنّها بلاد فارس.

– أنا أنسحب.

وضحكا معًا.

(28)

لماذا لم تحدّثني مطلقًا عن شكوكك وعن صراعاتك الداخليّة يا أبي؟ لماذا لم تطلعني على رسائلك الموجّهة إلى وزارة العدل، عن عروض استقالتك؟ لماذا أتلفتَها كلّها حتّى بدا الآن كأنّك لم تكتبها قطّ؟ لماذا كان على أمّي أن تخبرني بما بذلتَه من جهد في الماضي لتحرِّر نفسك؟ لقد شعرت بالخجل وهي ترويها لي على الرغم من أنّها تبعث على الفخر.

إذا كانت آلامك هي الّتي دفعتك في النهاية إلى الموت، فأنا نفسي لن أستطيع فعل شيء حِيالها. أمام الأوجاع ستضعف سلطة الكلمات. لكن ليست الكلمات هي الحاسمة، وإنّما الإحساس بالذنب وبالفشل. لقد فقدت القدرة على القطع مع سالازار ولم يعد بإمكانك أن تغضّ الطرف طويلًا أمام الدم والتعذيب: لماذا لم تحدّثني بذلك إذن؟ لمَ لم تحدّث ابنك الذي رغب يومًا في أن يصبح كاهنًا؟

رفع غريغوريوس عينيه. كان هواء إفريقيا الحارق يتدفّق من مكتب السيّد كورتس عبر النوافذ المفتوحة. اكتسب شعاع الضوء الشارد فوق الأرضية الملوَّثة اليوم لونًا أصفرَ فاقعًا وأكثر حدّة من المرّة الماضية. على الحيطان، أُلصقت صور أصفهان الّتي سبق أن اقتطعها من الكتاب. لازورد وذهب، ذهب ولازورد، بكميّات كبيرة دومًا، قِباب، مآذن، أسواق، دكاكين، وجوه نساء ملثّمات بعيونهنّ ذوات اللون الأسود الداكن والمتعطّشة إلى الحياة. أليفاز التيماني، بيلداد الشوحي وصوفر النعماني.

عمد في البداية إلى البحث عن الكتاب المقدَّس الّذي وضعه على قميصٍ له ما تزال تضوع منه رائحة عفونة. «*أغرق الله مصر لأنّ فرعون كان عنيدا. ولكنّ الله هو من خلقه هكذا. والأسوأ من ذلك أنّه هو الذي خلقه على تلك الصورة ليتمكَّن فيما بعد من إثبات قدرته. أيُّ ربّ مغرور، أيُّ إلهٍ متبجِّح!*» هذا ما قاله برادو فيما مضى لأوكلّي. أعاد غريغوريوس قراءة الحكاية في الكتاب المقدّس: ووجد ذلك صحيحا.

تجادلنا نصفَ يومٍ في هذا الموضوع، قال أوكلّي: هل كان على برادو حقًّا أن يتكلّم في خطابه عن الربّ كإله متبجِّح؟ هل من المبالغ فيه أن يضع الربَّ في منزلة صبيّ متشرِّد وقحٍ، وإن لهذه المدّة القصيرة التي يستغرقها نطق كلمة وقحة؟ هزم جورج أماديو الّذي عدل عن استعمال هذه الكلمة. وللحظة، شعر غريغوريوس بالإحباط أمام أوكلّي.

عبر غريغوريوس المنزل، متجنِّبًا الفئران، ثمّ جلس على المقعد المخصَّص للتلاميذ، المقعد الذي نسبه مؤخّرًا إلى برادو، حيث كان بإمكانه أن يتبادل عليه النظرات مع ماريا يوحنّا. أخيرا، وجد في الطابق الأرضيّ المكتبةَ القديمة التي حبس فيها برادو الشابّ نفسَه، حسب رواية الأب بارتولومو، ليتمكَّن من القراءة كامل الليل. *عندما يأخذ أماديو في قراءة كتاب، فإنّه لا يُبقي منه على حرف*. بدت الرفوف فارغة ومغبرَّة ومتَّسخة. والكتاب الوحيد الذي بقي هناك هو بمثابة دعامة لأحد الرفوف حتّى لا يسقط. كسر غريغوريوس شريحة خشبيّة تالفة وثبّتها في مكان الكتاب ونفضه من الغبار وتصفحّه. كان عبارة عن سيرة ذاتية لِجين المجنونة. وبعد ذلك حمله إلى مكتب السيد كورتس.

أن تستسلم للانخداع بأنطونيو دي أوليفيرا سالازار، الأستاذ

النبيل، هو بكلّ تأكيد أسهل من انخداعك بهتلر أو ستالين أو فرانكو. لعلَّك لم تكن قطّ عميلًا لحثالة البشر هؤلاء، لا شكّ أنّك اكتسبت مناعة ضدّهم كلّهم بفضل ذكائك وحسّك الإبداعيّ. ولم يحدث قطّ أن أدَّيت التحيّة وأنت رافعٌ ذراعك، كنت سأضع يدي في النّار مراهنا على ذلك. أمّا في خصوص الرجل المتَّشح بالسواد، ذي الوجه المتّقد ذكاءً والمتوتّر تحت القبّعة المستديرة، فقد اعتقدت أحيانًا أنّك ربّما شعرتَ فيما مضى بوجود شَبه بينكما، ليس في طموحه الصارم وضَلاله الأيديولوجيّ وإنّما في قسوتك على نفسك. ولكن يا أبي، لقد تحالف على الرغم من ذلك مع الآخرين! وحضر متفرّجًا على تلك الجرائم التي لن تُخلق أبدًا كلماتٌ مناسبة لتوصيفها ما وُجدَ بشرٌ. أمّا عندنا فقد وُجد تارافال ! وجد تارافال يا أبي! تارافال! أين شَرد خيالك؟ كان عليك أن ترى أمامك لمرّة واحدة فقط يدين كاللتين رأيتهما عند يوحنّا إيسا: يدين محروقتين، شوَّهتهما الندوب، يدين معوقتين. يدين عزفتا شوبرت في الماضي. لماذا لم تنظر قطُّ إلى يدين كتيْنك يا أبي؟

هل هو الخوف نفسه الذي يشعر به مريض يخشى الدخول في صراع مع سلطة الدولة بسبب ضعفٍ في جسده؟ ولهذا السبب بالذات يغضُّ بصره على جرائمها؟ هل ظهرك المحدودب هو الذي حال دون انحنائك؟ ولكن كلاّ، أنا أرفض تأويلاً كهذا، سيكون جائرًا لأنه يجرّدك من كلّ الكرامة التي تحلَّيت بها دومًا: تلك القوّة التي تدفعك إلى عدم الخضوع لآلامك في أفكارك وأفعالك.

لمرّة واحدة يا أبي، لمرّة واحدة فقط شعرتُ بالسعادة لتمكّنك من المراوغة وسط المجرمين المتأنقين المتَّوجين بقبّعات عالية، يجب أن أقرَّ

بذلك: إنّها اللحظة التي حرّرتني فيها من الشبيبة. لقد لاحظت الذعر الذي تملّكني من ارتداء القميص الأخضر وإلقاء التحيّة رافعًا ذراعي. هذا لن يحدث، قلت ببساطة. وشعرتُ بسعادة إزاء الإصرار الودود الذي يفيض من نظرتك. لم أرغب في أن أصبح خصمًا لك ولا أنت أيضًا بالتأكيد، لم ترغب في الاضطرار إلى تخيّل ابنك عاميًّا مبتذلا، ومع ذلك استشعرتُ حركتك تلك، دون أن أرغب في معرفة كُنهها، كتعبير عن عاطفة عميقة؛ وفي الليلة التي تلت الإفراج عنّي نذرت لك مشاعر قويّة جدًّا.

كان الأمر أكثر تعقيدًا عندما حُلتَ دون مثولي أمام المحكمة بسبب جرح في جسد أدريانا. أنا، ابن القاضي: لست أعرف أيّ التأثيرات مارستَ، وأيّ المحادثات أجريتَ؟ ها أنا أقولها لك اليوم: تمنّيتُ أن أمثل أمام القاضي وكنت سأناضل من أجل الحقّ الأخلاقيّ في وضع الحياة فوق القانون. ومع ذلك، أثّر فيّ كثيرًا ما فعلته من أجلي، مهما كان ذلك. لن أستطيع شرح هذا، ولكنّني تيقّنت أنّ الدّافع ليس أحد هذين السببين اللذين لا قدرة لي على تقبّلهما: الخوف من العار أو فرحة إثبات سطوتك. ببساطة، لقد فعلتَ ذلك لحمايتي.

«أنا فخورٌ بك». هذا ما قلته لي عندما شرحتُ لك الحالة من خلال وجهة نظر الطّبّ وعندما أطلعتك على الصفحات المتعلّقة بذلك في الكتاب. بعدها قبّلتني، وهي المرّة الوحيدة الّتي قبّلتني فيها منذ أن جاوزتُ مرحلة الطفولة. استنشقتُ رائحة التبغ في ملابسك ورائحة الصابون على وجهك. مازلت أستنشقها إلى اليوم، وإلى اليوم أيضًا مازالت أستطيع الإحساس بوطأة ذراعيك اللّتين تحرّكتا ببطء أكثر

ممّا توقّعت. كم حلمت بتينِك الذراعين، تينك الذراعين اللتين كانتا ممدودتين ومتضرّعتين للابن كي يحرّرك من آلامك كأنّه ساحر رحيم!

في هذا الحلم لاح الانتظار اللامحدود والأمل اللذان ارتسما باستمرار على وجهك وأنا أشرح لك مرضك فيزيولوجيًّا، ذلك التشوّه المحتوم للعمود الفقريّ الذي يحمل اسم فلاديمير بكتراف ونحن نتحدّث عن لغز الألم. كانت حميميَّةُ تلك اللحظات عظيمة وعميقة، ظلّ نظرك خلالها معلّقًا في شفتيّ اللتين شربتَ منهما كلّ كلمة ينطقها طبيب المستقبل كأنّها وحي. كنتُ إذّاك الأبَ العليم وأنت الابن المحتاج إلى المساعدة. كيف هو والدكِ؟ وكيف تصرّف تجاهك؟ سألتُ ماما بعد إحدى هذه المحادثات. «إنّه رجل متكبّر، منعزل، طاغية لا يحتمل، يحتقر الجميع، وهو بطل متعصّب للاستعمار» ثمّ أضافت: «لو عرف ما تفكّر به لَصُعق».

عاد غريغوريوس إلى الفندق وغيّر ملابسه ليذهب إلى العشاء في منزل سيلفيرا. كان الرجل يسكن منزلاً فخمًا في بيليم. فتح له البابَ خادمٌ ثمّ أتى صاحب المنزل بنفسه للقاء ضيفه في الردهة الواسعة التي تشبه بمشكاتها مدخلَ سفارة، وتفطّن سلفيرا إلى نظرات الإعجاب البادية على وجه غريغوريوس.

«بعد طلاقي ورحيل أبنائي، أصبح كلّ شيء خاويًا جدًّا فجأة، لكنّني لا أرغب في الرحيل أيضا». قال سيلفيرا، وقد قرأ غريغوريوس على وجهه ما لَمحه من إرهاق خلال أوّل لقاء لهما في قطار الليل.

لاحقا، لم يعد غريغوريوس يعرف كيف حدث أن أخبره بكلّ شيء. لقد حدّثهُ، وهما يتناولان التحلية، عن فلورانس وأصفهان وعن

إقامته المجنونة في المعهد. خُيِّل إليه أنّه كان في عربة النوم عندما أخبر هذا الرجل كيف وقف وغادر قاعة الدرس. كان معطفك مبلّلاً عندما أخذته من المشجب، أتذكَّر ذلك جيّدا، وكان الجوّ ماطرا، قال له سيلفيرا عندما قدّم له الحساء، ومازلت أتذكّر أيضًا كيف نقول كلمة نور بالعبريّة Ör». عندئذ حدَّثه غريغوريوس عن البرتغاليّة المجهولة الاسم الّتي سكت عن ذكرها في المرّة الأولى.

«رافِقني»، قال سيلفيرا بعد أن شربا القهوة، واصطحبه إلى القبو. «هنا لوازم تخييم الأطفال، إنّها الأفضل على الإطلاق. لكنّ هذا بقي دون جدوى. في أحد الأيّام تخلَّوا عن كلّ شيء ببساطة، دون أيّ اهتمام، دون كلمة شكر. لا شيء. موقدٌ للتدفئة، مصباح، آلة لصنع القهوة، تعمل كلّها على البطاريّات. لماذا لا تأخذها إلى المعهد؟ سأخبر السائق بذلك، سيتفقّد البطاريّات ويحملها إلى هناك».

لم يكن هذا كَرما منه فحسب، بل حبّا للمعهد. وبدافع رغبته الدائمة في معرفة المزيد عنه أخذ غريغوريوس يصف له المبنى المهجور. ولكن لعلّ ذلك بدافع الفضول الذي يثيره قصرٌ ساحر في الحكايات الخياليّة. من ناحية أخرى، بدت هديّة لوازم التخييم تعبيرًا عن شعور بالتعاطف مع مسعى غريغوريوس الغريب، أو بالاحترام على الأقلّ. وهذا ما لم ينتظره من أحد، لاسيّما من رجل أعمال تدور حياته كلّها حول المال.

قرأ سيلفيرا المفاجأة على وجه غريغوريوس: «حكاية المعهد والفئران تعجبني، ببساطة»، قال مبتسما، «إنّها شيء مّا عفوي. يبدو لي أنّ لهذا علاقة بماركوس أوريليوس».

وحيدًا في قاعة الجلوس، تأمَّل غريغوريوس الكتب للحظات.

أعدادٌ كبيرة منها وُضعَتْ على الرخام: القانون التجاريّ، أدب الرحلات، قواميس لغة تجاريّة باللغتين الإنجليزيّة والفرنسيّة، معجم علم نفس الطفل. إنّها مكتبة مليئة بالروايات من كلّ نوع.

في أحد الأركان، طاولة صغيرة وُضعت عليها صورتان لطفلين، صبيٍّ وبنت. فتذكّر غريغوريوس رسالة كاجي. وفي اتصالها هذا الصباح، أشارت ناتالي روبان إلى أنّ المدير سبق أن تغيَّب عن بعض الحصص لأنّ زوجته ترقد في مصحّة بوالدو: *«هناك أوقات بدت فيها زوجتي على وشك الانهيار»*. هذا ما كُتب في رسالة المدير.

«لقد اتصلتُ بأحد شركائي التجاريّين وهو يقيم غالبًا في إيران، قال سيلفيرا عندما عاد. يجب الحصول على تأشيرة، وفي ماعدا ذلك فالذهاب إلى أصفهان لن يمثّل مشكلة».

وتوقّف مندهشًا عندما شاهد التعبير المرتسم على وجه غريغوريوس.

«آه حسنا، قال ببطء، آه حسنا. طبعًا لا أقصد أصفهان *الحاليّة*، أصفهان إيران، بل أصفهان بلاد فارس».

أشار إليه غريغوريوس موافقا. لقد اهتمّت ماريانا إيسا بعلاج عينيه ولاحظت أنّه يعاني من الأرق. وفوق ذلك، كان سيلفيرا الإنسان الوحيدَ المهتمّ بأمره، بأمره هو بالذات، الوحيد الذي لا يمثّل مجرّدَ مرآة عاكسة له كحال سكّان عالم برادو.

في الردهة، عندما حانت لحظة الوداع، وجلبت الخادمة معطف غريغوريوس، وقع نظر سيلفيرا على الممرّ الذي تُفتح عليه غرف أخرى. حدَّق في الأرض ثمّ رفع بصره ثانية.

«هذا جناح الأطفال، الجناح القديم. هل ترغب في زيارته؟»

غرفتان رائعتان ومضيئتان، مرفقتان بحمّام خاصّ، أمتار من كتب لجورج سيمينون موزّعة على الرفوف.

وقفا في الرواق، وبدا أنّ سيلفيرا لم يعد يعرف فجأة ما يفعل بيديه.

«بإمكانك أن تسكن هنا، إن شئت، ودون مقابل بطبيعة الحال ولوقت غير محدود». ثمّ أضاف ضاحكا: «حتّى إذا لم تكن في بلاد فارس تحديدًا فهذا المكان أفضل من الفندق. لن يزعجك أحد هنا. أنا مسافر في أغلب الأوقات وسأغادر من جديد في الغد. ستعتني بك جولييتا الخادمة، وسأهزمك ذات لحظة في مباراة شطرنج».

نادِني جوزيه، قال عندما ختما الاتفاق بمصافحة. *وأنت؟*

(29)

حزم غريغوريوس حقائبه. وبدا متحمّسًا كما لو أنّه ذاهب في رحلة حول العالم، وتخيّل أنّه يزيل بعض كتبِ لِسيمينون رآها في غرفة الصبيّ وعوّضها بكتبه هو: المجلّدين حول الطاعون والزلزال الأرضيّ، كتاب العهد الجديد الذي أعطاه إيّاه كونتينهو منذ دهر. بيسوا، إيسا ديكيروز، السيرة الذاتيّة لسالازار، والكتب التي أرسلتها ناتالي روبان. عندما كان في بيرن، وضع في حقيبته ماركوس أوريليوس والكتاب القديم لهوراس، التراجديّات الإغريقيّة وصافو، وكتاب *اعترافات* للقدّيس أوغسطين أيضًا في اللحظة الأخيرة. إنّها كتب *للجزء المقبل من الطريق*.

كانت الحقيبة ثقيلة، وعندما رفعها من فوق السرير وجرَّها نحو الباب شعر بدوار. تمدَّد قليلاً، وبعد مرور بضع دقائق استعاد وعيه واستطاع متابعة قراءة رسالة برادو.

«أنا أرتجف لمجرّد التفكير في العنف اللاإراديّ والمجهول بل والحتميّ، العنف الذي لا يقاومُ ويترك الآباء بموجبه آثارًا شبيهةً بآثار حروقٍ في نفوس أبنائهم، آثارًا لن تمحي أبدًا. تُكتَبُ حدود الإرادة والخوف الّتي يثيرها الآباء بقلم من نارٍ في أرواح الصغار المليئة بالعجز والجهل بكلّ ما يحدث لهم. نحن في حاجة إلى حياة بأكملها لنجد النصّ الموسوم ونفكَّ رموزه، ولن نقدر أبدًا على التأكّد من فهمنا لمعناهه.

وكما ترى يا أبي، حصل لي الشيء نفسه معك. لم يمض وقت طويل

حتّى اكتشفتُ أو كدت أنّ في داخلي نصًّا قويًّا طغى على كلّ ما شعرت به وفعلته حتّى الآن، نصًّا خفيًّا ومتوهّجًا تكمن قوّته الماكرة في الآتي: على الرغم من ثقافتي كلّها لم يخطر لي مطلقًا أنّه قد لا يحظى بالشرعيّة الّتي منحته إيّاها دون أن أعرف عنه شيئا. النصّ قصيرٌ وله خاصيّة العهد القديم النهائيّة: الآخرون هم محكمتك.

لا أستطيع أن أثبت ذلك بطريقة من يُرافع أمام محكمة، ولكنّني أعرف أنّي قرأت هذا النصّ منذ نعومة أظفاري في نظرتك أنت يا أبي، تلك النظرة التي تبرز من وراء عدسات نظارتك طافحة بالحرمان والألم والقسوة. وبدا أنّها تتبعني حيثما ذهبت. المكان الوحيد الذي تعذّر على نظرتك تلك الوصول إليه هو الكرسيّ الكبير في مكتبة المعهد، الكرسي الذي أختبئ خلفه ليلاً لأتمكّن من مواصلة القراءة. فالمادّة الصلبة التي صنع منها الكرسيّ كوّنت باتّحادها مع الظلمة جدارًا عازلًا يحميني من كلّ نظرة متطفّلة. إنّه مكان عصيٌّ على نظرتك. ولم تكن توجد فيه محكمة عليّ تبرئة نفسي أمامها عندما أقرأ حكايات نساء بأعضاء بيضاء وكلّ الأشياء التي يتوجّب علينا فعلها في الخفاء.

هل بإمكانك تخيّل غضبي عندما قرأت هذا عند النبيّ إرميا: إذا اختبأ إنسان في أماكن مستترة أفما أراه أنا؟ يقول الربّ. أما أملأ أنا السماوات والأرض؟ يقول الربّ»[1].

«ماذا تبغي، قال الأب بارتولومو، إنّه الله».

«أجل وهذا هو تحديدًا من يتكلّم ضدّ الله: أن يكون هو الله»، رددت عليه.

(1) سِفر إرميا: الاصحاح 23-25.

ضحك الأب بارتولمو. ولم يلُمني على شيء إطلاقا. لقد كان يحبّني.

كم كنت سأشعر بالسعادة يا أبي، لو أنّ لي أبًا أستطيع مشاركته الحديث حول أشياء عديدة؟ عن الإله وقسوته المتبجِّحة، عن الصليب، عن المقصلة والمشنقة، عن جنون قصّة الخدّ الآخر، عن العدل والانتقام.

لم يتحمّل ظهرك مقاعد الكنيسة، حتّى إنّني لم أرك تجثو غير مرّة واحدة. حدث ذلك خلال قدّاسٍ وقع إحياؤه عند وفاة العم أرنستو، خيال جسدك المعذّب لا يُنسى بالنسبة إليّ، هو يذكّرني تقريبًا بدانتي والمطهر الذي لطالما تخيّلته مثل محيط من اللهب، لهب الذلّ، فأيّ شيء أسوأ من الذلّ؟ إنّ الألم الأشدَّ عنفًا لا يمثّل شيئًا مقارنة به. ولهذا لم تُثر أبدًا الحديث حول هذا الموضوع. أريد القول إنّني لم أسمعك تنطق كلمة الربّ إلاّ بصيغٍ مبتذلة. إطلاقًا حقًّا، إطلاقًا، حتّى نستشعر انبعاث الإيمان منها. ومع ذلك لم تفعل شيئًا في مواجهة الانطباع الأخرس الذي تثيره لأنّك لا تحمل داخلك كُتُب القانون المدنّسة فحسب، وإنّما كتب القانون المقدّسة الّتي تولّدت عنها محاكم التفتيش أيضًا. تارافال، يا أبي، تارافال!».

(30)

جاء سائق سيلفيرا ليأخذ غريغوريوس في آخر ساعات الصباح، بعد أن شحن البطاريّات الخاصّة بلوازم التخييم في السيّارة ولفّ طبقين وضع عليهما قهوةً وسكّرًا وبسكويتا. في الفندق لم يتركوه يرحل بسهولة: «كانت إقامتك بيننا من دواعي سرورنا الكبير»، قالوا له.

لقد تساقط المطر خلال الليل وغطّت السيّارات طبقة صغيرة من رمل الصحراء. فتح السائق فيليب البوابّة الخلفيّة من السيّارة الضخمة اللاّمعة ليصعد غريغوريوس. وتذكّر هذا الثاني، وهو يداعب برفق وسائد السيّارة الناعمة، أنّ مشروع برادو المتمثّل في كتابة رسالة إلى والده نشأ في هذا المكان.

لم يحدث أن استقلّ غريغوريوس سيّارة أجرة برفقة أبويه إلاّ مرّة واحدة، إثر عودتهم من عطلتهم على ضفاف بحيرة تون حيث تعرَّض والده إلى التواء في قدمه، ولم يكن أمامهم حلّ آخر بسبب الحقائب. في ذلك الوقت اكتشف مدى تضايق والده وهو ينظر إليه من الخلف. أمّا والدته فتخيّلت نفسها في عمق حكاية خياليّة، فلمعت عيناها، ولم ترغب في النزول.

اصطحبه فيليب إلى الفيلا ومن ثمّ إلى المعهد. صارت الطرقات التي تحمل عبرَها سيّارات الشحن المؤونةَ إلى مطبخ المدرسة، مغطّاة بالنباتات بالكامل. توقّف فيليب السائق وتساءل مندهشا: «هنا؟» هذا الرجل

الضخم صاحب الكتفين الشبيهتين بكتفَي حصان، تجنَّب الفئران في مكتب المدير بدافع الخوف، حاذى الجدران ببطء، وطاقيّته في يده، متأمِّلاً صور أصفهان.

«وماذا تفعل هنا؟ تساءل. أعني، هذا ليس من شأني...».

- من الصعب شرح ذلك. قال غريغوريوس. إنّه في غاية الصعوبة. أنت تدرك ماهيَّة أحلام اليقظة أليس كذلك، إنّه شيءٌ من هذا القبيل. ولكنّه مختلفٌ أيضًا، أكثر جديّة وأشدّ جنونا. عندما يتقلّص الوقت الذي بقي أمامك لتعيشه فإنّه لن تكون هناك قواعد ثابتة. ومن ثمّة نشعر أنّنا أصبحنا مخبولين وجاهزين لدخول مَشفى المجانين. ولكن في الواقع، العكس هو الصحيح: هؤلاء الذين يجب أن يُنفَوا هم أولائك الذين لا يريدون أن يفهموا أنّ الزمن يتقلَّص أيضًا. أولائك الذين يواصلون طريقهم كما لو أنّ شيئًا لم يكن. هل تفهم قصدي؟

- قبل سنتين تعرّضت لذبحة قلبيّة، قال فيليب. بدا لي غريبًا أن أعود بعدها إلى العمل. والآن، أتذكّر تلك الحادثة من جديد بعد أن نسيتها تماما.

- أجل، قال غريغوريوس.

عندما ذهب فيليب، تلبّدت السماء بالغيوم وبدا الجوّ باردًا وقاتمًا. شغَّل غريغوريوس الموقد، أشعل الضوء وأعدّ لنفسه القهوة، ثمّ أخرج السجائر من الحقيبة. ما هو نوع تلك السجائر التي دخَّنها لأوّل مرّة في حياته؟ سأله سيلفيرا فيما مضى. ثمّ نهض وعاد بعلبة من النوع نفسه.

«تفضَّل. إنّها السجائر نفسها الّتي كانت زوجتي تدخّنها. لقد بقيت

العلبة حبيسة درج المنضدة سنوات، ولم أقدر على التخلّص منها. مؤكّد أنّ التبغ استحال إلى غبار».

فتح غريغوريوس العلبة وسحب منها سيجارة وأشعلها. لقد تعلَّم كيف يستنشق الدخان دون أن يصاب بنوبة سعال. وجدَ الدخان لاذعًا وبطعم الخشب المحروق. وغمرته موجة من الدوار فجأة وبدا أنّ دقات قلبه تتباطأ.

قرأ مقطع إرميا الذي تحدّث عنه برادو في رسالته ورجع حتّى أشعياء: «*لأنّ أفكاري ليست أفكاركم ولا طرقكم طرقي يقول الربّ. لأنه كما علت السماوات عن الأرض هكذا علت طرقي عن طرقكم وأفكاري عن أفكاركم*»[(1)].

لقد آمن برادو أنّ باستطاعة الإله أن يكون شخصًا قادرًا على التفكير والرغبة والشعور. بعد ذلك استمع إلى كلام الربّ، تمامًا كما فعل مع أيّ شخص آخر وخلص إلى هذه النتيجة: لا حاجة بي إلى طبعٍ متكبِّر إلى هذا الحدّ. هل كان للربّ طبع؟ تذكّر غريغوريوس روث غوتشي ودافيد ليهمان وحديثه عن الخطورة الشعريّة التي لا توجد بعدها خطورة أشدّ. كم كانت بيرن بعيدة!

«*آه من احترازك يا أبي! كان على ماما أن تؤوّل لنا صمتك. لماذا لم تتعوّد الحديث عن نفسك والتعبير عن مشاعرك إطلاقا؟ سأخبرك بشيء: الأمر سهل جدًّا، من السهل للغاية أن أخفيك خلف الدور المتشدِّق لربّ عائلة نبيل، يضاف إليه دور الرجل الذي يتألّم في صمت، الرجل الذي يعدّ الصمت فضيلة، عظمة المكابرة أمام آلامه، وهكذا*

(1) سِفر أشعياء، الإصحاح 55، الآيات 8-9.

فإنّ مرضك بدا لي بمثابة تبرئة لما نقصك من رغبة في التعبير. أمّا عن غطرستك: فقد كان على الآخرين أن يعرفوك في لحظات ألمك.

ألم تلاحظ ما كنت ستخسره من حرّية تقرير مصيرك، الحرية التي نملكها فقط مادمنا قادرين على ترجمة أنفسنا فيها إلى كلمات؟

ألم تفكّر قطُّ يا أبي أنّ عدم حديثك عن آلامك وعن المهانة التي يتسبّب لك فيها ظهرك المحدودب، يمكن أيضًا أن يشكّل عبئا علينا جميعا؟ كم كان جَلدك الصامت والبطوليّ الذي لا يخلو من غرور أكثَر قسوةً بالنسبة إلينا من أن تنفجر مزمجرًا بسلسلة من اللعنات وتذرف على نفسك دموعَ شفقة في وسعنا مسحُها من عينيك؟ فهذا يعني، مع ذلك، أنّنا نحن الأطفال، وقبل كلّ شيء، سجناء شجاعتك الفاتنة، لا نملك الحقّ في أن نشتكي. وكلّ حقّ من هذا القبيل كان يُكتَم حتّى قبل أن يُطلَب، أجل قبل أن يفكّر أحدنا في الاكتفاء بمجرّد المطالبة به، ويتحطّم أمام شجاعتك وألمك الذي تتحمّله ببسالة.

رفضتَ تعاطي المسكّنات، وكرهتَ أن تفقد صفاء ذهنك، وهكذا حسمتَ في هذا الأمر. في أحد الأيام، وبما أنّك لم تتصوّر أن يراقبك أحد، لمحتُك عبر الباب الموارب. تناولت حبّة دواء، وبعد لحظات ابتلعت حبّة ثانية. ولاحقًا عندما راقبتك من جديد، انغرستَ في كرسيّك ورأسك على الوسائد ونظّارتك فوق ركبتيك وفمك مفتوح جزئيًا. كان هذا، بطبيعة الحال، مشهدًا لا يُصدّق، ولكن كم وددت أن أدخل وأداعبك بحنان!

لم يسبق لي قَطُّ أن رأيتك تبكي. بقي وجهك هادئًا لحظة دفن كارلوس كلبنا المحبّب إلى قلبك أيضًا. لم تكن شخصًا عديم المشاعر،

قطعًا لا. ولكن لماذا بدوت طوال حياتك كما لو أنّ الروح شيءٌ يجب أن نخجل منه، شيءٌ غير لائق، موْضع ضعفٍ يجب أن نتركه كامنًا، مخفيًّا وبأيّ ثمن تقريبا؟

منذ طفولتنا تعلَّمنا منك أنّنا بمثابة أجساد قبل كلّ شيء، وأنْ لا وجود لشيء من أفكارنا إذا لم يوجد منذ البدء في أجسادنا، ثمّ إنّك -ويا للتناقض- لم تعلِّمنا الحنان قطّ، حتّى إنّنا لم نستطع الاعتقاد أنّك كنت قريبًا جدًّا من ماما لكي تنجبانا. لم يكن والدي، قالت ميلودي في أحد الأيام، بل نهر الأمازون. لمرّة واحدة فقط، أحسست أنّك تعرف ما تعنيه كلمة امرأة: وذلك لحظة دخول فطيما. لم يتغيّر فيك شيءٌ وتغيّر كلّ شيء. ما كان حقلاً مغناطسيًّا أدركته آنذاك للمرّة الأولى.

انتهت الرسالة. وضع غريغوريوس الأوراق في الظرف. وفي تلك اللحظة لمح عبارات كُتبت بقلم رصاص في قفا الورقة الأخيرة: *«ماذا عرفتُ عن مخيّلتك؟ لماذا نعرف القليل عن مخيّلة آبائنا؟ ما الّذي نعرفه عن شخص عندما نجهل كلّ شيء عن الرؤى التي تهبها له قوّة مخيّلته؟».*

وضع غريغوريوس الظرف جانبًا وذهب لزيارة يوحنّا إيسا.

(31)

استأثر إيسا بالأحجار البيضاء لكنّه لم يبادر باللعب. أعدّ غريغوريوس الشّاي وقدَّمه لهما معًا في فنجانين ممتلئين إلى النّصف ثمّ دخَّن سيجارة سحبها من علبة نسيتها زوجة سيلفيرا في غرفتها. أخذ يوحنّا إيسا يدخِّن هو أيضًا ويرتشف الشّاي في صمت. كان الغسق يغشى المدينة، وقريبًا سيرنُّ جرس العشاء.

«كلّا، قال إيسا عندما ذهب غريغوريوس ليفتح النور، ولكن أغلق الباب بالمفتاح».

أسدل الليل ستاره بسرعة، ولهيب سيجارة إيسا يتأجّج، ثمّ سرعان ما خمد. وعندما أخذ في الحديث أخيرا، بدا كأنّه وضع على صوته خافضةً لا تجعل الكلمات خافتة وأكثر حدَّة فحسب وإنّما أكثر خشونة أيضًا،كما الشأن في الآلات الموسيقيّة.

«تلك الفتاة، إستيفانيا إسبينوسا، أنا أجهل ما تعلمه عنها تحديدا. لكنّني واثق على الأقل من أنّك سمعت عنها. منذ وقت طويل وأنت ترغب في سؤالي عن هذه المرأة. أنا أشعر بذلك، ولكنّك لا تجرؤ. فكَّرت في هذا الأمر منذ الأحد الماضي. من الأفضل أن أسرد عليك حكايتي الّتي أعتقد أنّها ليست إلاّ جزءا من الحقيقة، هذا إذا وُجدت حقيقة أصلا. ولكن هذا الجزء يجب أن تعلمه مهما يكن الحديث الذي سيقوله الآخرون في هذا الشأن».

صبّ غريغوريوس الشّاي وأخذت يدا إيسا ترتعشان وهو يرتشفه.

«كانت تعمل في مكتب البريد. مكتب البريد مكان مهمّ بالنسبة إلى المقاومة، البريد والقطارات على حدٍّ سواء. كانت شابّة عندما تعرّف إليها أوكلّي، في الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين من عمرها. حدث ذلك سنة 1970، خلال فصل الربيع تحديدا. ذاكرتها رهيبة، فهي لا تنسى شيئًا على الإطلاق، لا الأشياء الّتي تراها ولا الّتي تسمعها. عناوين، أرقام هاتف، وجوه... ولذلك يمزح الجميع فيقولون إنّها تحفظ دليل الهاتف عن ظهر قلب. لكنّها لم تجد في ذلك دافعًا إلى الغرور. «كيف لا تملكون القدرة على فعل ذلك أنتم أيضا؟» «لا أفهم كيف باستطاعة أحد أن ينسى بهذه السهولة»! هذا ما كانت تقوله. أمّا والدتها فإمّا أنّها هربت أو توفّيت مبكّرا. لم أعد أذكر بالضبط. أمّا والدها فهو عامل بالسكة الحديديّة وقد اعتُقل صباح أحد الأيّام بعد أن اشتُبه في تورّطه بعمل تخريبيّ.

«بعد ذلك أصبحت عشيقة جورج. لقد جُنّ بها وكنّا ننظر إلى هذا الأمر بارتياب، فهذا النوع من الحكايات محفوف على الدوام بالخطر. وأبدت هي له محبّةً كبيرةً دون أن تُغرَم به حقًّا. وفي المقابل كان هذا يدمّره ويجعله سريع الغضب وغيورًا بشكلٍ مرَضيّ. «لا تقلق»، قال عندما رمقتُه بنظرة متفحِّصة، «لست الوحيد الذي لا تنقصه التجربة».

«كانت مدرسة محو الأميّة فكرتَها هي. إنّها فكرة رائعة تزامنت مع الحملة التي أطلقها سالازار ضدّ الأمّيّة تحت شعار: تعلُّمُ القراءة واجب وطنيّ. رتّبنا قاعة، وأثّثناها بمقاعد عتيقة ومكتب ولوح أسود. وزوّدتها الفتاة بمستلزمات التدريس: صور وأحرف، أشياء من هذا القبيل. في

قسمٍ لمحو الأميّة يُسمح للجميع بالحضور ومن كلّ الفئات العمريّة. وتلك في الواقع مجرّد حيلة: فلا أحد يحتاج إلى تبرير حضوره في الخارج، وإضافة إلى ذلك فإنّه بالإمكان توفير الحماية الكاملة من الجواسيس، لقد كانت الأميّة عارا. عملت إستيفانيا على إرسال الدعوات والتأكّد بنفسها من أنّها ليست مفتوحة رغم أنّه لم يكتب داخلها إلاّ هذه العبارة: *هل سنلتقي يوم الجمعة؟ قبلاتي، نويليا*. وهذا الاسم الوهميّ هو كلمة السرّ.

«كنّا نجتمع ونناقش التحركّات. فإذا ظهر شخص من الشرطة السريّة أو برز وجه غريب، تتناول إستيفانيا ببساطة قطعة الطباشير، وقد أعدّت اللوح مسبقًا كما لو أنّنا في منتصف الدرس. هذا أيضًا جزء من الخدعة: إذ يمكننا أن نلتقي أمام الجميع، لم نحتَج إلى الاختباء، لقد كان لنا تأثير كبير على أولئك الخنازير. المقاومة ليست مزحة ولكنّنا ضحكنا في بعض الأحيان.

ازدادت أهميّة ذاكرة إستيفانيا يومًا بعد يوم. ولم نشعر بحاجة إلى تدوين أيّ شيء، ولم نترك أثرًا مكتوبًا. فهي تحتفظ بأسرار الشبكة كاملة خلف جبينها. أحيانًا تساءلت: ماذا لو تعرّضت لحادث؟ لكنّها شابّة وجميلة جدًّا، إنّها الحياة في كامل عنفوانها، وسرعان ما نعمد إلى طرد هذه الفكرة من أذهاننا، ونواصل تحرّكاتنا، ونفاجئهم بالضربات واحدة بعد أخرى.

في إحدى الأمسيات، من خريف سنة 1971، دخل أماديو إلى القاعة فرآها وفُتن بها. وعندما تفرَّق الجميع، قام وسار نحوها وتحدّث إليها بينما ينتظر جورج عند الباب. نظَرتْ إلى أماديو ثمّ سرعان ما غضَّت الطرف. وتنبّأتُ أنَا بما سيحصل.

ولكن لم يحدث شيء. ظلّ جورج وإستيفانيا معًا وقاطع أماديو الاجتماعات. وعلمت لاحقًا أنّها زارته في عيادته. كانت مهووسة به. لكنّ أماديو صدّها بسبب إخلاصه لأوكلّي. إنّه مخلص حدَّ نكران الذات. ظلَّت الأمور مستقرَّة كامل الشتاء، وأحيانًا يُرى جورج رفقة أماديو. لكنّ شيئًا مّا تغير، شيئًا غير ملموس. فعندما يسيران جنبًا إلى جنب يخيّل إلينا أنّ نسق خطاهما تغيّر عن السابق كما لو أنّهما مجبران على البقاء معًا. شيء مّا تغيّر أيضًا بين أوكلّي والفتاة، كان يتمالك نفسه لكنّ وميضًا من الغضب يهدّد بالانفجار، لكنّه يكظمه، فتتدارك ذاكرة إستيفانيا الأمرَ، فيغادر. وربّما كان الأمر سيتحوَّل إلى مأساة لكنّه يُعدُّ أمرًا تافهًا في مقابل ما حصل بعد ذلك.

في نهاية شهر فيفري، اقتحم أحد أزلام موندز اجتماعنا. فتح الباب دون أن يُحدث صوتًا وتسلَّل إلى القاعة بغتة، إنّه رجل ذكيّ وخطر. وكنّا نعرفه. لكنّ إستيفانيا كانت مندهشة. فما إن لمحته حتّى قطعت جملة تتحدّث عن إحدى عمليّاتنا الخطرة وتناولت قطعة الطباشير والعصا وشرعت في شرح درس حول حرف «ç» ، مازلت أتذكّر أنّه حرف«ç». جلس باداخوت -وهذا هو اسم الرجل، على اسم المدينة الإسبانيّة- ومازال باستطاعتي إلى الآن سماع صرير المقعد وسطَ الصمت الخانق. نزعت إستيفانيا سترتها، رغم أنّ القاعة باردة. فهي تحرص دومًا على أن يكون مظهرها جذّابًا في اجتماعاتنا تحسّبًا لأيّ ظرف. بذراعيها العاريتين وصدارها الشفّاف كانت... كان يمكن أن تفقدنا صوابنا على الفور. وهذا ما يثير جنون أوكلّي. ثنى باداخوت ساقيه.

وبحركة مثيرة من جسدها أنهت إستيفانيا حصَّتها المزعومة قائلة:

«إلى الحصَّة القادمة». فوقف الحاضرون، وبدا اجتهادهم في أن يظلّوا على ما هم عليه ملموسًا تقريبًا. وقف أستاذ الموسيقى الذي يدرّس إستيفانيا، وقد جلس إلى جانبي هو أيضًا، فسار باداخوت نحوه.

كنت أعرف ذلك، أعرف أنّها الكارثة».

«أستاذ أمّيّ ! قال باداخوت وقطّب وجهه في سخرية مبتذلة ومثيرة للاشمئزاز، هذا شيء مثير للاهتمام، أهنّئك على هذه التجربة الثقافيّة.

شحب وجه الأستاذ ومرَّر لسانه على شفتيه الجافّتين. لكنّه صمد، مراعيًا الظروف».

«التقيت مؤخّرًا شخصًا لم يتعلَّم القراءة قطّ. أنا على علم بالدروس التي تقدّمها السيّدة إسبينوسا ، فهي تلميذتي، وأردتُ أن أعرف بعض معلومات عن المكان قبل أن أقترح على هذا الشخص المجيء إلى هنا»، قال.

- آه، آه، قال باداخوت، وما اسمه؟

سعدتُ لأنّ الآخرين غادروا المكان. لم أكن أحمل سكّينًا ولعنتُ نفسي من أجل ذلك.

«يوحنّا بينتو»، قال الأستاذ.

- كم يبدو هذا بديعًا !قال باداخوت هازئا. وأين يسكن؟

قدّم له الأستاذ عنوانًا وهميًّا، فاستدعوه واحتفظوا به، ومنذ ذلك الوقت لم تعد إستيفانيا إلى منزلها، ومنعتُها أنا أيضًا من الإقامة عند أوكلّي.

«كن عاقلا»، قلت لأوكلّي، «إنّ الأمر أخطر ممّا تتصوَّر. لو كُشف أمرها فستكون معها». وأسكنتها عند قريبة لي عجوز.

«دعاني أماديو إلى عيادته. لقد تحدّث إلى جورج وهو مشوَّش بالكامل ويستشيط غضبًا في صمت لا يعرف سرّه إلاّ هو.

- إنّه يريد قتلها، قال بصوت مختنق، لم يقلها صراحة، ولكن هذا واضح: إنّه يريد قتل إستيفانيا حتّى تنطفئ ذاكرتها قبل أن يمسكوا بها. تصوّر: جورج، صديقي القديم جورج، لقد أصبح مجنونا. إنّه يريد أن يضحّي بالمرأة التي يحبّ. *الأمر يتعلّق بحيوات عديدة*، هذا ما ردّده. حياة واحدة مقابل حيوات أخرى، هذا مخطَّطه. ساعدني، يجب أن تساعدني، يجب ألاّ يحدث ذلك.

لو أنّي لم أثق بذلك دومًا لأدركت من هذه المحادثة، على أقصى تقدير، أنّ أماديو يحبّها. بطبيعة الحال، لم أستطع معرفة طبيعة علاقته بفطيما، فلم يسبق لي أن رأيتهما معًا سوى مرّتين في برايتن. ومع ذلك وثقتُ من هذا الأمر: حدث في تلك الأثناء شيء آخر أكثر توحّشا، حمم متوهّجة تسبق الفوران البركانيّ. كان أماديبو طبعا، تناقُضًا يمشي على قدميه: واعيا بذاته وخاليا من الخوف، ولكنّه فوق ذلك رجل يستشعر باستمرار نظرة الآخرين إليه وهو الأمر الذي يؤلمه، ولهذا السبب أيضًا انضمَّ إلينا، أراد أن يدافع عن نفسه أمام التهمة التي أُلصقت به بسبب موندز. أعتقد أنّ إستيفانيا مثَّلت بالنسبة إليه فرصة للخروج أخيرًا من المحكمة إلى حضن الحياة الرحب والدافئ، فرصته الوحيدة في أن يحيا أخيرًا كيفما يشاء، حسب أهوائه وليذهب الآخرون إلى الجحيم.

«كان يعي هذه الفرصة، أنا واثق من ذلك، ويعرف نفسه جيّدا، أفضل من أغلبيّة الناس. ولكن وُجد ذلك الحاجز، حاجز إخلاصه الفولاذيّ لجورج. أماديو هو الرجل الأكثر إخلاصًا في الكون،

والإخلاص هو عقيدته، الإخلاص مقابل الحريّة والقليل من السعادة، لا أكثر ولا أقلّ. وعلى الرغم من ذلك أقام حاجزًا أمام طوفان الرغبة الداخليّة وأشاح بعينيه الجائعتين عن الفتاة كلَّما لمحها. أراد مواصلة النظر في عيني جورج، لم يُرد لصداقة دامت أربعين سنة أن تنهار بسبب حلم مهما يكن خارقا.

وها هو جورج يسعى الآن إلى حرمانه من الفتاة التي لم تكن له قطّ. أراد تحطيم التوازن الداخليّ الهشّ الناشئ بين الإخلاص والأمل المنكر. وهو أمر لا يحتمل.

«تحدثتُ إلى أوكلّي، فأنكر أنّه قال شيئًا من هذا القبيل أو حتّى أثاره. وعلت وجهَه غير الحليق بقعٌ حمراء من الصعب الجزم أنّها على علاقة بإستيفانيا أو بأماديو.

«كان يكذب، تأكّدت من ذلك، وهو يعرف أنّني أعرف ذلك. وبدأ معاقرة الخمر! شعر أنّ إستيفانيا تُسرَقُ منه، مع أماديو أو من دونه، وكان هذا الأمر فوق احتماله.

«باستطاعتنا مساعدتها على مغادرة البلاد»، قلت.

- سيقبضون عليها، قال. يملك الأستاذ الإرادة، لكنّه ليس قويًّا بما فيه الكفاية. سيجبرونه على الاعتراف، وهكذا سيعرفون أنّها تحتفظ بكلّ شيء في رأسها وسيتتبّعونها، سيستعملون كلّ وسائلهم في ذلك، هذا ببساطة مهمّ جدًّا. فكّر إذن، لا أحد من أجهزة شبكة المخابرات في لشبونة كلّها سيغمض له جفن قبل أن يقبضوا عليها، وهُم جيش بأكمله».

طرق الموظّف الذي جاء بالطعام البابَ ونادى إيسا، لكنّه تجاهله

وواصل حديثه.كانت الغرفة معتمة وبدا صوت إيسا كأنّه قادم من عالم آخر.

«ما سأقوله لك الآن سيصدمك: أنا أتفهَّم أوكلّي. أتفهَّمه أكثر بكثير من دوافعه لأنّهما شيئان مختلفان. ماذا لو أنّهم حقنوا إستيفانيا بمادّة مّا ليجعلوا ذاكرتها تستسلم، سيكون في هذا هلاكنا جميعا، مائتي شخص تقريبا. وهذا العدد سيتضاعف أيضًا لو استجوبونا واحدًا تلو آخر. إنّه أمر لا يصدّق. يكفي أن نتخيّل جزءًا من هذا التسلسل لنفكّر على الفور *في وجوب التخلّص منها*.

من هذا المنظور أفهم أوكلّي. ولعلّي مازلت أعتقد إلى اليوم أنّ وفاتها ستكون وفاة مشروعة ومن قال عكس هذا فهو يستسهل الأمر. سأقول بسبب قصور في المخيّلة. وكم يبدو لي منفّرًا أن يرغبوا في عدم تلويث أيديهم باعتبار ذلك مبدأ ساميا عندهم!

«أعتقد أنّه لم يكن باستطاعة أماديو التعقّلَ في هذه العمليّة. تأمّل عيني إستيفانيا الباهرتين، بشرتها الفريدة، بشرتها الآسيويّة تقريبًا، ضحكتها المثيرة والساحرة، مشيتها المترنّحة، وببساطة لم يرغب في انطفاء كلّ هذا. فتلك *رغبة بعيدة المنال*. وأنا سعيد لأنّه عجز عن ذلك، فأيّ موقف آخر سيجعل منه وحشًا، وحشًا متجرّدًا من ذاته.

في المقابل شعرتُ أنّ أوكلّي رأى في موت إستيفانيا خلاصًا له، خلاصًا من العذاب الذي سبّبه له فشله في الاحتفاظ بالفتاة ومعرفة أنّها متعلّقة بأماديو. وتفهّمته في هذه النقطة أيضًا ولكن من زاوية أخرى مختلفة تماما، أي دون أن أتّفق معه، تفهّمته لأنّني عشت الشعور ذاته منذ زمن بعيد، أنا أيضًا خسرت فيما مضى امرأة بسبب رجل آخر، وقد حملت

هي أيضًا الموسيقى إلى حياتي، ليست موسيقى باخ كما هو الحال بالنسبة إلى أوكلّي، بل شوبرت. كنت أعرف ماذا يعني أن تحلم بخلاص من هذا النوع، وأعرف إلى أي حدّ يمكن أن نبحث عن عذر لتحقيقه.

ولهذا السبب بالذات وقفت في وجه أوكلّي. ذهبت للبحث عن الفتاة واصطحبتها إلى المنزل الأزرق، وكرهتني أدريانا لهذا السبب، ولكنّ كرهها لي قديم، فأنا بالنسبة إليها الرجل الذي أغرى شقيقها بالانضمام إلى المقاومة.

«تحدَّثتُ إلى أشخاص عَرفوا جيّدًا مسالكَ الجبال ومنافذ الحدود وأطلعت أماديو على الأمر. ظلّ غائبًا لمدّة أسبوع. وعندما عاد، أصيب بوعكة صحيّة ولم أرَ إستيفانيا منذ ذلك الوقت.

«أمّا أنا فاعتُقِلتُ بعد فترة قصيرة ولكن ليس لذلك علاقة بها. يبدو أنّها حضرت جنازة أماديو. وبعد مرور فترة طويلة سمعت أنّها تعمل في سالامنكا، وعلى الأرجح أنّها أستاذة تاريخ بالجامعة.

لم أتبادل كلمة واحدة مع أوكلّي لمدّة عشر سنوات، ولم يتغيّر الوضع إلى اليوم. لكن لا أحد منّا يسعى إلى الآخر. هو يعرف حقًّا ما أفكّر فيه وهذا يعقّد الأمور».

سحب إيسا نفَسًا من سيجارته بعنف، واحمرّ اللهب الذي يحرق ورقة اللَّفّ بشدّة في الظلمة، وانتابته نوبة سعال.

«كلّما زارني أماديو في السجن، وجدتُني أنزع إلى أن أطرح عليه أسئلة بخصوص أوكلّي، بخصوص صداقتهما، ولكنّي لم أجرؤ على ذلك. لم يمثّل أماديو خطرًا على أحد إطلاقا. وهذا جزء من عقيدته. ولكن باستطاعته ودون أن يعي ذلك أن يمثّل هو في حدّ ذاته خطرا،

خطرَ تدمير نفسه على مرأى من الآخرين. في الواقع لم أتمكّن من سؤال جورج عن هذا الأمر أيضًا. ربّما اليوم وبعد مرور ثلاثين سنة، لا أعرف ما إذا كان بإمكان صداقة أن تصمد أمام صدمة كتلك؟

عندما غادرتُ السجن بحثت عن الأستاذ. لكنَّ أحدًا لم يسمع عنه شيئًا منذ اليوم الذي اعتقلَ فيه. أولئك الخنازير! تارافال! هل سمعت بتارافال من قبل؟ كنت أعتقد جازما أنّني سأذهب إليه أنا أيضًا في ذلك الوقت. فسالازار أضحى طاعنا في السن وباتت السلطة بيد الشرطة السريّة. أعتقد أنّ عدم إرسالي إلى هناك ضربةُ حظّ، الحظّ هو شقيق التعسُّف. وعزمتُ على أن أضرب رأسي على حائط الزنزانة حتّى تتهشَّم جمجمتي في حال تعرّضي إلى ذلك».

ثمّ لاذا بالصمت، صمت عجز فيه غريغوريوس عن معرفة ما يمكنه قوله.

في النهاية، نهض إيسا وأشعل الضوء. فرك عينيه واستهلَّ الجولة بحركته المعتادة. لعبا حتّى الحركة الحادية والأربعين ثمّ دفع إيسا برقعة الشطرنج جانبًا وقام الرجلان. أخرج إيسا يديه من جيبَي سترته وسار كلّ منهما نحو الآخر وتعانقا. كان جسم إيسا يرتعش. صوت أجشّ، متوحّش وحزين، خرج من حنجرته ثمّ ارتخى جسمه وتشبَّث بغريغوريوس. فربَّت هذا الثاني على رأسه وعندما فتحَ الباب وقف إيسا قرب النافذة يحدّق في الليل.

(32)

كان غريغوريوس في صالون سيلفيرا يتأمَّل مجموعة من الصور الفوتوغرافية، صور شمسيّة لحفلة كبيرة ارتدى فيها أغلب الرجال اللباسَ الرسميّ ورفلَت النساء في فساتين سهرة طويلة على الأرضيّة اللامعة. وظهر فيها أيضًا جوزيه أنطونيو دي سيلفيرا أكثر شبابًا وأصغر بسنوات عديدة، ومعه زوجته، امرأة شقراء وممتلئة ذكَّرت غريغوريوس بأنيتا إيكبيرغ في نافورة تريفي. كان الأطفال البالغون من العمر سبع سنوات أو ثماني تقريبًا يلعبون لعبة المطاردة تحت إحدى الموائد المنضودة التي لا نهاية لها. وفوق إحدى الطاولات وُضعت شعارات العائلة ودُبٌّ فضيّ بوشاح أحمر. في صورة أخرى، جلس الجميع في صالون يستمعون إلى عزف امرأة شابّة على بيانو فاخر، امرأة أظهر جمالُها المرمريّ بعض الشبه مع البرتغاليّة المجهولة الاسم التي لقيها فوق جسر كرشنفلد.

بعد وصوله إلى الفيلا، ظلّ غريغوريوس جالسًا على السرير لوقتٍ طويل، وانتظر هدوء العاطفة التي غمرته عند وداع إيسا، الصوت الأجشّ الذي خرج من تلك الحنجرة، ذاك النشيج الحادّ، صرخة النجدة، ذكرى التعذيب، كلّ هذا في وقت واحد، لن يغادر ذاكرته أبدًا. وتمنّى لو تجرّع كثيرًا من الشاي الساخن حتّى يخلِّص إيسا من الألم المعتمل في صدره.

بعد ذلك استعاد في ذاكرته حكاية إستيفانيا إسبينوسا بتفاصيلها.

سالامنكا! كانت أستاذة في سالامنكا. وبرزت أمامه لوحة الإعلانات في المحطّة حاملة هذا الاسم القديم والقاتم، ثمّ سرعان ما اختفت. وتذكّر الحادثة التي وصفها له الأب بارتولومو: أوكلّي والمرأة وهُما يسيران الواحد باتجاه الآخر دون أن تلتقي نظراتهما، ثمّ وهما واقفان أمام قبر برادو: *وفي لحظة تجنّب أحدهما للآخر خلقا مسافة متقاربة بينهما، ما كان لها أن توجد لو التقت نظراتهما.*

فتح غريغوريوس حقيبته أخيرًا ووضع كتبه فوق الرفّ. كلّ شيء في المنزل صامت. غادرت جوليبتا الخادمة وتركت له رسالة على طاولة المطبخ ترشده فيها إلى مكان الطعام. لم يسبق لغريغوريوس أن سكن منزلاً مشابهًا لهذا. وشعر بأنّ كلّ شيء مُنع عنه، حتّى وقع خطواته. ثمّ عمد إلى إنارة المنزل بكامله، غرفة الطعام حيث تناول العشاء مع سلفيرا، والحمّام، حتّى إنّه ألقى نظرة خاطفة على مكتب سلفيرا وسرعان ما أغلق الباب.

والآن، ها هو يجلس في الصالون حيث سبق أن شرب القهوة رفقة سيلفيرا ونطق كلمة Nobriza «أرستقراطيّة» بصوت عالٍ تردَّد صداه في أرجاء الغرفة. أثارت هذه الكلمة إعجابه وردَّدها مرّاتٍ ومرّات. وكلمة Adel أيضًا وهي تعني «نبلٌ»، تطرق ذاكرته الآن. ولطالما أثارت إعجابه، فهي كلمة تسيل فيها الفكرة وعكسها. دي لارونج، لقب فلورانس قبل الزواج لم يبدُ له نبيلاً قطُّ، ولم يكن هذا يثير انزعاجها إطلاقا. وفي مقابل ذلك بدا لوسيان فون غرافينريد، شيئًا مختلفًا تمامًا، فهو اسم لأعرق العائلات النبيلة في مدينة بيرن، اسم يذكّره بمبانٍ عريقة ورائعة من الحجارة الرمليّة في زاوية شارع العدالة. وقد لعب أحد أفراد هذه العائلة فيما مضى دورًا على شيء من الغموض في بيروت.

وطبعًا إيفا فون مورالت «المدهشة». كانت مجرّد حفلة مدرسيّة، تلك التي حضرها فيما مضى، حفلة لا تشبه في شيء صور حفلة سيلفيرا، ومع ذلك تصبّب غريغوريوس عرقًا من شدّة التأثّر في القاعات العالية. «مدهش»! قالت إيفا سابقًا عندما سألها الفتى عن إمكانيّة شراء لقب نبيل. «مدهش»! وتعجبّت أيضًا عندما أبدى غريغوريوس في النهاية رغبته في غسل الصحون.

بدت مجموعة اسطوانات سيلفيرا مغبَّرة، كما لو أنّ الفترة التي لعبت فيها الموسيقى دورًا في حياته انتهت منذ عهد بعيد. عثر غريغوريوس على مقطوعات بارليوز، *«ليالي الصيف»*، *«المسافرة الجميلة»* و*«موت أوفيليا»*، الموسيقى التي عشقها برادو لأنّها تذكِّره بفطيما. *وقد مثّلت إستيفانيا فرصته للخروج أخيرًا من المحكمة إلى ميدان الحياة الحرّ الدافئ.*

ماريا يوحنّا! يجب عليه أن يعثر أخيرًا على ماريا يوحنّا. إذا كان هناك شخصٌ يعرف ما حصل بالضبط خلال هروبهما ولماذا مرض برادو إثر عودته فإنّه هي.

قضى ليلة مضطربة وهو يُرهف السمع لأيّ ضجيج غير عاديّ. وتشابهت مشاهد الحلم المتقطِّعة: كلّها تزخر بنساء نبيلاتٍ، سيّارات ليموزين بسائقيها يطاردون جميعهم إستيفانيا، رآهم يطاردونها دون أن يتشكّل ما رآه في صورة واحدة. استيقظ من النوم وقلبه يكاد يخرج من صدره لشدّة الذعر. كان عليه أن يقاوم الدوار الذي ألمَّ به، وفي حدود الساعة الخامسة صباحًا جلس إلى طاولة المطبخ صحبة الرسالة التي سلَّمته إيّاها أدريانا.

ابني العزيز جدًّا، ابني الحبيب؛

كثيرة هي الرسائل التي بدأتُ كتابتها لك وأتلفتها منذ سنوات، رسائل سبقت هذه وبِتُّ أجهل عددها. لماذا يبدو الأمر صعبًا إلى هذا الحدّ؟ هل بإمكانك أن تتخيّل ماذا يعني أن يكون لك ابن حَبته الطبيعة بكثير من الحكمة والمواهب؟ ابن يملكُ لغة مدهشة ويترك في والده انطباعًا بأنّه لم يتبقَّ له إلاّ الصّمت حتّى لا يبدو مثل صائغ كلمات أخرق؟ عندما كنتُ طالبًا بكلّيّة الحقوق عُرفت عنّي مهارتي في استخدام الكلمات. وفي عائلة رايس، عائلة والدتك، عُرِفتُ بالمحامي البليغ. فمرافعاتي ضدّ سيدونيو بويس المخادع الأنيق وأمام تيوفيليو براجا، الرجل صاحب المطرّية في الترامواي، أذهلت الجميع. كيف أصبحتُ أخرسَ؟

كان عمرك أربع سنوات عندما أتيت لرؤيتي حاملاً كتابك الأوّل لتقرأ لي هاتين الجملتين: لشبونة هي عاصمتنا. إنّها مدينة جميلة. حدث ذلك في ظهيرة أحد أيام الآحاد بعد زخّة مطر عابرة، وهواءٌ دافئٌ وثقيل، مشبع برائحة الأزهار المبلّلة يدخل عبر النافذة المفتوحة. طرقتَ الباب وأطللت برأسك عبره متسائلا: «هل تسمح لي بدقيقة من وقتك؟» تمامًا كابن ناضج لعائلة أرستقراطيّة يقترب باحترام من ربّ العائلة ويطلب منه الاستماع إليه. أعجبني هذا التصرّف الراشد لكنّه أفزعني في آنٍ. أيّ خطإ اقترفناه حتّى لا تدخل الغرفة مُحدثًا ضجّةً كما يفعل أطفالٌ آخرون؟ والدتك لم تخبرني شيئًا عن الكتاب وتفاجأت كثيرًا عندما قرأتَ على مسامعي الجمل دون أدنى تردّد وبصوت واضح لمرتّلٍ، صوت لم يكن واضحًا فحسب بل مليئا بحبّ الكلمات أيضًا، حتّى إنّه كان لتينك

الجملتين البسيطتين إيقاع شعريّ. (هذا يبدو ضربًا من الحمق، ولكن في بعض الأحيان اعتقدت أنّ حنينك إلى الوطن نبع منها، حنينك الخرافيّ إلى الوطن، حنينك الّذي سَرَك دون أن يكون مع ذلك حقيقيًا: طبعًا لم تكن قد غادرت لشبونة وقتها ولم يكن في وسعك أن تشعر بالحنين إلى الوطن. وجب أن يؤلمك ذلك قبل أن يتمكّن من إيلامك حقًا. ولكن من يدري، أنت قادرٌ على كلّ شيء، حتّى على اللامعقول ذاته).

ذكاء ساطع غمر القاعة، وأتذكّر أنّني قلت في نفسي: كم إنّ بساطة هاتين الجملتين لا تتلاءم كثيرًا مع حدَّة ذهنه! وعندما عدت إلى عزلتي لاحقا، ترك الكبرياء مكانه لشعور آخر: من الآن فصاعدًا سيكون ذهنه بمثابة مصباح قويّ يسلّط الضوء على كلّ نقاط ضعفي دون شفقة. وأعتقد أنّني بدأت أشعر بالخوف منك. أجل، لقد شعرت بالخوف منك.

كم يبدو صعبًا على أبٍ أن يثبت ذاته أمام أطفاله! وكم هو صعب تحمُّل الفكرة التي ننقشها على أرواحهم بكلّ ما أوتينا من ضعف وضلال وأخطاء وجبن! في البداية، طرقت ذهني هذه الفكرة وأنا أعمل النظر في الانتقال الوراثيّ لمرض الفقرات التصلبيّ، مرضٍ أحمد الربّ على أنّك نجوت من الإصابة به. وفكَّرت لاحقًا في الروح أكثر من أيّ شيء آخر، الروح، وجهنا الداخليّ الذي يتأثّر أيضًا بالضغط أكثر من قرصٍ شمعيّ ويحفظ كلّ شيء بدقّةِ جهاز لرصد الزلازل. نظرت إلى نفسي في المرآة وتساءلت: أيّ شعور سيثيره وجهي الحادّ عند هؤلاء الأطفال؟

ولكن ماذا بوسعنا أن نفعل لوجوهنا؟ لا شيء إطلاقا. لأنّني لا أتحدّث عن الشكل وحده. فهذا لا يُعدُّ شيئًا ذا بالٍ. نحن لسنا نحّاتي ملامحنا ولا مُنفِّذي وقارنا وضحكاتنا ودموعنا.

تضاعفت أوّل جملتين إلى مئات، إلى آلافٍ وملايين من الجمل الأخرى. يبدو أحيانًا أنّ الكتب جزء منك مثل يديك اللتين تمسكان بها. في أحد الأيام، وبينما أنت تَقرأ في الخارج على العتبات، نطّت بالقرب منك كرة يلعب بها الأطفال واستقرّت بالقرب منك. فانفصلت يدك عن الكتاب لتعيد إليهم الكرة. كم كانت حركة يدك شاردة!

أحببتك وأنت تقرأ. أحببتك كثيرا، وإن بدَوتَ لي محيّرًا في شغفك النهم بالقراءة.

وبدا لي أنّك ما تزال محيّرًا أكثر، في الحماس الذي حملتَ به شموع المذبح. على عكس والدتك، لم أفكّر لحظة في أنّ بإمكانك أن تصبح كاهنًا. أنت تملك روحَ متمرّدٍ، والمتمرّدون لا يصبحون كهنة. أيّ هدف سيكون للحماس في النهاية إذن؟ أيّ غاية سينشدها؟ أن يتضمّن هذا الحماس قوّة متفجّرة، فذاك أمر واضح، وخفتُ من الانفجارات التي يمكن أن يثيرها.

استشعرتُ هذا الخوف عندما لمحتك بالمحكمة. كان يجب أن أدين السارقة وأرسلها إلى السجن، هذا ما يقتضيه القانون. لماذا نظرت إليّ وأنا جالسٌ على المنبر كما لو أنّني مجرم؟ أصابتني نظرتك بالشلل، ولم أستطع الحديث عن هذا الأمر. هل لديك فكرة أفضل عمّا يمكن أن نفعله باللصوص؟ هل تملك واحدة حقًّا؟

كنت أراك تكبر، وأزداد دهشة أمام ذكائك المتدفّق، وأسمع اللعنات التي تطلقها ضدّ الربّ، ولم أحبّ صديقك جورج. يشعرني الفوضويّون بالخوف، لكنّني سعدتُ لأنّ لك صديقًا، فتى مثلك. كان يمكن لهذا الأمر أن يأخذ منحى آخر، فأمّك تتخيّلك شاحبًا وصامتًا خلف جدران

مؤسّسة مّا. لهذا أصابها خطابك الذي ألقيته في حفل التخرّج بالذعر الشديد: «ابن مجدّف! ما الذي فعلته حتّى أستحقّ كلّ هذا؟»، قالت.

أنا أيضًا، قرأت نصّ الخطاب، ووجدتُ فيه ما أشعرني بالفخر! وحسدتك عليه! حسدتك على استقلاليّة الفكرة والدقّة البادية في كلّ سطر. بدا خطابك شبيها بأفق مضيء لم أكن لأبلغه إطلاقا، لأنّ عبء تربيتي الصارمة ظلّ منيعًا أمامه. كيف لي أن أعبّر لك عن حسدي المتبجّح دون أن أصغّر نفسي؟ إلى درجة أبدو فيها صغيرًا وضئيلاً أكثر من السابق؟

هذا ضرب من الجنون! قال غريغوريوس في نفسه. هذان الرجلان، الأب والابن، سكنا فيما مضى على هضبتين متقابلتين في المدينة، كأنّهما خصمان في مأساة إغريقية، منسجمان داخل خوف عتيق وعاطفة لم يجدا الكلمات المناسبة للتعبير عنها، وكتبا رسائل لم يجدا جرأة لتبادلها. إنّهما متلاحمان في صمتين مبهمين بالنسبة إليهما. وهما يغضّان الطرف عن حقيقة أنّ أحد هذين الصمتين يولّد الآخر.

«في بعض الأحيان، كانت السيّدة تتناول الطعام هنا هي أيضًا، قالت الخادمة عندما عادت في نهاية الظهيرة ووجدته جالسًا إلى طاولة المطبخ، لكنّها لا تقرأ الكتب، لا شيء غير المجلاّت».

حدّقت فيه متسائلة: هل أنت أرِقٌ؟ هل الفراش غير مريح؟

أخبرها غريغوريوس أنّه على ما يرام. منذ زمن بعيد، لم يشعر أنّه مرتاح كهذا اليوم.

جولييتا سعيدة بوجود شخص آخر في المنزل، هذا ما قالته

لغريغوريوس، فالسيد سلفييرا أصبح صامتًا ومنعزلاً إلى حدٍّ كبير. «كم أكره الفنادق!»، «كيف لي أن أستمرّ؟ هل بإمكانك أن تقولي لي كيف يا جوليتا؟»، فقال سلفييرا مُؤخّرًا وهي تساعده في إعداد حقائبه.

(33)

لم يسبق أن مرَّ عليها تلميذ أشدّ غرابة منه، قالت سيسيليا.

«أنت تعرف عبارات أدبيّة عديدة، أكثر من أغلب مسافري الترامواي، ولكن إذا أردت أن تُقسم أو تتسوّق أو تقتني تذاكر لرحلاتك فإنّك تنسى كلّ ما تعرفه. وهذا دون أن نتحدَّث عن الغزَل. أم أنّك ستعرف تمامًا ما الذي يتوجَّب عليك قوله لي؟».

أعادت وضع وشاح الفرو الأخضر على كتفيها وهي ترتعد:

«وها هو رجل بطيء الإجابة بشكل لم أعهده من قبل».

«بطيء ومع ذلك سريع البديهة، لم أتخيّل أنّ هذا ممكنٌ. ولكن معك أنت»...

تحت وقع نظرات سيسيليا الإنكاريّة تناول غريغوريوس كتاب قواعد اللّغة وأثبت لها أنّه يتضمّن خطأ.

«أجل»، قالت، وقد انتفخ الوشاح الخفيف أمام شفتيها، «ولكن في بعض الأحيان، يكون الشاذّ هو الصّواب. مؤكّدٌ أنّ الأمر هكذا عند الإغريق».

في طريقه إلى منزل سيلفيرا، تناول غريغوريوس فنجانًا من القهوة في المقهى المقابل لصيدليّة أوكلّي. ومن وقت إلى آخر، تراءى له الصيدليّ عبر الواجهة الزجاجيّة وهو يدخّن سيجارة. «*لقد جُنّ بها*»، تناهى إلى

سَمْعِه صوت إيسا وهو يحدّثه عنه: *«أبدتْ له محبّةً كبيرةً دون أن تُغرم به حقًّا. وفي مقابل ذلك كان هذا يدمّره ويجعله سريع الغضب وغيورًا بشكلٍ مَرضيّ... دخل أماديو إلى القاعة، فرآها وفتن بها»*. بعد ذلك ذهب غريغوريوس ليأتي بكتاب برادو، وقرأ:

ولكن متى نذهب في رحلة لسبر أغوار الآخر؟ هل إنّ هذه الرحلة مؤقّتة؟ هل إنّ الروح وعاءٌ لوقائع حقيقيّة؟ أم إنّ هذه الوقائع الحقيقيّة المزعومة ليست إلاّ الظلال الوهميّة لحكاياتنا؟

في الترامواي الذي سار نحو بيليم، شعر غريغوريوس أنّ نظرته إلى المدينة تتغيّر، فحتّى ذلك الحين، لم تكن لشبونة إلاّ موضعًا لأبحاثه، ووحدها رغبته في معرفة المزيد عن برادو أعطت شكلاً للزمن الذي يمضي حتّى الآن. ولكن في تلك اللحظة، وهو ينظر عبر نافذة الترامواي، والعربة تتحرّك محدثة صريرًا وأنينًا، أصبح يملك هذا الزمن كليًّا. إنّه ببساطة الزمن الذي عاش ريموند غريغوريوس حياته الجديدة من خلاله. تخيّل نفسه مرّة أخرى في مستودع عربات الترامواي ببيرن متسائلاً عن مصير العربات القديمة. لقد شعر قبل ثلاثة أسابيع أنّه مسافر هنا في بيرن، مدينة طفولته. والآن ها هو يعبر لشبونة، لشبونة وحدَها. وهو يدرك أنّ انقلابًا مّا يحدث في أعماقه.

عندما وصل إلى منزل سيلفيرا اتصل بفرو لوسلي وأملى عليها عنوانه الجديد. ثمّ اتصل بالفندق فعلم أنّ كتاب قواعد اللّغة الفارسيّة وصل. كانت الشرفة مُفعمة بدفء أشعَّة الشمس الربيعيّة وأخذ يرهف السمع لصخب الناس في الشارع. أذهلته كلّ الكلمات التي يدرك معناها. واخترقت أنفه رائحة طعام يجهل مصدرها، فتذكّر شرفة طفولته

الضيّقة التي تنفذ إليها روائح طعام كريهة. لاحقا، عندما انزلق تحت الغطاء في غرفة ابن سيلفيرا، ونام بسرعة، رأى نفسه يشارك في مسابقة موضوعُها حضور البديهة ينتصرُ فيها الأسرعُ. ثمّ رأى نفسه واقفًا أمام المغسلة برفقة إيفا فون مورالت، «المدهشة»، وهو يغسل صحون الحفلة. وفي النهاية، رأى نفسه بمكتب كاجي يتّصل هاتفيًّا ولمدّة ساعات ببلدان عديدة بعيدة دون أن يردّ عليه فيها أحد.

في منزل سيلفيرا أيضًا، بدأ يملك الزمن. فهذه هي المرّة الأولى التي فتح فيها التلفزيون وطالع أخبار المساء منذ قدومه إلى لشبونة. جلس على مقربة من الجهاز حتّى يقلّص المسافة بينه وبين الكلمات. أصابته الدهشة من الأحداث العديدة التي توالت في الأثناء. وعلاوة على ذلك، فإنّ هذا الجزء من العالم، هذا الجزء الذي يُعتبر مهمًّا هنا، ليس بأيّ حال من الأحوال هو نفسه في بيرن. من جهة أخرى، أدهشه أنّ ما وجده مألوفًا هنا كان مألوفًا في منزله أيضًا. وأخذ يقول في نفسه: أنا أسكن هنا. ولم يستطع متابعة الفيلم الذي تلا نشرة الأخبار. في الصالون، وضع اسطوانة برليوز واستمع إلى الموسيقى التي أدمن برادو الإصغاء إليها بعد وفاة فطيما. تردّد صدى الموسيقى في كامل المنزل، وبعد مرور وقت قصير، جلس إلى طاولة المطبخ وقرأ الرسالة التي كتبها القاضي إلى ابنه الرهيب حتّى نهايتها:

أحيانًا، بل في أغلب الأحيان، بدوتَ لي، يا بُنيّ، مثل قاضٍ مُراءٍ يلومني على مواصلة ارتدائي ثوبَ القضاة أنا أيضًا، ويلومني على ظهوري كشخص يغضّ الطرف أمام قسوة النظام. ثمّ أشعر بنظرتك تتفحّصني مثل وهج ناريّ وأرغب في أن أدعو الله ليمنحك المزيد من

التفهّم وينزع من عينيك ما فيهما من شعلة منفّذ عمليّات عظيمة. يا إلهي لماذا لم تمنحه حيّزًا أكبر من الخيال حين تعلَّق الأمر بي؟ كم أرغب في الصراخ هكذا في وجهه، وستكون صرخة مليئة بالحقد.

وكما ترى، مهما اتسعت مخيّلتك ونشطت فلن تحصل على أدنى فكرة عمّا يمكن أن تفعله الأوجاع وظهرٌ منحنٍ بإنسانٍ. حسنا، لا يبدو أنّ أحدًا يملك فكرة عن هذا الموضوع باستثناء ضحاياه، لا أحد. أنت بارع في شرح ما اكتشفه بكتراف وأودّ ألاّ تحرمني أيَّ محادثة من هذه المحادثات. إنّها ساعات ثمينة أحسست خلالها بالأمان قربك لكنّها تمّر سريعًا وأعود إلى جحيم الظهر المنحني والصبر. ولكن ألم تفكّر في هذا الأمر: أنّنا لا يمكن أن نكون متشدّدين مع مَنْ أَسَرَتْهم أجسادُهم المنحنية على نحوٍ مهين، مَنْ يعانونه من ألمٍ لا حدّ له، أكثر من تشدّدنا مع أولئك الذين باستطاعتهم مغادرة أجسادِهم ونسيانها، كي يستمتعوا بامتلاكها مجدّدًا لحظةَ يعودون إليها. ما أصعب أن ننتظر منهم الشيء نفسه! وكم يكتفون بوجوب عدم الإقرار بهذا الأمر، فأيّ مهانة متجدّدة سيمثّلها الاعتراف بذلك؟

الحقيقة ! أجل، إنّها بسيطة جدًّا: لن أعرف كيف سأتحمَّل الحياة لولا قدوم أنريك لاصطحابي في تمام الساعة السادسة من كلّ يوم.

أمّا الآحاد، فإنّك لا تعرف شيئًا عن عذاباتها. أحيانًا لا أنام ليلة السبت لأنّني أتوقّع ما سيحصل في الغد. حتّى إنّني في يوم السبت، أصل إلى المبنى الخالي حوالي الساعة السادسة إلاّ الربع وكان ذلك مدعاة للمزاح. وأحيانًا أعتقد أنّ الطيش يولّد قسوة أكثر من أيّ ضعفٍ بشريّ آخر. طلبت مرارًا مفاتيح لأيام الآحاد ولكنّ طلبي قوبل بالرفض. أتمنّى

أحيانًا لو أنّهم يتكبّدون ليوم واحد شيئًا من آلامي حتّى يدركوا الحقيقة.

عندما أدخل إلى المكتب، تخفُّ الآلام قليلاً، كأنّ الغرفة تحوّلت إلى ملاذ يقيني من آلامي الداخليّة. قبيل الساعة الثامنة، يكون كلّ شيء صامتًا في المبنى فأقضي أغلب الوقت في قراءة الملفّات، يجب أن أقدر على التأكّد من عدم حصول مفاجآت يخشاها رجل مثلي. يحدث أيضًا أن أقرأ الشعر فيهدأ نفَسي كأنّي أنظر إلى البحر. وأحيانًا يساعدني هذا في التغلّب على الألم. أتفهَم الآن؟

ولكن قد تتساءل عن تارافال. أجل تارافال، أعلم، أنا أعلم. هل عليّ أن أستقيل لهذا السبب؟ لقد حاولت ذلك، ولأكثر من مرّة أيضًا. انتزعت المفتاح من المحفظة ووضعته على الطاولة ثمّ غادرت المبنى وسرت في الطرقات كما لو أنّني استقلتُ حقًّا. تنفَّستُ من ظهري، كما طلب منّي الطبيب، وازداد نفَسي صخبًا، تجوَّلت في المدينة وأنا ألهث وأحترق خوفًا من فكرة أنّ هذا العمل الخياليّ استطاع أن يصبح حقيقة يوما مّا. وفي وقت لاحق جلست إلى منبر القضاة وقميصي مبلّلٌ بالعرق. أتفهم الآن؟

ليس من أجلك وحدك كتبت رسائل عديدة ضاعت. فقد كاتبت الوزير مرّات عديدة أيضًا، وأعطيت إحدى تلك الرسائل لبريد المحكمة، لكنّني أدركت في الطريق ساعيَ البريد الذي سيحملها إلى الوزير لأستعيدها منه. بدا مستاء لأنّه اضطرّ إلى البحث في محفظته وأخذ ينظر إليّ بفضول طافح بالازدراء، ذلك الفضول الذي يحمله الناس في العادة لمجنون. بعد ذلك ألقيت بالرسالة في المكان الذي رميت فيه الرسائل الأخرى: في النهر حتّى يذوب الحبر المدّعي في الماء. أتفهم الآن؟

ماريا يوحنّا فلورس، صديقة دراستك الوفيّة فهمَت الأمر. في أحد الأيام تمنّيت لقاءها بعد أن ضقتُ ذرعًا بالطريقة التي نظرت بها إليّ.

«ودّ لو أمكنه أن يُجلّك، قالت وهي تضع يدها فوق يدي، أن يجلّك ويحبّك كما نحبّ مثلاً أعلى. ويقول: «لا أريد رؤيته مريضًا يغفر له الناس كلّ شيء. سيصبح الأمر حينئذ كما لو أنّني بلا أبٍ». كان يُسند إلى الآخرين دورًا محدّدًا جدًّا داخل روحه. وهو قاسٍ عندما لا يتناسبون مع هذا الدور. و هذا شكل سامٍ من أشكال الأنانيّة».

ثم نظَرتْ إليّ وكافأتني بابتسامة انبعثت من الفيافي الواسعة لحياة مُعاشة بشفافيّة. وأضافت:

«لماذا لا تجرِّب الغضب؟».

أخذ غريغوريوس الورقة الأخيرة. خطّ القاضي الجملَ القليلة الّتي كُتبت بحبر مغاير بتاريخ 8جوان 1955، أي ليلة وفاته:

ها قد انتهى الصراع. كيف لي أن أقول لك وداعا؟

لقد أصبحتَ طبيبًا بسببي. ما الذي كان سيحدث لو غاب أثر وجعي الذي كبُرتَ في ظلّه؟ أنا مدين لك. ليس خطأك إن استمرَّت الأوجاع وجعلت مقاومتي لها تضعف.

تركت المفتاح في المكتب. سيحملون كلّ شيء على عاتق الأوجاع. أن يقدر فشل مّا أيضًا على قتل هذه الفكرة هو أمر غريب في نظرهم.

هل سيكفيك موتي؟

سرَت في جسد غريغوريوس رعدة فشغّل المدفأة. تناهى إلى سمعه صوت أدريانا وهي تقول: *كاد أماديو يكتشف أمرها لكنّني شككتُ في شيء مّا حين أخذتها من درج والدي السريّ وخبّأتها.*

لم يكن للمدفأة أيّ فائدة. شغّل التلفاز وجلس لمتابعة مسلسل تلفزيونيّ لم يفهم منه كلمة واحدة، لعلّهم يتكلّمون الصينيّة. وفي الحمّام، عثر على حبّة دواء منوّم. وعندما بدأ مفعول الدواء يظهر، بزغ الفجر.

(34)

كانت هناك امرأتان تحملان اسم ماريا يوحنّا فلورس وتسكنان في كامبو دي أوريك. في اليوم الموالي، بعد انتهاء درس اللغة، ذهب غريغوريوس إلى هناك. خلف الباب الذي قرع جرسه، تسكن امرأة شابّة مع طفلين متشبّثين بتنّورتها. وفي المنزل الآخر، قيل له إنّ السيدة فلورس مسافرة لمدّة يومين.

ذهب إلى الفندق ليأتي بكتاب قواعد اللّغة واتجه نحو المعهد. كانت الطيور المهاجرة تحلِّق فوق سماء المعهد محدثة صخبا، وكم تمنّى لو تعود ريح إفريقيا الدافئة، لكنّ ريح آذار اللطيفة التي ما فتئت تثير فيه لذعة شتوية لم تكفَّ عن الهبوب.

عثر في كتاب قواعد اللّغة على ورقة لناتالي روبان كتبت عليها: *«لقد وصلت إلى هنا !» «الكتابة صعبة جدًّا»*. وهذا ما قالته له عندما اتصل بها ليعلمها أنّ الكتاب وصل. منذ أيّام، لم تفعل أيّ شيء غير البحث عن الكتاب، حتّى إنّ والديْها شعرا بالدهشة إزاء حماسها. إلى متى يحلم بالسفر إلى إيران؟ ألم يصبح هذا الأمر على شيء من الخطورة اليوم؟

في العام الماضي، قرأ غريغوريوس مقالاً صحفيًّا يتحدَّث عن رجل بدأ تعلُّم اللّغة الصينيّة وهو في التسعين من عمره. سخر كاتب المقال من هذا الرجل فاستهلّ غريغوريوس كتابة مسودَّة رسالته من موقع

القارئ المطّلع: «*أنت لا تفهم أيّ شيء*». لكنّ دوكسيادس عندما لمح الغضب ينهشه بادر بالقول: «لماذا تفسد حياتك بهذا الشكل؟» فعدل غريغوريوس عن إرسال الرسالة، غير أنّ تهكّم دوكسيادس شوَّشه.

قبل بضعة أيّام، عندما رغب وهو ببيرن في معرفة ما إذا كانت الحروف الفارسيّة ما تزال ماثلة في ذاكرته، لم يتذكّر منها إلّا القليل. أمّا الآن والكتاب أمامه، فقد بات الأمر أكثر سهولة. *ما أزال هناك، بذلك المكان الغائر في الزمن، لم أغادره قطُّ، لكنّني أعيش فيه منفتحًا في الماضي، فيه أو من خلاله... آلاف التغييرات التي تُسرّع الزمن بمقياس هذا الشعور الأبديّ الحاضر، آلاف التغييرات الهاربة والوهميّة مثل حلم...* هذا ما كتبه برادو.

كانت الأشعّة المنبعثة من كوَّة الضوء تتجوَّل في مكتب السيّد كورتس. تذكّر غريغوريوس وجه والده الميّت والصامت إلى الأبد. فيما مضى، عزم على الذهاب إليه عن طيب خاطر مصحوبًا بخوفه من العاصفة الرمليّة الفارسيّة، ولكنّ أباه لم يكن كما يتخيّل.

قطع طريق بيليم الطويل مشيا على الأقدام واستعدَّ للمرور أمام المنزل الذي عاش فيه القاضي صُحبة صمته وأوجاعه وخوفه أمام موقف ابنه منه. كانت أشجار الأرز تخترق سماء الليل الحالك، فتذكّر غريغوريوس أثر الجرح المغطّى بوشاح مخمليّ على رقبة أدريانا. وخلف النوافذ المضاءة، كانت ميلودي تذرع المنزل من غرفة إلى أخرى. هي تعرف إن كانت هذه الأشجار هي نفسها أشجار الأرز الحمراء، وتعرف مدى علاقتها بالجرح الجسديّ الذي يمكّن أيّ محكمة من توجيه التهمة إلى أماديو بسببه.

إنّها ليلته الثالثة في منزل سيلفيرا. هو يعيش هنا الآن. عبر غريغوريوس المنزل فالحديقة المظلمة، فالشارع، قام بنزهة في الحيّ وتأمَّل الناس الذين اعتادوا على طهي طعامهم وتناول العشاء ومشاهدة التلفاز. وبعودته إلى نقطة الانطلاق تأمَّل الواجهة بلونها الأصفر المائل إلى البياض والرواق المضاء. يا له من منزل أنيق بحيّ راقٍ! *«أنا أعيش هنا الآن»!*

جلس على أريكة في الصالون متسائلا: ماذا يعني كلّ هذا؟ لم يستطع في السابق المشيَ في ساحة بوبنبرغ فهل بإمكانه، أن يطأ تراب لشبونة في المدى البعيد؟ كيف سيكون ذلك اللقاء إذن؟ وكيف سيكون شكل قدمَيه على تلك الأرض؟

«أن تعيش اللحظة، فهذا شعور حقيقيّ جدًّا ويبدو في غاية الجمال. ولكن كلّما تمنّيتُ حدوثه تقلَّص إدراكي لمعناه». هذا ما كتبه برادو في إحدى تأمُّلاته المقتضبة.

لم يسبق لغريغوريوس أن شعر بالملل. كان يتخبّط في عجزه عن معرفة ما يمكن أن يفعله بحياته. وبدت له أشياء قليلة غارقة في الإبهام. أمّا الآن فهو لا يشعر بالملل على الإطلاق. ما يشعر به في هذا المنزل الصامت والشاسع جدًّا شيء مختلف تماما. لقد تجمّد الزمن، أو بالأحرى كلاّ، هو لم يتجمّد لكنّه لم يقدر على مجاراته أو زحزحته، لم يحمله نحو أيّ مستقبل، كان يمضي أمامه لا مباليا ودون أن يؤثّر فيه.

دخل غرفة الصبيّ، ابن سلفييرا، واستعرض عناوين روايات سيمينون. «الرجل الذي يشاهد القطارات تمرّ»، وهو كتاب اقتُبس منه الفيلم الذي عُلِّقت صوره على واجهة سينما بوبنبرغ، صور بالأسود والأبيض تظهر فيها جان مورو. منذ أمس الاثنين مرَّت ثلاثة أسابيع

على هروبه. مؤكّد أنّ الفيلم صُوّر في الستّينات، قبل مرور أربعين سنة. هل تُعدُّ هذه فترة طويلة؟

بدا غريغوريوس متردِّدًا في فتح كتاب برادو. لقد غيَّرت قراءته للرسائل شيئًا مّا في داخله. وأحدثت فيه رسالة الأب تأثيرًا أعمق من رسالة الابن، ومع ذلك شرع أخيرًا في تصفُّح الكتاب. بدت كلّ الصفحات مألوفة بالنسبة إليه ولكن كيف سيكون الأمر بعد قراءة الجملة الأخيرة؟ لطالما شعر بالخوف من الجملة الأخيرة، وبوصوله إلى منتصف الكتاب، عذّبته فكرة أن توجد حتما جملة أخيرة. لكن هذه المرّة سيكون الأمر أصعب من المعتاد، كما لو أنّ الخيط اللامرئيّ الذي ظلّ يربطه حتّى الآن بالمكتبة الإسبانيّة بهرشنغرابن قد انقطع. ستتأخّر لحظة قلبِ آخر صفحة وسيُبطئ نظره مادام باستطاعته التحكُّمَ فيه.كانت آخر نظرة ألقاها على المعجم، متفحِّصة أكثر من اللازم. الكلمة الأخيرة. النقطة الأخيرة. سيصل إلى لشبونة إذن، إلى لشبونة البرتغال!

زمن غامض

كنت أحتاج إلى عام بأكمله لأكتشف المدّة الزمنيّة التي يستغرقها أحد الشهور. حدث ذلك في العام الماضي، في آخر يوم من شهر أكتوبر تحديدا. حصل ما يحدث في كلّ سنة ليسبّب لي في كلّ مرّة إزعاجًا جديدًا كليًا: نور الصباح المتجدّد الشاحب الذي يعلن قدوم الشتاء. لا وجود لأشعّة حارقة، لا وجود لوهج مؤلم، لا وجود لهبَّات ريح قويّة ترغب أمامها في الاختباء وسط الظلّ، فقط نور لطيف وناعم يحمل بداخله قِصر الأيام المنذر بالخطر على نحو جليّ. لم أكن أواجه النور الجديد كعدوّ، أو كرجل يرفضه ويقاومه

بعجزه المضحك. نحن ندّخر جهدًا كبيرًا عندما يفقد العالم حوافّ الصيف القاطعة ويعرض علينا خطوطًا ضبابيّة تحدّ من شجاعتنا.

كلاّ لم يكن الغشاء الشاحب واللبنيّ للنّور الجديد هو ما جعلني أنتفض، وإنّما الضوء المنكسر الواهن الذي أعلن مرّة أخرى عن النهاية الحتميّة لفترة من الطبيعة وفترة وجيزة من حياتي. ما الذي فعلته منذ نهاية شهر آذار، منذ اليوم الذي عاد فيه فنجان القهوة الموضوع على الطاولة ساخنا بفعل تعرّضه للشمس حتّى إنّني قفزت إلى الوراء وأنا أمسكه؟ هل مرّ الكثير أم القليل من الوقت منذ ذلك الحين؟ سبعة أشهر، هل هي فترة طويلة؟

في العادة، أتفادى دخول المطبخ، إنّه مملكة آنا، وهناك شيء لا أحبّه في طريقة تلاعبها الحيويّة بالمقالي. ولكن في ذلك اليوم، احتجتُ إلى التعبير عن خوفي الصامت أمام شخص مّا، حتّى إن كان ذلك دون مناسبة ودون أن أسمّيه.

ما هي الفترة الزمنيّة التي يستغرقها شهر؟» تساءلتُ دون مقدّمات. كانت آنا تستعدّ لإشعال الغاز، فأطفأت عود ثقابها:

«ماذا تريد أن تقول؟»

تقطّب جبينها كحال شخص يجد نفسه أمام لغز عويص.

«أقصد: كم من الوقت يستغرق أحد الشهور؟»

أخذت آنا تفرك يديها وقد تملّكها الحرج وهي تحدّق إلى الأرض.

«حسنا، أحيانًا يدوم ثلاثين يوما، أحيانًا...»

-أعرف هذا جيّدا، قلت بجفاء، السؤال هو: كم من الوقت يدوم ذلك؟

أمسكت آنا الملعقة حتّى تشغل يديها بشيء مّا.

«في إحدى المرّات أُخضعت ابنتي للعلاج مدّة شهر تقريبا، قالت بتردّد واحترازِ معالجٍ نفسيّ يخشى أن تورث كلماتُه شعورًا بالخيبة لدى مريضه. كنت أصعد الدرج وأنزل مرّات عديدة خلال اليوم محمَّلة بالحساء الذي لا ينبغي عليّ قلبه. وذلك يدوم وقتًا طويلاً».

- وكيف بدا الأمر بعد ذلك، عندما تتذكّرينه؟

في تلك اللحظة جازفت آنا بابتسامة تعبّر عن الارتياح لعدم ارتكابها خطأً في الإجابة:كان زمنا طويلاً دومًا، ولكن بعد ذلك صار أقلّ طولا، لست أدري.

- وماذا عن الفترة الّتي حملتِ فيها كلّ هذه الأطباق من الحساء، هل تشتاقين إليها الآن؟

أخذت آنا تدير الملعقة في جميع الاتجاهات ثمّ أخرجت منديلاً من ميدعتها وتمخَّطت.

«طبعا، فقد عالجتُ الطفلة عن طيب خاطر، وفي تلك اللحظة لم تكن عنيدة جدًّا، ومع ذلك فأنا لا أرغب في الاضطرار إلى عيش كلّ هذا مرّة أخرى. شعرتُ طوال الوقت بالخوف لأنّنا نجهل كُنه هذا المرض وما إذا كان خطيرًا أم لا.

- أنا أقصد شيئًا آخر: هل أنت نادمة على انقضاء ذلك الشهر، على مُضيّ ذلك الوقت، وعلى أنّهُ لن يكون في وسعك استغلاله في أيّ شيء آخر؟

- حسنا، لقد انقضى، قالت آنا. وفي تلك اللحظة لم تعد تشبه طبيبًا

شارد الذهن وإنّما مرشّحًا خجولًا بصدد إجراء امتحان.

- طيّب، قلت، واتجهتُ نحو الباب. وبخروجي سمعتها تفرك عود ثقاب آخر. لماذا كنتُ دومًا مقتضبًا وقاسيًا وجاحدًا إلى هذا الحدّ أمام أحاديث الآخرين، وخاصّة عندما يتعلَّق الأمر بشيء مّا مهمّ حقًّا بالنسبة إليّ؟ من أين تأتي هذه الحاجة إلى الدفاع بشراسة عمّا هو مهمّ ضدّ هؤلاء الذين لا يرغبون قطعًا في انتزاعه منّي.

في صباح اليوم التالي، الموافق لأوّل يوم من شهر نوفمبر، ذهبت عند الفجر باتجاه القوس الذي يقع في نهاية شارع أوغوستا، أجمل شارع في العالم. وفي نور الفجر الشاحب، بدا البحر شبيها بسطح فضيّ أملس وممتقع اللون. أن أعيش المدى الحقيقيّ لشهر مّا بوعي استثنائيّ هي الفكرة التي دفعتني إلى مغادرة الفراش. كنت أوّل من وصل إلى المقهى، وعندما لم تتبقّ في الفنجان إلاّ بضع رشفات، احتسيتُ القهوة بنسق أكثر بُطْأً من العادة. لم أعرف ماذا سأفعل عندما يغدو الفنجان فارغا. سيكون هذا اليوم الأوّل طويلاً جدًّا إنْ بقيتُ جالسًا هكذا ببساطة. وما أردتُ معرفته ليس المدّة الزمنيّة لشهر في حال السكون التامّ. ولكن ما هو الشيء الذي أودُّ معرفته بالضبط؟

في بعض الأحيان أبدو في غاية البطء، واليوم فقط، حين بدأت أشعّة شمس نوفمبر تسطع، ألاحظ أنّ السؤال الذي طرحتهُ على آنا حول الحتميّة والزوال، والندم والحزن، ليس قطعًا هو السؤال نفسه الّذي شغلني فعلًا. السؤال الذي أردت طرحه مختلف تماما: ما الذي يجعلنا نعيش شهرًا كما لو أنه زمن كامل، زمننا نحن، وليس

زمنا مضى أمامنا، زمن تكبّدناه وانسلّ من بين أصابعنا حتّى بدا لنا مثل زمن ضائع، زمن غائب، يورث فينا شعورًا بالحزن ليس لأنّه مضى، ولكن لأنّنا لم نستطع استغلاله في شيء؟ السؤال إذن، لم يكن: ما هي الفترة الزمنيّة التي يستغرقها شهر؟ وإنّما: ما الذي يمكن أن نفعله من أجل أنفسنا في شهر؟ متى شعرت بأنّ هذا الشهر بأكمله ملك لي أنا وحدي؟

أكون حينئذ مخطئا إن قلت إنّ عليّ أن أنتظر عامًا كاملاً حتّى أكتشف المدّة الزمنية الّتي يستغرقها شهر مّا. لقد احتجت إلى عام كامل لأكتشف غايتي من طرح السؤال الخاطئ حول الفترة الزمنية التي يستغرقها شهرٌ مّا.

في صباح اليوم التالي، وعند عودته من حصّة درس اللغة، التقى غريغوريوس بماريانا إيسا. وعندما لمحها آتية من زاوية الشارع، متَّجهة نحوه، أدرك فجأة سبب خوفه من الاتصال بها. سيحدِّثها عن نوبات الدوار، وستفكّر بصوت عالٍ في أسبابه الممكنة وهذا ما لا يرغب في سماعه.

دعته إلى شرب فنجان قهوة وحدَّثته عن يوحنّا الّذي قال لها بخصوص غريغوريوس: «أنا أنتظره كامل صباح يوم الأحد، لا أعرف ما يعنيه هذا، لكن وأنا معه أستطيع قول أشياء نابعة من القلب. ليس لأنّها تندثر بسرعة بل لأنّها تغدو خلال بضع ساعات أكثر سهولة...» حدَّثها غريغوريوس عن أدريانا وعن الساعة الحائطيّة، عن جورج ونادي الشطرنج ومنزل سيلفيرا وأوشك على الإشارة إلى رحلته نحو بيرن لكنّه شعر بأنّ ذلك ليس جديرًا بأن يحكى.

عندما انتهى من حديثه، سألته عن نظارته الجديدة فضاقت عيناه ورمقها بنظرة متفحِّصة. «أنتَ لا تنام جيّدا»، قالت. عند ذلك تذكَّر صباح اليوم الذي فحصته فيه، عندما رغب في ألاّ ينهض من مكانه أبدًا، تذكّر فحصها الدقيق لعينيه وعبورهما معًا باتجاه كاسيلهاس، تذكّر شاي أسام بلونه الذهبي المحمرّ الّذي تناوله لاحقًا في منزلها .

«في الأيّام الأخيرة، أشعر أحيانًا بدوار»، قال، ثمّ أضاف بعد هنيهة: «أنا خائف».

بعد ساعة، غادر عيادة ماريانا إيسا بعد أن فحصت مرّة أخرى حدّة البصر وقاست ضغطه، وكان عليه أن يثني ركبتيه ويقوم بتمارين لحفظ التوازن. وطلبت منه توصيف نوبات الدوار بشكل دقيق ثمّ مكَّنته من عنوان أخصائيّ في الأعصاب.

«هذا لا يبدو لي أمرًا خطيرًا ولا مُثيرًا للدهشة بأيّ شكل من الأشكال، لاسيّما إذا فكّرنا في كلّ ما طرأ على حياتك من تغييرات خلال وقت قصيرٍ. ولكن يجب إجراء الفحوص المعتادة»، قالت.

تراءى له أثر المستطيل الفارغ على الجدار في غرفة برادو حيث كانت خريطة الجهاز العصبيّ معلَّقة، فشعرت ماريانا بالذعر يغمره.

«الورم يؤدّي إلى اضطرابات في منتهى الاختلاف»، قالت وهي تربّت على ذراعه.

منزل ميلودي غير بعيد عن هناك.

«عرفتُ أنّك ستعود، قالت وهي تفتح له الباب. بعد زيارتك ذلك اليوم ظلَّت ذكرى أماديو تغمرني بضعة أيّام».

ناولها غريغوريوس رسائل الوالد والابن لتقرأها.

«هذا ليس عدلاً! قالت، بعد أن قرأت آخر العبارات الواردة في رسالة الأب. هذا ليس عدلاً! هذه خيانة! كما لو أنّ أماديو هو من دفعه إلى الموت. كان طبيبه شخصًا متبصّرًا، ولم يصف له المسكّنات إلاّ بجرعات قليلة جدًّا، لكنّ بابا يتقن الانتظار، والصبر يمثّل نقطة قوّته، صبرٌ شبيه بصخرة صماء. ماما أدركت أنّ النهاية قادمة لا محالة، لقد شعرت بحدوث كلّ شيء، لكنّها لم تفعل شيئًا لردّها. «الآن، لم يعد هذا يؤلمه»، قالت ونحن نقف أمام التابوت المفتوح. أحببتها لأجل هذه الكلمات. «ولم يعد في حاجة إلى تعذيب نفسه» قلت، فردّت عليّ: «نعم وهذا أيضا».

حدَّثها غريغوريوس عن زياراته لأدريانا. «لم يسبق لي الذهاب إلى المنزل الأزرق منذ وفاة أماديو»، قالت ميلودي، ولكن لن يدهشها أن تحوّله أدريانا إلى متحف ومعبد توقَّف فيه الزمن.

«كان يعجبها حقًّا وهي طفلة صغيرة. إنّه الأخ الأكبر الذي لا يُعجزه شيء، الأخ الذي يجرؤ على معارضة بابا. أجل بابا! بعد سنة من سفر أماديو لمتابعة دراسته في كويمبرا، دخلت أدريانا إلى مدرسة البنات المواجهة للمعهد، المدرسة نفسها التي درست بها ماريا يوحنّا. هناك، كان أماديو بطلَ الأيّام الماضية وبدَت هي فخورة بأنّها شقيقة البطل. ورغم ذلك كان لكلّ شيء أن يجري بنسق مختلف، بنسق طبيعي، لو لم تحدث مأساة إنقاذه لحياتها.»

في ذلك الحين كان عمر أدريانا تسع عشرة سنة. أمّا أماديو الذي يتهيّأ لتقديم أطروحته قريبًا فيظلّ منكبّا، في المنزل آنذاك، على كتبه

ليلاً نهارًا ولا ينزل إلاّ لتناول الغداء. وفي أحد الأيّام تعرَّضت أدريانا لاختناق أثناء اجتماعنا على الغداء.

كنّا جميعًا جالسين أمام أطباقنا المليئة بالطعام ولم نلاحظ شيئًا في البداية، فجأة صدر صوت غريب عن أدريانا، حشرجة مفزعة. أمسكت رقبتها بكلتا يديها وضربت بقدميها على الأرض بنسق مجنون، وأماديو جالس إلى جانبي، منشغل تمامًا بالتحضير لامتحانه. لقد اعتدنا على رؤيته جالسًا بيننا مثل شبح أخرس يبتلع الطعام على نحو أعمى. دفعته بمرفقي مشيرة إلى أدريانا فرفع عينيه وهو شبه شارد. اكتسب وجه أدريانا لونا بنفسجيًّا وفقدت القدرة على التنفّس. واتجهت نظرتها البائسة نحو أماديو الذي اكتست ملامحه بتعبير ألفناه جدًّا، تعبير عن تركيزٍ عنيف عادة مّا يعتريه عندما تواجهه صعوبة تبدو له مبهمة للوهلة الأولى، وهو الذي اعتاد على فهم كلّ شيء فورا.

قفز فجأة من مكانه فانقلب كرسيّه إلى الخلف، وبعد بضع خطوات كان بجانب أدريانا، ضمَّها بين ذراعيه، أوقفها وأدارها إلى الخلف ثمّ أمسكها من كتفيها، تنفَّس بعمق للحظة وجذب جذعها إلى الخلف برجّة عنيفة فخرجت من حنجرتها حشرجة مكبوتة. لا شيء عدا ذلك. أعاد أماديو المحاولة، ولكن رغم ذلك لم تتحرك قطعة اللحم الّتي انزلقت في القصبة الهوائيّة.

انطبع ما حدث بعد ذلك في مخيِّلتنا إلى الأبد، ثانية بعد ثانية، وحركة بعد أخرى. أجلسَ أماديو أدريانا على الكرسيّ وأشار إليَّ بالاقتراب ثمّ أرجع رأسها إلى الخلف.

«أمسكيها جيّدا! بقوّة !» قال بصوت منهك.

ثمّ تناول من أمامه سكين قطع اللحم الحادّ جدًّا ومسحه فوق المنديل، فشعرنا وقتها بأنفاسنا تتوقّف.

«لا ! لا !» صاحت ماما.

أعتقد أنّه لم يسمعنا. جلس على ركبتي أدريانا منفرج الساقين وحدَّق في عينيها.

«يجب أن أفعل ذلك وإلاّ ستموتين، أبعدي يديكِ. ثقي بي!»، قال. ولا يزال هدوء صوته وقتها يدهشني إلى اليوم.

أبعدت أدريانا يديها عن عنقها فتحسَّس بسبَّابته الفجوة بين الغضروف الدرقيّ والغضروف الخلفيّ للحنجرة، وبعد ذلك وضع حدَّ السكين في الفجوة، تنفَّس بعمق، ورمش بجفنه ثمّ غرز السكين.

استجمعت تركيزي لأمسك برأس أدريانا كما لو أنّه مثبّت على مقصلة. لم أر الدم يتدفَّق، لم أره إلاّ بعد ذلك فوق قميص أماديو. ثار جسد أدريانا عندما عثر أماديو على مسلك القصبة الهوائية، عرفنا ذلك من صوت صفير الهواء الذي كان يدخل عبر الفتحة الجديدة. فتحتُ عينيّ ورأيت أماديو يدير شفرة السكين في الجرح، واعتراني شعور بالخوف. كان ذلك شبيها بعمل وحشيّ لا مثيل له، ولم أفهم إلاّ لاحقًا أنّه وجب أن يترك قصبة الهواء مفتوحة. تناول أماديو من جيب قميصه قلم حبر وضعه بين أسنانه، فكَّ بيده الأخرى الجزء الأعلى منه، نزع عبوة القلم وأدخل الجزء السفليّ الشبيه بأنبوب في الجرح. أخذت أدريانا تتنفّس بشكل متسارع مُحدِثة صفيرًا لكنّها لم تفارق الحياة، وغادر وجهَها اللَّونُ الذي سبّبه الاختناق شيئًا فشيئا.

«سيّارة الإسعاف!»، صاح أماديو بصوت آمر.

انتفض بابا من جموده وسارع إلى الهاتف. حملنا أدريانا على الأريكة وقلمُ الحبر ما يزال خارجًا من حلقها بينما أخذ أماديو يداعب شعرها.

«لم يكن في وسعي فعل أيّ شيء آخر»، قال.

وصل الطبيب بعد مرور بضع دقائق، وضع يدَه على كتف أماديو قائلا: هذا أقلّ ما يمكن فعله، هذا الحضور الذهنيّ وهذه الشجاعة نادرًا ما يجتمعان لشخص في مثل سنّك».

عندما غادرت سيّارة الإسعاف حاملة أدريانا، جلس أماديو في مكانه وقميصه ملطَّخ بالدم. ساد الصمت المكان. وأعتقد أنّ أسوء شيء بالنسبة إليه هو ألاّ تقول العائلة شيئا. لقد أكَّد الطبيب ببضع كلمات أنّ أماديو قام بما يلزم من أجل إنقاذ حياة أدريانا، ومع ذلك لذنا جميعًا بالصمت، وامتلأ ذلك الصمت الذي عمَّ قاعة الأكل بدهشة تشي بالخوف أمام كميّة الدم الكبيرة.

«كان الصمت يصنع منّي جزارا»، قال بعد مرور سنوات في المرّة الوحيدة التي تحدَّثنا فيها.

«لم يُشفَ قطُّ من الوجع الذي سبّبناه له بتخلِّينا عنه في تلك اللحظة، وقد غيَّر ذلك علاقته بعائلته إلى الأبد وصار نادرًا ما يأتي إلى المنزل، وإن حصل ذلك فهو يأتي ضيفًا لبقًا لا غير.

في ذلك اليوم، انفجر الصمت فجأة، وأخذ أماديو يرتعش، خبَّأ وجهه في يديه، وما أزال أسمع إلى اليوم النحيبَ الحادّ الذي هزّ جسده، لكنّنا تخلَّينا عنه مرّة أخرى. داعبتُ ذراعه ولكنّ ذلك لم يمثّل شيئًا مهمًّا بالنسبة إليه، فلست سوى شقيقته الصغرى ذات الثماني سنوات، وكان هو في حاجة إلى مواساة أخرى مختلفة تماما.

وبما أنّ شيئًا لم يحدث، فقد فاضت الكأس. نهض فجأة، وصعد راكضًا إلى غرفته ثمّ عاد مصطحبًا كتاب طبٍّ ضربه على الطاولة بكلّ ما أوتي من قوّة حتّى ارتطمت الملاعق بالصحون وسُمع صوتُ الكؤوس. «هنا! صاح، هنا شرحٌ تفصيليٌّ لهذه العمليّة! ثقب القصبة الهوائيّة، هكذا تسمّى هذه العمليّة! لماذا تنظرون إليّ بدهشة؟ لقد جلستم هنا دون حراك. لو لم أكن موجودًا هنا، لحملناها في تابوت!».

أُجريت العمليَّة لأدريانا وظلَّت على إثرها في المستشفى مدّةَ أسبوعين. وفي هذه الفترة زارها أماديو كلّ يوم بمفرده لأنّه يرفض مرافقتنا. وبدأ يجتاح أدريانا شعورٌ عارمٌ بالاعتراف بالجميل يتَّسم بالقداسة تقريبا. بعنق معصوبٍ، كانت أدريانا ترقد غارقة في وسائدها، يغشاها البياض ولا تكفُّ عن استرجاع الحادثة المأسويّة. وعندما أصبحنا بمفردنا، تحدَّثت:

«قبل أن يغرز السكّين، تحوّل لون أشجار الأرز التي تراءت لي من النافذة إلى الأحمر، أحمر بلون الدم، ثمّ فقدتُ الوعي».

خرجَت من المستشفى، أضافت ميلودي، وهي مقتنعة بأنّ عليها تكريسَ حياتها لشقيقها الذي أنقذها. وجد أماديو هذا الأمر مزعجا، وفعل المستحيل كي ينتزع هذه الفكرة من رأسها. اعتقدنا للحظة أنّه نجح في ذلك، فقد التقت برجل فرنسيّ وقع في غرامها وبدا أنّ الحادثة المأسويّة امّحت من داخلها. غير أنّ هذا الحبّ تبدّد في اللحظة التي أصبحت فيها أدريانا حاملا. وعاد أماديو من جديد ليحضر إجراء عمليّة على جسد شقيقته. وضحّى في سبيل ذلك بسفرته صحبة فطيما وعاد من إنجلترا. بعدما غادرت المدرسة، تلقّت أدريانا تكوينًا شبه طبّيّ، وعندما فتح أماديو عيادة في المنزل الأزرق بعد مرور ثلاث سنوات، بدا واضحًا للجميع أنّها

ستعمل معه. لكنّ فطيما رفضت السماح لها بالعيش في المنزل، وحدثت مشادّات مأسويّة حين قرَّرت الرحيل. وبعد موت فطيما، انتظرت أدريانا أسبوعًا قبل أن تنتقل إلى المنزل الأزرق. ذهل أماديو ذهولاً تامًّا لفقدان فطيما وعجز عن تقبُّل موتها. لقد انتصرت أدريانا!

(35)

«اعتقدتُ أحيانًا أنّ ذهن أماديو هو قبل كلّ شيء عبارة عن كلمة، قالت ميلودي في نهاية محادثتها، كم كانت روحه مؤلَّفة من كلمات لم ألحظها عند أيّ شخص آخر»!

أطلعها غريغوريوس على الملاحظة الّتي كتبها أماديو حول الأنيوريسم. هي أيضًا لا علم لها بالموضوع. ولكن، هناك تفصيلٌ تذكّرتهُ الآن.

«كان يرتعش إذا استعان أحدهم بكلمات لها علاقة بمرور الزمن: *مرور، محو، انقضاء*، وأتذكّر خاصّة كلمتَيْ *جريان ومرور*. علاوة على ذلك، فردّة فعله أمام الكلمات عنيفة، كما لو أنّها أكثر أهميّة من الأشياء ذاتها. وتلك هي النقطة الأكثر أهميّة، النقطة التي يجب أخذها بعين الاعتبار لفهم شقيقي.كان يتحدّث عن دكتاتورية الكلمات الخاطئة وحريّة الكلمات الصائبة، عن السجن اللامرئيّ في الكيتش اللّغوي وعن نور الشعر. إنّه يمتلك اللغة، رجلٌ مفتون باللغة، رجلٌ توجعه الكلمة الزائفة أكثر من طعنة سكينٍ. وفجأة أصبحت ردّة الفعل هذه توجَّه إلى كلماتٍ تعبِّر عن الزوال وعدم الثبات.

بعد إحدى زياراته التي أظهر خلالها حساسيّته الجديدة والمحتشمة، أجهدنا أنا وزوجي أنفسنا في التفكير عميقًا مدّة نصف ليلة كاملة. «*إلاّ هذه الكلمات، رجاء، إلاّ هذه الكلمات!*» قال، ولم نجرؤ على طلب أيّ تفسير منه، فشقيقي يمكن أن ينفجر مثل بركان».

ولمّا عاد إلى منزل سيلفيرا، جلس غريغوريوس على أريكة في الصالون، وبدأ يقرأ وثيقة دي برادو الّتي أعطته إيّاها ميلودي بعد أن صارحته قائلة: «كان يشعر بالذعر مخافة أن يقع هذا النّصّ في أيادٍ غير أمينة. ويقول: «سيكون من الأفضل أن أتخلَّص منه نهائيّا» ولكنّه عهد به إليّ. لم يكن من حقّي فتح الظرف إلاّ بعد وفاته، كما لو أنّ في ذلك إهانة لي».

خطَّ برادو هذه الصفحات خلال شهور الشتاء الّتي تلت وفاة والدته، وسلَّمها إلى ميلودي في الربيع، قبيل وفاة فطيما بوقت قصير. وهي عبارة عن ثلاثة نصوص بدأ كتابتها على صفحات مختلفة يمكن تمييز أحدها من الآخر بلون الحبر أيضًا. وهي تكوّن معًا رسالة وداعٍ للأمّ، ولكن لم تتوجّه أيّ عبارة منها إليها مباشرة في أعلى الصفحات. وعوضًا عن ذلك، حمل النصّ عنوانا، مثل العديد من تأمُّلات الكتاب الأخرى.

وداع ماما الخائب،

أنا مجبرٌ على تفويت وداعاتنا، ماما. فأنت ما عدتِ هنا، والوداع الحقيقي يجب أن يكون لقاءً. لقد انتظرتُ كثيرًا وهذا ليس من قبيل الصدفة بطبيعة الحال. ما هو الفرق بين وداعٍ حقيقيّ ووداع بائس؟ كان يمكن أن يكون وداعي لكِ بالإخلاص في محاولة تحقيق انسجام بين ما يعتمل فينا نحن الاثنيْن، أنا وأنت. هذا هو المعنى الحقيقيّ والمتين لكلمة وداع: فقبل أن يفترق شخصان يتّفقان على الطريقة التي تعارفا بها وتعايشا معها، وعلى الأشياء التي نجحا فيها وفشلا معًا. يلزم شيءٌ من الجرأة في كلّ هذا، ينبغي امتلاك القدرة على تحمُّل وجع التنافرات، الأمر متعلّق بمعرفة ما كان مستحيلاً.

وداعًا، هي أيضًا كلمة نقولها لأنفسنا، وهي تعني أن نتقبّل أنفسنا على مرأى من الآخر. وأمّا الوداع الحقير فيكمن في التحوّل، أي في محاولة إغراق الأشياء الماضية في نورٍ ذهبيّ والكذب لإزالة حوافّ الظلّ. ما نخسره إذن ليس أقلّ من معرفة الذات في الملامح التي خلقت حوافّ الظلّ تلك.

لقد خدَعْتني يا ماما. وها أنا أكتب الآن ما وجب أن أقوله لكِ منذ وقت طويل: إنّها خدعة ماكرة جثمت على حياتي بشكل لم يفعله شيءٌ آخر من قبل. في الواقع، لقد جعلتِنِي أعرف أنّكِ انتظرت منّي، أنا، ابنك، ابنك أنتِ، أن أكون الأفضل. ولا مجال للشكّ في محتوى هذه الرسالة. هذا فقط ولا شيء سواه. وليس مُهِمًّا أن أكون الأفضل في مجال معيّن وإنّما ينبغي على المهامّ التي يجب عليّ تحقيقها أن تتجاوز كلّ مهامّ الآخرين، ليس فقط تتجاوزها بأيّة طريقة بل وتُهيْمن عليها أيضًا. وخدعتك هي أنّك لم تخبريني بذلك قطّ. انتظاركِ لم يتكوّن بطريقة تسمح لي باتخاذ موقفٍ، بالتفكير فيه ومواجهة المشاعر التي يثيرها فيّ. ومع ذلك، أدركت هذا الأمر لأنّه موجودٌ فعلا: هو إدراكٌ يُطبع في ذهن طفلٍ ضعيفٍ، قطرة قطرة، ويومًا بعد يومٍ، دون أن يلاحظ أيّ شخصٍ تزايد هذا الإدراك الصامت بشكل مستمرّ. ينتشر الإدراك اللامرئيّ فيه مثل سمّ خبيث، يتغلغل في نسيج الجسم والروح ويحدّد لون حياته وظلالها. ومن خلال هذا الإدراك المؤثّر على نحو خفيّ، الإدراك الذي تكمن قوّته في ميزته السرّيّة، تولد في داخلي شبكة لامرئيّة، شبكة لا يمكن تبيّنها، صُنعت من انتظارات عنيدة وقاسية تجاهي، نسجتها عناكب

قاسية بطموحٍ وُلد من الخوف. كم مرّة، وبأيّ يأسٍ وبأيّ هزلٍ بشعٍ تخبّطتُ لاحقًا في ذاتي لتحريرها، أو لعرقلتها أكثر فحسب! صعُب عليّ أن أدافع عن نفسي أمام حضوركِ في داخلي: فخدعتك رائعة جدًّا، تحفة فنّية خالية من العيوب، إتقان ساحق يقطع الأنفاس. وما يزيد في إتقانها هو أنّكِ لم تتْركي انتظاراتك الخانقة مبهمة فحسب ولكنّك أخفيتِها خلف الكلمات والأفعال التي تعبّر عن العكس. لا أقصد أنّ الأمر تعلّق هنا بمخطّط واعٍ، مخطّط ماكرٍ ومخادعٍ، كلاّ، أنت نفسك صدّقت كلماتك المخادعة وكنت ضحيّة زيف يتجاوز ذكاؤه ذكاءك بكثير. منذ ذلك الوقت، وأنا أعي كم باستطاعة البشر أن يكونوا في أعماق ذواتهم مرتبطين بعضهم ببعض وحاضرين في نفوس بعضهم بعضًا دون أن يراودهم أدنى شكّ في ذلك.

ثمّة شيءٌ آخر يتناغم أيضًا مع المهارة التي صوَّرتني بها حسب رغبتك كنحّاتة آثمة لروح غريبة: الاسمان اللذان منحتني إيّاهما: أماديو إيناسيو، لا يثيران انتباه أغلب الناس في شيء. ومن وقت إلى آخر، يتحدّث أحدهم عن تناغمهما لكنّني أدرك ذلك أكثر من أيّ شخص في العالم لأنّ صوتكِ وأنت تردّدينهما مازال يرنُّ في أذني، صوت مفعم بحماس مغرور. كان يجب أن أكون عبقريًا، وأمتلك هشاشة إلهيّة وأجسّد في الوقت نفسه صرامة القديس إينياس القاتلة واستغلال مواهبه باعتباره قائدًا كهنوتيًّا.

هذه عبارة سيّئة ولكنّها تحدّد علاقتنا على نحوٍ لم تحقّقه أيّ عبارة أخرى: تميّزت حياتي بتسمّم أموميّ!

هل كان أبواه حاضريْن فيه أيضًا، حضورًا مكمّلاً لحياته ومقنّعًا

ربّما ومتحوّلاً إلى ضدّه؟ تساءل غريغوريوس وهو يسير في طرقات بيليم الخالية. تذكَّر الدفتر الصغير الذي تدوّن عليه والدته ما تجنيه من وراء قيامها بالأعمال المنزليّة من مال. كانت تنظر إليه متعبةً عبر نظّارة رخيصة بإطار سدَّدت ثمنه من صندوق المرض وبعدستيها المتَّسختين على الدوام: *«كم أرغب في رؤية البحر مرّة أخرى، لكن ليس من البساطة أن نمتلك القدرة على تحقيق ذلك»*.

منذ وقت طويل لم يعد يفكّر في محاسن والدته ولا حتّى مزاياها: عزّة النفس التي تقابل بها الأشخاص الذين تنظّف أوساخهم في الشارع. لا أثر في تصرّفاتها لأيّ علامة من علامات الخنوع، ولم تكن نظرتها لتنكسر أمام أولئك الذين يدفعون لها المال من أجل أن تتنقّل وهي تتزحلق على ركبتيها. *هل من حقّها أن تتصرَّف على هذا النحو؟* حتّى يكون فخورًا بها لاحقًا عندما أصبح قادرًا على رؤيتها تفعل ذلك من جديد، تساءل وهو صغير. فقط لو أنّها لم تغرق في الروايات المحلّيّة للودوفيغ غانغوفر خلال الساعات القليلة التي تخصّصها للقراءة. وتذكَّر قولها: *الآن، تلوذ أنت أيضًا بالكتب*. لم تكن قارئةً، وهذا أمرٌ مؤلم، ولكنّها ليست قارئة حقًّا.

«هل هناك بنك يستطيع أن يمنحني قرضًا، ومن أجل رغبةٍ كهذه؟...».

تراءت له يد والده الضخمة بأظفارها المقلَّمة وهو يحصي أمامه الثلاثين فرنكًا قطعةً نقديّةً بعد أخرى، وهي ثمن كتاب النحو الفارسيّ. وتذكَّر قوله: «هل أنت واثق من رغبتك في السفر إلى هناك؟ إنّه مكانٌ بعيد جدًّا، بعيد بالقياس إلى المسافات التي تعوَّدنا قطعَها. أبسط شيء

يمكن أن تجد فيه صعوبة هو الأحرف، إنّها لا تشبه الأحرف في شيء. ثمّ إنّ أخبارك لن تصلنا أبدًا».

عندما أعاد إليه غريغوريوس المالَ آنذاك، ربَّت والده بيده الخشنة على شعره، تلك اليد التي نادرًا ما تجازف بإظهار الحنان.

كان والد إيفا «المدهشة»، فون مورلت العجوز، قاضيًا، وهو عملاقٌ حقيقيٌّ. وفي احتفال المدرسة حضر حضورًا خاطفًا. ما الذي سيغيّره هذا الأمر؟ تساءل غريغوريوس، ماذا لو أنّه كبر في كنف أبٍ صارم عذَّبته الأوجاع وأمٍّ طموحٍ تعيش حياتها بوجود ابن معبودٍ؟ هل كان باستطاعته، مع ذلك، أن يصبح موندوس، موندوس البرديّة؟ هل باستطاعة أحد أن يعلم ذلك؟

عندما انتقل غريغوريوس من جوّ الليل البارد إلى داخل المنزل الدافئ شعر بالدوار. فجلس على الكرسيّ الذي شغله سابقًا وانتظر أن يستعيد عافيته. «هذا لا يبدو لي أمرًا خطيرًا ولا مثيرًا للدهشة بأيّ شكل من الأشكال، لاسيّما حين نفكّر بكلّ التغييرات الحاصلة في حياتك خلال وقت قصيرٍ»، قالت ماريانا إيسا فيما مضى.

«الورم يؤدّي إلى اضطرابات في غاية الاختلاف». طرد من ذهنه صوت طبيبة العيون وواصل القراءة:

كانت أوّل خيبة كبرى ألحقتها بي هي رفضكِ الاستماعَ إلى أيّ سؤال من الأسئلة التي استبدّت بي في خصوص مهنة بابا. تساءلتُ: هل سبق أن اعترفتِ بعدم قدرتك على التفكير في ذلك بوصفك امرأة يستهان بها في البرتغال المتخلِّف؟ لأنّ القانون والمحكمة كانا أمرَين يعنيان الرجال وحدهم؟ أم أنّ الأمر أسوأ من ذلك: هل عشتِ

دون أن تطرحي أسئلة أو تثيري شكوكًا إزاء مهنة بابا؟ وبالتالي، ألا يعنيكِ مصير الأشخاص المعتقلين في تارافال؟

لماذا لم تجبري بابا على الحديث إلينا عوض أن تتركيه صرحًا في عيوننا؟ هل أسعدك تعزيز نفوذك على هذا النحو؟ لقد كنت بارعة في التواطؤ الأخرس والمرفوض حتّى مع أطفالك، وبارعة أيضًا في أداءِ دوركِ كوسيط ديبلوماسيّ بيننا وبين بابا. أحببتِ هذا الدور ولم ينقصكِ الغرور في أدائه. هل هذا هو انتقامكِ من الفضاء الضيّق الذي تركه لكِ الزواج؟ هل هو تعويضٌ عن نقص في الاعتراف بالجميل من قبل المجتمع والعبء الذي تُحمّلكِ إيّاه أوجاع والدي؟

لماذا استسلمتِ أمام كلّ اعتراضٍ أُبديه أمامك؟ لماذا لم تقاوميني ولم تعلّميني كيف أقوى على تحمّل الصراعات، لا سيّما أنّني لم أقدر على تعلُّم ذلك بغمزة عين، وأنا ألعب. ولكن، كان عليّ أن أتعلّمه بصعوبة كما لو أنّني أستعين بدليلٍ، وتمرّ عليّ دقيقة قاسية غالبًا ماتقودني إلى فقدان صوابي وتجاوز الهدف.

لماذا حمّلتنِي عبء تفضيلك إيّاي؟ لماذا لم تراهنا أنت وبابا كثيرًا على أدريانا وميلودي؟ لماذا لم تستشعرا الإهانة التي يتسبّب فيها نقص الثقة ذاك؟

ولكن من الظلم، يا ماما، أن يكون كلّ ما قلته لكِ سابقًا بمثابة وداع. في الواقع، شعرتُ خلال السنوات الستّ التي تلت موت بابا بأحاسيس جديدة تجاهك، وأسعدني أن أستشعر صدقها. أثّر فيّ شرودكِ أمام قبره عميقًا وشعرت بالسعادة لوجود شعائر تحسّين بالأمان وأنتِ تؤدّينها. سعدتُ حقًّا عندما بدأتْ تظهر أولى

علامات التحرُّر لديكِ بسرعة أكبر ممّا هو متوقَّع. وبدا الأمر كما لو أنّك استيقظت لأوّل مرّة على حياةٍ تخصّكِ وحدكِ.

في العام الأوّل، تكرّرت زياراتك إلى المنزل الأزرق، فخشيت فطيما أن تتعلّقي بي أو بنا. ولكن كلاّ، ففي تلك اللحظة، عندما انهار صرح حياتك الذي حدّد أيضًا لعبة القوى الداخليّة، بدا أنّك تكتشفين ما حُجب عنكِ بفعل زواجٍ مبكّر جدًّا: حياة خاصّة تتجاوز دورك في العائلة. بدأتِ تطلبين كتبًا تصفَّحتِها بفضولِ تلميذة خرقاء ومبتدئة، ولكن بعينين برّاقتين.

في أحد الأيام، رأيتكِ تقفين داخل مكتبة أمام الرفوف تمسكين كتابًا مفتوحًا، دون أن تتفطّني إليّ. في تلك اللحظة أحببتكِ، يا ماما، واجتاحتني رغبة في الذهاب إليك. ولكن شعرت بأنّ عليّ تجنّب ذلك، لأنّه سيعيدكِ إلى حياتك الماضية.

(36)

أخذ غريغوريوس يذرع مكتب السيّد كورتس ذهابًا وإيابًا ويسمّي الأشياء بأسمائها في اللغة الألمانيّة المنطوقة في بيرن. ثمّ جاب أروقة المعهد المظلمة الباردة وفعل الشيء نفسه مع كلّ ما وقعت عليه عينه. كان يتحدّث إلى نفسه بصوت عالٍ وغاضب، فيتردّد صدى الكلمات الحادّة عبر المنزل، ولو رآه شخص مّا لذُهل لأمره واعتقد أنّ أحدهم بلغ منتهى الجنون فتاهَ في المبنى المهجور.

بدأ ذلك عند الصباح، في مدرسة اللغات. فجأة ، تاهت في ذاكرته الكلمات البرتغالية الأشدّ سهولة، الكلمات التي حفظها منذ أول درسٍ استمع إليه على قرص دروس اللغة قبل سفره. كانت سيسيليا تتهيّأ لإلقاء ملاحظة ساخرة بعد أن وصلت متأخّرة عن موعدها بسبب نوبة صداع نصفيّ. لكنّها توقّفت، وأسبلت أجفانها ثمّ قامت بحركة مطمئنة بيدها.

«هدّئ من روعك، قالت، هذا يحدث مع كلّ الذي يتعلّمون لغة أجنبيّة. فجأة يتوقّف كلّ شيء. إنّه أمر عرَضيّ، غدا ستستعيد نشاطك من جديد».

ثمّ صارت اللغة الفارسيَّة هي المستعصية على الذاكرة هذه المرَّة، ذاكرة مفردات باستطاعته الاعتماد عليها دومًا.

مذعورا، ألقى وهو يهذي أبياتًا لهوراس وصافو، واستحضر عبارات هوميريَّة نادرة وتصفَّح بحركات محمومة سِفر نشيد الأنشاد لسليمان الحكيم. سار كلّ شيء كالمعتاد، لم ينقص شيءٌ، لم يكن ما حدثَ فقدانًا عميقًا ومفاجئًا للذاكرة، ومع ذلك شعر كأنّها نهاية هزّة أرضيّة؛ دوارٌ، دوارٌ ونسيانٌ. سيمرّ كلّ هذا بسلام.

في مكتب المدير، ظلَّ واقفًا أمام النافذة لحظة. في هذا اليوم، لم تنبعث من المخروط الضوئيّ أيّ أشعّة وكان الجوّ ماطرا. فجأة، انتابه بشكل مفاجئ جدًّا غضبٌ شديد، غضب عنيف، حارق، مَشوب باليأس من عدم قدرته على منحه شيئًا محدّدا. وأدرك ببطءٍ شديد أنّه يعيش ثورةً وتمرّدًا ضدّ الغرابة اللغوية الّتي فرضها على نفسه. في البداية، بدا أنّ الأمر لا يخصّ إلاّ البرتغاليّة أو ربّما الفرنسيّة والإنجليزيّة التي أُجبر على الحديث بها هنا. وشيئا فشيئا، وبنفوره منها، اعترف لنفسه بأنّ غضبه الدافق متعلّق أيضًا باللغات القديمة التي يعيش معها منذ ما يزيد عن أربعين سنة.

تملَّكه الخوف لإحساسه بعمق ثورته. اهتزّت الأرض تحت قدميه. كان يجب أن يتصرَّف، أن يتشبّث بشيء مّا. أغمض عينيه، وتخيّل نفسه في ساحة بوبنبيرغ وسمَّى الأشياء التي أبصرها بأسمائها في اللغة الألمانيّة المنطوقة في بيرن. تحدّث إلى الأشياء وإلى نفسه باللهجة المحليّة مستعينًا بجمل بطيئة وواضحة. انتهت الهزّة الأرضيّة، وشعر بالأرض تتصلّب من جديد تحت قدميه. لكنّ ذعره خلَّف صدى في داخله وأثار فيه غضب رجل تعرَّض لخطر كبير.

طفق يجوب أروقة المبنى المهجور بجنون كما لو أنّه يسعى إلى هزيمة

أشباح الممرَّات المظلمة وهو يردّد كلماتٍ بألمانيّة محلّية.

عندما دخل صالون سيلفيرا بعد مرور ساعتين، بدا له كلّ ما حدث مثلَ خيال شبحيّ، مجرَّد حادثة وهميّة. قرأ اللاتينيّة والإغريقيّة كما تعوَّد دومًا. وعندما فتح كتاب قواعد اللّغة البرتغاليّة، استحضر كلّ شيء على الفور وأحرز تقدُّما في قواعد صيغة الشرط، ووحدها مناماته ما تزال تذكِّره بأنّ شرخًا مّا حدث في داخله.

حينما غفا لحظة على كرسيّه، رأى نفسه التلميذ الوحيد في قاعة درس كبيرة. كان يدافع عن نفسه باللهجة المحليّة أمام أسئلة وأوامر وجّهها إليه، بلغات أجنبيّة، شخصٌ منتصبٌ أمامه لكنّه عجز عن رؤيته. استيقظ من النوم وقميصه مبلَّلٌ بالعرق، استحمّ وسار في طريقه نحو منزل أدريانا.

لقد سبق لغريغوريوس أن التقى كلوتيلد في الترامواي وهو عائد من المعهد، فأخبرته بأنّ أدريانا تغيَّرت منذ عاد الوقتُ والحاضرُ يسكنان المنزل الأزرق مع تكتكة ساعة الصالون.

«أحيانًا، يحدث أن تبقى واقفة أمام الساعة الحائطيّة كأنّها ترغب في إيقافها من جديد، قالت ذلك وهي تعيد على مسامعه بأناةٍ الكلماتِ التي لا يفهمها، لكنّها سرعان ما تبتعد بعد ذلك وتغدو خطوتها أكثر سرعة وحزما. إنّها تستيقظ باكرًا على غير العادة كأنّها كفَّت... أجل كأنّها كفَّت عن انتظار النهار فحسب.

ازدادت شهيّتها للأكل، وفي أحد الأيّام طلبت من كلوتيلد أن ترافقها في نزهة.

عندما فُتح باب المنزل الأزرق، تفاجأ غريغوريوس: لم تلبس أدريانا الأسود. وحده الوشاح الذي يغطّي جرح رقبتها ظلّت محتفظة به. ارتدَت تنّورة وسترة بلون رماديّ فاتح، تزيّنهما خطوط رفيعة زرقاء وتضع صدارًا أبيض لامعًا وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة تعبّر عن استمتاعها بالدهشة التي علَتْ وجه غريغوريوس .

أعاد إليها رسائل الوالد والابن.

«ألا يعتبر هذا الصمت جنونا؟ هذه *التربية العاطفيّة*، كما درج أماديو على تسميتها، يجب أن تعلّمنا مبادئ فنّ التعبير عن مشاعرنا قبل كلّ شيء، وتعلّمنا أنّ المشاعر تثريها الكلمات. كم فشل مع بابا!» ثمّ أضافت وهي محدِّقة في الأرض: «وكم فشل معي»!

كانت به رغبة شديدة في قراءة الأوراق التي تُركت على مكتب أماديو، قال غريغوريوس. وعندما دخل الغرفة، تحت السقيفة، تفاجأ للمرّة الثانية: لم يعد الكرسيّ موضوعًا بشكل مائل أمام المكتب. فها هي أدريانا تنجحُ بعد ثلاثين سنة في انتزاعه من الماضي المتجمِّد وإعادته إلى وضعه المستقيم. لم يعد الأمر كما لو أنّ شقيقها استيقظ للتوّ. وعندما نظر إليها، وجد عينيها تواصلان التحديق في الأرض ويديها في جيبَي سترتها: امرأة عجوز مخلصة، شبيهة في الوقت نفسه بتلميذة انتهت من إجراء واجبٍ صعبٍ وتنتظر بكبرياء مرتبك أن تنال ثناءً عليه. عندها وضع غريغوريوس يده على كتفها لبعض الوقت.

كان الفنجان الخزفيّ الأزرق الموضوع على الطبق النحاسيّ نظيفًا والمنفضة فارغة. وحدها السكرية ظلّت محتفظة بقطع السُكّر النباتي. وأحكمت أدريانا إغلاق غطاء القلم القديم، وفي تلك اللحظة أشعلت

لمبة المكتب تحت الأباجورة الزمرُّديَّة. أعادت كرسيّ المكتب إلى الخلف، وبحركة من يدها بدَت على شيء من التردّد، دعت غريغوريوس إلى الجلوس.

ما يزال الكتاب الضخم المفتوح في منتصفه فوق منضدة القراءة، وحزمة الأوراق ما تزال في مكانها أيضًا. بعد أن رمق أدريانا بنظرة مستفهمة، رفع الكتاب ليتمكَّن من قراءة اسم المؤلّف والعنوان: «يوحنّا دي لوسادا دي لديسيما، *البحر المظلم*»، البحر المفزع. بدت أحرف الطباعة مكتوبة باليد؛ نقوش مُضلَّعة، رسوم مائيّة صوَّرها بحّارة.

عندئذ نظر غريغوريوس إلى أدريانا من جديد.

«لا أعرف، قالت، لا أعرف السبب وراء اهتمامه المفاجئ بهذا الأمر. ولكنّه مهووس بكتب تتحدّث عمّا يعتري الناس في العصور الوسطى من خوف، حين اعتقدوا أنّهم موجودون في أبعد نقطة من غرب الأرض، وقد تساءلوا عمّا يمكن أن يوجد وراء البحر الذي يبدو لا نهائيًا».

سحب غريغوريوس الكتاب نحوه وقرأ قولة باللغة الإسبانيّة: *لا يوجد شيء بعده إلاّ مياه البحر التي لن يعرف حدودها إلاّ الله.*

إنّه يقصد رأس فينستير، قالت أدريانا، هناك في الأعلى، في غاليسيا، أبعد نقطة في غرب إسبانيا. لقد فُتن بها. واعتُبرت في ذلك الوقت نهايةَ العالم. قلتُ له وأنا أشير إلى المكان على الخارطة: «ولكن عندنا في البرتغال مكان هو أبعد نقطة في الغرب، فلماذا إسبانيا إذن؟ لكنّه رفض سماع أيّ شيء ولم يتحدَّث إلّا عن رأس فينيستر. كان ذلك المكان بمثابة فكرة ثابتة حتّى إنّ حيرة محمومة اعتلت وجهه وهو يتحدّث عنه».

وحدة، هذا ما خُطَّ في أعلى الورقة التي كتَب عليها برادو فيما مضى لآخر مرّة. وفي تلك اللحظة أخذت أدريانا تتابع نظرة غريغوريوس.

«قبل وفاته بسنة، اشتكى كثيرًا من عدم إدراكه لمعنى الوحدة التي كنّا نخشاها جميعًا إلى حدّ بعيد:

ماذا تعني إذن هذه التي نسمّيها وحدة؟ لا يمكن أن نختصر هذا المصطلح في غياب الآخرين. يمكن أن نبقى وحيدين دون أن نكون منعزلين، ويمكن أن نكون بصحبة آخرين ونشعر مع ذلك بالوحدة. فما هي الوحدة إذن؟ كيف نقدر على أن نظلّ وحيدين وسط حشد من الناس؟ لقد شغله هذا السؤال باستمرار. «*حسنا*، قال، *الأمر لا يتعلّق بوجود الآخرين فحسب، بأن يشغلوا المكان إلى جانبنا، بل إنّنا يمكن أن نشعر بالوحدة حتّى في الوقت الذي يحتفون فيه بنا أو يُسدون إلينا نصيحة خلال محادثة ودّية، نصيحةً حكيمة وبديهيّة. ببساطة، لا علاقة للوحدة بحضور الآخرين ولا بما يقومون به من أجلنا. فبأيّ شيء هي مرتبطة إذن؟ بأيّ شيء هي مرتبطة في النهاية؟*

«لم يتحدّث معي عن فطيما وعن مشاعره نحوها. *الحميميّة هي ملاذنا الأخير*، هذا ما اعتاد قوله. وتلك هي المرّة الوحيدة التي أبدى فيها ملاحظة.

كان يتساءل قائلا: *لقد نمت إلى جانبها، وأنا أسمع نفسها وأشعر بدفئها، وحيدًا على نحو مخيف، ما معنى ذلك؟ ماذا يعني ذلك؟*

وحدة منفّية: هذا ما كتبه برادو.

عندما يحرمنا الآخرون من العاطفة والاحترام والتقدير، لماذا لا يقدر الواحد منّا على أن يقول لهم ببساطة: لستُ في حاجة إلى كلّ هذا.

أنا مكتفٍ بذاتي؟ أليس هذا شكلاً مرعبًا من أشكال غياب الحرّية التي استعصت علينا؟ ألا يجعل منّا هذا الأمر عبيدًا للآخرين؟ أيّ المشاعر يمكن أن نجعلها سدّا نستعين به، أو جدارًا عازلًا لمجابهة كلّ ذلك؟ كيف ستكون الصلابة الداخليّة في المستقبل؟

انحنى غريغوريوس على الطاولة وقرأ الكلمات الشاحبة المكتوبة على الأوراق المعلَّقة في الجدار.

الابتزاز عن طريق الثقة. «كان المرضى يأتمنونه على الأشياء الأكثر حميميَّة، والأكثر خطورة أيضًا. أقصد الخطيرة من المنظور السياسيّ. ومن ثمّ انتظروا أن يبوح لهم هو أيضًا بشيء مّا حتّى لا يشعروا بأنّهم عراة أمامه. لكنّه يكره هذا الوضع، يكرهه من أعماق قلبه. قالت أدريانا. *لا أريد أن ينتظر شخصٌ أيّ شيء منّي*، هذا ما يقوله، ضاربًا بقدمه على الأرض. اللعنة! *لماذا يبدو من الصعب أن أرسم حدودًا من حولي؟*

ماما، هل حاولتُ قول ماما؟ ولكنّني لم أقلها. هو أيضًا يعرف ذلك جيّدا».

ميزة الصبر الخطيرة: الصبر! Patiência. في سنوات حياته الأخيرة أبدى نفورًا حقيقيًّا من هذه الكلمة، وسرعان ما يعبس وجهه كلّما حدّثهُ أحدهم عن الصبر. *«هو ليس أكثر من طريقة منذورة للخطإ في حقّ أنفسنا»*، يقول هذا بانفعال. ثمّ يضيف: *«نحن نشعر بالخوف من الينابيع الّتي يمكن أن تتفجّر داخلنا»*. ولم أفهم قوله هذا حقًّا إلاّ بعد أن عرفت حقيقة مرضه بالأنيوريسم.

على الورقة الأخيرة، كتب أكثر ممّا كتبه على الأوراق الأخرى. *ما فائدة المدح والذمّ حين نفقد السيطرة على موج الروح ويغدو أقوى منّا؟*

لم لا نقول ببساطة: لقد كان محظوظا، أو هذا من سوء حظّه؟ وهذا الموجُ أقوى منّا، وهو كذلك دومًا.

«في ما مضى، كان الجدار بأكمله موشًّى بهذه الأوراق، قالت أدريانا. كتب بشكل متواصل وعلّق ما كتبه على الحائط. إلى أن جاء ذلك السفر التعيس نحو إسبانيا، قبيل عام ونصف من وفاته. بعد ذلك لم يُمسك القلم إلاّ نادرا، وغالبًا مايبقى جالسًا في مكتبه متأمّلاً وسط الفراغ».

كان غريغوريوس ينتظر ويلقي، من وقت إلى آخر، نظرةً على أدريانا الجالسة على كرسيّ قرب أكوام من الكتب المكدّسة على الأرض لم تُغيِّر فيها أيَّ شيء. وما يزال الكتاب الضخم الذي رُسمت على غلافه صورة الدماغ موضوعًا على إحدى حزم الكتب. أخذت تُشبك يديها ذات العروق الداكنة، وتفكُّهما ثمّ تشبكهما من جديد. واستحوذ على ملامحها شعورٌ مّا: مقاومة ذكرى يبدو أنّها تجرفها.

- إنّ بي رغبة شديدة في معرفة بعض التفاصيل عن تلك الفترة، قال غريغوريوس، حتّى يفهم أماديو بشكل أفضل.
- «لا أعرف»، قالت. ثمّ غرقت في صمتها من جديد. وعندما عادت إلى الحديث بدت الكلمات آتية من بعيد.

«اعتقدتُ أنّني أعرفه. بل عليّ القول: أنا أعرفه. أعرفه عن ظهر قلب، ومع ذلك، أصبحت منذ سنوات عديدة أراه كلّ يوم وأسمعه يتحدَّث عن مشاعره وأفكاره وحتّى أحلامه. وها هو يعود من ذلك الاجتماع.

حدث ذلك قبل سنتين من وفاته، إذ كان سيبلغ واحدًا وخمسين سنة من العمر في ديسمبر. إنّه واحد من تلك الاجتماعات التي يشارك فيها

يوحنّا، نسيتُ لقب يوحنّا، الرجل الذي لم يُفِدهُ في شيء. حضرَ جورج أيضًا على ما أعتقد، جورج أوكلّي، صديقه القدِّيس. كم وددت أنّه لم يحضر تلك الاجتماعات، فهي لم تُفِده في شيء.

- رجال المقاومة هم الذين يلتقون هناك، قال غريغوريوس. وأماديو عضو في المقاومة. من المؤكّد أنكِ على علمٍ بهذا. أراد أن يقاوم، أن يقاوم أشخاصًا مثل موندز.

- Résistencia، قالت أدريانا وردَّدت مرّة أخرى Résistencia، نطقت الكلمة كأنّها لم تسمع بها من قبل ورفضت تصديق حدوث كلّ هذا فعلا.

لعن غريغوريوس حاجته إلى إرغامها على تقبُّل الواقع، إذ خيِّل إليه، للحظة، أنّها ستظلّ خرساء. ولكنّ الغضب امّحى بعد ذلك من وجهها، وها هي مرّة أخرى بجانب شقيقها العائد ليلاً من اجتماعٍ كارثيّ.

«لم يخلد إلى النوم، ولم يغيِّر ملابسه الّتي ارتداها منذ يوم عندما لمحْتُه يدخل صباحًا إلى المطبخ. وأنا أعرف طبعًا كيف يبدو عندما يجافيه النوم. ولكنّ الأمر هذه المرّة مختلف. لم يبدُ متعبًا كعادته رغم الهالات السوداء حول عينيه. وكان يتأرجح على كرسيّه، وهو شيءٌ لم يعتد فعله قطُّ. لاحقا، وبالتفكير في هذا الأمر، قلت في نفسي: لكأنّه ذهب في رحلة! كان يفعل كلّ شيء بسهولة وسرعة خارقتين مع المرضى، وتنقاد إليه الأشياء بمحض إرادتها، فلا يخطئ هدفه مطلقًا حين يرمي بشيء مستعمل في سلّة المهملات.

«قد يذهب في اعتقادك أنّه عاشق، أليست هذه علامات عشق بيِّنة؟ بطبيعة الحال، فكّرت في ذلك أيضًا. ولكن أيحدث هذا بعد إحدى

اللقاءات التي لم تجمع غير الرجال؟ ثمّ إنّ الأمر كان مختلفًا جدًّا عن السابق، وهو مع فطيما، وصار أكثر وحشيّة، أكثر حيويّة، أكثر شغفًا، ودون أن يقدر على تأطير مشاعره قطُّ، إن صحّ التعبير. أشعرني ذلك بالخوف، وبدا لي هذا الشعور غريبًا لاسيّما بعد أن رأيتها. فما إن دخلت قاعة الانتظار حتّى داخلني إحساس بأنّها ليست مجرَّد مريضة. لم تتجاوز العشرين من عمرها. إنّها مزيج عجيب من البراءة والإغراء؛ عينان متّقدتان، بشرة آسيويّة، مشية مترنّحة. كان الرجال في قاعة الانتظار ينظرون إليها خلسة وأعين النساء تضيق.

«اصطحبتُها إلى غرفة الفحص حيث كان أماديو يغسل يديه، وما إن التفتَ حتّى صُعق لرؤيتها. صعد الدم إلى وجهه ثمّ سرعان ما استعاد رباطة جأشه.

«أدريانا، أقدِّمُ لكِ إستيفانيا. هل تسمحين بتركنا على انفراد لحظة، أرجوكِ سنتحدّث في موضوع خاصّ».

«لم يسبق أن حدث مثل هذا. فليس في هذه الغرفة شيء لا يحقّ لي سماعه. لا شيء.

«عادت أربع مرّات أو خمس، وفي كلّ مرّة يطلب منّي الخروج . فيتحدَّث معها ثمّ يرافقها إلى الباب. وما إن تغادر حتّى يكتسب وجهه لونا أرجوانيّا، ويظلّ طوال اليوم منفعلاً، يحقن المرضى بشكل أخرق، وهو الذي يجلّه الجميع لثبات يده.

في زيارتها الأخيرة، لم تدخل إستيفانيا إلى العيادة، بل ضغطت على جرس الطابق العلويّ. كانت الساعة تقارب منتصف الليل، فتناول معطفه ونزل. ورأيتهما ينعطفان في الزقاق وهو يتحدّث إليها بتشنّج.

وبعد مرور ساعة عاد أشعث الشعر وتفوح منه رائحة كريهة.

«بعد ذلك اختفت. وانتابت أماديو نوبات فقدان للذاكرة، لَكأنّ قوّة خفيَّة تجذبه نحو الأعماق. أصبح سريع الانفعال وأحيانًا فظًّا حتّى مع المرضى أنفسهم. ولأوّل مرّة شعرت أنّه لم يعد يحبّ مهنته، ولم يعد يؤدّيها على أكمل وجه. أراد الرحيل بعيدًا عنّا.

«في أحد الأيّام التقيت بجورج صحبة الفتاة. رأيته يطوّق خصرها ويبدو أنّ ذلك يضايقها. كنت مضطربة، وتصرَّف جورج معي كما لو أنّه لا يعرفني واصطحب الفتاة إلى شارع مجاور. اجتاحتني رغبة كبيرة في أن أخبر أماديو بما حصل لكنّني عدلت عن ذلك، لأنّه يتعذّب. وفي إحدى المرّات، خلال مساء سيّء على نحو خاصّ، طلب منّي أن أعزف *منوعات غولدينبيرغ لباخ*. استمع إليها وهو جالس وعيناه مغمضتان. وكنت على يقين تامّ بأنّه يفكّر فيها. أمّا مباريات الشطرنج مع جورج، المباريات التي أضفت إيقاعًا على حياة أماديو، فقد انقطعت. لم يزرنا جورج طوال فصل الشتاء ولا حتّى في احتفالات رأس السنة، وما عاد أماديو يتحدَّث عنه.

«في مساء أحد الأيّام الأولى من شهر مارس، ظهر أوكلّي أمام الباب، وتمكَّنتُ من سماع أماديو وهو يفتح له.

- أنت؟ قال.

- أجل، ردَّ جورج.

«نزلا إلى غرفة الفحص، لكنّي لا أملك الحقّ في سماع أيّ شيء من محادثتهما. ومع ذلك فتحت باب الغرفة وأرهفت السمع. لا شيء، لم يقولا كلمة واحدة بصوت عالٍ. وسمعت باب المنزل يُصعق لاحقا.

اختفى أوكلّي بياقة معطفه المرفوعة والسيجارةُ بين شفتيه في الزقاق وساد الصمت المكانَ. تأخّر أماديو في العودة، وفي النهاية نزلت إلى العيادة حيث وجدته جالسًا في العتمة دون حراك.

«اتركيني، قال، لا رغبة لي في الحديث».

«وعندما صعد إلى الطابق العلوي في وقت متأخّر من الليل، بدا شاحبا، صامتًا وتائهًا إلى أبعد الحدود. فلم أجرؤ على سؤاله عمّا حدث.

في اليوم التالي، ظلَّت العيادة مقفلة. جاء يوحنّا لزيارته ولم أعرف شيئًا عن محادثتهما. منذ ظهرت الفتاة، أصبح أماديو يعيش معي دون أن يراني، وغادرت الحياةُ ساعات العمل المشتركة مع المرضى. كرهتُ تلك المرأة وكرهتُ شعرها الأسود الطويل، ومشيتها المترنّحة وتنّورتها القصيرة. لم أعد أعزف على البيانو. لم يعد لي أيّ أهمية. كان... كان ذلك مُهينا.

«بعد مرور ثلاثة أيّام أو أربعة، وفي منتصف الليل، جاء يوحنّا إلى المنزل صُحبة الفتاة.

«أريد أن تظلّ إستيفانيا هنا»، قال يوحنّا.

«قال ذلك بنبرة تجعل أيَّ اعتراض أمرًا مستحيلاً. كنت أكرهه هو وأساليبه المتسلّطة. اصطحب أماديو الفتاة إلى العيادة، دون أن ينبس بكلمة واحدة، ولكنّه أخطأ في المفاتيح وأسقط الملابس أرضا. ثم هيّأ لها سريرًا على طاولة الفحص رأيته لاحقا.

«في الصباح، صعد إلى الطابق العلويّ، استحمّ وأعدّ فطور الصباح. بدت الفتاة شاحبة وقلقة، وكانت ترتدي مئزرا، وانطفأت كلّ فتنتها. سيطرتُ على نفسي، حضَّرت إبريقَيْ قهوة، أحدهما من أجل الرحلة الّتي لم يقدِّم لي أماديو عنها أيّ تفسير.

«لا أعرف متى أعود. لا تقلقي عليّ». هذا كلّ ما قاله لي.

«أخذ يكدّسُ ملابسه في حقيبة وأضاف إليها بعض الأدوية ثمّ نزلا معًا إلى الشارع أمام ذهولي الكبير. أخرج أماديو من جيبه مفاتيح سيّارة لم تكن موجودة قبل يوم. إنّهُ لا يجيد قيادة السيّارة، قلت في نفسي، ولكن بعد هنيهة لمحت الفتاة أمام المقود. وتلك هي المرّة الأخيرة التي رأيتها فيها».

ظلّت أدريانا جالسة في صمت، يداها على ركبتيها ورأسها مسنود إلى ظهر الكرسيّ، وأغمضت عينيها وتسارع نفسُها على إيقاع الأحداث الماضية. انزلق الوشاح الأسود نحو الأعلى وكشف عن أثر جرح رقبتها، أثر لجرح قبيح ممزَّق بخرزة رماديّة ولامعة: جلس على ركبتي أدريانا منفرج الساقين وحدَّق في عينيها. *«يجب أن أفعل ذلك، وإلّا ستموتين، أبعدي يديكِ. ثقي بي»* قال. بعد ذلك غرز السكين. وفي فترة لاحقة لمحته أدريانا جالسًا في السيّارة إلى جانب امرأة شابّة غاب بعدها فترةً غير محدّدة دون تقديم أيّ توضيح لذلك.

انتظر غريغوريوس أن تهدأ أنفاس أدريانا ثمّ سألها: ماذا حدث عند عودة أماديو؟

«نزل من سيّارة الأجرة لحظةَ وقوفي مصادفة أمام النافذة. مؤكّدٌ أنّه عاد عبر القطار. انقضى أسبوع على تلك الحادثة ولم ينبس بكلمة واحدة عن هذا الردح من الزمن، لا الآن ولا لاحقا. كانت لحيته مهملة ووجنتاه غائرتين، وأعتقد أنّه لم يأكل شيئًا خلال تلك الفترة. ولشدَّة جوعه التهم كلّ ما حملته إليه من طعام ثمّ استلقى على السرير، هناك، ونام يوما وليلة. مؤكّد أنّه تناول قرصًا منوِّمًا، فقد عثرت لاحقًا على العلبة مرّة أخرى.

«بعد ذلك غسل شعره، وحلق لحيته وارتدى لباسًا أنيقا، وفي الأثناء رتَّبتُ قاعة الفحص.

«كلّ شيء يلمع، قال وهو يحاول الابتسام، شكرًا أدريانا، ماذا كنت سأفعل من دونك».

«أعلمْنا المرضى بفتح العيادة من جديد. وبعد ساعة غصّت بهم قاعة الانتظار. بدا أماديو بطيئا على غير العادة، بسبب تأثير المهدِّئات، ولكن لعلّ ذلك أيضًا عارض من أعراض مرضه. شعر المرضى أنّه تغيَّر، ونظروا إليه بحيرة. وفي منتصف الحصّة الصباحيّة، طلب منّي قهوة وهو الشيء الذي لم يحدث قطُّ من قبل.

«بعد مرور يومين، انتابته الحمّى وآلام رهيبة في الرأس لم يفلح أيّ دواءٍ في التخفيف منها.

«لا داعي للخوف، قال محاولاً تهدئتي وهو يضع يديه على صدغيه، الجسد هو العقل أيضا».

«ولكنّي كشفت خوفه وأنا أسترق النظر إليه. لا شكّ أنّه يفكّر في الأنيورسم. وتملَّكته رغبة في الاستماع إلى اسطوانات بارليوز، موسيقى فطيما المفضَّلة.

«أوقفيها! صاح بعد بضع إيقاعات. أوقفيها فورًا! لعلّ ذلك بسبب أوجاع رأسه أو ربّما لشعوره بأنّه لن يستطيع العودة ببساطة إلى فطيما بعد الفتاة الأخرى.

«بعد ذلك، اعتُقِل يوحنّا. علمنا بهذا من أحد المرضى. واشتدَّت أوجاع رأس أماديو حتّى إنّه كان يذرع المكان، هنا، فوق، ذهابًا وإيابًا مثل مجنون، وهو يمسك رأسه بين يديه. انفجر عِرق صغيرٌ في إحدى

عينيه التي اشتدَّ احمرارها. ألم يكن من الضروري أن أذهب للبحث عن جورج؟ تساءلتُ وأنا في قمّة فوضايَ.

«لا تتدخّلي في الأمر!»، صاح.

«لم يلتقِ بجورج إلاّ بعد مرور سنة، قبل بضعة شهور من وفاته. في تلك السنة تغيَّر أماديو. وفي ظرف أسبوعين أو ثلاثة اختفت الحمّى وأوجاع الرأس وأصبح شقيقي شبيها برجل غشيته كآبة عميقة. Mélancolia «ميلاخوليا»، أحبّ في الأصل هذه الكلمة وهو فتى صغير، وقرأ لاحقًا كُتبًا حول هذا الموضوع، ورَدَ في أحدها أنّ هذه الكلمة توصِّف ظاهرة عصريَّة على نحو خاصّ. حماقة! قال متذمّرا. فهو يعتبر الكآبة تجربة أبديَّة، أثمن تجربة يمكن أن يعرفها الناس.

«إذ تظهر فيها هشاشة الإنسان كلّها»، هذا ما قاله.

«لم يخلُ هذا الأمر من الخطورة. في الواقع، هو يدرك جيّدًا الفرق بين الكآبة والحزن المرضيّ. ولكنّه عندما يفحص مريضًا في غاية الاكتئاب، يتردَّد في بعض الأحيان كثيرًا قبل أن يرسله إلى طبيب نفسيّ. فيتحدَّث إليه كما لو أنّ حالته تُرَدّ إلى الكآبة، ويميل إلى تجميل حالة هؤلاء المرضى وصدمهم بالحماس الذي يثيره فيه وجعُهم. وبعد رحلته مع الفتاة اشتدّ هذا الشعور لديه وقارب في بعض الأحيان لامبالاة قبيحة.

«لم يفقد ثقته في تشخيصه للأوجاع الجسديَّة حتّى النهاية. لكنّه رجل دقيق، وعندما يواجه أحد المرضى، من ذوي الطباع الحادَّة، فإنّه لا يتصرّف أحيانًا بشكل لائق. أمّا السيّدات فيرتبك أمامهنَّ فجأة وسرعان ما يرسلهنّ إلى أخصّائيين.

«مهما يكن الأمر الذي حدث خلال تلك الرحلة فقد أربكه إرباكًا لم يفعله شيء آخر من قبل، بل إنّه أكثر حتّى من موت فاطيما. بدا الأمر كأنّ هزّةً أرضيّةً حدثت وحرّكت طبقات روحه الصخريّة الأشدّ عمقًا من مكانها، وأضحى كلّ ما وُجد فوقها متداعيا وهشًّا أمام أيّ هبّة ريح. تغيَّر جوُّ المنزل وكان عليّ إيواؤه وحمايته كما لو أنّنا نعيش في مصحّة. إنّه لأمرٌ رهيب».

مسحت أدريانا دمعة.

«ويا للرَّوعة! لقد بات ينتمي... بات ينتمي إليّ من جديد. أو لعلّه أحبّ أن ينتمي إليّ، لو لم يقف جورج أمام باب المنزل ذلك المساء».

حمل جورج رقعة شطرنج نُحتت أحجارها في بالي[(1)].

«مرَّ زمن طويل لم نلعب الشطرنج. قال، زمن طويل جدًّا، زمن طويل جدًّا جدًّا».

في المرّات الأولى التي لعبا فيها الشطرنج، تحدّثا قليلاً. وقدّمت لهما أدريانا الشاي.

«كان صمتًا قسريًّا. قالت، ليس عدائيًّا، إنّه قسريّ. لقد بحثا، بحثا في داخلهما عن إمكانيّة العودة صديقين من جديد».

ومن وقت إلى آخر يجازفان بقول مزحة أو عبارة تعود بهما إلى فترة الثانويَّة ولكن دون جدوى. صار الضحك ينطفئ قبل أن يعرف الطريقَ إلى وجهيهما. وقبل شهر من وفاة أماديو، نزلا معًا إلى غرفة الفحص بعد انتهاء مباراة الشطرنج وجرى بينهما حديثٌ تواصلَ حتّى منتصف

(1) إحدى مقاطعات إندونيسيا.

الليل. ظلَّت أدريانا طوال تلك الفترة يقظة في الطابق الأعلى، واقفة على حافّة درج الشقّة.

«فُتح باب العيادة وخرجا. لم يشعل أماديو الضوء، ولم تكن لمبة العيادة تضيء الرواق بما يكفي. أخذا يسيران ببطء تمامًا كما في التصوير البطيء، وبدت لي المسافة التي ظلّا يحرصان على إبقائها بينهما كبيرة جدًّا وغير طبيعيّة. ثمّ توقّفا أخيرًا قبل أن يعبرا الباب إلى الشارع.

«هذا هو، قال أماديو.

- أجل»، قال جورج.

«عندها، سقطا... أجل، سقط أحدهما في حضن الآخر. لا أعرف كيف أعبّر عن ذلك بشكل أفضل. كانا دون شكّ يودّان أن يتعانقا لآخر مرّة. بدت الحركة التي بدآها مستحيلة ولكن لم يكن بإمكان أيّ شيء إيقافها. واصطدم أحدهما بالآخر، يتحسَّسان جسديهما، أخرقين مثل ضريرين. اصطدم رأس كلّ منهما بكتف الآخر ثمّ وقفا وقد تحرَّرا من الصدمة، ولم يعرفا ماذا يفعلان بذراعيهما وأيديهما. مرَّت ثانية، ثانيتان من الحيرة الرهيبة ثمّ فتح جورج الباب فجأة وخرج. أغلق الباب، استدار أماديو نحو الحائط، ثمّ أسند جبينه إليه وأخذ ينتحب. انبعثت منه أصوات عميقة، مبحوحة ومتوحّشة تقريبا، تصاحبها اختلاجات عميقة عبرت كامل جسده. أذكر أنّني قلت في نفسي وقتها: كم سكن جورج أعماقه حياة بأكملها! وسيدوم هذا حتّى بعد وداعهما. وكان ذلك آخر لقاء بينهما.

ازدادت حالة أرقِ أماديو سوءًا. أصبح يشكو من دوار واضطرَّ إلى قضاء فترات من الراحة بين فحص وآخر. طلب من أدريانا أن تعزف

منوّعات غولدبورغ وزار المعهد مرَّتين ثمّ عاد وعلى وجهه آثار الدموع. خلال مراسم الدفن، علمت أدريانا من ميلودي أنّها لمحته خارجًا من الكنيسة .ثمّ توالت أيّامٌ استأنف فيها الكتابة ونبذ الطعام. وفي المساء الذي سبق الوفاة، اشتكى من أوجاع في رأسه. ظلّت أدريانا إلى جانبه حتّى يفعل المهدّئ فعلهُ. وعندما غادرته بدا كأنّه سيخلد إلى النوم. ولمّا عادت لتتفقّده في الساعة الخامسة صباحًا وجدت السرير خاليا. لقد ذهب إلى شارع أوغوستا العزيز على قلبه حيث انهار بعد مرور ساعة. وفي تمام الساعة السادسة وثلاث وعشرين دقيقة، أعلم أحدُهم أدريانا بموته، أدريانا الّتي ما إن عادت إلى المنزل حتّى أرجعت عقارب الساعة إلى الوراء وأوقفتها.

(37)

وحدة منبوذة. كان هذا هو الموضوع الذي شغل برادو في النهاية. أن نقتصر على احترام الآخرين وعلى عاطفتهم، أن نكون بذلك تابعين لهم. ما أطول تلك الطريق التي قطعها سابقا! جلس غريغوريوس في صالون سيلفيرا وأعاد قراءة ذلك الرأي القديم حول الوحدة، الرأي الذي أدرجته أدريانا في الكتاب.

وحدة مسعورة

هل صحيح أنّ جزءًا كبيرًا من أفعالنا يحكمه خوفٌ من الوحدة؟ ألهذا السبب نتخلّى عن كلّ الأشياء التي سنندم عليها في نهاية حياتنا؟ ألهذا السبب بالذات لا نقول ما نفكّر فيه إلاّ نادرا؟ وإلاّ لماذا نحن متعلّقون بهذه الزيجات المفكّكة، بهذه الصداقات الزائفة، بحفلات أعياد الميلاد المملّة؟ ما الذي سيحدث لو تخلّينا عن كلّ هذا وقرّرنا تقبُّل ذواتنا؟ ورغبتنا الّتي آلت إلى استعباد والغيظ الذي تتسبّب فيه تبعيّتنا لها، ماذا لو تركناهما ينفجران مثل نبع؟ ففيمَ تتمثّل هذه الوحدة المهيبة حقًّا؟ هل تتمثّل في صمت الملامات المدّخرة لنا في المستقبل؟ في الضرورة الباطلة للسير بخطى صامتة، حابسين أنفاسنا فوق حقل ألغام الأكاذيب الروحيّة وأنصاف الحقائق الودّية؟ هل نأسف لحرّية جلوسنا وحيدين إلى المائدة؟ لامتداد الزمن الذي ينفتح عندما يخمد وابل المواعيد؟ أليست هذه أشياء

رائعة؟ حالة فردوسيّة؟ فلماذا نخافها إذن؟ هل هو في النهاية خوفٌ موجودٌ فقط لأنّنا لم نفكّر في موضوعه؟ خوف رسَّخه في أذهاننا آباء وأساتذة وكهنة بعقول فارغة؟ ولماذا نحن في الواقع واثقون تمامًا من كون الآخرين لن يحسدونا إذا رأوا مدى ما أصبحت عليه حرّيّتنا من اتّساع، ومن أنّهم لن يسارعوا فورًا إلى البحث عن عالمنا؟

في تلك اللحظة، لم يكن يعرف شيئًا بعدُ عن ريح النبذ القارسة الّتي عليه أن يستشعرها لاحقًا ولمرّتين: عندما أنقذ موندز وعندما ساعد إستيفانيا إسبينوسا على اجتياز الحدود. جعل منه هذا الرأي القديم عدوًّا للتقاليد يستبيح أيّ فكرة تخطر له. رجل لم يشعر بالخوف من إلقاء خطاب تجديفيّ أمام جماعة من الأساتذة بينهم آباء كنيسة أيضًا. لقد شعر في تلك الفترة، وهو يكتب، أنّه تحت حماية صداقة جورج. وأيقن غريغوريوس أنّ الشعور بالأمان ساعده على استعادة نفسه بعد أن بصق الحشد المجتمع على وجهه. ثمّ انهار هذا الملاذ. كانت ابتلاءات الحياة ببساطة عديدة جدًّا ومرعبة حتّى إنّه لَيستعصي على مشاعرنا مقاومتها دون خسائر: هذا ما قاله سابقًا خلال فترة دراسته في كويمبرا. قال ذلك لجورج تحديدا.

الآن تحقَّقت نبوءته المتبصّرة وبقي أسير عزلة لا تحتمل، حتّى اهتمام شقيقته به لم يؤثّر على علاقته بها. وبدا الإخلاص، الذي اعتبره مثل مرساة أمام مستنقع المشاعر، هشًّا أيضًا. قاطع وإلى الأبد اجتماعات المقاومة منذ ذلك الحين، قالت أدريانا فيما مضى. واكتفى بزيارة يوحنّا إيسا في السجن. وذلك الترخيص بالزيارة علامة وحيدة على الاعتراف بالجميل تقبَّلها من موندز. «يداه، يا أدريانا، قال عندما عاد، يداه. لقد عزفتا شوبرت سابقا»!

منع أدريانا من تهوئة قاعة الفحص لتبديد ما تبقّى من دخانِ سجائرِ زيارة جورج الأخيرة. وعلى الرغم من تذمُّر المرضى ظلّت النوافذ مغلقة دومًا. كان يستنشق الهواء الملوّث مثل مخدّر للذكرى. وعندما أصبحت تهوئة المكان شيئًا لا مفرَّ منه، ظلَّ منهارًا على كرسيّه، كما لو أنّ حيويّته غادرت الغرفةَ هي أيضًا مع الدخان.

«تعالَ من فضلك، قالت أدريانا لغريغوريوس، أريد أن أطلعك على شيء».

نزلا إلى العيادة. في ركن من الأرضيّة، وُجد سجّاد أبعدته أدريانا بقدميها. بدا البلاط مفتّتًا وإحدى الألواح منزوعة. جلست أدريانا على ركبتيها ورفعت لوحة البلاط التي حُفرت تحتها حفرة صغيرة بواسطة مقصّ، وفي الحفرة رقعة شطرنج مغلقة وعلبة. فتحت أدريانا العلبة وأطلعت غريغوريوس على الوجوه المنحوتة داخلها.

شعر بالاختناق ففتح النافذة واستنشق هواء الليل النديّ وفجأة تملّكه دوار أرغمه على الاستناد إلى مقبض النافذة.

«لقد فاجأتُه وهو بصدد حفر الحفرة»، قالت أدريانا. ثمّ أعادت غلق الفتحة واقتربت من غريغوريوس.

«احمرّ وجهه مثل اللهب». وبدأ الحديث قائلا: «أردتُ فقط...، لا داعيَ للخجل»، أجبته. في ذلك المساء، بدا ضعيفًا وهشًّا مثل طفل صغير. *هذه الحفرة طبعًا شبيهة بقبر* لرقعة الشطرنج، قبر لجورج، ولصداقتهما. ولكنّه لم يتمثّل الأمر على هذا النحو، لقد تفطّنت إلى ذلك. كان الأمر أكثر تعقيدا، وبطريقة مّا، طافحًا بأمل أكبر. لم يرغب في دفن اللعبة. *أراد فقط إبعادها عن حدود عالمه*، دون تدمريها، وأراد أن يتيقّن من إمكانيّة

العثور عليها في أيّ لحظة. وها هو عالمه الآن خالٍ من جورج. ولكنّ جورج مازال يحتلُّه. جورج *ما يزال موجودا*. «المكان الذي لا يوجد فيه، ينفي وجودي أنا أيضا»، هذا ما قاله آنذاك.

«بعد ذلك ظلّ لا يشعر بذاته أيّامًا كاملة. كان خاضعًا لي، إن جاز قول ذلك: «إنّها ضرب من الكيتش حكاية اللعبة هذه!»، قال أخيرًا عندما طلبتُ منه تفسيرًا لما حدث.

تذكَّر غريغوريوس حديث أوكلّي: *كانت به نزعة إلى التفخيم، لم يُرد الاعتراف بهذا الأمر، لكنّه يدرك ذلك جيّدا. وقد يشنّ حملة ضدّ كلّ أشكال الكيتش في أيّ مكان وكلّما سنحت الفرصة لذلك. وعندئذ بإمكانه أن يتحوَّل إلى ظالم، ظالم إلى حدّ رهيب.*

في هذه اللحظة، وهو في صالون سيلفيرا، أعاد قراءة الرأي الذي أورده برادو في كتابه حول الكيتش: *الكيتش هو أشدّ السجون مكرا. قضبانه مكسوّة بذهب المشاعر المبسَّطة، والوهميّة، حتّى إنّنا لَنحسبُها أعمدة أحد القصور.*

حمَّلته أدريانا في السابق إحدى حزم الأوراق الموجودة على مكتب برادو مطويَّة في علبة كارتونيَّة ومعقودة بشريط أحمر. «إنّها أشياء لا توجد في الكتاب. يجب على العالم ألاّ يعرف عنها شيئا»، قالت.

فكّ غريغوريوس الشريط، دفع العلبة جانبًا وقرأ:

رقعة شطرنج جورج:

وحده يتقن الطريقة التي سلَّمني بها الرقعة. لا أعرف أحدًا بإمكانه أن يكون ملزِما إلى هذا الحدّ أكثر منه. إلزام لا أريد أن أتخلّى عنه مقابل أيّ شيءٍ آخر في العالم، تمامًا مثل هجماته الملزمة على رقعة

الشطرنج. ما الذي يريد إصلاحه؟ هل من الصواب القول، على الأقلّ، إنّه أراد إصلاح شيء مّا؟ إنّه لم يقل: «لقد أخطأتَ فهمي بخصوص موضوع إستيفانيا» بل قال: «اعتقدتُ في ذلك الوقت أنّ باستطاعتنا الحديث عن كلّ شيء، عن كلّ شيء يخطر بأذهاننا. هذا ما فعلناه دومًا، ألم تعد تذكر ذلك؟» بعد هذه الكلمات فكّرتُ بضع ثوان، بضع ثوان لا أكثر، أنّ باستطاعتنا أن نلتقي من جديد. كان إحساسًا حارقًا، رائعًا، ولكنّه سرعان ما انطفأ. أنفه الضخم، الأكياس تحت العينين، أسنانه البنّية، لقد أقام هذا الوجه في داخلي سابقا، إنّه جزء منّي، وها هو الآن يبقى خارجا، غريبًا أكثر من وجه غريب لم يعش قطُّ في داخلي. إنّه شيء شبيه بألم في صدري، ويا له من ألم!

لماذا سيكون ما فعلته برقعة الشطرنج ضربًا من الكيتش؟ في الواقع، هي حركة بسيطة وصادقة وقد فعلتها من أجلي أنا وحدي وليس من أجل عامّة الناس. لو أنّ شخصًا فعل شيئًا مّا فقط من أجل نفسه، دون علم بأنّ مليون شخص ينظرون إليه ويقهقهون بمكر معتبرين ما يفعله ضربًا من الكيتش: فكيف سننظر إلى هذا الأمر؟

لّما دخل غريغوريوس إلى نادي الشطرنج، بعد مرور ساعة، بدا أوكلّي، في الواقع، غارقًا في نهاية مباراة معقّدة. وكان بيدرو أيضًا هناك، الرجل صاحب العينين المختلجتين، مستنشق الرغام الذي يذكّر غريغوريوس بمباراة خسرها في موتييه. وليس هناك رقعة شطرنج شاغرة.

«اجلس هنا من فضلك»، قال أوكلّي وهو يسحب كرسيًّا إلى طاولته.

على امتداد طريقه إلى النادي، تساءل غريغوريوس بينه وبين نفسه:

ما الذي يأمله من كلِّ هذا؟ ما الذي يريده من أوكلّي؟ بدا واضحًا أنّه لم يستطع سؤالَه عمّا حصل مع إستيفانيا إسبينوسا في ذلك الوقت وعمّا إذا فكَّر جدّيًّا في التضحية بها. لم يعثر على الإجابة لكنّه لم يقدر على العودة إلى الوراء مع ذلك.

في هذه اللحظة، بينما غمر دخان سيجارة أوكلّي وجهَه، أدرك فجأة أنّه يرغب في التأكّد مرّة أخرى ممّا يعنيه أن تجلس إلى جانب رجل حمله برادو في داخله حياة بأكملها، رجل احتاج إليه برادو ليكون *مكمّلاً له*، كما قال الأب بارتولومو فيما مضى، رجل سعِد أماديو بأن يُهزم أمامه، وأهداه صيدليَّة دون أن ينتظر منه اعترافًا بالجميل، رجل هو أوَّل من انفجر ضاحكًا عندما قطع نباح الكلاب الصمت المزعج الذي عقب الخطاب الشائن.

«هل ترغب في لعب جولة؟» تساءل أوكلّي بعد أن فاز بالمباراة واستأذن من شريكه.

لم يسبق لغريغوريوس أن لعب على هذا النحو أمام أحد. ليست المباراة هي المهمّة بالنسبة إليه وإنّما وجود المنافس، فقط وجوده، معرفة ما يعنيه أن تحيا حياة مليئة بهذا الرجل الذي كانت أصابعه المصفرّة بفعل النيكوتين، بأظفارها السوداء، تضع الأحجار بدقَّة صارمة.

«ما حدَّثتك به مؤخّرًا عنّي وعن أماديو... أريد أن أقول، «انسَه».

نظر أوكلّي إلى غريغوريوس بعينين يمتزج فيهما الخجل والرغبة الجامحة في التخلُّص من كلّ شيء.

«حتّى الخمر! كلّ شيء كان مختلفا».

شاطره غريغوريوس الرأي وتمنّى أن يقرأ على وجهه احترامَه لهذه الصداقة العميقة والمعقَّدة.

«في ما مضى، تساءل برادو هل الروح وعاء للأحداث الحقيقيّة أم إنّ هذه الأحداث المزعومة ليست إلاّ ظلالاً وهميّةً لحكاياتٍ نرويها عن الآخرين وعن أنفسنا، قال غريغوريوس.

-أجل. قال أوكلّي، إنّه أمر شغل أماديو عمرًا بأكمله. لقد أكّد أنّ كلّ شيء داخل كلّ إنسان يمضي بطريقة أشدّ تعقيدًا من شروحنا الساذجة والحمقاء. *تعقّدت الأشياء، وهي تزداد تعقيدًا في كلّ لحظة: «تزوَّجا لأنّهما متحابّان ويرغبان في بناء حياة مشتركة»، «تسرق لأنّها في حاجة إلى المال»، «يكذب لأنّه لا يريد أن يجرح أحدا»... أيّ حكايات سخيفة هذه؟ نحن كائنات مترابطة ، كائنات مليئة بالضحالة، بروح زئبقيّة عائمة، وطبعٍ يتغيّر لونه وشكله مثل مشكال لا يتوقّف عن الارتجاج.*

يعني هذا القول، فيما يبدو، أنّ الروح تخفي، مع ذلك، وقائع حقيقيّة ولكنّها معقَّدة جدًّا، أضاف جورج.

وكان أمادييو قد احتجَّ قائلاً: «كلاّ، كلاّ، باستطاعتنا تهذيب شروحنا إلى ما لا نهاية له، ومع ذلك سنكون دومًا على خطإ. والخطأ تحديدًا هو اعتقادنا أنّ هناك حقائق في هذا الخصوص يجب اكتشافها. *إنّ الروح يا جورج، اختراعٌ خالص، اختراعنا الأكثر ابتكارا. وتكمن قدرتها في إيحاء معقول إلى حدّ كبير بأنّ علينا اكتشاف شيء مّا في الروح كما الشأن في جزء حقيقيّ من العالم. الحقيقة يا جورج أنّها شيء مختلف تماما: اخترعنا الروح لنجد موضوعًا للحديث، إنّها شيءٌ مّا يمكن أن نتحدَّث عنه في لقاءاتنا. تصوّرْ لو لم نستطع الحديث عن الروح، ماذا*

سيفعل بعضنا بالآخر؟ سيكون هذا جحيماً!

«ولذلك كان بالإمكان أن تتملَّكه في هذا الشأن نشوة حقيقيّة، فيشتعل بالكامل، وعندما يلاحظ أنّ نشوته تثير حماسي، يقول: أتعلَم؟ التفكير هو ثاني أجمل شيء في العالم، الأجمل منه هو الشعر. ومن النعيم أن تجد فكرةً شعريّةً وشعرًا عاقلاً. وعندما شرع لاحقًا في كتابة دفاتره، بدا ذلك بمثابة محاولة لتمهيد طريق نحو الجنّة».

لاحَ بريقٌ رطب في عينَي أوكلّي. ولم ينتبه إلى أنّ مَلِكته في خطر. فحرّك غريغوريوس حجرًا بطريقة عابثة، ولم يبق في القاعة غيرهما.

«في أحد الأيّام أصبحت اللعبة الذهنيّة خطرة على نحوٍ قاتل. ما تعنيه هو أمر لا يعنيك، ولا يعني *أحدًا*.

ثمّ عضَّ على شفتيه مضيفا:

«ولا حتّى يوحنّا، هناك، في كاسيلهاس».

سحب نفَسًا من سيجارته وأخذ يسعل.

«أنت تكذب على نفسك، قال لي، كنت ترغب في ذلك لسبب آخر، غير ذاك الذي تبديه».

«هذه هي كلماته، كلماته الملعونة الجارحة. *«غير ذاك الذي تبديه»!* هل بإمكانك أن تتخيّل ماذا يعني أن تسمع أحدًا يقول إنّك لا تفعل شيئًا غير *إظهار* دوافعك؟ هل بإمكانك تخيُّل معنى أن يقول صديق هذا الكلام، *الصديق*؟

كيف تدَّعي معرفة ذلك؟ صرختُ في وجهه، أعتقد أنّ هذا ليس بالأمر الصائب أو الخاطئ، أم أنّك لم تعد تشاطرني الرأي؟»

وظهرت على وجه أوكلّي بقع حمراء.

«أتعلم؟ لقد اعتقدت، ببساطة، أنّ باستطاعتنا الحديث عن كلّ شيء يخطر ببالنا. *عن كلّ شيء*. هذا تفكير عاطفيّ! عاطفيّ جدًّا! أدرك ذلك جيّدا. ولكنّ علاقتنا ظلّت هكذا لمدّة أكثر من أربعين سنة. منذ يوم ظهوره في قاعة الدرس وهو يرتدي بذلته الباهظة الثمن ودون محفظة.

«ومع ذلك *فهو* الرجل الذي لا ترهبه أيّ فكرة. هو الذي رغب في الحديث عن كلام الله الفاني أمام كهَنَةٍ، وعندما رغبتُ أنا في تجربة فكرة جريئة، وأعترف بأنّها فكرة مرعبة، أدركت أنّني غاليت في تقديرهما، هو وصداقتنا. لقد نظر إليّ كما لو أنّني وحش. في العادة، هو يجيد التفريق دومًا بين فكرة مؤقّتة، وأخرى ستترجَم حقًّا إلى فعل. هو من علّمني هذا الفرق، هذا الفرق المحرِّر. وفجأة لم يعد يعرف عنه شيئا. انحسر الدم كلّه في وجهه. وخلال تلك الثانية، تلك الثانية الوحيدة، اعتقدت أنّ أكثر شيء يثير الرعب حدَثَ فعلا: فعاطفتنا التي جمعتنا حياة بأكملها تحوّلت إلى كراهيّة. وتلك هي اللحظة، اللحظة الرهيبة التي ضيَّع فيها أحدُنا الآخر».

كان غريغوريوس يرغب في فوز أوكلّي، يرغب في خسارة بضع هجمات حاسمة. لكنّ جورج لم يعُد للَّعب وعمد غريغريوس إلى إنهاء الجولة بالتَّعادل.

«بكلّ بساطة لم تكن تلك الصراحة اللاَّمحدودة ممكنة، قال جورج عندما تصافحا في الشارع. إنّها تتجاوز قدرتنا. إنّها عزلة تفرض الصمت، وهذا يحدث أيضًا.

نفث الدخان من سيجارته.

«مرَّ على ذلك زمن طويل، أكثر من ثلاثين سنة، ولكن كأنّه حدث بالأمس. أنا سعيد لاحتفاظي بالصيدليّة. كان بإمكاني أن أسكن فيها ونحن أصدقاء. وأحيانًا أنجح في الاعتقاد أنّنا لم نفترق أبدًا، أنّه مات، بكلّ بساطة».

(38)

أخذ غريغوريوس يطوف حول منزل ماريا يوحنّا ساعة كاملة على غير هدى متسائلا: لماذا تسارعت دقّات قلبه بهذا الشّكل؟ *إنّها حُبّ حياته العذريّ!* هكذا تحدّثت عنها ميلودي. *ولن أندهش من كونه لم يقبّلها قطّ. لا، ولكن لا أحد يضاهيها، ولا أيّ امرأة أخرى.* وإذا وُجد أحد يعرف كلّ أسراره فهي ماريا يوحنّا... *بمعنى آخر، هي وحدها تعرف من يكون حقًّا.* أخبره جورج بأنّها المرأة الوحيدة الّتي يثق فيها أماديو حقًّا. *ماريا يا إلهي، أجل ماريا!* هذا ما تعوّد ترديده آنذاك.

عندما فتحت الباب، بدا كلّ شيء واضحًا بالنسبة إلى غريغوريوس. كانت تمسك بيدٍ كوبَ قهوة وتدفّئ يدها الأخرى عليه. في عينيها البنيّتين الفاتحتين نظرة توجّس ولكنّها مع ذلك تبدو مسالمة. هي ليست امرأة جذّابة، وهي لا تثير انتباه المعجبين في الشارع، ولم تكن كذلك في شبابها أيضًا. ولكن، لم يسبق لغريغوريوس أن التقى شخصًا يتوخّى الحذر في إظهار شعور صارخ بالثقة والاستقلاليّة. لا شكّ أنّها تجاوزت الثمانين، غير أنّ رؤيتها وهي تمارس مهنتها بكلّ حرفيّة أمرٌ لن يثير دهشتَنا.

«هذا يتوقّف على ما تريده منّي»، قالت عندما سألها غريغوريوس عمّا إذا كان بإمكانه الدخول. لم يرغب في الوقوف مرّة أخرى أمام أيّ باب وهو يعرض صورة برادو مثل بطاقة هويّة: لكنّ نظرتها الهادئة والودودة منحته شجاعة الحديث بصراحة.

«أنا مهتمٌّ بحياة أماديو دي برادو وكتاباته، قال بالفرنسيّة. علمتُ أنّك تعرفينه... تعرفينه أفضل من أيّ شخص آخر».

بدت نظرة ماريا يوحنّا تقول إنّه لا شيء بإمكانه إرباكها. وذلك ما حدث فعلا. إذ استندت إلى إطار الباب في فستانها الصوفيّ الأزرق الداكن، بثقة وهدوء لا يقِلاّن عن ذي قبل وهي تتحسّس الكوب الدّافئ بيديها في أناة. تسارعت حركة رموشها، وظهرت على جبينها تجاعيد مثل تلك الّتي نحتاج إليها في التركيز بعد أن نجد أنفسنا أمام حادث غير متوقَّع قد تكون له تبعات أخرى. لزمت الصمت وأغمضت عينيها بضع ثوانٍ ثمّ سرعان ما استعادت ثقتها بنفسها.

«لا أعرف إن كنتُ أريد العودة إلى تلك الفترة، قالت، ولكن من غير المعقول أن تظلَّ في الخارج تحت المطر».

جاءت كلماتها الفرنسيّة واثقة، وحملت لكنتُها رقيًّا ناعمًا لبرتغاليَّة تتحدّث الفرنسيّة بسهولة دون أن تهجر لغتها الأمّ. لكنّ هذا لم يدم إلّا وقتًا قصيرًا.

من أنت؟ سألته بعد أن قدَّمت له فنجانًا من القهوة، لم تفعل ذلك بتكلُّفِ مُضيّفةٍ لطيفةٍ وإنّما ببساطة واضحة توحي بتصرُّف معتاد وعفويّ.

تحدَّث غريغوريوس عن المكتبة الإسبانيّة ببيرن وعن جمل ترجمها له المكتبيُّ ثمّ قرأ: *«من بين آلاف التجارب التي نخوض غمارها، هناك تجربةٌ واحدةٌ لا غير يمكن أن تُسعفنا في نقلها الكلمات. ومن بين كلّ التجارب الخرساء المستعصية على القول، تكمن تلك التي تهب لحياتنا، خلسةً، شكلَها ولونَها ولحنَها معًا.»*

أغمضت ماريا يوحنّا عينيها. وأخذت الشفتان المشقّقتان اللتان ظهرت عليهما آثار بثور الحمّى ترتعشان. غاصت في كرسيّها أكثر وأحاطت إحدى ركبتيها بيديها، ثمّ أرختهما ببطءٍ، حتّى هدأ نفَسها وفتحت عينيها.

«سمعتَ هذا ثمّ هربت من مدرستك»، قالت.

-هربتُ من مدرستي ثمّ سمعت هذا. قال غريغوريوس.

ابتسمت. *ثم نظَرتْ إليّ وكافأتني بابتسامةٍ انبعثت من الفيافي الواسعة لحياة مُعاشة بشفافيّة، هذا ما كتبه القاضي برادو ذات يوم.*

«حسنا، ولكنّ هذه الكلمات تتناغم مع هروبك. تتناغم معه تمامًا إلى درجةٍ جعلتك ترغبُ في التعرُّف إلى برادو. كيف وصلت إليّ؟».

عندما فرغ غريغوريوس من سرد حكايته، نظرت إليه وقالت:

«لا أعرف شيئًا عن هذا الكتاب. أريد أن أطَّلع عليه».

فَتحَت الكتاب وما إن لمحت الصورة حتّى بدت كأنّ قوّة جذبٍ مضاعفة أخذت تسحقها في الكرسيّ. خلف الأجفان البارزة عروقُها والشفّافة تقريبا، بدأت العينان تتحرّكان بسرعة. حاولت جاهدة فتح عينيها ورمقت الصورة بنظرة حادّة، وببطء داعبتها بيدها المتجعّدة مرّة بعد أخرى. ثمّ وضعت يديها على ركبتيها. وقفت وغادرت الغرفة دون أن تقول كلمة واحدة.

تناول غريغوريوس الكتاب وتأمَّل الصورة. تذكَّر اللحظة الّتي رآها فيها للمرّة الأولى، في مقهى ساحة بوبينبرغ، وتذكَّر صوت برادو على آلة التسجيل القديمة التي تملكها أدريانا.

«ومع ذلك، ها أنا أعود إليه، قالت ماريا يوحنّا وهي تجلس من جديد على الكرسي. *عندما يتعلّق الأمر بالروح، نكون عاجزين*. هذا ما كان يقوله.

بدا وجهها أكثر هدوءًا بعدما أزاحت خصلات الشعر المجنونة عن وجهها. أخذت منه الكتاب وتأمّلت الصورة من جديد.

«أماديو»!

وجد هذا الاسم نبرة مختلفة بين شفتيها، كما لو أنّه اسمٌ مختلفٌ تمامًا، ولم يكن قطعًا ليناسب الرجل ذاته.

«كان شديد البياض وصامتا، أبيض وصامتًا على نحو مفزع، ربّما لأنّه خُلق من عدد مهول من الكلمات. لم أستطيع، بل لم أُرِد تصديق أنّ مزيدًا من الكلمات لن يصدر عنه أبدًا. وجرف الدم الذي تدفّق من العرق المنفجر تلك الكلمات. *كلّ الكلمات*! تمزُّق دمويٌّ ، تمزُّق عنيف على نحو مدمِّر. رأيت عديد الموتى وأنا ممرّضة، ولكن لم يبدُ لي الموت قاسيا بهذا الشكل إطلاقا. *بكلّ ببساطة*، بدا لي الأمر كشيء *يجب ألاّ يحصل*. شيء لا يحتمل، بكلّ بساطة، *لا يحتمل*»!

على الرغم من ضجيج حركة السير أمام النافذة اجتاح الصمتُ الغرفة.

«مازلتُ أراه قادما إليّ ممسكًا بالتقرير الطبيّ في يده، مازلت أذكر ذلك الظرف المائل إلى الاصفرار. كان يزور المستشفى بسبب الدوار وأوجاع رأسه الحادّة خشية أن يكون مصابًا بورمٍ، لكنّ تصوير الأوعية الدمويّة، أثار جدلا. «لا شيء، لا شيء غير أنيوريسم، ويمكن لهذا المرض

أن يلازمك مائة عام!» هذا ما أخبره به طبيب الأعصاب. لكنّ أماديو بدا أبيض مثل جثّة وأخذ يردّد: «هذا يمكن أن ينفجر في أيّ لحظة، في أيّ لحظة. كيف لي أن أعيش مع هذه القنبلة الموقوتة في الدماغ؟».

- لقد نزع خارطة الدماغ من فوق الجدار، قال غريغوريوس.

- أعرف، هذا أوّل شيء فعله. لا يمكن تحديد ما يعنيه هذا التصرّف إلاّ إذا عرفنا إعجابه اللاّمحدود بالدماغ البشريّ وبمهاراته الغامضة. «إنّه دليل على وجود الله، يقول. إنّه دليل على وجود الله إلاّ أنّ الله غير موجود». وفي تلك اللحظة، بدأ حياةً تجنّبَ فيها كلّ فكرة تخصُّ هذا العضو. وكلّما زاره مريض يُشتبه في إصابته بخلل دماغيّ أرسله فورًا إلى أخصّائيّين».

تذكّر غريغوريوس مرّة أخرى الكتاب الضخم الذي تضمّن دراسة حول الدماغ على حزمة الكتب في غرفة برادو. وسمع صوت أدريانا وهي تقول: *الدماغ، الدماغ دومًا. لم لم يقل شيئًا في هذا الموضوع؟*

«لم يعلم أحد غيري بالأمر. ولا حتّى أدريانا. ولا جورج أيضا».

حمل صوتُها نبرة غرور خافتة ولكنّها واضحة أيضًا.

«نادرًا ما تحدّثنا في هذا الموضوع لاحقا، ولم يدُم ذلك طويلاً. فليس هناك الكثير لنقوله. ولكن حامَ خطرُ النزيف الدمويّ في دماغه مثل ظِلٍّ على السنوات السبع الأخيرة من حياته، وثمّة لحظات تمنّى فيها أن يحدث هذا أخيرًا حتّى يتحرّر من الخوف.

نظرت إلى غريغوريوس وقالت: «تعالَ من فضلك». سبقته إلى المطبخ وتناولت من أعلى رفٍّ في خزانة علبةً مسطّحة من الخشب المطليّ، غطاؤها مرصّع بقطع خشبيّة. ثمّ جلسا إلى الطاولة.

«كُتبت بعض هذه التأمُّلات في منزلي، في المطبخ تحديدا. كان مطبخًا مختلفًا تمامًا، لكنّ الطاولة ظلّت هي نفسها. «الأشياء التي أكتبها هنا، هي الأخطر على الإطلاق»، هذا ما اعتاد قوله. هو لا يريد الحديث في هذا الموضوع، ويقول: «إنّ الكتابة خرساء». ويحدث أن يظلَّ جالسًا إلى هذه الطاولة ليلة كاملة، ومن ثمَّ يذهب إلى عيادته ولا جفنَ أُغمض له. كان يهدر صحّته، وهو ما كرهته أدريانا. إنّها تكره أيّ شيء له علاقة بي. «شكرا، في منزلك أشعر أنّني في مرفإ هادئ وآمن»، هذا ما اعتاد قوله وهو يهمّ بالمغادرة. ولطالما حفظت هذه الأوراق في المطبخ لأنّهُ المكان الذي يجب أن تكون فيه.

فتَحَت قفل العلبة المنقوش وأخرجت الأوراق الثلاث الأولى. وبعد أن قرأت بعض الأسطر سرًّا، دفعت الأوراق إلى غريغوريوس.

شرع في القراءة، وكلّما استعصى عليه فهمُ شيء نظرَ إليها، فتترجم له.

تذكّر موتك: جدران ديرٍ قاتمة، نظرة خاشعة، مقبرة مغطّاة بالثلج. هل من الضروري أن يحدث كلّ هذا؟

إنّ ما يفتح باب المستقبل ولا يغلقه هو التفكير بما نريده في الواقع، والوعي بالزمن المحدود والعابر كمصدر قوّة لمواجهة عاداتنا وانتظاراتنا، ولكن قبل كلّ شيء لمواجهة انتظارات الآخرين وتهديداتهم، كشأن شيء مّا يفتح باب المستقبل ولا يُغلقه، وهكذا يكون التذكّر خطرًا على الأقوياء والطغاة الذين يبحثون عن الاستفادة منه حتّى لا يجد المضطَهدون من يستمع إلى رغباتهم بما في ذلك هم أنفسهم.

«لماذا يجب عليّ أن أفكّر في كلّ هذا. النهاية هي النهاية. ستأتي في وقتها المحدّد، لماذا تقول لي هذا مع أنّه لا يغيّر أيّ شيء»؟

ما هو الجواب؟

«لا تضيّع وقتك، اجعل منه شيئًا مفيدا».

ولكن ماذا تعني هذه العبارة، مفيد؟ هي تعني أن نقرّر أخيرًا تحقيق رغبات علّلنا بها النفس طويلاً، أن نردّ الرأي الخاطئ القائل بأنّه سيكون لنا الوقت دومًا في المستقبل. الزمن هو أداة صراع ضدّ الكسل، ضدّ الأوهام الّتي نصوّرها لأنفسنا والخوف المرتبط بالتغيير الضروريّ، أن نقوم بالرحلة التي حلمنا بها طويلاً، أن نتعلّم هذه اللغة أيضًا، أن نقرأ هذه الكتب، أن نقتني من أجلنا هذه الجوهرة، أن نقضي ليلة في هذا الفندق الشهير، ألاّ نحرم أنفسنا من أيّ شيء.

وهذا يتضمّن أيضًا قرارات أكبر: هجر المهنة غير المحبَّبة، الهروب من مكان مكروه، فعل شيء مّا يساعدنا على أن نصبح واقعيّين أكثر، وأكثر قربًا من الذّات.

ثمّ إنّ بقاءنا من الصباح حتّى المساء مستلقين على الشاطئ أو جالسين في المقهى يمكن أن يعدَّ أيضًا إجابة على التذكّر، إجابة شخص لم يفعل شيئًا غير العمل حتّى الآن.

«تذكّر أنّك يجب أن تموت يوما مّا، ربّما غدا».

«أنا لا أكفُّ عن التفكير في هذا الأمر، لذلك أتغيَّب عن المكتب وأثبّتُ جسدي تحت الشمس».

لا يحبسنا هذا الإنذار الذي يبدو مبهما في حدائق الدير المغطاة بالثلج، بل يفتح الطريق من الخارج وينبّهنا إلى الحاضر.

نحن نصحّح مسار علاقتنا بالآخرين حين نتذكّر الموت، نضع حدًّا لعداوة مّا، نعتذر عن خطإ اقترفناه، نعترف بجميل لم نكن مهيّئين له

بسبب تقصيرٍ منّا، نستخفُّ بأشياء غالينا في الاهتمام بها من قبل: إساءات الآخرين، تكلُّفهم، وعموما الحكم المتقلّب الذي يحملونه إزاءنا. إنّه التذكّر باعتباره دعوة إلى الإحساس بشكل مختلف.

الخطر يكمن في أنّ العلاقات ليست حقيقيّة وحيّة، إذ تنقصها الجدّية الخاطفة التي تفترض ضربًا من غياب المسافة أيضا: بالنسبة إلى العديد من التجارب المعيشة، من الواجب ألاّ ترتبط بفكرة النهاية، ولكن بالشعور أنّ المستقبل سيكون طويلاً جدًّا بعد. وهذا سيعادل في المقابل طمس هذه التجربة منذ البداية إذا تسلّل إليها الوعي بالموت القريب.

حدَّثها غريغوريوس عن الإيرلنديّ الذي تجرَّأ على حضور محاضرة ليليّة في جامعة All Souls بأكسفورد ومعه كرة قدم حمراء قانية.

«كتب أماديو: *سأبذل كلّ شيء في سبيل أن أكون الإيرلنديّ!*

- أجل، هذه الكلمات تشبهه، قالت ماريا يوحنّا، تشبهه تمامًا وتتلاءم قبل كلّ شيء مع بداية علاقتنا، مع أوّل لقاء بيننا، وهو يبدو لي اليوم كأنّه مقدَّر من قبل. حدث ذلك خلال أوّل سنة لي بمدرسة البنات المجاورة للمعهد. وكنّا، نحن البنات، نولي احترامًا مبالغًا فيه للأولاد الذين يدرسون بالمبنى المقابل، وبالخصوص طلبة اللغتين اللاتينيّة والإغريقيّة!

في أحد أصباح شهر ماي الدافئة، ذهبتُ ببساطة إلى المبنى المقابل، بعد أن ضقت ذرعًا بهذا الاحترام الغبيّ. كان الجميع يلعبون ويضحكون لكنّه لا يشاركهم مرحهم. جلس على العتبات وقد ضمَّ ركبتيه بين ذراعيه، محدِّقًا فيّ وأنا متّجهة نحوه، كأنّه ينتظرني منذ سنوات. ولو لم ينظر إليّ بتلك الطريقة، لما جلست ببساطة إلى جانبه. وهكذا بدا هذا

التصرّف الشيء الأكثر عفويَّةً في العالم.

سألتُه: «ألا تلعب؟» فهزَّ رأسه بحركة خاطفة وعابرة تفتقر إلى التهذيب تقريبا.

«لقد قرأت هذا الكتاب، قال بنبرة رقيقة لا تقاوم، نبرة ديكتاتور ما يزال يجهل جبروته، ولعلّه لن يعرفه مطلقا. إنّه كتاب يتحدَّث عن سيرة القدِّيسات، تيريزا دي ليسيو وتيريزا دي آفيلا... إلخ. وبعد ذلك بدا لي كلّ ما أقوم به عملاً تافهًا جدًّا. أي ليس *مُهما* بما يكفي، أتفهمين قصدي؟

ضحكت: «أُدعى آفيلا، ماريا يوحنّا آفيلا».

شاركني الضحك، لكنّ ضحكه جاء طافحًا بالألم. فهو يشعر بأن لا أحد يصدِّقه.

«أجبته: لا يمكن أن نولي دومًا اهتمامًا بكلّ شيء، سيكون ذلك مرعبا». نظر إليّ، وعلَته في تلك اللحظة ابتسامة لا عذاب فيها. وعندما رنّ جرس المعهد، افترقنا.

سألني: «هل تعودين غدا؟» ولم تنقض خمس دقائق حتّى وُلد بيننا شيء من الحميميّة... كأنّنا التقينا قبل سنوات عديدة.

«وبطبيعة الحال، عدت في اليوم الموالي ، وهكذا عرف كلّ شيء عن اسمي وأعطاني محاضرة حول فاسكو إكسيمينو والكونت ريموندو دي برنغونها اللذين أرسلهما الملك ألفونس الرابع دي كاستي إلى هذا المكان، وحول أنتاوو ويوحنّا كونسلفاس دي آفيلا اللّذين أدخلا هذا الاسم إلى البرتغال في القرن الخامس عشر وهكذا دواليك.

«سيكون بإمكاننا الذهاب معًا إلى آفيلا»، قال.

في اليوم التالي، نظرتُ من قاعة الدرس باتجاه المعهد ولمحتُ نقطتَيْ ضوء واضحتين وبرَّاقتين تلوحان من النافذة. وتلك هي أشعّة الشمس المنعكسة على منظار الأوبرا الّذي يملكه. حدث كلّ شيء بسرعة، كلّ شيء يحدث دومًا بسرعة عنده.

«في فترة الاستراحة أطلعني على المنظار. «إنّه لِـمَامَا، هي تحبّ ارتياد الأوبرا كثيرًا، أمَّا بابا»...

«أراد أن يجعل منّي تلميذة مجتهدة حتّى أصبح طبيبة لكنّني لم أرغب مطلقًا في أن أصبح طبيبة. أردتُ أن أصير ممرّضة.

حاول أن يقول: «ولكنكِ...».

-ممرّضة، مجرَّد ممرّضة.

«انتظر عامًا كاملاً حتّى يتقبَّل الأمر. وانطبعت صداقتنا بتمسُّكي برأيي وعدم سماحي له بفرض رأيه عليّ. وسار الأمرُ هكذا فعلا: صداقة حياة بأكملها.

«ركبتاكِ شديدتا السمرة، وفستانكِ يتضوّع برائحة صابونٍ عطرة»، قال بعد مرور أسبوعين أو ثلاثة على لقائنا الأوّل.

«أعطيته برتقالة. فأصبحت الأخريات، رفيقاتي بالصفّ، فريسة للغيرة من: النبيل والفتاة القرويَّة! «لماذا ماريا بالذات؟» تساءلت إحداهنّ ولم تعلم أنّني بالجوار. وألّفنَ روايات حولنا. أمّا الأب بارتولومو، الأستاذ الأهمّ عند أماديو، فلم يكن يحبّني، وكلّما لمحني عاد أدراجه أو غيّر وجهته.

«في عيد ميلادي، تلقَّيت فستانًا جديدًا هديّةً، وطلبتُ من ماما أن تقصّره قليلاً. لكنّ أماديو لم يُبد أيّ ملاحظة بشأنه.

«أحيانًا، يأتي إلى مدرستنا ويصطحبني للتنزّه خلال فترة الاستراحة ويحدِّثني عن عائلته، عن ظهر والده، وعن انتظارات والدته الصامتة. كان يسرّ إليّ بكلّ شيء يزعجه. وأصبحت كاتمة أسراره. أجل هذا هو، كاتمة أسراره إلى الأبد.

«لم يدعني إلى حفل زفافه. وتعلَّل بالقول: «لن تفعلي شيئًا غير الملل هناك». وقفت خلف شجرة وهم يغادرون الكنيسة. كان زفافًا باذخًا لأحد النبلاء: سيّارات كبيرة لامعة، ذيل فستان أبيض طويل، رجال ببدلات رسمية وقبَّعات طويلة.

«تلك هي المرَّة الأولى التي رأيت فيها فطيما وجها لوجه: وجه جميل متناسق الملامح، أبيض مثل المرمر، شعر أسود طويل وقامة شبيهة بقامة فتى شابّ. ليست شبيهة بدمية، سأقول، ولكنّها إلى حدّ مّا، بريئة قليلاً. لا أستطيع أن أثبت هذا ولكنّني أعتقد أنّه كان وصيًّا عليها دون أن يعي ذلك. إنّه رجل مسيطر إلى أبعد الحدود. ليس مستبدًّا على الإطلاق ولكنّه مسيطر، مشرق ومتعالٍ، ولا مكان في أعماقه لامرأة تدخل حياته. لكن عندما توفّيت فطيما حدث له اضطراب كبير».

صمتت ماريا يوحنّا ونظرت عبر النافذة ثمّ واصلت حديثها بتردُّد، دون إحساس بتأنيب الضمير.

«كما سبق أن أخبرتك، لقد عانى اضطرابًا عميقًا دون شكّ. ولكن لا أدري... فهو مع ذلك ليس بالاضطراب الذي يخترق الأعماق. في الأيّام الأولى، أمضى أغلب الوقت في منزلي دون أن يكون ذلك طلبًا للفراش، فهو يعرف أنّه لا يستطيع انتظار ذلك منّي. أجل، هو يدرك ذلك. مؤكّد أنّه أدرك ذلك! ببساطة، أراد أن أظلّ بقربه. هكذا هو الأمر

في الغالب: يجب أن أظلّ *بالقرب* منه».

وقفت ماريا يوحنّا وسارت نحو النافذة محدِّقة في الخارج ويداها مضمومتان خلف ظهرها، وعندما تحدَّثت من جديد جاء صوتها خافتًا كمن يبوح بأسرار.

«في المرّة الثالثة أو الرابعة استردَّ أخيرًا شجاعته، لقد تعاظم همُّه، وكان يجب أن يسرَّ بذلك إلى شخص مّا. لم يستطع أن يصبح أبًا. إذ أخضع نفسهُ لعمليّة جراحية حتّى لا ينجب أطفالاً مهما يكن الظّرف. حدث ذلك منذ زمن طويل، قبل أن يلتقي بفطيما.

«لا أرغب في أن يضطرّ أطفالٌ ضعفاء إلى تحمُّل أعباء روحي، قال. أعرف جيّدًا ماذا يعني ذلك بالنسبة إليّ وكيف ظلّ أثره راسخًا في نفسي إلى الآن».

تُكتَبُ حدود الإرادة والخوف الّتي يثيرها الآباء بقلم من نارٍ في أرواح الصغار المليئة بالعجز والجهل بكلّ ما يحدث لهم. نحن في حاجة إلى حياة بأكملها لنجد النصّ الموسوم ونفكَّ رموزه، ولن نقدر أبدًا على التأكّد من فهمنا لمعناه.

أطلع غريغوريوس ماريا يوحنّا على محتوى رسالة أماديو إلى والده.

«أجل، قالت، أجل. ما يُتعبه ليست العمليّة الجراحيَّة التي أخضع نفسه إليها، فهو لم يشعر بالندم على ذلك قطّ، بل إنّه لم يخبر فطيما بشيء. آلمها ألاّ تنجب أطفالاً واختنق هو تقريبًا من فرط إحساسه بالذنب. إنّه رجل شجاع، رجل يملك شجاعة خياليَّة ولكنّه جَبُنَ أمام هذا الموقف ولم يتمكّن من تجاوز هذا الجبن.

إنّه جبانٌ عندما يتعلّق الأمر بهما: هي نقطة ضعفه الوحيدة التي

لولاها لما انسحب من مواجهة أيّ ظرف صعب، ولا أيّ ظرف آخر مهما يكن».

«لقد أدركت ذلك، قالت ماريا يوحنّا. أجل. أعتقد أنّ بإمكاني القول إنّني أدركت ذلك. مؤكّد أنّني فهمت إلى أيّ حدّ انطبع أبواه عميقًا في داخله وإلى أيّ مدى كان تأثيرهما قويًّا في أعماقه. ومع ذلك كنت مشوَّشة بسبب فطيما أيضًا. لكنّ أكثر شيء أثار اضطرابي هو الطابع الصارم بل والمتوحِّش الّذي اتّخذ به قراره. في عمر الخامسة والعشرين، ألزم نفسه بهذا القرار وإلى الأبد. واضطررت إلى انتظار حوالي سنة بأكملها لأقتنع بهذه الفكرة حتّى يمكنني القول: لن يكون هو نفسه لو أنّه لم يستطع القيام بفعل مشابه».

تناولت ماريا يوحنّا كتاب برادو، ووضعت نظارتها وأخذت تتصفّحه. لكنّ الماضي لم يغادر تفكيرها، فعمدت إلى نزع نظارتها.

«لم نتحدَّث مطوّلاً عن فطيما ومكانتها عندهُ. في أحد الأيام، التقيتها في مقهى. وفور دخولها، ظنَّت أنّها مجبرة على الجلوس إلى جانبي، وحتّى قبل أن يأتي النادل، أدركت كلتانا أنّ ذلك خطأ، ولحسن الحظّ، لم نشرب إلاّ قهوة سريعة.

«لا أعرف إن فهمت كلّ شيء أم لا. لست متأكّدة حتّى من أنّه هو نفسه يفهم ذلك. وفي هذا يكمن جُبني. لم أقرأ ما كتبه عن فطيما. «لن تقرئيه إلّا بعد وفاتي، لكنّني لا أريده أن يقع بين يديْ أدريانا»، قال وهو يناولني الظرف المختوم. أمسكتُ الظرف بين يديّ أكثر من مرّة. وفي لحظة مّا قرّرت: أنا لا أرغب في معرفة محتوى الرسالة! ولهذا السبب ما تزال إلى الآن في هذ الصندوق».

أرجعت ماريا يوحنّا الخطاب إلى الصندوق ودفعته جانبا.

«هناك شيء مّا أدركه تمام الإدراك وهو أنّني لم أتفاجأ بما حصل بينه وبين إستيفانيا، فهذا أمر واقع: نحن لا نعرف الشّيء الذي ينقص شخصًا مّا إلاّ إذا ناله، وعندئذ يغدو كلّ شيء واضحًا فجأةً. وهذا ما حصل.

«لقد بدأ يتغيَّر. ولأوّل مرّة بعد مرور أربعين سنة، بدا أنّه يشعر بالخجل أمامي ويريد أن يخفي عنّي عذابًا جديدًا. لم أعرف سوى أنّ الأمر متعلِّق بشخص ينتمي إلى المقاومة، شخص على علاقة بجورج هو أيضًا، وعلى علاقة بشيء لم يرغب أماديو في الإفصاح عنه لكنّني أعرفه: إنّه لم يكفّ عن التفكير فيها. كان صمته يتكلَّم بوضوح. يجب ألاّ أراها، كما لو أنّ مجرّد رؤيتها ستجعلني قادرة على معرفة كلّ ما لم يسمح لي بمعرفته عنها. وهو الأمر الذي لم يسمح لأحد آخر بمعرفته ولا حتّى هو نفسه إن جاز التعبير، لهذا ذهبت لأنتظر أمام المنزل الذي يجتمع فيه أعضاء المقاومة. امرأة واحدة خرجت منه وعرفت على الفور أنّها هي».

شردت ماريا يوحنّا بنظرها في أرجاء الغرفة ثمّ حدَّقت بعيدا.

«لا أرغب في وصفها لك. أريد فقط أن أقول لك إنّني استطعت فورًا تخيُّل ما حدث لأماديو. بدا لهُ العالم مختلفًا فجأةً. وانقلب النظام القائم في رأسه آنذاك. وفجأة، لم يبق شيء على حاله. هكذا هي تلك المرأة، مع أنّها لم تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها. فهي ليست الكرة فحسب، الكرة الحمراء الأيرلندية بأكسفورد، إنّها أكبر من كلّ الكرات الأيرلندية الحمراء مجتمعة: لا شكّ في شعوره بأنّها فرصته ليصبح كاملا. أقصد كرجل.

«هذا وحده يمكن أن يفسِّر إذَن مجازفته مرّة أخرى بكلّ شيء: باحترام الآخرين، بصداقته مع جورج وهي مقدَّسة عنده، وحتّى بالحياة نفسها، وبعودته من إسبانيا كما لو أنّه... محطّم. محطّم، أجل، هذه هي الكلمة المناسبة. لقد غدا بطيئًا وأصبح يشكو صعوبة في التركيز، فَقَدَ كلّ حيويته وجسارته، انطفأ حماسه الملتهب، وكان يردِّد أنّ عليه تعلّمَ الحياة بدءا من الصفر.

وفي أحد الأيّام قال لي: «لقد عدت إلى المعهد، وبدا كلّ شيء ماثلاً أمامي في ذلك الوقت، ما تزال هناك إمكانيّات عديدة. كلّ شيء مباح».

شعرت ماريا يوحنّا بغصّة في حلقها، أطلقت صوتها لكنّها عندما تكلَّمت من جديد، بدت مبحوحة.

وقال هذا أيضا: «لماذا لم نذهب قطّ إلى آفيلا، نحن الاثنان؟».

«ظننتُ أنّه نسي ذلك. لكنّه لم ينسَ. وبكينا. إنّها المرّة الأولى التي بكينا فيها معًا».

خرجتْ ماريا يوحنّا، وعندما عادت لفَّت رقبتها بشالٍ ووضعت على ذراعها معطفًا سميكًا.

«أرغب في مرافقتك إلى المعهد، قالت، ماذا تبقّى منه يا ترى؟».

تخيَّلها غريغوريوس وهي تتأمَّل صور أصفهان وتطرح أسئلة. ذُهل لعدم إحساسه بالارتباك أمامها، أمام ماريا يوحنّا بشحمها ولحمها.

(39)

قادت السيّارة بهدوءٍ ودقّةٍ سائقة سيّارة أجرة، وهي المرأة الثمانينيّة. تأمّل غريغوريوس اليدين الممسكتين بالمقود وبذراع التحكّم في السرعة. إنّهما ليستا يدين أنيقتين لامرأة تستغرق وقتًا طويلاً في العناية بهما، بل هما يدان اعتنتا في السابق بالمرضى، أفرغتا مِبولات ووضعتا ضمّادات، يدان أتقنتا عملهما. لماذا لم يتّخذها برادو مساعدة له؟

أوقفا السيّارة وعبرا المنتزه مشيًا على الأقدام. رغبت أوّلاً في دخول مدرسة البنات .

«لم أزر هذا المكان منذ ثلاثين سنة، منذ وفاته. فيما مضى، آتي إلى هنا كلّ يوم. وظننت أنّ في وسع هذا المكان المشترك بيننا، المكان الذي التقينا فيه أوّل مرّة، أن يعلّمني كيف أقول وداعا. كيف نقول وداعًا لشخص طبع حياتنا بشكلٍ لم يفعله أيّ شخص آخر؟

«قبلهُ، كنت أجهل الشيء الذي منحني إيّاه، ولم أشعر به قَطُّ بعده: إنّه حدسه الرهيب. فهو شديد الاهتمام بنفسه وباستطاعته أن يتحوَّل إلى شخص مفرط في الأنانيّة حدّ القسوة. ولكن إذا ما تعلَّق الأمر بالآخرين فإنّه يملك في الوقت نفسه مخيّلة سريعة جدًّا ودقيقة جدًّا إلى درجة يمكن أن نصاب معها بالدوار. أحيانًا يخبرني بما يعتمل في صدري حتّى قبل أن أبدأ في البحث عن الكلمات للتعبير عنه. فالرغبة في فهم الآخرين بالنسبة إليه شغف. غير أنّه ما كان له أن يكون هو نفسه لو لم يشكّك في إمكانيّة

فهم مشابه، فهمٍ خاضع للشكّ في مطلقه فيعاودنا الدوار عندئذ بشكل عكسيّ.

«خلق تصرّفه معي بهذا الشكل تقاربًا مدهشًا بيننا، تقاربًا يقطع الأنفاس. في منزلنا، لم نكن ذوي طبع حادّ ولكنّنا التزمنا التحفّظ أحدنا تجاه الآخر، فلا نتحدّث إلّا عند الضرورة. وسعد كلّ واحد منّا بأنّ الآخر مرآة له. إنّه أمرٌ شبيه بالوحي وباعث على الأمل.

هما الآن في قاعة الفصل حيث درست ماريا يوحنّا، القاعة خالية من المقاعد، وحده اللوح الأسود ما يزال ماثلاً هناك. نوافذ عازلة تنقصها ألواح بلوريّة من هنا وهناك. فتحت ماريا يوحنّا نافذة أحدثت صريرًا تردّد فيه صدى عشرات سنين خَلَت. وأشارت إلى المعهد المقابل.

«هناك، هناك، في الجانب الآخر من الطابق الثالث، ظهرت حوافّ المنظار اللامعة»، قالت ذلك وهي تحاول جاهدة السيطرة على نفسها.

«أن يراقبني فتى من عائلة نبيلة، مستعينًا بمنظار، هو شيء ذو معنى، وكما قلتُ سابقًا فهذا يبعث على الأمل. ظلّ محافظًا على طابعه الطفوليّ، هذا الأمل، ولم يكن هدفه بطبيعة الحال واضحًا. وعلى أيّة حال فقد بدا، حتّى في طابعه المبهم، أملاً في حياة مشتركة.

نزلا الدرج المغطّى بشريطٍ أملس من الغبار المبلَّل والرغوة المتَّسخة، تمامًا كدرج المعهد. لزمت ماريا يوحنّا الصمت إلى أن عبرا المنتزه.

«ومع ذلك فالأمر هكذا، بطريقة أو بأخرى، أعني حياة مشتركة، شخصين يشتركان في ماضٍ قريب، وفي حاضر بعيد.

ثمّ رفعت عينيها نحو واجهة المعهد.

«جلس هناك، أمام تلك النافذة. ولأنّه يعرف كلّ شيء حقًّا ويشعر بالملل، كان يكتب لي رسائل قصيرة على أوراق يعطيني إيّاها خلال فترة الاستراحة... هي ليست *رسائل غزل*، فلم يُكتب فيها شيءٌ ممّا تمنّيته في كلّ مرّة ومع كلّ ورقة، وإنّما تأملاتِه حول أيّ شيء، حول تيريزا دي آفيلا وأشياء أخرى عديدة. أراد أن يُسكنني عالمَ أفكاره.

«أنت الوحيدة التي تسكن هنا باستثنائي أنا»، هذا ما ردّده.

«وعلى الرغم من ذلك، لم يُرد أن أتدخَّل في حياته، ولم أدرك هذا إلاّ على التدريج، وفي وقت متأخّر جدًّا. وبمعنى آخر من الصعب شرحه، أرادني أن أبقى خارجا. انتظرت أن يسألني عمّا إذا أردتُ العمل في المنزل الأزرق، فقد حلمت عديد المرّات بالعمل فيه وبدا ذلك إحساسًا رائعًا. كان أحدنا يفهم الآخر دون أن نقول كلمة واحدة. ولكنّه لم يطلب منّي ذلك ولو تلميحًا.

«كان يحبّ القطارات، وهي بالنسبة إليه رمز إلى الحياة. وكنت سأسافر في مقصورته عن طيب خاطر لكنّه لم يرغب في وجودي هناك. أراد أن أظلّ واقفة على رصيف المحطَّة ليفتح النافذة في أيّ لحظة طلبًا لمشورتي. أراد أن يتبعه الرصيف عندما يتحرَّك القطار. وكملاك، عليَّ أن أظلّ واقفة عند الرصيف الآهل بالحركة، مع جيش الملائكة الذي يسير مع القطار في آنٍ، تمامًا بالسرعة ذاتها».

عندما دخلا المعهد، أخذت ماريا يوحنّا تنظر حولها.

«في الحقيقة لم يكن للفتيات الحقّ في القدوم إلى هنا، ولكنّه يأتي بي إلى هذا المكان خلسة بعد انتهاء الدروس ويطلعني على كلّ شيء. وفي أحد الأيّام فاجأنا الأب بارتولومو. وغضب غضبًا شديدًا لكنّه لم يقل شيئًا

مادام الأمر يتعلّق بأماديو».

وعندما وقفا أمام مكتب السيّد كورتس انتاب غريغوريوس في تلك الأثناء شعورٌ بالخوف. وما إن دخلا المكتب حتّى انفجرت ماريا يوحنّا ضاحكة، ضحكة تلميذة سعيدة بالحياة.

«أنت من فعل هذا؟».

- أجل.

اقترَبَتْ من الجدار الذي عُلِّقت عليه صور أصفهان وحدجت غريغوريوس بنظرة مستفهمة.

«إنّها أصفهان، بلاد فارس. رغبت في السفر إليها وأنا تلميذ. وددت أن أسافر إلى الشرق.

- والآن وقد هربت، ستستعيد هذا الحلم، هنا.

وافقها الرأي. لم يعرف أنّ هناك أشخاصًا سريعي البديهة إلى هذا الحدّ. كان بالإمكان فتح نافذة القطار واستشارة الملاك.

فجأة تصرّفت ماريا يوحنّا تصرّفًا غير متوقّع: اقتربت منه وأحاطت كتفيه بذراعيها.

«كان لأماديو أن يفهم هذا الأمر، لا أن يفهمه فحسب بل لا شكّ أنّه قد يحبّك من أجله... *الخيال هو ملاذنا الأخير*، هذا ما اعتاد قوله. فالخيال والحميميَّة من جهة، واللغة من جهة ثانية هما المحرابان الوحيدان اللذان يعترف بهما وبوسعهما فعل الكثير معًا، الكثير»، هذا ما يقوله أيضًا.

تردَّد غريغوريوس لكنّه، مع ذلك، فتح درج المكتب وأطلع ماريا يوحنّا على «العهد القديم».

«أراهن على أنّ هذه كنزتك.!» قالت.

جلست على كرسيّ وغطّت ساقيها بأحد أغطية سيلفيرا.

«اِقرأ لي مقطعًا أرجوك. لقد فعل هو أيضًا الشيء نفسه. لم أفهم شيئًا بطبيعة الحال، ولكنّه أمرٌ رائع».

قرأ غريغوريوس قصّة الخلق. هو، موندوس، كان معهد برتغاليّ خربٍ، يقرأ قصّة الخلق لامرأة في الثمانين من عمرها، لم يلتق بها من قبل، وهي لا تفهم كلمة واحدة باللغة العبريّة. لم يسبق أن فعل شيئًا أكثر جنونًا من هذا. لقد وجد فيه متعة لم يعهدها في شيء آخر من قبل.

كأنّهُ يتخلّص في أعماقه من كلّ روابطه، ليعطي، ولهذه المرّة فقط، ضرباتٍ من كلّ الجهات، دون قيود قد تتعلّقُ بشخص يعرف أنّ نهايته باتت وشيكة.

«والآن، لنذهب إلى قاعة الاحتفالات، قالت ماريا يوحنّا. لقد أُغلقت في السابق».

جلسا في الصفّ الأوّل أمام المنبر.

«إذن، هذا هو المكان الذي ألقى فيه خطابه، خطابه الجهنّمي. أحببتُ ذلك الخطاب. لقد امتلأ به جدًّا، وكان هو. ولكنّ فيه شيئًا مّا أثار فزعي لم يكن مكتوبًا في النسخة التي قرأها لأنّه حذفه. أنت تذكر الخاتمة التي يقول فيها إنّه في حاجة إلى شيئين: قداسة الكلمات ومعاداة كلّ ما هو قاسٍ. وبعد ذلك يأتي قوله: *أحتاج إلى الانعتاق من كلّ إكراه على الاختيار*. هذه آخر جملة قرأها في الخطاب، ولكن هناك جملة أخرى في الأصل: *سيكون ذلك قبض ريح*.

«صرخت عند سماعها: يا لها من صورة رائعة !».

«عندئذ، تناول «العهد القديم» وقرأ هذا المقطع لسليمان: *«تأمّلت كلّ ما كان يحدث تحت الشمس فإذا به كلّهُ باطل وقبض ريح!»*.

قلت له: ومع ذلك لا يمكنك أن تقول هذا! سيلاحظ الآباء ذلك فورًا وسيعتقدون أنّك تعاني من جنون العظمة.

«ما لم أقله هو أنّني خشيت عليه وعلى سلامته العقليّة في تلك اللحظة. ولكن لماذا ؟ قال مندهشا. ببساطة، هذا شعر!

- ولكن لا يمكنك أن تتحدّث عن شعريّة «العهد القديم»! شعريّة *«العهد القديم»!* باسمك أنت!

فأجابني: الشعر ينتصر على كلّ شيء. إنّه ينفي كلّ القوانين.

«لكنّه فقَدَ ثقته بنفسه وألغى الجملة، لقد استشعر قلقي، استشعر كلّ شيء. ولم نتطرّق إلى هذا الموضوع مطلقًا بعدها.

أخبرها غريغوريوس عن محادثة برادو مع أوكلّي حول موضوع كلام الله الفاني.

«لا أعرف ذلك»، قالت، ثمّ صمتت لحظة. شبكت أصابعها وفكّتها ثمّ عادت وشبكتها من جديد.

«جورج، جورج أوكلّي. لا أعرف أَهُو مصدر سعادة أم شقاء بالنسبة إليه. شقاء كبير يتستّر تحت رداء سعادة كبيرة. هذا أمر واقع. تمنّى أماديو لو أنّ له قوّة أوكلّي، قوّته الوحشيّة. لقد حمل للأيرلنديّ حسدًا على وحشيّة تظهر في يديه القاسيتين المتشقّقتين، وشعره المنفوش غير المرتّب، وفي ما دخّنه آنذاك من سجائر دون فيلتر واحدة تلو أخرى. لا أريد أن

أظلمه، لكنّني لم أحبّ قطُّ أن يخلو حماس أماديو له من التعقّل. فأنا ابنة قرويّ وأعرف جيّدًا كيف يتصرَّف أبناء القرويّين. لذلك لا يوجد أيّ دافع للعاطفة. وإذا أصبحت المعركة حامية جدًّا فإنّ جورج سيفكِّر بنفسه أوَّلا.

«ما فتنه في أوكلّي وقد يجعله ينتشي حتّى الثمالة هو أنّه لا يجد أيّ صعوبة في وضع حاجز بينه وبين الآخرين. فهو يقول «لا» ببساطة، ويسخر من أنفه الكبير جدًّا. على عكس أماديو الذي يقاوم من أجل تحطيم قيوده كما لو أنّ غايته من ذلك هي أن ينعم بسعادة أبديّة».

حدَّثها غريغوريوس عن رسالته إلى الوالد وعن العبارة التي أوردها فيها: *«الآخرون هم محكمتك»*.

«أجل، هذا صحيح تمامًا. لقد جعل منه ذلك رجلاً منعدم الثقة، وصاحب أرقّ بشرة يمكن تخيَّلها. كانت به حاجة ماسّة إلى أن يثق به الناس وأن يتقبَّله الآخرون. وحسِب أنّ عليه إخفاء عدم الثقة هذا. وما بدا عليه من شجاعة أو جسارة ليس في الغالب إلاّ هروبًا إلى الأمام. لقد حمّل نفسه فوق طاقتها، أكثر ممّا ينبغي وهذا ما جعله متبجِّحًا وصلبًا مثل منفِّذ عمليّات عظيمة.

«كلّ الذين عرفوه عن قرب يُقرّون بأنّهم يشعرون بالعجز عن إرضائه هو وتوقّعاته، وبحاجتهم إلى أن يظلّوا دومًا على الحياد. فاستهانته بنفسه تصعِّب كلّ شيء حتّى إنّهم لم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم بلومه على كبريائه.

«فكم كان متعصّبًا ضدّ الكيتش، مثلاً! متعصّبًا في الكلام والمواقف قبل كلّ شيء. وأيّ خوف ينتابه من ابتذاله هو! فأقول له: «من الضروريّ

جدًّا أن نمتلك القدرة على تقبُّل أنفسنا في ابتذالنا أيضًا حتّى نصبح أحرارا». إذّاك يتنفَّس بهدوء أكثر، وبحريّة أكبر. كانت له ذاكرة خارقة لكنّه ينسى هذه الأشياء بسرعة ومن ثمّ يعاوده إحساس الضيق بقبضته الحديديّة القاسية.

«حارب المحكمة. يا إلهي كم حاربها! وهُزم في النهاية. أجل. أعتقد أنّ علينا الاعتراف بذلك. لقد هزم!

«خلال فترات هدوء لم يهتمّ فيها بغير مرضاه، فترات شعر فيها الأشخاص بالامتنان نحوه، بدا أحيانًا أنّ كلّ شيء انتهى. ولكن بعد ذلك، ظهرت هذه القصّة مع موندز. أصابه هَوَس من حادثة البصقة إلى حدّ تسبَّب له في رؤية كوابيس. لقد مثّل ذلك إعدامًا حقيقيًّا.

«لم أرغب في انضمامه إلى المقاومة لأنّه ليس الرجل المناسب، ليس قويًّا بما يكفي على الرغم من ذكائه. ولم أعتقد أنّ بإمكانه إصلاح شيء. لكن ليس باليد حيلة. «عندما يتعلّق الأمر بالروح نعجز عن فعل أيّ شيء»، هذا ما اعتاد ترديده. لقد سبق أن حدَّثتك عن الأمر.

«جورج أيضًا انضمَّ إلى المقاومة. جورج الذي خسره في النهاية بهذه الطريقة. لقد استعاد القصّة بأكملها في مطبخي وهو منهار، دون أن يقول كلمة واحدة».

صعدا الدرج وأشار غريغوريوس إلى مقعد المدرسة الذي تخيَّل برادو جالسًا عليه. ليس هذا هو الطابق المنشود، ولكن مع ذلك بدا هو بعينه تقريبًا. وقفت ماريا يوحنّا قرب النافذة ونظرت أمامها إلى المكان الذي جلست فيه سابقًا وهي بمدرسة البنات.

«محكمة الآخرين، هذا ما تعرَّض له أيضًا عندما فتح رقبة أدريانا. جلس الآخرون إلى المائدة ونظروا إليه كأنّهم ينظرون إلى وحش. ومع ذلك، قام بالشيء الوحيد الذي يتوجَّب عليه فعله. فعندما ذهبتُ إلى باريس، تلقّيت دروسًا في الطبّ الاستعجالي، وأطلعونا هناك على هذه العمليّة، عمليّة فتح القصبة الهوائيّة. يجب قطع الرباط العظميّ بشكل عموديّ ومن ثمّ ترك القصبة الهوائيّة مفتوحة باستخدام أنبوب. لا أدري ما إذا كنت قادرة على القيام بهذه العملية وما إذا كنت سأفكر في استعمال قلم حبر لاستبدال الأنبوب».

«بالنسبة إلى أدريانا، كانت لذلك نتائج مدمّرة. فحين ننقذ حياة أحد الأشخاص فهذا يعني حقًّا أن نودّعه وداعًا سريعًا وخفيفًا. إنقاذ حياة شخص هو بالنسبة إلى الآخر عبءٌ لا يقوى أحد على تحمُّله. يجب علينا أيضًا أن نعتبر ذلك مثل ضربة حظّ طبيعيّة أو مثل شفاءٍ عفويّ تقريبا، مثل حدث غير شخصيّ.

«كان اعترافُ أدريانا بالجميل يثقل على أماديو. وشعورها هذا قاربَ الورع والتعصُّب. وأحيانًا أشعره ذلك بالملل. كان يمكن أن تبدو ذليلة مثل أمَة. ولكن داهمها بعد هذا الأمر ذلك الحبّ الحزين والإجهاض وخطر العزلة. حاولت أحيانًا أن أقنع نفسي بأنّه لا يصطحبني معه إلى العيادة بسبب أدريانا. ولكن ليست هذه هي الحقيقة.

«مع ميلودي، أقصد شقيقته ريتا، اختلف الأمر، فعلاقته بها بدت هشَّة ولا مبالية. هو يملك صورة يظهر فيها مرتديا طاقية فرقة الفتيات الموسيقيّة التي تعزف فيها ميلودي. لقد حسدها على شجاعتها في أن تكون متقلِّبة وسعد بأنّها الأخت الصغرى غير المتوقّعة، الأخت التي

يبدو شعورها بعبء أبويها النفسيّ أقلّ بكثير من شعور أشقّائها الكبار به. ولكن بإمكانه أن يستشيط غضبًا حين يفكّر، ولو بصفته ابنا، أنّ حياته كان يمكن أن تكون أكثر سهولة.

«زرتهم في المنزل مرَّة واحدة فقط، وذلك خلال السنة الدراسيّة. وكانت الدعوة في حدّ ذاتها غلطة. فلئن بدوا لطيفين معي فقد شعرنا جميعنا بأنّني لست في المكان المناسب، في منزلٍ نبيل وثريّ. وهو الأمر الّذي جعل تلك الظهيرة تبعثُ شعورًا بالتعاسة في قلب أماديو.

«أتمنّى...لا أستطيع...»، قال.

قلت: «ولكن ليس لهذا أيّ أهميّة».

«بعد مرور وقت طويل، التقيتُ بالقاضي وفقًا لطلبه. شعر بأنّ أماديو يلومه على عمله تحت حكومة تحمل تارافال وصمة عارٍ. «إنّه يحتقرني! ولدي يحتقرني!»، قال. وبعد ذلك تحدَّث عن آلامه وكيف ساعده عمله في البقاء على قيد الحياة. عابَ على أماديو عدم امتلاكه حدسًا، وأعدتُ على مسامعه ما سبق أن قاله لي أماديو: «لا أريد أن أراه مثل مريضٍ يغفر له الجميع كلّ شيء. سيكون الأمر عندئذ كأنّني أصبحت بلا أبٍ».

«أخفيت عنه مدى تعاسة أماديو في كويمبرا لأنّه امتلأ بشكوك حول مستقبله المهنيّ، ولأنّه تساءل: هل ستخدعه إرادته الخاصّة إن هو لم يكتف باتّباع أمنية والده؟

«أقدم على ارتكاب سرقة في أقدم مغازة كبرى بالمدينة. وأوشكوا على الإمساك به، ووقع بعد ذلك فريسة لاكتئاب عصبيّ، زرتُه على إثره.

«هل تعرف سبب تصرّفك هذا؟» سألته. فهزَّ رأسه إيجابا.

لم يطلعني البتّة عن السبب ولكنّني أظنّه على علاقة بالوالد والمحكمة والإدانة، إنّه ضربٌ من التمرّد اليائس والمقنَّن. وفي ردهة المستشفى، التقيت بأوكلّي.

«لو أنّه سرق على الأقلّ شيئًا ثمينًا حقًّا. أمّا تلك القذارة!»، هذا فقط ما قاله.

«لم أعرف أَكنت أحبّه في تلك اللحظة أم العكس، وإلى اليوم مازلت أجهل ذلك.

«لوم والده له على غياب الحدس أكثر من مُبرَّر. كم مرّةٍ اتخذ أماديو في حضوري وضع رجل مصاب بمرض الفقرات التصلبيّ وظلَّ على تلك الحال حتّى تشنَّج ظهره! ويبقي جذعه بعد ذلك مقوَّسًا تمامًا، ورأسه ممدودًا إلى الأمام مثل رأس عصفور وأسنانه مشدودة.

«لا أعرف كيف بإمكانه أن يحتمل ذلك، لا أعني الألم وحده بل الذلّ أيضًا!» هذا ما ردّده مرارًا.

«إذا اتّفق أن يخونه خياله، فذلك يحدث مع والدته. وقد بقيت علاقته بها لغزًا بالنسبة إليّ. إنّها امرأة جميلة وأنيقة ولكنّها غير لافتة. «أجل، هذا ما يقوله، أجل هي هكذا تماما. ولا أحد سيصدّق ذلك». لقد حمّلها مسؤوليّة أشياء كثيرة إلى حدّ لا يصدَّق. الفشل في رسم حدوده الخاصّة، هوسه بالعمل، الإرهاق الذي صنعه بنفسه، عدم قدرته على الرقص واللعب، كلّ هذا مرتبط عنده بها وبتسلّطها اللطيف. ولكن لا فرصة للحديث معه في هذا الموضوع. «لا رغبة لي بالحديث. أريد أن أكون ساخطًا! ساخطًا فحسب! *ساخطًا! ساخطًا!*

غربت الشمس وأشعلت ماريا يوحنّا المصابيح.

«هل تعرف كويمبرا؟»، سألته.

أومأ غريغوريوس برأسه نافيا. «أحبَّ مكتبة جوانينا بالجامعة. فلا يمرّ أسبوع دون أن يذهب إلى هناك. وأحبَّ «غرفة الأعمال الكبرى» حيث تسلَّم شهادته. فكثيرًا ما تردّد عليها لاحقًا ليزور القاعات».

عندما نزل غريغوريوس من السيّارة، انتابه دوارٌ مفاجئ أجبره على التشبّث بسقف السيّارة. فأغمضت ماريا يوحنّا عينيها.

«هل يحدث لك هذا باستمرار؟».

تردَّد ثمّ أخفى عنها الحقيقة.

«يجب ألاّ تستهين بهذا الأمر، قالت، هل تعرف أخصّائيًّا في الأعصاب؟».

فهزّ رأسه بالإيجاب.

قادت السيّارة ببطء كأنّها تفكّر في العودة. ولم تسرع إلاّ عندما وصلت إلى مفترق الطرق.كان العالم يدور، واضطرّ غريغوريوس إلى التشبّث بمقبض الباب قبل أن يتمكّن من فتحه. شرب كوبًا من الحليب أخرجه من ثلاجة سيلفيرا وصعد السلّم ببطء، درجة بعد أخرى.

(40)

«أكره الفنادق. كيف لي أن أواصل على هذا النحو؟ هل بإمكانكِ أن تجيبيني يا جوليتا؟؟».

في يوم السبت، عندما سمع غريغوريوس سيلفيرا وهو يفتح الباب، تذكَّر هذه الكلمات التي روتها الخادمة. وتأكيدًا لكلامها، ترك سيلفيرا الحقيبة والمعطف يسقطان في الرَّدهة. جلس على كرسيّ وأغمض عينيه من شدَّة الإرهاق، وعندما رأى غريغوريوس ينزل الدرج، أشرق وجهه. «ريموندو ألست في أصفهان؟»، تساءل ضاحكا.

لقد أصيب بنزلة برد، وكان يعطس. لم يجد أعمالَه ببياريتز في مستوى انتظاراته، خسر مرّتين أمام حارس عربات النوم وفيليب السائق، ولم يصل إلى المحطَّة في الوقت المحدَّد. وبالإضافة إلى ذلك فجوليتا في إجازة اليوم. ظهرت على وجهه علامات الإرهاق، إرهاق ما يزال أكبر وأعمق بكثير من ذي قبل وهو في القطار:

«المشكلة أنّه عندما توقّف القطار في محطّة بلد الوليد لم تكن لدينا رؤية مشتركة لحياتنا معًا، لا قبل الزواج ولا بعده، قال سيلفيرا أخيرًا. وعندما جرت الأمور على ما يرام بدا ذلك ضربةَ حظٍّ لا أكثر ولا أقلّ».

تناولا الطعام الذي أعدَّته جوليتا سلفًا وشربا بعد ذلك القهوة في الصالون. لاحظ سيلفيرا أنّ نظرة غريغوريوس تتّجه نحو صور السهرة الراقية.

«اللعنة، قال، لقد نسيت ذلك تماما. الحفلة، الحفلة العائليّة الملعونة!».

لن أذهب. *لن أذهب، هكذا ببساطة*. قال وهو يضرب بشوكته على الطاولة. لكنّ شيئًا مّا في وجه غريغوريوس جعله يتوقّف فورا.

«إلاّ إذا رافقتني، قال. حفلة عائليّة متزمّتة في منزل أرستقراطيّين. إنّه عرض غير مغر! ولكن إذا كنت ترغب...».

اقتربت الساعة من الثامنة عندما جاء فيليب لاصطحابهما، واندهش لرؤيتهما معًا في الردهة ينتفضان من الضحك. ليست له بذلة مناسبة ليرتديها، قال غريغوريوس قبل ذلك بساعة، وهكذا جرَّب ارتداء ملابس سيلفيرا، وهي كلّها ضيّقة جدًّا. وفي تلك اللحظة أخذ ينظر إلى نفسه في المرآة الكبيرة: بنطال في غاية الطول، مثنيّ على حذاء غير لائق، سترة سهرة دون أزرار، قميصٌ تخنقه ياقتهُ. شعر بالذعر وهو ينظر إلى نفسه، لكن بعد ذلك انتابته عدوى قهقهة سيلفيرا، فبدأ في الاستمتاع بالمهزلة. لم يتمكَّن من شرح الأمر لكنّه شعر أنّ هذا اللباس التنكريّ سينتقم له من فلورانس.

ومع ذلك لم يبدأ الانتقام الخفيّ إلاّ عندما وصلا إلى عمّة سيلفيرا. بدا سيلفيرا سعيدًا بأن يقدّم لأقربائه الطافحين بالكبرياء صديقَه السويسريّ ريموندو غريغوريو، العلاَّمة الذي يتقن لغات عديدة. وعندما سمع غريغوريوس كلمة علاَّمة، انتفض كأنّه محتال على وشك أن يُكتشف أمره. ولكن على المائدة، تلبَّس به الشيطان فجأة ليقيم الدليل على أنّه يتقن لغات عديدة، فتحدَّث العبريَّة والإغريقيَّة والألمانيَّة كما يتحدّثها أهل بيرن، مازجًا بينها جميعا. وتحمَّس إلى توليفات عويصة من الكلمات اكتسبت من دقيقة إلى أخرى طابعًا جنونيّا. لم يعرف أنّه يملك كلّ هذا

الذكاء اللغويّ، وشعر أنّه أطلق العنان لنفسه في الفضاء الفارغ، وظلّ يشرح عددًا لا حصر له من الكلمات الغامضة والمستعصية كانت تزداد بُعدًا وعلوًّا، إلى اللحظة التي سينهار فيها. تملّكه إحساس بالدوار، دوار لطيف صُنع من كلمات مجنونة ونبيذ أحمر، من دخان وموسيقى صاخبة، وقد رغب في هذا الدوار وبذل كلّ شيء حتّى يستبقيه، إنّه نجم السهرة، وشعر أقرباء سيلفيرا بالسرور لأنّ الجو لم يكن مملاً كالعادة. أخذ سيلفيرا يدخِّن السجائر واحدة تلو أخرى، مستمتعًا بالعرض، وألقت النساء على غريغوريوس نظرات لم يألفها. وأخذ يتساءل عمّا إذا كانت هذه النظرات تقصد حقًّا ما تبديه. ولكن ليس هذا مُهمًّا. فما همَّه حقًّا هو أنّ هذه النظرات الغامضة موجَّهة إليه هو، موندوس، الرجل المخلوق من أشدِّ الأوراق قسوة، الرجل الذي يكنّى بالبرديّة.

خلال الليل حدث أن تخيَّل نفسه وهو بصدد غسل الصحون في المطبخ، كان المطبخ في منزل أقرباء سيلفيرا، ومطبخَ الزوجين مورالت في آنٍ. وقد نظرت إليه إيفا «المدهشة» وهو يفعل ذلك بخوف شديد. انتظر انصراف الخادمين ثمّ اندسَّ في المطبخ، وها هو الآن يغسل الصحون وقد انتابه دوار جعله يترنَّح ويستند إلى حوض الغسيل. لم يرغب في الشعور بالخوف من الدوار تلك اللحظة، أراد أن يستمتع بجنون السهرة، جنون قادر على أن يمكِّنه، بعد أربعين سنة، من استعادة ما عجز عن إنجازه في الماضي خلال حفلة المدرسة. هل كان بالإمكان شراء لقب نبيل في البرتغال؟ تساءل وقت التحلية. ولكنّ الحيرة التي تمنّى أن يثيرها لم تظهر على الموجودين، إذ اعتبروا سؤاله مجرّد همهمة رجل لا يجيد اللغة. وحده سيلفيرا ضحك هازئًا.

بنظّارات يغشّيها البخار، قام غريغوريوس بحركة خرقاء وأسقط صحنا تحطَّم على الأرضيّة المبلَّطة.

«*مهلا، سأساعدك*»، قالت أورورا ابنة شقيق سيلفيرا الّتي ظهرت فجأة في المطبخ. وجثَوا معًا لجمع الشظايا الخزفيّة. مازال غريغوريوس غير قادر على رؤية أيّ شيء، واصطدم بأورورا التي تناغم عطرها تمامًا مع الدوار الذي انتابه. هكذا فكَّر لاحقا.

«*لا عليك*»، قالت عندما بادر بالاعتذار منها، وشعر في ذهول أنّها تطبع قبلة على جبينه. ولكن ماذا يفعل هنا؟ تساءلت عندما انتصب واقفًا من جديد، وأشارت بضحكة خفيفة إلى المئزر الذي عقده حول خصره. أيغسل الصحون؟ وهو الضيف؟ والعلاَّمة والعارف بلغات عديدة؟ *هذا مدهش!*

ودعته إلى الرقص بعد أن نزعت عنه مئزره، وشغَّلت راديو المطبخ، ثمّ أمسكته من يده ومن كتفه. وفي هذه اللحظة أخذا يدوران على إيقاع الفالس. عندما كان شابّا، ترك غريغوريوس مدرسة الرَّقص مذعورًا بعد مرور حصّة ونصف. والآن ها هو يدور مثل دبّ ويتعثَّر في بنطاله الطويل جدًّا، وتملَّكه فجأة دوار شديد. *سأسقط!* قال وهو يحاول التشبّث بأورورا الّتي بدا أنّها لم تلاحظ شيئًا وهي تصفِّر مع الموسيقى. ارتخت ركبتاه ووحدها قبضة سيلفيرا القويّة منعته من السقوط.

لم يفهم غريغوريوس ما قاله سيلفيرا لأورورا، لكنّ لهجته تكشف أنّه يؤنبها. ثمّ ساعد غريغوريوس على الجلوس وجاءه بكوب من الماء.

بعد مرور نصف ساعة غادرا المكان. لم يسبق له أن شهد مثل هذا الموقف، قال سيلفيرا وهما داخل السيّارة. كان غريغوريوس يقلب هذا

المجتمع المتكلّف رأسًا على عقب. حسنا، على أيّة حال تلك هي سمعة أورورا... أمّا الآخرون، فقد أوصوه بإعادة اصطحاب غريغوريوس معه.

طلبا من السائق أن يقودهما إلى المنزل، ثمّ قاد سلفيرا السيّارة بنفسه في اتجاه المعهد. «يبدو لي أنّه الوقت المناسب، أليس كذلك». قال سيلفيرا فجأة وهما في الطريق إلى هناك.

على ضوء مصباحٍ تأمّل سيلفيرا صور أصفهان وهزَّ رأسه إعجابًا بها. ثمّ ألقى نظرة على غريغوريوس وهزَّ رأسه ثانية. على أحد الكراسي ظهر الغطاء الذي طوته ماريا يوحنّا وهو ما يزال على حاله. جلس سيلفيرا وطرح على غريغوريوس أسئلة لم يسبق لأحد أن طرحها عليه في هذا المكان، ولا حتّى ماريا يوحنّا ذاتُها: ما الذي دفعه إلى تعلُّم اللّغات القديمة؟ لماذا لم يُدَرِّس بالجامعة؟ لم ينسَ شيئًا ممّا أخبره به غريغوريوس عن فلورانس. ألم يعرف قطُّ امرأة غيرها؟

وعندئذ حدَّثه غريغوريوس عن برادو. وهي المرّة الأولى التي يتحدَّث فيها عنه أمام شخص لم يعرفه من قبل. تعجَّب سلفيرا للكمِّ الهائل من المعلومات التي يحملها عن هذا الشخص والوقت الذي استغرقه في التفكير به وأخذ يدفئ يديه على موقد المخيّم ويستمع إلى غريغوريوس دون أيّ مقاطعة. هل باستطاعته رؤية كتاب «أشجار الأرز الحمراء؟» سأله أخيرا.

بقي فترة طويلة ونظره مركَّز على صورة برادو. قرأ المقدّمة عن آلاف التجارب الخرساء. وأعاد قراءتها مرّة ثانية. ثمّ بدأ يتصفُّح الكتاب. ضحك وقرأ بصوت عال: *ميزان الكرم الحقير*: هذا يحدث أيضًا. قلب

بضع صفحات ثمّ رجع إلى الخلف وقرأ:

«رمال متحرِّكة».

لو أدركنا أنّ نجاحنا أو فشلنا في شيء مّا، على الرغم من كلّ ما نبذله من جهود، ليس إلاّ ضربة حظّ. لو أدركنا هكذا آننا في كلّ أفعالنا وتجاربنا عبارة عن رمال متحرِّكة أمام أنفسنا ومن أجل أنفسنا، فما هو إذَن مصير كلّ مشاعرنا المألوفة والمزهوّة جدًّا، كالكبرياء والندم والعار؟

بعد ذلك قام سيلفيرا من مكانه وأخذ يذرع المكان جيئةً وذهابًا ونصُّ برادو أمام عينيه. بدا كما لو أنّ الحمّى اشتدّت به، فقرأ بصوت عالٍ: «*هل إنّ التفاهم أمرٌ مُكتسب أم فطريّ؟*» ثمّ قلب عددًا من الصفحات الأخرى وقرأ أيضًا: «*هل هناك من هو مهتمّ بي حقًّا، وليس بمجرّد القيمة التي يوليها لي في حدّ ذاتها؟*» عثر على مقطع أطول بكثير من المقطع السابق، فجلس على حافّة مكتب السيّد كورتس وأشعل سيجارة وقرأ:

أحاديث خادعة

«عندما نتحدّث عن أنفسنا، أو عن أشخاص آخرين أو ببساطة عن مجّرد أشياء، فنحن نرغب في اكتشاف أنفسنا عبر أحاديثنا، إن صحّ القول: نحن نريد أن نعرف ما نفكّر فيه ونشعر به، نترك الآخرين يلقون نظرة على أعماقنا. نحن نمنحهم قطعة من عقلنا، كما يقال باللغة الإنجليزيّة[1]، وهي عبارة حفظتها عن رجل إنجليزيّ ونحن متكئين على متراس إحدى السفن. إنّه الشيء الوحيد الجيّد

(1) We give them a piece of our mind.

الذي جلبته معي من ذلك البلد الغريب. وربّما ذكرى الأيرلنديّ أيضًا، صاحب الكرة الحمراء في جامعة All Souls.

وحسب هذا المفهوم، فنحن المنفّذون المثاليّون لانفتاحنا على الآخرين، والمسرحيّون المستقلّون بذواتنا. ولكن هل يكون هذا خطأ محضا؟ وهْما نخلقه بأيدينا؟ لأنّنا لم نسعَ إلّا إلى اكتشاف أنفسنا عبر أحاديثنا، بل نحن نخدع أنفسنا أيضًا. نحن نكشف أكثر ممّا أردنا كشفه في الواقع. وأحيانًا يحدث العكس تماما. وباستطاعة الآخرين تأويل أحاديثنا مثل دلالات لعلّنا نجهل سببها، مثل أعراض مرضٍ أن نكون نحن. لعلّ هذا ممتع. لو نظرنا إلى الآخرين على هذا النحو، فيمكن أن يجعلنا ذلك أكثر تسامحا، ولكن بإمكانه أيضًا أن يجعلنا أكثر حذرا. ولو أنّنا إذ نبدأ بالحديث نتذكّر أنّ الآخرين يحذون حذونا، لأمكن للكلمة أن تظلّ محصورة في الحلق وللفزع أن يخرسنا إلى الأبد».

في طريق العودة، توقّفا أمام مبنى شُيّد من البلّور والفولاذ.

«إنّها شركتي، قال سيلفيرا. أرغب حقًّا في نسخ كتاب دي برادو».

ضغط على الزرّ وفتح البوّابة. لكنّ نظرةً على وجه غريغوريوس أوقفته.

«آه حسنا، أجل، هذا النصّ وآلة ناسخة، شيئان لا يناسب أحدهما الآخر». داعب المقود بيده ثمّ أردف: «وبالإضافة إلى ذلك فأنت ترغب في الاحتفاظ بهذا النصّ لنفسك. لا الكتاب وحده. وإنّما *النصّ*».

لاحقا، بينما كان غريغوريوس مستلقيا دون أن ينعم بالنوم فكّر من

جديد في كلمات سيلفيرا. لماذا لم يحضَ في حياته من قبل مطلقًا بشخص يفهمه بسرعة وسهولة كبيرتين؟

وقبل أن يخلد إلى النوم، ضمَّه سيلفيرا طويلاً بين ذراعيه. إنّه الرجل الذي يمكن أن يحدِّثه عن دواره، عن الدوار الذي ينتابه وعن خوفه من زيارة أخصائيّ الأعصاب.

(41)

في ظهيرة يوم الأحد، وقف يوحنّا إيسا أمام باب غرفته. وتبيَّن لغريغوريوس من خلال ملامح وجهه أنّ شيئًا مّا حصل. تردَّد إيسا قبل السماح لضيفه بالدخول. كان يومًا باردًا من شهر مارس، ومع ذلك، فُتِحت النافذة على مصراعيها. عدّل إيسا بنطاله قبل أن يجلس وغالب نفسه وهو يضع الأحجار بيديه المرتعشتين. ذلك الصراع يتعلّق بمشاعره وبمعرفة ما إذا كان عليه أن يتحدّث عنها في الوقت نفسه، فكَّر غريغوريوس لاحقا.

حرَّك إيسا البيدق. «لقد تبوَّلتُ البارحة في فراشي، ولم أتفطَّن إلى ذلك». قال بصوت أجشّ، دون أن يرفع عينيه عن رقعة الشطرنج.

حرَّك غريغوريوس من جهته حجرًا. يجب ألاّ يلزم الصمت طويلاً، فقال: «مساء أمس، عبرت مطبخًا غريبًا عنّي، وقد أصابني الدوار، فسقطت بين ذراعيْ امرأة ثملة دون أن أعي ذلك».

«هذا شيء مختلف، قال إيسا غاضبا.

- لأنّه لا يتعلّق بأسفل البطن؟ تساءل غريغوريوس. في كلتا الحالتين، هذا يعني، رغم كلّ شيء، أنّنا فقدنا التحكُّم المعتاد في أجسادنا».

فنظر إليه إيسا بتفكُّر.

أعدّ غريغوريوس الشاي وملأ الفنجان إلى النّصف. وتفطَّن إيسا

إلى نظرته التي وقعت على يديه المرتعشتين.

«*إنها الكرامة*»[1]، قال.

- الكرامة، قال غريغوريوس. في الواقع، لا فكرةَ لي عن ماهيَّتها لكنّني لا أعتقد أنّها تُفقَد بمجرّد انهيار الجسد».

لقد أفسد إيسا المدخل.

«عندما اقتادوني إلى التعذيب، تبوَّلتُ في بنطالي وأثار ذلك سخريتهم. وكانت تلك *إهانة* بالنسبة إليّ لكنّي لم أشعر بأنّني فقدت *كرامتي*. ولكن ماذا كان يعني ذلك إذن؟».

هل فكّرت في أنّك ستفقد كرامتك لو تكلّمت؟ تساءل غريغوريوس.

«لم أقل كلمة واحدة. ولا كلمة واحدة على الإطلاق. طردتُ كلّ الكلمات الممكنة في داخلي و... أقفلت الباب بالمفتاح. أجل، هذا ما حدث. ألقيت بها خارجًا وأقفلت الباب إلى الأبد. إذن كان من المستحيل أن أتكلّم. لم يعد ذلك أمرًا قابلاً *للنقاش*. وأحدث الصمت تأثيرًا غريبًا. لم أعد أعيش التعذيب باعتباره *فعلاً* يقوم به الآخرون، كنت رابضًا هناك، مجرَّد جسد،كومة من اللَّحم تتساقط عليها الآلام مثل وابل من برَد. وكففت عن النظر إلى الجلاَّدين مثل أشخاص فاعلين. ولم يعلموا هم ذلك. لكنّني *قلَّلت من شأنهم*، حقَّرتهم إلى درجة جعلتُ فيها التعذيب حدثًا أعمى. وهذا ما ساعدني في تحويل التعذيب إلى احتضار».

وماذا لو أنّهم حلّوا عقدة لسانه فحقنوه بمخدّر؟

لطالما شغلني هذا السؤال، قال إيسا، وغزا أحلامه وخَلُص في النهاية إلى أنّهم كانوا قادرين على تدميره بهذا الشكل، ولكن ليس في

(1) بالبرتغاليّة في النصّ الأصلي.

وسعهم انتزاع كرامته بتلك الطريقة. لتفقّد كرامتك عليك أن تجازف بها وتخسرها بمحض إرادتك.

«ولهذا تغضب بسبب فراش قذر؟ قال غريغوريوس وهو يغلق النافذة. الجوّ بارد ومع ذلك فنحن لا نشعر بشيء، لا نشعر بشيء على الإطلاق».

مرَّر إيسا يده على عينيه. «لا أريد أنابيب ولا مضخَّات ليس من ورائها إلاّ دوام كلّ ذلك بضعة أسابيع أو أكثر».

لعلّ قوام الكرامة يكمن في الشيء الذي لن نفعله ولن نسمح بحدوثه مهما يكن الثّمن، قال غريغوريوس. ليس من الضروري أن تكون تلك حدودًا معنويّة، أضاف. يمكننا أيضًا أن نفقد كرامتنا بشكلٍ مختلف كأن يُقلِّد الأستاذ ديكًا بدافع الخنوع على مسرح منوّعات، أو يلعق أحدهم الأحذية لينجح في مسيرته المهنيّة، انتهازيّة بلا حدود، وعادةُ الكذب والخوف من النزاع لإنقاذ زواج مّا. شيء من هذا القبيل.

وماذا عن الشحَّاذ؟ تساءل إيسا، هل بإمكان أيّ شخص أن يكون شحّاذا دون أن يفقد كرامته؟

- هذا وارد كأن يتعرّض إلى إكراهات في حياته، أو مصيبة لا مفرّ منها حتّى وإن تحمَّل مسؤوليّة نفسه»، قال غريغوريوس

أن نتحمَّل مسؤوليَّة أنفسنا، هذا أيضًا جزءٌ من الكرامة، وهكذا فبإمكاننا أن نعيش مهزومين أمام الجميع ، كغاليلي ولوثر، ولكن أيضًا كمن يجعل نفسه مذنبًا ويصمد أمام الرغبة في نفي ذلك وهو الشيء الذي يعجز عنه السَّاسة: الصدق وشجاعة الصدق أمام الآخرين وأمام ذواتنا.

فجأة توقَّف غريغوريوس عن الكلام. فنحن لا نعي معنى ما نفكّر فيه إلاّ عندما نعبّر عنه.

«هناك نوع من النفور قال إيسا، نفور خاصّ جدًّا نستشعره عندما يقف أمامنا شخص يكذب على نفسه باستمرار. ربّما هو نفور تثيره المهانة. جلستُ في المدرسة إلى جانب فتى اعتاد مسح يديْه المُتعرِّقتيْن على بنطاله. ومن الغريب أنّه مازال يُخيَّل إليّ حتّى اليوم أنّه لم يكن يمسحهما *حقًّا*. أراد أن يصبح صديقًا لي، لكنّ ذلك مستحيل لا بسبب البنطال بل لأنّ الأمر هكذا في حدِّ ذاته.

«في لحظات الوداع والاعتذارات، تُثار مسألة الكرامة أيضًا، أضاف إيسا. تحدَّث أماديو في هذا الموضوع أحيانًا. لقد شغله الفرق بين اعتذار يحفظ للآخر كرامته واعتذار ينتزعها منه. «يجب ألاّ يكون اعتذارًا يقتضي الخضوع، قال. فليس الأمر حينئذ كما هو الشأن في الكتاب المقدَّس حيث يجب أن تعتبر نفسك مثل خادم للربّ وللمسيح. أجل مثل خادم! هذا ما كُتِب!

«كان يمكن أن يبيضَّ لونه من الغيظ، أضاف إيسا. وغالبًا ماتحدَّث بعد ذلك عن المهانة في علاقتها بالموت كما يبيّنه العهد الجديد. *الموت بكرامة، هذا يعني الموت اعترافا بالموت كنهاية ومقاومة لكلّ رذالة الخلود.*

وفي عيد الفصح، فتح عيادته وعمل أكثر من العادة».

عبر غريغوريوس نهر تاجة من جديد ليغود إلى لشبونة.

ماذالو أدركنا أننا في كلّ أفعالنا وتجاربنا عبارة عن رمال متحرِّكة...

ماذا يعني هذا بالنسبة إلى الكرامة؟

(42)

في صباح يوم الاثنين، استقلَّ غريغوريوس القطار المتّجه نحو كويمبرا، المدينة التي عاش فيها برادو. وقد عذّبه أن يعرف ما إذا كانت دراسة الطبّ خطأ جسيما، باعتبار أنّهُ يحقّق أمنية والده ويخون رغبته هو. في أحد الأيّام، ذهب إلى المغازة الكبرى، أقدم محلٍّ في المدينة، وسرق أشياء لا حاجة له بها، وهو الذي يستطيع أن يجيز لنفسه إهداء صيدليّة كاملة إلى صديقه جورج. تذكَّر غريغوريوس رسالته إلى الوالد واللّصةَ الجميلة، ديامونتينا إزميرالدا إيرميرلندا، المنذورة في خيال برادو للانتقام لامرأة أدانها والده.

قبل أن يذهب، اتصل بماريا يوحنّا ليسألها في أيّ شارع سكن برادو آنذاك. ولمّا سألته بحيْرة عن الدوار الذي ألمّ به أجابها مراوغًا بأنّه لم يعاوده هذا الصباح. ولكنّ شيئًا مّا غريبًا استبدَّ به، فشعر بأنّ عليه تبديدَ سحابة هواء رقيقة وناعمة حتّى يتمكّن من الاتصال بالأشياء. كان بإمكانه تمثُّلُ طبقة الهواء التي عليه اختراقها مثل غلاف واق خالٍ من هذا الخوف، مثل لهب متدفّق يفلت منه العالم الماورائيّ بشكل لا يقاوم. في لشبونة، ذرع رصيف المحطّة ذهابًا وإيابًا وهو يضرب بقدمه على الأرض ليتأكّد من صلابة الحجارة. إنّه لأمرٌ مؤثّر. وعندما جلس في مكانه بالمقصورة الفارغة، بدا أكثر هدوءًا.

جاب برادو هذه المسافة مرّات عديدة بعدما حدَّثته ماريا يوحنّا في الهاتف عن هوس برادو بالقطارات. وشرح له يوحنّا إيسا أيضًا كيف أنقذ برادو *عناصرَ من المقاومة* بدرايته في هذا المجال *ووطنّيته الحديديّة المجنونة*. إنّ وضعيَّة آلات التحويل هي أكثر ما يفتنه، قال إيسا. لكنّ ماريا يوحنّا أوَّلت ذلك بشكل مختلف: السفر عبر القطار كان شبيها بمجرى يسيل فيه نهر الخيال، النهر الذي يسيل بحركة ترسل إلى الذاكرة صُوَرًا انتُزعت من غرف الروح الموصدة. دامت المحادثة معها في ذلك الصباح أكثر من الوقت المتوقَّع. ولم تنضب الحميميّة الغريبة والنّفيسة التي ولدت بينهما أمس عندما قرأ لها الكتاب المقدَّس. وتناهى إلى سمع غريغوريوس صوت أوكلّي من جديد وهو يردِّد بحسرة: *«ماريا، يا إلهي أجل، ماريا!»*.

مرَّت أربعٌ وعشرون ساعة بالضبط على لقائهما الأوّل، وبعدها أصبح يدرك جيّدًا لماذا كتب برادو الأفكارَ التي يعتبرها الأخطر على الإطلاق في مطبخ ماريا وليس في مكان آخر. على أيّ شيء يتوقّف هذا؟ على جرأة هذه المرأة؟ على الانطباع الذي تثيره بقدرتها على ضمان دفاعاتها الداخليَّة طيلة حياتها وبلوغها استقلاليَّة لم يحلم بها برادو؟

سبق أن تحدَّثا في الهاتف كأنّهما ما يزالان في المعهد، هو جالس على مكتب السيّد كورتس وهي على الكرسيّ وقد لفَّت ركبتيها بغطاء.

«مزّقته فكرة السفر على نحو غريب، قالت ماريا يوحنا. وسكنته الرغبة في الرحيل إلى أبعد مكان، وأراد أن يتيه في الفضاءات الّتي يفتحها له خياله. ولكن مَا إن غادر لشبونة حتّى استبدَّ به الحنين إلى الوطن، حنين فظيعٌ إلى الوطن. وكانت رؤيته وهو على تلك الحالة لا تحتمل. «حسنا، لشبونة مدينة جميلة، لكن...»، هذا ما يقوله له الناس.

«لكنّهم لم يفهموا أنّ الأمر لا يتعلّق في الواقع بلشبونة، بل به هو، أماديو. فحنينه إلى الوطن ليس حنينًا إلى عالم مألوف ومحبوب، بل هو أعمق من ذلك بكثير، وقد أثَّر فيه عميقا: إنّها الرغبة في الهروب إلى داخل نفسه، خلف العقبات الصلبة والموجعة، العقبات الّتي تحميه من تيَّارات أعماق روحه الماكرة. لقد علم أنّ أسواره الداخليّة لا تكون أكثر صلابة إلّا وهو في لشبونة، في منزل الأسرة، في المعهد، ولكن قبل كلّ شيء في المنزل الأزرق. *الأزرق هو لونُ سَكينتي*، هذا ما يردّده.

«في الواقع، للأمر علاقة بحمايته من نفسه، لهذا يتحوَّل حنينه إلى الوطن، باستمرار، إلى ذعر تنتج عنه كارثة. عندما يتملَّكه هذا الحنين، يصبح مجبرًا على المغادرة بسرعة فائقة، فيقطع سفره من فترة إلى أخرى ويهرب إلى منزله. وكم شعرت فطيما بالإحباط كلّما حدث ذلك!»

تردَّدت ماريا يوحنا قبل أن تضيف:

«جيّد أنّها لم تفهم ماهيَّة حنينه إلى الوطن وإلاّ ستعتقد أنّها لن تستطيع تخليصه نهائيًّا من خوفه تجاه نفسه: «يبدو أنّني لا أستطيع أن أنتزع منه خوفه من نفسه».

فتح غريغوريوس كتاب دي برادو وأعاد قراءة المقطع الذي بدا أنّه يمنحه مفتاح كلّ ما تبقّى على نحوٍ لم يفعله أيّ مقطع آخر من قبل.

أنا أسكن نفسي كما لو أنّني في قطار متحرِّك:

لم أصعد إليه بإرادتي، لم يكن لديّ خيار آخر، وأجهل وجهتي. في أحد أيام الماضي البعيد، استيقظتُ في مقصورتي وشعرت أنّني أتحرّك. كان ذلك مثيرا، رُحتُ أراقب هزَّة العجلات وأعرِّض

رأسي لسباق الريح، مستمتعًا بالسرعة التي تمُرّ بها الأشياء من أمامي. تمنّيت ألاّ يقطع القطار رحلته أبدًا ولم أرغب إطلاقًا في أن يتوقّف بأيّ مكان وإلى الأبد.

استعدت وعيي في كويمبرا، على مقعد المدرج الصلب: لا أستطيع النزول من القطار ولا قدرة لي على تغيير سبيلي أو وجهتي ولا تحديد السرعة. لا أرى القاطرة ولا أستطيع معرفة من يقودها، ولا معرفة إن كان السائق يعطي انطباعًا بأنّه حقيقيّ، وأجهل مدى إجادته قراءة إشارات المرور أو قدرته على ملاحظة خطإ افتراضيّ في آلات التحويل. لا أستطيع تغيير مقصورتي. أتأمّل أشخاصًا يمرُّون في الرواق وأقول في نفسي: ربّما هم في مقصورات مختلفة تمامًا عن مقصورتي ولكن ليس باستطاعتي الذهاب لتفقّدها. مراقب لم أره ولن أراه أبدًا أغلق باب المقصورة وأقفله. أفتحُ النافذة، وأنحني بكامل جذعي إلى الخارج، وأكتشف أنّ الآخرين يفعلون الشيء نفسه. استدار القطار ببطء دون أن نشعر بذلك، مازالت العربات الأخيرة في النفق والأولى تدخل إليه من جديد. لعلّ القطار يدور في حركة مفرغة، دون توقّف، دون أن يلحظ أحد ذلك، ولا حتّى سائق القاطرة نفسه؟ ليست لديّ أيّ فكرة عن طول القطار، أرى كلّ المسافرين الآخرين يمدّون أعناقهم ليميّزوا شيئًا مّا ويفهموه فأحيّيهم لكنّ ريح المسافة تحمل معها كلماتي.

يتغيّر ضوء المقصورة تلقائيًا. شمس وغيوم، غسق يتبعه غسق آخر، مطر، ثلج وعاصفة، ازدادت لمبة السقف المضطربة توهُّجا، ضوءٌ برّاق، وهاهي اللمبة تتأرجح وتنطفئ لتشتعل من جديد، إنّها لمبة

صغيرة، مشكاة، أنبوب نيون بألوان صارخة، كلّ هذا في آنٍ. لم يكن الموقد حقيقيًّا ويحدث أن يبعث الدفء وسط حرارة متّقدة أو أن يتعطّل عندما يبرد الطقس. إن حرّكتُ مثبّت الحرارة، فسيُحدث ذلك طقطقةً وصريرًا ولكن لا شيء يتغيّر، الغريب في الأمر أنّ معطفي أيضًا لا يشعرني بالدفء بالطريقة نفسها دومًا، وفي الخارج تبدو الأشياء كأنّها تتبع نسقها المعتاد، نسقها العقلانيّ. هل الأمر هو نفسه في مقصورات الآخرين؟ الأمر في مقصورتي يجري، في كلّ الأحوال، بشكلٍ مختلفٍ لم أتوقّعه مطلقًا، بشكلٍ مختلفٍ تمامًا. هل يكون صانع هذا القطار سكران؟ أم مجنونًا؟ أم دجّالًا شيطانيًّا؟

توجد داخل المقصورات نشريّات مصحوبة بمخطّط السير. كم أرغب في رؤية المكان الذي سنتوقّف فيه، لكنّ الصفحات فارغة. المحطّات التي نتوقّف فيها تنقصها لوحاتُ إعلان تحمل اسم المدينة التي وصلنا إليها. وفي الخارج يلقي الناس نظرات فضوليّة على القطار، وقد غشيت العواصف زجاج النوافذ التي أعتقد أنّها تشوّه صورة القطار الداخليّة. فجأة، تغمرني الحاجة إلى تأمّل الأشياء على حقيقتها. لكنّ النافذة لزجة فأصرخ حتّى ينكسر صوتي. أخذ المسافرون الآخرون يضربون الحاجز وقد تملّكهم الغضب الشديد. وفور خروج القطار من المحطّة دخل نفقًا، نفقًا قطع نفسي. وبخروجي منه تساءلت عمّا إذا توقّفنا حقًّا.

ما الذي يمكن أن نفعله خلال السفر؟ ترتيب المقصورة، تثبيت الأشياء حتّى لا تحدث طقطقة. ولكن بعد كلّ هذا، أنا أحلم أن تهبّ ريح المسافة وتخترق زجاج النافذة. كلّ الأشياء التي شقيتُ في

ترتيبها طارت بعيدا. وفضلاً عن ذلك، فأنا أحلم كثيرًا خلال هذه الرحلة اللامتناهية. إنها أحلام قطارات غائبة واتجاهات خاطئة في جدول المواعيد، بمحطّات تذوّب العدم فورَ دخولنا إليها، بوّابون ورؤساء محطّات يبرزون فجأة في الفراغ مرتدين قبّعاتهم الحمراء. وأحيانًا، أنام بفعل تخمة خالصة. إنّ النوم خطير، ومن النادر أن أستيقظ منتعشًا وسعيدًا بالتغيّرات الحاصلة. عموما، كلّ ما أجده في داخلي وفي الخارج حين أستيقظ يبعث الضيق في نفسي.

أحيانًا، أنتفض فزعًا وأقول في نفسي: يمكن للقطار أن يحيد عن سكّته في أيّ لحظة. أجل، في أغلب الأحيان تخيفني هذه الفكرة على الرغم من أنّها تعبرني في لحظات مثيرة ونادرة، مثل برق مبارك.

أستيقظ ومشهد الآخرين يتتالى أمامي بسرعة جنونيّة أحيانًا، إلى درجة أنّني وجدت صعوبة في تتبّع نزواتهم وغموضهم المتدفّق. ثمّ يعودون من جديد ببطء في غاية الإزعاج، عندما يقولون الشيء ذاته ويفعلونه دومًا. إنّني سعيد بوجود نافذة تفصلني عنهم، وهكذا أكتشف رغباتهم ومشاريعَهم دون أن يتمكّنوا من اكتشاف أمري. وأشعر بالسعادة عندما يتحرّك القطار بسرعته الفائقة ويختفون. رغبات الآخرين: ماذا نفعل بها، عندما تخصّنا نحن؟

أسندت جبيني إلى نافذة المقصورة واستجمعت تركيزي كلّه. إنّني أرغب، ولمرّة واحدة، لمرّة واحدة فقط، في أن أمتلك القدرة على إمساك الأشياء التي تمضي في الخارج، أن أمسك حقيقتها فلا تنفلت منّي مرّة أخرى، لكنّني أفشل في ذلك. كلّ شيء يمضي بسرعة كبيرة جدًّا، حتّى عندما توقّف القطار في سهل منبسط. كلّ انطباع يمحو

الانطباعَ الّذي يسبقه. فتنتبه الذاكرة، لأنشغل، وأنا منقطع النّفَس، بتجميع الصورة الهاربة التي حدثت للتوّ كي أتوهّم أنّها مفهومة. لكنّني أصل دومًا متأخّرًا جدًّا، قياسًا بالسرعة التي يسعى بها نور العقل في ملاحقة الأشياء. كلّ شيء يمضي دومًا، دومًا، دون أن أبلغ مبتغاي. لن أتواطأ مع الأشياء أبدًا، ولا حتّى في الليل عندما ينعكس مشهد المقصورة من الداخل على زجاج النافذة.

أنا أحبّ الأنفاق. إنّها ترمز إلى الأمل. ففي لحظة مّا، سيطلع النهار من جديد إذا لم يسدل الليل ستاره حقًّا.

ويحدث أن يزورني أحدهم في مقصورتي. لا أدري كيف يكون ذلك ممكنا على الرغم من أنّ الباب مقفل وثقيل، ولكنّ هذا حدث حقًّا. بالنسبة إلى أغلب الركاب تأتي الزيارة في الوقت الخطإ. إنّهم أناس الزمن الحاضر، وفي بعض الأحيان هم أناس الماضي أيضًا. يأتون ويذهبون وفق رغبتهم، إنّهم لا يخجلون وهم يثيرون غضبي، لكنّني مضطر إلى الحديث معهم. كلّ شيء وقتيّ، لا شيء مُلزِمٌ. كلّ شيء منذورٌ للنسيان. إنّها حقًّا مجّرد أحاديث وسط القطار. يختفي بعض الزائرين دون أن يتركوا أثرا، وآخرون يتركون آثارًا لاصقة ونتنة لا تنفع معها تهوئة المكان. ثمّ تنتابني رغبة في نزع أثاث المقصورة وتغييره بآخر جديد.

الرحلة طويلة وهناك أيّام أتمنّى فيها ألّا تنتهي أبدًا. وتلك أيّام نادرة وثمينة. وهناك أيّام أخرى تشعرني فيها بالسعادة فكرةُ وجود نفق أخير لن يتحرّك فيه القطار إلى الأبد.

كانت نهاية الظهيرة عندما نزل غريغوريوس من القطار. استأجر

غرفة في أحد الفنادق خلف نهر مونديغو، غرفة تشرف على المدينة القديمة الممتدَّة على هضبة ألكاسوفاس. وكان آخر شعاع من الشمس يغرق في ضوء دافئ وذهبيّ منبعث من مباني الجامعة العظيمة التي تطغى على المشهد كلّه. هناك في أعلى المدينة، في أحد الأزقّة الضيّقة والوعرة، سكن برادو وأوكلّي في مبيت الجمهوريّة، وهو إحدى تلك المبيتات الجامعيّة التي تعود إلى العصر الوسيط.

«لم يرغب في السكن بمكان يختلف عن مساكن الآخرين، قالت ماريا يوحنا فيما مضى، على الرغم من أنّ ضوضاء الحجرات المجاورة دفعته أحيانًا إلى اليأس. لم يتعوّد على ذلك. لكن أثقلَ عليه كثيرًا ثراءُ عائلته التي تنحدر منذ أجيال عديدة من أكبر مالكي الأراضي. هناك كلمتان تجعلان الدم يتدفّق إلى وجهه تدفّقًا لا يفعله شيءٌ آخر: مستعمرة *وملاّك*. عند سماعه هاتين الكلمتين يتحوَّل إلى رجل مستعدّ لإطلاق النار.

«عندما زرتُه وجدت أنّه أهمل هيئته عمدا. لماذا لم يرتدِ وشاح الجامعة الأصفر شأنه شأن الطلبة الآخرين؟ سألته.

«تعرفين جيّدًا أنّني لا أحبّ البذلات الرسميّة، حتّى طاقيّة المعهد لا تحتمل بالنسبة إليّ»، قال.

«عندما حان موعد عودتي إلى منزلي لَمحْنا، ونحن في المحطّة، طالبًا يقف على الرصيف مرتديًا وشاح الآداب الأزرق الداكن.

فنظرت إلى أماديو قائلة: «إنّه ليس أيّ *وشاح*، إنّه الوشاح *الأصفر*. وكنت ستقبل عن طيب خاطر، ارتداء الوشاح *الأزرق*».

-ومع ذلك تعرفين أنّني لا أحبّ أن يستشعر أحدُهم ما أفكّر فيه. عودي قريبًا رجاء.

«إنّ له أسلوبه الخاصّ في قول رجاء *por favor*، سأذهب إلى أقصى العالم من أجل سماعها»!

كان من السهل العثور على الشارع الذي سكن فيه برادو. ألقى غريغوريوس نظرة على مدخل مبيت الجمهوريّة ثمّ صعد بضع درجات. ونحن *في كويمبرا، بدا آننا نمتلك العالم بأسره*. هكذا تحدّث أوكلّي في تلك الفترة. في هذا المنزل إذن بيّن برادو وأوكلّي من خلال الكتابة ما يؤسِّس *للإخلاص* بين البشر بقائمة نقَصَها الحبّ. *رغبة، عاطفة، ثقة*. كلّها مشاعر ستُنبذ عاجلاً أم آجلاً. الإخلاص هو الشعور الأبديّ الوحيد. *إرادة، قرار، انحياز إلى الروح*. كلّ هذا حوّل إمكانيَّة اللقاءات وغموض المشاعر إلى ضرورة. *نفحة خلود، لا شيء غير نفحة على الرغم من كلّ شيء*، قال برادو. تراءى لغريغوريوس وجه أوكلّي وهو يردّد ببطء رجلٍ ثمل: *لقد أخطأ، لقد أخطأنا نحن الاثنان*.

كان غريغوريوس، وهو في الجامعة، يفضِّل الذهاب فورًا إلى مكتبة جوانينا وإلى المدرج الكبير، والقاعات التي من أجلها تردّد برادو على هذا المكان. ولكنّ هذا ليس ممكنا إلاّ في ساعات محدّدة، أمّا اليوم فقد تأخّر الوقت.

كانت كنيسة سانتاكروز مفتوحة. تجوَّل فيها غريغوريوس بمفرده وأخذ يتأمَّل الأرغن الباروكيّ ذا الجمال الأخَّاذ. *أريد أن أصغي إلى صوت الأرغن الهامس، إلى هذا الغَمْر من الأصوات السَّماوية. أحتاج إليه في مجابهة سخف الموسيقى العسكريّة الصَّارخ*، قال برادو في خطابه. بحث غريغوريوس بين ذكرياته عن المناسبات التي وُجد خلالها داخل

كنيسة: التعليم الدينيّ للمُثبَّتين[1]، دفن الآباء. *أبانا*... ما أكثر الطقوس المكتومة دون فرح ولا عظمة! ليس لكلّ هذا أيّ علاقة بشعريّة الكتاب المقدّس العالية في اللغتين الإغريقيّة والعبريّة. لا شيء! لا شيء على الإطلاق! ردَّد في نفسه.

انتفض غريغوريوس. ودون قصد ضرب بقبضته على المقعد وأخذ ينظر حوله في ارتباك على الرغم من أنّه لا وجود لمن يفسد عليه وحدته. جثا على ركبتيه وقلَّد برادو في محاكاة ظهر أبيه المحدودب: حاول أن يتخيّل هذا الموقف من الداخل. *يجب تحطيمها، يا له من ذُلّ!* هذا ما قاله برادو فيما مضى عندما مرّ رفقة الأب بارتولومو أمام كراسي الاعتراف.

وعندما استقام غريغوريوس، بدأت الكنيسة تدور بسرعة جنونيّة، فتشبَّث بالمقعد وانتظر أن يذهب الدوار. وبينما كان عدد من الطلبة يسيرون بخطى سريعة إلى جانبه، حاذى ببطء الأروقة ودخل إلى أحد المدارج. جلس في الصفّ الأخير وتذكَّر بداية ذلك الدرس حول يوريديس، إذ لم يأبه وهو يبدي رأيه بصوت عالٍ أمام الأستاذ المحاضر. ثمّ انتقل بأفكاره إلى الحصص التي حضرها وهو طالب. وفي النهاية تخيّل الطالبَ برادو وهو يقف في المدرج ويطرح أسئلة شائكة. أساتذة مرموقون، مغمورون بالجوائز، رائدون في اختصاصهم شعروا بأنّه أحالهم على مقاعد الاختبار، قال الأب بارتولومو سابقا. لكنّ برادو لم يظهر هنا كطالب متعجرف مدّعيا معرفة كلّ شيء أكثر من الجميع. لقد عاش في نفق من الشكوك يعذِّبه خوفه من خذلان نفسه. *استعدت وعيي في كويمبرا، على مقعد المدرج الصلب: لا أستطيع النزول من القطار.*

---

(1) التثبيت أو سر التثبيت طقسٌ من الطقوس المسيحيّة يأتي بعد التعميد.

كان درسًا في القانون لم يفهم منه غريغوريوس كلمة واحدة، فآثر المغادرة. ظلَّ حتّى منتصف الليل في حرم الجامعة وحاول دون توقّف كشفَ ما لازمه من مشاعر محيّرة. لماذا تذكَّر فجأة، وهو هنا في أشهَر جامعة بالبرتغال، أنّه وجب عليه في جميع الأحوال أن يرغب في وجوده بالمدرج ويشارك كلَّ الطلبة علمَه الواسع بالفيلولوجيا؟ هل فوَّت عليه حياة ممكنة، حياة بإمكانه أن يعيشها دون جهد بفضل مهاراته وعلمه؟ لم يحدث قطُّ أن اعتبر هجرَه للدروس في نهاية بضع سداسيّات ونذْرَ وقته بالكامل للقراءة دون كلل خطأً. لماذا تغزوه هذه الكآبة الغريبة الآن على حين غرّة؟ وهل هذه كآبة حقًّا؟

اشمأزَّ من الطعام الذي طلبه في مطعم صغير ورغب في الخروج لاستنشاق هواء الليل المنعش. ما تزال السحابة الهوائيّة الرقيقة التي أحاط بها نفسه هذا الصباح هنا، وقد ازدادت سُمْكًا وأصبحت أكثر قوَّة وصلابة. ثمّ إنّهُ ضرب بقدمه الأرض بقوّة على رصيف محطّة لشبونة، وكان لهذا تأثير كبير أيضًا.

يوحنّا دي لوسادا دي ليديسما، *البحر المظلم*. لفت هذا المجلّد الكبير انتباهه عندما حاذى الرفوف في مكتبة لبيع الكتب القديمة. إنّه الكتاب نفسه الموضوعُ فوق مكتب دي برادو وهو آخر ما قرأه. تناول غريغوريوس الكتاب من فوق الرفّ وتأمَّل الأحرف الكبيرة المنسوخة والنقوش النحاسيّة المرسومة على الجانبين والصور المائيّة التي رسمها بحّارة. وتناهى إلى سمعه صوت أدريانا وهي تقول: *رأس فينستر، في الأعلى، هناك في غاليسيا*. كان ذلك المكان بمثابة فكرة ثابتة، حتّى إنّ حيرة محمومة اعتلت وجهَه وهو يتحدّث عنه.

جلس غريغوريوس في ركن وتصفَّح الكتاب حتّى عثر على كلمات الإدريسيّ عالم الجغرافيا المسلم الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلاديّ. *من سانتياغو ذهبنا إلى فينستر مثلما يسمّيها القرويّون، وهي كلمة تعني نهاية العالم. لا نرى إلاّ السماء والماء، وهم يقولون إنّ البحر هائج إلى درجة أن لا أحد استطاع ركوبَه، لهذا لا يُعرف ما يوجد خلفه. أخبرونا أنّ بعض الأشخاص ممّن دفعهم الفضول إلى اكتشافه اختفوا هم وسفنهم، ولم يتمكّن أحدهم من العودة مطلقا.*

احتاج غريغوريوس إلى بعض الوقت قبل أن تتشكّل الفكرة في ذهنه. *بعد مرور وقت طويل، سمعت أنّها تعمل أستاذةً للتاريخ بإحدى جامعات سالامنكا.* هذا ما قاله يوحنّا إيسا بشأن إستفانيا إسبينوسا. كانت موظّفة في البريد عندما انخرطت في المقاومة. وإثر هروبها مع برادو بقيت في إسبانيا ودرست التاريخ هناك. لم تر أدريانا علاقة بين سفر برادو إلى إسبانيا واهتمامه المتعصِّب فجأة برأس فينستير. وماذا لو وُجدت علاقة بينهما؟ ماذا لو ذهب مع إستيفانيا إسبينوسا إلى رأس فينستير لأنّ هذه المرأة اهتمَّت دومًا بذاك الخوف الصارخ أمام البحر اللامتناهي والهائج، وهو الأمر نفسه الّذي دفعها إلى استئناف دراستها؟ ماذا لو حصل خلال تلك الرحلة في أقاصي العالم ما شوّش برادو حتّى دفعه إلى العودة نحو لشبونة؟

ولكن كلاّ! فذلك مستحيل، بل وجريء جدًّا. ومن العبث افتراض أنّ المرأة كتبت أيضًا كتابًا عن البحر المروّع. طرحُ السؤال على الكُتبيّ ليس إلاّ مضيعة للوقت.

«دعونا نرَ، قال الكُتبيّ. أن يحمل الكتابان العنوان نفسه أمرٌ مستبعدٌ تقريبا، هذا ينتهك الأخلاق الأكاديميّة. لنحاول مع الاسم».

«إستيفانيا إسبينوسا، يقول الحاسوب: ألّفت كتابين كلاهما حول بداية عصر النهضة.

«هذا ليس بعيدًا جدًّا أليس كذلك؟ قال الكُتبيّ، ولكنّنا سنعثر أيضًا على معلومات أكثر دقّة. كُنْ حذرا». وأجرى بحثًا عن كليّة التاريخ بسالامنكا.

كان لإستيفانيا إسبينوسا موقعها الالكترونيّ الخاصّ ونجد على رأس قائمة منشوراتها مقالَين حول رأس فينستير أحدهما باللغة البرتغاليّة والآخر بالإسبانيّة. ضحك الكُتبيّ هازئا:

«لا أحبّ هذه الآلة، ولكن أحيانًا...».

اتّصل بمكتبة متخصّصة تملك أحد هذين الكتابين.

قريبًا سيحين موعد غلق المكتبة، فأسرع غريغوريوس نحوها متأبّطًا كتاب رأس فينستير الضخم. هل رُسِمت على الغلاف صورة المرأة ؟ انتزع الكتاب من يد البائعة تقريبًا وقلَبه :

إستيفانيا إسبينوسا، ولدت عام 1948 في لشبونة. هي الآن أستاذة التاريخ بجامعة سالامنكا متخصّصة في بداية التاريخ المعاصر بإسبانيا وإيطاليا. ومع هذا صورة لها تشرح كلّ شيء.

اقتنى غريغوريوس الكتاب. وكان يتوقّف كلّ مترين، وهو في طريقه نحو الفندق، ليتأمّل الصورة. وتناهى إلى سمعه صوت ماريا يوحنّا وهي تقول: ليست هي الكرة فحسب، الكرة الحمراء الأيرلنديّة بأكسفورد، إنّها أكبر من كلّ الكرات الأيرلنديّة الحمراء مجتمعة :*لا شكّ في شعوره بأنّها فرصته ليصبح كاملا. أقصد كرجل.* وحتّى أحاديث يوحنّا إيسا لا تقلّ عنها صوابا: *أعتقد أنّ إستيفانيا مثّلت بالنسبه إليه*

فرصة للخروج أخيرًا من المحكمة إلى حضن الحياة الرحب والدافئ، فرصته الوحيدة في أن يحيا أخيرًا كيفما يشاء، حسب أهوائه وليذهب الآخرون إلى الجحيم.

كانت إذن تبلغ من العمر أربعة وعشرين عامًا عندما أمسكت بمقود السيّارة من أمام المنزل الأزرق واجتازت الحدود رفقة برادو، الرجل الذي يكبرها بثمانٍ وعشرين سنة، بعيدًا عن أوكلّي، بعيدًا عن الخطر، لتدخل حياة جديدة.

عند عودته إلى الفندق، مرَّ غريغوريوس من أمام المصحّة النفسيّة فتذكّر الاكتئاب العصبيّ الذي تعرَّض له برادو بعد عمليّة السرقة. لقد حدَّثته ماريا يوحنّا بأنّه اهتمّ قبل كلّ شيء بمرضى ذرعوا المكان فُرادى جيئةً وذهابًا وهم أسرى لأنفسهم على نحو أعمى. فعل ذلك وهو في القسم الذي عمل به. ثمّ ركّز اهتمامه ونظرَه لاحقًا على أولئك الأشخاص، وأدهشته جماعة منهم أبدت خوفها من منافسين وهميّين وهي في الشارع وفي الباص وعلى نهر تاجة.

«ما كان لأماديو أن يكون هو، لو لم يخاطبهم ويسمع حكاياتهم. لم يسبق لهذا أن حدث معهم من قبل، وكلّما أخطأ ومدّهم بعنوانه سارعوا في صباح اليوم التالي إلى اقتحام العيادة حتّى يصل الأمر بأدريانا إلى طردهم خارجا».

في الفندق، قرأ غريغوريوس إحدى التأمُّلات النادرة في كتاب دي برادو، تلك التي لم يعرفها بعد.

سمّ الغضب الحارق.

عندما يدفعنا الآخرون إلى الغضب منهم -من تفاهتهم وظلمهم وعجرفتهم- فإنّهم يمارسون بهذا سلطة علينا، وينتشرون في أرواحنا وينهشونها، لأنّ الغضب شبيه بسمّ حارقٍ يبدّد كلّ المشاعر اللذيذة والنبيلة والمتناغمة ويحرمنا النوم. وعندما يستعصي علينا النوم نشعل الضوء ونثور ضدّ الغضب ذاته، الغضب الذي سكن أنفسنا مثل طفيليّ مخرِّب يمتصُّ دمنا ويستنفد قوّتنا. نحن لسنا عاطفيّين فقط بسبب الأضرار التي لحقت بنا، ولكن لأنّ الغضب ينتشر وحده داخلنا أيضًا. فبينما نحن جالسون على حافّة أسرّتنا والألم ينخر أصداغنا، فإنّ قوّته المجزّأة التي نحن ضحاياها تحتفظ بما يبدو عن بعد سببًا له. على مسرحنا الداخليّ المهجور نمثّل، من أجلنا فقط، مسرحيّةً شخوصها من ظلال ونحن غارقون في الضوء الصارخ لغضبنا المكبوت. وظلالٌ هي أيضًا الكلمات التي نقولها لأعداء من ظلال، بحنق بائس استشعرناه في أحشائنا مثل نار باردة. وسترقص الظلال السامّة بتوحّش وتلاحقنا إلى سراديب أحلامنا الأشدّ ظلمة كلّما زاد يأسنا من اكتشاف أنّ ذلك المشهد مجرّد حركة ظلال وليس مواجهة حقيقيّة ستتحقّق فيها إمكانيّة النيل من الآخر وإرساء توازن للألم. (سنردّ عليهم بالمثل، هذا ما نخمّنه بحنق. ونختلق خلال ليالٍ كاملة الكلماتِ التي سيكون لها تأثير قنبلة محرقة على الآخر، إلى حدّ يحنق معه هو في لهب السخط، بينما نشرب نحن قهوتنا في سكينة وقد هدّأ من روعنا فرح ماكرٌ).

ما المعنى الذي يمكن أن يحمله تصريف الغضب بشكل حكيم؟ وبطبيعة الحال نحن لا نريد أن نكون كائنات مسلوبة الروح، تظلّ

لا مبالاة تمامًا بكلّ ما يحصل لها، كائنات ستنحصر آراؤها في أحكام باردة مستهلكة، دون أن يتمكّن أيّ شيء من هزّها لأنّها لن تهتَّم في الحقيقة بشيء. ولهذا نحن لا نستطيع أن نتمنّى بصدقٍ عدمَ خوض تجربة الغضب ونستمرّ، عوضًا عن ذلك، في لا مبالاة من المستحيل تمييزُها من جمود عاطفيّ عقيم. يعلّمنا الغضب أيضًا مَن نحن. هذا هو إذن ما أرغب في معرفته: ما الذي ستسفر عنه فرضيّة تربيتنا وتعليمنا في جوّ من الغضب بشكل يجعلنا قادرين على الاستفادة من علمنا دون أن نرزح تحت وطأة سُمِّه؟

قد نثق، ونحن على فراش الموت، بأنّنا سنُدرج في مخطّطنا الأخير فكرةَ إهدارنا كثيرًا من الجهد والوقت في الشعور بالغضب وفي الانتقام من الآخر على مسرح ظلال خالٍ، وهو غضب نتقبَّله وحدنا عاجزين وندرك وجوده. وهذا الجزء سيكون له طعم السيانيد المرّ. ما الذي بوسعنا فعله لتطوير هذا المخطَّط؟ لماذا لم يحدّثنا لا آباؤنا ولا معلّمونا ولا أحد آخر عن هذا الموضوع؟ لماذا لم يختلقوا كلمات لتوصيف ظاهرة بهذا الحجم من الأهميّة؟ ولماذا لم يعطونا في هذه المغامرة بوصلةً قد تعيننا على تجنّب خسارة أرواحنا في نوبات غضبٍ عبثيّة ومدمّرة للذات؟

ظلّ غريغوريوس مستيقظًا فترةً طويلة، ومن وقت إلى آخر ينهض ويذهب باتجاه النافذة. بدت المدينة العليا والجامعة وبرج الكنيسة في هذه اللحظة، بعد منتصف الليل، قاتمة وجليلة وعلى شيء من الرعب أيضًا. يمكن أن يتخيّل نفسه ماسح أراضٍ ينتظر دون جدوى أن يُسمح له بدخول المجال الغامض.

مُسنِدًا رأسه إلى جبل من الوسائد، قرأ غريغوريوس مرّة أخرى الجُمل التي صارت مرادفة لبرادو وملخّصة لشخصيّته أكثر من غيرها: «أحيانًا أنتفض فزعًا وأقول في نفسي: يمكن *للقطار أن يحيد عن سكّته في أيّ لحظة، أجل في أغلب الأوقات تشعرني هذه الفكرة بالخوف ومع ذلك نادرًا ما تعبرني مثل برق مبارك*».

فجأة تراءى لغريغوريوس ذلك الطبيب الذي حلم بالفكرة الشعريّة كما لو أنّها الجنّة، رآه جالسًا أمام أعمدة جناح كنيسة، وسط دير أصبح ملاذًا صامتًا لأشخاص حادوا عن الطريق المستقيم. ولم يعرف مصدر هذه الصورة. أمّا عن انحرافه هو فقد حصل على هذا النحو، حتّى إنّ الحمم المتأجّجة في روحه المعذّبة اكتسبت قوّة جهنّمية أحرقت ما اعتمل داخله من انقياد وإرهاق وجرفته معها. لقد خيّب كلّ التوقّعات وخرق كلّ المحظورات. وفي هذا تكمن غبطته. في النهاية، وجد الراحة أمام الوالد المقوّس الظهر، أمام القاضي، أمام ديكتاتوريّة لطيفة لأمّ طموحة واعتراف دائم بالجميل من شقيقته.

وأخيرًا وجد الراحة مع نفسه أيضًا. نضب حنينه إلى الوطن، ولم يعد في حاجة إلى لشبونة وإلى اللون الأزرق الذي يوحي بالأمان. وبينما هو مهجور تمامًا في تلاطم أمواجه الداخليّة ومتماهيا معها، انتفى كلّ شيء يمكن أن يقيم أمامه سورًا بما أنّه لم يعد يشكّل عائقًا أمام نفسه. كان بإمكانه أن يسافر إلى الطرف الآخر من العالم. وأخيرًا أصبح باستطاعته الذهاب إلى فلاديفستوك عبر سهوب سيبيريا الثلجيّة، دون أن يلزمه شيء، مع كلّ هزّة للعجلات، بالتفكير في أنّه يبتعد عن لشبونة، عن مدينته الزرقاء.

في تلك اللحظة، غمرت أشعّة الشمس حديقة الدير، واشتدّت إضاءة الأعمدة، لكنّها سرعان ما شحبت تمامًا في النهاية فلم يبق منها سوى عمق مضيء فقدَ فيه غريغوريوس كلّ سند.

قفز مذعورًا وسار مترنّحًا نحو الحمّام، غسل وجهه ثمّ اتصل بدوكسيادس. طلب منه الإغريقيّ وصف الدوار بكلّ تفاصيله، ثمّ صمت لحظة، فشعر غريغوريوس بالخوف يجتاحه.

«يمكن أن تكون لهذا الدوار أسباب كثيرة أغلبها حميدة، قال الإغريقيّ أخيرًا بصوت الطبيب الهادئ. فقط ليس بالإمكان إخضاعها سريعًا للمراقبة، ولكن يجب إجراء فحوصات. يمكن للبرتغاليّين إجراؤها كما هو الحال عندنا. ولكنّ حدسي يقول إنّ عليك العودة إلى بلدك والتحدّث إلى الأطباء بلغتك الأمّ. الخوف لغة غريبة وهذا لا يتلاءم كثيرًا مع حالتك.

وعندما نام غريغوريوس، كان الفجر يلوح خلف الجامعة.

(43)

«يوجد ثلاثة آلاف مجلَّد»، قالت المرشدة وكعبُها العالي يحدث طقطقة على أرضيَّة مكتبة جوانينا الرخاميّة. تخلَّف غريغوريوس ونظر حوله. لم يسبق له أن شاهد شيئًا مماثلا. القاعات مكسوَّة بالذهب والخشب الاستوائيّ وموصولة بأقواس تشبه أقواس النصر، وُضعت فوقها أسلحة الملك يوحنّا الخامس الذي شَيّد مكتبة جوانينا في بداية القرن الثالث عشر. رفوف باروكيّة بشرفات مسنودة إلى أعمدة رفيعة، بورتريه ليوحنّا الخامس وبساط أحمر طويل يزيد طابع المكتبة بذخًا. الأمر شبيه بحكاية خياليّة.

هوميروس، الإلياذة والأوديسة في طبعات عديدة فاخرة تهب النصوص قداسة مخصوصة. ترك غريغوريوس نظره يجول في المكان. وبعد مرور وقت قصير، شعر بذهنه يجوب الرفوف في شرود، لأنّ الأفكار بقيت في الجانب الآخر، قرب هوميروس. لا شكّ أنّ أفكاره هي التي جعلت دقّات قلبه تتسارع، لكنّه بات يجهل كنهها. ذهب إلى ركن ونزع نظارته وأغمض عينيه حتّى أتاه صوت المرشدة الصارخ من القاعة الأخرى. ضغط بكفّ يده على أذنيه واستجمع تركيزه في صمت مختنق. مرَّت الثواني، وهو يشعر بنبضات الدم في عروقه.

أجل، إنّ الشيء الذي حاول تذكُّره دون وعي هو كلمة لم تتكرّر إلاّ مرّة واحدة عند هوميروس. بدا الأمر كما لو أنّ قوّةً مّا خلف ظهره،

مختبئة في كواليس الذكرى، تريد أن تتحقّق من أنّ ذاكرته ما تزال جيّدة. وأخذ نسق نفسه يتسارع والكلمة ترفض الحضور. لقد رفضت الحضور حقًّا.

عبرت المرشدة القاعة رفقة فريقها السياحيّ محدثين ضجّة. تركهم غريغوريوس يمرّون ثمّ اندسَّ في آخر المجموعة، وبعد ذلك سمع باب المدخل يغلق وصوت المفتاح يدور في القفل.

وعلى إيقاع دقّات قلبه المتسارعة، سارع إلى الرَّف وأخرج كتاب الأوديسة. جرح الغلاف القديم المتكلّسُ يدَه بحوافّه الحادّة. وبحركات محمومة، قلّب الصَّفحات ونفخ على الغبار الذي تطاير في أنحاء القاعة. لم تكن الكلمة موجودة حيث اعتقد. لم تكن موجودة هناك !

حاول أن يتنفَّس بهدوء. شعر بدوار يأتي ويذهب كما لو أن خطًّا من الغيوم يعبره. رتَّب في ذهنه كامل الملحمة على نحو منطقيّ. لكنّ نتيجة هذا التمرين هي أنّ اليقين المزعوم الذي استهلَّ به بحثه ضعُف هو أيضًا. بدأت الأرض في الدوران، ولم يكن ذلك بسبب الدوار هذه المرّة. هل أخطأ على نحو أخرق وهل إنّ هذه الكلمة موجودة حقًّا في الإلياذة؟ سحب الإلياذة من الرفّ وتصفّحها بذهن خالٍ تماما. أصبحت حركات يده التي تقلّب الصفحات شاردةً ولا شعوريّة. ومع كلّ لحظة كان هدف بحثه يسقط في النسيان شيئًا فشيئا. شعر غريغوريوس أنّ السحابة الهوائيّة تلفُّه، حاول أن يضرب الأرض بقدمه، جَذَفَ بذراعيه، فوقع الكتاب من جديد، وجثا على ركبتيه وانزلق على الأرض بحركة لطيفة وواهنة.

عندما استعاد وعيه، بحث بصعوبة عن نظارته التي كانت على بعد ذراع منه. نظر إلى ساعته معتقدًا أنّ ما مرَّ على هذا الوضع لا يمكن أن

يتجاوز ربع ساعة. جلس وأسند ظهره إلى الحائط؛ مرَّت دقائق لم يفعل خلالها غير التنفّس، وغمره شعور بالسعادة لأنّه لم يصب بأذى ولأنّ النظّارات لم يحصل لها أيّ ضرر.

بعد ذلك، اتّقد في داخله ذعر مفاجئ. هل هذا النسيان بداية لشيء مّا؟ هل هي أُولى جزر النسيان وأصغرها بدأت تتشكّل؟ هل كان لها أن تكبر وتضاف إليها جزر أخرى؟ «*نحن أنقاض النسيان*: هذا ما كتبه برادو في إحدى تأمّلاته. ماذا لو أنّ جُرفًا صخريًّا انهار فوقه وحمل معه الكلمات الأثيرة ؟ أمسك رأسه بين يديه الضخمتين وضغط عليه كما لو أنّه يستطيع، بهذه الطريقة، أن يمنع اختفاء كلمات أخرى. تفقّد المكان من حوله وسمّى كلّ شيء باسمه، بدءا باللغة المحلّية، فالألمانيّة الفصيحة، فالفرنسيّة ثمّ الإنجليزيّة وختم بالبرتغاليّة. لم ينس اسما واحدا، وشيئا فشيئا استعاد هدوءه.

عندما فُتح الباب ليُسمح للفريق الثاني بالدخول، اختلط بالسيّاح لحظةً واختفى بعد ذلك عبر الباب. سماء زرقاء داكنة غشيت كويمبرا. على رصيف أحد المقاهي، شرب جرعات عديدة من منقوع البابونج ببطء. وبعد أن استراحت معدته أمكنه تناول بعض الطعام.

كان الطلبة مستلقين تحت أشعّة شمس مارس الدافئة. رجل وامرأة يحتضن أحدهما الآخر، انفجرا ضاحكين، ألقيا سيجارتيهما ووقفا بحركات انسيابيّة ورشيقة ثمّ بدآ يرقصان خفيفين وليّنين كأنّهما يحلّقان. شعر غريغوريوس بسحر الذكرى فاستسلم له. وفجأة تذكّر ذلك المشهد الّذي نسيه منذ عشرات السنين.

«ممتاز! ولكنّ فيها شيئًا من الارتباك»، قال أستاذ اللاتينيّة عندما ترجم

غريغوريوس في مدرج الجامعة مقطعًا من *«التحوَّلات»* لأوفيد. حدث ذلك في ظهيرة أحد أيّام شهر ديسمبر، نُدفٌ من الثلج تتساقط في الخارج، وفي الداخل فتيات يطلقن ضحكات استهزاء تحت الضوء الكهربائيّ. «يجب أن نواصل الرقص لفترة أطول»، قال رجل يرتدي ربطة عنق الفراشة ويضع منديلاً أحمر على سترته. شعر غريغوريوس في تلك اللحظة بثقل جسمه على المقعد الذي أحدث صريرًا عندما تحرّك. بعد ذلك، وبينما كان الآخرون يترجمون أيضًا، اعتلته دهشة مكتومة، وتواصلت وهو يسير تحت الأروقة المزركشة استعدادًا للاحتفال برأس السنة.

بعد انتهاء العطلة، هجر تلك الحصّة إلى الأبد وتجنَّب الرجل صاحب المنديل الأحمر وتهرَّب من الأساتذة الآخرين. وابتداء من ذلك اليوم اكتفى بالدراسة في المنزل.

في تلك اللحظة، سدَّد ثمن المشروب، ثمّ عبر في طريقه إلى الفندق نهرَ مونديغو الذي كان يسمَّى *«نهر الشعراء»*.

- *«هل تعتقدين أنني رجل مملّ؟ كيف؟ ولكن يا موندوس، لا يمكنك أن تطرح عليّ سؤالاً كهذا!»* لماذا لا تزال كلّ هذه الأشياء تؤلمه إلى الآن وإلى هذا الحدّ؟ لماذا لم ينجح في *التخلّص منها* خلال عشرين سنة أو ثلاثين؟

عندما استيقظ غريغوريوس في الفندق بعد مرور ساعتين، كانت الشمس تميل إلى المغيب. رأى في منامه ناتالي روبان وهي تجوب أروقة جامعة بيرن، وتدقُّ بكعبها العالي الأرضيَّة الرخاميَّة. رأى نفسه واقفًا في مدرج خالٍ وهو يلقي عليها محاضرة حول الكلمات الّتي لم تظهر إلاّ مرة واحدة في الأدب الإغريقيّ. حاول كتابة هذه الكلمات، لكنّ اللّوح

الأسود كان أملس جدًّا إلى درجة أنّ الطباشير أخذ ينزلق عليه، وعندما أراد نطقها تلاشت من ذاكرته. طاردته إستيفانيا إسبينوسا هي أيضًا في نومه المضطرب، شبح امرأة بعينين برّاقتين وبشرة زيتونيّة اللون. بدت في أوّل الأمر خرساء، ثمّ أستاذةً تقدّم تحت قبّة ضخمة مكسوَّة بالذهب دروسًا في مواضيع لم تكن موجودة. وفجأة، قاطعه صوت دوكسيادس قائلا: عد إلى منزلك، سنفحصك في ساحة بوبنبيرغ».

جلس غريغوريوس على حافة السرير عاجزًا عن تذكّر الكلمة الهوميريّة، يعذِّبه في الآن نفسه شكُّه في المقطع الذي سيعثر عليها فيه. لم يكن لبحثه في *الإلياذة* أيّ معنى. فالكلمة موجودة في *الأوديسة*. الكلمة *هناك*. هو يعرف ذلك. ولكن أين تحديدًا؟

لن يغادر القطار الموالي المتَّجه نحو لشبونة إلاّ في صباح الغد. هذا ما أكّده له موظّف الاستقبال. أخذ الكتاب الضخم عن بحر الظلمات وواصل قراءة ما كتبه الإدريسيّ، عالم الجغرافيا المسلم: «*لا أحد يعلم -كما يُقال- ما يوجد في هذا البحر، وليس بالإمكان أيضًا اكتشافه أبدًا، إذ توجد عوائق عديدة تحول دون الإبحار فيه: الأعماق المظلمة، الأمواج العالية، العواصف المتواترة، الوحوش العديدة التي تسكنه والرياح القويّة*». ودّ من كلّ قلبه لو يحظى بنسخة من مقالتَيْ إستيفانيا إسبينوسا حول رأس فينيستر، لكنّه فشل في إقناع موظّف المكتبة لأنّ الكلمات خانته.

ظلَّ بعد ذلك جالسًا للحظة، متذكّرًا ما قاله له دوكسيادس: يجب إجراء فحوصات. وتناهى إلى سمعه أيضًا صوت ماريا يوحنا: *يجب ألاّ تستهين بهذا الأمر*.

استحمّ، حزم حقيبته وطلب من موظّفة الاستقبال التي فوجئت برحيله أن تتّصل بسيّارة أجرة. كانت شركة كراء السيّارات بالمحطّة ما تزال مفتوحة. ولكن عليك أن تسدّد أجرة هذا اليوم أيضًا، قال له الرجل. وافق غريغوريوس ووقَّع عقدًا ليوميْن آخريْن ثمّ اتجه نحو المستودع.

أجرى فيما مضى امتحان رخصة السياقة وهو طالب، بالمال الذي جناه من الدروس الخصوصيّة. يعود هذا إلى ثلاث وأربعين سنة خَلَتْ. منذ ذلك الوقت، لم يسبق له مطلقًا أن قاد سيّارة. ومع كلّ أوراق سفره وضع تلك الوثيقة التي لم يستفد منها، وثيقة اصفرَّ لونها وعليها صورته وهو شابّ ومعها أمر مطبوع بأحرف كبيرة يُلزم بارتداء النظارات وعدم قيادة السيّارة ليلاً. في شركة كراء السيّارت، قطَّب الرجل حاجبيه ونقّل نظره مرّات عديدة بين الصورة والوجه الماثل أمامه لكنّه لم يقل شيئا.

أمام مقود السيّارة الكبيرة، انتظر غريغوريوس أن يهدأ نفَسُه، وتفقّد كلّ الأزرار والرافعات ببطء. وبيدين باردتين شغّل السيّارة، وأطلق حركة السير إلى الخلف، أطلق الواصل وثبَّت المحرّك. ثمّ أغمض عينيه وقد أفزعته هزّةُ السيّارة العنيفةِ وانتظر أن تهدأ أنفاسُه من جديد. في المحاولة الثانية قفزت السيارة، لكنّها واصلت السير، وخرج غريغوريوس من المستودع بحركة خلفيَّة. جاب بتؤدة المنحدرَ الذي يوصل إلى المخرج. وأمام الإشارة الحمراء، في شوارع المدينة، توقّفت السيّارة فجأة من جديد، ثمّ سار كلّ شيء على ما يرام.

قطع الطريق السيّارة خلال ساعتين حتّى وصل إلى فيانا دي كاستيلو. كان هادئا أمام المقود ويسير على الجانب الأيمن. بدأ في الاستمتاع بالسير ونجح في كبت مشكلة الكلمة الهوميريّة وطردها بعيدًا عن مخيّلته حتّى بدا

الأمر شبيهًا بالنسيان. تملّكه شعور طافح بالفرح فزاد في سرعة السيّارة وأمسك بالمقود وذراعاه ممدودتان.

على الطريق المعاكسة، لاح ضوء ساطع لسيّارة قادمة باتجاهه، فأخذ كلّ شيء حوله في الدوران. قطع غريغوريوس الغاز واتجه نحو اليمين على الجهة المخصَّصة للوقوف في حالة الطوارئ، انتزع غطاء العشب وتمكّن من التوقّف وهو يبتعد سينتيمترًا بعد آخر عن حاجز الأمان. أخذت أكواز من الضوء تتجاوزه في سرعة جنونيّة. بعد ذلك خرج في موقف السيّارات الموالي، وتنفَّس بحذر هواء اللّيل المنعش. *يجب أن تعود إلى بلدك وتتحدّث إلى الأطبّاء بلغتك الأمّ.*

بعد مرور ساعة، قطع فالنسيا دي مينهو ووصل إلى الحدود. أشار إليه بالمرور رجلان من الحرس الوطنيّ يحملان مسدَّسين رشّاشين. وانطلاقًا من توي اتخذ الطريق السيّارة عبر ڤيغو، بونتيفرديرا، وواصل طريقه إلى الشمال باتجاه سانتياغو. وقبل منتصف الليل بقليل، توقّف وتفحَّص الخريطة وهو يتناول العشاء. لم يكن هناك أيّ حلّ آخر: إذا لم يرغب في الالتفاف عبر شبه جزيرة سانتا أوجينيا، فعليه أن يتّخذ طريق الجبل في بادرون باتجاه نويا. فما تبقّى من الطريق واضح: مواصلة السير على طول الساحل إلى رأس فينيستر. لم يسبق أن قاد السيّارة في طريق جبليَّة. وشعر بصور مرتفعات سويسرا تغمره. هناك كان على سائق سيّارة البريد أن يستمرّ في إدارة المقود بجنون في أحد الاتجاهات ليعيده فورًا إلى الاتجاه الآخر.

كان الناس من حوله يتكلّمون لغة غاليسيا، وهي لغة لا يفهم منها كلمة واحدة. شعر بالتعب ونسي تلك الكلمة. هو، موندوس،

نسي كلمة لهوميروس. تحت الطاولة، ضغط على الأرض بقدميه ليزيل السحابة الهوائيّة. لقد شعر بالخوف. وتذكّر كلمات دوكسيادس: *الخوف لغة غريبة وهذا لا يتلاءم كثيرًا مع حالتك*.

كان الأمر أسهل ممّا يتوقّع. في منعطفات بسُمك دبُّوس الشعر، مع انعدام الرؤية، أخذ يسير ببطء شديد. لكنّ الطريق بدت أثناء الليل أشدّ وضوحًا ممّا لو سار في وضح النهار، بفضل مصابيح السيّارات القادمة من الاتجاه المعاكس. أخذ عدد السيّارات يتناقص شيئًا فشيئا. وعندما ظنّ أنّ الدوار عاوده، لم يعد يقدر، بكلّ بساطة، على التوقّف في الطريق الضيّقة. واستبدَّ به الذعر. ولكنّ حماسًا شديدًا تملَّكه بعد ذلك، عندما أرشدته لوحة إعلانات إلى أنّه اقترب من نويا. وقطع المنعطفات. «*مملّ بعض الشيء؟ ولكن يا موندوس، لا يمكنك أن تسألني سؤالاً كهذا* . لماذا لم تكذب عليه فلورانس، بكلّ بساطة؟ كأن تقول مثلا: *أنت رجل مملّ؟ ولكن قطعًا لا*».

هل كان هذا ممكنا في الواقع: أن نتخلّص من شيء جارح هكذا ببساطة؟ «*نحن ممتدّون إلى حدّ بعيد في الماضي. إنّه تأثير مشاعرنا لا سيّما تلك العميقة جدًّا، تلك التي تحدِّد من نحن وماذا يعني أن نكون نحن. فهذه المشاعر لا تعرفُ الزمن ولن تعرفه*. هذا ما كتبه برادو.

من نويا حتّى رأس فينيستر هناك مسافة خمسين كيلومترًا من الطريق الجيِّدة. من الصعب رؤية البحر، ولكن بالإمكان استشعار وجوده. قريبًا ستبلغ الساعة الرابعةَ صباحا. أخذ غريغوريوس يتوقّف من حين إلى آخر. ليس دوارًا ذاك الذي ألمَّ به، هكذا أقنع نفسه في كلّ مرّة. الأمر ببساطة هو أنّ العقل بدا، من فرط التعب، كأنّه يطفو على الجمجمة. بعد

عدد من محطّات بنزين مطفأة أضواؤُها، وجد أخيرًا مخرجا. كيف يبدو رأس فينيستر ؟ سأل أخيرًا العاملَ الناعس بالمحطّة. «*بعد نهاية العالم*»، قال الرجل ضاحكا.

عندما وصل غريغوريوس إلى الرأس، كان الفجر يلوح عبر سماء مغشَّاة بالغيوم. شرب قهوة في حانة هو أوّل زبائنها، ووقف بكامل وعيه وصلابته على الأرضيّة الحجريّة. ستعود الكلمة في اللحظة التي يتوقّع أنّها مستبعدة، هكذا تعمل الذاكرة، إنّه أمر بديهيّ. وبدا سعيدًا لأنّه قطع هذه المسافة المجنونة ليصل الآن هنا. تناول السيجارة الّتي أهداه إيّاها صاحب المحلّ. وبعد النفس الثاني، انتابه دوار خفيف. «*دوار*» *vertigo*، قال لصاحب المحلّ. أنا خبير في الدوار. توجد أنواع عديدة منه أعرفها كلّها. ولم يفهم صاحب المحلّ مغزى حديثه وأخذ يلمّع النضد.

قطع غريغوريوس ما تبقّى من كيلومترات حتّى رأس فينيستر والنافذة مفتوحة. كان هواء البحر المالح رائعا، وأخذ يقود ببطء شديد كشخص يستمتع بتذوّق فرح متوقَّع. الطريق تنتهي في ميناء مخصّص لسفن الصيد. وقد عاد الصيّادون منذ وقت قصير واجتمعوا في حلقة يدخّنون. لم يعرف لاحقا، كيف حصل هذا ولكنّه وجد نفسه فجأة وسط رجال يدخّنون سجائرهم. إنّه مشهد شبيه بمأدبة يظلّ فيها المدعوّون واقفين في الهواء الطلق.

هل هم راضون عن حياتهم؟ تساءل غريغوريوس. موندوس، أستاذ من بيرن متخصّص في اللغات القديمة، يسأل صيادين من غاليسيا، في أقصى العالم، كيف يرَون حياتهم؟ كان غريغوريوس سعيدا، سعادته فاقت كلّ الحدود، وتماهى فرح الغموض مع التعب، مع النشوة، إنّه إحساس مجهول بهدم الحواجز.

لم يفهم الصيَّادون السؤال ممَّا اضطرَّ غريغوريوس إلى تكراره مرَّتين بالاسبانيّة «سعيد»؟ «contento؟» صاح أحدهم أخيرا. «نحن لا نعرف شيئًا غير ذلك!» وضحكوا واستمرَّوا في الضحك حتّى تحوَّل ضحكهم إلى قهقهة صاخبة جاراهم فيها غريغوريوس بعنف جعل عينيه تغرورقان بالدموع.

وضع يده على كتف أحد الرجال وجعله يستدير نحو البحر.

«إلى الأمام دومًا، أكثر فأكثر»[1] صاح في زوبعة الريح.

«أمريكا. صاح الرجل. *أمريكا»*[2].

وأخرج من جيب سترته الداخليّ صورة فتاة ترتدي الجينز، وحذاء وقبّعة لرعاة البقر.

«إنّها ابنتي»[3]، قال مشيرًا بيده في اتجاه البحر.

انتزع الآخرون الصورة من يده.

«كم هي جميلة»![4]، هتفوا جميعًا بصوتٍ واحد.

أخذ غريغوريوس يضحك، ويحرِّك يديه ويضحك، والآخرون يضربون على كتفه، يمنة ويسرة، ضرباتٍ قويّة ترنَّح على إثرها. وبدأ الصيّادون يدورون، والبحر يدور. تحوَّل صفير الريح إلى صفير في الآذان يتعاظم ويتعاظم ليختفي فجأة في صمتٍ التهَمَ كلّ شيء. وعندما استعاد وعيه وجد نفسه مستلقيا على مقعد في أحد المراكب، ووجوه

(1) بالإسبانيّة في النصّ الأصلي.
(2) بالإسبانيّة في النصّ الأصلي.
(3) بالإسبانيّة في النصّ الأصلي.
(4) بالإسبانيّة في النصّ الأصلي.

مذعورة منحنية عليه. وقف وهو يشعر بألم في رأسه. ورفض قارورة شراب. إنّه يشعر بتحسّن، قال. ثمّ أضاف: *«نهاية العالم!»* فضحكوا وقد غمرهم شعور بالارتياح. صافح أياديَ متصلّبة ومتشقّقة وتسلّق المركب ببطء ثمّ جلس أمام مقود السيّارة. شعر بالسعادة لأنّ المحرِّك اشتغل على الفور. وتبعه الصيّادون بأنظارهم وأيديهم محشوَّة في جيوب مشمَّعاتهم.

فور وصوله إلى القرية، استأجر غرفة في فندق ونام حتّى الظهر. في الأثناء، انقشعت الغيوم وأصبح الجوّ أكثر دفئًا. ومع ذلك، ارتعد من البرد وهو يقود السيّارة باتجاه رأس فينستر. وبحلول الغروب، جلس على صخرة وتأمّل الضَّوء وهو يضعُف شيئًا فشيئا في الغرب لينطفئ نهائيّا. بحر *الظلمات*! الأمواج السوداء الّتي تتحطّم محدِثةً فرقعة، والزبد الفوسفوريّ الّذي يجتاح الشاطئ محدِثًا ضجيجًا مرعبًا. ورغم ذلك، رفضت الكلمة الحضور. *«إنها ترفض الحضور»*.

هل تلك الكلمة موجودة أصلاً؟ في النهاية أليس العقل هو الذي اعتراه صدع صغير، لا الذاكرة؟ كيف يمكن لرجل أن يفقد عقله تقريبًا لمجرّد نسيان كلمة، كلمة واحدة لا تعترضنا إلاّ مرّة واحدة؟ كان يمكن أن يتألّم لو أنّه وجد نفسه في المدرج قبل إجراء امتحان جامعيّ. ولكن أمام البحر الهائج؟ المياه السوداء التي تنصهر هناك أمامه مع سماء الليل دون انقطاع، أَلَيس عليها ببساطة أن تمحو بعض الهموم كما لو أنّها شيء تافه جدًّا، شيء سخيف لن نعرف القلق بشأنه دون فقدان كلّ حسّ نسبيّ؟

استبدَّ به الحنين إلى الوطن فأغمض عينيه: في حدود الساعة الثامنة إلاّ الربع وصل إلى ساحة الاتحاد وسار على جسر كرشنفلد. عبر أروقة سبيتالقاس، ماركتغاس وكرامغاس، سار نحو حفرة الدببة. في

الكاتدرائيّة، أنصت إلى موشّحة عيد الميلاد. ثمّ نزل في محطّة بيرن ودخل شقّته. نزع تمرص درس اللغة البرتغاليّة من مشغّل الاسطوانات ووضعه في خزانه المكانس. استلقى على السرير وهو سعيد بمعرفة أنّ كلّ شيء عاد إلى ما كان عليه.

إنّ قدوم برادو وإستيفانيا إلى هنا شيء لا يصدّق. إنّه أكثر من وهم. لا شيء يدلّ عليه، لا شيء إطلاقًا.

عاد إلى سيّارته وهو يرتجف بسبب سترته المبلّلة. في العتمة، بدت السيّارة ضخمة مثل وحش لا يقدر أحد على إعادته إلى كويمبرا، وكان هو أقلّ قدرة على ذلك من أيّ شخص آخر.

حاول لاحقًا أن يأكل شيئًا أمام الفندق العائليّ، لكن استحال ذلك. في الاستقبال طلب ورقة، وما إن التحق بغرفته حتّى جلس إلى الطاولة الصغيرة وترجم إلى اللاتينيّة والإغريقيّة والعبريّة ما كتبه عالم الجغرافيا المسلم. وتمنّى أن يتذكّر الكلمة الضائعة وهو يخطّ الأحرف الإغريقيّة ولكن لا شيء حدث، ظلّت غرفة الذكرى خرساء وشاغرة.

كلاّ، لا قدرة على القول إنّ امتداد البحر الهامس يجعل تذكّر الكلمات ونسيانها أمرًا تافهًا، لا تذكّر الكلمات ولا نسيانها. الأمور لا تسير على هذا النحو. قطعًا، على الإطلاق! إنّها عبارة واحدة فقط من بين كلّ العبارات، كلمة واحدة من بين جميع الكلمات: إنّها كلمات مقدّسة، مقدّسة قطْعًا بالنسبة إلى المساحات المائيّة العمياء والخرساء ولن تختفي هالة القداسة تلك حتّى لو أصبح الكون بأسره، بين ليلة وضحاها، عالمًا من فيضانات متعدّدة تقطر فيه السماوات كلّها. لو لم توجد في الكون إلاّ كلمة واحدة، كلمة واحدة فقط، فإنّها لن تكون حينئذ مجرّدَ *كلمة* ولكن،

لو كانت مع ذلك كلمة فإنّها ستبدو أكثر قوّة وضياء من كلّ الأمواج خلف الآفاق.

استعاد غريغوريوس هدوءه شيئًا فشيئا. وقبل أن يخلد إلى النوم ألقى نظرة عبر النافذة إلى سيّارته المركونة في الأسفل. غدا، عندما يطلع النهار، سيكون كلّ شيء على ما يرام.

وفعلاً سار كلّ شيء على ما يرام. وبعد ليلة مضطربة قضاها ممزّقًا بين القلق والإرهاق، قطع المسافة عبر مراحل صغيرة. وخلال فترات الراحة، عادت رؤى الليل إلى مطاردته بشكل منتظم. رأى نفسه في أصفهان، على شاطئ البحر. وفي أفق متلألئ ظهرت المدينة بمآذنها وقبابها المكسوّة باللازورد اللامع والذهب البرّاق. وعندما تأمّل البحر ووجده أسود اللون يندفع مزمجرًا نحو المدينة الخالية شعُر بالذعر أيضًا. ولفحت وجهَه ريحٌ حارقة وجافّة بهواء رطب وثقيل. ولأوّل مرّة زاره برادو في حلمه. لم يفعل صائغ الكلمات شيئا، اكتفى بالحضور في حلبة الحلم الواسعة نبيلاً وصامتًا، أمّا غريغوريوس فقد بحث عن نبرة صوته، وهو يلصق أذنه بمشغّل الاسطوانات في منزل أدريانا.

على مقربة من فيانا دي كاستيلو، وقبل وصوله إلى الطريق السيّارة ببورتو وكويمبرا بقليل، شعر غريغوريوس بأنّ الكلمة الضائعة على طرف لسانه. أغمض عينيه في حركة لا واعية خلف مقود سيّارته، وحاول بكلّ ما أوتي من قوّة منع الكلمة من الارتداد إلى النسيان. منبّه سيّارة مجنون جعله يقفز في مكانه، واستطاع في آخر لحظة أن ينحرف ويبعد السيّارة فسارت في الاتجاه المعاكس، مانعًا بذلك اصطدامًا أماميًا. في تقاطع الطرق الموالي، توقّف وانتظر أن يكفّ نبضُ الدم المؤلم في

دماغه. ثمّ قاد السيّارة سائرًا خلف شاحنة بطيئة حتّى وصل إلى بورطو. لم تُسرّ موظّفة وكالة كراء السيّارات لأنّه أراد أن يعيد السيّارة هنا بدلاً من إعادتها في كويمبرا. ولكن بعد أن حدَّقت طويلاً في وجه غريغوريوس أعلنت موافقتها أخيرًا.

عندما انطلق القطار من جديد باتجاه كويمبرا ولشبونة، أسلم غريغوريوس رأسه إلى مسند الكرسيّ وهو يشعر بالإرهاق، مفكّرًا في لحظات الوداع التي تنتظره في لشبونة. *هذا هو معنى كلمة وداع الحقيقيّ والمتين: قبل أن يفترق شخصان فإنّهما يتّفقان على الطريقة التي تعارفا بها وتعايشا معها، وعلى الأشياء التي نجحا فيها وفشلا معًا*. هذا ما كتبه برادو في رسالته إلى والدته. *وداعا، هي أيضًا كلمة نقولها لأنفسنا وهي تعني أن نتقبَّل ذواتنا على مرأى من الآخر*. سار القطار بأقصى سرعته. وبدأ الرعب الحاصل عن الحادث الذي تجنَّبه في آخر لحظة يضعُفُ. وحتّى وصوله إلى لشبونة، رفض التفكير في كلّ شيء.

وما إن بدأ يشعر بالاسترخاء حتّى تذكّر فجأة الكلمة الضائعة، وقد ساعده في ذلك صوت العجلات الرتيب. إنّها لِيسْتْرُون Λίστρον وتعني مجرفة تستعمل لتقشير أرضيَّة القاعة. إذّاك فقط تذكّر أين توجد الكلمة: إنّها في *الأوديسة*، في نهاية النشيد الثاني والعشرين.

فُتح باب المقصورة ودخل شابّ وجلس. ثمّ فتح جريدة شعبيّة كتبت بحروف ضخمة. نهض غريغوريوس وتناول حقيبته ثمّ ذهب إلى آخر القطار حيث وجد مقصورة شاغرة وأخذ يردّد وحيدًا *لِيسْتْرُونْ، لِيسْتْرُونْ*.

عندما توقّف القطار في محطّة كويمبرا، تذكّر هضبة الجامعة وخبير

قيس الأراضي الذي رآه في مخيّلته يعبر الجسر حاملاً حقيبةً طبيّةً صغيرة صُمِّمت على الطراز القديم. إنّه رجل نحيل ومقوَّس الظهر، يرتدي ميدعة رماديّة ويتساءل كيف يمكنه إقناع الناس فوق هضبة القصر بتمكينه من الدخول.

في المساء عندما عاد سلفييرا من شركته ذهب غريغوريوس للقائه في البهو. توقّف سلفييرا فورًا وقطَّب أجفانه:

«أنت عائد إلى بلدك».

فهزّ غريغوريوس رأسه بالإيجاب.

«هيّا حدِّثني»، أضاف سلفييرا.

(44)

لو أتحت لي الوقت الكافي لجعلتُ منك برتغاليّا، قالت سيسيليا. تذكَّرْ هذا عندما تعود من جديد إلى بلدك الأبحّ الأجشّ حيث يقولون «*لذيذ*» دون نطق الحروف المتحرّكة».

سحبت منديلها الرقيق من فوق شفتيها فانتفخ عندما تكلَّمت وضحكت وهي تراقب نظرته.

«أنت لا تحبّ ما أصنعه بمنديلي أليس كذلك؟».

ثمّ نفخت بقوّة.

مدَّت يدها نحوه لتصافحه قائلة: «إنّ ذاكرتك مدهشة! لن أنساك، فقط من أجل هذا الأمر».

ظلَّ غريغوريوس ممسكًا بيدها ما أمكنه من الوقت. بدا متردّدًا. وفي النهاية، جازف بالقول:

«هل هناك سبب لـ...».

- تريد القول ما هو سبب ارتدائي للّون الأخضر باستمرار؟ أجل هناك سبب: سأخبرك به عندما تعود».

عندما تعود! قالت *عندما* وليس *هل*؟ وفي طريقه لزيارة فيكتور كونتينهو تخيّل ما سيحدث لو ذهب صباح الاثنين إلى مدرسة اللغة. أيّ سحنة سيتّخذها وجه سيسيليا ؟ كيف ستتحرَّك شفتاها عندما تخبره بالسرّ الكامن وراء لونها الأخضر الأبديّ.

«من هناك»؟ صاح كونتينهو بعد مرور ساعة.

صرّت فتّاحة الباب، ونزل الرجل العجوز الدرج ماسكًا بالغليون بين أسنانه. ثمّ توقّف لحظة وهو يحاول التذكّر.

«آه، هذا أنت؟» قال أخيرًا باللغة الفرنسيّة. اليوم أيضًا تفوح من هذا المكان رائحة الأكل الفاسد والغبار وتبغ الغليون، واليوم أيضًا يرتدي كونتينهو قميصًا باهتًا لونُه مبهم.

برادو، *الكاهن بلا ربّ*، هل عثر غريغوريوس على هذا الرجل أخيرا؟

«لم أعرف مطلقًا لمِ أعطيك ذلك، ولكن هذا ما حصل الآن». ذاك ما قاله له الرجل العجوز فيما مضى وهو يهديه العهد الجديد الذي يحمله غريغوريوس معه ويضعه في جيبه. لم يأتِ حتّى على ذكره. كانت الكلمات المناسبة ترفض الحضور. *الحميميّة، إنّها زائلة ومخادعة مثل سراب*. هذا ما كتبه برادو.

أخبر غريغوريوس الرجلَ العجوز بأنّه على عجلة من أمره، ثمّ بادر إلى مصافحته.

شيء آخر بعد، صاح كونتينهو عبر الساحة. هل ستتّصل بالرقم عندما تعود مرّة أخرى إلى هنا؟ الرقم المدوَّن على جبينك؟

فردَّ عليه غريغوريوس بحركة غامضة وودَّعه بإشارة من يده.

ذهب إلى البايكسا، المدينة السفلى، وتصفَّح شبكة الطرقات في المقهى المقابل لصيدليّة أوكلّي. تناول شيئًا وانتظر من جديد حتّى يلوح خيال الصيدلانيّ ممسكًا بسيجارته من خلف زجاج الباب. هل يرغب في

الحديث إليه مرّة أخرى؟ *هل يرغب في ذلك حقًّا؟*

راوده طيلة الصباح شعور بأنّه لا يتصرَّف كما يجب في وداعاته، بأنّ شيئًا مّا ينقصه، شيئًا مّا عثر عليه الآن. ذهب إلى محلّ الصور المقابل واشترى آلة تصوير. وإثر عودته إلى المقهى صوَّب الآلة نحو فتحة الباب حيث يقف أوكلّي، وصوَّر فيلما كاملا، لأنّه غالبًا ما تأخّر في الضغط على الزرّ.

ثمّ عاد إلى منزل كونتينهو بالقرب من مقبرة الملذّات وصوَّر المبنى المتهدِّم والمغطّى باللبلاب. صوَّب الآلة نحو النافذة، ولكنّ الرجل العجوز لم يظهر. في النهاية، صرف النظر عن الأمر ودخل المقبرة حيث صوَّر الضريح العائليّ لآل برادو. ثمّ اشترى مزيدًا من الأفلام واستقلَّ الترامواي القديم عابرًا المدينة باتجاه منزل ماريانا إيسا.

شاي أسام الأحمر الذهبيّ مع السكّر النباتيّ، العينان الداكنتان، الشعر الأحمر. «أجل، قالت، من الأفضل أن تناقش الأمر مع أطبّاء يتحدَّثون لغتك الأمّ». لم يخبرها غريغوريوس شيئًا عن إغمائه في مكتبة كويمبرا، وتحدَّثا عن يوحنًّا إيسا.

«مع ذلك يشعر بشيء من الضيق وهو في غرفته»، قال غريغوريوس.

خلال وقت قصير، عبرت وجهَ ماريانا مسحةٌ من الغضب، ثمّ سرعان ما استعادت السيطرة على نفسها.

«اقترحتُ عليه منزلاً جديدًا، مريحًا أكثر، ولكنّ هذا ما يريده: *«يجب أن يكون بائسا، بعد كلّ ما حدث، يجب أن يكون بائسا»*، قال.

غادر غريغوريوس قبل أن يفرغ إبريق الشاي. كم تمنّت أنّه لم يقل شيئًا عن غرفة إيسا. فمن العبث أن يتصرَّف بعد أربع زيارات له كما لو

أنّه أصبح قريبًا منه أكثر من ابنة أخيه الّتي تعرفه منذ كانت طفلة صغيرة، وكما لو أنّه يفهمه أفضل منها. بدا هذا الوضع عبثيًّا، وإن كان حقيقيًّا.

وإذ أخذ عند الظهيرة قسطًا من الراحة في منزل سلفيرا، أعاد ارتداء نظارته القديمة الثقيلة، لكنّ عينيه رفضتاها.

كان الجوّ حالكًا وغير مناسب لالتقاط صور فوتوغرافيّة عندما أصبح قبالة منزل ميلودي. وعلى الرغم من ذلك برق الوميض حين التقط بعضًا منها. اليوم، لم تَلُح من خلف النوافذ المضاءة تلك الفتاة التي *«كان يبدو أنّ قدمَيها لا تلامسان الأرض»*. قبل سنوات، نزل القاضي من السيّارة، أوقف السيّارات بإشارة من عكّازه وشقّ طريقًا بين المتفرّجين. ورمى حفنة نقود في علبة الكمان المفتوحة دون أن ينظر إلى ابنته الّتي وضعت طاقيّة على رأسها. رفع غريغوريوس عينيه نحو أشجار الأرز التي بدت لأدريانا حمراء كالدم قبل أن يغرز شقيقها السّكين في عنقها بوقت قصير.

في تلك اللحظة لمح غريغوريوس رجلاً خلف النافذة، وهو ما حسم أمر وجوب طرق الباب من عدمه. وداخل الحانة التي جلس فيها عند زيارته الأولى لميلودي احتسى فنجانًا من القهوة ودخّن سيجارة كما حدث في السابق. ثمّ ذهب إلى شرفة القصر وطبع في ذاكرته لشبونة الليليّة.

كان أوكلّي بصدد إغلاق صيدليّته. وعندما خرج إلى الشارع بعد مرور دقائق عديدة، تبعه غريغوريوس ولكن من مسافة بعيدة لا تمكّنه من اكتشاف أمره هذه المرّة. انعطف أوكلّي في الشارع حيث نادي الشطرنج وعاد غريغوريوس أدراجه ليلتقط صُوَرًا للصيدليّة المضاءة.

(45)

في صباح يوم السبت، اصطحب فيليب غريغوريوس إلى المعهد. حزما لوازم التخييم وانتزع غريغوريوس صور أصفهان من الحائط ثمّ صرف السائق.

كان يومًا مشرقًا ودافئًا. جلس غريغوريوس على درجات المدخل التي كساها الطحلب وتذكّر ما قاله برادو في كتابه: *جلستُ على الطحلب الساخن لدرج المدخل، مفكّرًا في أمنية والدي الملحّة في أن أصبح طبيبًا، شخصًا يمكن أن يخلِّص أُناسًا مثله من آلامهم. أحببته بسبب ثقته فيّ ولعنته بسبب العبء الساحق الذي تُحمّلني إيّاه أمنيته المفضّلة».*

فجأة طفق غريغوريوس يبكي. نزع نظاراته وخبّأ رأسه بين ركبتيه، تاركًا دموعًا تسيل من عينيه على الطحلب دون أن يمنعها. «*دون جدوى*»، هذه إحدى العبارات المفضّلة عند برادو، فيما ذكرت ماريا يوحنّا. ردَّد غريغوريوس هاتين الكلمتين وكرَّرهما ببطء، ثمّ بسرعة أكبر حتّى انصهرتا وذابتا مع الدموع.

صعد لاحقًا إلى الفصل الذي درس فيه برادو، والتقط صُوَرًا لواجهة مدرسة البنات. ومن مدرسة البنات، ثبَّت العدسة على الواجهة المعاكسة: النافذة التي لمحت منها ماريا يوحنّا أشعّة الشمس البرّاقة التي تنعكس على منظار برادو.

وعند الظهيرة، حدّث ماريا يوحنا عن هذه الصور وهو في مطبخها.

وفجأة، ودون وعي أخبرها عن إغمائه في كويمبرا وعن الكلمة الهوميريّة المنسيَّة وعن ذعره أمام الفحص العصبيّ.

وعندما جلسا على مائدة المطبخ، قرآ معًا ما كُتب في قاموس ماريا يوحنا عن الدوار. يمكن أن تكون لهذا أسبابٌ تافهة. وأطلعته على الجمل التي تشرح ذلك وهي تتبّعها بسبّابتها وتترجمها مكرِّرةً الكلمات الهامَّة.

ورم. أشار غريغوريوس إلى هذه الكلمة في صمت. أجل، بطبيعة الحال، قالت ماريا يوحنا، ولكن يجب قراءة المزيد عن هذا الموضوع: في هذه الحالة لن يظهر الدوار دون أن ترافقه أعراض أخرى أخطر من الغياب عن الوعي لم يعانِ منها غريغوريوس في السابق.

شعرت بسعادة لأنّه أخذها مؤخَّرًا في رحلة إلى الماضي، قالت له عندما ودَّعها. وهكذا أصبح بإمكانها استشعار ما يسكنها من خليط غريب بين القرب والبعد كلّما تعلّق الأمر بأماديو. بعد ذلك، اتجهت نحو خزانتها وأخرجت منها الصندوق الكبير الموشّى بالنقوش الخشبيّة. ثمّ ناولته الظرف المختوم الذي يحتوي على تأمّلات برادو بخصوص فطيما.

«لن أقرأها كما سبق أن قلت لك، وأعتقد أنّها ستكون في مأمن عندك. لعلّك في النهاية أكثر شخص يعرفه من بيننا. أنا مدينة لك بالطريقة التي تحدّثت بها عنه»، قالت.

وعلى العبَّارة التي تشقُّ نهر تاجة، لمح غريغوريوس لاحقًا ماريا يوحنا وهي تشير إليه بيدها مرّات عديدة لتوديعه حتّى ابتعد عن ناظريها. إنّها آخر شخص لقيه، وهي أكثر مَن سيشتاق إليه. هل سيكتب إليها ليخبرها بنتائج الفحص؟ تساءلت.

(46)

عندما رأى غرغوريوس واقفًا أمام بابه، قطَّب يوحنَّا إيسا عينيه وتصلَّبت ملامحه كأنّه شخص يحصِّن نفسه في مواجهة ألم عظيم.

«إنّه يوم السبت»، قال.

جلسا في مكانيهما المعتادين أمام طاولة تبدو عارية لغياب رقعة الشطرنج.

حدَّثه غريغوريوس عن نوبات الدوار التي انتابته، عن خوفه، عن الصيادين في أقصى العالم.

« إذن لن تأتي بعد الآن»، قال إيسا.

عوض الحديث عن هموم غريغوريوس، تحدَّث عن نفسه. ولو حصل هذا مع شخص آخر لبدا أمرًا محيّرًا. لكن ليس مع هذا الرجل المعذَّب المسجون الوحيد، الرجل الذي تُعدّ كلماته من بين أثمن ما سمع غريغوريوس.

إذا ثبت أنّه لا قيمة لنوبات الدوار هذه وإذا نجح الأطبَّاء في تخليصه منها، فإنّه سيعود إذّاك فقط ليتعلَّم البرتغاليّة ويكتب تاريخ المقاومة البرتغاليّة، قال ذلك بصوت حازم. لكنّ الثقة التي تصنَّعها تردَّد لها صدى أجوف، وبات واثقًا أنّ لها الصدى الأجوف نفسه عند إيسا.

تناول إيسا رقعة الشطرنج من فوق الرفّ بيديه المرتعشتين. ووضع

عليها الأحجار. وظلّ مغمضًا عينيه لحظة. ثمّ نهض وجاء بمجموعة من مباريات الشطرنج.

«هنا، يلعب أليخين ضدّ كابابلانكا. أرغب في لعب هذه المباراة معك.

- الفنّ في مواجهة العلم، قال غريغوريوس.

ابتسم إيسا وتمنّى غريغوريوس أن تلتقط عدسته تلك الابتسامة.

- أحيانًا، كان يحاول تخيّل الدقائق الأخيرة من حياة شخص تناول أقراصًا قاتلة، قال إيسا في منتصف المباراة. ربّما تكمن الراحة في النهاية فننجو بذلك من مذلّة الألم المفترس. إنّها نفحة كبرياء، ندمٌ لأنّه ليس في الغالب أكثر شجاعة، اختبار أخير للتأكّد، وللمرّة الأخيرة، من كون ذلك ما يجب عليه فعله وأنّ الاتصال لطلب سيّارة إسعاف سيكون مجرّد خطإ. إنّه الأمل في السكينة حتّى النهاية، انتظار الظلام وانعدام الحسّ في أطراف الأصابع والشفتين.

«ومن ثمّ يتملّكك فجأة ذعرٌ جنونيّ، قفزة تمرّد، الرغبة الجنونيّة في ألاّ تكون هذه هي النهاية، مدٌّ داخليّ، طوفان من الرغبة في الحياة، طوفان حارق، جامح وجارف لكلّ شيء، يُظهر الأفكار والقرارات السطحيّة خاطئة وسخيفة. وبعد؟ *ماذا بعد؟*».

لا أعرف، ردّ غريغوريوس، ثمّ أخرج كتاب برادو وقرأ:

ألن يصبح ذاك الشيء الذي سبّب لهم الخوفَ جليًّا وبسيطًا وواضحًا لو أنّهم يتلقّون في هذه اللّحظة خبر وفاتهم الوشيكة؟ عرّضت وجهي الذي أرهقه السهر لشمس الصّباح وفكّرت: إنّهم يريدون، ببساطة، أن

يتذوّقوا خُلاصة حياتهم سواء أكانت سهلة أم صعبة جدًّا، شديدة الفقر أم الغنى. إنّهم لا يريدون أن تصل إلى نهايتها حتّى لا يجدوا بعد ذلك سبيلاً إلى الندم على الحياة التي اشتاقوا إليها، تلك التي أدركوها تمام الإدراك.

أخذ منه إيسا الكتاب وقرأ في البداية هذا المقطع، ثمّ المحادثة بأكملها مع جورج حول موضوع الموت.

«أوكلّي، قال أخيرا، إنّه يقتل نفسه بالتدخين، وإذا حدثّه أحدهم في هذا الشأن ردّ قائلا: «أجل ولْيكن. عندئذ أقرأ في وجهه: *اِذهب عليك اللعنة*. لكن سرعان ما استبدّ به الخوف بالرغم من ذلك. *اللعنة*»!

كان المساء يسدل ستاره عندما انتهت المباراة بفوز أليخين. تناول غريغوريوس كوب إيسا وشرب آخر جرعة شاي فيه. وعند الباب، ظلاّ واقفين وجهًا لوجه. شعر غريغوريوس بشيء مّا يرتجف داخله. أمسكته يدا إيسا من كتفيه وأحسَّ برأسه يلمس خدَّه. ابتلع إيسا ريقه مُحدِثًا صوتا، وشعر غريغوريوس بحركة جوزة حلقه. وبهزَّة عنيفة جعلت غريغوريوس يترنَّح، دفعه إيسا وفتح الباب وعيناه محدِّقتان في الأرض. وقبل أن ينعطف في آخر الممرّ التفت غريغوريوس خلفه وظلّ إيسا واقفًا أمام بابه متتبّعًا إيّاه بنظراته. لم يفعل هذا في السابق قطّ!

في الشارع، اختبأ غريغوريوس خلف شُجيرات وانتظر. وعندما خرج إيسا إلى الشرفة وأشعل سيجارة سارع إلى التقاط فيلم بأكمله له.

لم يتراءَ له شيء من نهر تاجة. كان يرى يوحنا إيسا ويشعر بملامسته.

عبر الميدان التجاريّ، سار ببطء نحو البايرو ألتو، ثمّ جلس في مقهى قرب المنزل الأزرق.

(47)

تركَ الدقائق تمرّ واحدة بعد أخرى. أدريانا، سيكون وداعها الأصعب.

فتحت الباب وقرأت على الفور وبدقّةٍ تعابير وجه غريغوريوس.

«حدث شيء مّا»، قالت.

إنّه إجراء روتينيّ عند طبيبه الخاصّ ببيرن، أجاب غريغوريوس. أجل، كانت عودته إلى هنا واردة جدًّا. ذهل للهدوء الذي تقبَّلت به الخبر، بل كاد يؤثّر فيه.

لم يكن نفَس أدريانا محمومًا ولكنّه بدا مسموعًا أكثر من ذي قبل. ثمّ سرعان ما استعادت تماسكها، وقفت وذهبت لتأتي بدفتر الملاحظات من أجل تسجيل رقم هاتفه ببيرن.

رفع غريغوريوس حاجبيه متعجِّبًا فأشارت إلى الهاتف الموضوع فوق طاولة عند الركن.

«منذ أمس...»، قالت. وأرادت إطلاعَه على شيء مّا بعد ذلك، فسبقته إلى العِلّية.

اختفت أكوام الكتب الموضوعة على الأرضيّة العارية في غرفة أماديو، وهي الآن مرصوفة في مكتبة قائمة الزاوية. نظرت إليه وعيناها تمتلئان لهفة، فهزّ رأسه تعبيرًا عن الرضى ثمّ اقترب منها ولمس ذراعها.

بعد ذلك فتحت درج مكتب أماديو، وفكَّت الرباط الذي يحفظ الأغلفة الكرتونيّة وأخرجت منها ثلاث أوراق.

«لقد كتب هذا فيما بعد، إثر حادثة الفتاة»، قالت وصدرها النحيف يهتزُّ وينخفض. «أصبحت الحروف فجأة صغيرة جدًّا. عندما رأيت هذا، قلت في نفسي: لقد رغب في إخفاء شيء مّا عن نفسه».

حدَّق غريغوريوس في النصّ قائلاً في نفسه: «هذا يحطِّم كلّ شيء، *كلّ شيء*».

وضعت أدريانا الأوراق في ظرف ناولته إيّاه.

«لم يكن هو نفسه أبدًا. أنا أرغب في... أرجوك احمل هذا بعيدا، بعيدًا جدًّا».

لعن غريغوريوس نفسه لاحقا. رغب مرّة أخرى في رؤية الغرفة التي أنقذ فيها برادو موندز، الغرفة التي عُلِّقت خارطة الدماغ على جدارها، المكان الذي دفن فيه رقعة شطرنج جورج.

«إنّه يحبّ العمل في الأسفل كثيرا، برفقتي أنا، نحن معًا»، قالت أدريانا، عندما دخلا العيادة. مرَّرت يدها على طاولة الفحص: «إنّهم يحبّونه جميعا. إنّهم يحبونه ومعجبون به».

قالت ذلك وهي تبتسم ابتسامة شبحيَّة، بعيدة.

«رغم ذلك يأتي أناس كثيرون لزيارته حتّى وهم لا يشكُون من شيء. إنّهم يخترعون أيّ شيء لمجرَّد رؤيته».

كانت أفكار غريغوريوس تدور كدوّامة في رأسه. اقترب من الطاولة حيث وُضعت الحقن القديمة، أخذ واحدة منها وقال: نعم،

انظري كيف هي الحقن قديما، إنّها مختلفة جدًّا عن حقن اليوم.

لم تصل الكلمات إلى أدريانا، كانت تسحب مفرش الطاولة وبقايا ابتسامة سابقة تطفو على ملامحها.

هل هي على علم بما حلَّ بخارطة الدماغ؟ تساءل بينه وبين نفسه. لا شكّ أنّها أصبحت اليوم تحفة نادرة.

في بعض الأحيان أسأله: فيمَ تحتاج إلى هذه الخارطة، وكلّ الأجساد تبدو في الواقع شفّافة بالنسبة إليك؟ فيردّ:

- «حسنا، إنّها مجرّد خارطة».

هو يحبّ الخرائط، الخرائط الجغرافيّة، خرائط السكك الحديديّة. وخلال دراسته في كويمبرا انتقد يومًا أطلس تشريحيًّا مقدَّسًا. ولم يكن الأساتذة يحبّون أماديو لأنّه لا يوليهم الاحترام. إنّه يفوقهم علما».

لم يجد غريغوريوس أمامه إلّا حلاًّ واحدًا فنظر إلى رقّاص السّاعة.

«لقد تأخّرت، قال. هل تسمحين بأنْ أُجري اتّصالاً هاتفيًّا؟».

فتح الباب وسبقها إلى المدخل.

بدا الانزعاج واضحًا على وجه أدريانا عندما أقفلت باب غرفة الفحص، وأخدودٌ عموديّ يقسم جبينها ويضفي عليها مسحة من الكآبة والارتباك.

اتجه غريغوريوس نحو درج المدخل .

وداعا، قالت أدريانا وأغلقت باب المنزل.

إنّه الصوت الجافّ والغائب ذاته الذي تعرّف إليه خلال زيارته الأولى، عندما ودَّعته وهي تقف منتصبةً في مواجهة العالم بأسره.

اقترب منها غريغوريوس ببطء ووقف أمامها ثمّ نظر في عينيها مباشرة: بدت نظرة أدريانا راسخة وغائبة. لم يمدّ لها يده ليصافحها ولن تبادر هي بذلك.

«وداعًا»[1]، قال. «حظًا سعيدًا». ثمّ خرج.

(1) بالبرتغاليّة في النصّ الأصلي.

(48)

قدّم غريغوريوس نسخة من كتاب دي برادو إلى سلفييرا. تسكّع في المدينة أكثر من ساعة قبل أن يعثر على مغازة كبرى ما تزال مفتوحة يمكن نسخ مجموعة من الأوراق فيها.

«إنّه...، قال سلفييرا بصوت مخنوق. أنا...».

ثمّ تحدَّثا عن الدوار. عانت شقيقته صاحبة العينين العليلتين من الدوار منذ عشرات السنين، قال سلفييرا. وتعذّرت معرفة السبب. لقد تعوَّدت عليه، ببساطة.

«في أحد الأيّام رافقتها إلى أخصائيّ في الأعصاب وغادرت العيادة وأنا أشعر بأنّنا نعيش في العصر الحجريّ. إنّ معرفتنا بالدماغ تقف عند العصر الحجريّ... بعض الأجزاء، بعض الرسوم البيانيّة لنشاطاته، بعض الموادّ. لا نعرف عنه أكثر من ذلك. كنت أشعر أنّهم لا يعرفون حتّى ما يجدر بهم *البحث عنه*».

تحدَّثا عن الخوف الّذي يولد من الشكّ. وفجأة، شعر غريغوريوس أنّ شيئًا مّا يثير فيه حيرة تواصلت إلى أن أدرك، بعد عودته، فحوى المحادثة مع سلفييرا في موضوع سفره قبل يوم أمس، واليوم إثر حديثه مع يوحنا إيسا، والآن مع سلفييرا مرّة أخرى. هل بإمكان صداقتين أن تنهارا، أن تتأزّما، أن تسممَّ إحداهما الأخرى؟ شعر بسعادة لأنّه لم يخبر إيسا بشيء يخصّ إغماءه في مكتبة كويمبرا. وهكذا وُجِد شيء مّا يشاركه

فيه سلفييرا وحده.

بالمناسبة، ما الاسم الهوميريّ الذي نسيته؟ سأله سلفييرا.

ليسْترونْ، ردَّ غريغوريوس.

ويعني مجرفة لتقشير أرضيَّة القاعة.

أخذ سلفييرا يضحك، وشاركه غريغوريوس الضحك. ضحكا حدَّ القهقهة، إنّهما رجلان قادران على تجاوز كلّ شعور بالخوف والحزن والخيبة والسأم من الحياة. انسجما في الضحك بشكل عجيب، على الرغم من أنّ الشعور بالخوف والحزن والخيبة ليس خاصّا بكلّ واحد منهما، ولا يتسبّب لهما في غربة فرديّة تمامًا.

عندما كفَّ عن الضحك وشعر بثقل العالم من جديد، تذكَّر غريغوريوس كيف ضحك في السابق مع يوحنا إيسا من الغذاء النيء المقدَّم في دار العجَزة.

ذهب سلفيرا إلى المكتب وعاد حاملاً منديل المائدة، المنديل الذي كتب عليه غريغوريوس وهو في عربة الأكل وبحروف عبريّة: *يقول الربّ: «فليكن النّور وكان النّور»*. من الضروريّ أن يقرأ له هذه العبارة مرّة أخرى، قال سلفييرا. ثمّ طلب منه أن يكتب بضعة أسطر من الكتاب المقدَّس باللُّغة الإغريقيّة.

لم يستطع غريغوريوس مقاومة رغبته تلك وكتب: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الربّ والكلمة كان الربّ. كلّ شيء به كان وبغيره لم يكن شيء ممّا كان. فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس»[(1)].

---

(1) الكتاب المقدس.

ذهب سلفيرا ليأتي بالكتاب المقدَّس، وقرأ أولى آيات الإنجيل حسب رواية القدِّيس يوحنا.

«إذن، فالعبارة أو الكلمة هي نور الإنسان، قال. وهكذا فإنّ الأشياء لا توجد حقًّا إلاّ عندما تُصاغ في كلمات».

-ويجب أن يكون للكلمات إيقاع، قال غريغوريوس، إيقاع كالذي يشمل أحاديث القدِّيس يوحنا مثلا. إنّ الكلمات لا تعكس النور إلاّ إذا كانت شعريّة. في نور الكلمات المتغيّر يمكن للأشياء نفسها أن تظهر بشكل مختلف.»

حدَّق فيه سلفيرا، ثمّ أردف قائلا:

«وهذا هو السبب الذي يُرغم شخصًا مّا على الإحساس بالدوار عندما يفقد كلمة بين ثلاثة آلاف كتاب».

ضحكا مرّات ومرّات. نظر أحدهما إلى الآخر وهما يعلمان أنّهما يضحكان من ضحككها السابق، وأنّ الضحك أفضل من الأشياء المهمّة كلّها في هذا العالم.

هل يمكن أن يترك له صور أصفهان؟ سأله سلفيرا لاحقًا. وبعد أن علّقاها في مكتبه، جلس سلفيرا على المكتب، أشعل سيجارة وأخذ يتأمّل الصور.

تمنّيت لو أنّ زوجتي السابقة وأطفالي رأوا هذه الصور»، قال.

وقبل أن يخلدا إلى النوم، ظلاّ بعضَ الوقت صامتين في البهو.

«سيصبح هذا من الماضي أيضًا، قال سلفيرا. أقصد إقامتك هنا، في منزلي.

لم يفلح غريغوريوس في النوم، تخيّل القطار وهو يتهيّأ للمغادرة في صباح الغد. وشعر بأولى هزّاته الخفيفة ولعن الدوار وفرضيَّة أن يكون دوكسيادس على حقّ.

أشعل الضوء وقرأ ما كتبه برادو عن الحميميَّة:

«حميمَّية مهيبة: الحميميَّة تربط أحدنا بالآخر وهذا الرابط اللامرئي محرِّرٌ. إنّه مهيب: لأنّه يتطلَّب خصوصيّة، وهكذا فإنّ كلّ مشاركة تعدُّ خيانة. ومع ذلك فنحن لا نحبّ بدافع العاطفة أو الحبّ في حدّ ذاته ولا نلمس إلاّ شخصًا واحدًا. ماذا نفعل؟ هل نُظهر مختلف الحميميّات؟ هل نمسك الحسابات المفصَّلة للمواضيع والكلمات والحركات؟ والمعارف والألغاز المشتركة؟ سيغدو هذا سمّا يتغلغل في صمت، قطرة، قطرة».

كان الفجر يلوح عندما غرق غريغوريوس في نوم مضطرب وحَلُم بنهاية العالم. بدا حلمًا شجيًّا دون آلات موسيقيّة ونوتات، حلمًا خُلق من شمس وريح وكلمات. والصيّادون بأياديهم القاسية يصيحون بعبارات قاسية، والريح المالحة تحمل الكلمات، حتّى تلك التي نسيها. وها هو الآن في الماء، يغوص نحو العمق.

سبح بكلّ ما أوتي من قوّة، أعمق فأعمق وشعر بالمتعة وبالحرارة في عضلاته التي أخذت تنقبض بسبب البرد. كان عليه أن يغادر السفينة، بل مجبرًا على ذلك. أكّد للصيّادين أن لا مكان له بينهم، لكنّهم رفضوا ذلك وتبعوه بنظرة غريبة تمامًا عندما نزل على اليابسة، حاملاً حقيبة الصيد، ترافقه الشمس والريح والكلمات.

الجزء الرابع

العودة

(49)

اختفى سلفييرا عن الأنظار ولمّا يزل غريغوريوس يلوّح له بيده. «هل ثمَّة مصنع للرخام في بيرن؟» تساءل وهو على رصيف المحطّة. وكان غريغوريوس قد التقط من نافذة مقصورته صورة لسلفييرا وهو يجهد في إشعال سيجارته، محاولاً إخفاء لهبها عن الريح.

آخر منازل لشبونة. عاد بالأمس إلى البايرو آلتو، إلى المكتبة الدينيّة، على الواجهة الزجاجيّة المشبعة بالبخار، الواجهة التي سبق أن وضعَ عليها جبينه قبل أن يضغط على جرس المنزل الأزرق. كان عليه حينئذ مقاومة رغبته في الذهاب إلى المطار والسفر إلى زيوريخ في أوّل طائرة، والآن ينبغي عليه مقاومة إرادة النزول في المحطّة الموالية.

لو انطفأت إحدى ذكرياته على مسافة كيلومترٍ قَطَعها عبر القطار، ولو عاد العالم، علاوة على ذلك، إلى طبيعته الأولى قطعةً قطعةً، فيعود كلّ شيء إلى ما كان عليه بوصوله إلى محطّة بيرن: فهل سينهار زمن إقامته أيضًا؟

أخرج غريغوريوس الظرف الذي أعطته إيّاه أدريانا. *هذا يدمّر كلّ شيء، كلّ شيء*. ما سيقرؤه الآن، كتبه برادو بعد رحلته إلى إسبانيا، *بعد لقائه بتلك الفتاة*. أخذ يفكّر فيما قالته أدريانا عن عودة برادو من إسبانيا: نزل من سيّارة الأجرة . «كانت لحيته مهملة ووجنتاه غائرتين. ولشدَّة جوعه التهم كلّ ما حملته إليه من طعام، ثمّ تناول قرصًا مُنوِّمًا، ونام يوما وليلة».

بينما كان القطار متّجها نحو فيلارفورموسو حيث سيعبرون الحدود، ترجم غريغوريوس النصّ الذي كتبه برادو بحروف صغيرة.

رماد الزوال

«مضى دهر على اتصال جورج بي في منتصف الليل بعد أن استبدّ به الخوف من الموت. كلاّ ليس دهرا. حدث ذلك في زمن آخر، زمن مختلف تماما. ومع هذا فقد مرّت ثلاث سنوات تحديدا، ثلاث سنوات بالتمام والكمال، ثلاث سنوات عاديّة رتيبة. إستيفانيا! لقد تحدّث إذن عن إستيفانيا، عن منوّعات غولدبرغ التي عزفتها من أجله، المنوّعات التي تمّنى أن ينجح هو أيضًا في عزفها على بيانو شتينواي. إستيفانيا إسبينوسا! أيّ اسم ساحر وفاتن! هذا ما فكّرتُ فيه تلك الليلة. لم أرغب في رؤية المرأة على الإطلاق. لا توجد امرأة جديرة بهذا الاسم. سيكون ذلك خيبة أمل حقًا. من أين لي بمعرفة أنّ العكس هو الصحيح: بأنّ الاسم لم يكن يليق بها، بها هي.

الخوف من أن تظلّ الحياة منقوصة أو عملاً غير مكتمل، الوعي بعدم القدرة على أن نصبح الشخص الذي جعلناه هدفًا؛ في النهاية، هكذا أوّلنا الخوفَ من الموت. ومع ذلك تساءلت: كيف لنا أن نخشى غياب الكمال وتناغم الحياة، ونحن لا يمكننا أن ندرك ولو مرّة واحدة أنّ هذا النقص أصبح حدثًا محتومًا؟ وبدا أنّ جورج يفهم ذلك. ماذا كان يقول؟

لماذا لا أتصفَّح الأوراق، لماذا لا أبحث؟ لماذا انتفت بداخلي كلّ رغبة في معرفة ما فكّرت فيه وكتبته إذن؟ هل هي اللامبالاة؟ أم إنّ الخسارة أكبر من كلّ ذلك وأعمق؟

الرغبة في معرفة ما فكّرنا فيه من قبل وكيف أصبح ما نفكّر فيه الآن:

هذا أيضًا سينتمي إلى الحياة المكتملة، لو وُجِدَتْ حقًّا. هل سأخسر بهذا ما يجعل الموت أمرًا مفزعًا؟ الاعتقاد في حياة متناغمة، تستحقّ الصراع من أجلها، حياة نسعى إلى انتزاعها من براثن الموت؟

الإخلاص، قلت لجورج، الإخلاص. هنا يكمن تناغمنا. إستيفانيا. لماذا لم يحملها موج الصدفة إلى مكان آخر؟ لماذا حملها إلينا نحن بالذات؟ لماذا ينبغي عليها أن تخضعنا لاختبار لسنا في مستواه؟ اختبار فشل كلانا في اجتيازه، كلٌّ على طريقته؟

«أنت ترغب فيَّ بشدَّة،كم يبدو هذا رائعًا معك! ولكنّك متلهّف جدًّا. ليس لي أن أرغب في هذه الرحلة. ستكون هذه رحلتك، رحلتك أنت وحدك. هذه الرحلة لا يمكن أن تكون لنا نحن الاثنين.»

وقد كانت على حقّ. يجب ألاّ نجعل الآخرين أحجار أساس لحياتنا، أو الراكضين في سباقنا نحو نعيمنا المنشود.

نهاية العالم: لم أكن قَطُّ أشدّ صحوًا ولا انتباهًا إلاّ هناك. منذ ذلك الوقت وأنا أدرك أنّ سباقي انتهى، سباق لم أعرف أنّني لطالما قطعته، سباق دون منافسين، دون هدف، دون مكافأة. الكمال، Espejismo؟ كما يقول الإسبانيّون، قرأت هذه الكلمة في تلك الأيّام على إحدى الصحف، وهي الوحيدة التي مازلت أذكرها. سراب!

حياتنا، إنّها تشكيلات زائلة من رمل متحرّك نشأت بفعل هبَّة ريح، وستهدمها الريح اللاحقة، تشكيلات زائلة تحملها الريح حتّى قبل أن تتشكّل بالفعل.

«لم يكن هو ذاته»، قالت أدريانا. ولم ترغب في أن تجمعها بشقيقها الغريب النائي أيُّ علاقة. احمل هذا بعيدا. بعيدًا جدًّا.

متى كان شخص مّا هو ذاته؟ متى كان انعكاسًا لنفسه دومًا؟ أو كما هو، وحمم الأفكار والأحاسيس المتأجّجة تحجب تحتها كلّ الأكاذيب والأقنعة والأوهام؟ في الغالب، الآخرون هم الذين يشكّون في أنّ شخصًا مّا لم يعد هو نفسه؟ وقد يعني هذا أنّه لم يكن في الواقع كما تمنّينا أن يكون؟ أليس كلّ هذا إذن أكثر من اعتراض على خطر اضطراب المألوف، اضطراب يلبس قناع الحزن والهمّ من أجل منفعة الآخر المزعومة؟

بينما كان القطار يواصل سيره نحو سالامنكا نام غريغوريوس. وفجأة حدثت ظاهرة لا عهد له بها من قبل: استيقظ على الفور وقد تملّكه الدوار. اجتاحته موجة من الإثارة العصبيّة المذعورة، موجة هادرة. كان على وشك أن يغمى عليه، فتشبّث وهو يتخبّط على المساند، والأمر يزداد سوءا كلّما أغمض عينيه. فخبّأ وجهه في يديه. لقد انتهى كلّ شيء الآن.

ليشْترونْ. كلّ شيء على مايرام.

لماذا لم يركب الطائرة؟ لو فعل ذلك لَحَلَّ بجنيف في صباح الغد وفي ظرف ثماني ساعات، ولَوَصَل إلى منزله بعد ثلاث ساعات وزار في منتصف النهار دوكسيادس الذي سيتكفّل بالباقي.

أخذ القطار يتباطأ. *سالامنكا*! برزت لوحة إعلانات ثانية: *سالامنكا*: إستيفانيا إسبينوسا.

نهض غريغوريوس، وانتزع الحقيبة من الشبكة وتشبّث بها حتّى انتهى الدوار. وعلى رصيف المحطّة ضرب بقدمه ليكسر السحابة الهوائيّة التي أحاطت به.

(50)

عندما تذكّر لاحقًا مساءه الأوّل في سالامنكا، بدا له وهو يقاوم الدوار، أنّه عبَرَ الكاتدرائيّات والكنائس والأديرة دون أن يتفطّن إلى جمالها، وفي مقابل ذلك فتنته قوّتُها الموحشة. تأمّل مذابح وقِبابًا ومقاعد سرعان ما تراكمت في ذاكرته. صادف مرّتين قُدّاسًا، وحضر أخيرًا حفلاً للعزف على الأرغن: *لا أريد أن أعيش في عالمٍ خالٍ من الكاتدرائيّات. أحتاج إلى جمالها وعظمتها، أحتاج إليها لمجابهة الوجه المألوف من العالم. أريد أن أتأمّل الزجاجيّات المضيئة وأستسلم لسحر هذه الألوان السّماويّة. أحتاج إلى ألقها، أحتاج إليه لمجابهة لون الألبسة الموحّد القذر والمملّ. أريد أن أستسلم لبرد الكنائس القاسي وهو يلفّني. أحتاج إلى صمتها المهيب. أحتاج إليه لمجابهة خوار العسكريّين الفارغ وثرثرة المريدين الحاذقة. أريد أن أصغي إلى صوت الأرغن الهامس، إلى هذا الغَمْر من الأصوات السّماوية. أحتاج إليه لمجابهة سخف الموسيقى العسكرية الصّارخ.*

برادو الشابّ، البالغ من العمر سبعًا وعشرين سنة،كتب هذا. فتى متّقد الذكاء، فتى سبق أن ذهب بعد ذلك بوقت قصير إلى كويمبرا رفقة جورج، وكأنّهما يمتلكان العالم بأسره. وفي المدرج أعاد بعضَ الأساتذة إلى حجمهم الطبيعيّ. فتى لم يعرف بعدُ شيئًا عن أمواج الحظّ والرمل الذي تحمله الريح ورماد الزوال.

بعد مرور عدة سنوات كتب هذه الأسطر إلى الأب بارتولومو:

«هناك أشياء أكبر منّا نحن البشر: الألم والوحدة والموت. ولكن هناك أيضًا الجمال والنبل والسعادة. لهذا اختلقنا الدين. ما الذي سيحصل لو فقدناه؟ هذه الأشياء تظلّ حينئذ أكبر منّا دومًا. ولا يتبقّى لنا إلاّ شعريّة الحياة الفرديّة. هل هي قويّة إلى درجة تجعلها قادرة على جَرفنا معها؟

من غرفته بالفندق، استطاع غريغوريوس أن يرى الكاتدرائيّتين الجديدة والقديمة. وكلّما دقّ الجرس عند كلّ ساعة، أسرع إلى النافذة يتأمّل الواجهات المضاءة. يوحنا الصليبيّ عاش هنا. أمّا فلورانس فقد زارت هذا المكان مرّات عديدة وسافرت إلى هنا رفقة طلبة آخرين زمنَ إعداد أطروحتها عن القدّيس. أمّا هو فلم يرغب في ذلك. لم تعجبه طريقة تحمّسها هي والآخرين إلى قصائد الشاعر الكبير الصوفيّة.

الشعر لم يوجد *لنتحمَّس* إليه. بل وُجد *ليُقرأ*، ليُقرأ شفويّا، لنعيش معه، لنشعر أنّه يحرّكنا، يغيّرنا ويساهم في مَنْح حياتنا شكلاً ولونًا ولحنًا. لم يُخلق الشعر لنتحدّث عنه ولا لنجعل منه كبش فداء لمسيرة أكاديميّة.

تساءل وهو في كويمبرا عمّا إذا لم يفوّت عليه حياة ممكنة في الجامعة. وكانت الإجابة: لا! وتذكّر الشعور الذي انتابه في السابق وهو في باريس، بمقهى الكوبول تحديدا، عندما سحق فلورانس وزملاءها الثرثارين بلكنته البيرنية[1] وعلمه البيرني.

لاحقا، رأى في حلمه أورورا تطوّقه بموسيقى الأرغن في مطبخ سلفيرا. بدا المطبخ يتّسع وغاص فيه عميقًا، جرفه تيّار حتّى فقد الوعي، ثمّ استفاق.

(1) نسبة إلى بيرن.

كان أوّل من جلس إلى الطاولة لتناول فطور الصباح. وبعد ذلك ذهب إلى الجامعة وسأل عن مكان كليّة التاريخ. بعد ساعة تبدأ حصّة إستيفانيا إسبينوسا حول إيزابيل الكاثوليكيّة.

في الساحة الداخليّة للجامعة، كان الطلبة يسرعون الخطى عبر الأروقة. وغريغوريوس لا يفهم كلمة واحدة من لغتهم الإسبانيّة المحكيّة بسرعة فائقة. دخل إلى المدرج قبل ساعة من بداية الحصّة، قاعة مكسوَّة بأناقة رهبانيّة يتصدَّرها منبر عالٍ. امتلأت القاعة الشاسعة حتّى قبل بداية الحصّة، وشُغلت الأماكن كلّها. وعلى الجانب، جلس طلبة آخرون على الأرض.

كرهت هذه المرأة، كرهتُ شعرها الأسود الطويل ومشيتها المترنّحة وتنورتها القصيرة. كانت بالنسبة إلى أدريانا إذن شابّة تبلغ من العمر خمسًا وعشرين سنةً. أمّا المرأة التي تدخل الآن فهي في نهاية الخمسينات. *تأمّل عيني إستيفانيا الباهرتين، بشرتها الفريدة، بشرتها الآسيويّة تقريبا، ابتسامتها المثيرة والساحرة، مشيتها المترنّحة. ببساطة، لم يرغب في انطفاء كلّ هذا. فتلك رغبة بعيدة المنال*، قال يوحنا إيسا.

لم يستطع أحد مقاومة الرغبة في تأمّلها، قال غريغوريوس في نفسه، ولا اليوم أيضًا. بل حتّى وهو يستمع إلى حديثها. كان لها صوت كمان حزين وأجشّ، وهي تنطق الكلمات الإسبانيّة الصعبة بشيء من الرقّة البرتغاليّة. وقد عمدت منذ البداية إلى فصل المصدح. فهي تملك صوتًا يملأ كاتدرائيّة بأكملها ونظرةً تجعلك تتمنّى ألاّ تنتهي الحصَّة أبدًا.

تقريبا، لم يفهم غريغوريوس شيئًا من كلّ ما قالته. أنصت إليها كما لو أنّها آلة موسيقيّة. فأغمض عينيه أحيانًا وركّز نظره أحيانًا أخرى على

حركات إستيفانيا: اليد التي تبعد بها خصلات شعرها الرماديّ عن جبينها، واليد الأخرى الممسكة بقلم فضيّ تستعمله لترسم في الفضاء سطرًا تؤكّد به بعض التفاصيل، مرفقها الذي تسنده على المنبر، ذراعاها الممدودتان وهي تحضن بهما المنبر عندما تشرع في شرح موضوع جديد. إنّها فتاة سبق لها أن عملت في مكتب البريد، فتاة صاحبة ذاكرة رهيبة تحتفظ فيها بكلّ أسرار المقاومة، المرأة التي رفضت أن يطوّق أوكلّي خصرها في الطريق، المرأة التي ركبت السيّارة أمام المنزل الأزرق وقادتها إلى أبعد نقطة في العالم لتنقذ حياتها، المرأة التي لم تسمح لبرادو بأن يصطحبها في رحلة. وتلك خيبة ومهانة أيقظتا ما بداخله، وهو الأكثر حدَّة وألما في حياته. ودفعتاه إلى الوعي بهزيمته النهائيّة أمام سعيه إلى بلوغ سلامه الروحيّ، وإلى الشعور بأنّ حياته التي بدأت متوهّجة، كانت تنطفئ وتستحيل رمادًا.

جعل تزاحُم الطلبة الذين تهيّؤوا للمغادرة غريغوريوس ينتفض. وضعت إستيفانيا إسبينوسا وثائقها في محفظتها ونزلت من عتبة المسطبة. اتّجهت مجموعة من الطلبة نحوها، فغادر غريغوريوس وانتظر في الخارج.

وقف بطريقة تتيحُ له رؤيتها آتية من بعيد ليقرّر بعد ذلك ما إذا كان سيكلّمها. هي الآن قادمة، ها هي تتقدّم رفقة امرأة تتحدّث إليها، كأنّها تتحدّث إلى مساعدتها. شعر غريغوريوس بقلبه يدقُّ في حلقه عندما مرَّت أمامه. صعد درجًا وجاب رواقًا طويلاً خلف السيّدتين. ابتعدت المساعدة واختفت إستيفانيا إسبينوسا عبر أحد الأبواب. ومرَّ غريغوريوس أمام ذلك الباب وقرأ عليه اسم إستيفانيا، *لم يكن للاسم أن يليق بها*. بها هي.

بخطى بطيئة عاد أدراجه متشبّثًا بدرابزين السلّم. توقّف لحظة أسفل الدرج ثمّ صعد راكضًا من جديد. انتظر أن تهدأ أنفاسه وطرق الباب.

كانت على وشك الذهاب وقد ارتدت معطفا. ونظرت إليه مستفهمة.

«أنا... هل تسمحين بأن أتحدّث إليك بالفرنسيّة؟»، سألها غريغوريوس.

وافقت بإيماءة من رأسها.

قدَّم نفسه في تردّد، ثمّ أطلعها على كتاب دي برادو، كما تعوَّد دومًا.

ضاقت عينا إستيفانيا ذواتا اللون البنّي الفاتح، وحدَّقت في الكتاب دون أن تمدَّ يدها نحوه.

وكانت الثواني تمرّ.

«أنا... لماذا... ولكن ادخل أوَّلاً».

رفعت سمَّاعة الهاتف، وأخبرت أحدهم بالبرتغاليّة أنّه يتعذَّر عليها المجيء الآن. ثمّ نزعت معطفها. وَدَعَت غريغوريوس إلى الجلوس وأشعلت سيجارة.

«هل يتضمَّن إشارة إليّ؟»، سألته ثمّ نفثت الدخان.

نفى غريغوريوس ذلك بإيماءة من رأسه.

« أين سمعت عنّي إذن؟».

سرد لها غريغوريوس الحكاية كاملة. تحدَّث عن أدريانا وعن يوحنَّا إيسا، عن كتاب بحر الظلمات الذي قرأه برادو حتّى آخر أيّام حياته، عن الأبحاث التي أجراها كُتُبيٌّ كويمبرا، عن النصّ المنسوخ على أغلفة الكتب التي كتَبَتْها. لكنّه لم يشر إلى أوكلّي، لم يقل شيئًا أيضًا عن المقطع

المكتوب بحروف صغيرة.

في تلك اللحظة، رغبت إستيفانيا في الاطّلاع على الكتاب. أشعلت سيجارة أخرى ثمّ تأمّلت الصورة.

«هكذا كان في السابق إذن. لم أرَ قطّ صورة له في تلك الفترة».

لم يَنْوِ النزول من قطار سالامنكا، قال غريغوريوس. لكنّه عجز عن المقاومة. فصورة برادو ظلّت بذهنه في غاية... في غاية النقص دونها. لكنّه يعلم بطبيعة الحال أنّ من غير اللائق حلوله هنا فجأة.

ذهبت نحو النافذة. رنّ جرس الهاتف، فتركَتْه يرنّ.

«لست أدري إن كنت أرغب في ذلك حقًّا، قالت. أقصد الحديث عن الماضي، هنا وتحت أيّ ظرف من الظروف. هل بإمكاني أن أصطحب الكتاب معي؟ أرغب في قراءته وتأمُّل معانيه. تعالَ غدًا مساءً إلى منزلي. سأمدُّك بالعنوان. وناولته بطاقة.

اقتنى غريغوريوس دليلاً سياحيًّا وذهب في زيارة إلى الأديرة واحدًا تلو آخر. لم يكن الرجلَ المهووس بالبحث عن نوادر المدن. وعندما يحتشد الناس أمام أحد المعالم، يبقى هو خارجًا متبجِّحًا بذلك. وهذا يتلاءم وعادته في قراءة أفضل الكتب مبيعًا على مرّ السنين بعد الجميع. ليس جشع السياحة هو ما يدفعه الآن. كان عليه أن يصل عند نهاية الظهيرة ليفهم أنّ مشاعره تجاه الكنائس والأديرة تغيّرت من فرط اهتمامه ببرادو. *«هل يمكن أن يوجد شيء، هو في جلاله، أكثر خطورةً من جلال الشِّعر ذاته؟»* هذا هو ردّه الحاسم على روث غوتشي ودافيد ليهمان. وهو ردٌّ بدأ يربطه من جديد ببرادو. لعلّه الرابط الأقوى على الإطلاق. ومع ذلك، فالرجل الذي تحوَّل من طفل مرتِّل عنيد إلى راهب دون ربّ، بدا أنّه خطا خطوةً

أخرى إلى الأمام، خطوةً حاول غريغوريوس فهمها وهو يعبُر الأديرة. هل نجح برادو في توسيع مفهوم الخطورة الشعريّة في كلام الكتاب المقدّس وصولاً إلى المباني التي شيّدت بهذه الكلمات؟ هل الأمر هكذا حقًّا؟

قبل بضعة أيّام من وفاته، لمحته ميلودي خارجًا من الكنيسة: *أريد قراءة الخطاب البليغ من الكتاب المقدّس... أحبّ الناس المصلّين. أحتاج إلى رؤيتهم. أحتاج إليها في مجابهة سُمّ السطحيّة الخبيث وعدم إعمال العقل. أريد قراءة الخطاب البليغ من الكتاب المقدّس*... هذه هي المشاعر التي انتابته فترة شبابه. كيف كان شعوره وهو يدخل الكنيسة، ذاك الرجل الذي عاش ينتظر انفجار القنبلة الموقوتة في دماغه؟ الرجل الذي أضحى كلّ شيء بالنسبة إليه رمادًا بعد سفره إلى أقصى العالم.

كان على سيّارة الأجرة التي أقلّت غريغوريوس إلى مكان إقامة إستيفانيا إسبينوسا أن تتوقّف عند إشارة حمراء. لمح غريغوريوس على واجهة زجاجيّة لوكالة أسفار مُلْصَقًا لقباب ومآذن. ماذا كان سيحدث لو أنّه استمع كلّ صباح إلى صوت المؤذّن في الشرق الأزرق ذي القباب الذهبيّة؟ لو أنّ الشِّعر الفارسيّ استكمل لحن حياته؟

ارتدت إستيفانيا إسبينوسا بنطالاً من الجينز وكنزة صوفيّة زرقاء داكنة. وعلى الرغم من خصلات شعرها الرماديّة بدَت في أواسط الأربعينات. أعدَّت مجموعة من الشطائر وقدَّمت الشاي لغريغوريوس.

عندما رأت نظر غريغوريوس يتّجه نحو رفوف الكتب، أخبرته أنّ باستطاعته رؤيتها عن قرب. فتناول مجلَّدات التاريخ الكبيرة. كم كان يجهل الكثير عن شبه الجزيرة الإيبيريّة وعن تاريخها، قال. ثمّ حدَّثها عن المؤلفات التي كُتبت حول زلزال لشبونة والموت الأسود.

طلبت منه أن يحدِّثها عن اللغات القديمة وطرحت عليه مجموعة أسئلة. هل ترغب في إثارة موضوع سفرها مع برادو أم إنّها فقط في حاجة إلى مزيد من الوقت؟

اللغة اللاتينيّة، قالت أخيرا، بمعنى آخر، بدأ كلّ شيء مع اللغة اللاتينيّة» هناك كان ذلك الفتى، ذلك الطالب الذي يساعد أعوان البريد. إنّه فتى خجول، مغرم بي ويعتقد أنّني لم ألحظ ذلك. درس اللاتينيّة. *terrae Finis (أقصى العالم)*، قال يوما وهو يمسك برسالة وجهَتُها رأس فينستر. ثمّ قرأ بعد ذلك قصيدة لاتينيّة طويلة تتحدّث عن أقصى العالم. وأثارت إعجابي طريقته في إلقاء الشعر اللاتينيّ وهو يواصل فرز البريد. وعندما استشعرَ إعجابي ذاك، واصل القراءة كامل الصباح.

«بدأت تعلُّم اللاتينية خِفية. كان ينبغي ألاّ يعلم الفتى شيئًا عن ذلك خوفًا من إثارة أيّ سوء فهم. لا يُصدَّق أن تتعلّم اللغةَ اللاتينيّةَ امرأةٌ مثلي، موظّفة في البريد، بمستوى دراسيّ بسيط. *كان هذا لا يصدّق إطلاقا*. ولست أدري ما الذي بدا لي أكثر إثارة: اللغة في حدِّ ذاتها أم ذلك الشعور بالدهشة .

«تعلّمتُها بسرعة، فأنا أملك ذاكرة جيّدة. اهتممت بدراسة التاريخ الرومانيّ وقرأت لاحقًا كتبًا عن تاريخ البرتغال وإسبانيا وإيطاليا أيضًا. توفّيت والدتي وأنا ما أزال طفلة. فواصلت العيش مع والدي، وهو موظّف في السكك الحديديّة، لم يسبق له أن قرأ كتابًا واحدًا في حياته. في البداية، انزعج جدًّا لحرصي على تعلُّم اللاتينيّة، ولكن سرعان ما أشعره ذلك بالفخر لاحقا، فخرٍ أثّر فيّ عميقا. كنت في الثالثة والعشرين من عمري عندما جاءت الشرطة السريّة للبحث عنه واصطحبته إلى تارافال

بتهمة التخريب. لكنّني لا أستطيع الحديث في هذا الموضوع، اليوم أيضًا.

«بعد بضعة شهور، تعرَّفتُ على جورج أوكلِّي خلال اجتماع للمقاومة. وشاع خبر اعتقال والدي في فرع البريد، وأمام ذهولي اكتشفت أنّ عددًا من زملائي ينتمون هم أيضًا إلى شبكة المقاومة. أثار اعتقال والدي صحوة سياسيّة في داخلي. وكان جورج رجلاً مهمًّا في المجموعة هو ويوحنا إيسا. أُغرْمَ بي حدّ الجنون وحاول أن يجعل منّي نجمة. وقد بعث فيّ هذا الشعور نوعًا من الزّهو. ومن ثمّ جاءتني فكرة إنشاء مدرسة لمحو الأميّة حيث بإمكان الجميع اللقاء دون إثارة الشبهات. وتمّ لي كلّ ذلك».

في إحدى الأمسيات، دخل أماديو إلى القاعة. وبعدها تغيّر كلّ شيء. ضوء جديد غمر الأشياء كلّها. كان الأمر مختلفًا معه. وقد شعرت بذلك منذ المساء الأوّل.

«رغبت فيه. وجافاني النوم بسببه. زرته في عيادته وعدت مرّة أخرى على الرغم من نظرات أخته الحاقدة. كانت به رغبة في أن يضمّني بين ذراعيه، وفي داخله جرف باستطاعته أن ينهار في أيّ لحظة ولكنّه صدّني. جورج، يقول، جورج! وبدأت أكره جورج.

«في إحدى المرّات، قرعت جرس منزل أماديو في منتصف الليل. سرنا في الطرقات، ثمّ سحبني نحو مدخل مبنى. وانهار الجرف. «يجب ألاّ يتكرّر هذا أبدًا»، قال بعد ذلك. وحذّرني من العودة ثانية.

«كان شتاءً طويلاً وموجعًا قاطَعَ فيه أماديو الاجتماعات ومرض فيه جورج بسبب الغيرة.

«سيكون أمرًا مبالغًا فيه لو قلت إنّني أحسست بالمأساة قبل حدوثها. أجل سيكون هذا أمرًا مبالغًا فيه بالفعل. لكنّني خشيت رؤيتهم وقد

ازدادت ثقتهم بذاكرتي». وماذا لو حدث لي مكروه؟ قلت في نفسي غير مرّة».

خرجت إستيفانيا، وعندما عادت بدت ملامحها متغيِّرة كما لو أنّها تتأهّب لإجراء مناظرة، هذا ما جال في خاطر غريغوريوس. يبدو أنّها غسلت وجهها، بينما شُدّ شعرها إذّاك على شكل ذيل حصان. وقفت أمام النافذة وهي تدخّن سيجارة بأنفاس سريعة قبل أن تعود إلى الحديث.

«في نهاية شهر فيفري، وقعت الكارثة. فُتح الباب ببطء أكبر من ذي قبل، دون ضجيج. كان يلبس جزمة، لا يرتدي بذلة رسميّة وإنّما جزمة. جزمته هي أوّل شيء رأيته من الباب الموارب. ثمّ لاح الوجه النافذ اليقظ. كنّا نعرفه، إنّه باداخوت، أحد أزلام موندز. فعلتُ ما نحن متّفقون عليه، وأخذت في الحديث عن حرف ç وشرحه للأمّيّين. لاحقًا ولفترة طويلة، استحالت عليّ رؤية حرف ç دون أن يذكّرني ذلك به. أحدث المقعد صريرًا عندما جلس عليه باداخوت. فرمقني يوحنا إيسا بنظرة تحذير. *الآن، كلّ شيء يتوقّف عليك*، هذا ما قالته لي تلك النظرة، على ما يبدو.

«كنت أرتدي صدريّتي الشفّافة كما هو الحال دومًا. وهي، إن جاز التعبير، لباس العمل الذي يكرهه جورج. وفي تلك اللحظة نزعت سترتي. فمن المتوقّع أن تنقذنا من نظرات باداخوت التي تلتهم جسدي. لكنّه عقد ساقيه بشكلٍ منفّر وأنا أستعدّ لإنهاء الحصّة.

عندما سار باداخوت نحو أدرياوو، أستاذ البيانو، أدركت أنّها النهاية. لم أسمع ما يقولانه لكنّ أدرياوو أصبح شاحبًا بينما ضحك باداخوت هازئًا بمكر.

لم يعد أدرياوو من التّحقيق. لا أعرف ما فعلوا به ولم أره مطلقًا منذ ذلك الحين.

أصرَّ يوحنا على أن أسكن منذ ذلك الوقت فصاعدًا عند عمّته بهدف حمايتي. الأمر يتعلّق بحمايتي. هذا ما قاله. ومنذ الليلة الأولى، أدركت أنّ الأمر جدّيٌّ على الرغم من كونه لا يتعلّق بي أنا شخصيًّا ولكن بذاكرتي قبل كلّ شيء، بكلّ ما يمكن أن تكشفه لهم لو اعتقلوني. وخلال تلك الأيّام، التقيت جورج مرّة واحدة. لم نتلامس، بل إنّنا لم نتصافح. كان موقفًا مخيفًا، ولم أفهم شيئًا. ولم أفهم حقًّا إلاّ عندما أخبرني أماديو لماذا ينبغي عليّ مغادرة البلاد».

ابتعدت إستيفانيا عن النافذة وجلست ثمّ نظرت إلى غريغوريوس.

«ما حدَّثني به أماديو عن جورج شنيعٌ جدًّا وقاسٍ بشكل لا يصدّق، حتّى إنّ ردَّة فعلي لم تتجاوز الضحك من حديثه في البداية. ثمّ هيّأ أماديو سريرًا لي في عيادته قبل أن نغادر في اليوم التالي.

أنا لا أصدّقه، قلت. هو، يقتلني؟ نظرتُ إليه ثمّ أضفتُ: نحن نتكلَّم عن صديقك. تمامًا، ردَّ عليّ بصوت خالٍ من كلّ نبرة.

أردت أن أعرف ما قاله جورج بالتحديد، لكنّ أماديو لم يكن جاهزًا لتكراره.

في وقتٍ لاحقٍ، وبينما أنا مستلقية بمفردي في غرفة الفحص، استعدت في مخيِّلتي كلّ ما عشته في السابق رفقة جورج. *هل استطاع التفكير في شيء من هذا القبيل؟ هل قدرَ حقًّا على التفكير في هذا الأمر؟* شعرتُ أنّني مرهقة وغير واثقة من نفسي. فكّرتُ في غيرته. فكّرتُ في لحظات بدا لي خلالها عنيفًا ولامباليًا حتّى وإن لم يكن ذلك تجاهي أنا. لم

أعد أعرف. لم أكن أعرف.

في تشييع جنازة أماديو، وقفنا بالصدفة جنبًا إلى جنب أمام القبر، هو وأنا، بينما غادر الآخرون.

«لكنّكِ لم *تصدّقي* ذلك لاحقا، أليس كذلك؟» سألني بعد مرور وقت قصير. «*لقد فهمني فهما خاطئا*. إنّه سوء تفاهم. سوء تفاهم بسيط.»

قلت: «الآن لم يعد لهذا أيّ أهميّة».

«افترقنا دون أن يلمس أحدُنا الآخرَ. ولم أسمع عنه أيّ شيء بعد ذلك الحين. هل مازال على قيد الحياة؟»

بعد أن أجابها غريغوريوس، ساد الصمت لحظة، ثمّ وقفت وتناولت من المكتبة نسختها من *بحر الظلمات*، الكتاب الضخم الذي كان موضوعًا على مكتب برادو.

«وهل قرأه حتّى النهاية؟» تساءلَتْ.

ثمّ جلست وهي تحتفظ بالكتاب فوق ركبتيها.

«ببساطة،كان ذلك كثيرًا جدًّا، كثيرًا جدًّا بالنسبة إلى فتاة في الخامسة والعشرين، فتاة كتلك التي كنتُها في السابق: باداخوت، الذهاب إلى منزل عمّة يوحنّا في اللّيل، الليلة التي قضيتها في عيادة أماديو، فكرة جورج المرعبة، الرحلة على متن السيّارة إلى جانب الرجل الذي حرمني النوم. كنت مجنونة!

خلال الساعة الأولى، سرنا دون أن نقول كلمة واحدة. غمرني شعور بالسعادة لقدرتي على التحكّم في المقود وفي معدّل السرعة. يجب

أن نذهب إلى الشمال، إلى غاليسيا ونعبر الحدود. هذا ما قاله يوحنا إيسا.

بعد ذلك، سنذهب إلى رأس فينيستر، أضفتُ قائلة. ورويتُ له قصّة موظّف مكتب البريد الذي كان يتعلّم اللاتينيّة.

«أشار إليّ بأنّ أتوقّف وضمَّني بين ذراعيه. ثمّ طلب منّي ذلك مرّات ومرَّات. انهار الجرف! كان يبحث عنّي. لكنّه لم يبحث عنّي أنا تحديدا، إنّه يبحث عن الحياة! رغب في المزيد منها، وأرادها بشكل أسرع وبشراهة أكبر. ليس لأنّه فظّ وعنيف، على العكس. فقَبْل أن ألتقي به، لم أعرف أنّ حنانًا كهذا يمكن أن يوجد. لكنّه كبّلني بهذا الحنان، استنزفني به، وكان له نهم مماثل للحياة، لدفئها ولإشباع رغباته. وجوعه لعقلي لا يقلُّ عن جوعه لجسدي. أراد أن يعرف كلّ شيء عن حياتي، ذكرياتي وأفكاري، خيالاتي وأحلامي في تلك الساعات القليلة، كلّ شيء. وهو يفهم بسرعة ودقّة منطلقها إشعاري بالخوف بعد أن تثير فيَّ استغرابًا لذيذًا لأنّ سرعة بديهته تهدم كلّ الجدران الواقية.

في السنوات الّتي تلت ذلك، كنت أهرب ما إن يتظاهر أحدهم بفهم ما يدور في خلدي. ثمّ سرعان ما هدأ هذا الهاجس لديّ. لكن بقي شيء واحد فقط: لا أريد أن يفهمني أحد فهما كليّا. أريد أن أعبر الحياة دون أن يعرفني أحد. عَمى الآخرين هو أمانيّ وحريّتي.

يمكن التفكير أنّ أماديو شُغف بي حقًّا فيما مضى، لكنّ هذا لا يعني شيئًا لأنّ ما حصل بيننا ليس *لقاء*. قبل أيّ شيء آخر، وفي كلّ تجربة جديدة، يستنشق *خلاصة الحياة*، الحياة التي لن يكتفي منها أبدًا. وحتّى أعبِّر عن هذا بشكل مختلف، فأنا لم أكن حقًّا *شخصًا مُهمًّا* بالنسبة إليه، أنا مجرّد تجسيد لهذه الحياة التي مدّ يده نحوها كما لو أنّه حُرم منها إلى

حدّ ذلك الوقت، كما لو أنّه أراد أن يعيش مرّة أخرى حياةً كاملة قبل أن يخطفه الموت».

حدَّثها غريغوريوس عن الأنيوريسم وعن خارطة الدماغ.

«يا إلهي!»، ردَّت بلطف.

في رأس فينيستر، جلسا على الشاطئ، بينما لاحت باخرة من بعيد.

«لنركب باخرة، قال، ومن الأفضل أن تكون الوجهة إلى البرازيل. بيليم، ماناواس. الأمازون. هناك حيث الجوّ رطب ودافئ. كم أرغب في الكتابة عن هذا الموضوع، عن الألوان، عن الروائح، عن النباتات اللزجة، عن الغابة العذراء والقاطرة، عن الحيوانات. أنا لم أكتب إلاّ في موضوع الروح»!

«هذا الرجل الذي لم يُشفَ غليله من الواقع». هذا ما قالته عنه أدريانا في السابق.

«ليس هذا ضربًا من الرومانسيّة الراشدة ولا ابتذال رجل طاعن في السنّ. إنّها الحقيقة، إنّه حقيقيّ بعيدًا عن أيّ علاقة بي. أراد أن يصطحبني في رحلة هي بأكملها رحلته هو. رحلته الداخليّة في أرجاء روحه المنسيَّة.

قلت له: أنت ترغب فيَّ بشدَّة، لا أستطيع أن أفعل هذا، لا *أستطيع*».

«خلال الليلة التي سحبني فيها تحت السقيفة، كنت مستعدَّة لأن أتبعه إلى أقصى العالم. لكنّني لا أعرف شيئًا عن جوعه الرهيب. وهذا الجوع إلى الحياة، بدا رهيبًا أيضًا في جزئية مّا. أجل. إنّه عنيف إلى درجة مفترسة ومدمّرة، مرعبة ومخيفة.

لا شكّ أنّني آلمته كثيرًا بهذه الكلمات، بل على نحو فظيع. فما عاد يرغب في أن يقاسمني الغرفة نفسها. وسكنّا في غرفتين منفصلتين.

وعندما التقينا بعد مرور فترة قصيرة، غيّر ملابسه وكانت نظرته هادئة وهو يقف منتصبا، وفي غاية الاستقامة. عندئذ، فهمت كلّ شيء. لقد خلّفت كلماتي عنده شعورًا بأنّه فقد كرامته. وبدت قسوته واستقامته محاولة يائسة ليعلن أنّه استعاد نفسه، ومع هذا لم أرَ ذلك من هذه الزاوية، فلا يوجد أيّ شيء شائن في شغفه ولا في رغبته، الرغبة في حدّ ذاتها لا يمكن أن تكون سببًا يسلب كرامة أيّ شخص.

لم يغمض لي جفن رغم إرهاقي التامّ.

سيظلّ هنا بضعة أيّام، هذا ما قاله لي باختصار في اليوم التالي. وليس أكثر من هذا الاختصار تعبيرًا عن انسحاب داخليّ.

كي يودِّع أحدُنا الآخر، تصافحنا. وعادت نظرته الأخيرة محدِّقة إلى الداخل ثمّ رجع إلى الفندق دون أن ينظر خلفه، وقبل أن أنطلق بسرعة انتظرت دون جدوى إشارة من النافذة.

بعد مرور نصف ساعة لا تُحتمل قضيتها أمام مقود السيّارة، عُدت أدراجي. طرقت الباب فظلَّ واقفا بهدوء على عتبة الغرفة مسالما تقريبًا وخاليًا من أيّ مشاعر. لقد طردني من روحه وإلى الأبد. ولم أعلم قطّ بعودته إلى لشبونة».

- «بعد مرور أسبوع»، قال غريغوريوس.

ناولته إستيفانيا الكتاب وقالت:

«قرأته كلَّه في فترة الظهيرة. في البداية، شعرت بالخوف، لا بسببه هو بل بسببي أنا. لأنّني لم أشكّ لحظة في من يكون وإلى أيِّ حدٍّ بدا واضحًا مع نفسه وصادقًا، صادقًا دون تحفُّظ، بالإضافة إلى قوّته البلاغيّة. شعرت بالخجل لأنّني قلت لرجل مثله: «أنت ترغب فيّ بشدّة» ومع

ذلك، فهمت شيئًا فشيئا أنّني على حقّ في قولي ذاك وكنت سأزداد يقينًا لو اطَّلعت على كتابه آنذاك.

كانت الساعة تقارب منتصف الليل. لكنّ غريغوريوس لم يرغب في المغادرة. بيرن، القطار، الدوار. كلّ هذا بعيدٌ. تساءل كيف لموظفّة مكتب البريد الشابّة التي تعلّمت اللغة اللاتينيّة أن تصبح أستاذةً. لكنّ المعلومات التي قدَّمتها مختصرة، بل غامضة. كان من الممكن أن ينفتح أحدهما تمامًا ليتكلّم عن الماضي البعيد لكنّه يبقى منغلقًا كلّما تعلّق الأمر بالأحداث القريبة جدًّا، وبالحاضر. لقد كان للحميميّة وقتها.

عندما أصبحا قريبين من الباب، حسم أمره وأخرج الظرف مرفوقًا بآخر مقطع لبرادو.

«أعتقد أنّ هذه الجمل تخصُّكِ أنتِ وحدك»، قال.

(51)

توقَّف غريغوريوس أمام واجهة زجاجيَّة لوكالة عقّاريّة. في غضون ثلاث ساعات ينطلق القطار الذي سيقلُّه إلى أيرون وباريس. كانت حقيبته في المحطّة، في صندوق المستودعات تحديدا. ظلّ يقرأ الأسعار ويفكّر في مدَّخراته الماليّة، وفي تعلُّم اللغة الإسبانيّة، اللُّغة التي تركها لفلورانس حتّى الآن. ظلَّ يفكّر في العيش بمدينة مَن اعتبرتْه مثل بطلها المقدّس، وفي حضور حصص إستيفانيا إسبينوسا، في دراسة تاريخ أديرة عديدة، وفي ترجمة دفاتر برادو ومناقشة الجمل مع إستيفانيا واحدة بعد أخرى.

في الوكالة، وقع تنظيم ثلاث زيارات من أجله خلال الساعتين المواليتين. وجد غريغويوس نفسه في شقق فارغة يتردَّدُ فيها الصدى. تثبَّت من الرؤية، ومن ضجيج حركة السير وتخيَّل الحركة اليوميّة عندما وصل إلى الدّرج، وأبدى موافقة شفويّة على شقّتين ثمّ جاب المدينة من كلّ أطرافها في سيّارة أجرة. *«واصل»!* هذا ما قاله للسائق. *إلى الأمام دومًا!*[1]

وأخيرًا، وعندما عاد إلى المحطَّة من جديد، بدأ بِخطإ في صندوق الحقائب واضطُرَّ إلى الركض ليلحق بالقطار.

في مقصورته، غفا ولم يستيقظ إلاّ عندما توقَّف القطار في بلد الوليد. دخلت امرأة شابّة فرفع غريغوريوس حقيبتَها إلى الشبكة. *شكرًا جزيلاً*،

(1) بالإسبانيّة في النصّ الأصلي.

قالت. ثمّ جلست قرب الباب وبدأت تتصفَّح كتابًا باللغة الفرنسيّة. وعندما ثنت ساقيها أحدث ذلك صوت احتكاكٍ حريريّ ظاهر.

نظر غريغوريوس إلى الظرف المختوم الذي لم ترغب ماريا يوحنا في فتحه. «*لن تقرئيه إلاّ بعد وفاتي*»، لكنّني لا أريده أن يقع بين يديْ أدريانا، قال برادو. فضَّ غريغوريوس الختم، أخرج الأوراق وبدأ القراءة.

لِمَ أنتِ من بين جميع النساء؟

سؤالٌ يخطرُ في لحظة مّا للجميع. لماذا يبدو الأمْرُ خطيرًا عندما نتركه يولد، حتّى إن حدث ذلك في صمت؟ ما الذي يجعل إحساس المفاجأة الذي يثيره أمرًا مفزعًا ومختلفًا عن فكرة الاعتباطيّة والصدفة؟ لماذا لا نستطيع التعرّف على هذا الاحتمال وجعله موضوعًا للمزاح؟ ولماذا يذهب في اعتقادنا أنّه يستنزف العاطفة، والأسوأ من ذلك أنّه يمحوها عندما ندركها باعتبارها أمرًا بديهيًا؟

رأيتك تعبرين الصالون، وأنت تمرّين أمام رؤوس المدعوّين وكؤوس الشمبانيا. «إنّها فطيما، ابنتي» قال والدك. «باستطاعتي تخيُّلك وأنت تعبرين منزلي»، قلت لك ونحن في الحديقة. «هل مازلتَ قادرًا على تخيّلي وأنا أعبر منزلك؟» سألتِنِي ونحن في إنجلترا. وأضفتِ ونحن على الباخرة: «هل تعتقد أيضًا أنّ أحدنا خُلق من أجل الآخر؟».

ما من أحد قُدِّر لآخر غيره. ليس فقط لأنّه لا وجود للعناية الإلهيّة وأن لا أحد آخر يقدر على تدبير ذلك، بل لأنّه لا توجد بين البشر قوّة تتخطّى الاحتياجات الطارئة، والقدرة الكبيرة على الاعتياد. خلّفتُ ورائي خمس سنوات من العمل في مصحّة، خمس سنوات

لم يعبر أحد خلالها منزلي. كنتُ هنا بمحض الصدفة وكذلك أنت، وبيننا كؤوس الشمبانيا. هكذا هو الأمر ولا شيء غير ذلك.

لن تقرئي رسالتي هذه، وهذا أمر جيّد. لماذا اعتقدتِ أنّه ينبغي عليك التحالف مع ماما ضدّ إلحادي؟ محامٍ مفترض لن يكون أقلّ قدرة من الوقوع في الحبّ. ولا أقلّ إخلاصًا. بل سيكون عاشقًا.

نزعت المرأة المنهمكة في القراءة نظارتها ومسحتها. وجهها ليس شديد الشبه بوجه البرتغاليّة المجهولة الاسم فوق جسر كرشنفلد، لكنّهما تشتركان في شيء مّا: المسافة اللامتساوية بين الحاجبين وجذر الأنف وقصر أحد الحاجبين مقارنة بالآخر.

بودِّه أن يسألها عن شيء مّا، قال غريغوريوس، عمّا إذا كانت الكلمة البرتغاليّة *Gloria* تعني بالإضافة إلى *المجد*، *«النعيم»* بمعنى الكلمة الدينيّ؟

فكَّرت ثمّ أومأت برأسها إيجابا.

هل في وسع لادينيٍّ أن يستعين بهذه الكلمة إن رغب في الحديث عمّا يتبقَّى من النعيم الدّينيّ عندما ننزع منه النعيمَ الدينيّ ذاته؟

ضحكت وقالت بالفرنسيّة: «كم يبدو هذا مضحكا»!

ولكن.... أجل. أجل.

غادر القطارُ بورغوس. وواصل غريغوريوس القراءة:

موزارت من المستقبل الواعد.

كنت تنزلين الدرج. ومثل آلاف المرّات السابقة، لمحتك وقد غدوتِ مرئيّة أكثر فأكثر، أمّا رأسك فبَقِيَ مختفيا حتّى النهاية خلف قرص الدرج العلويّ. لم أكفَّ عن تخيّل ما ظلَّ مخفيًّا بعدُ وبالطريقة نفسها دومًا. ما نشأ هنا، قُدِّر منذ البدء.

ولكنّ الأمر اختلف فجأة في هذا الصباح. البارحة، رمى الأطفال وهم يلعبون كرتَهم على النافذة، وكسروا الزجاج. كان ضوء الدرج مختلفًا عن العادة، فعوض الانعكاس الذهبيّ الخافت والشبيه بإضاءة كنائسيّة بات ضوء الصباح ينتشر بوضوح. بدا الأمر كما لو أنّ هذا الضوء الجديد سيُحدث خرقًا في انتظاراتي المعتادة، كما لو أنّ شيئًا مّا بدأ ينفتح ويطالبني بأفكار جديدة. انتابني فضول مفاجئ لرؤية أيّ شيء سيشبه وجهك. وجعلني هذا الفضول المفاجئ سعيدا. رغم ذلك، انتفضتُ من الفزع. مرَّت سنوات حمل فيها الزمن فضول العاشق الشابّ وأغلق فيها الباب خلف حياتنا المشتركة. لماذا وجب كسرُ نافذة لأتمكَّن من رَمْقِكِ مرّة أخرى بنظرة ودّية، يا فطيما؟

بعد ذلك حاولتُ معك أنت أيضًا، يا أدريانا. لكنّ حميمّيتنا الصلبة حالت دون ذلك.

لم تبدو النظرة الودّية صعبةً إلى هذا الحدّ؟ نحن مخلوقات كسولة، نحن في حاجة إلى أيّ شيء مألوف بالنسبة إلينا. يبدو الفضول مثل ترف نادر يحجب عمقًا معتادًا. أن تظلّ حازمًا وأن تكون قادرًا على العزف علنًا في كلّ لحظة لهو فنٌّ من الفنون. ينبغي أن تكون موزارت. موزارت من المستقبل الواعد.

سان سيباستيان. نظر غريغوريوس في مؤشّر جدول المواعيد. قريبًا سيضطرّ إلى تغيير الاتجاه نحو إرون وركوب القطار إلى باريس. ثنت المرأة ساقيها وهي تواصل القراءة. وتوقّف هو عند المقطع الأخير في الظرف المختوم.

عزيزتي عازفة الوهم الّذي نخلقه لأنفسنا.

هل إنّ العديد من أمانينا وأفكارنا ستظلّ في العتمة؟ وهل سيعلم الآخرون عن هذا الموضوع أكثر منّا أحيانًا؟ من اعتقد شيئًا مغايرا؟ ما من أحد، ما من أحد يعيش أو يتنفّس مع أحد آخر. نحن نعرف بعضنا بعضًا حتّى أصغر رعشات الجسد والكلمات. نحن نعرف ونريد غالبًا عدم معرفة ما نعرفه لا سيّما عندما تصبح الفجوة بين ما نراه وما يعتقده الآخر كبيرة بشكل لا يحتمل. تلزمنا شجاعة إلهيّة وقوّة إلهيّة لنحيا في انسجام تامّ مع ذواتنا. هذا كلّ ما نعرفه عن أنفسنا أيضًا. وما من داع للعجب.

وماذا لو أنّها كانت عازفة حقيقيّة لأوهام نبتدعها لأنفسنا دومًا قبل محاولة القيام بشيء من الخداع النفسيّ؟ هل كان عليّ أن أتحدّاك وأقول: كلاّ أنت تتوهّمين. أنت لست كذلك؟ هذا هو الشيء الذي أنا مدين لك به. إذا اعتبرنا ذلك دَينًا حقًّا.

من أين لنا أن نعرف ما نحن مدينون به للآخر انطلاقًا من هذا المعنى؟

إرون. *لم نصل إلى أيرون بعدُ.* هذه هي أولى الكلمات البرتغاليّة التي قالها لأحدهم، قبل خمسة أسابيع، وحدث ذلك في القطار أيضًا. ثمّ وقف غريغوريوس وانتزع حقيبة السيّدة من الشبكة.

بعد أن اتخذ مكانًا في القطار المتّجه إلى باريس بوقت قصير، مرَّت المرأة من أمام مقصورته. اختفت من جديد تقريبًا عندما توقّفت، وانحنت إلى الخلف، لمحته، تردّدت لحظة ودخلت، فرفع حقيبتها في الشبكة.

لقد اختارت هذا القطار البطيء لأنّها تريد قراءة هذا الكتاب، قالت إجابة على سؤال غريغوريوس. *صمْتُ العالم قبل الكلمات!* إنّها لا تستمتع بالقراءة إلاّ وهي في القطار، ولم تمتلك هذه القابليّة للتأثّر بكتاب في أيّ مكان آخر. وبالإضافة إلى ذلك أصبحت خبيرة في القطارات البطيئة. هي أيضًا متّجهة إلى سويسرا، إلى لوزان تحديدا. أجل تماما، ستصل غدًا صباحًا إلى جنيف. من الواضح أنّهما اختارا القطار نفسه.

سحب غريغوريوس معطفه على وجهه. لقد اختار القطار البطيء لسبب آخر. هو لا يرغب في الوصول إلى بيرن، ولا يرغب في أن يرفع دوكسيادس سمّاعة الهاتف ويحجز له سريرًا بالمصحّة. كانت هناك أربع وعشرون محطة قبل جنيف، أربعٌ وعشرون فرصة للنزول من القطار.

غرق بسرعة نحو العمق كعادته. كان الصيّادون يضحكون بينما يراقص هو إستيفانيا إسبينوسا في مطبخ سلفيرا. أمّا الكلمة الهوميرية فقد محاها الفراغُ الرنّان لكلّ الأديرة التي دخل عبرها إلى جميع تلك الشقق الشاغرة والمليئة بالصدى.

استيقظ مذعورا. ليسترونْ! ذهب إلى الحمام وغسل وجهه.

وبينما هو نائم، أطفأت المرأة نور السقف وأشعلت لمبتها الصغيرة الخاصّة بالقراءة. كانت تقرأ ولا تقرأ. وعندما عاد غريغوريوس من الحمّام، رفعت عينيها لحظة قصيرة وابتسمت في شرود.

غاص غريغوريوس في معطفه من جديد وتخيّل نفسه القارئة. *كنتُ هنا بمحض الصدفة وكذلك أنت، وبيننا كؤوس الشمبانيا. هكذا هو الأمر ولا شيء غير ذلك.*

بوسعهما أن يستقلاّ معًا سيارة أجرة حتّى محطّة ليون، قالت المرأة

عندما وصلا إلى باريس بعد منتصف الليل بقليل. الكوبول! استنشق غريغوريوس عطرَ المرأة الجالسة إلى جانبه دون أن يرغب في الذهاب إلى المصّحة. لم يرغب في استنشاق هواء المصحّة، الهواء الذي كان عليه أن يشقّ عبره طريقًا عندما زار أبويه المحتضرين في غرفة تتّسع لثلاثة مرضى، غرفة خانقة وشاحبة، غرفة ما تزال رائحة البول تفوح منها رغم التهوئة.

عندما استيقظ خلف معطفه، حوالي الساعة الرابعة، كانت المرأة نائمة وكتابها مفتوح على ركبتيها. أطفأ مصباح القراءة الصغير فوق رأسها، فالتفتَتْ إلى الجانب الآخر وسحبَتْ معطفها على وجهها.

كان الفجر يلوح. ولم يرغب غريغوريوس في أن يلوح الفجرُ.

مرَّ نادل عربة الأكل وهو يجرّ عربة المشروبات. استيقظت المرأة، فناولها غريغوريوس فنجانًا من القهوة. وفي صمت، نظرا إلى الشمس وهي تطلع من وراء ستار رقيق من الغيوم.

من الغريب، قالت المرأة فجأة، أن تعني كلمة *Gloria* شيئين مختلفين تماما: المجد الخارجيّ الصاخب، والنعيم الباطنيّ الصامت. وبعد صمت مؤقّت أضافت: «النعيم، ماذا نقصد بهذه الكلمة في الواقع؟

حمل عنها غريغوريوس حقيبتها الثقيلة عبر محطّة جينيف. وفي السيّارة الكبيرة التابعة للسكك الحديديّة السويسريّة كان الناس يتحدّثون بصوت عالٍ ويضحكون. لاحظت المرأة أنّه غاضب، وأشارت إلى عنوان كتابها ضاحكة وجاراها غريغوريوس في ضحكها. وبينما هو يضحك، أعلن أحدهم في مكبّر الصوت عن الوصول إلى محطّة لوزان فقامت المرأة وأنزل هو الحقيبة. نظرت إليه: «كانت رحلةً جيّدة»، قالت ذلك بالفرنسيّة. ثمّ ذهبت.

فريبورغ. خنق هذا الاسم غريغوريوس. تخيَّل نفسه صاعدًا إلى القصر ونظر إلى الأسفل، إلى لشبونة الليليّة. تخيَّل نفسه جالسًا على متن العبَّارة التي تشقّ نهر تاجة وجالسًا في المطبخ عند ماريا يوحنّا وعابرًا لدير سالامنكا ومتّخذًا له مكانًا في حصّة إستيفانيا إسبينوسا.

بيرن. نزل غريغوريوس، وضع حقيبته وانتظر. وعندما أخذها مرّة أخرى وواصل طريقه، بدا كمَن يتخبَّط في الرَّصاص.

(52)

ترك حقيبته في الشقّة الباردة وذهب بعد ذلك إلى محلٍّ التصوير. في هذه اللحظة، ها هو يجلسُ في الصالون. وبعد ساعتين سيكون بإمكانه الذهاب للإتيان بالصور المحمَّضة. ما الذي سيفعله حتّى ذلك الحين؟

ما تزال سمّاعة الهاتف موضوعة بالمقلوب على المشعب. وذكَّره هذا المشهد بمحادثته الليليّة مع دوكسيادس، تلك المحادثة التي مرَّت عليها خمسة أسابيع والثلج يتساقط. أمّا الآن فالناس يسيرون دون معاطف في نورٍ شاحب لا مجال للمقارنة بينه وبين النّور المنعكس على نهر تاجة.

كان قرص درس اللغة ينتظر على مشغّل الإسطوانات. شغّله غريغوريوس وقارن الأصوات المنبعثة منه بتلك التي استمع إليها في ترام لشبونة القديم. من بيليم ذهب إلى حيّ ألفاما وواصل طريقه عبر الميترو حتّى وصل إلى المعهد.

رنَّ جرس الباب. الحصيرة! إنّها تعرف دومًا من خلال الحصيرة إن كان الجار هنا أم لا، قالت فرولوسلي. أعطته رسالة وصلت البارحة من إدارة المدرسة، بعد أن أرسلت بقيّة البريد على عنوان سلفييرا. إنّه يبدو شاحبا، قالت، هل كلّ شيء على مايرام؟

قرأ غريغوريوس حسابات الإدارة ونسيها على الفور. وصل إلى المصوّر قبل الموعد المحدّد واضطرّ إلى الانتظار ثمّ عاد إلى المنزل شبهَ مهرولٍ.

شريط بأكمله لصيدليّة أوكلّي وضوء الباب فقط. تأخّر دومًا في الضغط على الزرّ. بعد ثلاث محاولات، نجح في التقاط هذه الصور، ورغم كلّ شيء، يظهر الصيدليّ وهو يدخّن بشعره المنفوش وأنفه الكبير وربطة العنق المقلوبة على الدوام.

بدأتُ أكره جورج، قال غريغوريوس في نفسه. فمنذ اطّلاعه على حكاية إستيفانيا إسبينوسا أصبحت نظرة أوكلّي تبدو له ماكرة وسوقيَّة. تمامًا كما في السابق، في نادي الشطرنج، عندما كان أوكلّي ينظر باتجاه الطاولة المجاورة، لكمْ تضايق غريغوريوس بسبب الصوت المقزز الذي أحدثه بيدرو وهو يستنشق رغامه كلّ دقيقتين.

قرَّب غريغوريوس الصور من عينيه. أين اختفت النظرة المتعبة والطيّبة التي لمحها سابقًا على الوجه القرويّ؟ النظرة الطافحة حزنًا بسبب الصديق المفقود. *«كنّا مثل شقيقين، بل أكثر من شقيقين. اعتقدت حقًّا أن لا أحد منّا يقدر على فقدان الآخر»*. لكنّ غريغوريوس ضيَّع النَّظرات الماضية. *بكلّ بساطة لم تكن تلك الصراحة اللاَّمحدودة ممكنة، إنّها تتجاوز قدرتنا. كانت عزلة تفرض الصمت، وهذا يحدث أيضًا*. والآن عادت تلك النظرات الأخرى من جديد.

هل الروح وعاءٌ لوقائع حقيقيّة؟ تساءل برادو. وهذا يجري على النظرات أيضًا، خمَّن غريغوريوس. نظرات لم تكن ظاهرة لكنّنا نقرؤها، نظرات تحتمل التّأويل على الدوام، نظرات لا توجد إلّا إذا أوَّلناها.

صورة يوحنا إيسا، واقفًا في شرفة دار العجَزة عند الأصيل. *لا أرغب في أنابيب ولا مضخّات، لا شيء فقط ليتواصل هذا بضعة أسابيع أو أكثر لا غير*. واستشعر غريغوريوس حرقة الشاي الّذي تجرَّعه من فنجان إيسا.

لم تُظهر صور منزل ميلودي شيئًا في العتمة.

وقف سلفيرا على رصيف المحطّة محاولاً إخفاء سيجارته عن الريح ليتمكّن من إشعالها. إنّه يغادر اليوم من جديد إلى بياريتز. وسيتساءل كعادته لماذا يستمرّ في هذا الأمر؟

تأمَّل غريغوريوس الصور مرّة أخرى. ثمّ أعاد تأمَّلها ثانية. بدأ الماضي في التجمُّد تحت وقع نظرته. الذاكرة ستختار، سترتِّب، ستضع اللّمسات الأخيرة وستكذب. المكر يعني أنّ الحذف والتشوُّهات والأكاذيب لن تُلحَظ لاحقا. لا توجد أيّ وجهة نظر خارج الذاكرة.

ماذا كان سيفعل في ظهيرة عاديّة من أحد أيّام الأربعاء في المدينة التي أمضى بها حياته؟

تذكَّر غريغوريوس ما قاله الإدريسيّ عالم الجغرافيا المسلم حول نهاية العالم. فتناول الأوراق التي سبق أن ترجم عليها هذه الكلمات حول رأس فينيستر إلى اللاتينيّة والإغريقيّة والعبريّة.

وفجأة، عرف ما أراد فعله. لقد رغب في التقاط صور لبيرن، في إيقاف الكون عند المكان الذي عاش فيه كلّ هذه السنوات: المباني، الطرقات، الساحات الّتي كانت أكثر بكثير من إطار لحياته.

في محلّ الصور، اشترى مجموعة من الأفلام. وخلال كامل الفترة التي تسبق غروب الشمس جاب لانغاس، المكان الذي قضى فيه طفولته. في هذه اللحظة، وبينما هو يتأمَّل الطرقات من زوايا مختلفة بانتباهِ مصوّر فوتوغرافيّ، بدت له مختلفة جدًّا. التقط صُوَرًا حتّى في نومه. وفي بعض الأحيان يستيقظ وهو لا يعرف أين كان.

بعد ذلك، عندما جلس على حافّة سريره، لم يعد يعرف إن كان

ما يلزمه ليملك عالَم حياة مّا هو النظرة البعيدة والاستراتيجيّة لمصوِّر فوتوغرافيّ.

استمرَّ في التقاط الصور حتّى يوم الخميس. عندما نزل إلى المدينة القديمة، ركب القطار السلكيّ من رصيف الجامعة ومرَّ عبر المحطّة. وهكذا أمكنه تجنّب ساحة بوبينبرغ. لم يكفّ عن التقاط الصور. ثمّ رأى الكاتدرائيّة بعين مَن لم يرها من قبل. رأى عازف أرغن بصدد التمرين. وعاوده الدوار للمرّة الأولى منذ وصوله، دوار جعله يتشبَّث بمقعد الكنيسة.

حمل الأفلام لتحميضها. وبعد ذلك، عندما ذهب إلى ساحة بوبينبرغ، بدا كما لو أنّه يستجمع قوّته قبل خوضِ مغامرةٍ كبيرة وصعبة. توقَّف أمام المعْلَم. غربت الشمس وجثمت سماءٌ رماديّة بشكل متواصل على المدينة. اعتقد أنّ الشعور بمدى قدرته على وضع قدميه في الساحة من جديد سيعاوده. لكنّه لم يشعر بشيء. لم يكن الأمر كما في السابق ولا شبيهًا بزيارته القصيرة قبل ثلاثة أسابيع. ما كنهُ هذا الشعور إذن؟ وأرغمهُ شعوره بالإرهاق على العودة.

«هل أعجبك كتاب الصائغ؟».

قال كُتبيُّ المكتبة الإسبانيّة وهو يصافح غريغوريوس.

هل أوفى بوعده؟

أجل، ردَّ غريغوريوس، تماما:

قال ذلك بنبرة صارمة. ولاحظ الكُتبيّ أنّه لا يرغب في الحديث فانصرف مسرعا.

في سينما بوبينبرغ، تغيّر البرنامج وألغي الشريط السينمائيّ المستوحى من رواية سيمينون مع جان مورو.

كان غريغوريوس ينتظر صوره بفارغ الصبر، وفجأة دلف كاجي المدير إلى الشارع. فاختبأ في مدخل إحدى المغازات. هناك *أوقات بدت فيها زوجتي على وشك الانهيار*. هذا ما سبق أن كتبه في رسالته. إنّها تخضع الآن للعلاج في مصحّة نفسيّة. بدا كاجي متعبًا ولا يكاد يعي ما يدور حوله. للحظة مّا، شعر غريغوريوس برغبة في الحديث إليه. ثمّ سرعان ما تلاشى ذاك الشعور.

وصلت الصور. اتّخذ له مكانًا في مطعم فندق الواجهة الجميلة وفتح الظروف. كانت صُوَرًا غريبةً عنه، ولا توحي بشيء. أعادها إلى الظروف وخلال الغداء جاهد نفسه دون جدوى في استعادة ما أمله منها.

على الدرج المفضي إلى شقّته، انتابه دوار شديد اضطرّه إلى الاستناد على الدرابزين بكلتا يديه. ثمّ جلس كامل السهرة قرب الهاتف متخيّلا ما سيحدث حتما لو اتّصل بدوكسيادس.

قبل أن يخلد إلى النّوم، شعر بخوف من الغرق كلَّ مرّة في الدوار واللاوعي ومن الاستيقاظ دون ذكريات. وبينما لاح الفجر بطيئا فوق المدينة، استجمع كلّ شجاعته. وعندما وصلت مساعدة دوكسيادس كان واقفًا أمام العيادة.

لحق به الإغريقيّ بعد دقائق. وانتظر منه غريغوريوس أن يبدي استغرابًا حانقًا بسبب النظّارات الجديدة. لكنّ الإغريقي اكتفى بتقطيب أجفانه لحظة، وسبقه إلى قاعة الانتظار وجعل يحدِّثه عن كلّ شيء بخصوص النظّارات الجديدة والدوار.

أوّلًا، لا أرى أيّ داع للفزع، قال أخيرا. ولكن من الضروريّ إجراء سلسلة فحوصات. ويجب أن تبقى فترة في المصحّة تحت المراقبة. ثمّ أشار إلى هاتفه ووضع يده فوقه محدّقًا في غريغوريوس.

تنفّس غريغوريوس بعمق عدّة مرّات ثمّ وافق بإيماءة من رأسه.

سيتمّ قبولك في مساء الأحد، قال الإغريقيّ بعد أن أقفل الخطّ. لا يوجد في العالم كلّه طبيب أفضل من هذا الطبيب الذي سيهتمّ بحالتك، قال.

سار غريغوريوس في المدينة بخطى بطيئة، مارّا أمام عدّة مبان وساحات ذات أهمّيّة عنده. الأمر هكذا حقًّا. تناول فطوره هنا، في المكان الذي اعتاد تناوله فيه... وفي بداية الظهيرة، ذهب إلى السينما حيث شاهد ذات يوم فيلمه الأوّل وهو تلميذ. أشعره الفيلم بالملل ولكنّه وجد فيه رائحة الأمس نفسها، فتابعه حتّى النهاية.

بعودته إلى المنزل، التقى ناتالي روبان.

«نظّارات جديدة!»، تعجّبت على سبيل التحيّة.

لم تكن لهما أيّ فكرة عمّا ينبغي عليهما قوله. فمحادثتهما الهاتفيّة تعود إلى زمن بعيد ولم يتبقَّ منها إلاّ صدى حلم.

أجل، قال، قد يعود إلى لشبونة. الفحص؟ لا. لا. الأمر ليس أكثر من فحص روتينيّ.

توقّفت عن دراسة اللغة الفارسيّة، قالت ناتالي. فهزَّ رأسه إيجابا.

هل اعتادوا على الأستاذ الجديد؟».

سألها بنبرة من يَهمّ بإنهاء محادثة.

ضحكت: «إنّه مملّ، أقسم لك».

التفت كلاهما بعد بضع خطوات، وتبادلا التحيّة بإشارة باليد.

يوم السبت، قضى غريغوريوس ساعات عديدة وهو يمسك كتب اللاتينيّة والإغريقيّة والعبريّة. تأمَّل الملاحظات العديدة الهامشيّة وما طرأ على خطّه من تغيّر على مدى السنين. وفي إطار استعداده للذهاب إلى المصحّة، وضع في النهاية حزمةً صغيرة من الكتب الموجودة على الطاولة في حقيبته. ثمّ اتصل بفلورانس وسألها عمّا إذا كان يمكنه زيارتها.

قبل بضع سنوات ولدت طفلاً ميّتًا وأجرت عمليّة لاستئصال ورم سرطانيّ. ولم يعاودها المرض منذ ذلك الحين. وهي الآن تعمل مترجمة. لم يجدها مرهقة وضعيفة إلى الحدّ الذي تخيّله عندما رآها عائدة إلى منزلها.

حدَّثها عن أديرة سالامنكا.

«في تلك الفترة، لم يكن هذا يثير اهتمامك»، قالت.

وافقها الرأي وشاركها الضحك ولم يخبرها عن أيّ شيء بخصوص المصحّة. لكنّه ندم على صمته بعد ذلك وهو يتّجه نحو جسر كرشنفلد.

تجوَّل مرّة أخرى في المعهد المظلم. وفي الوقت نفسه تذكّر «العهد القديم» الموضوع في مكتب السيّد كورتس والملفوف في كنزته.

في صباح يوم الأحد اتصل بيوحنا إيسا. ما الذي في وسعه أن يفعله الآن في ظهيرة يوم الأحد؟ قال إيسا ورجاه أن يشرح له ذلك.

سأدخل إلى المصحّة هذا المساء، قال غريغوريوس.

«هذا لا يعني شيئًا خطيرًا بالضرورة، أضاف إيسا بعد فترة صمت. ثمّ إنّه ليس في وسع أحد أن يحتجزك هناك».

في فترة الظهيرة، اتصل دوكسيادس وسأله عمّا إذا كان يرغب في المجيء للعب مباراة شطرنج يصطحبه بعدها إلى المصحّة.

هل مازال يفكّر في ترك العمل؟ سأل غريغوريوس الإغريقيَّ بعد نهاية الجولة الأولى. أجل قال الإغريقيّ، هو غالبًا مايفكّر في هذا الأمر. ولكن قد يغيّر رأيه. في الشهر المقبل سيذهب إلى سالونيك أوّلًا. منذ عشر سنوات لم يعد إلى هناك.

انتهت الجولة الثانية وحان وقت الذهاب.

«وماذا لو وجدوا شيئًا خطيرا»؟ سأل غريغوريوس، شيئًا مّا سيتسبَّب في ضياعي». نظر إليه الإغريقيّ نظرة هادئة وحازمة ثمّ قال:

«أملك دفتر وصفات طبيّة».

سارا في صمت نحو المصحّة عند غروب الشمس. *الحياة ليست ما نعيشه، إنّها ما نتخيَّل أنّنا نعيشه*، هذا ما كتبه برادو.

صافحه دوكسيادس قائلا: «سيكون الأمر على الأرجح عرضيًا... والرجل كما سبق أن أخبرتك، هو الأفضل على الإطلاق».

أمام المصحّة، التفت غريغوريوس ملوِّحًا بيده. ثمّ دخل.

وعندما اصطفق الباب خلفه، بدأ المطر في الهطول.

باسكال مرسييه

قطار الليل إلى لشبونة

منذ الصفحات الأولى لقطار الليل إلى لشبونة يُسمع صدى صوت عنيد، يكبر على امتداد الصَّفحات و لا ينفك يردد بأن هذا الكتاب الضخم رواية عظيمة. رواية قادمة من عصر آخر، عصر الإنسانيات قبل أن تدمّر السخرية أو اللامبالاة حبّ المعرفة.

الفيغارو

تتداخل الأحداث والأمكنة والذكريات، وتتدفّق المشاعر والمعارف والأفكار في نهر واحد ليس شيئا آخر سوى نهر الذّات وهي تستيقظ على نداءاتها المكتومة وأسئلتها المهملة: «إذا كنّا لا نعيش إلاّ بجزء صغير ممّا يعتمل في دواخلنا، فما هو مصير بقية الأجزاء إذن؟». سؤال مهمل من بين أسئلة كثيرة أخرى لا يكفّ هذا العمل الساحر عن إيقاظها فينا حتى تغدو حياتنا بأسرها موضع سؤال. ما الأدب إن لم يكن طريقا إلى الإنسان؟ وما قطار الليل إن لم يكن رحلة في خبايا الذات؟ وما الذّات إن لم تكن الفريد والمختلف والغريب في وجه المشترك والمؤتلف والمألوف؟

لا قطار ولا ليل ولا لشبونة، إنّها دعوة لكلّ واحد منّا كي يقتطع تذكرته الخاصّة بحثا عن الإنسان فيه، الإنسان الذي تركه غريبا مُهملا في محطة مهملة على سكّة الحياة.

شوقي العنيزي

ISBN: 978-9938-833-64-5

9 789938 833645